محمد حسنين هيكل

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل

الكتاب الثالث

سلام الأوهام

أوسلو - ما قبلها وما بعدها



محمد حسنين هيكل

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل

٣

دار الشروق

الطبعة الثانية
٢٥ أكتوبر ١٩٩٦

الطبعة الثالثة
١٠ نوفمبر ١٩٩٦

الطبعة الرابعة
٢٥ نوفمبر ١٩٩٦

الطبعة الخامسة
١٠ ديسمبر ١٩٩٦

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف : ٤٠٢٣٣٩٩ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مُحمّد حسَنين هيكل

المفاوضات السِّرّيّة بين العرب وإسرائيل

٣

سلام الأوهام

أوسلو - ما قبلها وما بعدها

- ❑ لماذا رفضت إسرائيل أن تتفاوض مع منظمة التحرير؟
- ❑ كيف تفاوضت منظمة التحرير مع إسرائيل؟

محتويات

الكتاب الثالث

سلام الأوهام

أوسلو - ما قبلها وما بعدها

الفصل الرابع : التفاوض بالهمس !

الفصل الخامس : صيحة "الخطر الإسلامى" !

الفصل السادس : قناة أوســـلو

الفصل السابع : وهكذا صنعوا السلام

الفصل الثامن : الأحلام تنتحر أيضا !

تمهيد

... وهذا هو الجزء الثالث والأخير من كتاب "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" يركز بالدرجة الأولى على الدور الذى قام به الفلسطينيون فى التفاوض بأنفسهم ولأنفسهم .

كان الجزء الأول من هذا الكتاب وعنوانه : "الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية" قد فتح على البدايات الأولى للصراع العربى - الإسرائيلى طوال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين .

ثم جاء الجزء الثانى من هذا الكتاب وعنوانه : "عواصف الحرب وعواصف السلام" ليتعرض لقصة الاتصالات والمفاوضات السرية فى عصر "جمال عبد الناصر" وكيف جرت وقتها بعض المحاولات لإقامة جسور اتصال لم تصل إلى الضفاف الأخرى لأسباب عديدة ، وبالتالى فإن المفاوضات سرية أو غير سرية لم تكن مطروحة . ثم وصلت رواية القصة بعد ذلك إلى زمن الرئيس "أنور السادات" وكيف تمت فيه بالفعل اتصالات تحوّلت بحقائق الأشياء - وأحيانا بقوة الأشياء - إلى مفاوضات وإلى اتفاقات وإلى معاهدات .

وأخيرا يجىء هذا الجزء الثالث من الكتاب وعنوانه : "سلام الأوهام : أوسلو - ما قبلها وما بعدها" - وهو يمسك بخيوط الدور الفلسطينى فى التفاوض من أوله إلى آخره عبر محطات تتباعد المسافات بينها على خريطة العالم : القاهرة - عمان - بيروت - طهران - جنيف - ستوكهولم - أوسلو - واشنطن - غزة .

وتلك كلها محطات متباعدة وبينها مسافات شاسعة ، والسفر يكاد أن يكون مشيا على الأقدام من دروب فرعية معتمة . والرحلة لم تكن متعبة مرهقة طوال الوقت فقط ، وإنما كانت محزنة مأساوية أحيانا . وكانت إسرائيل ترفض من

البداية أن تستقبل منظمة التحرير استقبال متفاوض ، بل أن تعترف بوجودها أصلا كشريك مؤهل للتفاوض .

إن الطرف الإسرائيلى غيّر رأيه فيما بعد وقَبِل المنظمة — بعد سفرها الطويل فى التيه — كشريك بنصيب من نوعٍ ما ، مرشح على الأقل لاختبار التفاوض . لكن ذلك لم يحدث مرة واحدة ، وإنما هو تطور بطىء يمكن رصده كخيط رفيع يسرى فى فصول القصة ينحنى ويتعرج ، ويستدير ويلتوى ، لكن مساره مرئى طوال رحلة العذاب . وربما إن دراسة هذا المسار وما طرأ عليه تجيب على أسئلة كثيرة عن التغيير الذى طرأ على الأحوال : كيف وقع التغيير ؟ ومتى وقع ؟ ولماذا وقع ؟ ومن الذى تغير ؟ ثم ما الذى تغير ؟ - وأهم من ذلك كله : ما الذى بقى ؟!

محمد حسنين هيكل

الكتاب الثالث

سلام الأوهام

أوسلو - ما قبلها وما بعدها

"للحقيقة وجهان ، والثلج أسود فوق مدينتنا
لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا ، والنهاية تمشى
إلى السور واثقة من خطاها
فوق هذا البلاط المبلل بالدمع ، واثقة من خطاها
من سيُنزل أعلامنا : نحن ، أم هم ؟ ومن
سوف يتلو علينا "معاهدة الصلح" ، يا ملك الاحتضار
كل شيء معد لنا سلفا ، من سينزع أسماءنا
عن هويتنا : أنت أم هم ؟ ومن سوف يزرع فينا
خطبة التيه : "لم نستطع أن نفك الحصار
فلنسلم مفاتيح فردوسنا لوزير السلام ، وننجو ..."
للحقيقة وجهان ، كان الشعار المقدس سيفا لنا
وعلينا ، فماذا فعلت بقلعتنا قبل هذا النهار ؟
لم تقاتل لأنك تخشى الشهادة ، لكن عرشك نعشك
فاحمل النعش كي تحفظ العرش ، يا ملك الانتظار
إن هذا السلام سيتركنا حفنة من غبار ...
من سيدفن أيامنا بعدنا : أنت ... أم هم ؟ ومن
سوف يرفع راياتهم فوق أسوارنا : أنت .. أم
فارس يائس ؟ من يعلق أجراسهم فوق رحلتنا
أنت ... أم حارس بائس ؟ كل شيء معد لنا
فلماذا تطيل التفاوض ، يا ملك الاحتضار ؟"

(محمود درويش
الشاعر الفلسطينى الكبير)

الفصل الأول

حرب التوريط

هناك أمة عربية
لها كل مقومات الأمة ،
لكن هناك في هذه الأمة
شعوبا لدى كل منها خصائصه الذاتية ،
فالعائلة الواحدة أفراد لكل منهم أسبابه .
والمشاكل تبدأ حينما تنسى العائلة رابطتها
أو ينسى الأفراد انتماءهم
ثم يصبح جذع الشجرة بغير فروع
أو تصبح الفروع بغير جذع ثابت
في الأرض متين !

١

فتح

" أريد رصاصة فلسطينية واحدة كل يوم يدوى صوتها فى الأرض المحتلة "

("جمال عبد الناصر" لـ "ياسر عرفات" فى أول لقاء بينهما)

عندما تحولت قضية شعب فلسطين إلى قضية الأمة العربية كلها — فإن ذلك التحول كان هو التعبير الواقعى والرمزى الذى احتوى كل "المقدسات : المحرمات" . لم تعد القضية هى النزاع الفلسطينى الإسرائيلى ، وإنما أصبحت الصراع العربى ـ الإسرائيلى .

وعندما أخذت مصر دورا رئيسيا فى هذا الصراع ، فإن ذلك لم يكن تطوعا بالخير ، وإنما كان ضرورة تمليها الحقائق التاريخية ، والاستراتيجية ، وأسباب القوة باختلاف أنواعها ، والتماسك الاجتماعى لكتلة إنسانية حية تدرك أهمية موضعها وموقعها ، حتى وإن كان إدراكها ـ أحيانا ـ بالحدس أكثر منه باليقين .

وكان ذلك منطقيا ، لكن بعض التحوط كان واجبا حتى تظل النقطة المباشرة للصراع مذكورة لا تضيع ، ومرئية لا تختفى — بمعنى أنه كان لا بد للبؤرة الفلسطينية التى يدور حولها الصراع العربى ـ الإسرائيلى أن تظل ظاهرة بملامحها وقسماتها . وهكذا فقد كانت هناك محاولات مستمرة لإبراز الوجه الفلسطينى فى الصراع ، وكان ذلك يعنى أن هذا الوجه نفسه ـ فلسطين ـ يجب أن يكون له كيان محدد ، موجود ومستقل .

وكان الخوف دائما أن فلسطين — الاسم والكيان — مزقتها وبعثرتها الحوادث : الجزء الأكبر أصبح اسمه إسرائيل — والجزء الآخر ألحق بالأردن تحت الوصف الجغرافى "الضفة الغربية للأردن" — وجزء ثالث ـ قطاع غزة — وُضع وديعة تحت إدارة مصرية مؤقتة .

وكانت هناك دائما محاولة لتلبية الحاجة إلى إبراز فلسطين اسما وكيانا ، وهكذا جرى إنشاء ما يسمى بـ "حكومة عموم فلسطين" ، ولم تنجح المحاولة لأسباب كثيرة .

ومع ظهور الحركة القومية العربية بعد ثورة ١٩٥٢ ، فقد كانت هناك مخاوف ذات طبائع متعددة :

- كان هناك أن القيادات الفلسطينية التاريخية التى ارتبطت بسنوات الكفاح — مثل الحاج "أمين الحسينى" مفتى القدس — قد ابتعدت عن الساحة إما بأحكام العمر أو اختبارات الحوادث .

- وكان هناك أن قضية فلسطين أصبحت مطية المطامع والدعاوى المتعارضة : الحزبية والتقليدية ، التقدمية والقبلية ، إلى آخره مما ظهر فى العالم العربى وراح يبحث عن مصداقية تمنحها له قضية كبرى شرعية .

- وكان هناك أيضا أن الشعب الفلسطينى أخذ يعتاد أن يترك الجزء الذى يخصه من القضية العامة للآخرين ، وتزايد اعتماده عليهم إلى درجة يمكن أن تنسحب معها هويته كتركيب اجتماعى وثقافى وسياسى له خصائصه الذاتية .

وفى مؤتمر القمة العربى الأول فى القاهرة — يناير ١٩٦٤ — تقدمت مصر باقتراح إنشاء كيان فلسطينى مستقل باسم منظمة تحرير فلسطين ، وكان الاسم إلى جانب تجسيده للكيان يحمل إشارة لها قيمتها فى عصر تعددت فيه حركات تحرير الشعوب ، خصوصا فى أفريقيا . وكان الرجل الذى وقع عليه اختيار مؤتمر القمة لرئاسة منظمة تحرير فلسطين مرشح شبه إجماع على اتصال بكل الأطراف المؤثرة عربيا : مصر والسعودية وسوريا ، وهو الأستاذ "أحمد الشقيرى" . ثم إنه كان شخصية معروفة دوليا بحكم أنه كان سفيرا فى مرحلة من المراحل لسوريا وللسعودية لدى الأمم المتحدة .

وعندما حلت ظروف سنة ١٩٦٧ ، ومن نتيجتها أن أرض فلسطين كلها أصبحت تحت الاحتلال الإسرائيلى ، فإن الأزمة العربية العامة وحتمية تجاوزها بالعمل المسلح عكست نفسها على منظمة التحرير ، وأصبحت هناك حاجة إلى تغييرات فى منظمة التحرير — بما فى ذلك قيادتها حتى تكون أقدر على تمثيل الظروف الجديدة . وكانت هناك بالفعل عناصر جاهزة لهذه المسئولية رغم تحفظات كانت قائمة عليها .

ذلك أنه فى فترة الستينات ، وقبل وبعد إنشاء منظمة التحرير ورئاسة السيد "أحمد الشقيرى" لها — ظهرت فى المحيط الفلسطينى داخل الأرض المحتلة وخارجها مجموعة من التنظيمات الشعبية أخذت بمذهب القتال المسلح لإنقاذ فلسطين ، وكانت حركة "فتح" من أظهر هذه التنظيمات على الساحة .

بدأت حركة "فتح" بلقاء مجموعة من الشباب الفلسطينى العامل فى الكويت ، معظمهم من العاملين بالتجارة أو المشتغلين بالتدريس ، وأكثرهم سبق له الاتصال بحركة أو تنظيم سياسى من تلك التى ملأت ساحة العمل العربى أيامها إبتداء من جماعة الاخوان المسلمين ، إلى حزب البعث ، إلى حركة القوميين العرب .

وكان أبرز هذه المجموعة من الشباب : "ياسر عرفات" (مهندس فى مكتب مقاولات) ، و"صلاح خلف" (مدرس رياضيات) ، و"خالد الحسن" (وكيل توزيع شركة للأدوات الكهربائية) ، و"خليل الوزير" (مدرس علوم) ، و"فاروق قدومى" (مدرس رياضيات) . وكان هناك آخرون من نفس النوع ونفس المحيط . واستطاع هؤلاء أن يشدوا إلى جوارهم مجموعة من الشباب المتحمس وقرروا إنشاء ما أسموه "حركة تحرير فلسطين" . وأرادوا أن يرمزوا لاسمها اختصارا بالحروف الأولى من كلماتها وهى "ح ـ ت ـ ف" ، ووجدوا أن هذا الاختصار الرمزى سوف ينطق مع التداول العام "حتف" (ومعناها "موت") ، واختاروا أن يقلبوا الحروف بجعل آخرها أولها ، وأولها آخرها ، لتصبح "فتح" ، وتصوروا أن ذلك يعطى للحروف المختصرة للاسم معنى معبأ بالإيحاءات فى اللغة العربية .

وبدأت مجموعة "فتح" تبحث عن موقع لنشاط مسلح تقوم به ضد إسرائيل ، واختارت بحكم ذلك أن تبدأ من سوريا ، ووقتها كان حزب البعث فى الحكم ، وكان القائم بأعمال رئيس الدولة هو اللواء "أمين الحافظ" ـ الذى كان من رأيه أن تسارع الدول العربية بهجوم مسلح على إسرائيل بقصد تصفيتها سريعا قبل أن يتنبه العالم ، وتتنبه الولايات المتحدة الأمريكية . وكان اللواء "أمين الحافظ" قد قدم اقتراحا بهذه الفكرة إلى مؤتمر القمة العربى الثانى فى الإسكندرية (سبتمبر ١٩٦٤) . وكان لمصر رأى مختلف ، فقد اعتبرت أن هدف هجوم خاطف على إسرائيل قبل أن يتنبه العالم ، وتتنبه أمريكا ، هو هدف يتخطى إمكانيات الدول العربية فى ذلك الوقت ، وقد يؤدى إلى كارثة بدل أن يؤدى إلى نصر .

وفى تلك الأجواء فإن الدكتور "جورج حبش" زعيم حركة القوميين العرب أبلغ الرئيس "جمال عبد الناصر" عن قيام حركة "فتح" وعن نيتها فى بدء أعمال مناوشات مسلحة ضد إسرائيل من الجبهة السورية . وكان رأى "جمال عبد الناصر" وقد كتبه بخط يده على هامش مذكرة أرسلها له الدكتور "جورج حبش" ـ "إنه يرى تأجيل هذا الموضوع بسبب انشغال القوات المصرية فى ذلك الوقت بعمليات واسعة فى اليمن ، وإن الظرف قد لا يكون مناسبا لمناوشات على الجبهة السورية تتسع وتفرض على مصر أعباء لا تحتملها الظروف فى ذلك الوقت" . لكن "فتح" بدأت بمباشرة بعض العمليات ذات التأثير المحدود ضد مواقع إسرائيلية من الجبهة السورية . وهى عمليات استوجبت ردود فعل وجدت فيها القاهرة علامة تصرف غير مسئول فى وضع غير ملائم . لكنها لم تعلق عليها

تحسبا منها أنها لا تستطيع أن تحجب حق أية عناصر فلسطينية فى المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلى .

وربما أن ما كانت القاهرة تجهله فى ذلك الوقت هو أن هذه العمليات كانت تجرى بتعمد مقصود من جانب عناصر فى القيادة السورية الحاكمة فى دمشق وقتها . ومن المفارقات أن هذه العمليات ذات التأثير المحدود كانت تسمى اصطلاحا فى التعامل بين فتح وقيادة النظام فى دمشق أيامها باسم "حرب التوريط" . وكان المقصود بالتعبير هو توريط مصر فى معركة مع إسرائيل بأى شكل . وكانت قيادة "فتح" من جانبها مسوقة إلى المشاركة فى "حرب التوريط" بتصورات خاطئة لديها مفادها أن مصر بعد حرب السويس ركزت اهتمامها على قضايا التنمية الداخلية ، واهتمت بحماية سوريا إلى درجة قبول الوحدة معها ، وإن ذلك صرفها عن الاهتمام بمشكلة فلسطين .

ونسيت قيادة "فتح" فى ذلك أن القوة الذاتية المصرية ، زائدا عليها صلة وثيقة تكاد تكون عضوية مع سوريا ، هى فى الواقع خطوات مؤثرة وفاعلةمن أجل فلسطين من حيث إنها استعادة عربية مبدئية لتلك الزاوية العتيدة من شرق البحر الأبيض المتوسط، وتنبيه يقظ لـ "مقدسات : محرمات" استقرت فى ضمير الأمة وفى وجدانها .

ثم كان أن تطورت الأمور بعد ذلك إلى ما تطورت إليه فى سنة ١٩٦٧ . وربما أن "حرب التوريط" ساهمت بدورها فى تشكيل الظروف التى أدت إلى معركة سنة ١٩٦٧ ، خصوصا فيما يتعلق بالتوقيت . وكانت النتيجة ــ بصرف النظر عن أى توزيع للمسئوليات ــ أن العالم العربى وجد نفسه يواجه محنته الثانية بعد سنة ١٩٤٨ .

ولم تكن هناك فائدة فى كل الأحوال من توزيع المسئوليات ، وإنما كان المهم أن تتجمع كل عناصر المقاومة الكامنة فى الأمة لتقف جبهة واحدة فى مقاومة العدوان .

فى ذلك الوقت كان الذين استعملوا "فتح" فى "حرب التوريط" من قواعد سوريا قد بدءوا يحصرون نشاطها إلى حد الأسر . ثم إن العناصر التى حرضت ودفعت إلى "حرب التوريط" بدأت تتوارى عن مواقع القيادة فى دمشق بعد إدراك لخطر ما قامت به من مغامرات غير مسئولة ، وعن تخوف مستجد من أن أى ممارسة لمثل هذه المغامرات فى الظروف المتغيرة بعد ١٩٦٧ يمكن أن تؤدى إلى أوخم العواقب .

وهكذا بدأت "فتح" تبحث عن مجال آخر تتواجد فيه على الأقل . ولم يكن أمامها غير القاهرة التى كانت فى الواقع مقر القيادة العليا لعملية المواجهتين العسكرية والسياسية ضد العدوان الإسرائيلى . وحينما بدأت "فتح" تطرق أبواب القاهرة من المسالك التقليدية ، فقد بدت كل الأبواب مغلقة أمامها . وكانت كل الأجهزة الرسمية المختصة فى ذلك الوقت

معبأة ضد حركة "فتح" ، وفى تقدير هذه الأجهزة أن حركة "فتح" إما متأثرة بالإخوان المسلمين ، وإما متواطئة مع حزب البعث . وتكررت طرقات حركة "فتح" على الأبواب المصرية ، وتكرر صدها عن هذه الأبواب . ثم كان أن أرسلت حركة "فتح" فى سبتمبر ١٩٦٧ أحد مؤسسيها وهو "خالد الحسن" كمبعوث إلى القاهرة لمقابلة "محمد حسنين هيكل" ليتولى عرض قضيتهم على "جمال عبد الناصر"

ولم يجادل "خالد الحسن" كثيرا فى أن حركة "فتح" كان لها نصيبها فى الأخطاء التى أدت إلى ١٩٦٧ . كذلك لم يجادل فى وجود تأثيرات للإخوان المسلمين وللبعث على بعض قيادات الحركة وتوجهاتها . ثم اقترح "خالد الحسن" أن يجيء قادة "فتح" إلى القاهرة ، وأن يقابلوا "محمد حسنين هيكل" وأن يسمع منهم جميعا . وبالفعل وصل إلى القاهرة كل من "ياسر عرفات" و"أبو إياد" و"فاروق قدومى" . وطالت الأحاديث معهم إلى ساعات متأخرة من الليل . وتحدث "محمد حسنين هيكل" إلى "جمال عبد الناصر" فى تفاصيل ما دار . وكان "جمال عبد الناصر" على استعداد لأن يفتح صفحة جديدة لهدف لديه ، هو أنه يريد أن تظهر مقاومة فلسطينية مسلحة داخل الأرض المحتلة لكى يتبدى للعالم أن الشعب الفلسطينى موجود وحى ومشارك فى الدفاع عن وطنه وقضيته .

وفى أحد أيام وجود قيادة "فتح" فى القاهرة (أكتوبر ١٩٦٧) أخطرهم "محمد حسنين هيكل" أنهم سوف يقابلون شخصية هامة . وكانت مفاجأتهم كاملة حينما أخذهم "هيكل" معه فى سيارته ، وإذا هى تتجه إلى منشية البكرى ثم تدخل بيت "جمال عبد الناصر" . ولم يكن أى منهم على استعداد .

كان لقاء قيادة "فتح" مع "جمال عبد الناصر" حاسما بالنسبة لدورها فى الصراع العربى ــ الإسرائيلى . فاعتراف "جمال عبد الناصر" بحركة "فتح" أعطاها شرعية منحتها مكانة تقدمت بها على غيرها من المنظمات الفلسطينية . وكان مجمل ما جرى فى هذا اللقاء هو أن "جمال عبد الناصر" وعد بتقديم كل المساعدات المكنة لـ "فتح" فى مقابل مطلب واحد ، وهو أن تنطلق ولو رصاصة واحدة كل يوم فى الأرض المحتلة بحيث يسمع صوتها ويذيع خبرها ، ويكون من ذلك رمز لوجود مقاومة فلسطينية فى الأرض المحتلة .

وانتهى الاجتماع بتكليف اللواء "محمد أحمد صادق" وهو مدير المخابرات العسكرية فى ذلك الوقت (ووزير الحربية فيما بعد) بلقاء قادة "فتح" والتنسيق معهم فيما يحتاجون إليه فى مجالات التسليح والتدريب والتمويل .

وبدأت حركة "فتح" تنظم صفوفها وتقيم لنفسها قواعد للعمل حيث استطاعت قرب الأرض المحتلة ، خصوصا فى الأردن وهو أعرض جبهة مواجهة مع إسرائيل ، ثم إنها

كانت الجبهة المفتوحة بخلاف الجبهة المصرية التى كانت صحراء سيناء مساحة مكشوفة جرداء يصعب العمل المسلح منها أو الوصول إلى الأرض المحتلة عبرها .

□

كانت الخطوة التالية إضفاء نوع من الشرعية الرسمية على حركة "فتح" بحيث يكون تمثيلها ، ولو لجزء من شرعية العمل الفلسطينى ، مؤكدا ومعترفا به .

وفى ذلك الوقت كانت منظمة التحرير الفلسطينية تواجه أزمة داخلية سببتها تمزقات العمل الفلسطينى فى الظروف المستجدة بعد سنة ١٩٦٧ . فقد انقسمت اللجنة التنفيذية للمنظمة إلى جناحين : أولهما جناح السيد "أحمد الشقيرى" الذى يرى أن تستمر منظمة التحرير الفلسطينية فى عملها كما تعودت عليه فى الظروف السابقة تاركة للدول العربية مهمة إزالة آثار العدوان أولا – وجناح آخر يرى ضرورة تعبئة العمل الفلسطينى ، وحقنه بجرعة من الثورية المسلحة تسمح له بالمشاركة فى القتال المسلح ضد إسرائيل . وكان مما يساعد هذا الجناح الأخير أن أصداء مدافع حرب الاستنزاف كانت تتجاوب فى آفاق المنطقة داعية كل القوى إلى الاشتراك فى المعركة أو الاقتراب من أجوائها . ووصل الخلاف فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى درجة الأزمة ، وجرى تبادل اتهامات شديدة بينها أن "الشقيرى لم يعمل على تطوير المنظمة ثوريا" ، ثم إنه "نسب إلى المنظمة عمليات عسكرية قام بها الفدائيون فى الأرض المحتلة دون أن تكون للمنظمة علاقة بها" ، كما أنه "يمارس سياسة تتسم بالتسلط الفردى معتبرا نفسه رئيس دولة أكثر منه رئيس منظمة تعمل للتحرير" .

إن الخلاف انفجر أثناء دورة للمؤتمر الوطنى الفلسطينى عقدت فى مبنى الجامعة العربية فى القاهرة فى شهر ديسمبر ١٩٦٧ . وبرغم كل المحاولات التى قام بها السيد "أحمد الشقيرى" لاحتواء الأزمة ، فإنه اضطر إلى تقديم استقالته يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٧ ، وكان نصها :

"أقدم استقالتى إلى الشعب الفلسطينى ، الشعب الأسير الشريد المهاجر الطريد . وأقدم استقالتى كذلك إلى الفدائيين الأبطال الذين يخوضون فى هذه الأيام غمرات النضال على أرض الوطن الحبيب . وأبتهل إلى الله العلى القدير أن يحفظ شعب فلسطين ويحفظ قضيته ، وأن يصون نضاله ويصون منظمته ... والحمد لله أولا وأخيرا ."

ثم وجــه السـيد "أحمـد الشـقيرى" خطابـا إلى الأمـين العـام للجامعـة العربيــة السـيد "عبد الخالق حسونــة" ــ قــال فيــه :

"تحيـة العروبـة والتحريـر وبعد ،

لقد وجهـت فى هذا اليوم رسالـة إلى الشعـب الفلسطيـنى أعلـن إليـه استقالـتى من رئاسـة منظمـة التحريـر الفلسطينيـة . وإنى أبعـث لسيادتكم كتـابى هـذا معربـا عن استقالتى كممثل لفلسطـين فى مجلس جامعـة الـدول العربيـة .... "

وانفتـح الطريق أمام منظمة "فتــح" لتصبـح الفصيـل الرئيســى فــى منظمــة التحـريــر ، وكان ذلك يلقـى دعمـا وتأييـدا من مصــر . ولم تمض غير فترة قليلة على ذلك الانقـلاب فى المنظمة حتى أصبح "ياسـر عرفــات" رئيســا لهــا . وكــان أول بيــان صــدر عـن اللجنــة التنفيذيـة برئاسته بيـانا بـدا وكأنه يتنبـأ بالمستقبـل ، فقد جـاء فيـه :

"تسعـى الحركة الصهيونية والاستعمار وأداتهما إسـرائيل إلى تثبيـت العـدوان الصهيونى على فلسطـين ــ بإقامة كيان فلسطينى فى الأراضـى المحتلة بعد عــدوان ٥ حزيران (يونيـو) ــ كيان يقـوم على إعطاء الشرعية والديمومة لدولـة إسـرائيل ، الأمـر الذى يتناقض كليا مع حـق الشعـب الفلسطينى فى كـامل وطنــه فلسطـين . إن مثل هذا الكيان المزيـف هو فى حقيقة حالـه مسـتعمرة إسـرائيلية ، يصفـى القضيـة الفلسطينية تصفية نهائية لمصلحة إسـرائيل . وهـو فـى نفس الوقت مرحلـة مؤقتـة تتمكن فيها الصهيونية من تفريغ الأراضـى الفلسطينية المحتلة مـن السكان العــرب تمهيدا لدمجها دمجـا كامـلا فى الكيان الإسرائيلى . هــذا بالإضافـة إلى خلــق إدارة عربيــة فلسطينيـة عميلــة فــى الأرض المحتلـة تسـتند إليهـا إسـرائيل فـى التصـدى للثـورة الفلسطينيـة ."

□

لقد طرأت بعد ذلك مرحلة ثانية كان ضروريا فيها تقديم منظمة التحرير الفلسـطينية إلى المجتمع الدولـى لكى تكتسب شرعية قبول الرأى العـام العـالمى بمثـل مـا اكتسـبت الشـرعية الفلسطينية والشرعية العربيـة . وكان لا بد أن تمارس هذه العملية بطريقـة محسوبـة .

وفى أغسطس ١٩٦٨ اقترح "محمد حسنين هيـكل" على الرئيس "جمال عبد الناصـر" أن يأخـذ "ياسر عرفـات" معه فى رحلتـه المقـررة إلى الاتحـاد السوفيـتى ، وذلك لتقديم المنظمــة

إلى القيادة السوفيتية باعتبارها حركة تحرر وطنى للشعب الفلسطينى تستحق تأييدهم . وبالفعل جرى إلحاق السيد "ياسر عرفات" بالوفد المصرى المسافر إلى موسكو، وكان إلحاقه تحت وصف "مستشار للوفد" بجواز سفر مصرى لمهمة باسم "عبد الفتاح إبراهيم" ... وكان الهدف من الاسم المستعار ألا تتنبه إسرائيل إلى عملية إقامة اتصال بين منظمة التحرير والاتحاد السوفيتى وقيادته .

وفى نهاية الاجتماع الأول الرسمى بين الرئيس "جمال عبد الناصر" والقيادة السوفيتية، وفيها ذلك الثلاثى المشهور : "بريجنيف" و"كوسيجن" و"بادجورنى" — فتح الرئيس موضوع منظمة التحرير الفلسطينية وأشار إلى وجود رئيسها "ياسر عرفات" معه ضمن أعضاء الوفد . وأبدى القادة السوفيت الثلاثة تحفظا واضحا إزاء ما سمعوه . ثم عبر "كوسيجن" عن رأيهم حين قال إنه "يخشى أن يكون عرفات شخصا مغامرا ، وهم لا يعرفون شيئا عنه ، وقد رصدوا نشاطا لمجموعته فى سوريا وكان حكمهم عليها أنها جماعة غير مسئولة . وفى كل الأحوال فإن الاتحاد السوفيتى يصعب عليه أن يتعامل معهم كحركة تحرير وطنى ."

وظل "جمال عبد الناصر" يضغط . وعلى غداء أقامه للقيادة السوفيتية فى اليوم الأخير من الزيارة كان "ياسر عرفات ضمن المدعوين . وفى نهاية الغداء ، وبعد حديث مع القيادة السوفيتية ، أشار "جمال عبد الناصر" إلى "محمد حسنين هيكل" الذى قام من مكانه واصطحب "ياسر عرفات" إلى حيث كان الرئيس والقادة السوفيت يتأهبون للخروج من قاعة الغداء . وتم تقديم "عرفات" إليهم . وكان كل ما أمكن التوصل إليه هو أن "بريجنيف" طلب إلى "ياسر عرفات" أن يتوجه إلى مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى لكى يقابل "الرفيق مازاروف" عضو المكتب السياسى المسئول عن حركات التحرر الوطنى فى العالم ، ويتحدث معه بما يريد .

واعتبر ذلك خطوة متقدمة . وفى اليوم التالى لم يكن "مازاروف" مستعدا أن يقابل "ياسر عرفات" بنفسه ، وأحاله إلى نائبه "بوريس باناماريوف" الذى بدا أنه يستجوب "ياسر عرفات" بمجموعة طويلة من الأسئلة :

"من أنتم ؟ — ماذا تريدون ؟ — بأى الوسائل تريدون تحقيقه ؟ — ما رأيكم فى قرار مجلس الأمن ٢٤٢ للحل السلمى ؟ — كيف ترون مستقبل إسرائيل ؟"

وطالت المناقشة لمدة ساعتين وربع الساعة .

وفى الاجتماع الأخير للقادة السوفيت مع "جمال عبد الناصر" قبل مغادرته موسكو ، أبلغه "بريجنيف" أنهم "سوف يبحثون موضوع منظمة التحرير على ضوء تقرير

باناماريوف، وسوف يفكرون فيما يمكن عمله في هذا الشأن ، وسوف يبلغونه رأيهم النهائى عن طريق غير رسمى ." وعلى هذا الأساس فإن ردهم سوف يذهب إلى "سيرجى فينوجرادوف" (سفيرهم ذلك الوقت فى القاهرة ، وهو غير خلفه الذى يحمل نفس الاسم "فلاديمير فينوجرادوف") ليقوم بإبلاغ هذا الرد إلى "محمد حسنين هيكل" باعتباره حلقة الوصل بينهم وبين "جمال عبد الناصر" لأنهم حتى الآن لا يريدون أن يتعاملوا فى شأن المنظمة مع مصر عن طريق "حكومة إلى حكومة" .

وبعد ثلاثة أسابيع طلب "سيرجى فينوجرادوف" موعدا مع "محمد حسنين هيكل" . وجاء السفير السوفيتي إلى الموعد ومعه ورقة بحجم ربع صفحة من القطع العادى تحتوى على قائمة ببعض الأسلحة (منها مدافع مضادة للطائرات) تصل تكاليفها إلى نصف مليون روبل . وقال "سيرجى فينوجرادوف" إنه "لولا تدخل عبد الناصر لما فكرت القيادة السوفيتية فى التعامل مع عرفات وزملائه ، لكنهم تقديرا لتدخل الرئيس وافقوا وقرروا تقديم هذه الأسلحة التى تحتويها القائمة ."

وكانت القيمة المعنوية لاستجابة الاتحاد السوفيتي أهم بكثير من أسلحة تساوى نصف مليون روبل . وكان "عرفات" ومعه "صلاح خلف" فى شدة السعادة لهذا المعنى بالذات حين تم تسليم قائمة الأسلحة إليهما .

وأدى هذا التطور إلى إضفاء قيمة خاصة على "فتح" ميزتها عن بقية فصائل المقاومة الفلسطينية . فتعامل مصر معها أكسبها قوة عربية ، ثم إن اتصالها على نحو ما بالاتحاد السوفيتي وفر لها مجالا أوسع للحركة العالمية . وربما ساعدها على ذلك أن عددا من المنظمات الفلسطينية كانت قد تحولت من فكرة القومية العربية إلى الماركسية (كما حدث لحركة القوميين العرب) .

وبدأت التناقضات تظهر فى الساحة الفلسطينية نفسها بين "فتح" وبين بقية فصائل الثورة الفلسطينية . وفى نفس الوقت وبالتوازى مع ذلك فقد بدأت التناقضات تظهر فى عمان بين قوى الثورة الفلسطينية مجتمعة وبين الحكومة الأردنية التى وجدت منظمات المقاومة الفلسطينية المتنافسة فيما بينها تخلق دولا داخل الدولة فى الأردن .

وهكذا ، وفى سبتمبر ١٩٧٠ ، انفجرت هذه التناقضات المتشابكة وأدت إلى ما عرف بحوادث "أيلول الأسود" فى عمان .

وكان "جمال عبد الناصر" معنيا بالأمر فى إطار استراتيجيته لإقامة جبهة شرقية مرتكزة على سوريا وتجتذب ما حولها ، بينما التخطيط والإعداد

للمعركـة يتقـدمان . وكـان "جمـال عبد الناصـر" يواجـه مشكلـة محـيرة واقعـة فـى صمـيم نطـاق الجبهـة الشرقيـة :

- فهو من ناحية يـرى أهميـة المحافظة على قـوة وتماسك عناصر المقاومة الفلسطينية.
- وهو من ناحية ثانية يـرى حـق الملك "حسين" فى طلـب سيادة الدولـة الأردنيـة علـى أراضيهـا ، خصوصا وأن أية أعمال غير مسئولـة قد تفتح الباب لاحتمالات خطيرة، بما فى ذلك احتمال اجتياح إسرائيلى يندفـع نحو الضفـة الشرقيـة للأردن .

مضافا إلى ذلك فإن علاقة مصـر بفصائل الثـورة الفلسطينية ، وبينهـا "فتـح" نفسـها ، كانت تمـر فى ذلك الوقت بأزمـة حادة نشـأت بسبب قبول مصـر لمبـادرة "روجـرز"[1] التـى كانت تطلب وقف حرب الاستنزاف لمدة تسعين يوما وتنشيط مهمة الأمم المتحـدة للوصـول إلى حل على أساس قرار مجلس الأمـن ٢٤٢ . وكـان "جمـال عبـد النـاصر" قـد رأى قبـول هـذه المبادرة وفى حسابه أنها تعطيه فرصة لإكمال بناء حائط الصواريخ ، ومن ثـم تعطيـه فرصـة أكثر كفاءة لعمليات أوسع فى القتال جـرى التخطيط والإعـداد لهـا . لكـن فصائل المقاومـة الفلسطينية جميعا ، بما فيها "فتـح" ، عارضت ذلك وأخذتها معارضتها إلى بعيد فى التجاوز والشطـط . ومن ذلك أن إذاعة فلسـطين فـى القاهـرة راحـت تهاجـم قبـول مصـر لمبـادرة "روجرز" وتتهمها بأن قبولها لوقـف حرب الاستنزاف تخـل عن الحـرب المسلحـة .

وحاول "محمد حسنين هيـكل" (وهو فى ذلـك الوقـت وزيـر الإعـلام) حـل الأزمـة ، ولكن قيادة منظمة التحرير كانت عاجزة عن مواجهـة أكـثر العنـاصر فيهـا تجـاوزا وشطـطا . وكان أن أصدر "هيـكل" بوصفه وزيرا للإعلام قرارا بوقـف إذاعة فلسطين من القاهـرة .

لكن حوادث "أيلول الأسود" والصدام المسلح الذى اشتعل بين المقاومـة الفلسـطينية وبـين جيش الملك "حسـين" فى الأردن كانا فى تقديـر "جمـال عبـد النـاصـر" أهـم وأكـبر مـن أى اعتبار آخـر . وفى محاولته لإنقاذ الموقف بالمحافظة على الثـورة الفلسطينية والمحافظـة ذات الوقت على الدولة الأردنيـة ـ فقد دعا "جمال عبد الناصر" إلى مؤتمر قمـة عربـى عقـد فى فندق "هيلتون" بالقاهرة وأمكن خلاله تهدئة الموقف وإخراج السيد "ياسر عرفات" مـن حصـار أردنى طـوق مخبأه الذى كان يقـود العمليات منه فـى جبـل عمـان ، ثـم المجـىء بـه إلى القاهـرة لحضور مؤتمر القمـة .

---

(١) يجـرى الخلـط أحيانـا بـين "مشـروع روجـرز" الـذى قُـدم فـى ديسـمبر ١٩٦٩ وقـد تركـه " جمـال عبـد الناصـر" معلقـا بـلا رفـض أو قبـول ، وبـين "مبـادرة روجـرز" التـى قدمـت فـى يونيـو ١٩٧٠ وقـد قبلهـا "جمـال عبـد الناصـر" فـى يوليـو ١٩٧٠ .

وكان خروج "عرفات" من الحصار الأردنى مغامرة مثيرة . فقد بعث مؤتمر القمة فى القاهرة بوفد على مستوى عال يرأسه اللواء "جعفر النميرى" (رئيس جمهورية السودان) ومعه الشيخ "صباح الأحمد الصباح" (وزير خارجية الكويت) ، وذلك لكى يلتقي فى عمان بكل أطراف العمليات المسلحة الجارية فى العاصمة الأردنية . وذهب وفد القمة إلى عمان وتوجه بتصريح من الملك "حسين" عبر الحصار إلى لقاء مع "ياسر عرفات" . وهناك ارتدى "ياسر عرفات" عباءة أحد أعضاء الوفد الكويتى وعقاله وخرج مع الوفد العربى دون أن تلحظه قوة الحصار الأردنية ، وركب معهم الطائرة إلى القاهرة . ثم لم يلبث الملك "حسين" أن انضم إلى مؤتمر القمة . وهدأت الأزمة ، وجرى تشكيل لجنة عليا للمتابعة تضم اللواء "جعفر النميرى" رئيس جمهورية السودان رئيسا ، والسيد "حسين الشافعى" نائب رئيس الجمهورية المصرى والسيد "الباهى الأدغم" رئيس وزراء تونس نائبين للرئيس ، وعضوية كل من اللواء "محمد أحمد صادق" للشئون العسكرية و"محمد حسنين هيكل" للشئون السياسية .

وفى اليوم التالى لانتهاء القمة رحل "جمال عبد الناصر" إلى رحاب الله ، وانتقلت رئاسة الجمهورية فى مصر إلى "أنور السادات" . وكانت القضية العربية الأولى التى تنتظره هى ذيول أزمة "أيلول الأسود" ، ومستقبل العلاقة مع الثورة الفلسطينية ومع النظام الأردنى .

٢

وصفـــــى التـــــــل

" أحببت أن أكتـب لسيادة الأخ وأنا مخلص ... "

(الملــك "حســين" فــى خطــاب مســهب لــلرئيس "أنــور الســادات")

كان الرئيس "السادات" يعـرف شخصيا عـددا مـن قيـادات الثـورة الفلسـطينية ، وقـد التقى بهـم عدة مرات بوصفـه رئيسا لمجلس الأمـة فى مرحلة من المراحل ، ثم بوصفه نائبـا للرئيس فى الشهور الأخيرة مـن حيـاة "جمـال عبـد الناصـر" . لكـن العلاقـة بـين الرئاسـة المصريـة الجديدة والقيادة الفلسطينية لم تكن وثيقـة لأسباب مختلفـة ومتعـددة .

و برغم محاولات متكـررة من الطرفين فإن هذه العلاقة ظلـت ضعيفــة ومكشوفــة لشـهور متصلـة . وكان الرئيس "السادات" على أى حال فـى الفـترة الأولى مـن رئاسـته مشـغولا عـن قضيـة الشرق الأوسـط بمواجهته الخطـرة مع ما اصطلح على تسميته بــ "مراكـز القــوى" فـى مصـر . وحين فـرغ من تصفية حساباته فى الداخـل ـــ فإنه التفت إلى الساحة الواسعة فـى الشرق الأوسـط يبحـث لنفســه عن مخـرج من الأزمـة . وفى تلـــك الظـروف وجــد الرئيـس "السـادات" ـــ وكان ذلك طبيعيا ـــ أن الورقـة الفلسطينية هى مفتاح الصـراع فـى الأزمــة ، وإنه إذا كان يريـد الوصول بهذه الأزمـة إلى نهايـة سواء بالحـل أو بالحـرب ، فـإن الورقــة الفلسطينية ينبغـى أن تظـل فى يـده .

وفى ذلك الوقت كان الملك "حسين" فى الأردن يفكـر على نهـج مماثل تقريبا لمـا يفكـر فيه الرئيس "السادات" . وربما أحـس الملك "حسـين" أن غيـاب "جمال عبـد الناصـر" عـن ساحة العمـل العربـى يتيح لـه فرصـة أوسـع لحركة مستقلـة . .

كان ذلـك هـو الموقــف حينمـا وقعـت فـى القاهــرة حادثـة خطـيرة وقــام ثلاثــة مـن الفدائيـين الفلسطينيين ـــ ينتمون إلى جماعة "أيلـول الأسـود" ـــ باغتيال رئيس وزراء الأردن

"وصفى التـل" بينما هو فى القاهـرة يشارك فى أعمال مجلس جامعـة الـدول العربيـــة. وكـان اغتياله فى بهـو فندق "شيراتون" بالجـيزة .

وكما كان متصورا فإن وسائل الإعـلام المصريـة أبـــرزت حـــادث اغتيـال السيد "وصفى التـل" فى القاهـرة ، وربما بـــدا فى نبرتها نـوع من الاستحسان لعملية اغتيال رجـل كـان هناك ـ بالحق أو بالباطل ـ شك فى نياتـه بالنسبة للقضيــة الفلسطينيــة . وكـان الملك "حسين" فى الأردن يتابع مـا يجرى ومـا ينشـر فـى القاهـــرة وغضبــه يـتزايد مـن دقيقة لأخـرى. لكن عناصر قوميـة من حوله كانت تنصحه بضبـط النفس وعـدم تـأزيم الأمـور مـع مصـر إلى درجة القطيعـة . وكان الملك على استعداد للتجاوب مع هذه النصيحة وفـى ذهنـه خطـة للعمـل ينـوى التحـرك بمقتضاها . وفى الحقيقة فإنه فى تلك اللحظة كان مــن الواضح أن هناك صراعا خفيا وعنيفـا بـين الرئيـس "السـادات" والملـك "حســين" : أيهمـا يمسـك بالورقـة الفلسطينيـة فى يـده ؟

وحـدث أن بعـث الرئيـس "السـادات" ببرقيـة تعزيـة فـى اغتيـال "وصفـى التـل" إلى الملـك "حسـين". واتخـذ الملـك مـن البرقيـة فرصـــة لالتقــاط الأنفــاس بعــد فـــترة كـادت المشـاعر فيهـا أن تجمـح .

□

وقـع اغتيال السيد "وصفى التـل" يوم أول ديسمبر ١٩٧١ . وفـى اليـوم التـالى وصلـت برقية الرئيس "السـادات" عـزاء فى وفاتـه . ويـوم ٣ ديسمبر كتـب القائم بأعمـال السفـــارة المصريـــة فـى عمـان برقيـة رمزيـة إلى وزارة الخارجيـة المصريـة موجهـة فـى الواقـع لـلرئيس "السادات" وكان نصهـا كما يلـى :[٢]

"اسـتدعانى اليـوم ١٢/٣ صـلاح أبـو زيــد مستشـار الملـك حسـين وسـلمنى رسـالة مـن الملك حسـين إلى السيد أنـــور السـادات (مرسـلة ببرقيتنـا التاليــة) وتحـدث بصددهـا كالآتــى :

١ ـ أنقـذ الموقـف برقيـة السيد الرئيـس السـادات إلى الملـك إثـر اغتيـال التـل ، وتجاوب مع سيادته الملك حسـين بــرده عليهـا والـذى سـاعـد علـى تهدئـة الغليـان فى النفـوس .

---

(٢) برقيــة رمزيــة لـوزارة الخارجيــة رقــم ٨٦٤٧ (خ) ، وتوجـد فـى ملحـق صـور الوثـائق صـورة منها تحـت رقـم (١) .

٢ ـ إنه يعلم أن القانون المصرى لا يسمح بالنشر الصحفى لدقائق وتفاصيل الجرائم بهذه الصورة التى تؤثر بلا شك على عدالة محاكمة مغتالى وصفى التل وإعطائها انطباعا معينا لدى الرأى العام المصرى والعربى ، ومن ثم تشكل تأثيرا على القضاء

٣ ـ تساءل عما إذا كان ذلك هو جزاؤهم على ما بذلوه من جهود وضغوط وتعليمات مشددة للحيلولة دون انفجار الموقف بين الأردنيين والفلسطينيين .

٤ ـ إنهم يعلمون أن هناك عناصر كلما شعرت بدنو التقارب بين القاهرة وعمان عملت على هدمه ـ واغتيال التل فى هذا الوقت بالذات واحدة من محاولات الهدم هذه .

٥ ـ أبدى صلاح أبو زيد شديد استيائه من الأسلوب الذى تهاجم به إذاعة (العاصفة) إذاعة فلسطين ـ الملك حسين ، وقال إنه إذا صدر ذلك من إذاعة بغداد لقبلناه ، ولكنه يؤلمنا أن يصدر من إذاعة الشقيقة مصر .

القائم بالأعمال

١٩٧١/١٢/٣ "

□

ثم تلا ذلك أن قام مستشار الملك بتسليم رسالته إلى الرئيس "السادات" للقائم بأعمال السفارة المصرية فى عمان ، وكان نصها كما يلى :[٣]

"سيادة الأخ الرئيس محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

نبعث لسيادتكم بمحبتنا وتقديرنا وبعد ..

عندما وقعت الفاجعة واغتيل فى حماكم بأرض الكنانة رئيس وزراء المملكة الأردنية الهاشمية طغى إحساسنا ببشاعة الجريمة ونذالتها على مشاعر الأسى فى نفوسنا والحزن فى قلوبنا . ولئن كنا لم نفجع لموت شهيدنا وفقيدنا الكبير ـ فلأننا نؤمن بأن الموت حق ـ وقمة الأمانى عند كل رجل حق يعيش وهو يكافح

---

(٣) برقية رمزية برقم ٨٩٦٢ ، وتوجد صورة من صفحتها الأولى فى ملحق صور الوثائق ـ تحت رقم (٢) .

فى سبيل مبدئه الثابت ويقضى وهو يكافح من أجل عقيدتــه الراسـخة . وأكـثر مـن ذلك أننا غبطناه رحمـة اللـه لأنه رحمـه اللـه فـاز علينا فـى السـباق وذهـب لملاقـاة ربـه رجـلا كبيرا وشهيدا عزيـزا .

وعندما وردتنى برقيتكم الأخوية قدرتها التقدير كله ــ ورأيتها تعكس أمامى بصـدق ألمكم الشخصــى وألـم شعـب مصـــر العظيـم ـــ لحـدوث الجريمـة النكـراء ووقوعها فى أرض مصر ـ التـى ذهـب وصفــى إليهـا آمنـا مطمئنـا ـــ وفـى مقـر الجامعة العربيـــة التـى قصدهـا رئيسـا لـوزراء الأردن ووزيـرا لدفاعـه ليسهــم فـى التخطيط والحشد والتنظيم لطاقات الجميع فى معركة مصيرهم المشترك . ولقـد ملــك علىّ ذلك التقدير نفسى بالرغم من كـل خــلاف نشـأ عـن خطــأ مؤسـف فـاجع فـى الفهـم مع الشهيد أو معنا جميعا فى أردن العـرب الذى عرفتموه دائمـا فـى مصــــر ، معكم وإلى جانبكم مثلما هو مع كل العـرب طليعة نضـال وقـدوة وتضحية وعطـاء .

لقد قدرت أنك تألم بالذات ــ كما آلــم بـالذات ـــ وإن الشعـب العربــى فـى مصــر بمجموعه يأسـف ويأسى أسف الشعـب العربـى فى الأردن وأســاه . وليـس يهـم ما نشعر بـه من أن وصفـى قد ظلـم مثلما ظلـم الأردن بمجموعــه وليـس يهــم مـا نعرفه كلنا فى الأردن من أن وصفـى عاش طيلة حياته مناضـلا شريفا يعـز نظيره فـى الشرفاء المناضلين لكن الذى أخـذ يثـير الأسى ويعمق الجراح هو ذلك الموقــف الـذى اتخذته الصحافة مـن الفاجعــة فــور وقوعهــا . حيـث لم تبـق للمـوت حرمــة ولا للقانون ومقتضياتـه فى سـير التحقيق قيمـة أو معـنى . فأنـا أؤمــن ولا أشـك فـى أن سيادتكم تؤمنون معى بـأن نبـش القبــور والتمـادى فـى التشـهير والتبجـح بالظلـم والافـتراء ليست من قـيم الأخلاق الصحفيــة فـى شــىء كمـا أؤمــن ــ وأعـرف أنكـم تقروننى على ذلك ـــ بـأن نشـر وقـائع التحقيـق بدقائقـه وتفاصيلـه أمــر لا يبيحـه القانون ولا يسمح بـه إذا ما أريد للقضاء أن يبقى مصونا من العبث والتأثـير .

ولقد أحببت أن أكتـــب لسـيادة الأخ وأنـا مخلـص فـى الحـــرص علـى كرامتكـم وكرامة بلدكـم حرصـى على كرامتى وكرامـة بلدى مناشدا إياكم التدخـل فـورا لوضـع حـد للمهزلة الصحفية التى تقام على أشلاء المأساة وهى مهزلة لا تصيـب وصفــى أو الأردن بأكثر مما تصيب العـرب جميعا أمام العالـم بأسـره . وأنا أولا وأخـيرا متكـل علـى أخــى ومعتمد عليه فى كشـف أبعـاد الجريمـة النكـراء وكـل مـن خطــط لهـا أو ساهـم من قريب أو بعيـد فى تنفيذها علـى أرض مصـــر العربيـــة وإنـزال العقوبـات التى يستحقونها بهـم . أما من عمـل لها خارج مصـر فلا بد من إزاحة السـتار عنـه اليوم أو غـدا فهو الذى استهدف وحدتنا الوطنية فى هذا البلـد وتسبب فى سقوط كل من سقط على أرضنا الطيبة وأحبـط أو يحاول أن يحبـط كـل تنسـيق وحشــد للجهــد العربـى المشترك .

إننى أخاطبك يا سيادة الأخ من قلب محزون كقلوب الأردنيين ونفس مجروحة كنفوسهم أجمعين فاغفر لى صراحتى التى مبعثها ثقتى بك ـ مثلما مبعثها واجبى الذى يفرض على اعتمادها فى خطابى إليك ولئن كان وصفى قد ظل حتى آخر لحظة من عمره يؤمن الإيمان كله بحتمية البقاء والتعاون بيننا أسلم الأسس وأمتنها فإن الفرصة ينبغى ألا تتاح لأية جهة من الجهات بقتل ذلك الإيمان بنفس الرصاص الغادر الذى أطلق على أرض الكنانة قبل أيام . وهو ما أرجو أن أؤكد لأخى بأننى لا أريده ولا أتمناه .

مع صادق تحياتى وأطيب تمنياتى لسيادتكم بدوام الصحة والتوفيق .

وليحفظكم الله ويرعاكم ..

أخوكم الوفى

حسين بن طلال

١٩٧١/١٢/٣ "

□

كانت خطة الملك "حسين" أن يأخذ الورقة الفلسطينية فى يده ولا يتركها لغيره وأولهم الرئيس "السادات" . وهكذا فإنه بدأ يفكر فيما أسمى بـ "مشروع المملكة العربية المتحدة" (الهاشمية) ، والتى تقوم فكرتها على اتحاد فيدرالى بين مملكته وبين الضفة الغربية . ثم يكون إنشاء هذه المملكة العربية المتحدة هو الأساس الذى يبدأ الملك منه عملية تفاوض جديدة مع إسرائيل ، خصوصا عندما بدا أن محادثات "ويليام روجرز" وزير الخارجية الأمريكى فى القاهرة ، والتى بدأت بزيارته لها فى مايو ١٩٧٠ واستمرت طوال سنة ١٩٧١ ـ قد وصلت إلى طريق مسدود . وبالتالى ، فإن المجال انفسح أمام الملك "حسين" ليجرب محاولة الحل من طريق مختلف .

وكتب القائم بأعمال السفارة المصرية فى عمان بتاريخ ١٣ مارس ١٩٧٢ (وبعد ثلاثة شهور من اغتيال "وصفى التل") ـ برقية إلى وزارة الخارجية المصرية كان نصها كما يلى: (٤)

---

(٤) برقية رمزية رقم ١٨٣٥ (خ) ، وتوجد فى ملحق صور الوثائق صورة للصفحة الأولى منها ـ تحت رقم (٣).

"استقبلني الملك حسين في الثالثة بعد الظهر اليوم وكان قد أتم قبله اجتماعات له مع سفراء الدول الأربع الكبرى وعديد من كبار الشخصيات الفلسطينية والأردنية . وفيما يلي ما دار في المقابلة :

أولا ـ طلب الملك من صلاح أبو زيد قراءة نص رسالته الموجهة إلى الملوك والرؤساء العرب . كما سلمني الملك بالإضافة إلى رسالته إلى السيد الرئيس أنور السادات رسالة إلى السيد معمر القذافي باعتبارنا ممثلين لمصالح ليبيا في الأردن (نص الرسالة أرسل ببرقيتنا رقم ١٨٣١ بتاريخ اليوم) .

ثانيا ـ بعد ذلك تحدث الملك ساردا الآتي :

١ ـ إن وعد بلفور كان يشمل في مضمونه الضفة الشرقية للأردن ورغم ضآلة امكانياتنا العسكرية في حرب ٤٨ إلا أننا تمكنا من الإبقاء على الضفة الشرقية والضفة الغربية في أيد عربية .

٢ ـ كما أننا لم نتوان رغم الاختلافات التي كانت قائمة بيننا وبين أشقائنا قبيل ٦٧ من أن نبادر بالمشاركة في معركة ١٩٦٧ بصرف النظر عن مدى الاستعداد المسبق لها وعن نتائجها المحتملة وتركنا الأمر للقيادة المشتركة .

٣ ـ ولقد عاوننا في إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية عن رضا وإن كنا أخطأنا في ترك الحبل لبعض العناصر التي أخذت تروج لعقائد دخيلة وكادت وحدتنا الوطنية أن تتصدع لولا أن بادرت بتصحيح الأوضاع .

٤ ـ كما تعرضنا لقطع الدعم الذي تقرر في مؤتمر الخرطوم والذي قال عنه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر "إذا كان هناك دعم كان هناك صمود" هذا بجانب ما واجهناه من إغلاق للحدود .

٥ ـ كما أنه يدرك أن إسرائيل والصهيونية العالمية تخطط لإنشاء دويلة فلسطينية هزيلة في الضفة الغربية ليسهل عليها ابتلاعها .

٦ ـ وإنه طالما طالب بعقد مؤتمر قمة عربي لمعالجة مثل هذه المواضيع ولكنه لم يجد أية استجابة .

٧ ـ وإن انتخابات الضفة الغربية التي تعمل إسرائيل على فرضها هي بهدف تثبيت لواقع الاحتلال وكان لا بد لنا من تحرك سريع للخروج من هذا الموقف .

٨ ـ وهذا المشروع المطروح في رسالتي للأخوة الأشقاء ليس بجديد فقد سبق التفكير فيه في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات .

٩ ـ ومن هنا قمت باتصالات واسعة مع غالبية المسئولين فى الضفة الغربية الذين أبدوا موافقتهم على هذه الخطوة .

١٠ ـ وليكن فى علمكم أن الجيش العربى الأردنى يشكل الأخوة الفلسطينيون فيه ٥٠٪ من قوته وأضاف أنه ليس لديه أى مانع أن تنضم إليه أية قوة عسكرية فلسطينية مدربة كجيش التحرير الفلسطينى على سبيل المثال .

١١ ـ وناشد الملك فى حديثه مساعدة أهالى الضفة الغربية وانتشالهم من حالة اليأس والضياع وإنه ينتظر من الأشقاء العرب دعم خطواته هذه فإن مزيدا من الانقسام والتشتت لن يفيد إلا العدوان الإسرائيلى .

١٢ـ واختتم حديثه بأنه ينوى زيارة الولايات المتحدة فى القريب العاجل وهذه الزيارة كانت مقررة من قبل وإنه رأى أن تتم قبل انشغال المسئولين الأمريكيين بالانتخابات وقبل زيارة نيكسون لموسكو .

وذكر أنه يرحب أن يتلقى من أشقائه العرب أية توصيات حول هذه الرحلة .

القائم بالأعمال بالنيابة

١٩٧٢/٣/١٣ "

□

ثم تسلم القائم بأعمال السفارة المصرية فى عمان رسالة الملك "حسين" إلى الرئيس "أنور السادات" وقد ضمنها برقية رمزية منه إلى وزارة الخارجية .[٥]

" بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الأخ الرئيس محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية حفظه الله

القاهرة

---

(٥) برقية رمزية برقم ١٨٣١ (خ) ، وتوجد فى ملحق صور الوثائق صورة للصفحة الأولى منها ـ تحت رقم (٤) .

نبعث لسيادتكم بمحبتنا وعميق تقديرنا واحترامنا وبعد ،

فلقد كنا كتبنا لسيادتكم فيما مضى مقترحين لقاء الأخوة القادة العرب في اجتماع يكرس للبحث في قضيتنا المشتركة وتدارس المراحل المختلفة الأخيرة التي مرت بها وما اكتنف تلك المراحل من تطورات وخطوات تترك آثارها وانعكاساتها على القضية ذاتها .

ولقد كان من شأن الأوضاع السائدة في المجموعة العربية ألا تساعد على تحقيق ذلك الاقتراح فبقيت القضية بعيدة عن الوصول بها إلى ما يتيحه لها اجماع الرأى وتوحيد الكلمة وتنسيق الجهد وهو ما ندعو الله القدير أن يعيننا مجتمعين على تحقيقه والوصول إليه .

لقد كان الاحتلال الإسرائيلى في المنطقة العربية عام ١٩٦٧ ضربة حلت بقضيتنا المقدسة وهزت الوجدان العربي بأسره من الأعماق .

وعلى بشاعة ما خلفه ويخلفه الاحتلال من الآثار فوق كل شبر من الأراضى المحتلة الغالية فإن حقيقة تلك الآثار تتجسد أكثر مما تتجسد في الضفة الغربية من الأردن حيث يعيش أكثر من مليون إنسان مرارة الاحتلال وآلامه ويواجهون أساليبه المختلفة في البطش والضغط والإغراء .

ومع استمرار الأوضاع الراهنة في العالم العربي استمر الاحتلال الإسرائيلى لتلك المناطق ولكنه أحس بالفرصة التي يهيئها له استمرار تلك الأوضاع فراح يتحرك في الضفة الغربية وفق مخطط مدروس يستهدف من ورائه الوصول بالأهل هناك إلى حالة من اليأس والضياع لا تكون محصلتها إلا القبول بما يعد لإقامة دويلة فلسطينية هزيلة . وما حديث الانتخابات في الضفة الغربية إلا خطوة على طريق إقامة تلك الدويلة وإنشائها حتى يحشر الإنسان الفلسطينى في النهاية في قمقم صغير يسهل استخدامه أو تحطيمه في أية لحظة وهو ما يبدو لنا وكأنه مؤامرة جديدة تحاك ضد ذلك الإنسان وتدبر إن لم يكن حلقة في السلسلة الطويلة للمؤامرة الكبرى على الأمة العربية جمعاء .

ومن هنا رأينا أن نعد للمستقبل ونتهيأ له انطلاقا من التزامنا بالعهد الذى قطعناه على أنفسنا بتمكين شعب من تقرير مصيره بحرية مطلقة بعد التحرير . وهو العهد الذى راق للبعض أن يشكك في جديته وفحواه . فقمنا بالعديد من المشاورات والمباحثات مع ممثلى الشعب في الضفتين ومع قادة الرأى ورجال الفكر فيهما وتدارسنا معهم طبيعة المرحلة الجديدة التي ينبغى الوصول إليها . وبنتيجة إجماع الآراء واتفاقها تجمعت الخطوط الرئيسية التالية لملامح المرحلة المقبلة وقسماتها :

١ ـ تصبح المملكة الأردنية الهاشمية مملكة عربية متحدة وتسمى بهذا الاسم .

٢ ـ تتكون المملكة العربية المتحدة من قطرين :

(أ) قطر فلسطيني .. ويتكون من الضفة الغربية وأية أراض فلسطينية أخرى يتم تحريرها ويرغب سكانها في الانضمام إليها.

(ب) قطر الأردن .. ويتكون من الضفة الشرقية .

٣ ـ تكون القدس عاصمة لقطر فلسطين . وتكون عمان عاصمة لقطر الأردن وعاصمة للمملكة المتحدة .

٤ ـ يتولى السلطة التنفيذية في كل قطر حاكم من أبنائه ومجلس وزراء قطرى من أبنائه .

٥ ـ يتولى السلطة التشريعية في كل قطر مجلس يعرف باسم مجلس الشعب يتم انتخابه بطريق الاقتراع السرى المباشر وهذا المجلس هو الذى ينتخب الحاكم العام للقطر .

٦ ـ السلطة القضائية في القطر لمحاكم القطر ولا سلطان لأحد عليها .

٧ ـ تتولى السلطة التنفيذية في كل قطر جميع شئون القطر باستثناء ما يحدده الدستور للسلطة التنفيذية المركزية .

٨ ـ رئيس الدولة هو الملك ويتولى السلطة التنفيذية المركزية ومعه مجلس وزراء مركزى .

٩ ـ تنحصر مسئوليات السلطة التنفيذية المركزية في الشئون ذات العلاقة بالمملكة كشخصية دولية واحدة وبما يكفل سلامتها واستقرارها وازدهارها ، وهذه المرتكزات في قناعتنا كفيلة عند تطبيقها بتلبية أماني الشعب الفلسطيني وطموحاته وتنظيم صفوفه وحشد طاقاته وتعميق إيمانه بحقوقه المشروعة وإصراره على استردادها والوصول إليها .

لقد كانت مواقفنا فيما مضى كما هي الآن وكما ستظل في المستقبل نابعة من إيماننا بالقضية ذاتها وإدراكنا لمتطلباتها ولم يكن فيها للاعتبارات الشخصية وما يتصل بها مكان في قليل أو كثير ، وإذا كانت كل المواقف والأحداث لا تستطيع أن تزعزع إيماننا بحتمية انتصار الحق في النهاية فإن قناعتنا لا حد لها بأن وحدة الجهد العربي وتنسيقه هما الأساس لبداية السير على طريق النصر ، وإن هذا البلد الذى تعرفون سيادتكم مدى تضحياته الطويلة والمستمرة والذى يؤمن بأن التحرير مرهون بالموقف العربي ومدى التحام الأواصر فيه وقدرته على التضحية والعطاء لينتظر أن تتبدل المواقف منه وتتغير لأنه بمقدار تغييرها وتبدلها تقصر الطريق إلى التحرير وتهون .

ومن هنا فإننا نتوجه إلى سيادة الأخ بمحض دعمه الكامل للقضية التي يجمع الكل على خدمتها ويمنح تأييده لاتجاهنا وخطواتنا حتى تجيء الثمرات المباركة حصيلة لجهدنا المشترك وسعينا الموحد .

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يحفظ سيادتكم وأن يسدد خطاكم ويوفقنا لما فيه خير أمتنا وكرامتها .

التوقيع

أخوكم الوفي

حسين بن طلال

١٩٧٢/٣/١٣ "

ورفض الرئيس "أنور السادات" رفضا قاطعا مشروع "المملكة العربية المتحدة" (الهاشمية) كما قدمه الملك "حسين" . فقد كان الصراع ـ بالفعل ـ بين الاثنين على القضية الفلسطينية : من يمسك بورقتها ، ومن يتفاوض بدون قتال أو بعد القتال وفي يده هذه الورقة ؟

كان الملك "حسين" يريد أن يذهب إلى مفاوضات مع الولايات المتحدة ومع الإسرائيليين والورقة الفلسطينية في جيبه .

وكان الرئيس "السادات" الذى يئس تماما من "روجرز" وأوشك على فتح قناة سرية مع "هنرى كيسنجر" وعن طريقه إلى البيت الأبيض مباشرة ـ يريد أن يتصل ويتفاوض ، أو أن يقاتل ثم يعود للتفاوض بعد القتال ، ونفس الورقة في جيبه . ولكي يغلق الرئيس "السادات" كل الطرق على محاولة الملك "حسين" ، فقد وصل به الأمر في معارضة مشروع "المملكة العربية المتحدة" (الهاشمية) إلى حد قطع العلاقات مع الأردن معتبرا أن المشروع من وجهة نظره تصفية للقضية الفلسطينية .

ولم تكن الحوادث في انتظار نهاية الصراع بين الاثنين على الورقة الفلسطينية . ولكي يدعم الملك موقفه فإنه شدد الحملة على كل منظمات المقاومة الفلسطينية وأنهى وجودها تماما في عمان وبقوة السلاح .

وفي نفس الوقت فإن المقاومة الفلسطينية التي اضطرت إلى الهجرة من عمان راحت تبحث لنفسها عن وطن بديل وقاعدة تستند إليها في عملياتها المحتملة ضد إسرائيل . وكان لبنان هو البلد المفتوح أمامها بظروفه . ففيه قرابة ثلاثمائة ألف لاجئ فلسطيني في ذلك الوقت ، ثم إن فيه حركة قومية إسلامية ومسيحية شاركت باستمرار وبحيوية في كل

قضايا الأمة ، رغم وجود عناصر كان لها اجتهاد مختلف وتصورت وهما أنها تستطيع أن تجعل من لبنان "سويسرا الشرق المحايدة" . وكان هذا الوهم ينطوى على إغفال للحقائق وعلى نسيان للتاريخ وعلى واقع أن لبنان نفسه فى فترة الصراع بين العناصر التقليدية والعناصر الثورية فى العالم العربى فتح أبوابه ساحة من ساحات هذا الصراع ، واستفاد من ذلك سياسيا واقتصاديا ومعنويا ، إذ تحولت بيروت إلى مركز من أهم مراكز التوجيه الثقافى والإعلامى ـ وبالتالى فإن لبنان أصبح فى قلب الصراع على الشرق الأوسط وليس بقعة محايدة فى وسطه .

ومع بداية السبعينات فإن المقاومة الفلسطينية راحت يوما بعد يوم تدخل إلى العمق اللبنانى وترسخ قواعد وجودها فيه .

وأما بالنسبة للرئيس "أنور السادات" فإن بداية سنة ١٩٧٣ جاءت عليه لتجده يائسا من اتصالاته حتى الآن مع "هنرى كيسنجر" ، وسائرا خطوة بعد خطوة إلى طريق مؤد بلا شك إلى معركة مسلحة مع إسرائيل .(٦)

---

(٦) رجاء مراجعة كل تفاصيل ووثائق محاولات الرئيس "السادات" من أجل الحل السلمى مع "روجرز" ، ومن أجل الاتصال المباشر مع "كيسنجر" ـ فى كتاب "السلاح والسياسة" لـ "محمد حسنين هيكل" الصادر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر



الملك الحسن (٢)

" البلد بلدكم والقصر قصركم وأنا خارج الآن من اجتماعكم "

(الملك "الحسن" لبقية ملوك ورؤساء الدول العربية فى مؤتمر الرباط)

كانت قيادات منظمة التحرير الفلسطينية تتابع محاولات الرئيس "السادات" مع "روجرز" ثم مع "كيسنجر" بعده ، متوجسة وإن لم يستبد بها القلق . فقد كان تصورها أن هناك حدودا لما يمكن أن يذهب إليه الرئيس "السادات" . فهو لا يستطيع أن يمضى فى الشوط الذى تريده الولايات المتحدة منه إلى نهايته ، فالولايات المتحدة — وإسرائيل — كانت تطلب اتفاقا منفردا مع مصر عارفة أن مصر تستطيع أن تفعل ذلك وحدها إذا أرادت لأن إسرائيل ليست لديها دعاوى أو مطالب تاريخية أو دينية فى مصر. لكن المنظمة كانت فى نفس الوقت تقدر أن ذلك بالنسبة للرئيس "السادات" أو لغيره مستحيل لأنه مؤد فى النهاية إلى ضياع دور مصر العربى — وهو ما لا تقبل مصر أن تجازف به . وفى بعض الظروف كان قادة منظمة التحرير يشعرون شعورا غامضا بأن الرئيس "السادات" ليس مقدرا تماما لأهمية دور مصر العربى ، لكنهم كانوا يسارعون بطرد هذه الشكوك لأسباب نابعة من ظنهم بأنه لا يقدر حتى وإن فكر ، ثم لأسباب من التمنى مرجعها إحساسهم بأن دعم مصر للقضية الفلسطينية ولأى قيادة فلسطينية تتحمل مسئوليتها هو نوع من الدعم لا يعوض . فمصر رغم قربها من القضية الفلسطينية واتصالها المباشر بها حقبا طويلة — هى الوحيدة بين الدول العربية المؤثرة التى لا تملك تنظيما ينتمى إليها يعمل على الساحة الفلسطينية . فالأردن لديه تنظيماته ، وسوريا لها تنظيماتها ، والعراق كذلك . ثم إن السعودية لها جماعة ضغط معروفة موجودة داخل القيادة الفلسطينية .

وفى نهاية المطاف فإن أكثر مهدئ للهواجس المتجددة وللقلق المتأرجح ــ هو أن مصر كانت بالفعل تساعد أكثر من غيرها ، ثم هى تتشاور فيما يجرى حتى وإن راود البعض إحساس بأنها تختار ما تتشاور فيه كما تختار ما تخفيه .

وفى سنة ١٩٧٣ كانت المنظمة ، شأنها شأن غيرها ، فى حيرة مما سوف يفعله الرئيس "السادات" . فقد بدا فى بعض الأحيان أنه محجم عن الحرب ، ثم بدا فى أحيان أخرى أنه مقدم عليها .

□

وفى يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٣ اتصل مندوب المخابرات المصرية العامة فى بيروت بقيادة المنظمة ناقلا دعوة من الرئيس "السادات" لـ "ياسر عرفات" ("أبو عمّار") و"صلاح خلف" ("أبو إياد") إلى لقائه فى مصر . وحين وصل الاثنان إلى القاهرة عرفا أن الرئيس "السادات" ينتظرهما فى الإسكندرية ظهر يوم ٢٥ سبتمبر . وذهب الاثنان إليه . وعند نقطة من الحديث قال لهما الرئيس "السادات" إنه "يريد قوات فلسطينية تكون موجودة على الخطوط وتحارب هناك مع القوات المصرية ، وهدفه من ذلك أن تكون المنظمة حاضرة فى الحرب ليكون لها دور فيما يطرأ بعدها من ظروف" . وسأله الاثنان عما إذا كان قد اتخذ قرارا بشأن "المعركة"؟ وكان رده "إن المعركة حتمية" ، وهو نفسه يفكر فى إطلاق "شرارة" تنبه كل الغافلين إلى أن حالة اللا حرب واللا سلم لا يمكن أن تستمر . وفيما بينه وبين نفسه فإنه يسمى هذه العملية باسم "الشرارة" .

وفى حين كان "ياسر عرفات" يسمع ويحاول أن يستوعب ، فإن "أبو إياد" راح يسأل ويستفسر عن طبيعة "الشرارة" التى يفكر فيها الرئيس . وراح الرئيس "السادات" مرة أخرى يعطى أوصافا مبهمة لما يتصوره ، لكن ما قاله كله كان يدور حول تعبير "الشرارة" . وسأله "أبو إياد" عن حجم القوات الفلسطينية التى يريدها على الجبهة المصرية ، ورد الرئيس "السادات" بأنه لا يريد قوات كبيرة ، وإنما تكفى ولو سرية واحدة (١٢٠ جنديا) لمجرد الإثبات الرمزى بأن منظمة التحرير الفلسطينية لها دور فى "الشرارة" وما بعدها .

وخرج الاثنان من مقابلة الرئيس "السادات" بعد لقاء استمر ساعة ونصف الساعة ، وتوجها من المعمورة إلى شاطئ المنتزه لمقابلة "محمد حسنين هيكل" ، وقد روى له كل منهما تفاصيل اللقاء مع الرئيس "السادات" . وكان "أبو إياد" بالتحديد بادى الحيرة فى موضوع "الشرارة" وكان متأثرا بمقولات شاعت فى ذلك الوقت عن أن الرئيس "السادات" يفكر فيما وصف أيامها بأنه "عملية تحريك وليس عملية تحرير" .

كان "محمد حسنين هيكل" الذى عرف سر القرار الذى اتخذه الرئيس "السادات" بالقتال فى لقاء مع الرئيس يوم ٥ سبتمبر فى استراحة "كينج مريوط"[٧] ـ يستغرب تلميح الرئيس "السادات" لـ "أبو عمار" و"أبو إياد" إلى احتمالات معركة . ولم يفصح عن استغرابه بالطبع وإلا كان ذلك تأكيدا ، واكتفى بأن ناقش مقولة "التحريك والتحرير" مع "أبو إياد" معبرا عن رأيه فى أن ذلك تلاعب بالألفاظ لا تحتمله الظروف . فحين يصدر القرار ببدء معركة ـ إذا صدر ـ فمن الصعب على أى إنسان أن يسيطر على تطوراتها ، وأن يحصرها فى عملية تحريك مقررا سلفا أن حوار النار بين جيوش لن يخرج عن إطار معين ومحكوم سواء فى مدته أو فى مساحته أو فى عياره . لكن "أبو إياد" كان لا يزال على شكوكه . وعلى أى حال فقد كان "أبو عمار" و"أبو إياد" كلاهما على اتفاق بأنه لا ضرر من تواجد فلسطينى عسكرى ضمن قوات الجبهة المصرية .

□

وسافر الاثنان إلى بيروت لبحث الموضوع مع بقية قيادة منظمة التحرير الفلسطينية . وعاد "أبو إياد" إلى القاهرة يحمل موافقة فلسطينية على اقتراحه . وكانت عودة "أبو إياد" إلى القاهرة يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣ . وظهر اليوم التالى ـ ٦ أكتوبر ـ فوجئ "أبو إياد" بأخبار بدء المعركة ، وحاول الاتصال بالرئيس "السادات" ، ونجح فى ذلك حوالى الساعة الثامنة مساء بعد أن عاد الرئيس من مركز القيادة رقم ١٠ إلى قصر الطاهرة . وطلب منه الرئيس أن يجيء إلى لقائه فورا . وفى ظرف نصف ساعة كان "أبو إياد" يدخل على الرئيس "السادات" ليجده فى "أروع" لحظات حياته منتشيا بمجرى الحوادث وسعيدا ، وراح يروى له بالتفصيل كيف أن عملية العبور سارت طبقا للخطة المرسومة وكأنها معجزة تحققت .

وفى غمرة الحماسة لم يسأل الرئيس "السادات" عن مصير اقتراحه ، ولا قدم له "أبو إياد" موافقة القيادة الفلسطينية فى بيروت عليه .

كانت المعارك تأخذ الكل مع تطوراتها حتى حدثت الثغرة (عند نقطة "الدفرسوار" يوم ١٥ أكتوبر) ، ثم ألقى الرئيس "السادات" خطابه الشهير فى مجلس الشعب (يوم ١٦ أكتوبر) وأعلن فيه استعداد مصر لحضور مؤتمر دولى فى جنيف يكون هدفه تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الخاص بإزالة آثار

---

(٧) يرجى مراجعة التفاصيل فى كتاب "السلاح والسياسة" .

العدوان ، ثم إن قضية اللاجئين يمكن أن تناقش فيه . وكانت تلك كلها تطورات لم تفكر فيها القيادة الفلسطينية ولا تحسبت لها .

ثم كان هناك وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر وفقا لقرار مجلس الأمن ٣٣٨ . ثم وصلت الحوادث إلى ذروتها الدرامية بكسر إسرائيل لوقف إطلاق النار وتوسيع الثغرة ، وبدا كأن الأمور انقلبت رأسا على عقب ، وأن الصورة العامة للموقف فى الشرق الأوسط قد تغيرت ملامحها فى ظرف أيام قليلة .

وبإعلان النقاط الست تمهيدا لفك الارتباط بين مصر وإسرائيل أثناء وجود "كيسنجر" فى القاهرة ، لاح بالفعل احتمال تحرك نحو الحل على الجبهة المصرية وحدها . ووجدت منظمة التحرير أن أسوأ مخاوفها ممكنة الوقوع بل وظاهرة فى الأفق .

وكان الرئيس "السادات" ما زال يتمسك بجزء من قضية فلسطين يريده معه ولو كغطاء لحركته التى بدت متسارعة وخاطفة فى ذلك الوقت وإلى درجة أخذت الكل بالمفاجأة وشبه الذهول .

وفى حين أن المنظمة كانت عاجزة عن ملاحقة التطورات ، فإن الرئيس "السادات" كان ما زال يلح على "كيسنجر" فى أن يعطيه "شيئا خاصا بالقضية الفلسطينية" يستطيع إشهاره فى وجه جميع الأطراف ، ويكون فى مقدوره أن يقدمه للفلسطينيين إشارة إلى أن قضيتهم فى تخطيطه وفى حسابه . وقدم له "كيسنجر" ورقته المعروفة [(٨)] التى كانت نصوصها موجهة إلى الفلسطينيين تطرح عليهم عدة بنود غامضة لا تنبئ بشىء بل لا تكاد تقول شيئا على الإطلاق . وكانت البنود كما يلى :

"١ ـ أقيموا اتصالا مباشرا مع هـ . ك . (هنرى كيسنجر) بسرعة .

٢ ـ كونوا محددين وعمليين فى التصريح بما هو مطلوب من الولايات المتحدة .

٣ ـ كونوا مستعدين لشرح مواقفكم أكثر من النقاط التالية :

* القرار ٢٤٢ وأى الأجزاء فيه ـ إذا كانت هناك أجزاء ـ يمكن أن تكون مقبولة من جانبكم .
* تصوركم للتسوية السلمية .
* وجود الدولة اليهودية فى فلسطين .
* علاقتكم بالأردن وبالملك حسين .

---

(٨) رجاء مراجعة تفاصيل الورقة وملابسات تقديمها فى كتاب "السلاح والسياسة" .

٤ ـ ما هى الخطوات العملية الأولية التى يمكن اتخاذها لوضع إطار عمل وقوة دفع لخطوات مقبلة ؟

٥ ـ ما هو التنسيق المرغوب فيه بينكم وبين السادات ـ الأسد ـ بومدين ـ فيصل ؟

نقاط عامة للملاحظة :

١ ـ الولايات المتحدة مفتوحة العقل open minded وليست هناك نتيجة جرى استبعادها حتى الآن . وليست هناك وعود سرية قطعت لأحد .

٢ ـ الولايات المتحدة على استعداد للدخول فى حوار جدى فى المستقبل القريب .

٣ ـ الولايات المتحدة ليست لديها النية للتخلى عن إسرائيل أو الملك حسين ، ولكن هذا لا يعنى أنها على استعداد لتأييدهما فى كل النقاط .

٤ ـ الولايات المتحدة سوف تبدى اهتماما بأية مواقف تؤيدها الدول العربية الرئيسية وبالذات مصر وسوريا والجزائر والسعودية .

٥ ـ الولايات المتحدة تعارض بشدة أية "مسرحيات إرهابية" terrorist spectaculars جديدة .

٦ ـ الولايات المتحدة جادة عندما تقول إن مصالح الفلسطينيين يجب أخذها فى الاعتبار فى أية تسوية شاملة . وهذا لا يعنى قضية اللاجئين فقط . الولايات المتحدة مستعدة لمناقشة أبعد حول هذه المصالح .

٧ ـ الولايات المتحدة لم تضع صيغة لخطة سلام ، وإنما سوف تمارس عملية تقوم على خطوة بعد خطوة . وهى لا تعد فى أى مرحلة إلا بما تستطيع عمله .

إننا سوف نكون مختصرين جدا فى الخطابة ، ولكننا سوف ننفذ أى تعهدات نقدمها ."

كانت رسالة "كيسنجر" على صفحة ورق عادية ، ولم تكن تحمل أى عنوان رسمى على رأسها ، كما لم يكن فى ذيلها توقيع . وعندما بعث بها الرئيس "السادات" إلى القيادة الفلسطينية كان الرد أن الرسالة "هى مجموعة نصائح لا أكثر ولا أقل" . وكان الرئيس "السادات" فى قرارة نفسه يحس بذلك فعلا ، وطلب من "هنرى كيسنجر" فى لقائهما التالى فى ديسمبر ١٩٧٣ أن يعطيه خطوة عملية تقنع الفلسطينيين بالجدية أكثر .

وأخبره "كيسنجر" بأنه سوف يفوض دبلوماسيا أمريكيا بإجراء اتصالات مع مندوب مفوض من منظمة التحرير فى القاهرة ، شريطة أن تظل هذه الاتصالات سرا لا يذاع.

وقام الرئيس "السادات" سعيدا ومتحمسا بإبلاغ اقتراح "كيسنجر" لقيادة المنظمة التى انتدبت ممثلها فى القاهرة "سعيد كمال" للقاء مندوب أمريكى . وتبين أن هذا المندوب ملحق فى سفارة الولايات المتحدة فى القاهرة ، وهو فى الواقع من موظفى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يعمل تحت غطاء دبلوماسى . وتمت عدة لقاءات بين "سعيد كمال" وبين المندوب الأمريكى ، ولم يكن لدى هذا المندوب إلا مجموعات من الأسئلة من نوع ما ورد فى ورقة "كيسنجر" .

وأحست القيادة الفلسطينية أن الأمر ليس جادا ، خصوصا بعد أن بدأت الحركة حثيثة فى اتجاه عقد اتفاقية لفك الاشتباك على الجبهة المصرية . ثم انعقد مؤتمر جنيف ، واستبعد الفلسطينيون من بين أطرافه ، ثم قاطعته سوريا . ثم فوجئ الكل برفع حظر النفط . وكانت الثورة عارمة فى العالم العربى .

ومع ذلك كان "كيسنجر" نشيطا فى التحضير لفك ارتباط أول على الجبهة السورية ، يليه اتفاق ثان على الجبهة المصرية .

□

لم تهدئ رسالة "كيسنجر" مخاوف منظمة التحرير الفلسطينية ، ولا أدت الاتصالات التى أعقبتها إلى شىء ، بل لعلها أثارت الشكوك أكثر فى أن المسألة كلها كلمات على ورق ، أو كلام مرسل بين مبعوثين .

وفى هذا الوقت من صيف سنة ١٩٧٤ ، وفى ذروة خشية المنظمة من أن يجرى تصرف فى القضية الفلسطينية نيابة عنها أو من وراء ظهرها ، فقد جرى التركيز على شعار يقول بأن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى . كان هذا الشعار قد علا بمعانيه وإن لم يكن بألفاظه فى فترة الصدام بين الملك "حسين" والمقاومة الفلسطينية فى عمان سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧١ ، ثم عاد وتجدد سنة ١٩٧٢ عندما طرح الملك "حسين" مشروع "المملكة المتحدة" .

وأثناء الإعداد لمؤتمر قمة عربى كان التحضير يجرى له فى الرباط (أكتوبر سنة ١٩٧٤) استجدت صياغة لمشروع قرار يصدر عن القمة ويعلن بلسان كل الملوك والرؤساء العرب رسميا "أن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى" .

كانت مبررات مشروع هذا القرار معقولة ، لكن الظروف والملابسات التى أحاطت بتقديمه تستدعى التفكير .

والحاصل أن أطرافا عربية متعددة لم تكن تريد هذا القرار فى هذا التوقيت .

وبالتأكيد فإن الرئيس "السادات" لم يكن يريده ، وكذلك الرئيس "الأسد" ، وكذلك الملك "فيصل" — كل منهم لأسبابه .

وفى نفس الوقت فإن "هنرى كيسنجر" الذى كان يطوف بعواصم المنطقة قبل مؤتمر الرباط كان متضايقا من القرار لا يخفى سخطه عليه — فهو حتى تلك اللحظة كان ما زال يفكر فى المسألة الفلسطينية مرتبطة بالأردن وبالملك "حسين" .

وبالقطع فإن الملك "حسين" نفسه لم يكن يريد قرارا يأخذ منه كل الأوراق التى يملكها فى يده للتفاوض .

وفى جلسة مؤتمر القمة التى خصصت لمناقشة مشروع القرار تحدث الملك "حسين" — طبقا لمحضر الجلسة — فقال :

"إن الأردن آخر من يعترض على حق الفلسطينيين فى أن يتحدثوا عن أنفسهم ، وإنما هناك قضية أمانة تاريخية ، ومسئولية حقائق مستقبلية .

بالنسبة للأمانة فإن هذه الأراضى الفلسطينية (الضفة والقدس) كانت عند المملكة الأردنية عندما احتلتها إسرائيل . ويشعر الأردن بواجب أن يتحمل أمانة استعادتها .

إن تحمل المملكة الأردنية بهذه الأمانة ليس ميزة تسعى للحصول عليها ، ولكنها عبء هى على استعداد لأن تتحمله .

وبعد أن تعود الأمور إلى نصابها ، وإذا كان ذلك رأى الأخوة من الملوك والرؤساء العرب ، ورأى الفلسطينيين — فإن المملكة على استعداد للتخلى عن هذه الأراضى بحيث يكون الانتقال من يد عربية إلى يد عربية . المهم هو استخلاص الأراضى من اليد الإسرائيلية ."

واستطرد الملك "حسين" معززا رأيه بحجج القانون :

"إن الأردن أكثر من غيره قدرة على استعادة الأراضى الفلسطينية ، فهو الطرف المعنى بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذى لا يجيز الاستيلاء على الأراضى بالقوة .

ثم إن الأردن هو الدولة التى تملك شرعية التفاوض بحكم ما كان ، مضافا إلى ذلك أن علاقات الأردن وصداقاته تسمح له باتصالات لا تتوفر للمنظمة . وهذه الشرعية فى التفاوض ، مع علاقات الأردن وصداقاته ما زالت تمثل قيدا ولو معنويا على إسرائيل تتمنى أن تتحلل منه لكى تجرى على الأرض المحتلة ما تشاء من تغييرات . ومع أنها الآن فعلا تقوم بصنع حقائق جديدة على الأرض ، فإنها تفعل ذلك بخطى لا تزال وئيدة . ولكنه يخشى أنه إذا أصبحت المسئولية فى هذه الأرض الفلسطينية لمنظمة التحرير التى لا ينطبق عليها قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، ولا تنطبق عليها اتفاقية جنيف الرابعة (التى تمنع أى دولة محتلة من إجراء تغييرات كبيرة فى أية أراض تحتلها) ـ فإن إسرائيل سوف تعطى نفسها يدا طليقة دون قيود ."

وبدا كلام الملك "حسين" معقولا ، وقد أضيف منطقه إلى موقف المتحفظين أصلا على مشروع القرار لأسبابهم ، وبينهم مصر وسوريا والسعودية ، ومال اتجاه القمة بوضوح فى اتجاه رأى الملك "حسين" . وفجأة تدخل الملك "الحسن" ملك المغرب فى المناقشة وبطريقة غير متوقعة ، فقد قال : "إنه يرى اتجاها فى القمة إلى تأجيل النظر فى مشروع القرار الذى يعتبر منظمة التحرير ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطينى ، وهو لا يستطيع قبول التأجيل ، وإنما يرى أن الواجب القومى يفرض أن يتحمل الشعب الفلسطينى مسئوليته وأن المعبرين عنه هم قادته .... "

وحاول الملك "حسين" أن يتدخل قائلا للملك "الحسن" : "يا ابن العم .... "

ولكن الملك "الحسن" لم يترك له أو لغيره فرصة ، وإنما قال "إنه إذا كانت القمة ترى تأجيل النظر فى مشروع القرار ، فإنه هو شخصيا سوف يترك قاعة المؤتمر ويخرج" . وساد الذهول بين الملوك والرؤساء ، فالرجل الذى يهدد بالانسحاب والخروج هو مضيف المؤتمر ، وكلهم ضيوفه وفى قصره . واستطرد الملك "الحسن" قائلا بنبرة أسى : "إنه حزين لهذا الموقف ، لكنه يرجوهم أن يعتبروا البلد بلدهم والقصر قصرهم ... هم أصحابه وهو الضيف عليهم ، ولذلك فهو يستأذن منهم ." وتعالت نداءات الملوك والرؤساء العرب تطلب من الملك "الحسن" أن يبقى فى الجلسة .

وكان الملك "حسين" بين الذين ناشدوا الملك "الحسن" ، وكان قوله "إنه قال ما عنده ، وإذا شاءت القمة العربية أن تعفيه من مسئوليته فهو على المستوى الإنسانى يقبل ما يراه الأشقاء" !

وجرت الموافقة على مشروع القرار مختلطة مع النداءات إلى الملك "الحسن" أن يبقى فى الجلسة .

وكان الذى حدث بعد ذلك غير بعيد عما توقعه الملك "حسين " .

وبدا كأن إسرائيل لم تكن تريد الإضرار كثيرا بعلاقاتها مع الأردن ومع ملكه ، سواء بالحذر أو بالمجاملة أو بتأثير صلات معها مباشرة أو غير مباشرة - ثم بدا وكأنها كانت تنتظر أن يبتعد عن الطريق ، ولذلك فإنه ما كاد يبتعد عن الطريق حتى اندفعت الحفارات والجرارات والرافعات ، وإذا عملية الاستيطان تكتسب إيقاعا أكثر نشاطا وسرعة .

وبالطبع فقد كان ما يساعد الاندفاع الإسرائيلى فى حركة الاستيطان — هو الاطمئنان إلى أن الرئيس "السادات" الذى فرغ من فك الارتباط الأول وراح يتهيأ لمرحلة ثانية من فك الارتباط — مشغول بمصر أكثر من أى شىء آخر .

ومع أن قرار الرباط تلته دعوة "ياسر عرفات" إلى الأمم المتحدة حيث ألقى خطابه الذى قال فيه عبارته الشهيرة عن المسدس وغصن الزيتون ، وأنه ترك الأول قبل قاعة الجمعية العامة ، ودخل بالثانى طالبا السلام — فإن المناسبة كلها بدت تحلية إعلامية بطبقة من السكر تغطى تحتها قرصا من العلقم !

□

وجدت منظمة التحرير نفسها فى أجواء متناقضة . أضواء كثيرة تحيط بها ، لكن تحركات أخرى تجرى بعيدا عنها . فمصر تتخذ لنفسها طريقا مختلفا . والعلاقات بين المنظمة وسوريا معقدة برواسب قديمة ومشاكل مستجدة . والوجود الفلسطينى فى لبنان يواجه عقبات ما زالت تفرض عليه قيودا لا تمنحه حرية الحركة التى يريدها .

وكان أول ما خطر لـ "ياسر عرفات" فى تلك الظروف التى أطبقت عليه فجأة ، هو أن يحاول التأكد من موقف الاتحاد السوفيتى . وتوجه إلى موسكو ليجد القيادة السوفيتية فى حالة ثورة عارمة . فهم يعتقدون أن مصر حصلت على سلاحهم واشترت به حلا أمريكيا . وحاول "عرفات" فى لقاء مع "بريجنيف" و"كوسيجن" أن يشرح لهما نظرية رددها كثيرا فى ذلك الوقت عن أهمية الثورة الفلسطينية . وكانت نظريته أن "الثورة الفلسطينية قنبلة موقوتة فى كل بلد عربى لأن الجماهير العربية تؤمن بهذه القضية بأكبر من إيمانها بقوة بلد واحد حتى وإن كان هذا البلد هو مصر" . ثم كان ترتيبه على ذلك أن الثورة الفلسطينية تستطيع أن تحرك الجماهير حيث تشاء بسلطان القضية بما

يتخطى أى سلطة في بلد عربي ما . فالولاء لقضية فلسطين "حزب موجود فى كل مكان" ، ومساعدتها في هذه الظروف تعنى أن الاتحاد السوفيتي سوف يجد لنفسه مدخلا إلى كل بلد عربى . "

ولم يكن "بريجنيف" على استعداد للتسليم بهذا المنطق بسرعة ، وراح يشكو لـ "عرفات" ما لاقاه الاتحاد السوفيتي من تخلى العرب عن صداقته إلى درجة الخيانة . ثم أشار إلى أن كل مدفوعات العرب من أجل السلاح وغيره تذهب إلى أمريكا ، في حين أن الاتحاد السوفيتى قدم كل ما قدمه للعرب بأسعار مخفضة وأقساط مؤجلة ، وفى كثير من الأحيان لم يسدد له العرب حقوقه عليهم .

وعند هذه النقطة من الحديث تعهد "عرفات" لـ "كوسيجن" (من باب التعويض) بإقناع "القذافى" بأن يزيد مشترياته من السلاح من الاتحاد السوفيتى (وتمكن "ياسر عرفات" من ذلك فعلا ، وعقدت ليبيا صفقة سلاح بألفى مليون دولار سددتها نقدا للاتحاد السوفيتى ، وكانت هى الصفقة التى قام بنك "نورودنى" بتحويل قيمتها فورا إلى البنوك الأمريكية سدادا لشحنات قمح ، وكانت كذلك هى الصفقة التى استنتج منها الرئيس "السادات" حين عرف نبأها أن الاتحاد السوفيتى "مفلس أيضا") .[٩]

لم يكن في مقدور صفقة أسلحة مع ليبيا أن تعوض الاتحاد السوفيتي عن غياب مصر . ولا كان فى مقدور نفس الصفقة أن تعوض العمل الفلسطينى عن الطمأنينة التى تتوفر له بوجوده على نفس الخط مع مصر .

□

وطوال سنتى ١٩٧٤ و١٩٧٥ – وحين تم توقيع فك الاشتباك الثانى بين مصر وإسرائيل أيقنت القيادة الفلسطينية أن مصر خرجت من معادلة القوة العسكرية العربية ، وإنها لن تقبل على مخاطرة القتال مرة أخرى على الأقل فى المستقبل المرئى . ولم يترك الرئيس "السادات" نفسه شكا لدى أحد ، فأعلن مجددا أن أكتوبر كانت آخر الحروب ، ومعنى ذلك أنه رفع الضغط العسكرى المصرى ، بمجرد وجوده المعنوى – وحتى إذا لم يقاتل فعلا – وأطلق يد إسرائيل على بقية الجبهات ، وبالتالى فإن الثورة الفلسطينية أصبح محكوما عليها أن تعمل ولأول مرة فى تاريخها بدون غطاء مصرى سياسى

(٩) تفاصيل الواقعة سبقت الإشارة إليها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب صفحة ٣٢٩ .

أو عسكرى . والأصعب أن تلك أصبحت سياسة معلنة يعرفها الكافة بمن فيهم العدو والصديق . وراحت المنظمة تحاول تثبيت موقفها على عدة محاور :

١ ـ تحاول تعزيز موقعها فى لبنان ـ ولكى تجعل من هذا البلد بتركيبته الفريدة قاعدة واسعة تقف عليها وتعمل من فوقها بأمن واطمئنان . وأدى ذلك إلى مشاكل كبيرة لأن الصيغة اللبنانية بقدر تفردها ، هشة لا تحتمل أى ثقل طارئ عليها . فالعلاقات بين السُنّة والموارنة فى لبنان معبأة بدواعى الشك والتوتر لأسباب تاريخية واقتصادية واجتماعية. ثم إن سُنّة لبنان شيع متفرقة ، وكذلك الموارنة ، فى حين أن الكتلة الإسلامية الكبيرة مكونة من الشيعة ومتمركزة فى جنوب لبنان ، وهناك تأثير إيرانى له جذوره التاريخية .

وفى ذلك الوقت كان التأثير الشيعى فى لبنان تحت قيادة نجم سياسى لمع فجأة كالشهاب (وانطفأ مثله فيما بعد) ، وهو الإمام "موسى الصدر" ، وكان فى ظروف ١٩٧٥ مفتاحا هاما من المفاتيح اللبنانية ، وكذلك كان "كمال جنبلاط" زعيم الطائفة الدرزية . وفى حين كان "موسى الصدر" رجل دين له قلب مقاتل سياسى وعسكرى ، فإن "كمال جنبلاط" كان رجل سياسة وقتال له قلب رجل دين فى صدره . وفى حين أن الإمام "موسى الصدر" كان وراء ملامحه البشوشة يملك إرادة فارسية قادرة على الفعل ، فإن "كمال جنبلاط" كان وراء ملامحه الحزينة مؤمنا بالفلسفة الهندوكية ومتأثرا بتعاليم "غاندى" .

وكانت هناك تناقضات طبقية حادة ، وكان هناك اختراق أجنبى فرنسى قديم واختراق أمريكى وافد ، وكانت هناك قبضة مفتوحة تحيط بلبنان ، لكن القبضة المفتوحة يمكن أن تطبق أصابعها على كفها فى أى لحظة ، فإذا سوريا تمسك بلبنان كله إذا لم تمنعها من ذلك موانع دولية !

وبصفة عامة ، فإن الدولة والجيش فى لبنان كان هواهما واتجاههما فى المحصلة النهائية مارونيا . كما أن الشارع فى لبنان كان ولاؤه وانتماؤه إسلاميا مع تنوع ألوان الطيف الإسلامى . وكان ذلك كله يخلق أرضية رخوة لثورة فلسطينية تريد أن تتمترس فى لبنان وأن تتخذه قاعدة للمقاومة ضد إسرائيل .

٢ ـ إن دخول الثورة الفلسطينية إلى هذه الأوضاع القلقة والحرجة أدى إلى انفلات فى لبنان كانت السيطرة عليه تزداد صعوبة يوما بعد يوم . وفى تلك الفترة فإن البقعة الأكثر استعدادا للفوران والانفجار كانت جنوب لبنان . فهناك بالعقائد الدينية والسياسية كانت درجة الاستعداد أكثر لمواجهة تجربة النار . وربما أرادت إسرائيل أن توقف موجة المد فى بدايتها وأن توجه إنذارا إلى لبنان كله ، فإذا هى تفتح مدافعها على الجنوب اللبنانى

ويضطر عشرات ألوف من الجنوب إلى الهجرة نحو الشمال ، العاصمة بيروت ، تاركين الجنوب للمقاتلين المستعدين لقبول تحدى النار والرد عليه .

لكن تلك الهجرة من الجنوب كانت لها عواقبها الاجتماعية ، فالمهاجرون النازحون من الجنوب إلى الشمال ما لبثوا أن أحاطوا بالعاصمة بيروت ، والتى كانت حتى تلك اللحظة ما زالت تعكس أضواءها الباهرة رغم عوامل الحرج والقلق . وهكذا أحاط بغنى بيروت حزام من الفقر الزاحف ، وأضيف إلى الشحنات المتحركة والمتراكمة تناقض اجتماعى صارخ دخل بدوره عنصرا فى معادلة اختلّت ضوابطها .

وكان مسيحيو لبنان ــ وموقفهم هنا يمكن تفهمه ــ فى حالة عصبية ، وخوف تصاعدت درجته إلى حدود الحمى . فالوطن الذى اعتبروه دائما واجهة مطلة على البحر الأبيض صوب أوروبا تطغى عليه عناصر الريف والصحراء وبثقل يهدده بالغرق فى البحر بدلا من أن يظل شرفة مطلة عليه .

وراحت خطوط مواجهة صعبة محتملة تتحدد مواقعها على الخريطة اللبنانية .

٣ ــ ولم يكن فى مقدور سوريا أن تقف مراقبا محايدا . وكان الهاجس السورى دائما أن طريق الجنوب إلى البقاع مؤد بالضرورة إلى مشارف دمشق ، وبذلك لم تعد مشكلة ما يجرى فى لبنان لبنانية ، وإنما أصبحت فى ذات الوقت أيضا سورية .

ومع فهم سوريا لطبيعة التركيبة اللبنانية ، ومع سوء فهم مستحكم بين السلطة فى دمشق وبين قيادة منظمة التحرير ــ فإن عوامل الخطر فى لبنان وعليه أصبحت مقلقة .

وكانت سوريا شديدة العصبية بعد خروج مصر المفاجئ من معادلة القوة العربية . وكان يقال دائما إنه إذا أصيبت دمشق بلفحة برد فإن بيروت تصبح معرضة لميكروب سل.

وكانت سوريا قد أصيبت بما هو أكثر من نوبة برد ، وكان لبنان على وشك أن يصاب بما هو أخطر من ميكروب سل . وتأزمت العلاقات بين العاصمة السورية وبين بيروت الفلسطينية .

٤ ــ وزادت حدة المتناقضات من حقيقة أن كثيرا من دول النفط الغنية التى وجدت أموالها تتوالد بسرعة مخيفة نتيجة ارتفاع أسعار النفط بعد معارك سنة ١٩٧٣ ، وجدت نفسها تتأرجح بين نزعات متباينة .

فهى يقينا تريد هذا التقارب الذى بدأه الرئيس "السادات" مع الولايات المتحدة ومع إسرائيل ، وهى يقينا تريد خروج الاتحاد السوفيتى بسلاحه ونفوذه السياسى من المنطقة،

وهى تهفو إلى صلح مع إسرائيل يقوم به غيرها ويرفع عن كاهلها أعباء هذا الصراع المادية والنفسية. لكنها فى نفس الوقت تحس عمق الولاءات القومية لدى شعوبها .

وكانت الصيغة العبقرية التى توصلت إليها بعض دول النفط هى التأييد الصامت للرئيس "السادات" سياسيا ، وفى نفس الوقت إسكات منظمة التحرير الفلسطينية بإغرائها بالمال . وهكذا فإن الثورة الفلسطينية فى جانب منها تحولت إلى نموذج لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، فقد أصبحت ثورة "بترودولارية" . وكانت أول بقعة جرت فيها تجربة الثورة "البترودولارية" هى بيروت .

وهكذا نشأت وتوثقت علاقة عجيبة بين أصحاب العقائد وخزائن البنوك ، وبين الفدائيين وملكات الجمال ، وبين الثوار وسادة الإقطاع .

٥ ــ وحين لاح أن عاصمة المال العربى ــ بيروت ــ تتحول لتصبح فى نفس الوقت عاصمة الثورة الفلسطينية ، فإن عشرات ألوف جدد من الفلسطينيين ، خصوصا من هؤلاء الذين ضاق بهم الأردن بعد صدامه مع المقاومة الفلسطينية ، راحوا يتوجهون صوب لبنان يتخذونه مقرا برغم كل مقولات "ياسر عرفات" بأن لبنان لن يكون مقرا وإنما ممر مؤقت إلى فلسطين .

وكان داعى التخوف أن الوجود الفلسطينى الكثيف فى لبنان مسلح ، ثم إن هذا الوجود فى رغبته لتعزيز وتثبيت موقعه بسرعة فى لبنان ، راح يتصرف ، وفى تصرفه بعض الأحيان تجاوز للحقوق بما فيها حق السيادة .

كانت الثورة الفلسطينية قد تجاوزت بعض الشىء فى القاهرة ، لكنه كان فى مقدور القاهرة أن تضع بسرعة حدودا لأى تجاوز . وكانت الثورة الفلسطينية بعد ذلك قد تجاوزت فى عمان ، واقتضى الأمر استعمال قوة الجيش الأردنى لاقتلاعها من الأردن كله ومن عند الجذور . وفى لبنان كانت الثورة الفلسطينية مصممة على التشبث بالموقع اللبنانى فهو ملجؤها الأخير ، ولم يكن فى مقدور الدولة اللبنانية بكل أدوات الدولة أن تتصدى لها خصوصا فى جو أوضاع مثل تلك التى اصطخبت فى لبنان تلك الفترة .

٦ ــ وخطر ببال بعض القيادات المسيحية (حزب الكتائب الذى يرأسه الشيخ "بيير الجميل" ، وحزب الأحرار الذى أسسه "كميل شمعون") ــ أن الوقت قد حان لتطبيق مقولة "الاستعانة بالشيطان" نفسه . وفى فبراير سنة ١٩٧٥ وأثناء لقاء له مع الشيخ "بيير الجميل" سمع "محمد حسنين هيكل" منه مباشرة هذا التعبير . كانت هناك شائعات عن اتصالات تجرى بين الكتائب وبين إسرائيل ، ولم يجب الشيخ "بيير الجميل" حين سئل فى أمرها إجابة صريحة ، وإنما قال "إننا قد نلجأ للتعاون مع الشيطان نفسه من أجل إنقاذ

لبنان" . وكانت الإشارة مقلقة لأن الشيخ "بيير الجميل" استطاع لسنوات طويلة وبحسه المرهف بالضرورات والضوابط المطلوبة لسلامة لبنان ــ أن يتصدى لبعض العناصر المفلوتة في حزبه . وأن يصل الشيخ "بيير"، بصرف النظر عن الضغوط التى كان يعانى منها ، إلى درجة الاستعداد للتعامل مع الشيطان ــ فقد كان معناه أن لبنان أصبح فى مهب الريح .

وبالفعل لم يتأخر هبوب الريح ، بل وتحوّل إلى عاصفة ، وانفجرت الحرب الأهلية فى مستهل ربيع سنة ١٩٧٥ .

والحرب الأهلية دائما أسوأ الحروب . فحين يبدأ الجار فى توجيه النار إلى جاره ، وحين يبدأ الأخ فى قتال أخيه ، وحين تنفلت الروابط ويعربد السلاح ــ فإن كل الظواهر الحضارية التى يكتسبها مجتمع من المجتمعات بتجربته مع الحياة والتاريخ تصبح مثل غشاء جلد رقيق يتمزق لتظهر من تحته العضلات العارية وقطع اللحم البشرى المتهتك وشرايين الدم المفتوحة للنزيف ، ويتحول الوطن إلى غابة ، والبشر إلى وحوش ، والحياة إلى افتراس . وهكذا جرى فى لبنان .

٤

أبـــو مـــــــــــــازن

" لماذا لا تعتبر المنظمة نفسها طرفا متفاوضا "

("أبو مازن" فى مذكرة للقيادة الفلسطينية)

فى أجواء الحرب الأهلية فى لبنان كان بعض قادة منظمة التحرير قد أدركوا من جوانب الحقيقة ما يكفيهم لكى يتأكدوا أن بقاءهم فى لبنان لا يمكن إلا أن يكون مؤقتا لعدة اعتبارات :

١ ــ إن هناك إرادة دولية لها رأى فيما يتعلق بدور لبنان ومستقبله فى المنطقة . فهناك اعتبارات كثيرة تفرض ألا تتخلى بعض الدول الأوروبية ، وفى مقدمتها فرنسا ، عن موقع تاريخى له أهمية حضارية واقتصادية على شاطئ البحر الأبيض مثل لبنان . وكذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية التى طالما اعتبرت لبنان مركز خدمات أساسيا فى مجالات حيوية مثل المال والإعلام والمعلومات ، بما فى ذلك نشاط المخابرات ــ لن ترضى فى خاتمة المطاف أن يسقط هذا الموقع فى يد من تعتبرهم أكثر العناصر تطرفا فى العالم العربى .

٢ ــ إن سوريا التى لم تستطع أن تصل مع إسرائيل إلى أكثر من فك ارتباط واحد محدود فى مرتفعات الجولان ، كانت تعد نفسها لصراع طويل مع إسرائيل . وهذا الصراع يصعب أن يكون عسكريا فى غياب القوة العسكرية المصرية . وإذا كان ذلك فهو إذن صراع سياسى يحتاج بالدرجة الأولى إلى مقدرة الصبر وقوة الأعصاب . وفى ذلك فإن سوريا لا بد أن تؤمن طرق الاقتراب إليها من لبنان ، ومن ثم تصبح بيروت موقعا لا يمكن أن تسمح فيه سوريا بقوى مناوئة لسياساتها أو خارجة عليها .

٣ ــ إن إسرائيل بدورها لن تسمح للمقاومة الفلسطينية ضدها أن تخرج من عمان ، ثم تقصى عن القاهرة ، وبرغم ذلك تجدها أمامها مباشرة فى لبنان . وبالتالى فإن إسرائيل لن

تقدر على السكوت طويلا أمام تجمع فلسطينى كثيف يحاول أن يتخذ من لبنان قاعدة لعمله السياسى والعسكرى والإعلامى . ولم تكن منظمة التحرير غافلة عن أن إسرائيل قامت باختراقات كبيرة فى مراكز متنفذة فى لبنان . وبالتالى فإن الثورة الفلسطينية فى لبنان كانت متوجسة على خطوطها الأمامية ، وغير مطمئنة إلى خطوطها الخلفية ، وذلك دعاها إلى حيث لم تكن مدعوة فى مواقع عديدة من لبنان .

٤ ـ إن كل القوى اللبنانية لم تكن سعيدة بالوجود الفلسطينى الكثيف فى لبنان . وقد راودت بعض اللبنانيين مخاوف من أن يتحول لبنان إلى وطن بديل للفلسطينيين يعوض عليهم وطنهم المفقود . وحتى القوى القومية التى كانت شديدة الصلابة فى حمايتها للوجود الفلسطينى فى لبنان كانت تفعل ذلك ، ولديها قدر كبير من الشك فى كفاءة القيادة الفلسطينية وفى مقدرتها على إدارة صراعها .

وعلى سبيل المثال فقد كان رأى "كمال جنبلاط" أن القيادة الفلسطينية أصغر من قضيتها . وكان رأى الإمام "موسى الصدر" أن الثورة الفلسطينية تكاد تكون حركة فوضوية غير منضبطة . وكل ما لديها هو أن العالم العربى يداريها ، إما إكراما لقضيتها أو اتقاء لخطر جموحها . وفى الحالتين فإن العالم العربى كان يكتفى بأن يعطيها المال يشترى به السكوت .

٥ ـ ونتيجة لهذه الأوضاع نفسها فإن العلاقة بين قيادات الثورة الفلسطينية وبين القيادات اللبنانية على اختلاف ألوانها ، كانت علاقة مشوبة بقدر كبير من الازدواجية . فالقيادات الفلسطينية تعرف رأى القوى المختلفة اللبنانية فى أحوالها وفى نوعية رجالها ، وهى تدرك أن كل هؤلاء الأطراف يحاولون استخدام الوجود الفلسطينى الذى لم يقدروا على منعه فى مناوراتهم الداخلية بأكثر مما يساندونه إيمانا بقضية يقدر أصحابها على الوصول بها إلى نتائج مقبولة . ونتيجة لذلك فإن العلاقات اتخذت طابعا لا يطمئن فيه جانب إلى الآخر ، وإنما السمة الأساسية فيه هى عمليات المداورة والالتفاف وكسب الوقت لعل وعسى .

□

من أثر هذه الاعتبارات كلها فقد كانت قيادة المنظمة تدرك أن لديها فترة سماح محدودة فى بيروت ، وأن عليها أن تتحرك بشكل ما كى تجد لنفسها منفذا فى أوضاع شديدة السيولة . وربما ساعد على هذا الإحساس أن وجود المنظمة فى بيروت أحاطها بالمناخ الذى

أشاعته المقاهى الثقافية فى العاصمة اللبنانية . وهذه المقاهى الثقافية كـانت باستمرار ، وكمـا هى العادة فى بلد مفتوح مثل لبنان ، حافلة بمناقشات واجتهادات فيها مـا هـو واقـف علـى الأرض ، وفيها ما هو معلق بين الأرض والسمـاء .

كانت أجـواء المنظمة قبـل بـيروت أجـواء حافلـة بالعنـف مكدسـة بالسـلاح . وفـى بـيروت أضيف عنصـر آخر إلى هذه الأجواء ، وهو عنصر التزاحم الفكرى والفلسفـى بصـرف النظر عـن القيمــة الفعليــة للأفكـار والفلسفـات . والحـاصل أن المدافـع الرشاشـة المعبـأة بالطلقـات وجـدت إلى جانبهـا فوهــات أخـــرى علــى استعـــداد لأن تطلــق الكثــير مــن الاجتهـادات والتنظـيرات !

وكان أن بـدأ التفكير يسـرى بتساؤل شاع فى البداية على اسـتحياء ومـؤداه : ولـماذا لا تعتبر المنظمة نفسها طرفـا متفاوضا ومستقـلا ما دامت المنطقة كلها تضج بحديـث المفاوضـات بين مصـر وإسرائيل ، وبين سوريا وإسرائيل (فى فـك الاشتباك الأول بينهما) ، وبـين الأردن وإسرائيل ، وكـان الســر الذائــع فى المنطقــة هــو وجـود قنـوات اتصال لم تتوقــف بـين الأردن وإسرائيل .

وفى ذلك الوقت بـرز فى أجواء المنظمــة دور واحــد مـن أعضائهـا القدامـى راح اقتناعـه يتزايد يوما بعد يوم بضرورة أن تقـوم المنظمـة باستكشـاف إمكانيـة الاتصـال مـع عنـاصر فـى إسـرائيل . وكان هذا الرجل هو "محمود عباس" ("أبو مـازن") . ولم يكــن فـى اقتناعــات "أبو مازن" اكتشاف جديد ، فالمنطق الذى يقـول به الآن مسبـوق وقد مارسـه بالفعل كثيرون ، ولكن الجديد أن القائـل به اليوم من قيادة الثـورة الفلسطينيـة ، وتلك مسألـة مهمـة . ويقول "أبو مازن" فى مذكراتـه :[١٠]

"فى أحد الأيام سنـة ١٩٧٠ قـرأت خـبرا فى صحيفـة محليـة يفيـد بـأن يهــود البـلاد العربيـة أصبحوا يشكلون أكثر من نصف سكان إسرائيل . وأثار هــذا الخـبر فضولى وتساؤلاتى ... كيف زودت الدول العربيـة إسرائيل بنصـف سكانها ؟ وكيف يعيشون فيها ؟ وما هى علاقاتهم مع اليهود الغربيــين ؟ — وعـددا مـن الأسئلـة التى لــم أجـد جوابـا عليهـا . وكـان لا بـد مـن بـدء مرحلـة جديـدة مـن القـراءة والاطـلاع للبحـث عن مكنونات إسرائيل وخباياهـا . ومنـذ سنــة ١٩٧٠ وحتـى عـام ١٩٧٧ نشـرت كتابين عن الهجرة اليهوديــة مـن البــلاد العربيــة والـدول الغربيــة

---

(١٠) مذكرات "أبو مازن" بعنوان "طريق أوسلو" ، وقد صدرت فـى بـيروت عـن شـركة المطبوعـات للتوزيـع والنشر سنـة ١٩٩٤ — صفحة ٢٦ .

وعلاقات إسرائيل بأمريكا وأنصار السلام داخل هذا المجتمع ، وغير ذلك من المعلومات الأولية التى تفيد فى تكوين فكرة أولية عن إسرائيل ."

ثم يواصل "أبو مازن" كلامه فيقول :

"وقد توصلت إلى ضرورة العمل على الاتصال بالقوى الإسرائيلية لإجراء حوار معها للوصول إلى السلام" .

وفى أجواء بيروت كان "أبو مازن" يبشر همسا بنظريته ـــ الجديدة القديمة ـــ ويعرضها فى مجموعة نقاط :

١ ـ حان للثورة الفلسطينية أن تفهم عدوها وألا تتعامل معه ككتلة واحدة ، فهناك فى الواقع ثلاث كتل هى : اليهود الغربيون ـ الأشكينازى ، اليهود الشرقيون ـ السيفارديم، ثم إن هناك يهود البلاد العربية الذين هاجروا إلى إسرائيل .

٢ ـــ إن هناك داخل المؤسسة الإسرائيلية ذاتها كثيرين من الذين يرون إمكانية التعايش السلمى مع العرب . وهؤلاء تمثلهم منظمة "السلام الآن" .

٣ ـــ إن اتفاقيات فك الارتباط التى قام بها الرئيس "السادات" مع إسرائيل تحت رعاية "كيسنجر"ـــ بصرف النظر عن نتائجها ـــ خلقت فى إسرائيل أجواء "رطبة" مهيأة لحديث السلام .

كان "أبو مازن" يدعو إلى أفكاره فى بيروت ، ولم يكن حظها من القبول وفيرا حتى انفجرت الحرب الأهلية فى لبنان واشتعلت نيرانها بأوسع وأسخن مما كان محتملا ، وقرر الرئيس "حافظ الأسد" أن يتدخل عسكريا لوقف هذه الحرب وسط تأييد من قوى دولية وافقت ، وربما شجعت .

□

كان الرئيس "حافظ الأسد" على اعتقاد جازم بأن الحرب الأهلية فى لبنان مخطط مدبر من قِبَل "هنرى كيسنجر" الذى أرادها عملية تلفت أنظار الجماهير العربية حتى يتيح لمصر فرصة توقيع اتفاقية فك الارتباط الثانية مع إسرائيل (سبتمبر ١٩٧٥) دون أن تجد فى ذلك معارضة قوية من العالم العربى . وأكثر من ذلك فقد كان الرئيس

"الأسـد" يعتقـد أن اتفاقية فـك الارتبـاط الثانيـة بين مصـر وإسرائيل هـى عمليـة تحضـير نهائـى لتوقيـع سـلام مصـرى ـ إسرائيلى منفـرد .

وفى لقـاء له مع الملك "خالـد" وولـى عهده الأمـير "فهـد" فـى ذلـك الوقت ، تحـدث الرئيس "حافـظ الأسـد" عن أسباب تدخلـه فى لبنـان على النحـو التالـى :

١ ــ إن حرب تشريـن (أكتوبر) كانت معركة مشتركة حاربتها مصـر وسوريـا ، ولكـن الرئيس "السادات" انفـرد بموقـف .

٢ ــ إن القضيـة الفلسطينية قضيـة عربيـة ، ولم يكن مـن حـق "السـادات" أن يتصـرف فيها دون رجوع إلى بقيـة الأمـة .

٣ ــ إن نتائج حـرب أكتوبـر السياسيـة لم تكـن علـى مستـوى معركـة عظيمـة خاضهـا الجيشان المصرى والسـورى .

٤ ــ إن نتائج اتفاقيـات فـك الاشـتباك ، بصـرف النظـر عـن أى اعتبـار آخـر ، تركـت الجبهة السورية وحدها فى مواجهة إسرائيل . وبالتـالى فـإن الضغـط علـى إسـرائيل عسكريا لم يعـد ممكنا ولا موجودا .

٥ ــ وإنه فى ظـل هذه الأحوال لم يكن أمام سوريـا مفـر من التدخل فـى لبنـان عسـكريا لأن انفجار هذا البلـد يكشـف سوريـا . وبالتـالى فـإن التدخـل السـورى لم يكـن فـى مصلحة سوريـا وحدها ، ولا من أجل لبنـان فقط ، وإنما كان عمـلا أملتـه ضـرورات إيجاد حـل عادل وشامل للقضية الفلسطينية .

ثم أضاف الرئيس "الأسـد" لذلك قولـه للملك "خالـد" والأمير "فهـد" :

"إنكـم تلاحظـون أننـا تدخلنـا بحـزم فى لبنـان مرتـين :

● مـرة لمنـع الموارنـة من تصفيـة الفلسطينيـين وإخضـاع المسلمـين ..

● ومـرة ثانية لمنـع "جنبـلاط" و"عرفـات" من إلحـاق هزيمـة ساحقـة بالموارنـة ."

ثم قـال الرئيس "الأسـد" إنه بذلـك حافـظ علـى تركيبـة لبنـان القائمـة علـى تعايـش مسلـم ــ مسيحـى ، فهو لا يقبـل معاملـة المسيحيين فى لبنـان وكأنهم ليسوا عربـا ، وبنفس القدر فهو لا يسمح للمسيحيين فى لبنـان أن يتحولوا عن التزامهـم القومـى .

□

كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تستطيع أن تناور وتداور مع كل القـوى المحليـة فى لبنـان . وكانت تستطيع أن تغير مواقفها وتحالفاتها طبقا لأية توازنات طارئـة — لكـن الجيش السورى فى لبنـان كان قـوة من نـوع مختلـف ، فهـو سـلاح متفـوق بالتـأكيد ، وأى صدام معـه يضـع منظمـة التحريـر الفلسطينية بـين المطرقـة السوريـة والسـندان الإسـرائيلى حتى ولو لم تكن سوريـا تريـد ذلك أو تقصـده . ثم إن هـذا الجيـش السـورى فـى لبنـان كانت وراءه دولة لها مواقـف وسياسـات ، ولها وجـود ونفـوذ إقليمـى ودولـى .

وكانت منظمة التحريـر تسعـى باستمرار إلى توقـى الضغـط السـورى بالنجـدة السعودية فى وقـت غابـت فيه مصـر عن الساحـة . وبالفعل فإن السعودية تدخلت أكثر من مـرة كـان أبرزها تدخـل الأمير "فهـد" فى ديسمبر ١٩٧٦ بهدف "تلطيف" الأوضاع فى لبنـان . وقـدم الأمير "فهـد" مشروعا يحتوى على أربع نقـاط تقضـى بما يلـى :

١ ــ يوقـف القتـال على الأرض اللبنانيـة .

٢ ــ تتعهـد المقاومـة الفلسطينيـة باحـترام سيـادة لبنـان .

٣ ــ تشـكل قـوة ردع عربيـة توضـع تحت تصـرف الرئاسـة اللبنانيـة .

٤ ــ تساهـم الدول العربيـة فى تقديم معونـات للبنـان تمكنه من إعادة تعميره بعد دمـار الحـرب الأهليـة .

لكن هذه القرارات بواقع الحال كانت تصب فى صالـح الوجـود السـورى فـى لبنـان . فحين تألفـت قـوة ردع عربيـة فى لبنـان لم تكن حقائق الأوضاع العربيـة تسمـح إلا أن تكـون هذه القـوة سوريـة . فسوريـا هى القـوة الأقـرب ، وهـى القـوة الأكـثر استعدادا ، ثـم إنهـا القـوة الموجودة فعلا فى لبنان . وهكذا فـإن الوجـود العسكرى السـورى فـى لبنـان لم يعـد قضيـة تصـرف سـورى مستقل ، وإنما حقـق لنفسه فوق ذلك شرعيـة قبـول عربـى عـام .

والحاصـل أن القبـول لم يكـن عربيـا فقـط ، لكنـه كـان أمريكيـا كذلـك ودوليـا بعـد ذلـك.

ومما لا يحتمل الشك أن إسرائيل أيضا "استؤذنت" فـى الدخـول العسـكرى السـورى إلى لبنان، فلا يعقل أن يدخل جيش عربـى كبير إلى الجـوار الإسـرائيلى علـى هـذه الدرجـة مـن القرب ثم يتصور أحد أن ذلك قرار "منفرد" اتخـذه طـرف مـن الأطـراف . وربمـا أن السـؤال الوحيد الذى يطرح نفسه هو "من الذى قام باستئذان إسرائيل فى الدخول السورى إلى لبنان؟" وهناك علامات تشير إلى الولايات المتحدة وخشيتها على الحالـة المسيحيـة فى لبنـان ، كمـا أن هناك علامات أخرى تشير إلى دور قام بـه الملـك "حسـين" فـى هـذه المسـألـة . ولعـل الأكـثر احتمـالا هـو أن الطرفـين الأمريكى والأردنى كليهما كان لهما دور .

□

ويتصل بذلك أن الوجود السورى فى لبنـان لم يتلق الضوء الأخضر إلا بعد شـروط ، أولها بالقطع أن تكون هناك خطوط حمراء ولو غير مرئيـة ترسـم حـدودا للأطـراف لا يتخطونها حتى لا تشتعل الأنـوار الحمـراء .

وربما أن أشـد دواعى نقمـة منظمـة التحريـر على دمشق أن الجيش السـورى الـتزم بهذه الخطوط الحمراء ولم يسمح لنفسه أن يتجاوزها ، حتى فى لحظات كانت درجـة الاستفزاز فيها عالية والتربص شديد !

وكان ذلك وضعـا مقلقـا بالنسبة لقيادة منظمـة التحريـر ، فقد أحـيط الوجـود والنشاط الفلسطينيان فـى لبنـان بطـوق سـورى يصعـب الخـروج منـه . ولم يكن ذلك ما تريـده المنظمـة.

وهنـا زادت قـوة التيار الذى يمثلـه "أبو مازن" والذى كان يطالب باستكشاف إمكانيـة الاتصال بعناصر إسـرائيلية ، تمهيدا لما هو أكثر إذا سمحـت الظـروف بذلك . وكـان التحسب أن الخروج أو الطـرد من لبنـان وارد ــ فإذا وقعت الواقعـة : فإلى أيـن ؟!

وفى مارس ١٩٧٧ طرح موضوع إجـراء اتصالات مع عناصر فى إسـرائيل علـى المجلس الوطنى الفلسطينى ، وكانت تلك أول مرة يناقـش فيها مثل هذا الأمر علانية . وبالفعل أصدر المجلس الوطنى الفلسطينى قـرارا يوم ١٢ مارس ١٩٧٧ دعـا فيـه "إلى اتصالات مـع القـوى اليهودية بما يتـلاءم ومصلحـة الشعـب الفلسطـينى" .

كان النص على "القـوى اليهودية" قصدا أريـد منه تمريـر القرار بحيث يبـدو وكأنـه اتصال بالقوى اليهودية خارج إسرائيل ، وبالتحديد فى أوروبا وفى أمريكـا . ولم تكـن هنـاك معارضـة كـبيرة ضـد ذلك ، وبـدت المحـاولة وكأنهـا مسعـى إلى كسـب إعلامـى بالدرجة الأولـى .

وارتفعت أصوات معارضـة داخـل المؤتمـر الوطـنى الفلسطيـنى تبدى تخوفهـا مـن هـذه الفكـرة . لكن الـرد عليها لـم يكـن صعبـا . ويـروى "أبو مـازن" فى مذكراتـه :[١١]

"قبل أن ينهـى رئيس المجلس الحـوار ويقفـل بـاب النقـاش فـى هـذا الموضـوع طلبت الكلمة لأرد على كل المتحدثين . وقد اكتشـفت أنهـم علـى غـير علـم بـالموضوع الذى يتحدثون عنه ، ولا يعرفون من إسرائيل إلا اسمها ، ولا يفهمون عنها إلا أنهـا

---

(١١) مذكرات "أبو مازن" بعنوان "طريق أوسلـو" ــ صفحـة ٢٧ .

العدو الذى لا بد أن نستمر فى حربه . ولذلك عملت على أن أستغل نقطة الضعف هذه ، وأن أتسلل من هذه الثغرة لأعرض أسلوب التعامل مع الأعداء وطرق الوصول إلى الهدف ، غير مقلل لأهمية البندقية التى هى إحدى وسائلنا للوصول إلى غاياتنا . ووقفت بكل ثقة مرتجلا حديثا دام خمسا وأربعين دقيقة طارحا كل الأفكار التى رغبت فى نقلها إليهم بأسلوب منظم ومسلسل . وقرأت فى عيونهم وصمتهم المطبق ما يفيد بأنهم يستمعون لأول مرة إلى نوع من الكلام لم يسمعوه من قبل ." !!

□

وخرجت توجيهات من "أبو مازن" بموافقة من "ياسر عرفات" إلى عدد من مكاتب المنظمة بأن تبدأ فى إجراء اتصالات بيهود ، طبقا للقرار الصادر عن المجلس الوطنى الفلسطينى ، وأضيف إلى ذلك – وبدون الاستناد إلى القرار – إنه "لا مانع من أن يكون الاتصال بإسرائيليين تعرف عنهم نياتهم الطيبة تجاه السلام مع الفلسطينيين" .

إن تفاصيل بعض هذه الاتصالات لم تُعرف بالكامل ، لكن عواقبها لسوء الحظ كانت تتحدث عن نفسها . فبعض الذين قاموا بها لم يلبثوا أن واجهوا مقاديرهم المأساوية فى ظروف غامضة ، قيل مرة إن بعض المتشددين الفلسطينيين هم الذين فعلوها لوقف أى اتصال مع عناصر السلام الإسرائيليين ، كما قيل فى مرات أخرى إن المخابرات الإسرائيلية ("الموساد") هى التى قامت بها لتمنع الفلسطينيين من الاتصال بعناصر السلام فى إسرائيل.

وهكذا جرى اغتيال السيد "رءوف القبيسى" مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى باريس . ثم جرى اغتيال السيد "على ياسين" مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى الكويت . ثم جرى اغتيال السيد "سعيد حمامى" مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى لندن . ثم جرى اغتيال الدكتور "عز الدين قلق" مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى باريس ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يغتال فيها مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى العاصمة الفرنسية ، وربما كان السبب أن الاتصالات فى باريس كانت أنشط وأسهل . وكان نفس المصير ينتظر السيد "إبراهيم عبد العزيز" مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى قبرص ، والسيد "نعيم خضر" ممثل المنظمة فى بروكسل ، والسيد "ماجد أبو شرارة" مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى روما .

ومع عمليات الاغتيال المستمرة والمتلاحقة لمديرى مكاتب المنظمة فى كل مكان ، فقد بدأت المنظمة تبحث عن مكان فى العالم العربى تجرى منه اتصالاتها السرية فى ظل حماية تعطى ممثليها حدا أدنى من الأمان . وكان اتجاه التفكير فى البداية إلى المغرب، فالملك "الحسن" يشجع عملية السلام . وفى ذلك الوقت شاع أن الملك قام بدور هام فى التمهيد للاتصالات المصرية ــ الإسرائيلية التى أدت إلى رحلة القدس . ثم إن الملك من جانبه كان كثيرا ما ينصح منظمة التحرير بأن تجرى اتصالات استطلاعية مع إسرائيل لا تخسر منها شيئا ، ولعلها تساعدها فى استيضاح النيات والخطط .

لكن الملك "الحسن" فوجئ بقرار الرئيس "السادات" الذهاب شخصيا إلى القدس . كان الملك عندما قام بترتيب اجتماع "موشى ديان" و"حسن التهامى" على استعداد لأن يتصور اجتماعا سريا بين رئيس الوزراء الإسرائيلى وبين رئيس جمهورية مصر . لكن قرار الرئيس "السادات" باختصار الإجراءات والطرق فاجأه على غير انتظار ، واضطره أن يتخذ موقفا متحفظا وصل فيه إلى حد الوقوف مع الآخرين فى شجب زيارة القدس . ولم يكن الملك مستعدا للمغامرة مرة أخرى مع منظمة التحرير .

وطبقا لرواية أحد الذين حضروا اجتماع قادة منظمة التحرير مع الملك ، فإن الملك ــ بعد أن استمع إلى رجاء موجه إليه بأن يرعى تسهيل اتصالات تقوم بها المنظمة مع عناصر يهودية وإسرائيلية ــ بدأ فقال إنه من ناحية المبدأ لا يعارض ، ولكنه يفضل أن تتركز الاتصالات فى مكان واحد . وكانت إشارته واضحة إلى القاهرة . وانتهز الفرصة ليقول للفلسطينيين إنه على استعداد لأن يعطيهم درسا مجانيا فى أساليب التعامل مع رؤساء الدول العربية . وأضاف أنه برغم أن الرئيس "السادات" فاجأه بزيارة القدس كما فاجأ غيره ، فقد لفت نظره أن ردة فعل منظمة التحرير كانت صاخبة ومتجاوزة . وراح الملك يشرح درسه المجانى لسامعيه ، وكان رده مرتبا فى عدة نقاط عرضها الملك واحدة بعد واحدة وهو يعد على أصابع يده ــ قائلا :

١ ــ إذا فأجأكم قول أو فعل لرئيس دولة عربية فأعطوا أنفسكم فرصة للتفكير فيه ٢٤ ساعة على الأقل .

٢ ــ بعد ذلك قولوا إنكم تطلبون النص الكامل لما قيل أو تطلبون إيضاحا أكثر عما جرى فعله .

٣ ــ ابعثوا بالفعل إلى العاصمة المعنية واطلبوا نصوص الأقوال كاملة وتفاصيل الأفعال بقدر ما يعطى لكم .

٤ ــ حينما يجيئكم ما طلبتم امنحوا أنفسكم وقتا لدراسته لا يقل عن أسبوع ، ثم يكون لكم أن تردوا .

٥ ـ ولكى تكسبوا وقتا فإنكم تستطيعون إرسال وفود تتقصى وتستوضح . وإذا أردتم طائرة لتنقلات وفودكم فابعثوا إلى .

٦ ـ فى أى تصرف تقومون به مع دولة ــ تذكروا أن الدول لها هيبة تحرص عليها، وإن رؤساء الدول لهم مكانة لن يتنازلوا عنها . فإذا مسستم هيبة الدول أو مكانة الرؤساء أسأتم لأنفسكم وأنتم الطرف الأضعف لأنكم لستم دولة ولا تملكون وسائل وأدوات الدولة .

وختم الملك بقوله : "هذا درس مجانى ـ كما قلت لكم ـ وأنا أعطيه طواعية ومن أجل المستقبل . فما هو فى انتظاركم أخطر مما مر بكم . وهذه نصيحة لوجه الله ."

وسواء بالقلق من عمليات الاغتيال المستمرة والمتلاحقة لمديرى مكاتب المنظمة فى كل مكان ، أو بسبب نصيحة الملك "الحسن" ـ فقد بدأت المنظمة تتجه إلى التفكير فى نقل اتصالاتها إلى القاهرة . وجرت عملية جس نبض ، وكان هناك ترحيب وتشجيع من جانب الرئيس "السادات"، واستقرت المنظمة على قرار .

ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية قد قطعت علاقاتها فى أى وقت مع مصر ، فمن إدراك لأهمية مصر ، ومن رغبة فى موازنة الضغط السورى ، ومن إحساس بأن القاهرة مركز اتصالات سياسية وإعلامية ــ لم تكن المنظمة تريد لغيابها عن القاهرة أن يكون كاملا . وحتى إذا لم يكن علنيا فإن وجوده تحت غطاء كان ضرورة قصوى يصعب التفريط فيها . (وحتى بعد توقيع اتفاقية "كامب دافيد" وغياب مصر عن المحافل العربية ــ بما فى ذلك مؤتمرات القمة ـ فإن المنظمة ظلت طوال الوقت حريصة على إعلام مصر بما يتم فى غيبتها .)

٥

ستيفن كوهين

" الاتصال بمنظمة التحرير أو ممثليها محظور بالكامل على كل أعضاء البعثات الدبلوماسية الأمريكية "

(تعليمات من "وارين كريستوفر" إلى كل السفارات والقنصليات الأمريكية)

وبدأت الاتصالات من القاهرة توفر للفلسطينيين والإسرائيليين محيطا مأمونا من عدة أوجه :

١ ــ إن القاهرة نفسها على اتصالات بالإسرائيليين ، بعد أن قام الرئيس "السادات" بزيارته الشهيرة إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ .

٢ ــ ثم إن القاهرة من جانبها ترحب بأن تجرى أية اتصالات أخرى فيها ، شاعرة أن ذلك مناسب لمصالحها فى وجه عزلة تتهددها فى عواصم عربية كثيرة .

٣ ــ إن الرئيس "السادات" من جانبه كان ما زال يريد أن يجر القضية الفلسطينية معه إلى إطار علاقته الجديدة مع إسرائيل ، شاعرا أن تلك إضافة تفاوضية إلى موقفه .

٤ ــ إن إجراء هذه الاتصالات فى القاهرة كان على وجه التأكيد عنصرا يحتم على منظمة التحرير أن تتحفظ فى الانسياق مع معارضى مبادرته . ومن وجهة نظره (الرئيس السادات) فإن سماحه للمنظمة بإجراء اتصالات سرية مع عناصر إسرائيلية فى القاهرة يمكنه من السيطرة على حدود هذه الاتصالات ، وذلك بدوره يعطيه إمكانية ضغط على حركة منظمة التحرير .

٥ ــ ثم إن هذا من شأنه تقوية موقف الرئيس "السادات" إزاء الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث يجعله مشرفا إلى حد ما على القضية العربية فى مجملها .

٦ ـ ثم إنه كان بين الدوافع لهذه العملية من وجهة نظـره ، ورغم سـوء ظنـه بمنظمة التحرير ، رغبتـه فى تعميق التناقضات بين المنظمة وبين سوريـا التـى بـدت فـى ذلك الوقت أكثر مراكـز المقاومـة ضـد سياساتـه إزاء إسرائيل .

وفى ذلك الوقت قامت القاهـرة فعلا بترتيب قنـاة اتصال سريـة بـين ممثـل عـن منظمـة التحرير الفلسطينية وهو السـيد "سعيد كمـال" مديـر مكتبهـا فـى القاهــرة ، وبـين الدكتـور "ستيفن كوهين" وهو مفكـر سياسى نشيط يشارك وقتها فى أحـد مراكـز الدراسـات اليهوديـة فى نيويـورك ، وكان هذا المركز يعمــل مباشرة تحـت رعايـة المنظمـة الصهيونيـة العالميـة ، ورئيسها فى ذلك الوقت "فيليب كلوتزنيك" . وبـالفعل عقـد أول اجتمـاع بـين الاثنـين فـى الإسكندرية ، وحضره ممثـل شخصـى للرئيس "أنور السادات" هو السـفير "تحسـين بشـير" مستشاره الصحفى فى ذلك الوقت . وكان الهـدف أن يكون الاتصال أولا بالحركة الصهيونيـة الأمريكية ، وعن طريقها ربما تتفرع وتتوسع الطـرق .

لكن قيادة منظمة التحريـر كانت تمارس هذه المحاولات بريبـة وتوجــس . فالاطمئنـان إلى السياسـة المصريــة فـى تلـك الظروف لم يكـن كامــلا ، كمـا أن نيـات وقـدرة المنظمــة الصهيونية العالمية فـى التأثـير علـى إسـرائيل كـانت ظنـا غـير محقـق ، ثـم إن احتمـال الانكشاف فى أى وقـت كان واردا ، خصوصا وأن بعض القريبين من أجـواء هذه القناة السرية كانوا خليطا من "المتطوعين بالخـير" وهـم كـثر على هوامـش السياسـة العربيـة !

ومن المفارقات أن الرئيس "الأسـد" عـرف ببعض ما يجرى ــ خصوصـا فـى أوروبـا . وربما لفـت نظره تكـرار عمليات الاغتيال الموجهـة إلى مديـرى مكـاتب المنظمـة فـى أوروبـا . وهكذا فإنه حاول فى لقــاء لـه فى سنـة ١٩٧٧ مـع بعـض القيـادات الفلسـطينية ، وبينهـم "أبو إيـاد" و"أبو جهـاد" ، أن يلفـت النظر إلى أنه يعـرف بطـرف ممـا يجـرى فـى الخفـاء على الأقل . وقد صاغ ملاحظته على نحو لا يجعلها قذيفـة موجهة مباشرة ، فقال مـا مؤداه: "عليكم أن تراعوا الحذر فيمـا تقومـون بـه مـن اتصـالات ، ولا بـد أن تتنبهـوا إلى أنكـم إذا اتصلـتم بالشيوعيـين فسوف يقول الملـوك والشـيوخ العـرب إنكـم تريـدون أن تقيمـوا تنظيمـا شيوعيا فى فلسطـين ، وإذا اتصلـتم بقــوى اليسـار الإسـرائيلى فـأنتم بذلـك تعطـون لليمــين العربـى مـبررا يسمح لـه بالاتصال مع اليمين الإسرائيلـى ."

□

كانت منظمة التحرير الفلسطينية تحاول من قنـوات سريـة موازية أن تتصـل بالجماعات اليهودية وبقـوى التأثـير الصهيونية فى الولايات المتحـدة ، وبعناصـر إسـرائيلية أيضـا ــ

لكن المطلب الأمثل والأمل المرتجى تركزا فى اتصال مباشر مع السياسة الأمريكية ، وبطريق أى ممثل عن أجهزتها النافذة .

ولم تكن الولايات المتحدة على استعداد للإصغاء إلى صوت أو سماع طرقة على باب . وتظهر الوثائق الأمريكية صرامة الخطوط التى وضعتها وزارة الخارجية فى واشنطن لأية محاولة اتصال تجرب منظمة التحرير أن تقوم بها .

كان "وارين كريستوفر" (وزير الخارجية الأمريكى الآن) — فى ذلك الوقت (١٩٧٧) مساعدا لوزير الخارجية ("سايروس فانس") . وقد كتب توجيها سريا وجهه إلى كل البعثات الأمريكية فى الخارج ، كان نصه كما يلى :[١٢]

" سرى

إلى كل البعثات الدبلوماسية الأمريكية والقنصلية

١ — لقد لفت نظر الوزارة فى الفترة الأخيرة قيام بعض ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية بمحاولة للاتصال برسميين أمريكيين فى الخارج (خصوصا فى جنيف) . ولذلك فإن الوزارة تود أن تلفت نظر الممثلين الأمريكيين إلى حدود التعامل مع منظمة التحرير .

٢ — إن موقفنا ما زال قائما كما كان ولم يطرأ عليه أى تغيير . وعلى ممثلى الولايات المتحدة ألا يقبلوا أية اتصالات مباشرة — نكرر مباشرة — أو موضوعية مع ممثلى منظمةالتحرير الفلسطينية . إن هذه السياسة تنطبق على أية لقاءات مع أعضاء فى المجالس الرسمية لمنظمة التحرير ، وبالتحديد مع أى من جماعات الفدائيين مثل "فتح" ، والجبهة الديمقراطية، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وغيرها .

٣ — إن الحكومة الأمريكية لا تزال ترفض التعامل مع منظمة التحرير طالما أن هذه المنظمة لا تعترف بحق إسرائيل فى الوجود ، ولا تقبل بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ . وعلى هذا الأساس فإن ممثلى الحكومة الأمريكية فى الخارج عليهم أن يتجنبوا أى عمل يمكن تأويله كخروج عن هذه السياسة أو تخفيف لقواعدها .

٤ — وبالقطع ، فنحن ندرك أن بعض اللقاءات حتمية ولا يمكن تجنبها . ونموذج ذلك ما يحدث فى أروقة الأمم المتحدة التى يحضر فيها ممثلو

---

(١٢) الوثيقة رقم ١١٦٥٢ (.E.O) — رقم الإصدار ٦٠٩٤ بتاريخ ١٨ مايو ١٩٧٧ .

المنظمة بالضرورة ، وأيضا ما حدث فى بيروت حينما جرت اتصالات بشأن رهائن أمريكيين احتجزوا فى أماكن تتواجد فيها منظمة التحرير فى لبنان . وفى مثل هذه الظروف إذا طرأت ، فإن على ممثلى الولايات المتحدة إخطار الوزارة بالوقائع والملابسات ، وطلب التوجيه فى الكيفية التى يتصرفون بها .

٥ ـ كذلك فنحن ندرك أنه فى بعض المناسبات الاجتماعية فى الخارج فإن لقاءات بالمصادفة عرضة لأن تحدث ، وقد يستغلها بعض من لهم علاقة بمنظمة التحرير . وفى مثل هذه الأحوال فإن على ممثلى الولايات المتحدة أن يتجنبوا قدر الإمكان مثل هؤلاء الأشخاص دون أن يتخلوا عن ضرورات اللياقة الدبلوماسية بطريقة قد تبدو حادة . وعليهم أن يكونوا ملتزمين بالمجاملة ، وأن يكونوا فى نفس الوقت حريصين على ألا تظهر المجاملة وكأنها لقاء أو حديث .

إمضاء

وارين كريستوفر "

وكانت المنظمة تحس بهذا الحظر الأمريكى عليها ، وحاول بعض المسئولين فيها أن ينقلوا رسائل إلى الولايات المتحدة وفيها ما كان مقصودا به إقناع واشنطن بأن المنظمة لديها ما تقوله معتدلا ومقبولا . وفى بعض المرات فإن المسئولين الفلسطينيين آثروا أن تكون الرسائل الموجهة إلى واشنطن منقولة من وسطاء غير عرب . وتسجل الوثائق الأمريكية رسالة من هذا النوع أرسلت عن طريق السفير الأسترالى فى دمشق . كان المسئول الفلسطينى الذى تحدث إلى السفير الأسترالى فى العاصمة السورية عضوا فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وكان حديثه بعد توقيع معاهدة "كامب دافيد" ، وكان حديثا صريحا. وحتى إذا قيل إن ما ورد على لسانه يعبر عن رأيه الشخصى ، فمن المؤكد أن حديث عضو فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير مع سفير غربى ــ لا بد أن تكون له دلالاته .

وكانت الوثيقة التى تحوى آراءه التى نقلها السفير الأسترالى إلى السفير الأمريكى فى دمشق كما يلى :

"وزارة الخارجية [١٣]

سرى ــ ٣ مايو ١٩٧٩

---

(١٣) برقية رمزية من وثائق وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ ٣ مايو ١٩٧٩ .

أجرى الأستراليون حديثا طويلا مع (زهدى) النشاشيبى سكرتير اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، وقد أبدى النشاشيبى خلال الحديث وبالتفصيل أنه إذا تأكد التفسير الذى تعطيه مصر والولايات المتحدة لإطار اتفاقية الحكم الذاتى الفلسطينى (التى تم التوصل إليها فى كامب دافيد) فإنه يعتقد أن منظمة التحرير لن تستطيع اعتراض الاتفاقية . وقال إنه يحس شخصيا ـ وقد ناقش ذلك فى اللجنة التنفيذية ـ بأنه إذا جرت مفاوضات بشأن الضفة الغربية وغزة فإن منظمة التحرير من الأفضل لها أن تظل فى خلفية الصورة لسنتين أو ثلاث سنوات تاركة ممثلين لها فى الأراضى المحتلة يشاركون فى هذه المفاوضات . وكان رأيه أن المنظمة قد لا تربط نفسها مباشرة بهذه العملية شريطة أن تحافظ على مسئوليتها الشاملة كممثل لكل الفلسطينيين . وإذا بدا أن مثل هذه المفاوضات عن طريق ممثلين فلسطينيين متصلين بالمنظمة قابلة للنجاح ، ففى هذه الحالة يمكن أن تشارك المنظمة رسميا فى المرحلة الختامية من هذه المفاوضات فى إطار ترتيب من نوع مؤتمر جنيف . وفى هذه الحالة ، فمن الأفضل أن يظل الأردن خارج العملية تماما . وأضاف أن السوريين سوف يعارضون مثل هذا الترتيب . إن النشاشيبى قال أيضا إنه سوف يكون من الصعب إقناع عرفات بأن يترك الجولات الأولى من المفاوضات لغيره . ولكن هناك اتجاهات فى قيادة المنظمة قد تقنعه بذلك ."

وفجأة حدث خرق لقواعد الاتصال الأمريكى . فقد تسربت رواية عن لقاء جرى بين "آندرو يونج" الممثل الأمريكى الدائم فى الأمم المتحدة ، و"زهدى لبيب الطرزى" مندوب منظمة التحرير لدى الأمم المتحدة . وسارعت وزارة الخارجية الأمريكية بتقصى الأمر ، وتأكدت من حدوث لقاء ، وخشيت من تأثيره على خطوط التوجيه الرسمية فى شأن الاتصالات مع ممثلى المنظمة . وسارع "وارين كريستوفر" بإرسال تعميم إلى كل السفارات والقنصليات الأمريكية يضع الأمر فى نصابه ، كان نصه كما يلى :[١٤]

"سرى

إلى كل البعثات الدبلوماسية والقنصلية الأمريكية

إن السفير يونج لم يعقد أى اجتماع سرى مع المستر طرزى ولا مع أى ممثل رسمى لمنظمة التحرير الفلسطينية . وسياسة الولايات المتحدة فى شأن الاتصالات مع منظمة التحرير ما زالت لم تتغير . وما حدث فى هذه الحكاية التى نشرت عن لقاء مزعوم كان كما يلى :

---

(١٤) برقية رقم ١٢٠٦٥ ن/أ .

إن السفير الكويتى فى الأمم المتحدة (عبد الله) بشارة اقترح مساء ٢٣ يوليو على السفير يونج أن يمر عليه فى مقر إقامته ليتحدثا بشأن مسائل معروضة على مجلس الأمن . إن السفير يونج خرج لنزهة على الأقدام مع ابنه ووجد نفسه بقرب بيت بشارة وقرر أن يدخل to drop in . وبينما كان الاثنان يتحدثان على كأس شراب وصل المستر طرزى على غير انتظار إلى بيت بشارة . وطبقا للتوجيهات التى تطلب التعامل فى حدود اللياقة الاجتماعية فإن السفير يونج لم يشأ أن يتخذ موقفا حادا ، وبعد فترة لم تزد على خمس عشرة دقيقة قام وانصرف .

إن السفير يونج تصرف وفقا للتوجيهات . وبالنسبة لواقعة أن السفير يونج كان يصحب ابنه فى زيارته للسفير الكويتى فيمكن ملاحظة أن بشارة له ابن فى عمر قريب من عمر ابن يونج ، وهما يعرفان بعضهما .

إن المستر طرزى لم يشارك بأى حال فى أى مناقشة مع يونج أو مع بشارة فى حضور يونج .

إمضاء

وارين كريستوفر "

وبرغم هذه التفسيرات التى ألقت ماء باردا على شائعة لقاء بين السفير الأمريكى فى الأمم المتحدة وبين ممثل منظمة التحرير المراقب لديها ، فإنه لم تمض غير أيام قليلة حتى كان السفير "يونج" قد طرد من منصبه بصرف النظر عن صداقته الوثيقة بالرئيس "كارتر".

ولم تنجح محاولات الاتصال على اختلاف أنواعها . ولم تخفف الولايات المتحدة قيودها على التعامل مع منظمة التحرير . وكانت المنظمة تشعر بوحشة شديدة فى مناخ بدا معاديا لها ، وراحت تبحث عن سند وحليف تطمئن إليه وترتكن عليه آمنة إلى موقعها بينما هى تبحث عن حل . وجاءتها الحوادث بما أرادت ، ومنحتها فرصة عمر لا تعوض ، وكان ذلك فى طهران التى أصبحت عاصمة للثورة الإسلامية التى قادها "آية الله الخمينى" .

الفصل الثاني

ألعاب فوق السحاب في إيران

الثورة بطبيعتها
حالة فوران ،
والدولة بنشأتها حالة نظام ،
وعندما تتحوّل الثورة إلى دولة
فلا بد لكل من كان يتعامل مع الثورة
أن يعيد حساباته
وأن يفهم أن هناك قواعد جديدة
تفرض نفسها
بقوة الأشياء !

١

رضا بهلوى

" الشاه أمر لكم بخمسة وعشرين مليون دولار مساعدة "

(الجنرال "ناصرى" مدير "السافاك" ـــ المخابرات الإيرانية فى وقت الشاه ـــ لمندوب رسمى عن منظمة التحرير)

كانت الثورة الإيرانية نجدة من السماء لمنظمة التحرير الفلسطينية . فقد كانت المنظمة على علاقة وثيقة بعدد من كبار معاونى "آية الله الخمينى" ، وبينهم الدكتور "إبراهيم يزدى" الذى أصبح بعد الثورة نائبا لرئيس الوزراء ، و"مصطفى شمران" الذى أصبح بعد الثورة وزيرا للدفاع ، و"صادق قطب زاده" الذى أصبح بعد الثورة وزيرا للخارجية ، وعشرات غير هؤلاء من الشباب الإيرانى الذى كان منخرطا فى صفوف الثورة ضد الشاه ، والذى انضوى فى مراحلها الأخيرة تحت راية "آية الله الخمينى" .

كانوا جميعا فى وقت من الأوقات متطوعين للتدريب فى المعسكرات التابعة للمقاومة الفلسطينية فى جنوب لبنان . وكان جنوب لبنان تاريخيا معقلا شيعيا قام بدور بارز فى حياة إيران الدينية والفكرية ، ذلك أنه عندما أراد الشاه "اسماعيل الصفوى" فى أواخر القرن السادس عشر أن يجعل من المذهب الشيعى الجعفرى مذهبا رسميا لـ"فارس" (إيران) فإنه لجأ إلى منطقة جبل "عامل" فى جنوب لبنان ليحصل من هناك على عدد إضافى من العلماء يساعدون بسرعة على نشر المذهب الشيعى فى بلاده . كان جبل "عامل" معقلا لهجرة شيعية خرجت من مصر بعد سقوط دولة الفاطميين ، واستقرت فى جبال لبنان مثل غيرها من الطوائف الدينية التى أحست بخطر الاضطهاد خصوصا عندما بسطت الإمبراطورية العثمانية سيطرتها على كل منطقة الشام . وظلت العلاقات بين

منطقة جبل "عامل" وبين "فارس" موصولة بغير انقطاع ، وكان المجتهدون من المراكز الشيعية الكبرى فى "النجف" و"أصفهان" و"قم" كثيرا ما يترددون على جنوب لبنان ويستقرون هناك ضمن علاقات وثيقة قوية ومتبادلة بين مركز شيعى مطل على البحر الأبيض من لبنان ، وقاعدة شيعية قائمة على رأس الخليج ومحيطة بكل شاطئه الشرقى وهى الدولة الفارسية (الإيرانية فيما بعد) .

وحين ظهر الإمام "موسى الصدر" فى "صور" بجنوب لبنان وأنشأ "حركة المحرومين" ، وأصبحت هذه الحركة قوة ضخمة من قوى المقاومة ضد إسرائيل ، فإن العلاقات زادت توثقا بين المقاومة الفلسطينية عموما وبين القوة الشيعية الكبرى فى لبنان. وكان أن نشأت صلات على مستويات متعددة متجددة وقوية بين إيران وجنوب لبنان . كانت هناك علاقات من نوع ما بين الإمام "موسى الصدر" ونظام الشاه فى إيران . وفى نفس الوقت فلم تكن منشآت التدريب العسكرى فى جنوب لبنان مغلقة أمام شباب إيرانى يريد أن يلتحق بها للحصول على قدر من التدريب العسكرى باسم القتال فى فلسطين ، أو بنية العمل المسلح ضد نظام الشاه الذى بدا أنه يفقد سيطرته على الأوضاع فى طهران ويواجه عواصف ثورة وطنية أخذت فى النهاية طابعا إسلاميا بظهور شخصية "الخمينى" .

□

لم تكن منظمة التحرير غريبة عن إيران ، فقد سبقت لها صلات مع نظام الشاه نفسه . وكان الذى توسط فى هذه الصلات فى مرحلة من المراحل هو الرئيس "أنور السادات" نفسه . ففى أثناء محاولته لتهدئة خواطر منظمة التحرير عقب اتفاق فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل ، لوّح للمنظمة باستعداده للتدخل لدى الشاه كى يساعد العمل الفلسطينى بالمال والنفوذ . وبالفعل فإن المنظمة أوفدت مندوبا عنها التقى مع الجنرال "نعمة الله ناصرى" مدير "السافاك" (المخابرات الإيرانية) الذى استهل حديثه مع هذا المندوب بقوله إنه تلقى أمرا من "الشاهنشاه" بأن يتوصل مع منظمة التحرير إلى ما يرضيها لأن الإمبراطور ـ كما قال الجنرال "ناصرى" ـ "مرتبط بقضية فلسطين كمسلم يهمه مصير القدس" .

ودارت مناقشة حول نوع المساعدات التى يمكن أن تقدمها إيران للمقاومة الفلسطينية. ثم تبين أن الشاه لديه صفقة يريد أن يعقدها مع الفلسطينيين ، فهو "على استعداد لمساعدة

المقاومة ماديا إذا قامت المنظمة ببذل جهودها لإغلاق معسكرات التدريب التى التحق بها عدد كبير من الشباب الإيرانى المعادى لنظامه - فى جنوب لبنان ."

وعرض الجنرال "ناصرى" باسم الشاه أن يقدم للمقاومة الفلسطينية تبرعا بمقدار ٢٥ مليون دولار .

وتطرق الحديث لتفاصيل حميمة إلى درجة أن ممثل المنظمة أبدى رغبته فى الحصول على كمية من جوازات السفر الإيرانية لكى تستعملها عناصر المقاومة فى أوروبا أثناء تنقلاتها بأسماء مستعارة بين عواصم غربية تفرض عليهم الضرورات أن يذهبوا إليها ، وهم يذهبون أحيانا بجوازات سفر مصرية وأردنية وسورية وغير ذلك ، ولكن المشكلة أن سلطات البوليس فى أوروبا تشك دائما فى جوازات السفر العربية ، وأما إذا تعلق الأمر بجوازات سفر إيرانية فإن البوليس الأوروبى قد يطمئن .

وكان المدهش بعد هذا اللقاء فى طهران أن وزارة الخارجية الأمريكية وجهت برقية سرية إلى كل سفاراتها وقنصلياتها (برقم ١٢٥٨٧٨) جاءت بدايتها على النحو التالى :

"١ - سرى

٢ - علمت الوزارة أن الفلسطينيين حصلوا على جوازات سفر إيرانية . نذكركم أيضا أن الفلسطينيين لديهم مجموعات من جوازات سفر ليبية وتونسية وكويتية وجزائرية وسودانية ولبنانية وعراقية . كما يتوفر لديهم أيضا عدد من جوازات السفر الإسرائيلية . يؤخذ ذلك فى الاعتبار لأن هذه الجوازات قد يحملها أعضاء منظمات إرهابية .

٣ - على كل القنصليات أن تعطى اهتماما خاصا للجوازات الإيرانية التى تلوح شبهة حول حامليها حتى لو قدموا أنفسهم كمهنيين محترمين أو رجال أعمال .

....

............"

إن معظم بنود الاتفاق مع الجنرال "ناصرى" رئيس "السافاك" لم تنفذ فى الغالب . فقد جرى تحويل خمسة ملايين دولار دفعة أولى ، ولم تلحقها دفعات أخرى طبقا للمعلومات المتاحة . كذلك جرى غلق أحد معسكرات التدريب فى جنوب لبنان ، ولكن من كانوا فيه من المتطوعين التحقوا بمعسكرات أخرى . ثم إن برقية وزارة الخارجية الأمريكية إلى سفاراتها وقنصلياتها توحى بأن المعلومات التى حصلت عليها الخارجية الأمريكية بشأن

حصـــول الفلسطـــينيين على جـــوازات سـفر إيرانيـــة ـــ ربمـا كـان مصدرهـا الجـنرال "ناصـرى" نفســه .

□

كان قيام الثـورة الإسلامية وانتصارها فى إيـران فرصـة العمـر بالنسـبة لمنظمـة التحرير التى كانت تحتاج إلى حليـف إقليمـى كبـير تستنـد عليه ـ وكانت فـرص المنظمة فـى هـذا الحلـف أكـبر من مجرد العلاقة الناشئة عن تدريب عـدد من الشباب المقربين من "الخميـنى" داخـــل معسكـــرات التدريب الفلسطينى فى يـــوم مـن الأيـــام . وإنمـا كـانت الأسبـاب أوسـع وأهـم :

- فى المراحل الحاسمة من الثورة وحين بـدا انتصارها محتملا ضد جيش الشــاه ـــ احتاجت اللجان الثورية إلى كميات من الأسلحة ، وبالذات المدافع الرشاشة . وهنـاك ما يشير إلى أن المقاومة الفلسطينية تولت فى ذلك الوقت تقديم كميـات مـن الأسلحة والذخائر ، تم تهريبها سـرا إلى إيران .
- وكانت نظـرة الكثيرين من قـادة الثـورة الإسلاميـة إلى المقاومة الفلسطينية مـن تأثـير رفقـة السلاح مع المقاتلين الشيعـة فى جنوب لبنـان ـــ شهادة كافية لتقديم المقاومة الفلسطينية فى صـورة مضيئـة للثـورة الإسلاميـة الإيرانيـة .
- وساعد على تجميل صورة المقاومة الفلسطينية أمام الثـورة الإسلامية وأمـام جماهيرهـا حقيقـة أن إسرائيل كانت على علاقـة وثيقـة بنظام الشـاه ، وبالشـاه نفسه . بل إن كثيرين من مستشاريه خصوصا فى مجال الأمـن والمعلومات كـانوا مـن الإسـرائيليين، وأشهرهم فى ذلك الوقت "يورى لوبرانى" الذى أصبح بعـد انتصـار الثـورة الإيرانيـة مسئولا سياسيا وأمنيا فى مواجهـة النشاط المتزايد ضـد إسرائيل من جنوب لبنـان .
- ثم زاد على ذلك أن التوجـــه الإسلامـــى للثـورة وضـــع مسـألة القـدس فـى مكانـة خاصـة ترقـى بها إلى مستوى قضيـة داخلية إيرانيـة . وكان "آيـة اللـــه الخمينـى" نفســه حاسمـا فى موضوع قبلـة الإسـلام الأولـى لا يظهـر فيـه لينـا أو يرضـــى فيـــه بنصـف حـل .

ومع أن بعض الآراء تذهـب إلى القـول بأن الاختيـار الإيرانـــى للقضيـة الفلسـطينية كـان ذريعة سياسية للنظام الثورى الجديد فى إيـران ينفـذ عن طريقه إلى العالم العربـى ويؤثـر فـى

جماهيره ، فإن الحقيقة الأكبر أن هذا الاختيار للثورة الفلسطينية أصبح سياسة إيرانية تقف وراءها قوة النظام الثورى الجديد وكافة إمكانيات دولته .

ومع استقرار سلطة النظام الثورى الإسلامى فى طهران فإن تعاطف هذا النظام مع المقاومة الفلسطينية عبر عن نفسه بأكثر من وسيلة ، وقد أكدته تصرفات عملية رآها الجميع :

- منها أن البعثة الإسرائيلية فى طهران ومكاتبها فى تبريز وأصفهان تم إغلاقها ، ثم صدرت الأوامر بترحيل موظفيها ، وأولهم "يورى لوبرانى" الذى كان قائما بأعمال السفارة الإسرائيلية فى العاصمة الإيرانية .
- ومنها تخصيص مقر السفارة الإسرائيلية السابق ليكون مقرا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومسكنا لمثلها عند وصوله إلى طهران .
- ثم كان أن صدر بيان عن مكتب "الإمام" يوجه أجهزة الدولة الإيرانية إلى وقف أى شحنات أو منتجات بترولية إلى إسرائيل ، مع تطبيق أحكام مقاطعتها اقتصاديا على نفس النهج الذى تتبعه المقاطعة العربية .
- ومنها قرار بتقديم كل المساعدات الممكنة للمقاومة الفلسطينية ، ومن ذلك صدر توجيه من مكتب "الإمام" إلى رئيس الوزراء "مهدى بازرجان" بتخصيص مبلغ خمسين مليون دولار "دعما للمقاومة الفلسطينية" .

ثم كان السيد "ياسر عرفات" أول زائر عربى إلى إيران الثورة ، وكان فى انتظاره استقبال أبطال .

وبدا أن المقاومة الفلسطينية عثرت أخيرا على حليف إقليمى تعتمد عليه وترتكن إليه ، ويعوضها عن غياب مصر ، وعن جفاء سوريا ، وعن عداء الأردن ، وعن حقل الألغام فى لبنان . كذلك فإن هذا العون والسند يعطيانها قوة أمام الولايات المتحدة الأمريكية التى بدت مأخوذة بنجاح الثورة ، وقلقة من احتمالات هذا النجاح على أوضاع منطقة الشرق الأوسط بأسرها .

□

وربما كان من سوء الحظ أن الثورة الإيرانية اقتحمت أرجاء منطقة الشرق الأوسط فى وقت كانت فيه المنطقة مشغولة بالتفاوض مع الولايات المتحدة ، أو مع إسرائيل بعدها .

وفي حين أن الرئيس "السادات" لم يكن يريد لأى حدث ، مهما كانت قيمته ، أن يعترض طريق مفاوضاته مع إسرائيل ، فإن المقاومة الفلسطينية بدورها كانت مشغولة فى الوقت ذاته بفتح باب للاتصال مع الولايات المتحدة . وكانت الثورة الإيرانية على طريق صدام مع السياسة المصرية لأسباب عديدة ، بينها أنها لم تكن على استعداد لمنطق وأحكام التفاوض مع الولايات المتحدة ، خصوصا من المقاومة الفلسطينية . ففى تلك الأيام كانت إيران تعيش حالة الثورة كاملة ، وكانت الدولة وضروراتها بعيدة عن الساحة لم تفرض قواعدها بعد . وكان محتملا أن يقع احتكاك بين قوة اندفاع ثورة إسلامية ما زالت فى بداياتها المتدفقة ، مع حسابات ثورة فلسطينية تريد أن تتفاوض من أرضية مُعَرّضة للانزلاق !

ثم زادت مخاطر الانزلاق لسبب أشمل وهو أن ظلال الشك وقعت على صورة العرب بدون استثناء في طهران الثورة . فقد تناقضت صورة العرب فى خيال الثوار الإيرانيين مع واقع العرب الراهن كما رأوه حين جاءوا للسلطة ــ ذلك أنه تحت تأثير ذكريات سابقة (التعاطف العربى مع ثورة "مصدق") [1] ، وعلاقات لاحقة (المراسلات بين "جمال عبد الناصر" و"الخمينى" طوال الستينات) ــ تبدت أحوال العرب مجافية لما تحمله الذكريات القديمة ، مضافا إليه طوارئ الظروف المستجدة . فمنذ البداية اتخذ الرئيس "السادات" موقف عداء ضد الثورة الإيرانية ، وكان ذلك بدافع من صداقته لشاه إيران . وبرغم أن الشاه كان هو المورد الرئيسى لإسرائيل بالبترول ــ فقد راجت فى القاهرة دعاوى رسمية لا أساس لها بأن تأييد مصر للشاه ضد الثورة راجع إلى إمدادات بترولية قدمها لمصر خلال حرب أكتوبر ، وكانت القيادة الثورية فى إيران تعرف من الحقيقة ما هو مخالف لذلك . وربما كان أقسى من ذلك وقعا على قيادة الثورة الإيرانية أن الأزهر وغيره من المؤسسات الدينية دفع دفعا إلى عداء مع الثورة الإيرانية ، وذلك بتعلات متعددة ، منها أن بيانات رسمية من مراجع دينية صدرت فى القاهرة تدين الثورة الإسلامية مرة بأنها "تقحم الدين" فى مجال السياسة ، ومرة بأنها عصيان "لولى الأمر" ، ومرة ثالثة بأنها "إيقاظ للفتنة النائمة" . وكانت تلك جميعا إملاءات سياسية فُرِضَت على المراجع الدينية فى مصر دون داع أو مقتضٍ .

ومن ناحية مقابلة فإن الثورة الإسلامية كانت لديها أخطاؤها فى فهم الواقع العربى . فالثورة الإسلامية لم تكن تعترف بالقومية ، متصورة أن الرابط الدينى يمكن تحويله إلى إطار سياسى يشمل العالم الإسلامى كله بمن فيه العرب . وحتى إذا كان هناك بين العرب من يرون بمثل هذا الاتجاه فى صورة خلافة إسلامية ، فقد كان صعبا قبوله إذا كان

---

(١) رجاء مراجعة كتاب "مدافع آية الله" لمحمد حسنين هيكل والصادر عن "دار الشروق"، وهو ترجمة عربية لكتاب "عودة آية الله" الصادر عن دار "أندريه دويتش" فى لندن سنة ١٩٨١ .

النداء إليه من مرجعية تمثل أقلية فى المذاهب الإسلامية . ثم إن تلك ــ قبل وبعد كل شيء ــ قفزة واسعة فوق تاريخ طويل وحاضر معقد ، وحقائق قوة راهنة لا تدع مجالا للخيال ــ فضلا عن التفكير ــ فى خلافة إسلامية !

وبدأت سلسلة من الأفعال وردود الأفعال أدت بشكل أو بآخر إلى تعكير الأجواء بالنسبة للعرب فى العاصمة الإيرانية . فالرئيس "السادات" قرر بلا مبرر أن يستضيف شاه إيران المخلوع فى مصر بمقولة الإنسانية والوفاء . وكانت دول الغرب قد رفضت بغير استثناء أن تقدم له ملجأ . ولكن بلدا عربيا إسلاميا تطوع لهذه المهمة بغير مصلحة . وفى نفس الوقت فإن النداء الشيعى الموجه بلا تمييز إلى الرابط القومى للعراق بدا مهددا لبلد عربى ــ رئيسى ــ بالانفراط .

وهكذا كان جو العلاقات العربية ــ الإيرانية بصفة عامة يسير إلى حالة أزمة .

ثم استجدت على ذلك تصرفات بدت غير مقبولة لقيادات الثورة الإسلامية . ذلك أنه فى الظروف المضطربة التى صاحبت الثورة الإسلامية قام بعض من الممثلين العرب فى إيران بترحيل عائلاتهم . وفى أجواء القلق فإن علاقات سابقة بين هؤلاء الممثلين العرب وبين عائلات من الأرستقراطية الإيرانية السابقة ــ اتخذت أشكالا يمكن تأويلها . فبعض السيدات من أسر إيرانية لجأن إلى بعثات عربية ، وبعضهن أقمن هناك فى أحوال يمكن أن تثير تحفظات . ثم إن البعثات العربية ظلت تتصرف كما لو أنه لم يحدث شيء فى إيران ، فقد راحت ــ وبينها بعثات دول إسلامية ــ تستورد المشروبات الكحولية بينما تحرجت بعثات غربية عن أن تفعل ذلك . ثم إن بعض أفراد البعثات العربية ، فى إحساسهم بنوع من الحصانة بغير أساس ، أضاعوا جزءا كبيرا من وقتهم فى تناقل أخبار وشائعات وصل أمرها إلى السلطات المختصة فى طهران واعتبرته علامات جفاء .

ثم تورط بعض الممثلين العرب أكثر فشاركوا فى تهريب ثروات على شكل أموال أو تحف فنية لحساب أصحابها من أصدقائهم القدامى ، وذلك عن طريق حقائبهم الدبلوماسية. وسبب ذلك ضيقا للإسلاميين القادمين إلى الساحة بجموح الثورة ، ولم تكن المتابعة صعبة لأن بعض العناصر من أجهزة الأمن فى نظام الشاه ظلت بطبيعة الحال تواصل عملها فى خدمة النظام الجديد . وأضيف ذلك إلى أن مواقف الدول العربية من إيران الثورة شابها التوتر رغم تعاطف عربى شعبى واضح ظهرت انعكاساته فى طهران ، وبدوره فإن ذلك دفع إلى تصور إيرانى مبالغ فيه بوجود تناقض بين الحكومات والشعوب فى العالم العربى ، وظنت السلطة الإيرانية الجديدة أن فى وسعها استغلاله بتوجيه الخطاب إلى الشعوب من فوق رءوس حكوماتها ، وتلبدت الأجواء أكثر .

ومع ذلك فقد ظل فى إيران كثيرون ، وفى مقدمتهم "آية الله الخمينى" نفسه ، يفرقون بين الثورة الفلسطينية وبين مجتمع الدول العربية . وسرى ظن فى دوائر الحكم في طهران بأن قيادات الثورة الفلسطينية فى بيروت أقرب إلى طهران منها إلى أى عاصمة عربية .

وإلى حد ما وفى الأيام الأولى فإن هذا الظن لم يكن مبالغا فيه .

٢

طهـــــــــــران

" هناك عميل مجهول لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بين الفلسطينيين هنا فى طهران "

(مذكرة من الطلبة الإيرانيين الذين احتلوا السفارة الأمريكية فى طهران قدموها إلى "آية الله الخمينى")

لم تلبث دواعى سوء الفهم أن أخذت فى الظهور بين الثورة الإسلامية وبين منظمة التحرير الفلسطينية .

إن المنظمة وجدت أعدادا من المتطوعين القدامى فى معسكراتها فى جنوب لبنان يتولون أكبر مناصب الدولة فى طهران ، بما فيها الخارجية والدفاع — ثم وجدت قضية فلسطين والقدس تتحول إلى بعض أهم شعارات الثورة الإسلامية فى إيران — ثم وجدت قادتها الذين هرعوا إلى طهران بعد الثورة يستقبلون استقبال الأبطال — وأخذتها النشوة بعيدا عن الواقع وبدأت تخطئ فى حسابات القوة — ونسيت فى غمرة الحماس أن الثورة الإسلامية تتحول بسرعة إلى نظام ، وإن هذا النظام سوف يرث دولة لها أسباب قوتها ولها أدواتها ، ولها هياكلها الإدارية والفنية ، وإن التعامل مع الدولة الإيرانية بعد نجاح الثورة عليه أن يجد لنفسه أسلوبا مقبولا .

□

والشاهد أن صورة الأخطاء التى وقعت من جانب الفلسطينيين بحسن ظن أو بسوء تقدير تظهر كلها فى الوثائق الأمريكية التى عثر عليها الطلبة الإيرانيون الذين احتلوا

السفارة الأمريكية فى طهران فى نوفمبر سنة ١٩٧٩ . إن موظفى السفارة الأمريكية حاولوا التخلص من الوثائق التى كانت فى مكاتبهم بواسطة حرقها أو بوضعها فى آلات خاصة لتمزيق الوثائق . ولكن كثيرا من هذه الوثائق جرى استنقاذها من لهب الحريق ، كما أن تلك التى وضعت فى أجهزة التمزيق أعيد لصقها بصبر خرافى .

إن مجموعات هذه الوثائق تكشف بأكثر من أى وضع آخر صورا من الأخطاء التى وقع فيها الفلسطينيون فى علاقتهم بالثورة الإيرانية .

●●● تشير الوثيقة (سرى جدا) رقم ١٩٤٠١ إلى أن منظمة التحرير الفلسطينية "طلبت أن تبعث بخبراء عسكريين لتدريب الجيش الإيرانى أثناء محاولة الثورة الإيرانية إعادة إنشائه بعد تفكك جيش الشاه" . وبالطبع فلم تكن لدى منظمة التحرير خبرة فى إعادة إنشاء جيش نظامى . وبالتأكيد فقد كانت هناك عناصر باقية من هذا الجيش أقدر على أداء هذه المهمة من أية عناصر يستطيع الفلسطينيون تقديمها للثورة الإسلامية . وتشير نفس الوثيقة إلى أنه بعد مناقشات قَبل الإيرانيون بخبراء فلسطينيين يشاركون فى تدريب الحرس الشعبى الإيرانى وليس الجيش الإيرانى. ويضيف هذا التقرير أن بعض المدربين الفلسطينيين بدءوا عملهم فعلا فى معسكر الحرس الثورى فى عباس آباد .

●●● وتشير الوثيقة (سرى جدا) رقم ٩٤٥٩٧٧ إلى أن الفلسطينيين اقترحوا على وزارة البترول الإيرانية إمدادها بخبراء فلسطينيين فى الطاقة يساعدون فى عمليات البترول المختلفة . ولم تكن وزارة البترول الإيرانية على استعداد لذلك ، فقد وجدت أن تحت تصرفها من الخبراء الإيرانيين ما يغنيها . وحتى إذا ظهرت حاجة إلى خبراء — فإن الفلسطينيين ليسوا هم الأقرب للخبرة فى مسائل البترول ، والسبب البسيط لذلك أنهم لا يملكون تجربة سابقة مشهودا لها فى هذه المجالات .

●●● وتشير الوثيقة (سرى جدا) رقم ١٠٧٠٢٧ إلى عرض قدمته عناصر فلسطينية منتسبة إلى منظمة التحرير باستعدادها للتوسط فى عمليات شراء أسلحة لحساب النظام الجديد فى طهران . ومرة أخرى لم يكن مقنعا بالنسبة للثورة التى تحولت إلى دولة أن تعهد بمهام حصولها على ما تريد من سلاح إلى عناصر فلسطينية قد تكون لها خبرة بالأسلحة الصغيرة، لكنها لا تملك الخبرة الضرورية بنوع التسليح الذى تحتاج له دولة .

كان ذلك فى مجال التصرفات .

□

لكن الوثائق التى عثر عليها فى السفارة الأمريكية فى طهران تقدم بعد ذلك صورة لخطوات فلسطينية أخرى تبدو متجاوزة ، وتكاد أن تقترب لتصبح نوعا من السياسات شبه المستقلة تثير الشكوك .

●●● تشير الوثيقة (سرى جدا) رقم ١٠٩٢٤ إلى أن منظمة التحرير طلبت السماح لها بإنشاء مكتب فى "خوزستان" ، وهى الإقليم الإيرانى الذى كان العراق يطالب به ويعتبره إقليما عربيا ضمته إيران تعسفا أثناء عملية تآكل الخلافة العثمانية . ولم ينتظر الفلسطينيون إذنا رسميا بفتح مكتب فى "خوزستان" ، وإنما توجهت عناصر فلسطينية بالفعل إلى عاصمة الإقليم وبدأت تعد لإنشاء مكتب فيه . وتشير الوثيقة الأمريكية إلى أن "إبراهيم يزدى" نائب رئيس الوزراء أكد لدبلوماسيين آسيويين "أن الحكومة الإيرانية لم تعط إذنا لمنظمة التحرير الفلسطينية بإنشاء مكتب فى الأهواز (خوزستان)" . وقال "يزدى" طبقا للوثيقة : "إن إنشاء مثل هذا المكتب ليس فى صالحنا ولا هو فى صالح منظمة التحرير لأن الموقف فى المنطقة لا يحتمل ذلك . وقد ناقشنا الأمر مع ممثلى المنظمة فى طهران وقاموا بإغلاق مكتبهم هناك ."

●●● وتشير الوثيقة (سرى جدا) رقم ٥٤٥٧٢ إلى أن مندوبا عن منظمة التحرير عرض على نائب رئيس الوزراء الإيرانى الدكتور "إبراهيم يزدى" أن تقبل الدولة الإسلامية فى إيران بوساطة فلسطينية فى مسألة الجزر المتنازع عليها بين إيران والإمارات العربية المتحدة، وكانت تلك قضية معلقة من أيام حكم الشاه الذى استولى بالقوة فعلا على جزيرتى "طنب الكبرى" و"طنب الصغرى" ونصف جزيرة "أبو موسى" . وتروى الوثيقة الأمريكية نقلا عن مصدر إيرانى أن وزارة الخارجية الإيرانية تشككت "فى جدوى الوساطة حتى من ناحية التوقيت". وكان الرد الفلسطينى هو أن إعلان الثورة الإسلامية "لقبولها وساطة منظمة التحرير ، حتى وإن لم يؤد إلى نتيجة عملية ، يمكن أن يرفع أسهم المنظمة إزاء حكام الإمارات ، ومن ثم يساعدونها فى الحصول على معونات مالية منهم أكثر" .

ولكن ذلك لم يكن مقبولا .

□

ثم تعدت الأمور حدود المسموح به حين بدا أن منظمة التحرير تفكر فى خطة تتجاوز كل إمكانياتها . فقد طلبت المنظمة من طهران أن تسمح لها بوضع قوات فلسطينية فى مضيق "هرمز" ، وفى نفس الوقت كانت هناك أنباء تشير إلى أن المنظمة حصلت من

حكومة اليمن على جزيرة من مجموعة جـزر بـاب المنـدب ، وأنهـا وضعـت فيهـا قـوات فلسطينيـة . وترددت أخبار مكتومة فـى الدوائـر المطلعـة الحاكمـة فـى الخليـج تشـير إلى أن المنظمة تريد أن تعطـى نفسها قـوة فى الضغـط على ممـرات نقـل البـترول . ذلـك أنـه مـع وجود قـوات فلسطينيـة على مضيق "هرمـز" وعلى جزيرة "دهلـك" فى باب المنـدب ، ومـع إمكانية تركيب صواريخ فى هذين الموقعين ـ فإن المنظمة تريد أن تكون لها كلمـة فى الممرات البحرية لبترول الخليـج .

وتقـول البرقيـة رقـم ١٦٨١ التى وجـدت فـى مكـاتب السـفارة الأمريكيـة فـى طهـران بالنـص ما يلـى :[٢]

"من ويلـى مارشـال (القائم بأعمال السفارة الأمريكية فى مسقـط)

إلى وزارة الخارجيـة ـــ واشنطـن

فى معرض مناقشة مع وكيل وزارة الخارجية العمانية يوسـف العلـوى قـال إن لديهـم معلومـات مـن مصـادر فلسـطينيـة عليـا تقـول إن منـدوب منظمـة التحريـر الفلسطينية فى طهران هانى الحسـن طلـب من السـلطات الإيرانيـة أن تسـمح بوضـع قـوات فلسطينية فى جـزر "طنـب" و"أبو موسـى" ، وذلك ليكـون للمنظمـة وجـود مؤثـر . إن العلـوى قـال للسـفير إنـه ليـس متـأكدا مـن رد الإيرانيـين علـى الطلـب الفلسطيـنى ، وما إذا كانوا قد استجـابوا لـه أو رفضـوه . لكـن الطلـب فـى حـد ذاتـه مقلـق للعمـانيين . إن هـذا الأمـر يقتضـى التأكـد مـن المعلومـات وإخطارنا بها هنـا .

ويلـى "

وفـى مكتـب مسئول وكالـة المخـابرات المركزيـة فـى طهـران وجـد الطلبـة الإيرانيـون الذيـن احتجـزوا الرهـائن مجموعـة وثـائـق دعتهـم إلى إرسـال منـدوب عنهـم توجـه إلى مقابلـة الإمـام "الخميـنى" فـى "قـم" ، يحمـل معـه تقريـرا بتجميـع لعـدد مـن الوثـائق الممزقة والتـى أعيـد تركيبهـا .

وكان التقرير يشـير فى الصفحة الثالثة منـه إلى قضيـة خطـيرة . فقد ذكـر التقريـر أن "وكالـة المخـابرات المركزيـة اسـتخدمت عناصـر فلسطينيـة فـى التجسـس علـى الثـورة

---

(٢) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة لهذه البرقيـة تحت رقـم (٥) .

الإيرانيـــة". ثـم مضـــي التقريـر يعـــــد مجموعـات الوثـائق التـى تثبــــت الادعـــاء ضـــد الفلسطينيـين قائـلا :[٣]

"إن هناك عميلا مجهولا يقــوم بــدور كبـير لصـالح وكالـة المخـابرات المركزيـة الأمريكية . والإشارات إليه تتعـدد باسم "م. ج. بيراج" فى بعـض المرات ، و"ب/أ" فى مرات أخرى ، وكل هذه الإشارات تشير إلى ما يلـى :

١ ـ إن "ب/أ" شخصية نافذة فى منظمة فتـح ، وذلك هــو السبــب الـذى دفــع وكالة المخابرات المركزية إلى استعماله . وهـو كمـا يظهـر مـن الإشارات خبــير فـى التدريب العسكرى ، فقد وصـف فى مجموعة الوثائـــق بأنـه "خبــير بكـل أساليب التدريب المتبعـة فى منظمة فتـح" .

٢ ـ إن الوثائق لا تظهر متى جرى تجنيد "ب/أ" ، ولكن هنـاك إشـارات إلى أن تعامله مع وكالة المخابرات المركزية سابق لأن هناك تلميحات إليه فـى مركــز جمــع معلومات المخابرات خلال وثائـق يعـود تاريخها إلى أيـام الشاه .

٣ ـ إنـه ليـس واضحــا متـى جــاء "ب/أ" إلى إيـــران بعـد الثــورة الإســلامية وبعـد أن بــدأ التعــاون بـين الجمهوريـــة الإســلامية ومنظمـــة التحريـــر . ولكـــن الوثــائق تبــين أن هـذا الشخــــص يحتــــل مكانـــة رفيعـــة بـــين المجموعـــة التـــى جـــاءت لتدريـــب الحــرس الثـــورى .

٤ ـ هناك وثيقـة تشير إلى أن هـذا الشخــص معــاد بشـدة للشيوعية ، ولكـن ليس هناك سبـب ظاهر لهذا الموقـف مـن جانبـــه . وكـان ذلـك أحـد العوامـل التـى جعلت وكالة المخابرات المركزية تستعـين بــه .

٥ ـ إن المرتـب الذى كان "ب/أ" يتقاضاه حتى ٢٢ مايو ١٩٧٩ كان مقـداره ألفـــى لـيرة لبنانية ، وفى ذلك التاريـخ رفعـت وكالـة المخابرات المركزية مرتبـه إلى أربعة آلاف لـيرة لبنانية "وهو ما يساوى مائـة ألـف ريـال إيرانـى" .

٦ ـ ومع أن إيــران كـانت هــى منطقـة عملياتـه سـنة ١٩٧٩ فـإن محطـة وكالـة المخابرات المركزية فى طهـران لم تكن هى المسئولة عن إقامـة الصلات معه . ونظـرا لحساسية اتصالاته مع الوكالة ، فإن محطة بـيروت كانت هــى التـى تقـوم بالاتصـال بـه بواسطة طـرف ثالث أطلـق عليه الاسم الكودى "شهيد ـ ١" . وفى اتصالاته كان "ب/أ" يعطيه المعلومات ليسلمها شخصيا إلى المسئولين فى الوكالـة .

(٣) فى ملحق صـور الوثائق توجد صورة للصفحة الخامسة من هذا التقريـر ـ تحت رقـم (٦)

٧ ــ وبسبب خطورة مهمتـه وعضويتـه فى تنظيم فتـح ــ فإنه كان على اتصال بالسفارة الفلسطينيـة فى طهـران .

٨ ــ إن عمـل "ب/أ" سمـح له بتوثيق صلاتـه بعـدد من أقسـام وكالـة المخـابرات المركزية . وتكفى نظـرة سريعـة علـى الوثـائق الخاصـة بعملـه لتبـين ذلـك ، فقد تنوعت تقاريره فى المجالات التالية :

(أ) قـوات الحرس الثـورى وتنظيماتها وأعدادها وتسليحها وتدريبهـا ، والشخصيات البارزة فيهـا ، وأيضـا مواقـع تمركـز القـوات ، وتحليـل لنوعيـة انتمائها الطبقـى . وخطورة المعلومات التى قدمـت للوكالة فى كل هـذه النواحـى تظهـر مـن حقيقـة أن الحـرس الثـورى هـو الخـط الأول للدفـاع عـن الثـورة الإسلاميـة ضـد عناصر الثـورة المضادة . ومـن حسـن الحـظ "أنـه بسـبب جهـل "ب/أ" وعدم تعمقـه الثقافى الإسلامـى ، وتفسيره الخاطئ أحيانا لطلبـات وكالـة المخابرات المركزيـة منـه ــ لم يجعل ضـرره بليغـا فى هذه الناحية".

(ب) نظام العلاقات وممارسة السلطـة داخل إيـران ، والعلاقـة بـين الإمـام وبين الحكومة ومـدى استقرار هذه العلاقات وأسباب التناقـض فيها .

(جـ) الأوضاع العامة فـى "خوزسـتان" وفـى "كردستان" . ويبـدو أن "ب/أ" كان على اتصال بالعناصر التى ذهبـت لإنشاء مكتب لمنظمة التحريـر الفلسـطينية فى الإقلـيم . واحتـوت الملفات على تقارير كثيرة منـه فى هذا الموضوع .

٩ ــ نظرا لكل مـا سبـق فـإن عناصـر منظمـة التحريــر فـى إيـران لا بــد مـن التعامــل معهـا بحــذر . "وإنــه ممـا يثــير الدهشــة أن يتظـاهر شخــص فلسـطينى بعدائـه للصهيونية بينما هو يقــوم بخدمــة الولايـات المتحـدة غـير مــدرك للصلــة الوثيقة بينها وبين الصهيونية" . ومما يضاعف أسباب الحـذر "أن كثيرا من الوثائق تشير إلى تـورط منظمة التحرير الفلسطينية فى ألعـاب سياسـية وفـى اعتمادهـا علـى قـوى معينـة ضمن النظـم العربيـة الرجعية . وإنه لينبغى لفـت نظـر قيـادة منظمــة التحرير إلى أن هناك خونـة فى صفوفها من طـراز "ب/أ" و"شهيد ــ ١" ."

□

ومن الظاهر أن "الخمينى" وإن استمــع باهتمـام إلى مـا عرضــه عليـه "الطــلاب الذيـن يتبعون خطـه" من الذين احتلوا السفارة الأمريكية واحتفظوا برهائنهـم فيها ــ طلـــب منهـم أن يتمسكوا بهـدوء الأعصاب والصـبر .

ثم تعرض "الخميني" نفسه لتجربة جعلته ينضم إلى الطلاب الذين يتبعون خطه . وكان ذلك حين ذهب إليه السيد "ياسر عرفات" يزوره فى "قم" ، يقترح عليه أن يأذن له بالتوسط فى موضوع الرهائن المحتجزين فى السفارة الأمريكية فى طهران .

وفى البداية وافق "الخميني" على حل وسط يجرى بمقتضاه إطلاق سراح النساء والسود ضمن الرهائن ، لأسباب إنسانية فيما يتعلق بالنساء ، ولأسباب سياسية فيما يتعلق بالسود .

ومضت أسابيع ثم عاد السيد "ياسر عرفات" يرجو من "الخميني" أن يأمر بتسليم بقية الرهائن المحتجزين فى السفارة الأمريكية إلى منظمة التحرير . وكان "ياسر عرفات" يعرض خطة مؤداها أن يقوم هو أو ممثل شخصى له باصطحاب هؤلاء الرهائن جميعا فى طائرة إلى واشنطن ، ثم يجرى تسليمهم هناك للحكومة الأمريكية فى مقابل أن تعلن الولايات المتحدة الأمريكية اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وقبول التفاوض معها على حل للقضية الفلسطينية .

كان رفض "الخميني" قاطعا . فقد كانت فكرة التفاوض من أولها إلى آخرها لا تتوافق مع تفكيره المحكوم بالمطلق من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد شعر على حد تعبيره "أنهم يريدون عقد صفقة مع الشيطان الأكبر (الولايات المتحدة) على حساب الثورة الإيرانية !"

٣

ظـــــــروف

" ما بين ٤ إلى ٥ بلايين دولار دخلت إلى خزانة منظمة التحرير "

(تقرير لأحد القادة البارزين لمنظمة التحرير ، وقد أعطى نسخة منه لرئيس دولة عربية)

كانت قضية "التفاوض" بالنسبة لمنظمة التحرير قضية "شائكة" و"حساسة" . ولأن كل حركة سياسية تصوغها ظروف الوطن الذى تنشأ لخدمة أهدافه ـــ فإن منظمة التحرير كانت تمارس دورها تحت ضغوط متعددة :

● فى تجربة حركات التحرير من النوع التقليدى ـ مثل إندونيسيا والهند ومصر ـ كانت حركات التحرير تقوم ضد جيش احتلال محدود فى حجم قوته ومقدرة انتشاره فى البلد المحتل إزاء شعب يملأ "المكان" المأهول لهذا البلد ، وهو على وجه التأكيد أكبر عشرات ومئات المرات من أى جيش احتلال تستطيع أى إمبراطورية مهما عظمت أن تخصصه لواحدة من مستعمراتها . وبعد الحرب العالمية الثانية ، ومعها البداية الحقيقية لثورات التحرر الوطنى ، وظهور وشيوع الأسلحة الصغيرة ذات القدرة العالية على القتل ـ أصبح فى مقدور الثورة الوطنية فى أى بلد محتل أن تملك قوة نيران كثيفة وواسعة وخفيفة الحركة ضد قوات الاحتلال كى ترغمها على التفاوض أو على الانسحاب (وهذا حدث مع إندونيسيا والهند ومصر وغيرها) .

● وفى نموذج آخر مثل الجزائر كانت الثورة الوطنية تواجه جيش الاحتلال الفرنسى ومعه حوالى مليون مستوطن فرنسى (رجالا ونساء وأطفالا) ـ لكن مدن الجزائر وريفها وجبالها كانت ملأى باثنى عشر مليون مواطن جزائرى أنشئوا حركتهم للتحرر الوطنى وجاءهم السلاح من كل أنحاء العالم العربى (بالذات مصر) ـــ لكن نسبة

الجزائريين الوطنيين إلى جيش الاحتلال الفرنسى وقوات المستوطنين كـانت عشرة إلى واحد لصالح الجزائريين . فضلا عن أن الجيش الفرنسى كـان مضطـرا إلى الـتزام مواقع محـددة تقيـد حركتـه بضرورات الدفاع عن منشآت وعائلات المستوطنين الفرنسيـين .

واضطـر "ديجـول" إلى التفـاوض .

● وفى نموذج فيتنـام كانت هناك مرحلتان : مرحلة مع الفرنسيين فى فيتنام الشـمالية انتهت بهزيمتهم عسكريا فى "ديان بيان فـو" ـ ثم مرحلة أمريكيـة فى فيتنـام الجنوبيـة انهزمت فيها عسكريا أقـوى دولة على الأرض ، وكانت هزيمتها على يـد ثـورة فـى العـالم الثالـث ارتكزت على شمـال البلـد لكى تخـوض معركـة جنوبـه ثم تقـوم بتوحيـده .

فى حالة الثـورة الفلسطينيـة كانت الصـورة مختلفـة .

كانت القـوة المطالبة بالسيطرة حملـة استيطانية جاءت مسلحـة إلى أرض شعـب تخلت عنه القـوة الحامية له بسلطان العقيدة ، والحاكمة فيه وفى غيره بقـوة الخلافـة ، ثـم انـتُزِعَ كل شـىء من يدهـا بتدبير دولى شاركت فيه الإمبراطوريتان المتنفذتان (بريطانيا وفرنسـا) فـى مناخ معـين بعد حـرب عالميـة غـيرت خريطـة المنطقـة المحيطـة بفلسطـين .

وفى سنوات معدودات ، وقبل أن يتنبـه أحـد أو يستعـد ، كانت الحملـة الاستيطانية المطالبة بالسيطرة قد أقامت شبـه جيش مسلح ("الهاجاناه") ، ثم مضت تجـىء لهذا الجيـش بشعـب من خارج المحيطين المحلى والإقليمى كلـهما ، وقامـت إسرائيل مـرة واحـدة بقـرار دولـى ، وإذا هـى تحتـل نصـف البلـد ، وإذا المستوطنون الذيـن تدافعـوا علـى فلسطـين موجات متلاحقة من هجـرة منظمة يتوازنون فى الكـم إزاء السكان الأصليـين ، مـع وجـود فارق كبير فى النـوع وفى الإمكانيات وفى قـوة الدعـم المسانـد .

وأصعـب من ذلك فقد كانت بقايا الوطـن الفلسـطينى التـى لم تؤخـذ لإسـرائيل بـالقرار الدولى سنـة ١٩٤٧ ، وبالقتـال المسلح سنـة ١٩٤٨ ــ قد جرى ضمهـا أو إلحاقهـا سياسـيا أو إداريا بدول أخـرى .

فالضفـة الغربيـة لنهـر الأردن ضمـت سياسيـا إلى الأردن .

وقطاع غـزة ألحـق إداريـا بمصـر .

وهكذا فإن "المكان" الوطنى الفلسطينى أصبح موزعـا بالكـامل ، وبطريقـة تطغـى علـى خصوصيته الوطنيـة إلى درجـة تكـاد تنفيهـا .

وأكثر من ذلك فإن الكيانـات السياسـية المحيطـة : سـوريا والأردن ولبنـان ـــ وحتـى مصـر ، وكانت جميعا تخضع مثل فلسطين لسلطان الخلافـة العثمانية وسلطتها الإمبراطورية

المتهالكة ــ حصلت لنفسها على الاستقلال وأصبحت لها حدود دولية ، ومصالح حياة واقتصاد وأمن وراء هذه الحدود ، وهي حريصة عليها . ومع أن هذه الكيانات العربية المحيطة بفلسطين ــ وإسرائيل ــ كانت على استعداد للمساعدة ، فقد كانت الحقائق تفرض على هذه "الكيانات الدول" أن تجرى حسابات تكاليف إزاء سياسات إمبراطورية من نوع جديد قادتها الولايات المتحدة الأمريكية فى أزمنة مستجدة وأجواء عاصفة بالحروب ساخنة وباردة .

□

على هذه الخلفية العامة قامت منظمة التحرير الفلسطينية ، ولسوء حظها فإنها بدأت نشاطها الحقيقى بعد نكسة سنة ١٩٦٧ ، وكانت الأرض الفلسطينية كلها ، سواء تلك التى ضمت للأردن سياسيا أو ألحقت بمصر إداريا ، واقعة تحت الاحتلال الإسرائيلى ، وكان الجيش ـ وهو المؤسس الفعلى للدولة فى إسرائيل ـ قد أصبح القوة العسكرية الكبيرة فى المنطقة ، ثم إن الدول المجاورة للأرض الفلسطينية ، والتى راحت تعد لعملية إزالة آثار عدوان سنة ١٩٦٧ ، كانت لها استراتيجياتها فى العملين السياسى والعسكرى ، وهى استراتيجيات تمليها أوضاع ذات طبائع متعددة : عسكرية واقتصادية ، دولية وإقليمية ، بل وعلمية وحضارية .

وأدى ذلك كله إلى ثلاث نتائج لا يمكن تجاهل الأحكام المترتبة عليها :

١ ــ إن الثورة الفلسطينية لا تملك أرضا داخل وطنها أو خارجه تتخذها قاعدة صلبة لعملها .

٢ ــ إن الثورة الفلسطينية نتيجة لذلك لا تملك كتلة بشرية مركزة ومنتشرة تستطيع أن تعمل وسطها .

٣ ــ إن الثورة الفلسطينية ترتيبا على ذلك لا تستطيع أن ترسم لنفسها استراتيجيات أو سياسات مستقلة .

ومعنى ذلك وبالتوازى معه :

١ ــ إن الثورة الفلسطينية لا بد لها أن تعمل من أرض آخرين ، من أرض دول محيطة بإسرائيل ، وذلك يفرض على وجودها ونشاطها قيودا لا تستطيع تجاوزها ــ وإلا فهو صدام مع الدول المضيفة قبل الصدام مع الدولة المحتلة .

٢ ـ إن صلـة الثـورة الفلسطينية بجماهيرها فى الأرض المحتلـة لا يمكـن أن تكـون صلـة مباشرة ، وإنما هى باستمرار صلـة عن بعـد وبطرق غير مباشرة ، يتساوى فى ذلـك أن تكون الوسائل سريـة أو إعلاميـة .

٣ ـ إن استراتيجية منظمة التحرير الفلسطينية وسياسـاتها لا يمكـن أن تكـون مستقلـة ، وإنما هى محصورة فى هامـش معـين ، يقـع فـى المنطقـة التـى تتلاقـى فيهـا دول عربية ، أو منطقة تتصارع فيها دول عربيـة (ومن ذلك مثلا اتساع هامـش الحركـة إذا ما اتفقت دول عربيـة فى مؤتمر قمة ودعمـت ، أما إذا ما اختلفـت دول عربيـة وحاولت إحداها أن تسبق الأخرى وتزايـد عليها ـ فإن الهامـش يضيـق).

كانت تلك كلها قيـودا على حركة الثـورة الفلسـطينية وعلـى منظمـة التحريـر ، وازداد عـبء هذه القيـود بثلاثـة اعتبارات متصلـة بها :

١ ـ إن عـددا مـن الـدول العربيـة (ليـس بينهـا مصـر للحـق) رأت أن تكـون لهـا منظماتها الخاصة للعمـل الفلسطينى ، وظهـر ذلك بالذات بين الأحزاب التى تعتـبر أن رسالتها قوميـة شاملة وغير خاضعـة لحـدود قطـر عربـى معـين (مثـل حـزب البعـث مثلا سواء فى سوريا أو فى العراق) .
ولحـق بذلك أن بعض الدول العربيـة المتطوعة بالمعونـة رأت أن تختـص أو تستثنى من مساعداتها منظمات تشعـر أنها أقـرب أو أبعـد عنهـا من غيرهـا .
وهكـذا فـإن تناقضـات مرحلـة بذاتهـا مـن العمـل العربـى اقتحمـت سـاحة العمـل الفلسطينى وشـدت بعض فصائله إلى سياساتها أو جندتـه لخدمـة هذه السياسـات .

٢ ـ إن الرأى العام العربـى فى شـعوره بالإحبـاط ـ خصوصـا بعـد سـنة ١٩٦٧ ـ راح يحيط منظمة التحرير بهالـة من التـأييد ترافقـت معهـا بطبيعـة الأحـوال آفـاق مـن التطلعات الواسعة تتعدى الظروف الموضوعية للثـورة . ولم يتوقف أحـد ليستقصـى المقدمـات وينتظر النتـائج علـى أساسـها ، وإنمـا جمحـت التصـورات بـأن الثـورة الفلسطينية مطلوب منها ما هو مطلوب من أى ثـورة وطنيـة تقـوم لتحريـر أرضهـا ، وجـرى قياسها ظلما بثـورة الجزائر أحيانا ، وأحيانا أخرى بثـورة فيتنـام . وسـاعد علـى ذلـك فـى مرحلـة مـن المراحـل تلك الاجتهـادات التـى استحدثتها "المقـاهى الثوريـة"، خصوصا فى بيروت ، من تنظيرات كانت أقـرب إلى الشطحات منها إلى واقـع ميدان الحركة المتاح للثـورة الفلسطينيـة .
وربما أن بعض قـوى الثورة نفسها ، ووسـط صراعاتهـا الداخليـة الطبيعيـة فـى أى ثـورة ـ ساعدت على جمـوح التطلعات ، وجرى الخلـط بين الممكن والمستحيـل .

٣ ــ ثم وقعت الثورة بين المطرقة والسندان أمام شعبها ، وكان المنطق "أن هذه ثورة الشعب الفلسطيني ، وهي الممثل الشرعي الوحيد له ، والعالم العربي كله يساعدها، وهناك تعاطف واسع وإنساني معها ، وإذا كان ذلك فإن شعبها يطالبها بأن تكون المسئول عن مشاكله حتى تحت الاحتلال . "

ولم يكن في مقدور الثورة الفلسطينية أن تستجيب ، ولا كان في استطاعتها أن تقدم برنامجا مستقبليا للشعب الفلسطيني مثل غيرها من الثورات الوطنية في العالم الثالث ، حيث كانت هذه الثورات الوطنية عموما تعد جماهيرها بعد الاستقلال بحياة أفضل ، فيها نصيب من المستقبل لكل مواطن ، وفيها أمل للجماهير بمجتمع له صورة متوازنة وعادلة بعدها .

ولم يكن مثل هذا متاحا للثورة الفلسطينية ، فهي بعيدة عن أرضها وعن جماهيرها ، وأكثر من ذلك فقد كان عليها أن تعتمد على فلسطينيي الخارج ، وعلى الأغنياء منهم بالذات .

وكانت لهؤلاء الأغنياء ، رغم إخلاصهم لقضية وطنهم ـــ رؤى مختلفة ، ومطالب تتعلق بتوجهات الدول التي صنعوا فيها ثرواتهم ، ثم إنهم كانوا تحت ضغوط من دول كبيرة كانوا يتعاملون معها .

وكانت المنظمة تشعر بتمزق اجتماعي شديد .

تعتمد من ناحية على أغنياء التيه الفلسطينيين وأصحاب الملايين فيه .

وفي ذات الوقت تتعامل معهم بنوع من الاستعلاء (الثوري !) ، ولا يتورع بعض القياديين في المنظمة عن وصفهم بـ "الكمبرادور" ، وهو تعبير ماركسي يصف الغنى المحدث لبعض رجال الأعمال في المدن ممن لا يربطهم التزام وطني ولا تسندهم قاعدة اجتماعية ثابتة وإنما علاقات مصالح طارئة وارتباطات متغيرة .

ونشأ من ذلك كله التباس في علاقات المنظمة مع فلسطينيي الداخل ، والتباس مع فلسطينيي الخارج أيضا !

وكانت تلك كلها ضرائب تأخذ من حصيلة التأييد العام للثورة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة وخارجها . وساعد على فداحة الضريبة أن منظمة التحرير الفلسطينية شغلت نفسها بأكثر من اللازم في تجميع عناصر القوة من مال وسلاح ونفوذ سياسي . وبالفعل فقد أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية قوة ضخمة ، لكن هدفها ظل محجوبا عنها يتأرجح بين التحرير وبين التفاوض ، وبين أحلام اليقظة وبين واقع الحال . وتلاحقت

المراحل ، واحتكت الظنون بالأدلة ــ وظلــت منظمــة التحريــر إلى النهايــة فــى حالــة حــيرة وصلت إلى درجة التخبط فى أحيان كثيرة .

والحاصل أن منظمة التحريــر ســارت فــى طريــق وعــر ومجهــول ، وإن ظهــرت عليــه مجموعة من المحطات الرئيسيــة :

١ ــ فى المحطة الأولــى ومع قيــام "فتــح" ــ جرى اعتماد سياسة "التوريط" ــ وكــان "التوريط" موجها إلى مصــر لدفعها نحو حــرب عاجلة مع إسرائيل ــ تــرى مصــر أن وسائلها لم تتوفر بعد ، وتــرى حركة "فتــح" أن الوسائل موجــودة ولكــن الهمــة غائبــة . وبصرف النظر عن دور "فتــح" فى عملية التوريــط فيمــا جــرى ـــ وقــائع سنــة ١٩٦٧ ــ فــإن نتيجــة المعركــة فــى يونيــو ١٩٦٧ لم تكــن فــى صــالح الثــورة الفلسطينية ، ولم يكن كافيا لأحــد أن يقــول إن العريــش ليست أحســن من غــزة ، ولا إن القاهــرة نفسها ليست أهــم من القدس . فذلك كله بصرف النظر عــن الخطــأ والصواب فيه ينســى اعتبارا هامــا هو أن مصــر (أو سوريــا) ــ دولتان لديهما مــن الوسائــل ــ حتى فى السياســة ــ ما يمكنهما من استرجاع ما يضيــع منهما ، وفــى النهاية فإن ما تفعلــه هاتان الدولتان لاسترجاع أراضيهمــا ســوف ينعكــس بالسلــب يقينا على القضيــة الفلسطينيــة .

٢ ــ وفى محطــة ثانيــة وبعد أن تحقــق لحركة "فتــح" أن تتصــل بمصــر ، وتحقــق لهــا عن طريق ذلك اتصال بالعالم يمكنها من السيطرة عمليا على منظمــة التحرير ــ فإن هناك فى الثــورة الفلسطينية من تصوروا أن الآمال المعلقة على الثــورة الفلسطينية ــ خصوصا بعد معركة الكرامة ـــ تمكنهــا مــن أن تحــل محــل مصــر فــى التوجيــه العربــى عن طريــق قيادة الــرأى العــام . وكــان ذلــك شططــا لأن إمكانيــات مصــر ومواردها ، زائــدا عليها قيادة "جمال عبد الناصــر"، لم تكن تسمــح بذلــك . وفــى وقــت مــن الأوقــات تصورت المنظمــة أن قبــول مصــر لمبــادرة "روجـــرز" يضعــف مصداقيتها شعبــا وقيــادة أمام بقيــة الأمــة العربيــة .

وكان ذلــك تجــاوزا .

وكان "جمال عبد الناصــر" يــرى طموحات المنظمــة ، وكانت تجاوزاتهــا تدعــوه إلى الاستغراب فى بعض الأحيان ، ولكنه لم يتركها تؤثــر على رؤيتــه الشاملة للضرورات العربيــة . وفى اجتماع بينه وبين الملك "حســين" فى رأس التين فى الإسكندرية فى أغسطس ١٩٧٠ ، يسجــل محضــر الجلســة ما نصــه :

"الرئيس جمال عبد الناصر : إننى معــك (موجها كلامه للملك "حســين") فــى أن الفلسطينيين تجاوزوا فى معارضتهم لقبولنا بمبادرة روجــرز .

هم لم يفهموا مقصدنا من قبول المبادرة ، وقيادتهم واقعة تحت تأثير جماعات عقائدية مرتبكة ذهنيا ومشتتة ، لكن ذلك لا يصح له أن يدعونا إلى مواجهة تجاوزهم بتجاوز مقابل .

إننى قلت لهم فى اجتماع أخير حضره أبو عمار وأبو إياد وأبو اللطف إننى أعطيهم الحق فى رفض قرار مجلس الأمن لأنه لا يقدم شيئا للقضية الفلسطينية ثم إننى أعطيهم الحق فى رفض مبادرة روجرز . قلت لهم أيضا إننى أعطيهم الحق فى شرح موقفهم فى كل مكان بما فى ذلك القاهرة ، ولكننى لا أعطيهم الحق ولا أسمح لهم ولا لغيرهم أن يقوموا بتخوين هؤلاء الذين قبلوا قرار مجلس الأمن أو قبلوا مبادرة روجرز ، لأن أمامنا كفاحا شاقا وطويلا ، سياسيا وعسكريا .

وأنا أعرف أنهم تطاولوا عليك وعلى الأردن ، ولكننى أمانة أمام الله وأمام الأمة أحذر من اتخاذ أسلوبهم فى التعامل معك – أو معى – رخصة لضربهم .

وأنا أفرق دائما بين قضية فلسطين وهى مسئوليتنا جميعا ، وبين مواقف أى عناصر فلسطينية بالذات .

ورأيى أن قضية فلسطين أكبر من أى فصيل فلسطينى حتى وإن ادعى بالثورة المسلحة للتحرير ، ولهذا فإن علينا مسئولية المحافظة عليهم وحمايتهم حتى من أنفسهم ! "

ومهما يكن فقد تعرضت العلاقة بين منظمة التحرير وبين مصر – وهى سندها الرئيسى – لنكسة لا يمكن إنكارها !

٣ – وفى محطة ثالثة تصورت المنظمة – وبعد غياب "جمال عبد الناصر" – أنها تستطيع أن تأخذ الأردن قاعدة لعملها ، وكان ذلك نسيانا للحقائق الدولية من ناحية – ولقوة الدولة وجيشها فى الأردن ، ولطبيعة التوازن بين القبائل والمدن فى هذا البلد الذى يحتل أطول خطوط مواجهة مع إسرائيل .

ومع صيف سنة ١٩٧١ كانت الثورة الفلسطينية تخرج من الأردن كله .

٤ – وفى محطة رابعة – وبعد خروج مصر من معادلة القوة العربية بتوقيع الرئيس "السادات" لاتفاقى فك الارتباط الأول والثانى ، ومع تمركز المقاومة الفلسطينية فى لبنان – فقد عادت الأوهام مرة أخرى إلى إمكانية إرث دور مصر فى التأثير العربى العام ، ولم تكن المحاولة مجدية لأن شجاعة قرار أكتوبر الذى أصدره "أنور السادات" كانت لا تزال فى ذاكرة كثيرين يعارضون السياسة المصرية لكنه يعز عليهم شطب مصر من معادلة القوة العربية لصالح أى طرف مهما كان .

وفى تلك الأيام جرى الترويج لمقولة أن بيروت أصبحت عاصمة الثورة العربية ، وكانت تلك مقولة "واسعة" ـ أوسع بالقطع من الحيز المتاح لحركة سياسية تعمل من منفى لا يمكن إلا أن يكون مؤقتا ، ثم إنه منفى ملغوم بتركيبته الإنسانية والتاريخية .

كان حافز الأوهام هو زيادة الغنى المادى لدى المنظمة ، وتكدس السلاح فى مخازنها .

□

كان غنى المنظمة ـ قياسا مع أى حركة ثورية ـ أسطوريا فى حجمه خصوصا بعد قيام مصر بالتوقيع على معاهدة "كامب دافيد" التى كرست لزمن طويل غيابها عن العالم العربى . ولم يكن فى مقدور العالم العربى وقتها لتبرئة ذمته ولشراء راحة ضميره وباله إلا أن يغدق مما لديه على المنظمة ، وكان المال أكثر ما لديه فى تلك الأوقات التى شهدت ثراء عربيا غير مسبوق فى التاريخ ، وغير ملحوق حتى الآن على الأقل .

وحين انعقد مؤتمر القمة العربى سنة ١٩٧٩ فى بغداد ليجد وسيلة تحول دون توقيع مصر نهائيا على هذه المعاهدة ، أو ليجد بدائل لغياب مصر عن العالم العربى ـ كانت التبرعات التى وصلت إلى المنظمة كنزا يصعب عد ما فيه أو إحصاؤه .

- ومثلا فإنه بمقتضى قرارات دعم الصمود بعد غياب مصر ، تعهدت السعودية بأن تقدم للمنظمة كل عام ، ولمدة عشرة أعوام طبقا لقرارات بغداد ، مبلغا قدره ٨٧ مليون دولار كل سنة . ووفت السعودية بهذا التعهد من سنة ١٩٧٩ إلى سنة ١٩٨٩ ـ أى أنها بهذا الاتفاق دفعت وحدها للمنظمة فى عشر سنوات مبلغ ٨٧٠ مليون دولار .
وحين انتهى أجل اتفاق بغداد فإن الملك "فهد" بقرار خاص منه واصل الدفع للمنظمة بواقع ٦ ملايين دولار كل شهر . واستمر هذا الترتيب ١٤ شهرا ، أى مبلغ ٨٤ مليون دولار أخرى . ولم يتوقف الدفع السعودى للمنظمة إلا بعد حرب الخليج الثانية ـ غزو الكويت ـ وكان معنى ذلك أن المنظمة حصلت من السعودية على مبلغ ألف مليون ـ أى بليون دولار كامل !

- وفى نفس الفترة ، وطبقا لمقررات القمة فى بغداد وبعدها ، دفعت الكويت للمنظمة ٥٠٠ مليون دولار .

- ودفعت ليبيا نفس المبلغ (٥٠٠ مليون دولار)
- ودفعت الإمارات ٣٠٠ مليون دولار .
- وغير هؤلاء دفعوا ، وعلى رأسهم العراق .

وكان فوق هذا كله وزيادة عليه ــ مبلغ متحصل من ضريبة على الفلسطينيين في هذه البلاد بمعدل ٧٪ من مرتباتهم تقتطع عند المنبع ويجرى تحويلها إلى المنظمة .

وفي إحصائيات يمكن الوثوق من صحتها ــ وبعضها مستمد من قرارات القمم العربية ذاتها ــ فضلا عن تقرير قدمه أحد قادة المنظمة الكبار إلى رئيس إحدى الدول النفطية ــ فإن مجموع ما تلقته منظمة التحرير ودخل خزائنها هو مبلغ يتراوح ما بين ٤ إلى ٥ بلايين دولار ، وتلك ثروة هائلة بكل المقاييس والحسابات ، ولعلها تزيد عما كان متوفرا لدى دول كثيرة في العالم النامي .

كانت القضية الفلسطينية في ذاتها متوهجة ، وكان ثراؤها باتساع خزائنها ــ براقا .

وذلك أعطى شعورا متزايدا بالقوة خصوصا إذا أضيف السلاح إلى عناصر القوة ، وهو حتما من عناصرها في أى حساب !

٤

الســــــــــــلاح

" منظمة فتح لديها قوة عسكرية مؤثرة .. وهذه تفاصيلها .... "

(تقرير أمريكى رسمى عثر عليه فى وثائق السفارة الأمريكية فى طهران)

داخل خزائن السفارة الأمريكية فى طهران عثر الطلبة الإيرانيون الذين احتلوا مكاتبها واحتجزوا موظفيها رهائن — على تقرير سرى أعده المكتب التابع لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضمن مكاتب السفارة ، بعنوان "الفلسطينيون" . واحتوى هذا التقرير على تفصيلات كاملة عن كل أطراف منظمة التحرير ، وامتد ليشمل فصائلها وعلاقاتها وأسلحتها وعملياتها وتمويلها ، الخ ...

إن هذا التقرير بدأ بالتركيز على منظمة "فتح" باعتبارها أهم الفصائل الفلسطينية . ثم انتقل فى الصفحة الثانية منه إلى الحديث عن توجهات وأهداف "فتح" ، وعرض للنقاط التالية :

"١ — تنظيم فتح هو أقوى فصائل الفدائيين ضمن منظمة التحرير الفلسطينية . والمنظمة نفسها هى مظلة سياسية تنسق العمليات وتتوسط فى الخلافات العقائدية ، وتعمل بشكل أو آخر كحكومة فلسطينية فى المنفى دون استخدام ذلك التعبير .

وفتح فى العادة تمثل التيار المعتدل فى منظمة التحرير ، وهى تسعى إلى إقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية من الأردن وفى قطاع غزة . وفى نوفمبر ١٩٧٧ أصبحت فتح أكثر تشددا فى موقفها ، وكان الداعى إلى ذلك هو قيام السادات بمبادرته السلمية . وفى ديسمبر ١٩٧٨ انضمت الجماعة إلى إعلان طرابلس الذى وقعته دول الصمود والتصدى (كما أطلقوا عليه) والتى تعهدت بألا تعترف ولا تتفاوض ولا تعقد سلاما مع إسرائيل . وهذا

أدى إلى اقتراب فتح أكثر من بقية المنظمات الأكثر تشددا فى الساحة الفلسطينية .

٢ ـ وخلال ١٩٧٨ أصدرت اللجنة المركزية لفتح بيانات "متعصبة" لاحظت فيها "أن الحوادث قد أثبتت أن الابتعاد عن طريق الكفاح المسلح لا يمكن أن يقود إلى سلام ، وإنما سيقود إلى استسلام" . وبعد إعلان إطار كامب دافيد فإن اللجنة المركزية لفتح طلبت إلى كل الفلسطينيين أن يرفضوا الحكم الذاتى المقترح باعتباره تكريسا للاحتلال الصهيونى ، وأن يقاطعوا الانتخابات المقترحة بمقتضاه فى الأراضى المحتلة ، لأن المشاركين فى مثل هذه الانتخابات سوف يختارون من قبل سلطة الاحتلال المدعومة بالإمبريالية . كما أن عليهم أن يرفضوا كل صور التعاون مع العدو الصهيونى فى إطار كامب دافيد أو تحت نفوذ السادات ."

٣ ـ إن منظمة التحرير فى دعوتها لوحدة العرب والفلسطينيين ظلت تحاول منع سيطرة الحكومات العربية على المقاومة الفلسطينية ، كما أنها تصرفت بنفس الطريقة تجاه الجماعات الفلسطينية اليسارية ، وحاولت أن تعتمد سياسة من الوطنية العملية فى توجهاتها .

٤ ـ وعندما قرر تنظيم "فتح" القيام بعمليات إرهابية فإن "فتح" نفسها آثرت أن تبدو بمظهر الاعتدال ، وأن تستعمل تنظيما سريا أنشأته باسم "أيلول الأسود" وأن تنسب إليه كل العمليات التى تجرى فى الخارج ، بينما تنسب لنفسها العمليات التى تجرى فى إسرائيل أو فى الأراضى المحتلة إذ تعتبرها جزءا من المقاومة المسلحة المشروعة .

٥ ـ قوة "فتح" المسلحة تتراوح ما بين ٨ آلاف إلى ١٠ آلاف عنصر . وقوة "أيلول الأسود" وصلت فى ذروة نشاطها (١٩٧٢ ـ ١٩٧٣) إلى ثلاثمائة عضو ."

وانتقل التقرير بالأسماء إلى قيادات "فتح" وتكوين كل منهم وشخصيته ودوره وعلاقته بالآخرين . فبدأ بـ "ياسر عرفات" ثم "أبو إياد" ثم "أبو جهاد" وغيرهم ، ثم انتقل إلى تنظيم "فتح" وإلى مواقع قواعدها فى لبنان وفى العالم العربى . ثم وصل التقرير ليقول :

"إن تنظيم فتح يقوم على بنيان هرمى فى أعلاه اللجنة التنفيذية التى تضم ١١ عضوا برئاسة عرفات . ومن المفروض أن تجتمع هذه اللجنة مرة كل أسبوع على الأقل . وهى منتخبة من مجلس شورى يقال إن عدد أعضائه ١٢٠ . وهو يجتمع مرة كل ثلاثة شهور . وفى غيابه فإن اللجنة التنفيذية يفترض أن تقوم بكل مهام القيادة ، وتحتها ينقسم العمل الفلسطينى إلى مناطق مستقلة ، ومكاتب عسكرية وإعلامية فى كل معسكرات اللاجئين . وقوات "العاصفة" هى الذراع العسكرى لفتح ، وهى تتضمن لواء "اليرموك"

وقوات "القسطل" و"الكرامة" إلى جانب وحدات أخرى مقاتلة . وهناك ما يسمى بالمجموعة رقم ١٧ ، وهى تنظيم الأمن المسلح الذى يخضع لياسر عرفات مباشرة ويقوم بحراسته وحراسة غيره من الشخصيات القيادية فى فتح . ومن المعتقد أن عرفات يستخدم القوة ١٧ كجهاز للمخابرات الداخلية وكقوة ضاربة ضد خصومه السياسيين . كما أن تنظيم "أيلول الأسود" يقوم تركيبه على خلايا يضم كل منها خمسة أفراد ـ أربعة لتنفيذ العمليات وخامس للاتصال مع قيادة التنظيم . وقائد الخلية هو وحده الذى يعرف مصدر التوجيه .

وفيما بين ١٩٧٤ و١٩٧٥ قامت بعض الخلايا بعمليات شارك فيها خمسة عشر عنصرا."

ويفيض التقرير فى تفاصيل التنظيمات الهيكلية ، ثم يصل إلى التدريب فيقول :

"إن فتح لديها برنامج للتدريب العسكرى وتنمية القدرات وأعمال الكوماندو والتخريب والاغتيال وخطف الرهائن . ولبنان هى أهم مراكز التدريب . وبعد اتفاقية "كامب دافيد" قررت اللجنة المركزية لفتح تدريب ألف عنصر كوماندو لعمليات خاصة . وفى نوفمبر ١٩٧٨ اختيرت مجموعات منتقاة للتدريب العالى فى الخارج ، فذهب عشرون إلى الاتحاد السوفيتى ، وثلاثون إلى الصين ، وثلاثون إلى فيتنام ، وخمسون إلى ألمانيا الشرقية ، وأعداد غير محددة إلى الجزائر والعراق . كما أنشئ برنامج كثيف للتدريب على التخريب فى معسكر خاص أنشئ بجوار قرية "الدامور" على الساحل اللبنانى . وقدمت ليبيا لهذا التنظيم وسائل متقدمة فى استعمال وسائل الاتصال الحديثة ، والقتال يدا بيد ، وعمليات الضفادع البشرية ، واستعمال الصواريخ من طراز "سام ـــ ٧" ، إلى جانب تدريبات على قيادة الهليوكوبتر ."

وفى صفحة ٢٢ يستفيض التقرير فى الكلام عن التسليح المتاح لفتح ، فيذكر :

"إن فتح تعتمد بالدرجة الأولى على أسلحة سوفيتية أو من أوروبا الشرقية ، وهى تتضمن قنابل يدوية من طراز "ف ـ ١" ، ومسدسات أوتوماتيكية من طراز "توكاريف" عيار ٧٫٦٢ مللم ، ورشاشات من طراز "كلاشينكوف" ، ومدافع رشاشة من طراز "جوريونوف" عيار ٧٫٦٢ مللم ، مدافع من طراز "ديجيتاريف ـ شباجن" عيار ١٤٫٥ مللم ، ورشاشات ثقيلة من طراز "فلاديميروف" عيار ١٤٫٥ مللم ، ومدافع مضادة للطائرات طراز ZU ٢٣ عيار ٢٣ مللم وعيار ٦٠ مللم وعيار ٨١ مللم وعيار ٨٢ مللم ، ومدافع "مورتار" عيار ١٢٠ مللم، ومدافع "هاوتزر" عيار ١٢٢ مللم ، ومدافع عديمة الارتداد عيار ٧٣ مللم ، وحاملات صواريخ مضادة للدبابات ، ومدافع ميدان ، وصواريخ أرض/جو "كاتيوشا" ، ومجموعات من

عربات إطلاق الصواريخ من طراز "جراد" وحاملات صواريخ من طراز "سام – ٧" مع كميات كافية من الذخائر لكل هذه الأسلحة ."

ثم يقوم التقرير بتعداد بعض العلامات الظاهرة فى عملية التسليح ، فيحدد :

" – فى شهر فبراير ١٩٧٨ أفادت تقارير بأن فتح حصلت على صواريخ أرض/جو لارتفاعات ٤٫٥ كم و٧٫٥ كم و١٧٫٥ كم . ومن المعتقد أن فتح هى التنظيم الفلسطينى الوحيد الذى يملك هذا المدى من الصواريخ وهذا الحجم من مدافع "هاوتزر" .

– وفى ديسمبر ١٩٧٨ أفادت بعض المصادر أن السوفيت يستعدون لإعطاء منظمة التحرير طائرتى نقل من طراز "أنتينوف" ، وإنه من المقرر وضعهما فى قاعدة فى اليمن الجنوبية .

– لقد رصدت شحنات أسلحة عديدة من ليبيا إلى قبرص ثم إلى صور حيث أقامت فتح تسهيلات تفريغ فى الميناء . كما رصدت قوافل تحمل أسلحة قادمة من العراق إلى لبنان .

– جرى أيضا رصد ناقلات جنود مصفحة ولاندروفر ولوريات وأجهزة لاسلكى قوية من ليبيا ، وكان بعضها موجها لعناية أبو إياد .

– وفى سنة ١٩٧٩ جرى رصد صفقة من المسدسات الأمريكية من طراز "سميث وويسون" لاستعمال عدد من القيادات الفلسطينية .

– تم رصد عملية بناء مصنع لمدافع "آر بى جى" المضادة للدبابات ، وكانت إقامته تجرى داخل مخيم البرج الشمالى وبواسطة خبراء بولنديين . كما جرى رصد مصنع آخر فى معسكر الرشيدية .

– أفادت تقارير بحصول فدائيى فتح على مسدسات أمريكية من عيار "م – ١٦" . كما أكدت تقارير إسرائيلية أن فدائيين من فتح استعملوا أثناء هجوم قاموا به على طريق تل أبيب – حيفا أسلحة أمريكية تحمل علامات الجيش السعودى ، وبينها مسدسات "م – ١٦" .

– تم رصد شحنة ١٥٠ جيب من طراز "تويوتا" من السعودية إلى فتح .

– جرى رصد قاعدة بحرية لفتح شوهدت فيها خمسة قوارب بحرية مزودة بصواريخ سطح – سطح عيار ١٨٠ مللم . كما لوحظ وجود قوارب مطاطية "زودياك"

للاستعمال فى عمليات بحرية بعد قيام القوات الإسرائيلية بعمليات أدت إلى قطع اتصال فتح بشمال إسرائيل .

- تم التأكد فى بداية ١٩٧٩ من أن فتح حصلت على مادة "سينتكس" ، وكان ذلك عن طريق تشيكوسلوفاكيا . وقد استعملت معها متفجرات من طراز "ر ـ د ـ إكس".
- أكدت وزارة الخارجية الأمريكية أن الصين وفيتنام الشمالية قدمتا أسلحة لفتح بينها صواريخ أرض ــ أرض بمدى ٢٥ كم قامت الصين بتقديمها بموجب اتفاقية عقدت سنة ١٩٧٥ .
- جرى رصد شحن ٧٠ طنا من الأدوية ، و٢٠ مصفحة عسكرية ، و٧ عربات إسعاف ، مرسلة من الإمارات العربية المتحدة إلى فتح فى لبنان .
- جرى متابعة جوازات سفر صحيحة أو مزيفة لست عشرة دولة استعملتها فتح فى عملياتها وفى مرور أفرادها فى الفترة ما بين ١٩٧٢ إلى ١٩٧٨ . "

كانت تلك إمكانيات قوة عسكرية ضخمة .

وكان معظم هذه القوة الآن معطلا لسببين :

- الأول : أن الظروف لا تسمح .
- والثانى : أن الجهد الأكبر لمنظمة التحرير كان مكرسا للبحث عن ثغرة يمكن النفاذ منها إلى صلة بالولايات المتحدة قد تؤدى إلى "تفاوض من نوع ما" !

٥

أســـــــــــــرار

" هناك عالم من العلاقات السرية تحت الأرض مواز لعالم الدول فوق الأرض "

(تقارير وتفاصيل عن علاقات أجهزة المخابرات)

فى أوائل الثمانينات كان العمل الفلسطينى يعيش فى حالة وحشة خطرة :

● الحليف الإقليمى الذى تمناه الفلسطينيون جاء ثم ذهب ، وافترقت الطرق !

● المال الذى تحتاج إليه أى ثورة موجود فى الخزائن وبأكثر مما حلمت به أى ثورة فى التاريخ ــ لكن المال يستطيع أن يشترى أدوات ووسائل دون أن تكون له قدرة على الوصول بهذه الأدوات والوسائل إلى هدف مطلوب .

● والسلاح الذى تطلبه أى حركة تحرر وطنى مكدس فى المخازن ، وأحيانا على أرض العمليات قريبا وبعيدا ــ لكن السلاح شأنه شأن المال وسيلة لها حساباتها ، وأما الغايات فمرهونة باعتبارات مختلفة .

● والأفكار "والنظريات" التى يمكن أن تكون دليل عمل لأى جهد سياسى أو عسكرى كافية ، بل هى زائدة عن الحاجة ــ لكن حقائق المنطقة والعالم استراتيجيا وسياسيا لا تنصاع بالضرورة لحكايات الليل فى مقاهى بيروت تلك الأيام .

والحاصل أن وسائل القوة الفلسطينية بلغت مداها فى تلك الفترة . فقد أصبحت المقاومة الفلسطينية تملك قاعدة هامة سياسية وعسكرية فى لبنان ، وتمكنت فى ظرف دولى وإقليمى ملائم من الوجود فى هذا البلد ، ووفرت لنفسها عليها أقصى إمكانيات متاحة ، وقد تعدت هذه الإمكانيات نطاق ما كان ممكنا تحت ظروف عادية !

وكان ضياع إيران من الثورة الفلسطينية ضربة كبيرة ، لكن هذه الضربة غابت فى ضباب الحرب العراقية ـ الإيرانية سنة ١٩٨٠ . وخلال هذه الحرب فقد انحاز الهوى الفلسطينى إلى اتجاه العراق . وذلك أعاد الثورة الفلسطينية فى الظاهر إلى الصف العربى بعد شكوك راودت البعض فى اقترابها أكثر مما هو لازم من إيران .

إن دولا عربية عديدة وغنية ساندت العراق وساعدته ، وكان يمكن لبعض هذه المساعدات أن يفيض على القضية الفلسطينية . لكن المشكلة أن المنظمة فى هذه الفترة كانت فى حالة دوار من تتابع الحوادث ومن واقع تخوفها من أن أوضاعها فى لبنان مهما ظهرت ثابتة راسخة ، واقفة على أرضية يصعب ضمان استقرارها ، وهى بالدرجة الأولى فرصة للتفاوض ـــ لكن التفاوض أيضا عزيز المنال .

☐

فى هذه الفترة عانت الثورة الفلسطينية أزمة مأزق حساس .

كان مأزق فصائل الثورة الفلسطينية يبدأ من كونها حركات شعبية تريد أن تصل إلى جماهيرها ، لكنها جميعا تعيش خارج الوطن الذى تطالب به وبعيدا عن الشعب الذى تحمل قضيته . وفى نفس الوقت فقد كان لا بد لهذه الفصائل أن تفعل وأن تصل ـــ لكن فعلها ووصولها محكوم عليهما أن يجريا تحت رقابة سلطات لا تسمح بهما ظاهرين ، وإذا سمحت بهما فإن سماحها يحصر العمل الفلسطينى فى الحدود الدعائية ـــ وذلك ليس كافيا. وترتب على ذلك أن الجزء الفاعل والمؤثر من وجود ونشاط المنظمات الفلسطينية لا بد أن يبقى سرا . ونتيجة ذلك يقينا أن صلات المنظمة والفصائل الفلسطينية فى أى بلد تعمل منه محكوم عليها أن ترتبط بالأجهزة السرية فيه .

ويتصل بذلك أن كل العمليات ابتداء من الحصول على السلاح ، إلى تخزين السلاح، إلى شحن السلاح ، إلى إيجاد مقرات ، إلى تجنيد أفراد ، إلى تسهيل مواصلات فى الدخول والخروج ـ وغيره يتم تحت سمع وبصر أجهزة الأمن القومى فى البلاد المضيفة، وهو أمر يفرض التنسيق ، بل الاستئذان .

يضاف إلى ذلك أن أية عمليات تدار أو توجه من بلد ما لا بد لها أن تظل على مستوى لا يؤثر على أمن الدولة المضيفة أو على علاقاتها بالآخرين .

وهكذا بقصد أو بدون قصد أصبحت المقاومة الفلسطينية جزءا من العالم السرى لأجهزة المخابرات .

والمشكلة أن الأجهزة السرية للدول تنزع فى العادة إلى السيطرة على المتعاونين معها بدون استثناء يختص به العمل الفلسطيني وحده . وفى نزعة أجهزة المخابرات إلى هذه السيطرة ـ فإن هذه الأجهزة تؤثر أن تحتفظ لنفسها بحرية العمل بين الفصائل المختلفة ، وأن تقوم باختراق صفوفها قدر ما تستطيع لضمان توجيهها فى إطار حدود تقدرها ، ثم أن تتلاعب ببعضها ضد البعض الآخر .

ولقد ساعد ذلك الوضع على زيادة نفوذ ما سمى بأجهزة "الرصد" (المخابرات) فى مختلف فصائل المقاومة الفلسطينية . فقد كانت هى ضابط الاتصال بالحكومات المضيفة والمعنية ، وذلك أعطاها قوة غير عادية . وزاد التشابك بين أجهزة المخابرات فى الدول المضيفة أو المعنية وبين أجهزة "الرصد" فى الفصائل الفلسطينية المختلفة . ووصل التشابك فى بعض الأحيان إلى درجة يمكن أن تهدد سلامة العمل الفلسطينى فى حد ذاته بإقحامه إلى أبعد مما يريد لنفسه ، وبما هو قادر على الإضرار به بأكثر من نفع أهدافه . ومن ذلك مثلا أن أحد الأنظمة العربية طلب من جهاز "الرصد" التابع لمنظمة "فتح" والذى كان يشرف عليه "أبو إياد" ـ رؤوس بعض معارضيه فى المنافى كمكرمة تقدم لقاء الحصول على المساعدات . لكن رجلا فى وزن "أبو إياد" وبصلابته رفض الطلب ، بينما تورطت فصائل أخرى .

□

وفى المناخ المضطرب لبداية الثمانينات ـ ومع مخاض تطورات دولية تنبئ بتغييرات واسعة النطاق على مستوى العالم ـ تزايد نشاط حركات الرفض ، ولجأ عديد منها إلى الإرهاب . ووجدت بعض المنظمات الفلسطينية نفسها ـ بتدبير مقصود أو بقوة الأشياء ـ طرفا فى عالم أخطبوطى نشأ تحت الأرض وراح يمارس نشاطا إرهابيا متخطيا لكل الحدود، وفى كثير من القارات وبالذات أوروبا . ووجد العمل الفلسطينى السرى أنه يلتقى عن غير تخطيط مسبق بمنظمات سرية من نوع "بادر ماينهوف" فى ألمانيا ، و"الألوية الحمراء" فى إيطاليا ، و"إيتا" فى أسبانيا ، و"الجيش الأحمر" فى اليابان ، و"الجيش السرى" الأيرلندى أحيانا ، وغيرها .

وظهرت خطوط اتصالات تحت الأرض امتدت من بيروت إلى روما ومن ميونيخ إلى لندن ، ومن باريس إلى أنقرة ، ومن مدريد إلى طوكيو . وكان طبيعيا أن ينشأ نوع من علاقات الاتصال والتنسيق والتعاون بين هذه القوى التى أصبح لها تحت الأرض نظام مناهض لحكومات فوق الأرض !

ورغم اهتمام بعض الحكومات بمقاومة الإرهاب ، فقد راحت حكومات أخرى تسعى وراء منظمات العمل السرى أو الإرهابى تحت الأرض وتنشئ نوعا غريبا من العلاقات معها. وعلى سبيل المثال فإن مخابرات ألمانيا الشرقية سعت إلى عدد من هذه المنظمات السرية فى جهودها للعمل ضد ألمانيا الغربية . بل إن حكومة ألمانيا الشرقية حاولت استغلال علاقات بعض منظمات المقاومة الفلسطينية لبيع صفقات سلاح إلى دول على صلات وثيقة بهذه المنظمات .

[وفى صفقة واحدة قامت منظمة سرية عربية بشراء سبعمائة عربة مدرعة من بولندا ، وقامت ببيعها إلى إحدى الدول العربية . بل إن منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها رتبت عقد صفقات سلاح سوفيتى لبعض الدول الأفريقية .]

أكثر من ذلك ، فإن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ذاتها راحت تهتم بنشاط هذه المنظمات وتتصل بها ضمن محاولاتها للبحث عن رهائنها فى بيروت وفى غيرها .

وفى لحظة من اللحظات ، كان مسئول "الرصد" فى "فتح" وهو "أبو إياد" ، يفتح خطوط اتصال على معظم أجهزة المخابرات فى الشرق وفى الغرب ، ومن الـ "كى. جى. بى." (المخابرات الروسية) إلى الـ "سى. آى. إيه" (المخابرات المركزية الأمريكية) . وضمن هذه الخطوط كان هناك اتصال مع "فينيس كونترارو" مسئول مكافحة الإرهاب فى الأمن القومى الأمريكى ، وقد عقد "أبو إياد" مع "كونترارو" أكثر من اجتماع فى إيطاليا وأسبانيا رغم أن "أبو إياد" كان دائما يحاذر فى السفر إلى أوروبا الغربية بعد حادثة احتجاز وقتل الرياضيين الإسرائيليين فى ميونيخ سنة ١٩٧٢ .

ونشأت احتكاكات وصراعات خفية فى عالم ما تحت الأرض وأجوائه الخطرة ، ومن ذلك مثلا أن "أبو إياد" استطاع اختراق تنظيم "أبو نضال" ، الأمر الذى أدى بتنظيم "أبو نضال" إلى تصفية حوالى ثلاثين عنصرا من عناصره مرة واحدة فى جنوب لبنان ، وكان الذى قام بالاختراق شابا من أنصار "أبو نضال" اسمه "عاطف أبو بكر" . ومن المفارقات أن أطرافا عديدين طلبوا ملجأ فى مصر لـ "عاطف أبو بكر" . وبالفعل فإن هذا الشاب منح ملجأ فى مصر ، لكن موقفه أصبح صعبا عندما تردت علاقات الرئيس "السادات" بجهاز "الرصد" فى "فتح" عقب توقيع اتفاقية "كامب دافيد" . وكان أن استطاع "أبو إياد" إخراج هذا الشاب من مصر ونقله إلى عاصمة أوروبية لإجراء جراحة له تغيرت بها ملامح وجهه ، ثم جرى تسفيره إلى الولايات المتحدة حيث يعيش الآن بعد أن تزوج وأصبح رب أسرة .

كان ذلك كله مثيرا ، لكنه على نحو ما كان يعكس أزمة ضياع تعانيها حركة تحرر وطنى استكملت كثيرا من أسباب قوتها فى المال والسلاح والسياسة ، وأعطت نفسها قاعدة قادرة على تحمل حركتها حتى تستطيع أن تجد لنفسها مخرجا بالتفاوض . لكن الولايات المتحدة ، وإسرائيل من ورائها ، كانتا تضعان كل العراقيل المكنة أمام استعداد منظمة التحرير الفلسطينية للتفاوض. من هنا ظهرت أعراض التخبط وفقدان الاتجاه .

وكان ذلك بالضبط ما حدث لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان .

الفصل الثالث

بحر السلام !

عالم السياسة الدولية
مثل عوالم البحار والمحيطات .
وكل ما فيه سابح في نفس المياه ،
لكن الأسماك الصغيرة الملونة
عليها أن تلزم أقصى درجات الحذر
لأن الحيتان السابحة بالقرب منها
لا تعرف فكرة الأخلاق أو القانون
أو حدود البروتوكول !

١

المؤسسة !

" اسمع يا ابنى ، الدنيا فيها حياة وفيها
موت ، وأنا لا أعرف متى يجىء أجلى ،
ولكنى أريد أن أعطيكم نصيحة أخيرة "

(الرئيس "أنور السادات" سنة ١٩٨١ لممثل
منظمة التحرير فى القاهرة)

بعد التراجع الطويل من طهران ، والانحصار الخانق فى لبنان ، والإحساس بأن توازنات القوة الراهنة فى بيروت مفتوحة لاحتمالات يمكن أن تفاجئ الجميع بما ليس فى حسابهم ـ أصبحت منظمة التحرير على اقتناع كامل بأنها مضطرة إلى الاقتراب من الباب الأمريكى لتبحث إمكانيات الحصول على تصريح بالمرور منه ولو بطريق "الترانزيت".

إن المنظمة أصابها شبه يأس من أن تعطيها الأوضاع الدولية ـ بما فى ذلك علاقاتها مع الاتحاد السوفيتى ـ أملا معقولا . وقد وجدت المنظمة أن كل أصدقائها فى موسكو مشغولون بمشكلة الخلافة فى الكرملين ، كما أن بعض الحقائق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عما يجرى فى هذا البلد الذى يعتبر إحدى القوتين العظميين فى ذلك العصر ـ لم تكن مشجعة .

وفى التوازنات الاقليمية فى المنطقة فإن غياب مصر عن العمل العربى لا يزال يترك فراغا لم يملأه أحد ، ورغم تجدد الأمل فى سند إقليمى قادر بعد الثورة الإسلامية فى إيران فإن طهران لم تلبث أن أصبحت أحد المواقع الضائعة سواء باختلاف المقاصد أو بإساءة التصرفات ... لكن طهران لحقت بمواقع ضاعت من قبل مثل عمان والقاهرة ودمشق .

وبيروت هى وحدها لا تزال .. ولكن إلى متى ؟

وسوريا تضغط من ناحية ، وإسرائيل تضغط من الناحية الأخرى . ونصف سكان لبنان سوف يستجيب فى نهاية المطاف لسوريا ، ثم إن النصف الآخر قد يتورط إلى بعيد فى تساؤلاته عن فوائد الشيطان !

وكان الاقتراب من الباب الأمريكى يعطى معادلة جديدة ــ لكن واشنطن ما تزال غير مستعدة ، وكانت ترى ــ طبقا لنظرية "ريتشارد هاس" ــ من أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى وأمانته الدائمة فى البيت الأبيض ــ أن الوضع الفلسطينى لم "ينضج" بعد ولم يصبح جاهزا للتسوية المطلوبة ، وأن أمامه بعض الوقت تحت الحرارة والضغط حتى يلين ويصبح جاهزا للتناول !

□

ويوم ٢ فبراير ١٩٨١ اتصل ضابط المخابرات المصرية المكلف بالاتصال بالفلسطينيين بالسيد "سعيد كمال" ممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى القاهرة ليخطره أن الرئيس "السادات" قد حدد له موعدا صباح الغد فى الساعة العاشرة صباحا . وحاول "سعيد كمال" أن يتصل بسرعة بـ"ياسر عرفات" فى بيروت" ليخطره ويتلقى منه أى تعليمات قد تكون لديه . ولم يصل رد من "عرفات"، ولم يكن "سعيد كمال" متأكدا من السبب الذى يدعو الرئيس "السادات" إلى طلبه بهذه السرعة .

وطبقا لرواية "سعيد كمال" فإنه دخل إلى إحدى الغرف فى بيت الرئيس الذى أقبل بعد قليل ، وصافحه ، ثم ظل واقفا يبلغه بما استدعاه من أجله . كان الرئيس "السادات" يريد أن يقول كلمة ويمشى ، وقد بادر بها بغير انتظار فقال : "اسمع يا ابنى ، الدنيا فيها حياة وفيها موت ، وأنا لا أعرف متى يجىء أجلى ، ولكنى أريد أن أعطيكم نصيحة أخيرة قبل أن يفوت الأوان . إننى أستطيع أن أرى الدماء تسيل فى لبنان ، وسوف يخرجونكم منها مهما فعلتم ، ثم تضطرون بعد الخروج إلى البحث عن حل سلمى فى ظروف أسوأ . وأريد أن أعطيكم بعض الخطوط أو بعض الجسور إذا فكرتم فى المشى عليها ." واستطرد الرئيس "السادات" وقد زادت النبرة الدرامية فى صوته : "ابعث لأبو عمار وقل له :

● هناك غزو للبنان إذا لم تلينوا أمام الطلبات الإسرائيلية التى يتحدث عنها بعض موارنة لبنان الآن . إنهم طلبوا منكم ، وسوف يصرون على الطلب ، بأن تجمعوا سلاح

المنظمات كلها وتضعوه تحت إشراف قوات جيش التحرير الفلسطينى فى لبنان ، ثم تضعوا هذا الجيش نفسه تحت سلطة الجيش اللبنانى لكى يمكن ضبط الأمن .

● ليس فى مقدوركم أن تقاوموا ما هو مخطط لكم . سلموا السلاح الآن لأن بقاءكم فى لبنان مهم ومفيد للتسوية . وتستطيعون أن تعاندوا ، لكن عليكم أن تتذكروا العامل اللبنانى الداخلى ، والعامل السورى ، والعامل الإسرائيلى . هذه العوامل الثلاثة سوف تقوم بـ "فعصكم" فيما بينها . وفى النهاية سوف تخرجون من لبنان — سوف تخرجون ."

ثم توقف الرئيس "السادات" لحظة ، واستطرد :

"إذا فكرتم فى التسوية فى يوم من الأيام فنصيحتى لكم أن تتجهوا إلى "المؤسسة" The Establishment — إلى اليهود فى أمريكا" .

ثم سكت الرئيس "السادات" لحظة ، وبعدها وصلت النبرة الدرامية فى صوته إلى ذروتها ، وقال لـ "سعيد كمال" : "اكتب هذا الاسم — ستيفن كوهين Steven Cohen — هو مقرر لجنة اليهود الأمريكيين ، ويعمل مباشرة مع هوارد سكوادرون — رئيس مجلس الرؤساء اليهود فى أمريكا . عندما أقول يهودا "اعرف على طول أنهم إسرائيليون" . هؤلاء هم الذين يقدرون على الكلام مع إسرائيل . وكل الناس يعرفونهم هنا ، لكن عندما تفتحون الخط مع أمريكا يكون الخط مع هؤلاء أولا . "تدخلون معهم من غير فلسفة وتتعاملون بعقل معهم" . هؤلاء هم المؤسسة . هم ليسوا صناع القرار ولكنهم الذين يهيئون له الجو ."

ثم عاد الرئيس "السادات" يكرر : "ارسل لأبو عمار وقل له عن لبنان والدم الذى سوف "يسيح" ، وعن ستيفن كوهين إذا اضطررتم فى يوم من الأيام" .

وانتهت المقابلة والرئيس "السادات" ما زال واقفا ، وكذلك ضيفه . وخرج "سعيد كمال" قاصدا إلى مكتب المنظمة يلتقى مع "زهدى القدرة" مسئول المكتب فى ذلك الوقت الذى حمل نصا لما جرى وتوجه إلى مطار القاهرة قاصدا بيروت .

وفى ذلك الوقت كان الرئيس "السادات" نفسه يستعد للسفر إلى باريس (فبراير ١٩٨١) ليلتقى بقيادات "المؤسسة" . ولم يقتصر اللقاء على القيادة اليهودية الأمريكية فقط ، وإنما انضمت للاجتماع قيادات يهودية أوروبية بينها البارون "روتشيلد" واللورد "جودمان" و"بول واربورج" رئيس مجلس إدارة البنك الشهير بهذا الاسم فى لندن ، وكان

الرئيس "السادات" يريد أن يشكو "للمؤسسة" تصرفات "بيجن" معه حتى بعد توقيع معاهدة "كامب دافيد" .

وكانت "المؤسسة" شديدة الكرم معه وغير مقصرة فى التعبير عن إعجابها به . وفى هذا الاجتماع لاحظ الرئيس "السادات" أن البارون "روتشيلد" ظل صامتا ، فسأله عن صمته ؟ ورد "روتشيلد" بأنه "فى حضرة أنبياء السلام يتعين على الناس أن يسمعوا ولا يتكلموا" !

وهز الرئيس "السادات" رأسه بوقار أنبياء السلام !

□

لم تكن نصيحة الرئيس "السادات" مفاجئة لقيادة منظمة التحرير ، ولا كانت هذه القيادة ساكتة فى انتظار أن تتلقاها . والحاصل أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت قد اكتشفت "المؤسسة" مبكرا ، واكتشفتها من عدة طرق وليس فقط من طريق واحد . وربما نسى الرئيس "السادات" وهو يعطى نصيحته الدرامية أنه هو نفسه وجه المنظمة من قبل إلى الاتصال بـ "ستيفن كوهين" بالتحديد ، وإن لقاء تمهيديا عقد فى الإسكندرية مبكرا سنة ١٩٧٧ . لكنه فى الوقت الذى وجه فيه الرئيس "السادات" نصيحته الثانية ، كانت المنظمة على اتصال بـ"المؤسسة" عن طريق قناتين فى نفس الوقت :

- قناة يشجعها بعض رجال الأعمال الفلسطينيين الضالعين فى الاتصالات السياسية ، ومعهم بعض الأساتذة الفلسطينيين المقيمين فى الولايات المتحدة الأمريكية .
- وقناة ثانية كانت هى الأهم فى ذلك الوقت ، وهى القناة التى يشجعها المستشار النمسوى "برونو كرايسكى" .

كان "برونو كرايسكى" قد لعب من قبل دورا نشيطا فى التمهيد للسلام المصرى الإسرائيلى . وكان وضعه كزعيم أوروبى يهودى غير منتم للعقيدة الصهيونية يجعله قادرا على درجة من الحركة الحرة لا تتوفر لغيره . ثم إن دوره النشيط فى الحركة الدولية الاشتراكية أعطاه نفوذا واسعا يتجاوز حدود النمسا . وكان "كرايسكى" إلى جانب ذلك على صلة بعدد من ساسة حزب العمل الإسرائيلى وفى مقدمتهم "شيمون بيريز" و"تيدى كوليك" عمدة القدس .

وقد أدرك "كرايسكى" أن دوره فى عملية السلام المصرى ـ الإسرائيلى لا يكفى لتحقيق السلام ما لم تقترب المحاولة من القضية الفلسطينية .

وسنة ١٩٧٨ كان الدكتور "عصام السرطاوى" ، مساعد "أبو مازن" ومؤيده فى عملية مد جسور الاتصال مع اليهود الغربيين المتعاطفين مع إسرائيل ، ومنهم إلى الإسرائيليين المنادين بالسلام داخل إسرائيل نفسها ـ قد وجد طريقه إلى لقاء مع "كرايسكى" فى فيينا ، أثناء محاولة تقدمت بها منظمة التحرير الفلسطينية لتصبح عضوا فى الدولية الاشتراكية . وروى الدكتور "عصام السرطاوى" أن المستشار النمساوى سأله سؤالا واحدا قبل أن يقبل بالتعامل معه : "هل أنت معاد لسياسة السادات ؟" وكان رد "السرطاوى" بأنه ليس معاديا لسياسة الرئيس "السادات" . واعتبر "كرايسكى" أن "السرطاوى" نجح فى الامتحان وبدأ يتعامل معه بدون تحفظات . واستطاع أن يرتب له لقاءات مع كثيرين من ساسة أوروبا ، ومن الشخصيات اليهودية البارزة فيها ، كما أعد له لقاءات "تعارف واستكشاف أفكار" مع عدد من الإسرائيليين .

وتقدمت الأمور خطوة بعد ذلك ، وقام "ياسر عرفات" بزيارة للنمسا استقبله فيها "كرايسكى" ، ورتب له أن يلتقى بعدد من زعماء الدولية الاشتراكية وبينهم "ويلى برانت" .

□

كانت السياسة الأمريكية تتابع بدقة ما يجرى من تطورات على كل الساحة الممتدة من بيروت إلى فيينا وما حول العاصمتين . وكانت واشنطن تجرى تقييماتها للموقف بدقة تعكسها برقية سرية بمعلومات وتوجيهات صادرة عن مكتب وزير الخارجية مباشرة. وجاء فى نص هذه البرقية ما يلى :[(١)]

" برقية رقم ١٢٠٦٥ ـ سرى جدا

٤ سبتمبر ١٩٧٩

---

(١) مجموعة كاملة من وثائق وزارة الخارجية الأمريكية تم الحصول عليها بمقتضى قانون حرية المعلومات، وفى ملحق صور الوثائق توجد صورة للصفحة الأولى من هذه البرقية ـ تحت رقم (٧) .

ملحوظة : لا يطلع على هذه البرقية غير رؤساء البعثات ولا توزع على غيرهم لأن ما فيها قد يكشف مصادر معلوماتها وأسلوب الحصول على هذه المعلومات .

١ ـ يراعى التزام السرية .

٢ ـ إن اللقاء الذى حدث أخيرا بين عرفات وكل من كرايسكى وبرانت أعطى لمنظمة التحرير حقنة مقوية فى ذراعها (a shot in the arm) . إن هذا اللقاء الذى جاء سابقا مباشرة للقاء حصل بالصدفة بين المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة والمندوب الفلسطينى ـ زاد التوقعات فى شأن الاتصالات مع منظمة التحرير . ويظن عرفات أن هذه اللقاءات قد أضافت إليه قدرا من الاحترام . ويبدو أن عرفات يعيد النظر الآن فى أساليب العنف كوسيلة لتحقيق أهداف منظمة التحرير وفتح .

٣ ـ إن منظمة التحرير مرت فى الأسابيع الأخيرة ببعض التطورات الدبلوماسية التى قد تعطيها الإحساس بأن المبادأة معها :

- حدث لقاء بين فرانسوا بونسيه وزير الخارجية الفرنسى وبين فاروق قدومى رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وطرح قدومى فى الاجتماع رغبة عرفات فى زيارة باريس . ومعلوماتنا أن الرد عليه كان بأن الوقت لا يزال مبكرا لذلك .

- إن حادث الهجوم على السفارة المصرية فى أنقرة واحتلالها بواسطة فلسطينى وتدخل منظمة التحرير بحزم لإنهاء المشكلة ـ أعطى لمنظمة التحرير الفرصة للاقتراب من الحكومة التركية والحصول منها على نوع من الاعتراف الدبلوماسى . وتلك أول مرة يحدث فيها ذلك من دولة عضو فى حلف الأطلنطى .

- إن الرئيس الرومانى تشاوشيسكو اجتمع أخيرا مرتين مع عرفات ، ولم يكن هناك إلا فاصل تسعة أيام بين المقابلة الأولى والمقابلة الثانية . ونحن نعرف أن تشاوشيسكو كالعادة منهمك فى نقل الرسائل .

- إن المجلس الفيدرالى السويسرى أعلن أخيرا عن استعداده للسماح بلقاء بين وزير الخارجية السويسرى وفاروق قدومى .

- إن الرئيس الليبيرى تولبرت وافق على استقبال مبعوث من منظمة التحرير رغم أنه لا يوجد مكتب للمنظمة فى مونروفيا .

٤ ـ إن استراتيجية المعتدلين فى منظمة التحرير تبدو وكأنها تأخذ اتجاهين :

(أ) الاتجاه الأول هو تجاوز سمعة منظمة التحرير كمنظمة إرهابية والسعى من أجل الحصول على مصداقية دبلوماسية فى الغرب .

(ب) البناء فوق هذه السمعة المكتسبة والتغلب على رفض الولايات المتحدة المستمر حتى الآن للحوار مع المنظمة .

٥ ــ لمتابعة هذه الأهداف فإن عرفات ذهب إلى قمة الدول غير المنحازة وهو يتوقع أن يحصل على قرار بإدانة المعاهدة المصرية ــ الإسرائيلية (لاستكمال الشكل والتغطية) والدعوة إلى اجتماع خاص للجمعية العامة للأمم المتحدة يكرس لمناقشة قضية فلسطين . وهو يفكر فى المجىء إلى نيويورك للبحث فى أمر هذا الاجتماع .

٦ ــ ويبدو أن عرفات مستعد لتجاهل العناصر المتشددة فى المقاومة الفلسطينية وفى منظمة التحرير . وفى نفس الوقت يضعف مركز الحكومة السورية لأن دمشق تخشى أن يصبح عرفات طرفا مستقلا فى تعاملاته الدبلوماسية . وهناك أدلة تشير إلى أن عرفات أوقف جميع عمليات الإرهاب الدولية التى تقوم بها فتح ، كما مارس قدرا كبيرا من ضبط النفس خلال الهجمات التى قامت بها إسرائيل والقوات الموالية لها بقيادة حداد فى جنوب لبنان .

٧ ــ يحاول عرفات أن يصل إلينا عن طريق بعض الشخصيات من السود الأمريكيين الذين يدعوهم إلى لقائه ، وبينهم جيسى جاكسون . وهو يبعث إلينا بإيماءات صريحة بأنه على استعداد للاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود إذا جرى اعتراف أمريكى بحق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم .

٨ ــ من الواضح أن عرفات يبدو مقتنعا الآن بأن كل الأعمال الإرهابية لن تعطيه الاعتراف الذى يريده سواء من دول أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة .

٩ ــ إن عرفات يتوقع أن ينفتح أمامه باب أمريكى يصل منه إلينا .

إمضاء

وزير الخارجية "

□

وكانت الولايات المتحدة رغم ذلك ــ وحتى هذه الدقيقة ــ لا تزال على تصميمها بأن منظمة التحرير يجب أن تنتظر أكثر حتى تنضج الأمور وتستوى أكثر .

وتتابع برقية شفرية أمريكية موجهة إلى السفارات والقنصليات الأمريكية ـــ تحركات ممثلى المنظمة فى محاولاتهم لإجراء اتصال (سرى رقم ٢٨٩٦٦٨) :

"علمنا أن الدكتور عصام السرطاوى وهو ممثل خاص لمنظمة التحرير حصل على تأشيرة دخول للولايات المتحدة . إننا لسنا متأكدين حتى الآن كيف ومن أين حصل السرطاوى على هذه التأشيرة . وعلى كل القنصليات أن تبحث في ملفاتها عن طلب يمكن أن يكون قد تقدم به إلى واحدة منها . ويرجى ملاحظة أن اسم "السرطاوى" يمكن أن يكتب مع التلاعب بالهجاء العربى كـ "سيرتاوى" أو "أرتاوى" أو "سيتاوى" . إن وزارة الخارجية ترجو أن تكون المراجعة دقيقة ، وطبقا لما لدينا فإن هناك احتمالا لأن يكون حصل عليها على جواز سفر سودانى قدمه إلى إحدى قنصلياتنا حوالى ١٩ أكتوبر . ومن الواضح لنا أن السرطاوى يريد أن يجىء إلى واشنطن للفت نظر الصحافة الأمريكية ، وربما للتمهيد لنشاطات فلسطينية أخرى . ونرجو فى حالة التوصل لأى معلومات إخطار وزارة الخارجية في واشنطن فورا ".

□

كان الدكتور "عصام السرطاوى" يتوسع فى اتصالاته مع اليهود وبعض الإسرائيليين من المعارضة ، طبقا للسياسة التى رسمها "أبو مازن" والتى أشير إليها فى قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى سنة ١٩٧٧ . وكان الدكتور السرطاوى مؤمنا بهذه السياسة وعلى نفس درجة إيمان "أبو مازن" بها . وكان بشخصيته مندفعا . ولم يكتف بأن يقابل يهودا أوروبيين فحسب ، بل ذهب أبعد من ذلك بتشجيع من أصدقاء له فى مصر ، فقابل شخصيات إسرائيلية من المعارضة بينهم "يورى أفنيرى" (رئيس تحرير مجلة "هاعولام آزيه") والجنرال المتقاعد "يهوشافات هاركابى" (كان مدير مخابرات سابقا ثم تفرغ للدراسات السياسية الاجتماعية ، وله بحث مهم عن العقل العربى) ، و"بنيامين إليعازر" (شخصية مهمة فى حزب العمل ، ثم هو وزير الإسكان فى حكومة "رابين") . وتسربت أنباء عن اتصالات "عصام السرطاوى" فى القاهرة بتشجيع من بعض الرسميين والصحفيين المصريين ، وبدأت تثير أسئلة حوله فى تونس : من يمثل ؟ وماذا يعمل ؟ وبأى صلاحية ؟ ومن الذى أعطاه هذه الصلاحية ؟

والواقع أن "السرطاوى" لم يكن قد حصل على إذن صريح من "أبو مازن" فحسب ، وإنما حصل على إذن ضمنى أيضا من "ياسر عرفات" . لكن إذن "عرفات" كان محددا "بالاتصال مع يهود متعاطفين مع الفلسطينيين" . ولم يكن "عرفات" على استعداد للرد

على كـل التساؤلات التى ثارت حـول اتصالات "السرطاوى" ، ووقعـت هـذه المهمـة على "أبو مـازن" . وكانت القاعدة المقررة فـى أسلوب التعامـل مـع هـذه الاتصـالات أن يظـل "ياسر عـرفـات" بعيدا عنها يغطـى ويحمـى من بعيـد . لكـن إذا انكشـف أمرهـا فعلـى الكل أن يتوقعوا أنه لا يستطيع أن يغطـى أو يحمـى .

كان "السرطاوى" على أى حال يعيش بعيـدا عـن بـيروت ، وقـد اختـار أن يقـيم فـى باريـس ، ويعطى نفسه حريـة أوسـع فـى الاتصـالات ، متصـورا أن مسـئوليته عـن تمثيـل منظمـة التحرير الفلسطينية فى الدولية الاشتراكية تعطيه هامشا أرحـب فى الاتصـال . وكـان بعض قـادة منظمة التحرير الفلسطينية من الذين يقدرون مزايا الدكتـور "السـرطاوى" واقتناعـه بآرائه ، يرون أنه يواجه مشكلة حقيقية ما بين تكليفه باتصالات خطـرة وفـى نفس الوقـت عـدم حمايته بالقدر الكافى . وحدث بالفعـل أن "فـاروق قـدومـى" ("أبو اللطـف") ـ الـذى مَـرّ بباريـس ذاهبـا إلى نيويـورك ـ توجـه من فنـدق "الكريـون" حيث كان يقـيم إلى بيـت "السرطـاوى" لكـى يرجـوه كصـديـق قـديـم أن يخفـف مـن نشـاطـه فـى الاتصـالات بعض الشـىء .

لكن "السرطاوى" شأن البعض من قيادة المنظمة كان يـرى أن الوقـت فى لبنـان محـدود وأن التـوازن القلـق فى بـيروت قد يختـل فى أى لحظـة .

وبالفعل فإن مؤشـرات العواصـف كانت تتحـول بسرعـة وحـدّة فى اتجـاه لبنـان .

٢

ألكسندر هيج

" اسمع .. قل لياسر عرفات يحمى نفسه ، فأنا لا أحتاج إلى تحذير منه "

(الرئيس "السادات" لمندوب المنظمة الذى حمل إليه رسالة من بيروت عن معلومات تشير إلى مؤامرة لاغتياله)

طوال شهر سبتمبر ١٩٨١ كانت الأجواء فى مصر غائمة ، وعواصف خريف الغضب على وشك الهبوب . وحدث فى الأسبوع الثانى من هذا الشهر أن كان السفير الأمريكى "ألفريد آثرتون" يحضر عشاء فى إحدى السفارات العربية فى القاهرة ، فإذا هو يقول ضمن حديث عام ومسموع "إن هناك مجموعة منظمات سرية تتسابق فيما بينها لاغتيال الرئيس "السادات" ، وأن كلا منها تحاول أن تسبق الأخرى ."

كانت هناك محاولات سابقة لاغتيال "السادات" رتب بعضها خارج مصر ، وكانت أشهرها محاولة شارك فيها ثلاثة من الفلسطينيين ، وكان موعد تنفيذها هو مناسبة عيد العمال (أول مايو) ١٩٨١ . ثم حدث أن عرفت بالترتيب شخصية سورية ، وقامت بإبلاغ القاهرة . وبالفعل أمكن متابعة المكلفين بالاغتيال من المطار حتى فندق فى ميدان العتبة قبض عليهم فيه .

وخلال عواصف شهر سبتمبر ١٩٨١ تجددت فى القاهرة أحاديث مؤامرات الاغتيال، وترددت فى عواصم عربية متعددة ، وعلى الأرجح فإن منظمة التحرير وصلتها روايات . وربما تذكر البعض أنه قد سبق إشراك ثلاثة فلسطينيين فى محاولة "مايو" . وهكذا قررت المنظمة أن تتحرك . وبعث "ياسر عرفات" برسالة إلى الدكتور "نبيل شعث" يوم أول أكتوبر ١٩٨١ جاء فيها بالنص : "أرجو إبلاغ الوسائط الخَيِّرة أنه فى حالة حصول شىء ما فى مصر فنرجو الله ألا تلصق تهمته بالفلسطينيين" . كان تعبير "الوسائط الخَيِّرة"

هو الإصطلاح الذى يشار به إلى المهندس "سيد مرعى"، وكان فى ذلك الوقت يحاول إصلاح أمور العلاقات بين مصر ومنظمة التحرير . وقرأ "سعيد كمال" الرسالة الموجهة إلى "نبيل شعث" وأدرك معناها على الفور ، فصياغتها تعنى فى رأيه أن المنظمة لديها معلومات عن مخطط لاغتيال الرئيس "السادات" .

ومن المحتمل أن "سعيد كمال" أحس بضغط عنصر الوقت ، أو لعله أراد كسب ميزة مع السلطات المصرية ، وقرر ألا ينتظر ، واتصل مباشرة بالسيد "توفيق قورة" من سكرتارية الرئيس "السادات" يطلب موعدا عاجلا مع الرئيس "السادات" ولأمر يخص الرئيس شخصيا . وعاد السيد "قورة" يتصل بـ "سعيد كمال" عند منتصف الليل فى بيته ويطلب منه أن يتواجد فى بيت الرئيس "السادات" فى الجيزة قبل الساعة الثامنة صباحا (صباح يوم ٢ أكتوبر ١٩٨١) .

وعندما وصل "سعيد كمال" إلى بيت الرئيس "السادات" أبلغ أن الرئيس ليس لديه أكثر من عشر دقائق فقط ، وعليه أن يختصر فيما يريد أن يقوله له . كان الرئيس "السادات" واقفا فى منتصف صالون بيته وبملابسه الكاملة ، وقد بادر زائره بالسؤال : "خير ؟" وروى له "سعيد كمال" ما لديه ، وأعطاه الورقة التى تحمل نص الرسالة ثم أضاف أنه آثر لخطورة الموضوع وبسبب عنصر السرعة أن يجىء إليه مباشرة دون انتظار لا لـ "نبيل شعث" ولا لـ "سيد مرعى" . وأمسك الرئيس "السادات" بالورقة وقرأها وظهر الغضب على ملامحه ، وتساءل بحدة : "إيه ؟ قل لياسر يحمى نفسه أولا" . ثم توقف الرئيس "السادات" وبدا أنه يراجع نفسه نظرا لأهمية الموضوع ، وقال بلهجة حاول أن يجعلها هادئة : "اذهب وبلغ أسامة الباز بهذه الرسالة" . وسأله "سعيد كمال" : "هل أبلغ اللواء سعيد الماحى مدير المخابرات ؟" ورد الرئيس "السادات" : "قلت لك بلغ أسامة الباز" .

وبالفعل ذهب "سعيد كمال" بالرسالة إلى "أسامة الباز" الذى سأله عن تقديره لأهمية الرسالة ، وكان الرد عليه أنه عندما تجىء مثل هذه الرسالة من "أبو عمار" و"أبو إياد" معا فمعنى ذلك أن الأمر جد .

□

إن منظمة التحرير على عكس أطراف عربية أخرى لم تكن سعيدة باغتيال "أنور السادات" الذى حدث يوم ٦ أكتوبر ، أى بعد أربعة أيام من تحذير نقلته إليه المنظمة .

ومع أن منظمة التحرير كانت على خلاف مع سياسات الرئيس "السادات" ، وكانت تعتقد أن سياسته التى أدت إلى إخراج مصر من معادلة القوة العربية قد وضعتها فى العراء — فإنها كانت تحاول باستماتة أن تظل على علاقة طيبة بمصر وعلى علاقة طيبة بسلطة الحكم فيها مهما كانت الظروف . وكان ذلك عن إدراك عميق بأهمية مصر التاريخية ووزنها الاستراتيجي بصرف النظر عن تقلبات السياسة . وفوق ذلك فإن المنظمة كانت تقدر أن ما فعله الرئيس "السادات" قد أصبح أمرا واقعا والرجوع عنه صعب ، والإصرار على مقاومته يهددها بضياع مساندة مصر لها . وفى المحصلة النهائية فإن المنظمة ذاتها انساقت بالظروف إلى خيارات لا تختلف كثيرا عما وصل إليه الرئيس "السادات" . وكان يهمها أن تستعمل نفوذه لدى الولايات المتحدة خصوصا ، وفى الغرب عموما ، بأمل أن يفتح لها بابا أو يعطيها جسرا إلى مائدة مفاوضات تجرى تحت اشتراطات معقولة .

والحاصل أن تلك الفترة كانت فترة موحشة بالنسبة لمنظمة التحرير ، فقد تلاحقت تطورات وحوادث بدت جميعا مثيرة للإحباط :

فقد تم تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل فعلا تطبيقا لاتفاقية "كامب دافيد" — وصدر عن الكنيست الإسرائيلى قانون يؤكد ضم القدس نهائيا إلى إسرائيل بحيث تصبح "عاصمة موحدة وأبدية للدولة اليهودية" - واحتدمت معارك الحرب بين العراق وإيران، واضطرت المنظمة إلى الانحياز للعراق ، وجرت تصفية بقايا مواقعها تماما فى إيران — ثم جاء "ريجان" إلى رئاسة الولايات المتحدة ومعه الجنرال "ألكسندر هيج" وزيرا للخارجية وكلاهما من أشد أنصار إسرائيل — ثم حدثت الغارة الإسرائيلية على مفاعل "أوزيراك" فى العراق، وكان حدوثها بعد عدة أيام من لقاء بين الرئيس "السادات" و"مناحم بيجن" فى شرم الشيخ — وكانت كل الخطوط متداخلة متشابكة ومعقدة .

(بلغ تشابك الخطوط إلى درجة أن السفير الأمريكى فى القاهرة "ألفريد آثرتون" الذى فوجئ بالغارة الإسرائيلية على المفاعل النووى العراقى "أوزيراك"، اتصل بنائب الرئيس "حسنى مبارك" يسأله عما إذا كان "بيجن" قد أخطر الرئيس "السادات" أثناء لقائهما فى شرم الشيخ بنية إسرائيل فى ضرب المفاعل العراقى . ورد نائب الرئيس "مبارك" بأنه "لا يعرف وأن الرئيس لم يحدثه فى هذا الأمر" . واتصل نائب الرئيس السيد "حسنى مبارك" بالرئيس "السادات" فور استيقاظه ذلك اليوم ونقل إليه تفاصيل الاتصال التليفونى الذى أجراه السفير الأمريكى معه . وكان الرئيس "السادات" متضايقا وقد سأل نائبه : "هل تصورت أنت أيضا أن بيجن يمكن أن يقول لى شيئا من ذلك وأقبله أو أسكت عليه؟" كان الرئيس "السادات" غاضبا بالفعل لما اعتبره غدرا من جانب "بيجن" ، وطلب من نائبه أن يتصل بالسفير الأمريكى وأن يوضح له أنه فوجئ بالغارة كما فوجئ بها كل الناس .)

لكن لبنـان كان هاجس المنظمة وخوفها الأشـد والأكبر ، وقد أحسـت بعـد رحيـل الرئيس "السادات" أن العنصر المصرى فى أوضاع المنطقة سوف يظل غائبا لفترة قد تطــول ، وإن أحد أهـم خطوطها المباشرة بالولايات المتحدة وغير المباشرة بإسرائيل ضاع من يدهـا .

وكان الزمام فى لبنـان يزداد انفلاتـا مع كل ساعة ، فقد تبعثرت منظمات المقاومة ، كما أن الأطراف اللبنانية كلها تشرذمت واختفت سلطـة الدولـة ، وأصبحــت السلطة فـى لبنـان للسـلاح وحـده وبعيدا عن الجبهـة مع إسرائيل . وكانت تلك كلها نـذر شـؤم

وقد زاد على هذه النـذر أن إسرائيل والولايات المتحـدة وقعتـا فـى نوفمبر ١٩٨١ (بعـد شهر واحد من اغتيال "السادات") اتفاق تعاون إستراتيجى يرفـع العلاقـات بـين البلديـن إلى مستوى غير مسـبوق فـى تـاريخ علاقتهمـا الوثيقــة . وبهـذا الاتفـاق أصبحـت هنـاك شركـة استراتيجية كاملة بين إسرائيل والولايات المتحـدة الأمريكية . وفى شهر ديسمبر ١٩٨١ ، أى بعد شهر من الاتفاق الإستراتيجى قامت إسرائيل بإقــرار قـانون مـن الكنيست يمـد الولايـة القانونية لإسرائيل على مرتفعات الجـولان السوريـة بما يعنى ضـم جـزء من سوريــا مباشرة إلى إسرائيل .

ثم بدا أن سـاعة الصفـر تقترب فـى لبنـان عندمـا قـام الجـنرال "شـارون" وزيـر الدفـاع الإسـرائيلى بإخطــار "ألكسـندر هيــج" وزيـر الخارجيـة الأمريكـى بـأن حكومتــه (الحكومـة الإسرائيلية) لم تعد قادرة على تحمـل الأوضاع الراهنة فى لبنـان بعد ما وصلـت إليه ، وإنها مع قرب انتهاء مدة رئاسة "إلياس سركيس" (الرئيـس اللبنـانى وقتهـا) ــ قــررت التدخـل بالقـوة فى لبنـان لتصفية ما وصفـه "شارون" بـ "الاحتلال الفلسطينى" لها وإعادة السـيادة إلى اللبنانيين وتنصيب الشيخ "بشير الجميل" (الابــن الثـانى لــ "بيـير الجميـل" مؤسـس حـزب الكتائب اللبنانى) ــ رئيسا للجمهورية اللبنانية .

لم يكن كـلام "شارون" لـ "ألكسندر هيـــج" مفاجئـا لـه ، ولا كـانت حقـائق الاتصـالات الجارية بين حـزب الكتائب وغيره من الأحزاب اللبنانية مع إسرائيل سـرا على كثـيرين فـى المنطقة . والواقع أن الاتصالات بين إسرائيل وبـين عناصـر مختلفـة فـى لبنـان ــ مسـيحية ومسلمة ــ لم تنقطع منذ قيام الدولة اليهودية فى فلسطين وحتــى مـن قبـل قيامهـا . وفـى مرحلة مبكرة فقد كان السيد "كميل شمعون" أثناء وجـوده سفيرا للبنان فى لنــدن فـى أوائـل الخمسينات هو أنشط العناصر اللبنانيـة فى الاتصال بإسرائيل ، وقــد واصـل علاقاتـه بتـل أبيـب وهو رئيس للجمهورية اللبنانية حتــى سنــة ١٩٥٨ . وطـوال هـذه المـدة كـان حــزب الكتائب ـ الذى قـاده الشيخ "بيـير الجميـل"ـ يتحـرج فـى الاتصـال صراحـة خشيــة علـى العلاقات الإسلامية ــ المارونية ودورها الأساسى فى الحفاظ على التركيبة اللبنانيــة الخاصـة . ومع اشتعال نـيران الحرب الأهليـة فإن "الشيخ "بيير الجميل" نفسه بـــدأ يـردد مقولتـه عـن

التعاون مع الشيطان ، وكان ابنه الأصغر "بشير الجميل" ـ بطبيعته المتسمة بالعنف ــ قد آثر ألا ينتظر حسابات أبيه وأن يبادر من جانبه إلى قيادة "القوات اللبنانية" (التى انخرطت فيها مليشيات الكتائب ومليشيات حزب الأحرار الذى يرأسه "كميل شمعون") ــ وأن يفتح أبوابا للتعاون والتنسيق بينها وبين إسرائيل .

□

إن شهادة الأستاذ "جوزيف أبو خليل" رئيس تحرير جريدة "العمل" الناطقة بلسان حزب الكتائب ، والصديق المقرب من الشيخ "بيير الجميل" والمستشار المؤتمن لابنه الشيخ "بشير الجميل" ــ هى واحدة من أهم الوثائق حتى الآن فى قصة العلاقات بين لبنان وإسرائيل .

ويروى الأستاذ "جوزيف أبو خليل" [٢] قصة اشتراكه شخصيا فى الاتصالات بين الشيخ "بشير الجميل" وإسرائيل على النحو التالى :[٣]

"كانت ليلة من ليالى آذار (مارس) ١٩٧٦ المظلمة والمعارك فى الأسواق التجارية من العاصمة بيروت على أشدها . وكانت العتمة قد بدأت تنفلش (تتبدد) وتغمر الأرض ومن عليها وتضفى على أرض المعركة رهبة ووحشة خانقتين . ولا ضوء إلا ذلك المنبعث خافتا من نوافذ المبنى الذى اتخذ منه الشيخ "بشير الجميل" مقرا لقيادته ــ على مسافة أمتار قليلة من بيت الكتائب المركزى الذى تمزق سقفه القرميدى بفعل القذائف والقنابل المتساقطة عليه منذ أسابيع . وكنت بحكم وظيفتى كرئيس تحرير لجريدة العمل الناطقة بلسان حزب الكتائب أقضى الليل مع الشيخ بشير أو مع من كان قبله يتولى القيادة العسكرية أتتبع سير المعارك وأخاف مع الخائفين وأعد القذائف المتساقطة وأنتظر طلوع الفجر .

فى الشارع المظلم ضوضاء وجلبة . فالمقاتلون بالعشرات يحتشدون كما كل ليلة فى انتظار أدوارهم ، وكان بشير يتأمل فى الوجوه ، ووقفت إلى جانبه أشاركه فى التأمل والقلق . لم يصمت الشيخ البشير كأنه شاء أن يشركنى فى أسباب قلقه ،

---

(٢) كتاب "قصة المارونة فى الحرب ــ سيرة ذاتية" بقلم "جوزيف أبو خليل" منشور فى بيروت ١٩٩٠ عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .

(٣) المرجع السابق ــ صفحة ٤٣ .

قال هل ترى هؤلاء المقاتلين الأشداء ؟ إنهم الليلة يرفضون الحلول مكان رفاقهم على خطوط النار ، فالذخيرة تنقصهم ولا ذخيرة عندى أزودهم بها ولا أدرى ما العمل . هالنى ما سمعت . كنت أعرف طبعا أنه لا سبيل للرد على القصف المدفعى العشوائى الكثيف على بيت الكتائب بقصف مماثل . لم أكن أعرف أن المقاتلين يحملون بنادق فارغة إلا من بعض الرصاصات . هذا لا يصدق وهذا مخيف . فأى مقاتل يذهب إلى الموت بمثل هذه العدة التعيسة . وقلت بصوت خائف ومرتجف : وماذا عن الاتصال بإسرائيل ؟ وأجاب الشيخ بشير "لا أدرى إلى أى حد الأمر جدى .. يقولون إن الجواب كان إيجابيا لكنى لا أصدق ولا أثق فى هذه المغامرة" .

وكان بعض الرفاق قد ركب رأسه وتوجه بحرا إلى إسرائيل وعاد ليقول "إن الجماعة على استعداد لتزويدنا بالذخائر" . لم أعرف كيف كان ذلك . وكانت نظرتى إلى الأمر نظرة الشيخ بشير نفسها تقريبا . فالاتصال بإسرائيل خطوة كبيرة وخطيرة فضلا عن أن نتائجها مجهولة . لكن المعارك الدائرة فى الأسواق ليست أقل خطورة ونتائجها المتوقعة بفعل النقص فى الذخيرة لا تتطلب أى حسابات . فماذا لو سقط بيت الكتائب المركزى فى أيدى المهاجمين . لم يكن لدينا أى استعداد ذهنى للاتصال بإسرائيل ، بل كان الأمر من الأمور المرفوضة والمستحيلة ، ولا يدخل أبدا فى حساباتنا السياسية أو العسكرية . لقد تربينا على منطق الالتزام بالصراع العربى ــ الإسرائيلى وموجباته على رغم أننا لا نحل مسألة العداء للدولة اليهودية فى مرتبة الأيديولوجية مثل السواد الأعظم من العرب والمسلمين ، بل كنا دائما ننظر إلى إسرائيل نظرتنا إلى "الشر الذى لا بد منه" للحد من الطغيان الأكثرى (طغيان الأغلبية) فى المنطقتين العربية والإسلامية . صحيح أن الشيخ بيير الجميل كان يهدد بالاستعانة بالشيطان إذا لزم الأمر ، لكنه لم يكن ليهدد بذلك إلا للتخويف فقط . وأذكر أن جاء أحدهم مرة ، وكان ذلك فى بداية السبعينات ، وكان حزب الكتائب قد بدأ يتخوف من الآتى ويفتش عن مصادر للسلاح ــ جاء الشخص المذكور يطلع أمين عام الحزب السابق المحامى جوزيف سعادة وفى حضورى أنا على نتائج اتصال أجراه مع السفير الإسرائيلى فى قبرص بمبادرة منه شخصية خلاصتها كما جاء فى برقية موجهة إليه بهذا المعنى "إن إسرائيل على استعداد لتزويد حزب الكتائب بالسلاح شرط أن يتقدم برسالة خطية يؤكد فيها على ذلك" ."

. . . .

. . . .

ويقول الأستاذ "جوزيف أبو خليل" فى روايته إنه بعد حواره مع الشيخ "بشير الجميل" فى تلك الليلة من شهر مارس ١٩٧٦ : "حملت نفسى فورا وتوجهت إلى بكفيا ،

وكانت الساعة قاربت العاشرة ليلا ، ودخلت عليه ففاجأه دخولى وقال "خير إن شاء الله ، ما الخبر ؟" قلت : "يا رئيس ليس من عادتى أن أقوم بعمل ما من دون استشارتك أو على الأقل من دون إطلاعك عليه مسبقا . وقد جئت الليلة لا لأسألك الرأى فى ما أنوى عليه ، فأنا أعرفك وأعرف موقفك المبدئى مما سأعرضه . جئت لأحيطك علما فقط من قبيل الأمانة أنى متوجه الليلة إلى إسرائيل" . فقاطعنى "إلى إسرائيل ؟" كما لو أنه لا يصدق . قلت "نعم إلى إسرائيل ، فالحال فى الأسواق لا تطاق ، والشباب يمتنعون عن التوجه إلى خطوط النار" . تساءل بصوت مبحوح "هل إلى هذا الحد ؟" قلت "وأكثر" . قال "الذهاب إلى إسرائيل عمل خطير وخطر" . تشجعت وقلت "ليس أخطر مما يحدث فى الأسواق" ."

□

فى تلك الليلة ــ وطبقا لروايته ــ ركب الأستاذ "جوزيف أبو خليل" قاربا وتوجه به جنوبا فى مغامرة مثيرة انتهت به فى حيفا ، وهناك قدم نفسه لأحد ضباط المخابرات . وبعد ساعات كان يجلس وجها لوجه على مائدة مستطيلة جلس حولها عدد من العسكريين الإسرائيليين والمدنيين على رأسهم "شيمون بيريز" .

ويواصل الأستاذ "جوزيف أبو خليل" روايته [٤] فيقول :

"رحب بى بيريز بلغة فرنسية ركيكة ، ودعانى إلى الجلوس إلى يمينه وقال: نحن هنا لكى نستمع إلى مطالبكم ، فماذا تريدون ؟ قلت : يا معالى الوزير، جئنا نطلب أسلحة وذخائر هكذا فى كل بساطة ، وقد سدت فى وجوهنا كل المصادر فى وقت يشتد الحصار من حولنا إلى حد الاختناق .. سموا ذلك شحاذة إن شئتم ، إننا بالفعل شحاذون" . رد بيريز قائلا "لا تستحوا من الشحاذة ، فنحن أيضا لا نزال نشحذ السلاح والمال وليس فى الأمر عيب". وانتقل فورا إلى السؤال"هل لى أن أعرف بالتحديد ماذا تطلبون ، وأى نوع من السلاح وأى نوع من الذخائر" ؟

أضاف بيريز سؤالا آخر عن عدد المقاتلين عندنا وعن عدد الذين نستطيع تعبئتهم للقتال ؟ وكان معى فى رحلتى رفيق يحمل لائحة بالأسلحة والذخائر التى نطلبها .

---

(٤) المصدر السابق ــ صفحة ٥٢ .

. . . .

. . . .

سمعنا بيريز ثم أنهى الاجتماع بقوله "سأعرض ما طلبتموه على الحكومة وأعود إليكم بالجواب غدا" .

فى اليوم التالى وعلى غداء مع عدد من معاونى بيريز فى أحد مطاعم تل أبيب أبلغنا أن الموافقة تمت على مساعدتنا بالذخيرة والسلاح . "

□

كانت هذه هى بداية التعامل الرسمى ، وتلاها ما هو أوسع ، فقد بدأت اتصالات فى الولايات المتحدة الأمريكية بين عناصر لبنانية منتمية للكتائب وبين ساسة إسرائيليين . ثم أمكن ترتيب اجتماع على ظهر بارجة حربية فى البحر الأبيض المتوسط بين "إسحاق رابين" والشيخ "بشير الجميل" . وشيئا فشيئا بدأ الشيخ "بشير الجميل" يتصدر الكتائب ويتصدر القوات اللبنانية ثم يصبح نائبا لرئيس حزب الكتائب ، ثم يتبنى الخيار الإسرائيلى كاملا على شكل سلاح وذخيرة ، وتدريب ، ومعلومات مخابرات ، وتنسيق عمليات ، ووضع خطط مشتركة سياسية وعسكرية .

ثم خطر للشيخ "بشير الجميل" ومستشاريه أن يدخل أيضا فى علاقة مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية التى بدأت ترى فيه قوة أساسية ينبغى التعامل معها فى لبنان ، وأيضا فيما يمكن أن يخص لبنان من شئون أزمة الشرق الأوسط فى مجملها .

ودعى الشيخ "بشير الجميل" إلى زيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية . وارتفع دور الشيخ "بشير الجميل" ودور الكتائب معه ، وتم ترتيب لقاء على مستوى عال بين الكتائب والحكومة الإسرائيلية شارك فيه "مناحم بيجن" رئيس الحكومة الإسرائيلية بنفسه .

ويروى الأستاذ "جوزيف أبو خليل" أنه فى أوائل سنة ١٩٨٢ ، ومع تولى "شارون" لوزارة الدفاع الإسرائيلية ، بدأت الخطط توضع لدخول إسرائيلى فى لبنان يؤدى إلى إقصاء منظمة التحرير الفلسطينية عن لبنان كله .[٥]

---

(٥) نفس المصدر ــ صفحة ١٨٤ .

وبعد اجتماع مغلق بين الشيخ "بشير الجميل" وبين وزير الدفاع الإسرائيلى "أريل شارون" خرج الشيخ "بشير الجميل ليقول لمن حوله : "إن الوزير شارون وضع لنفسه هدفا لا يزال يفتش عن الطريق الأقرب والأقل كلفة إليه ألا وهو "تدمير البنيتين السياسية والعسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان" ، وهو لا يزال يسأل ويدرس كل الاحتمالات ."

ويستكمل "أبو خليل" روايته :[٦]

"وانقضت أسابيع على ما قاله شارون لبشير الجميل — ثم وصلت إلى الشيخ بشير رسالة تقول "إن شارون ينوى الحضور إلى بيروت للتشاور معنا فى أمر مهم" . وبالفعل قدم الوزير الإسرائيلى مصحوبا بأركان حربه من عسكريين ومدنيين ليبلغنا قرار حكومته بتوجيه ضربة عسكرية إلى منظمة التحرير الفلسطينية "لا تقوم لها بعدها قائمة" . وللفور تم جمع الوفد الإسرائيلى بالرئيس شمعون والشيخ بيير حيث كرر شارون أمامهما طرحه المذهل ، وكان صريحا إلى أبعد الحدود . فالرجل ليس من الذين يناورون أو يتحفظون فى الكلام أو يتعمدون انتقاء الألفاظ والكلمات ، لا تنقصه اللياقة لكن لياقته عسكرية أكثر مما هى سياسية . وحينما يتكلم فبصوت مرتفع ، تخرج الكلمات من فمه وحنجرته كأنه فى العراء يتكلم لا فى غرفة مغلقة . قال "يجب أن تكونوا مسبقا على علم بما ستخلفه العملية من دمار قد لا نتمكن من اتقائه نظرا لتغلغل المنظمات الفلسطينية فى المناطق السكنية وتمركزها فى المدن والقرى والأحياء الآهلة . وهى بالتأكيد ستحتمى بالأبنية والمؤسسات المدنية" . وكان الوزير شارون قد حرص على أن يوضح لنا "أنه لا تاريخ محدد للبدء بالعملية ، فقد تبدأ فى خلال أيام أو قد لا تبدأ قبل أسابيع . فالأمر موقوف على اكتمال الظروف الملائمة وعلى توفر العوامل اللازمة لإطلاقها ، ومنها الحجة أو الذريعة التى تبرر الرد بمثل هذه العملية الواسعة" . "

(٦) نفس المصدر — صفحة ١٨٥ .



ستيفن كوهين (٢)

" لا تكتب لياسر عرفات شيئا على ورق "

(وزير خارجية فلسطين لمندوب منظمة التحرير فى مصر)

كان ربيع سنة ١٩٨٢ فترة من تلك الفترات التى ينطبق عليها الوصف المشهور لتعبير "ضباب الحرب" . كان هناك نوع من شبه اليقين بأن صاعقة من نوع ما سوف تنقض على المنطقة ، وأن هناك ضربة كبيرة على وشك أن تحل ، ولكن الجميع فى شك من متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ — وكان أرجح الظنون أن تكون هذه الضربة موجهة إلى لبنان الذى أصبح شبه دولة للفلسطينيين ، أو شبه رهينة فى أيديهم . وكانت الأقاويل والأخبار شائعة وذائعة ، لكن الخطوط المتشابكة والمتقاطعة كانت تعطى تصورات زائفة بأن المقادير المتربصة يمكن أن تتأخر أو تطيش أو لا تجىء أبدا .

وكانت قيادة المقاومة الفلسطينية فى لبنان تتلقى إشارات ورسائل من كل اتجاه : رسائل من إسرائيل عن طريق مصر — نصائح لكيفية التعامل مع إسرائيل من الدولية الاشتراكية ، ومن "كرايسكى" بالتحديد — رسائل من مبعوثى منظمة التحرير، وأهمهم الدكتور "عصام السرطاوى" عن معلومات وآراء أبلغت إليه — رسائل من دبلوماسيين معتمدين يمثلون دولا أوروبية — رسائل من بعض عناصر المكتب الثانى اللبنانى (المخابرات) تحض على الحذر وتنصح بتقصير الخطوط — ثم رسائل عن طريق أساتذة جامعات (أكاديميين) يعملون داخل مؤسسات سياسية واستراتيجية تهتم بكتابة الأوراق فى الظاهر، لكنها فى واقع الأمر غارقة حتى الآذان فى نقل المعلومات والتوجيهات وحتى الصياغات من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا .

والواقع أن معظم هذه المراكز ، خصوصا تلك التى انتشرت على نحو واسع فى الولايات المتحدة فى تلك الأيام ، بدأت تلعب دورا فادحا فى إعادة صياغة عقل عديدين بين

المفكرين العرب وتعطيهم الإحساس الزائف بأنهم أطراف فى صناعة فكر سياسى جديد. وبالتأكيد فإن كثيرين من هؤلاء المفكرين العرب كانوا قادرين على الاجتهاد ، لكن الأجواء المزدحمة بالأوراق والسيناريوهات والتوجهات أشاعت شيئا من الخلط بين الثوابت والمتغيرات ، وبين الحقائق والافتراضات ، وبين الوسائل والغايات . واشتدت عملية تطويع العقل العربى التى بدأت فى منتصف السبعينات ، وحين تقدمت الثمانينات كانت هذه العملية قد بلغت ذروة تدعو إلى القلق لأن الفكر العربى بالفعل تعرض فى هذه المرحلة لحالة تشبه حالة سيولة الدم . ولم يكن مطلوبا أن يكون الفكر العربى جامدا فى مواجهة رياح للتغيير تهب على العالم ، ولا أن تكون دورته الدموية مصابة بحالة تجلط — وإنما الوضع الأمثل أن يكون الفكر العربى صحيا ، متجددا بالأوكسيجين النقى ، متدفقا فى دورته ، مجددا لحيويته ونشاطه — لكن الذى حدث أن لا الجمود بقى ولا الحيوية تجددت !

تلاحقت المؤتمرات والندوات واللقاءات ، ولم تكن فى معظمها لوجه المعرفة — لكنها فى الغالب الأعم أصبحت وسيلة لكسر حواجز ، ولإقامة علاقات ، ولنقل توجهات وصياغات بل وتعبيرات تجرى على الألسن فى البداية ، ثم تستقر فى الأفهام والعقول ، وتنعكس فى التصرفات حتى تؤثر على القرارات .

كانت هذه عملية اخترعتها المصالح الأمريكية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية حين أرادت استيعاب المفكرين الأمريكيين فى أوعية تساعد توجهاتها ولا تتصدى لهذه التوجهات ، كما كاد يحدث بعد الحرب العالمية الأولى — حين أوشك الفكر الأمريكى أن يشد الولايات المتحدة فى اتجاه اليسار . وبالاستفادة من عبرة التجربة فإن المصالح الأمريكية الكبرى مثل "روكفللر" و"فورد" و"كارنيجى" و"راند" أنشأت مؤسسات للتفكير والبحث وجد فيها مفكرون أمريكيون من طراز "روبرت ماكنمارا" و"ماك جورج باندى" و"آرثر شليزنجر" و"هنرى كيسنجر" أنهم قرب قمة المجتمع يعملون فى إطار علمهم ومن فوق كراسى أستاذيتهم ، ويشاركون فى صنع القرار .

وإلى حد ما فإن عملية من هذا النوع مورست مع مفكرى العالم الثالث ، مع الفارق .

كان المطلوب من الفكر الأمريكى أن يشارك ولا ينعزل حتى ينجرف ، وأما المطلوب من الفكر العربى فكان شيئا آخر : الترويض ، أو التطويع ، حتى يتأكد الاستيعاب!

□

هكذا فى ربيع سنة ١٩٨٢ كان ضباب الحرب وكذلك ضباب الوهم يغطيان المنطقة . وفى مارس من ربيع ذلك العام (١٩٨٢) تلقى السيد "سعيد كمال" اتصالا تليفونيا من "ستيفن كوهين" يوجه إليه دعوة باسم مركز دراسات أمريكى فى واشنطن لكى يشترك فى مؤتمر يجمع عربا ويهودا وإسرائيليين . وألمح "ستيفن كوهين" إلى أن هذا المؤتمر سوف يكون فرصة لإجراء اتصالات قد تكون لها قيمة فى هذه الظروف . واقترح "سعيد كمال" على "ستيفن كوهين" أن توجه الدعوة إلى الدكتور "عصام السرطاوى" ما دام الأمر أمر اتصالات ـ لأن الدكتور "عصام السرطاوى" هو المكلف بالاتصال مع اليهود والإسرائيليين فى ذلك الوقت . ورفض "ستيفن كوهين" قائلا إنه معجب بالدكتور "عصام السرطاوى" ويحترم جهوده ، لكن المشكلة أن الدكتور "عصام السرطاوى" كشف نفسه بسرعة ، وأصبح وجوده فى أى مكان دليلا على اتصالات تجرى فيه . ثم أبدى "ستيفن كوهين" رأيه بأن "المسائل لم تنضج بعد فى إسرائيل" . ثم أضاف "إن السرطاوى على أى حال له قنوات اتصال أخرى" . واتصل "سعيد كمال" تليفونيا بالسيد "ياسر عرفات" فى بيروت وألمح له بطريقة غير مباشرة أن فكرة المؤتمر غطاء لشىء آخر . وساد صمت على الخط التليفونى . وعندما عاد "سعيد كمال" يلح على رئيسه فى طلب توجيه ، قال "عرفات" فى التليفون : "الله أكبر يا أخى ، طبق قاعدة قائد وجندى" . وكانت القاعدة مفهومة فى كوادر منظمة التحرير ، ومؤداها "أن الجندى يستأذن لكنه يتصرف على مسئوليته ، فإذا أخطأ فى تصرفه فعليه حسابه ، وإذا أصاب فصوابه مردود إلى رئاسته" .

وبرغم ذلك فقد كان "سعيد كمال" يحس من تجارب سابقة كتجربة "سعيد حمامى" فى لندن ، و"عز الدين قلق" فى باريس ، وغيرهما ، أن هناك مخاطر ، وأن الحماية إزاءها واجبة . وهكذا عرض "سعيد كمال" الأمر على جهات الأمن القومى المصرى سائلا إذا كان فى المقدور حمايته . وجرى تشجيعه ، وتلقى تعهدا بأنه فى هذه الرحلة إلى أمريكا سوف يكون تحت حماية الأمن القومى المصرى .

وعرف "سعيد كمال" أن "فاروق قدومى" ("أبو اللطف" — وهو واحد من المؤسسين الأوائل لحركة "فتح") سوف يزور باريس . وكانت صلاته به طيبة ، وكان أحد الذين رفضوا التوقيع على قرار تجميد نشاطه بعد نشر أنباء عن اتصالاته فى مصر — رغم أن ذلك كان بعلم وموافقة عدد من القادة الفلسطينيين ، وبينهم "ياسر عرفات" .

ورتب "سعيد كمال" برنامج سفره إلى أمريكا بحيث يتوقف فى باريس فى وقت عرف فيه أن "أبو اللطف" سوف يكون فى العاصمة الفرنسية . والتقاه بالفعل يعرض عليه قصته بتفاصيلها معبرا عن اعتقاده بفائدة اتصالات سوف تجرى من خلال دعوة إلى مؤتمر —

لاستطلاع التفكير الإسرائيلى ، وفى نفس الوقت عن إحساسه بالاطمئنان لأنه سيكون تحت حماية الأمن القومى المصرى .

وكان "أبو اللطف" مترددا ، واقترح على "سعيد كمال" أسماء آخرين يذهبون بدلا منه . لكن "سعيد كمال" كان مقتنعا بمهمته وشاعرا بأنه يستطيع أداءها أكثر من غيره طالما أنه دعى إليها بالتحديد . وكانت النصيحة الأخيرة التى قالها "أبو اللطف" لـ "سعيد كمال" : "لاتكتب شيئا على ورق وإنما قم بالإبلاغ شفويا عن أى شىء تتوصل إليه ، وإن كنت شخصيا لا أظن أنك سوف تتوصل إلى شىء" .

وأثبتت التجربة فى واشنطن صدق ما توقعه "أبو اللطف" . فقد كانت المناقشات مع اليهود والإسرائيليين عامة ، وكانت الأسئلة لديهم أكثر من الإجابات . وعاد "سعيد كمال" إلى القاهرة وفى تقديره أن "ستيفن كوهين" كان على حق عندما قال إن الأمور لم تنضج بعد فى إسرائيل .

□

عاد "سعيد كمال" من واشنطن إلى القاهرة فى منتصف أبريل (١٩٨٢) ، ولم يمض غير أسبوعين حتى تلقى مكالمة تليفونية من "ستيفن كوهين" يبلغه أنه قادم للقاهرة ويريد أن يلقاه لأمر هام . وقام "سعيد كمال" بإبلاغ الأمن القومى المصرى وبإخطار قيادة المنظمة فى بيروت ، وتلقى الضوء الأخضر من الناحيتين . وجاء "ستيفن كوهين" ونزل فى فندق صغير فى حى المهندسين (فندق "المنار") . وذهب "سعيد كمال" إلى لقائه ، وإذا "ستيفن كوهين" يقول له إنه يفضل لأهمية ما لديه أن يخرج هو و"سعيد كمال" من الفندق إلى مطعم صغير يدخلان إليه لتناول الغداء بدون ترتيب أو حجز . وعلى مائدة الغداء فوجئ "سعيد كمال" بأن "ستيفن كوهين" يقول له إنه يريد موعدا عاجلا مع "أبو عمار" ("عرفات") ومع "أبو إياد" ("صلاح خلف") "لأن لدىّ مسألة مهمة أريد أن أتحدث فيها مع القيادة" . وسأله "سعيد كمال" : "ولماذا لم تفكر أيضا فى "أبو جهاد" ("خليل الوزير")؟" وقال "ستيفن كوهين" إنه يعرف "أبو جهاد" ، وقد التقاه مرة فى عمان بتوصية من الدكتور "هشام شرابى" الأستاذ فى جامعة "جورج تاون" ، الذى كان يتصل بوزارة الخارجية الأمريكية على أساس أنه مستشار خاص لـ "أبو جهاد" .

وأبدى "سعيد كمال" أنه يصعب عليه طلب هذا الاجتماع من بيروت إلا إذا كانت لديه فكرة عن هدف هذا اللقاء . وكانت المفاجأة حين قال "ستيفن كوهين" إن لديه سؤالا

واحدا هو : "إذا قام الجنرال شارون بمهاجمة لبنان وشق طريقه إلى بيروت فحاصرها ، فما هى قدرة المنظمة على المقاومة وإلى أى مدى تستطيع أن تصمد ؟" وتمالك "سعيد كمال" دهشته ورد قائلا : "أنا لست عسكريا ، ولكنى أظن ان الأمر يتوقف على حجم القوات الموضوعة تحت تصرف شارون ، وكذلك أيضا على حجم الاستنكارين العربى والدولى للعملية" . وقال "ستيفن كوهين" بأعصاب هادئة ونبرة بدت واثقة : "إن شارون سوف يهاجم بقوة حجمها إحدى عشرة كتيبة" .

وكان مذهلا أن تذكر تفاصيل العمليات المقبلة بهذه البساطة . وكان رد الفعل الطبيعى أن يسأل "سعيد كمال" بقلق : "ومتى يحدث ذلك ؟" ورد "ستيفن كوهين" : "فى أى وقت ابتداء من الآن" . ثم أضاف يقول : " ولمعلوماتك ، فأنت سألتنى عن رد الفعلين العربى والدولى ، وأنا أقول لك من الآن إن الجميع لن يفعلوا شيئا ـ لا الدول العربية ولا السوفيت" . ثم استطرد "ستيفن كوهين" يقول : "إن الأمر مرتب عربيا ، كما أن السوفيت أصبحت روحهم منكم فى حلوقهم ، واقتنع الكل بأن خروجكم من بيروت هو السبيل الوحيد لقبولكم بقرار مجلس الأمن ٢٤٢" . وأضاف "كوهين" : "إن خروجكم من بيروت سيكون فى مصلحتكم على أى حال لأنه سوف يرفع عنكم ضغط سوريا" .

كانت الرسالة صريحة ومتوافقة مع التحذير القديم الذى وجهه الرئيس "السادات" للمنظمة فى أوائل سنة ١٩٨١ . وكانت أيضا متفقة بالكامل مع ما سمعه الشيخ "بيير الجميل" والسيد "كميل شمعون" والشيخ "بشير الجميل" قائد القوات اللبنانية ـــ من الجنرال "شارون" نفسه قبل أسابيع فى بيروت ذاتها . ثم إن ذلك كان على اتساق كامل مع أخبار راجت في ذلك الوقت فى المنطقة نقلا عن واشنطن بأن الجنرال "شارون" وزير الدفاع الإسرائيلى رتب الأمر مع الجنرال "ألكسندر هيج" وزير الخارجية الأمريكى واتفق معه على ضربة لمنظمة التحرير الفلسطينية تنهى وجودها فى بيروت ، مع تعهد بأن تنسحب القوات الإسرائيلية بعد انتهاء العملية إلى الشريط الحدودى الذى احتلته إسرائيل قبل ذلك بسنوات .

كانت مطالب إسرائيل فى عملية عسكرية كبيرة ـ ظاهرة لا تحتمل التأويل :

١ ـ فهى فى لبنان تستطيع أن تثبت أنها قوة عظمى إقليمية regional superpower.

٢ ـ وهى تستطيع أن تؤكد ذلك بتحطيم القوة العسكرية لمنظمة التحرير ، وتفقدها بذلك استقلالها السياسى .

٣ ـ وهى تقدر على إعادة ترتيب أوضاع لبنان ، وتحوله إلى "تابع" عربى لإسرائيل .

٤ ـ وهى بذلك تستطيع أن تمارس ضغطا أكبر على سوريا سواء عن طريق إثبات عجزها عن حماية لبنان ، أو عن طريق إرغام دمشق على أن تسير على طريق التسوية .

٥ ـ إن بلوغ ذلك كله يقدر فى نفس الوقت أن يساعد على تثبيت معاهدة السلام مع مصر فى وقت تبدو فيه القاهرة مترددة بعد اغتيال "السادات" .

□

وفور انتهاء لقائه مع "ستيفن كوهين" ، رأى "سعيد كمال" أن يضع الأمر أولا تحت علم السلطات المصرية . وكان طوال عمله ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، باللقب الرسمى للسفير أو بغير لقب فى ظروف لاحقة ــ حريصا على الالتزام بالتنسيق مع السلطات المصرية . ورأيه أن ذلك ضرورى لأسباب كثيرة بينها أهمية مصر ، وبينها أنه فى التعامل مع الدول فإن الثقة ضرورية كما أن المناورات ليست مجدية ، وبينها أخيرا أن قوة الدولة فى بلد مثل مصر تستطيع أن تساعد بطريقة لا يقدر عليها سواها طالما أنها مقتنعة . وفى تلك الظروف فقد كانت الدولة المصرية بكل أجهزتها تدفع فى اتجاه دخول الفلسطينيين إلى إطار "مسيرة السلام" .

فى المخابرات العامة وفى المخابرات الحربية المصرية التقى "سعيد كمال" مع اثنين من كبار المسئولين عن متابعة "النشاط العربى" ، وأبلغهما بما سمعه من "ستيفن كوهين" ، وبرغبة "كوهين" فى مقابلة "عرفات" و"أبو إياد"، وأضاف "سعيد كمال" "أبو جهاد" ، ثم إن "كوهين" على استعداد للسفر فورا إلى بيروت للقائهم . وسمع "سعيد كمال" من كلا الرجلين فى المخابرات العامة والمخابرات الحربية أن "ما لديهما من معلومات الاستطلاع وتقارير المندوبين يؤيد ما قاله "ستيفن كوهين" عن غزو إسرائيلى وشيك لجنوب لبنان . وسألهما "سعيد كمال" هل يريان أن يرسل "ستيفن كوهين" إلى بيروت ؟ وكان الرد بالموافقة. ثم ألحق بذلك طلب بأنهم "يفضلون لو أن كوهين عاد مرة أخرى إلى القاهرة بعد مقابلته للقادة الفلسطينيين فى بيروت" .

وخرج "سعيد كمال" ليتوجه لمقابلة الدكتور "محجوب عمر" ، وهو يعرف أن لديه خط اتصال سريعا مع "أبو جهاد" لصداقة قديمة بينهما . وطلب إليه نقل رغبة "ستيفن كوهين" فى مقابلة القادة الفلسطينيين الثلاثة فى بيروت . وفى منتصف نفس الليلة وصلت من بيروت برقية تقول : "الضيف يتفضل" .

وفى الفجر ـ نفس الليلة ـ كانت وزارة الدفاع المصرية هى التى تولت تسفير "ستيفن كوهين" بطائرة عسكرية مصرية إلى بيروت . وعند الفجر كان فى مقر القيادة الفلسطينية . وظهر اليوم التالى عاد إلى القاهرة .

□

فى بيروت ومع "عرفات" و"أبو جهاد" وجه "ستيفن كوهين" نفس السؤال الذى وجهه فى القاهرة ، ومؤداه "إلى متى تستطيعون الصمود ؟" وسأله "أبو جهاد" عما إذا كان ما يقوله اجتهادا من جانبه أو معلومات يعرفها . ورد بأنه "لا يريد أن يجيب على هذا السؤال" . وبالنسبة للمدة التى تستطيع المقاومة فيها أن تصمد أمام عملية إسرائيلية واسعة النطاق قيل له إنها "لن تقل عن ستة شهور" ، وفى "تقديرهم أن مجرد دخول قوات إسرائيلية كبيرة إلى مساحة واسعة فى جنوب لبنان سوف يقلب المنطقة كلها رأسا على عقب ، ولن يصبح الموضوع مدى صمود المقاومة الفلسيطينية ، ولكن ما سوف يحدث فى المنطقة العربية كلها كرد فعل للغزو الإسرائيلى" . ورد "ستيفن كوهين" قائلا : "اتركوا المنطقة لنا فنحن نعرف عما فيها أكثر منكم ، لكننى أشك فى أنكم قادرون على الصمود ستة أشهر" . وقاطعه "أبو عمار" قائلا : "ستة شهور إلا إذا ضربنا من الظهر بواسطة القوات اللبنانية ، لكننا سوف نقف" .

وبعودة "ستيفن كوهين" إلى مصر فقد أصبحت لدى السلطات المعنية فى القاهرة صورة كاملة عما هو قادم ، وكانت مصادر معلوماتها كلها بصرف النظر عن مهمة "ستيفن كوهين" تشير إلى قرب وقوع عملية كبيرة .

ويوم أول يونيو (١٩٨٢) قرر الرئيس "مبارك" أنه لا بد من إعادة "تحذير المنظمة". وطلب إلى المخابرات العامة أن تتصل ببيروت لإبلاغ رسالة أخيرة :

" ١ ــ حسب معلوماتنا فإن شارون سوف يدخل بقوة كبيرة إلى لبنان فى ظرف أيام.

٢ ــ إن شارون ــ حسب ما لدينا من معلومات ــ لن يتوقف كما قيل لبعض الدول العربية عند عمق ٤٠ كيلومتر داخل لبنان ، وإنما سوف يكمل زحفه إلى بيروت نفسها .

٣ ـ قد ترون أن تبطلوا دعاوى شارون وحججه ، وأن تقبلوا وضع الأسلحة الفلسطينية تحت رقابة مقبولة .

٤ ــ نحن لا نطلب منكم نزع سلاحكم ، ولكن نطلب إغماده ."

□

ويوم ٣ يونيو (١٩٨٢) وبينما كان السفير الإسرائيلي في لندن "شلومو أرجوف" خارجا بعد عشاء في فندق "دورشستر" في "بارك لين" في لندن ، قامت مجموعة من تنظيم "أبو نضال" (على الأرجح) بإطلاق النار عليه ، وكانت تلك بالضبط هي الإشارة التي ينتظرها "شارون" .

ويروى الأستاذ "جوزيف أبو خليل" :(٧)

"بعد محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في العاصمة البريطانية ، عقد مجلس الوزراء الإسرائيلي (يوم ٣ يونيو) جلسة طارئة أذاع بعدها البيان التالي :

لقد أصدر مجلس الوزراء تعليماته إلى قوات الدفاع الإسرائيلية بوضع جميع السكان المدنيين في الجليل بعيدا عن مرمى نيران المخربين في لبنان حيث توجد قواعدهم ومراكز قياداتهم . إن العملية التي سيقوم بها جيش الدفاع تستهدف تحقيق السلام في الجليل (وكان "السلام في الجليل" هو الاسم الرمزي للعملية) . وخلال هذه العملية فإن جيش الدفاع لن يهاجم الجيش السوري إلا إذا بدأ هذا الجيش بمهاجمة قواتنا . إن إسرائيل ما زالت تتطلع لمعاهدة سلام مع لبنان مستقل ومحافظ على سلامة أراضيه ."

ويمضي "جوزيف أبو خليل" فيقول :

"وما إن أذيع هذا البيان حتى كانت ثلاثة ألوية من الجيش الإسرائيلي مدعومة بقصف بري وجوي وبحري تدخل الأراضي اللبنانية عبر ستة محاور في كل من القطاع الشرقي والأوسط والغربي ، وتدخل النبطية وتطوق صور وحصبيا ، إضافة إلى عمليات إنزال جوي في رأس العين والبرج الشمالي والقاسمية والبص والبازورية والعباسية ."

ويستطرد "جوزيف أبو خليل" :

"في اجتماع لنا مع الجنرال رافول إيتان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي سألناه عن حجم العملية . ورد بقوله : "تستطيع أن تعرف متى تبدأ الحرب ، ولكنك لا تعرف متى وكيف وأين تنتهي ، وسرعة تقدمنا ستكون موقوفة على تدخل

---

(٧) "قصة الموارنة في الحرب : سيرة ذاتية" بقلم "جوزيف أبو خليل" رئيس تحرير جريدة "العمل" وعضو مجلس قيادة حزب الكتائب ــ صفحة ١٩٦ .

القوات السورية أو عدم تدخلها ، ولو كان القرار لي لما تأخرت عن مطاردة الفلسطينيين والسوريين حتى الحدود التركية" ."

ويذكر "جوزيف أبو خليل" أن "الشيخ بيير الجميل كان موافقا على الخطة العسكرية الإسرائيلية شرط خلوها من أى تورط عسكرى ـ للقوات اللبنانية . كانت موافقة الشيخ بيير ضرورية ، لأن ما لا يوافق عليه الشيخ بيير مسبقا يصبح محروما من الغطاءين السياسى والوطنى اللذين يشكلهما الشيخ بيير وحده على رغم النفوذ الذى بلغه بشير (ابنه) والإمكانات الكبيرة التى تجمعت بين يديه . ولما ذهبنا إلى الشيخ بيير فى منزله فى "جديدة المتن" ، وكنا بشير الجميل وزاهى البستان وأنا نقرأ عليه تفاصيل الخطة ، كان حريصا على التثبت من خلوها من أى التزام عسكرى علينا تجاه الإسرائيليين . وبمجرد أن قرأت عليه القسم الأول من الخطة استوقفنى الشيخ بيير قائلا : "لا ضرورة لأن تكمل القراءة ، فأنا موافق" . ولعل أهم ما تضمنته الخطة المذكورة بالنسبة للقوات اللبنانية هو تأمين الفاصل أو العازل التام بين القوات الإسرائيلية فى تقدمها من جهة والأهلين فى القرى والبلدات التى تدخلها من جهة ثانية ، بتشكيل لجان محلية من الأهلين أنفسهم تعنى بشئونهم ، وتحول دون الارتهان والتزلف للعسكر الإسرائيلى . وحرص الشيخ بشير على مد سلطته وسلطة القوات اللبنانية بواسطة هذه اللجان إلى كل رقعة تدخلها القوات الإسرائيلية . وكنا نؤيد الحملة الإسرائيلية على أمل أن العبء الفلسطينى سينزاح عن صدر لبنان ، وكان بقاؤه يعنى الإلغاء الكامل لوجود لبنان السياسى . وكنا نعتبر أيضا أن الصلح مع الدولة اليهودية ثمن طبيعى نؤديه ونتيجة طبيعية لما سيحدث ."

لكن المقاومة الفلسطينية تحصنت فى بيروت ، ووصل الجيش الإسرائيلى إلى مشارفها وتوقف . فلم تكن إسرائيل تريد أن تدخل بجيشها وسط كثافة سكانية عربية . كذلك لم يكن فى مقدورها دوليا أن تقوم باحتلال عاصمة عربية بأكملها . ولمدة ثلاثة شهور احتدمت المعارك ، واستطاعت المقاومة الفلسطينية أن تقوم بمعركة شجاعة بكل المقاييس .

ثم يواصل "جوزيف أبو خليل" :[٨]

"ما لم يكن متوقعا هو أن الجيش الإسرائيلى بعدما قطع المسافة الفاصلة بين الحدود وبيروت فى خلال بضعة أيام توقف على أبواب العاصمة لا يدخلها . والحرب التى كان مخططا لها أن تنتهى فى غضون أيام ، أصبحت حربا طويلة وعلى عكس ما كانت عليه كل حروب إسرائيل . وبدأ الرأى العام الإسرائيلى يتذمر ويضج ، فهو لم يتعود الحروب الطويلة . والجيش الإسرائيلى نفسه بدأ

(٨) المرجع السابق ـ صفحة ٢٠٠ .

هو أيضا يتأفف ضباطا وجنودا . وشكل ذلك بداية أزمة فى إسرائيل راحت تتفاعل مع الأيام وتحرج حكومة بيجن وتحرج آرييل شارون وزير الدفاع خصوصا . ولوحظ أيضا أن هناك قطاعات واسعة من الشعب الإسرائيلى بدأت تتساءل عن معنى هذه الحرب ، وأين هم المسيحيون لا يشاركون فيها ولا يتدخلون . وشارون نفسه اضطر فى وقت من الأوقات يوم ١٨ يونيو ١٩٨٢ إلى الإعلان "أن على اللبنانيين أنفسهم أن ينتهوا من منظمة التحرير الفلسطينية إذا كانوا يريدون دولة مستقلة ، وتنظيف بيروت من منظمة التحرير هو مهمة اللبنانيين" . ثم أكد بيجن على ما قاله شارون فى تصريح جاء فيه : "إن إسرائيل لا تنوى دخول بيروت أو القتال فيها من بيت إلى بيت ، وعلى القيادة المسيحية فى لبنان أن تعالج هذا الأمر" . وحدث يوما أن أدلى الرئيس كميل شمعون بتصريح تساءل فيه عن "الفائدة من هذا الحصار الطويل على بيروت" وكأنه يستغرب "ماذا تنتظر حكومة بيجن لتأمر قواتها بدخول العاصمة وإقصاء الفلسطينيين عنها" . واستاء بيجن من هذا الكلام ، وبعث للرئيس شمعون ببرقية حرص أن يتسلم الشيخ بشير الجميل نسخة منها ، وجاء فيها : "أما كان الأولى بالقيادة المسيحية أن تسأل نفسها ماذا فعلت هى لتحرير بيروت ؟" وتضايق الشيخ بشير من هذه البرقية واعتبرها "ملامة وتأنيبا" ، وأبرق إلى بيجن يحتج على هذا الأسلوب فى "التعاطى" مع القيادة المسيحية ."

ثم يقول "جوزيف أبو خليل" :

"والحال أن الاستياء الإسرائيلى من عدم تدخل القوات اللبنانية فى القتال بدأ يظهر فى الأيام الأولى للاجتياح حين قدم "أفاندى" وفيليب المسئولان فى الدائرة الإسرائيلية المختصة بالشئون اللبنانية فى تل أبيب لينقلا إلينا هذا الاستياء . والصحيح أنهما كانا ثائرين عندما لقيتهما بتكليف من الشيخ بشير . ففى رأيهما أن عدم تدخلنا فى القتال إلى جانب القوات الإسرائيلية انعكس سلبا على الرأى العام الإسرائيلى كما على الحكومة الإسرائيلية والقيادات السياسية والعسكرية . ولعلى لم أدرك عظم المشكلة التى تتخبط فيها حكومة بيجن إلا عندما انفجر فيليب قائلا : "نريد أن نشعر بأن هناك من يتعاطف معنا كشعب فى هذه المنطقة من العالم . لقد ظن الإسرائيليون فى وقت من الأوقات ، وقيل لهم كذلك ، إن لهم إلى شمال إسرائيل أصدقاء وحلفاء طبيعيين يشاركونهم المصير فى وسط العالم العربى الإسلامى بكل أثقاله وأعبائه . إنهم مسيحيو لبنان والموارنة منهم فى نوع خاص . وقام اعتقاد فى إسرائيل بأن لبنان سيكون الدولة العربية الثانية بعد مصر التى تعترف بدولتهم وتبادلهم الرغبة فى السلام . وحينما قيل لهم أيضا إن جيش الدفاع الإسرائيلى مدعو إلى دخول لبنان ، ظنوا أنه لن يكون وحده فى

المعركة ، وسيجد المسيحيين ينتصرون له ويقاتلون معه ـ أو على الأقل يتكفلون بأمر المخربين المعتصمين فى أحياء بيروت فيطاردونهم حتى يخرجوهم ما دام الجيش الإسرائيلى يطوقهم من كل جانب ، ويشد عليهم الخناق . ولما لم يجد الإسرائيليون ما توقعوه وارتجوه ، بل رأوا وسمعوا العكس ــ بدأت الأصوات ترتفع فى صفوف الشعب والجيش فى إسرائيل منددة بحرب باتت من أجل أمن الآخرين لا من أجل أمن إسرائيل . وكم من مرة طلب رافول إيتان (رئيس أركان الحرب الإسرائيلى) بعض المشاركة الرمزية من قبل القوات اللبنانية فى القتال ، وألح فى طلب أن تتولى هذه القوات أمر إخراج الفلسطينيين من بيروت الغربية . لكنه لم يدرك كم هو صعب على المسيحيين خوض معركة ضد الفلسطينيين يكون الجيش الإسرائيلى فريقا فيها وشريكا ."

□

كان الشيخ "بشير الجميل" يطلب رئاسة الجمهورية فى لبنان . وكان يلقى فى ذلك مساعدة من كثيرين وبينهم الرئيس "إلياس سركيس" نفسه الذى كانت رئاسته على وشك أن تنتهى . ولأن الشيخ "بشير" كان يريد اعتراف جميع الأطراف فى لبنان به وقبولهم لدوره ، فقد بدأ يناور فى اتجاهات مختلفة ومتناقضة أحيانا . ووصل إلى حد التظاهر أنه ناء بنفسه عن الاجتياح الإسرائيلى ، ويقول فى تصريح نشرته معظم الصحف فى لبنان : "إن هذه المعركة الدائرة ليست معركتى لأن ما تقوم به إسرائيل هو لخدمة أهدافها الخاصة" .

وكان الشيخ "بشير" يلقى تأييدا من جانب المبعوث الأمريكى الخاص للرئيس "رونالد ريجان" وهو السفير "فيليب حبيب" الذى حاول بكل جهده إخراج المقاومة الفلسطينية من بيروت ، والتمهيد لرئاسة "بشير الجميل" للبنان فى مقابل معاهدة صلح بين لبنان وإسرائيل .

ويوم ٢٥ يونيو ١٩٨٢ وكان قد مضى أكثر من أسبوعين على صمود المقاومة الفلسطينية فى بيروت ، اتصل "ستيفن كوهين" بـ "سعيد كمال" من نيويورك يقول له على التليفون : "إن توقعاتكم بشأن إمكانية المقاومة فى بيروت كانت دقيقة وأكبر مما توقعه خبراؤنا هنا". ثم طلب منه "ستيفن كوهين" أن يجىء فورا إلى نيويورك ، وأضاف : "إذا كان لديك مبلغ كاف لشراء تذكرة فافعل ، وإذا لم يكن لديك ما يكفى ـ توجه إلى مكتب شركة TWA فى القاهرة وسوف تجد هناك تذكرة باسمك ، ولكن المهم أن تجىء فورا" . ورأى

"سعيد كمال" أن يتشاور مع كل من الدكتور "أحمد صدقى الدجانى" والدكتور "نبيل شعث"، وألح عليه كلاهما أن يتصل ببيروت قبل أن يقوم بأى حركة .

وبعد محاولات مستميتة بسبب ظروف الحرب فى بيروت تمكن "سعيد كمال" من الاتصال بالسيد "هانى الحسن" ، وكان صوت المدافع مسموعا على التليفون ، وأبلغه بما عنده ، وقال له "هانى الحسن" إنه سيعاود الاتصال به . وبعد نصف ساعة عاد إليه على التليفون يقول : "تعليماتك كما يلى :

١ ــ على بركة الله .

٢ ــ من نيويورك داوم على الاتصال بنا هنا على المحطة الأرضية (عن طريق محطة الأقمار الصناعية المتصلة بقبرص) .

٣ ــ اتصل بعصمت عبد المجيد (مندوب مصر وقتها لدى الأمم المتحدة) وابق على اتصال معه طوال وجودك فى نيويورك ."

٤

جـــورج شولـــــــتز

" الخمينيـة جعلـت المسلمـين أشـد أصوليـة
والمسيحيـين أشـد صليبيـة "

("إلياس سركيس" رئيس جمهورية لبنـان الأسبق)

عندما وصـل "سعيد كمـال" إلى مطار نيويورك أبلـغ أن عليه أن يتوجـه فـورا إلى بيـت الدكتور "عصمت عبد المجيـد" لغـداء عمـل رتـب بسـرعة بينـه وبـين "ستيفن كوهـين" . وعنـدما دخل "سعيد كمال" إلى البيت فى شارع "بارك آفينيو" كان "ستيفن كوهين" قد سـبقه إلى هناك فعـلا ، وكان خلال فترة انتظاره لوصـول "سعيد كمـال" قـد عـرض علـى المنـدوب المصـرى فى الأمـم المتحدة "فكـرة اجتماع عسكرى مماثـل لاجتماعات الكيلو ١٠١ بين مصـر وإسرائيل ، لكنه هذه المرة بـين الفلسـطينيين وإسـرائيل والقـوات اللبنانيـة ، والهـدف منـه التوصل إلى وقـف لإطلاق النار فى لبنـان يعقبـه خروج القوات الفلسطينية من لبنـان . وكـان "عصمت عبد المجيد" بعد أن استمـع إلى اقتراح "ستيفن كوهين" قـد رد بقولـه إنـه "مكلـف بتسهيل الاتصالات لكنه ليس مخـولا بالتفاوض" . وفى تلك اللحظـة وصـل "سعيد كمـال" وطـرح عليه "ستيفن كوهين" نفس الفكـرة . وبـدا "سعيد كمـال" مستعـدا لقبولهـا .

وبعد انتهاء الغـداء مباشرة طلـب "سعيد كمال" من "عصمت عبد المجيد" أن يسهـل لـه الاتصال بالمحطة الأرضيـة فى بـيروت . وتحقـق ذلـك بـالفعل ، وأنجـز المهمـة المستشـار "أحمـد أبو الغيـط" (مدير مكتب وزير الخارجية "عمرو موسـى" بعـد ذلـك) . وفـى المحطـة الأرضية فى بـيروت لم يجـد "سعيد كمـال" إلا السيد "نبيل أبو ردينـة" . وسـأله "سـعيد" : "مـن عندك من القيادة ؟" وجاءه الـرد : "لا أحـد" . وقـال لـه "سعيـد" : "عنـدى رسالـة هامـة" . وسأله "أبو ردينة" : "أيـن أنـت ؟" ورد "سـعيد" بأنـه فـى السـفارة المصريـة فـى نيويـورك ، وطلـب إليه "أبو ردينـة" أن ينتظـر حيث هـو "وسنتصـل بـك نحـن بعد قليـل". وبعد قرابة ساعة دق التليفون فى بيـت السفير المصـرى فى نيويــورك ، وكـان "أبـو الزعيـم"

يتحدث من المحطة الأرضيـة فـى بـيروت ، وقـد بـادره بقولـه : "تكلـم ، ونحـن نسمـع رسالتك" . وسمـع "سعيد كمـال" صوت "ياسر عرفات" يقول لـ "أبو الزعـيم" : "قـل لـه أن يتكـلم بسرعـة لأننـا لا نستطـيع أن نبقـى أكـثر مـن بضـع دقـائق ، وإلا فـإن الإسرائيليين سـوف يرصـدون مكـان وجودنـا ويصوبـون إليـه مدافعهـم" . وفهـم "سعـيد كمـال" أن "أبو عمـار" موجود فى المحطة الأرضيـة . وفيما بعد عـرف أن "أبو جهـاد" كـان معـه أيضـا .

وراح "سعيد كمـال" يعـرض اقتراح "ستيفن كوهـين" بسـرعة ، وقاطعـه صـوت "ياسر عرفات" موجها لـ "أبـو الزعيـم" : "قـل لـه إننـى عرفـت بالاقتـراح" . وانتقـل "سعيـد كمـال" إلى عرض توصيته بعـد أن أدرك أن الرسـالة وصلـت إلى "عرفـات" عـن طريـق آخـر . وكانت توصيته هى القبول لسببيـن :

الأول : إن محادثات من نوع محادثات الكيلو ١٠١ ــ فى خندق فى لبنـان ــ تعـنى اعترافا لأول مـرة بالمنظمـة من جانب إسرائيل .

والثانى : إن القبـول يعـنى أن المنظمة سوف تتفاوض على تنفيذ وقـف إطـلاق النـار ، ومن ثـم سوف يتأجـل خروجهـا من لبنـان .

وقيـل لـه إنهم سوف يعطونه ردا بعد نصف ساعة ، وسئـل "أيـن سـيكون فـى ذلك الوقـت ؟" وقـال إنه سوف يكون فى فندق "جونكويـن" فى شارع ٤٢ (وهو قريب من معهـد الدراسات السياسية والاستراتيجية الذى يعمـل فيه "ستيفن كوهـين" ، وكان هو الذى حجـز لضيفه فيه) .

وفى الفنـدق ، وبعد ساعة كاملة من الانتظار ، اتصـل به "أبو الزعـيم" يبلغه رسالة مـن كلمتين : "العـرض مرفـوض" . وظنها "سعيد كمـال" فرصـة ضائعـة . ولم تكـن كذلـك فـى الحقيقة لأنها كانت مربوطـة باعتراف المنظمة بقـرار مجلس الأمـن رقـم ٢٤٢ ، وهـو أمـر لم تكن القيادة الفلسطينية على استعـداد لقبولـه أو لإعلانـه بعـد .

□

كان الموقف فى لبنان يتعقد ، خصوصـا وقـد اضطـر "ألكسـندر هيـج" وزيـر الخارجيـة الأمريكى إلى الاستقالة من منصبه بعد تصرفات منه تجاوزت المقبول ، فى تقدير المقربيـن مـن الرئيس الأمريكى "رونالد ريجـان" . وكان بين هذه التصرفات ما اتضح من أن "هيـج" وافــق

لـ "شارون" على حصار بيروت ، وكانت حدود العملية التى وافق عليها البيت الأبيض فى لبنان هى أن يصل الجيش الإسرائيلى بالعمق إلى حدود ٤٠ كيلومتر ثم يتوقف ــ بعد أن تكون البنية العسكرية للفلسطينيين فى جنوب لبنان قد تم القضاء عليها وتدميرها . لكن "شارون" أقنع "هيج" بما هو أبعد ، وتصرف "هيج" فى هذا الأمر ــ كما فى غيره ــ وكأنه رئيس الولايات المتحدة . ولم يكن ذلك مقبولا من جانب مستشارى الرئيس ، وفى مقدمتهم رئيس هيئة مستشاريه "دونالد ريجان" ، وكان "دونالد" وقتها حليفا مقربا من "نانسى ريجان" زوجة الرئيس وصاحبة النفوذ الأكبر عليه .

وكان خلف "هيج" فى وزارة الخارجية هو "جورج شولتز" الذى توجه إلى مكتبه بالوزارة ووجد أزمة لبنان شاغله الأول والأكبر . وراح يحاول بواسطة المبعوث الأمريكى الخاص فى بيروت "فيليب حبيب" أن يعثر على حل مقبول لها فى أجواء بالغة الدقة والحساسية ، وحافلة بدواعى القلق والخطر :

١ ــ كانت المقاومة الفلسطينية تقاوم بشراسة .

٢ ــ وكانت الجماهير العربية مستفزة بحصار إسرائيل لعاصمة عربية لأول مرة فى تاريخ الصراع العربى ــ الإسرائيلى .

٣ ــ وكانت الحكومات العربية ، وبالذات السعودية ومصر ، فى وضع حرج من عمق التدخل الإسرائيلى .

٤ ــ وكان الرأى العام الإسرائيلى نفسه لا يخفى سخطه من طول مدة العمليات وكثرة الضحايا بينما اللبنانيون لا يقومون بأى جهد لمساعدة القوات الإسرائيلية .

٥ ــ وكان الموارنة فى لبنان محرجين لأن القوات الإسرائيلية لم تكمل ما توقعوه منها ، ثم طلبت منهم ما لا يقدرون على القيام به إذا كان على لبنان أن يواصل حياته كدولة عربية .

٦ ــ وأكثر من ذلك فقد كانت "المؤسسة الصهيونية" فى الولايات المتحدة تخشى تفاعلات معركة بيروت على الرأى العام العالمى والأمريكى أيضا .

كان الرئيس اللبنانى "إلياس سركيس" والذى شارفت مدة ولايته نهايتها ــ يحلم بأن تجد مشكلة لبنان حلا قبل أن يغادر قصر "بعبدا" .

وكان اعتقاده أن الحل فى يد الولايات المتحدة ، فـ "هى التى صنعت المشكلة وهى المسئولة عن حلها" .

وكان "إلياس سركيس" قد روض نفسه على قبول "بشير الجميل" خلفا له فى الرئاسة رغم شكوك ساورته سابقا ، لكنه رأى فى "بشير" مزايا لم يرها فى غيره : فهو

مـاروني ، من عائلـة "الجميـل"، وجـرىء ، وهو اسـتطاع أن يتحـول بسـرعة مـن زعـيم "عصابة مسلحـة" تمارس القتـل ، إلى زعـيم ميليشيا ، إلى بطـل فى نظـر كثيرين من الموارنـة الذين اشتـد بهـم القلق . وكان أكثر ما يخيف "سركيـس" هو اندفـاع "بشـير الجميـل" فى التعاون مع إسـرائيل ، وخشيته أن يـؤدى ذلـك إلى مشـكلة للمسـيحيين ، وقـد عـبر عـن مخاوفه يومها بقولـه : "إن موجـة الخمينيـة فـى إيـران جعلـت المسلمـين أشـد أصوليـة والمسيحيـين أكثر صليبيـة ، والشرق الأوسـط لم يعـد حربـا بين الرجال وإنمـا أصبـح صراعـا بين الآلهـة ."

وفى ذلك الوقت طـار وفـد من يهـود أمريـكا (المؤسسـة) برئاسـة "هـوارد سـكوادرون" وفى صحبته "لستر كراون" و"ستيف شالـوم" ـ من نيويـورك إلى قـبرص ، ومنهـا بطـائرة هليوكوبتر إلى تـل أبيـب لمقابلـة "بيجـن" .

وفى بداية اللقـاء قـال "سكوادرون" لرئيس وزراء إسـرائيل "إن يهـود أمريكـا يعتقـدون أنكم ضللتموهـم فيما يتعلق بحدود العمليـة . وأسـوأ من ذلك فإن البيت الأبيض نفسـه يعتقـد أنه خـدع" . وفوجـئ "سكوادرون" عندما قـال لـه "بيجـن" إن "وزيـر الدفـاع شـارون أخـذ موافقة وزير الخارجية الأمريكى هيـج على حجـم العمليـة . وصحيـح أن العمليـة أخـذت وقتـا زاد عمـا كـان مقـدرا لـهـا ، وتكلـفت أكثر مـما تصورنـا ، لكـن هـذه مسألـة إسرائيلية داخليـة ."

وزاد من تعقيد الموقف أن سوريـا بـدأت تشـعر بحـرج شـديد ، فقـد أصبحـت القـوات الإسرائيلية على خطـوط تمـاس تقريبا مع القوات السوريـة ، مما يجعـل احتمـال المواجهـة العسكرية بين الاثنـين احتمالا واردا . ثم انتقـل الحـرج إلى موقـف الاتحاد السـوفيتى أيضـا بعد أن نجحـت إسرائيل فى تدمير ١٧ كتيبـة صواريخ سوريـة لتعطـى طيرانهـا حريـة فـى العمـل فى جنوب لبنـان المتصـل بسهـل البقـاع ـ على الطريق إلى دمشـق .

وتركـز الضغـط كثيفـا على منظمة التحريـر لكى تقبـل بـالخروج مـن لبنـان . ولم يكـن هناك بديـل غير الخروج ، خصوصا بعد أن توجـه السفير السوفيتى فـى بـيروت إلى مقابلـة "ياسر عرفـات" ليقول لـه : "إن الخـروج الآن فـى صـالح المنظمـة ، وإلا فـإن تدمـير قوتهـا بالكامل يصبح أمـرا يصعـب تجنبـه" .

وكتـب "عرفات" تعهـدا بالخروج وجهـه إلى السفير "فيليب حبيب" ، لكنه آثـر تسليمه إلى رئيـس الجمهورية اللبنانية "إلياس سركيـس" ولم يكن باقيا على انتهاء رئاسته غير بضعـة أسابيع . وكان نـص التعهـد هـو :

"إن قيـادة منظمة التحرير لا ترغـب فى البقاء فى لبنـان . لكنه يجب أن يكـون مفهوما أن هذه الرغبـة يصعـب أن تتحقق قبل فـترة كافية لتحقيـق ترتيبـات يتفـق

عليها . إن قرار الخروج من لبنان ينبع من رغبة فى تجنب إراقة الدماء بين المدنيين الأبرياء فى بيروت . ثم إننا نذكر فخامتكم بإصرارنا على الحصول على ضمانات بحماية اللاجئين الفلسطينيين ومعسكراتهم خلال وبعد عملية الانسحاب . وبالإضافة إلى ما حصلنا عليه من فخامتكم من ضمانات فنحن نطلب قوة دولية عربية أو قوة دولية لتشارك فى تحقيق هذه الضمانات مع الجيش اللبنانى .

مع أحر تحياتنا وإنها لثورة إلى النصر ،،،

ياسر عرفات
رئيس اللجنة التنفيذية
لمنظمة التحرير الفلسطينية "

□

ويبدو أن ذلك كان هو الإطار الذى وردت فيه الإشارة التى ألمح إليها "ستيفن كوهين" ـ لـ"سعيد كمال" فى بيت "عصمت عبد المجيد" ـ فى نيويورك عندما عرض فكرة محادثات على نمط محادثات الكيلو ١٠١ على الجبهة المصرية . وفى الواقع فإن "مناحم بيجن" رئيس وزراء إسرائيل سبق الجميع مبكرا ورفض الاقتراح كلية ، وكتب إلى "فيليب حبيب" رسالة قال فيها بالنص :

"إنك أشرت فى رسالة لى إلى محادثات بين السلطة العسكرية الإسرائيلية فى لبنان وبين ممثلين عن الحكومة اللبنانية ، وعن المخربين الفلسطينيين . وفى الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم أصدر مجلس الوزراء قرارا برفض هذا الاقتراح . إن الحكومة الإسرائيلية مستعدة لقبول وقف إطلاق النار ابتداء من الساعة العاشرة والنصف هذه الليلة ، وهذا قصارى ما نستطيع أن نذهب إليه ."

وأصبحت هناك الآن مشكلتان :

١ ــ ترتيب إنشاء قوة حماية دولية تشرف على تأمين انسحاب الفلسطينيين .

(وعلق "جورج شولتز" فى مذكراته [٩] قائلا :

"لقد تأكدت أن الفلسطينيين ينوون فعلا الخروج من لبنان عندما أبلغت أنهم يرغبون فى نقل عدد من سيارات المرسيدس على البواخر التى سوف تخرج بهم من بيروت" !)

---

(٩) "الاضطراب والنصر" ــ مذكرات "جورج شولتز" ــ صفحة ٦٩ .

٢ ـ الاتفاق على ملجأ آخر غير لبنان تذهب إليه قوات المقاومة الفلسطينية .

ولم تكن مصر راغبة ، ولا سوريا متحمسة ، ولا السعودية مستعدة للمناقشة من الأصل والأساس .

وأثناء البحث عن ملجأ للخارجين من بيروت بعث "شارون" وزير الدفاع الإسرائيلى برسالة إلى مسئول عربى فى القاهرة يقول له : "أبلغ عرفات أن يقبل بالخروج من لبنان إلى الأردن ، وبخطاب واحد منى فى الإذاعة الإسرائيلية فإن الملك حسين لن يجد أمامه إلا أن يحزم حقائبه ويغادر عمان . وهذه هى الدولة الفلسطينية ."

وفى ظرف ساعات تلقى "شارون" من المسئول العربى الذى اتصل به فى القاهرة ردا يقول :

"١ ـ إن الأردن ليس وطن الفلسطينيين .

٢ ـ إذا أردتم استغلال معاناة الفلسطينيين وانتهاز الفرصة لخلق تناقض فلسطينى ـ أردنى دموى فسوف تكون هذه مأساة .

٣ ـ إن الرأى العام العربى والدولى سوف يعتبر أن مثل هذا الاقتراح مجرد ذريعة يتعلل بها "شارون" لاحتلال الأردن شرقى النهر بادعاء أن حدود إسرائيل سوف تصبح غير آمنة ."

وجرى إبلاغ الرد إلى "شارون" من القاهرة تليفونيا . وقد علق بألفاظ بذيئة طلب توصيلها إلى من بعث إليه بهذا الرد .

وفى نهاية المطاف رتّبت الولايات المتحدة الأمريكية ملجأً لمنظمة التحرير الفلسطينية فى تونس على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر تقريبا من أرض شعبها ، وراحت المنظمة إلى ملجئها الجديد تلعق جراحها وتنتظر .

□

لكن لبنان كان لا يزال ينزف دما .

كان إخراج الفلسطينيين من بيروت جزءا من مهمة "فيليب حبيب" ، لكن الجزء الباقى والأهم كان تأمين قيام كيان دستورى وسياسى لبنانى . وكان المرشح الذى يفرض

نفسه بقوة هو "بشير الجميل" . وكانت هناك معارضة شديدة من جانب المسلمين إزاء ترشيح "بشير" . وتزعم السيد "صائب سلام" ، وهو الزعيم السنى الذى توجهت إليه الأنظار فى ذلك الوقت ، عملية مقاومة ترشيح "بشير" . وأدلى "صائب سلام" بتصريح حدد فيه موقفه بقوله "إن "بشير الجميل" لا يعرف مسلما واحدا ، كما لم يسبق له أن اتصل بمسلم واحد" . لكن "بشير الجميل" كان مصمما على ما يريد ، وحاول بالقوة أن يؤمن أغلبية من أعضاء المجلس النيابى اللبنانى لتأمين ترشيحه ، ولم يكتمل النصاب . وأعيدت المحاولة فى أجواء بلغ فيها العنف منتهاه ، ونجح "بشير الجميل" بصوت واحد ، وكان عليه أن يقدم نفسه إلى القوى الإسلامية فى لبنان فى صورة جديدة وبأسلوب جديد . ولم يكن ذلك مقبولا من إسرائيل ، فقد كان "مناحم بيجن" على اقتناع بأن الجيش الإسرائيلى وليس مجلس النواب اللبنانى هو الذى قدم رئاسة الجمهورية إلى "بشير الجميل" ، وعلى "بشير الجميل" أن يتصرف فورا طبقا لهذه الحقيقة . ومن هذا المنطق فإنه وجه دعوة عاجلة إلى الرئيس اللبنانى المنتخب "بشير الجميل" بأن يلقاه فى "نهاريا" فورا ومن قبل أن يقسم اليمين الدستورية أمام مجلس النواب .

ويكتب "جوزيف أبو خليل" [١٠] قائلا :

" كان "الرئيس المنتخب" قد أمضى عشرة أيام فى العمل على امتصاص ردود الفعل السلبية الداخلية ، وعلى تأكيد شرعية انتخابه ، بل على انتزاع اعتراف إسلامى وعربى بهذه الشرعية ـ عندما توجه ليلا إلى نهاريا على متن طوافة (هليوكوبتر) عسكرية إسرائيلية يرافقه ثلاثة أو أربعة أشخاص كنت أنا أحدهم ، ليلتقى هناك مع مناحم بيجن وأركان حربه من مدنيين وعسكريين .

وصل رئيس الحكومة الإسرائيلية متأخرا عن الموعد بضع دقائق . وأطل علينا وهو يتكئ على عصا لألم فى ساقه قيل إنه نتيجة زلة قدم . فما إن استراح قليلا على كرسيه حتى عاد وانتصب واقفا ليلقى كلمة ترحيب بالرئيس المنتخب وتهنئة له بفوزه ، مع التمنى طبعا بأن يكون ذلك فاتحة علاقة جديدة بين البلدين والشعبين . ولم يفت بيجن التنويه بالدور الذى لعبته إسرائيل ، وبالأثمان التى دفعتها ، وبالنفع الذى يجنيه لبنان من ترحيل منظمة التحرير الفلسطينية . هذا كله بلغة إنجليزية لا أفهم منها أنا إلا القليل ، وإن كنت أفهم من النبرة أن الرجل يتكلم بلهجة المنتصر والمتفوق والمطالب بما يعتبره من حقوقه وحقوق بلده ..... أو بالأصح كنت أتتبع ما يقوله بيجن على وجه الشيخ بشير وقد بدأ يمتقع . فالمطالب معروفة ، والنبرة على قدر من التعالى يوحى بأن الرجل يطلب حسابا عما فعلناه مقابل ما فعلته إسرائيل ، ويريد جوابا واضحا وسريعا ، وخلاصة

(١٠) "قصة الموارنة فى الحرب : سيرة ذاتية" بقلم "جوزيف أبو خليل" ـ صفحة ٢٢٢ .

ما يريد "موقف علني من الرئيس بشير الجميل وفي أقرب وقت يؤكد من خلاله عزمه على تحقيق السلام مع إسرائيل" ."

ويقول "جوزيف أبو خليل" :

"حاول بشير في رده على مناحم بيجن تبيان صعوبة النزول على هذا الطلب، فهو لا يملك هذه الصلاحية . وإذا كانت إسرائيل تطلب الصلح والسلام مع كل لبنان ، وليس مع بعضه فقط ، فيجب الانتظار ريثما يتسلم الرئيس المنتخب مسئولياته ويشكل حكومته ويطرح عليها الأمر ويتعاون مع رئيسها على التهيئة للقرار المناسب .

لكن بيجن لم يقتنع ، أو بالأصح لم يرد أن يقتنع . فقام عن مقعده داعيا بشير إلى الانتقال معه إلى خلوة بينهما دامت ما يقارب الساعتين . وفي هذه الأثناء انتحى بي ديفيد كيمحي (مسئول الموساد السابق ووكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية في ذلك الوقت) ـ جانبا لكي يقنعني بوجهة نظر رئيس حكومته . وبصراحة كلية قال لي كيمحي : "لا بد من الوصول إلى معاهدة سلام مع لبنان لأن ذلك ضروري لخطوة لاحقة ومماثلة مع الأردن". وفيما أنا أحاول تبيان فداحة ما يطلبون من لبنان ومن بشير الجميل خصوصا ـ خرج بيجن وبشير من اجتماعهما المنفرد وعلى وجهيهما علائم سوء التفاهم . واقترب مني بشير ليهمس في أذني : "هذا أسوأ اجتماع عرفته في حياتي" . ولاحقا أظهر بشير استياءه أشد الاستياء من اللغة التي خاطبه بها بيجن ، ومن إلحاحه الذي قارب حد الضغط المعنوي عليه ."

وطبقا لرواية شاهد سمع من "بشير الجميل" قبل ساعات من اغتياله ، فإن "بيجن" في الاجتماع المغلق بدأ فحاول أن يكون وديا ، وقال للشيخ "بشير" : "إنه يعتبره بمثابة ابن له ، وإنه كان يتابع والده (الشيخ بيير) ويتعاطف مع "جهاده" لتحقيق مطالب المسيحيين في لبنان ، لأن رأيه دائما كان أن لبنان يجب أن يكون مسيحيا بمقدار ما إن إسرائيل يهودية وسوريا مسلمة ، وإن مشكلة والده هي أن القيادات المسيحية التي ظهرت في جيله لم تكن على مستواه ، ولجأت إلى المساومة مع المسلمين وأضعفت موقفه" !

ثم انتقل بيجن فتحدث عن تضحيات إسرائيل في حرب لبنان ، وأن هذه التضحيات قدمها الشعب في إسرائيل عن رضا بسبب رغبته في أن يتحقق للشعب اللبناني سلامه . وأبسط ما يستطيع لبنان أن يقدمه لتكريم هذه التضحيات هو أن يوقع رئيسه الجديد على معاهدة صلح مع إسرائيل . وإن نصوص هذه المعاهدة جاهزة لا تحتاج إلا لمراجعة من الشيخ بشير وأيضا والده الشيخ بيير ، بالاضافة إلى كميل شمعون . وكرر

الشيخ بشير ما قاله في الاجتماع السابق من أنه يريد وقتا . وقاطعه بيجن قائلا : "لقد كنت أتوقع أن تسارع إلى قبول ما عرضته عليك شاكرا ولكنى أراك جحودا" . وقال بشير "إن الأمر لا يتعلق به شخصيا ، ولو كان الأمر في يده لوقع على المعاهدة هذه اللحظة ، ولأعطى لبيجن ما يريد" .

وتضايق بيجن وقال له بحدة : "هل تعتقد أننى أنتظرك لكى أحصل على ما أريد؟ إننا موجودون فى كل مكان فى لبنان ، وأستطيع أن آخذ بنفسى كل ما أريد دون أن تقدمه لى . نحن ساعدناك على تحقيق حلمك فى الرئاسة ، وهو حلم كان أبوك يخشى حتى من مجرد التفكير فيه ، ثم تجىء أنت وتتخذ هذا الموقف "الجبان" .

وأحس الشيخ "بشير" ــ كما روى ــ بالدم يغلى فى عروقه وقال لبيجن : "لا يستطيع أحد أن يصفنى بالجبن ، وهذه إهانة أحتج عليها" .

وقال بيجن : "لا داعى لأن تحتج . يكفيك أن تثبت لى أن ما وجهته لك غير صحيح بأن تضمن الموافقة على معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان قبل تسلمك الرئاسة يوم ٢٣ سبتمبر" .

وقال الشيخ بشير : "إن ذلك شبه مستحيل لأن الوقت ضيق ، وهناك حاجة لتهيئة الأجواء" .

وقال بيجن بهدوء : "هذه ليست مشكلتنا ، وتلك مهمتك إذا أرادت جماعتك أن نواصل مساعدتنا لهم" . ثم أضاف بنبرة لعله تعمدها باردة : "إنك تتعامل مع رئيس وزراء إسرائيل ، ونحن أعطيناك وأعطيناهم فرصة عمرهم ، لكنه لا يبدو لنا أنكم تستحقون هذا المستوى من المعاملة" ."

ويعود "جوزيف أبو خليل" فيقول :

"كان بشير قد اشترط لكى يلتقى بيجن السرية الكاملة وعدم تسريب أى خبر عن اللقاء ، أو أى معلومات ، كما هى العادة لدى الأجهزة السرية الإسرائيلية ولدى دوائر وزارة الخارجية الإسرائيلية أيضا . وقد وعدوه بالكتمان التام . لكن وكالة "رويتر" فى خبر لها بعد ثلاثة أيام نسبت إلى مسئول إسرائيلى حكومى قوله : "إن الرئيس اللبنانى المنتخب الشيخ بشير الجميل التقى مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى فى نهاريا ليل الأربعاء أول سبتمبر ١٩٨٢" . ثم أضافت الإذاعة الإسرائيلية خبرا يقول : "إن الرجلين ناقشا مستقبل العلاقات اللبنانية ــ الإسرائيلية وإمكان عقد اتفاق سلام على غرار الاتفاق بين مصر وإسرائيل" . وقامت قيامة المسلمين فى لبنان ، واضطر مكتب "بشير الجميل" فى بيروت إلى إصدار بيان "ينفى خبر اللقاء جملة وتفصيلا" .

ولم يلبث "بيجن" أن بعث بالجنرال "شارون" إلى بيروت لمقابلة "بشير الجميل" ووالده الشيخ "بيير الجميل" ومعهما السيد "كميل شمعون" !

ويوم ١٤ سبتمبر وقع انفجار هائل في بيت الكتائب في محلة الأشرفية بينما كان "بشير الجميل" داخله يحضر اجتماعا للمكتب السياسي للكتائب . ويكتب "جوزيف أبو خليل" : [١١]

"في غرفة الطوارئ من مستشفى "أوتيل ديو" رأينا ما لا يصدق . جثة ممزقة يصعب التعرف إلى صاحبها ، وقد تعرفنا عليه من خلال خاتم الزواج في أحد أصابعه ، وهو خاتم فضي اللون ومميز ، ومن خلال قميصه الأزرق اللون ، وبطاقة صغيرة في الجيب تحمل اسمه . إنه بالتأكيد الشيخ بشير . إنه ميت منذ اللحظة التي تم فيها الانفجار ، وأطبق السقف عليه من باطون (أسمنت) وحديد فسحقه سحقا ."

ويوم ١٧ سبتمبر وقعت مذبحة صبرا وشاتيلا ، وكان لبنان يغرق في بحر من الدماء .

---

(١١) المصدر السابق — صفحة ٢٢٧ .

٥

تــونـــــــــــس

" مـا لـم نلحـق بالمفاوضـات فسوف نجـــد
أنفسنـا مطروديـن إلى تمبكتـو "

(الدكتور "عصام السرطاوى" ممثل منظمـة التحريـر
فى أوروبا الغربية قبل اغتياله بأسابيع)

عندما وصلت منظمة التحريـر إلى محطتهـا الأخـيرة فـى تونــس كـانت أحوالهـا بالغـة السـوء بعد التجربـة العصيبة التى مـرت بها فى لبنـان . لم يكن خروجها من لبنـان سـفرا أو هجـرة أو بحثـا عن ملجـأ آمـن ، والواقع أن المنظمة كانت فى حالة أشبــه مـا تكون بحالـة مريـض أجريـت له عملية جراحية فى القلـب ، واستبدلت كـل شرايينــه تقريبـا . ولم تكـن العمليـة داخل مستشفى معقـم ، وإنما فى ميدان قتـال مكشوف . ولم يقـم بها طبيـب جراح، وإنما قـام بها جنرال نصــف مجنـون يقـود جيشـا مسلحا بكـل أدوات القتــل . ولم تجـر بالمشارط أو بالمقصات ، وإنما بالمدافع وراجمات الصواريخ . ولم تعقبها فــترة نقاهـة ، وإنمـا قـذف بالمريض بعدها إلى الشارع أو إلى حيث تحملـه المقاديـر .

زاد على ذلك أن المنظمة وجـدت نفسها فى تونس وسـط جـو يختلف تماما عمـا عرفتــه فى بـيروت قبل الجراحـة . ففى حين كانت بـيروت مزدحمـة بالناس وبالحوادث ـــ كانت تونـس هادئة ساكنـة . وفى حين كانت المنظمة فــى بــيروت تتصرف وكأنهـا دولـة داخـل الدولة ، فإنها فى تونـس أصبحت ـــ فى أحسن الأحوال ـــ ضيفـا اضطراريا حـل على بيـت أبـدى استعداده لاستضافته لكنه وضع أمامه شروط الضيافة وأحكامها بغير مـداراة أو مداورة .

ولم يكن من حول المنظمة ذلك الجـو المفتوح بالكامل الذى عاشـته فـى بــيروت ، وإنمـا كان هناك إحساس بوجود حدود وبأن هناك من يراقــب هـذه الحـدود . ولم تكـن السـلطات التونسية وحدها هى التى تراقـب ، وإنما كانت الرقابة أيضا مــن جـانب القــوى الدوليـة ـــ وفى مقدمتها الولايـات المتحـدة التـى أقنعــت تونــس أن تقبــل استضافة أو وجـود منظمـة

التحرير على أراضيها ، وهى فى ظروف عادية حمولة ضخمة وخطرة لا يستطيع بلد فى حجم تونس أن يضعها على كاهله !

فوق ذلك فقد كانت المنظمة تحس أن "ساعة الرمل" يتسرب ما فيها من وعائها الأعلى إلى وعائها الأدنى ، ويتسرب بسرعة ، وسيف الوقت مسلط على ما تبقى فى يدها من عناصر الصبر والاحتمال . فهذا الذى بقى لديها لم يعد كافيا فى الغالب لتشكيل موقف تفاوضى يمكن الاستناد إليه والتحرك ابتداءً منه . فالمواقف والقواعد وقعت كلها واحدا بعد الآخر :

- القاهرة قاعدة ولكن على شروطها .
- وعمان قاعدة منافسة أكثر منها قاعدة مساعدة .
- ودمشق قاعدة ، لكن دمشق لها رؤاها ولها أولوياتها .
- وطهران لم تكن أبدا قاعدة (خصوصا لأجواء تفاوض) رغم محاولة استغلالها لتحسين الشروط .
- وأخيرا فإن بيروت التى كانت دولة وعاصمة للمنظمة تحولت إلى مذبح ومسلخ .

ومع ذلك فقد كان على المنظمة أن تتحسس طريقا وسط الظلمات ، وكان هناك من يرون أن مجمل الظروف والمواقف أصبح يفرض على المنظمة أن تتوجه إلى إسرائيل رأسا — وكان "ياسر عرفات" لا يزال يقاوم وأمله معلق بالولايات المتحدة ، يظن أن اعتراف الولايات المتحدة به قد يجنبه أن يعترف بإسرائيل قبل أن يحصل على ثمن مناسب لذلك الاعتراف . ومع ذلك فقد ظل آخرون على إلحاحهم بأن "الوهم الأمريكى" لن يتحقق لأن إسرائيل قادرة على تبديده بما لها من تأثير على القرار فى واشنطن .

☐

فى جلسة تحضيرية لمؤتمر وطنى فلسطينى أواخر سنة ١٩٨٢ ، وقد جرت فى أعقاب الخروج من بيروت مباشرة ، وقف الدكتور "عصام السرطاوى" يعبر عن هذا الرأى صراحة فى جلسة مغلقة قائلا "إن الوقت قد حان لكى تقوم منظمة التحرير بالاتصال رسميا وفعليا بإسرائيل" . ثم أشار "السرطاوى" إلى قرارات سابقة للمنظمة بالاتصال "بأطراف يهودية متعاطفة مع الحق الفلسطينى" (قرار سنة ١٩٧٧) . ثم استطرد بأن هذه المواقف

المائعة فى رأيه لم تعد تكفى ، وإنه لم يعد هناك مفر أمام المنظمة من أن تعترف بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ حتى تقبلها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ـ طرفا مسئولا فى عملية التفاوض . كان الكلام خطيرا وكان يقال لأول مرة فى جلسة عامة رغم أنها كانت مغلقة . وثارت أصوات تقاطع وتعارض ، لكن الدكتور "السرطاوى" انفعل ولم تزده المعارضة إلا إصرارا على ما يقول ، وبلغ به الانفعال إلى حد أن قال : "إننا طردنا من لبنان وألقى بنا فى تونس ، وما لم نسارع إلى الالتحاق بالعملية السلمية فإننا سوف نجد أنفسنا واصلين إلى تمبكتو وليس إلى تونس فقط" .

كان "ياسر عرفات" بالطبع يرأس الجلسة المغلقة ، وعندما زادت درجة الحرارة فيها ـ خشى أن تظهر من خلال المناقشات خطوط الاتصالات التى أقيمت فعلا مع عناصر يهودية وإسرائيلية ، وذلك لحظتها يمكن أن يؤثر على وحدة الفصائل الفلسطينية . وفى أعقاب الخروج من بيروت فقد كان الانقسام بين الفصائل الفلسطينية هو آخر ما يريده رئيس منظمة التحرير . وهكذا تدخل ليقاطع الدكتور "السرطاوى" ويطلب إليه التوقف عن الحديث . لكن الدكتور "السرطاوى" لم يتوقف وواصل كلامه قائلا إنه "إذا لم يؤخذ بنصيحته فإن هذا المجلس الوطنى سوف يقود القضية الفلسطينية إلى الدمار والاستسلام الكامل" . وقاطعه "ياسر عرفات" بعنف قائلا له "اخرس"، ثم قرر إخراجه من الجلسة ووضعه تحت الاعتقال .

وحدث بالفعل أن الدكتور "السرطاوى" وضع تحت الإقامة الجبرية فى بيته فى تونس، وكلف مسئول فلسطينى مختص بالأمن ، وهو "أبو الزعيم"، بأن يكون مسئولا عن تحديد إقامته . وأثناء الإقامة الجبرية كان "السرطاوى" يتحدث كثيرا بآرائه مع "أبو الزعيم" . واستطاع السجين ـ كما حدث فى مواقف كثيرة معروفة ـ أن يؤثر على السجان ، فإذا "أبو الزعيم" يقتنع بآراء "السرطاوى"، وإذا هو يقصد إلى "ياسر عرفات" يرجوه الإفراج عن "السجين" ، ويتركه يعود إلى مقره فى باريس ويواصل اتصالاته من العاصمة الفرنسية "ولعل وعسى" . وكان "عرفات" ، وبعيدا عن أجواء المجلس الوطنى الفلسطينى وجلساته المشحونة ، على استعداد للاستجابة . وهكذا عاد "السرطاوى" إلى باريس ، وراح يواصل اتصالاته وبأسلوب أكثر جرأة .

كان مما ساعد الدكتور "عصام السرطاوى" على الجرأة أكثر فى اتصالاته هو أن تيارا فى المنظمة بدأ يميل إلى اتجاهه . وقد عبر ذلك التيار عن نفسه بقرار صدر عن المجلس الوطنى الفلسطينى فى فبراير ١٩٨٣ وردت فيه إشارة إلى القرار السابق اتخاذه من المؤتمر (١٩٧٧) بدراسة التحرك مع القوى اليهودية خارج إسرائيل . والآن جاء القرار الجديد ليقول فى البند السادس منه بضرورة الاتصالات مع القوى اليهودية . وكان حذف التحفظ بكلمتى "خارج إسرائيل" نقلة هامة لم يلحظها أحد ، وكان تفسيرها هو أن تمتد

خيوط الاتصالات الفلسطينية ليس فقط مع اليهود خارج إسرائيل ، وليس فقط مع القوى المشايعة للسلام على هامش الحياة السياسية فيها ــ وإنما أيضا مع قوى الحكم والمعارضة فى الدولة الإسرائيلية ذاتها . وقد وافق على هذا الاتجاه عدد من القادة التاريخيين لمنظمة التحرير ، وبينهم "أبو جهاد" الذى كان يحس بمسئولية عن أوضاع الداخل الفلسطينى بازدياد الضغط على السكان فى الضفة الغربية وقطاع غزة . بل إن رجلا مثل "أبو إياد" بدأ يتجاوب مع هذا الاتجاه من واقع إحساسه بالحقائق الاستراتيجية المترتبة على خروج مصر من معادلة القوى العربية (وأيضا من تزايد الإحساس بالخطر على رجاله من جماعة "أيلول الأسود" الذين واصلت إسرائيل مطاردتهم بالقتل انتقاما من عملية ميونيخ) .

وكان قادة آخرون من أمثال "أبو مازن" يؤيدون من الأصل وبتأثير اقتناعات توصلوا إليها بدراستهم للأحوال والأوضاع .

وإذا كان ذلك قرار المجلس الوطنى الفلسطينى ، وإذا كان كبار القادة التاريخيين يوافقون عليه ، أو على الأقل لا يعترضون ــ فقد كان معقولا أن يتصور الدكتور "السرطاوى" أنه يستطيع أن يتحرك بغير قيود شديدة عليه .

وبعد عدة أسابيع من وصول "السرطاوى" إلى باريس ، اتصل رئيس الخدمة السرية فى الأمن القومى المصرى بسفير فلسطين فى القاهرة قائلا له : "ابعث لعصام السرطاوى وقل له إننا نعرف أنه ذاهب إلى لشبونة لمقابلة هامة ، ونحن ننصحه ألا يسافر لأن هناك خطرا عليه" . وأضاف رئيس الخدمة السرية فى الأمن القومى المصرى قائلا لمحدثه : "قل للسرطاوى إن هناك تأشيرة له بدخول مصر موجودة باسمه لدى السفير المصرى فى باريس نجيب قدرى ، والأفضل له أن يمر على السفارة المصرية ليأخذ هذه التأشيرة ويجىء إلى هنا بدلا من لشبونة" . وقام السفير الفلسطينى بالاتصال بـ "السرطاوى" فى باريس ، وكان الوقت قبل منتصف الليل ، وقال له : "أنت ذاهب غدا إلى لشبونة" . ورد "السرطاوى" بالتساؤل "كيف عرفت ؟" وقال له : "ليس ذلك هو المهم الآن ، المهم ألا تذهب .. هات أسرتك معك وتعال إلى هنا" . وطلب "السرطاوى" من السفير الفلسطينى أن يروى له ما لديه من معلومات . ورد السفير بأنه ليست لديه معلومات ، وإنما هو تلقى تحذيرا . وتصور "السرطاوى" أن التحذير من قيادة المنظمة ، فرد بقوله : "التحذير من جماعتنا ؟" وحين لم يسمع ردا أضاف إلى ما قال تعليقا : "اللهم احمنى من أصدقائى" . لكن السفير أشار إليه بطرف خفى إلى أن التحذير ليس "من جماعتنا" ولكن "من جماعتى أنا" . وفهم "السرطاوى" أن التحذير من مصدر مصرى باعتبار أن ناقله مندوب المنظمة فى مصر . وقد قال له فى النهاية إن اجتماعه فى لشبونة مهم جدا وسوف يذهب لينهيه ، ثم يجىء إلى القاهرة ويحمل أولاده معه .

وكان موعد لشبونة اجتماعا للدولية الاشتراكية يشارك فيه "شيمون بيريز" . وصباح يوم ١٠ إبريل ١٩٨٣ ، وعلى مدخل الفندق الذى ينعقد فيه مؤتمر الدولية الاشتراكية انطلقت عدة رصاصات على الدكتور "السرطاوى" ، وسقط قتيلا على بعد مترين فقط من "شيمون بيريز" .

وكانت بعض أصابع الاتهام تتجه إلى جماعة "أبو نضال" تعتبرها مسئولة عن اغتيال "السرطاوى" لأن "أبو نضال" يريد وقف "العملية السلمية" بكل وسيلة . وكانت هناك أصابع أخرى تشير بالاتهام إلى "الموساد" (المخابرات الإسرائيلية) باعتبار أن "الموساد" أكثر العناصر تطرفا فى إسرائيل ، وقد قادتها إلى ذلك مسئوليتها لسنوات طويلة عن "أمن إسرائيل" ، ورأت أن محاولات الاتصال الفلسطينية مع حزب العمل (وكان يشاع أنه الأكثر اعتدالا) ـ قد تؤثر سلبا على أمن إسرائيل . والحاصل أن "الموساد" ـ رغم أن إنشاءها ومعظم سنوات عملها كانت تحت توجيه حكومات تنتمى إلى حزب العمل ، من "بن جوريون" إلى "رابين" ـ كانت عقائديا ونفسيا أقرب إلى حزب الليكود . وربما ساعد على هذا الظن أن "إسحاق شامير" وزير الخارجية فى ذلك الوقت (ورئيس الوزراء فى ظرف أسابيع) كان لسنوات طويلة من أبرز العناصر فى قيادة "الموساد" .

وكانت بعض أصابع الاتهام الأخرى تشير إلى الاثنين معا بمقولة أن أكثر العناصر تشددا فى الصف الفلسطينى كان يمكن أن تلتقى بغير قصد مع أكثر العناصر تشددا على الجانب الإسرائيلى .

وسواء صح اتهام "أبو نضال" أو "الموساد" أو الاثنين معا ، فإن اتصالات الدكتور "عصام السرطاوى" توقفت ، وكذلك فإن آخرين بين الفلسطينيين ممن كانوا يحاولون فتح قنوات اتصال خلفية خففوا من حركتهم لأن اغتيال "السرطاوى" كان ـ فى نفس الوقت ـ إنذارا للجميع .

□

وعندما بدأت المنظمة تفيق من اغتيال "السرطاوى" وما أعقبه ، كان موضوع التفاوض لا يزال قضية معلقة . فالقنوات السرية قد تغلق ، والوسطاء قد يختفون بالقتل أو بأساليب أخرى ـ لكن الدواعى التى كانت تملى حركة الوسطاء أو قنوات الاتصال ـ تظل باقية تملى مطالبها . ولم تكن المسالك سهلة .

وفى تلك الفترة فكرت المنظمة فى تنشيط صلة كانت تربط ما بين رجل الأعمال الفلسطينى الشهير "حسيب صباغ" وبين "جورج شولتز" الذى أصبح وزيرا لخارجية الولايات المتحدة الأمريكية. كانت بين الاثنين ـ "صباغ" و"شولتز" ـ صلة عمل ترتبت عليها علاقة صداقة وزمالة ، فقد كان "شولتز" قبل الوزارة رئيسا لمجلس إدارة شركة "بكتل" الشهيرة لأعمال الإنشاء والمقاولات ، وكان "صباغ" أكبر المساهمين ورئيسا لمجلس إدارة شركة "كونسوليديتد" وهى من أضخم شركات الإنشاء والمقاولات فى العالم العربى . وكان هناك تعاون عملى واسع بين شركة "بكتل" وشركة "كونسوليديتد" . وكان "حسيب صباغ" فى مرات سابقة قد نقل إلى "شولتز" ونقل عنه رسائل من المنظمة وإليها تتعلق ببعض جوانب القضية الفلسطينية والاهتمام الأمريكى بها .

وساد ظن بأن "صباغ" يستطيع أن ينشئ قناة اتصال مؤثرة مع صديقه الذى أصبح وزيرا للخارجية الأمريكية . ولكن "حسيب صباغ" ما لبث أن تلقى من "شولتز" فور توليه مسئولية وزارة الخارجية الأمريكية رسالة حازمة يقول له فيها "إنه يحترم صداقته القديمة معه ، لكنه فى مسئوليته عن السياسة الخارجية الأمريكية يطلب من "حسيب صباغ" ألا يتصل به شخصيا أو مباشرة ، وإنما يكون الاتصال بالطرق الرسمية وإجراءاتها ، وأن الصداقة الشخصية بين الاثنين مجمّدة الآن وحتى إشعار آخر". ومن جانبه كان "حسيب صباغ" يحاول رغم دهشته أن يتفهم هذه الأوضاع والظروف، وكانت نصيحة "صباغ" إلى المنظمة أن تحاول الاتصال بـ "ريتشارد مورفى" الذى اختاره "شولتز" مساعدا لوزير الخارجية مختصا بشئون الشرق الأوسط .

□

وبالتوازى مع ذلك ، فإن منظمة التحرير خطر لها أنه قد يكون ممكنا مرة أخرى تنشيط الدور السوفيتى ولو كوسيط لدى الولايات المتحدة الأمريكية . وكان هناك شعور فى المنطقة بشكل عام أن الاتحاد السوفيتى سوف يخرج من همومه بسبب كبار السن من زعمائه الذين يموتون بسرعة ("بريجنيف" ـ "أندروبوف" ـ "تشيرنينكو") ـ إلى مرحلة أخرى نشيطة تقودها عناصر شابة تبرز بسرعة فى طليعة الحزب الشيوعى السوفيتى .

وكان الأمير "عبد الله" ولى العهد السعودى قد التقى فى قصر "الإليزيه" مع الرئيس الفرنسى "فرانسوا ميتران" ، وكان "ميتران" فى السنوات الأولى من رئاسته ، وفكره ما زال يقظا ومتوهجا . وقد قال للأمير "عبد الله" إن الاتحاد السوفيتى على وشك أن يشهد

تغييرات هامة على القمة فيه . وأضاف "ميتران" إلى ذلك قوله للأمير "عبد الله" : "سوف يبرز على القمة فى الاتحاد السوفيتى رجلان فى سن الشباب ، أولهما "رومانوف" والثانى "جورباتشوف" ، وسوف يحدث صراع على السلطة بينهما ينتهى بانتصار أحدهما. فإذا انتصر "رومانوف" فإن السياسة السوفيتية سوف تتشدد وتصر على حق المشاركة فى قيادة العالم . وأما إذا انتصر "جورباتشوف" فإن الأمور سوف تجرى بطريقة سلسة ولينة لأن "جورباتشوف" سوف يسعى إلى أن يكون للعالم مجلس إدارة يشارك فيه الاتحاد السوفيتى مع الولايات المتحدة بالتفاهم والرضا ."

وساد تصور لدى من سمعوا بحديث "ميتران" مع الأمير "عبد الله" بأن هناك احتمالا لدور سوفيتى نشيط يصر عليه الاتحاد السوفيتى إذا جاء "رومانوف" ، أو يتراضى عليه مع الولايات المتحدة إذا جاء "جورباتشوف" . وفى تلك الأيام قام مسئول الـ"كى. جى. بى." عن الشرق الأوسط وهو رجل مخابرات غامض عرف باسم الجنرال "ألكسندر" ــ بزيارة للمنطقة ، وطلب أن يجتمع بقيادات منظمة التحرير . وشاع إحساس بأن تلك علامات اهتمام سوفيتى متزايد بقضايا المنطقة ، وبالتحديد بالقضية الفلسطينية ، فى مواجهة إدارة أمريكية مهتمة ، وهى إدارة "ريجان" التى جاء "شولتز" لتولى شئون سياستها الخارجية بعد خروج الجنرال "هيج" .

لكن جنرال الـ "كى.جى.بى." عندما بدأ أحاديثه مع من قابلهم من قادة المنظمة ، كان مهتما بشىء آخر وهو التورط السوفيتى فى أفغانستان . وكان "أبو إياد" ــ الزعيم الفلسطينى الأشهر ـ هو أول من قابل الجنرال "ألكسندر" السوفيتى واستمع إليه ، وكان معه عضو اللجنة المركزية "هانى الحسن" .

كان الجنرال "ألكسندر" مهموما بالدور الإيرانى فى مشكلة أفغانستان . وقد راح يهاجم جموح الثورة الإيرانية وعدم مسئوليتها أمام "أبو إياد" ، وتدخل "هانى الحسن" فى الحديث ليقول لجنرال الـ "كى.جى.بى." إنه لا يحق له مهاجمة الثورة الإيرانية واتهامها بعدم المسئولية ، لأنه "لولا قيام الثورة الإيرانية لكان الأردن قد انضم إلى اتفاقية كامب دافيد، ولكانت المنطقة كلها قد اضطرت إلى الدخول فى تسويات من أى نوع مع إسرائيل".

وطالت المناقشات ، ووعد "أبو إياد" بأن المنظمة سوف تجرى اتصالات مع بعض القوى فى المنطقة لتبحث فى خطوط لتسوية يمكن قبولها لأوضاع أفغانستان . وبعد أسابيع عاد الجنرال "ألكسندر" مرة أخرى إلى لقاء "أبو إياد" و"هانى الحسن" ، وفى هذه المرة كان "عرفات" هو الذى يرأس الجلسة . وقال "عرفات" إن المنظمة قامت باتصالات مع أطراف عديدة ، بينها إيران" رغم سوء العلاقات بين الطرفين ، وهناك شبه تفاهم على اقتراح يقضى بأن تنسحب كل القوى الكبرى من لعبة أفغانستان ، وأن تترك أمرها لأصحابها

يسوونه فيما بينهم . ولم يكن ذلك مرضيا للجنرال "ألكسندر" الذى عقب بقوله "إننا طلبنا منكم المساعدة فى إخراج الدور الأمريكى من أفغانستان فإذا أنتم تريدون إخراج الدور السوفيتى قبله وتتركون الساحة مفتوحة لإيران" .

كان الاتحاد السوفيتى بصرف النظر عن احتمال تغير قياداته مأخوذا بمشاكله . ولم يكن لديه وقت كاف لمشاكل الآخرين .

وحتى عندما ظهر "رومانوف" و"جورباتشوف" وانتهى الصراع بينهما بانتصار الأخير ــ فإن "جورباتشوف" فى أول لقاء له مع "عرفات" قدم له نصيحة "غالية" بأن تحاول المنظمة أن تتصل بالولايات المتحدة الأمريكية ، فلديها من إمكانيات الحل أكثر مما لدى غيرها .

٦

جـــــورج شولــــــــتز (٢)

"سـوريــا لهــا الحــق فــى مخاوفهــا الأمنيــة أيضــا"

(الملــك "فهــد" لوزيــر الخارجيــة الأمريكــى "جـورج شولــتز")

كـان "ألكسـندر هيـج" هـو وزيـر الخارجيـة الأمريكـى الـذى رتـب مـع إسـرائيل عمليـة كسـر ظهـر المقاومـة الفلسطينيـة فـى لبنـان . وكـان "جـورج شـولتز" هـو وزيـر الخارجيـة الـذى أخـذ علـى عاتقـه مهمـة إخـراج المقاومـة الفلسـطينية مـن بـيروت وترحيلهـا إلى تونـس . وكـان "جـورج شـولتز" يعتبرهـا بدايـة وليسـت نهايـة . كـان رأى "جـورج شـولتز" كمـا عـبر عنـه فـى مذكراتـه[١٢] أن تصفيـة الوجـود الفلسطيـنى فـى بـيروت يمكـن أن يعطـى لعمليـة محاولـة "التسويـة السلميـة فـى الشـرق الأوسـط" بدايـة جديـدة . وقـد شجعتـه علـى ذلـك عـدة رسـائل تلقاهـا مـن المنطقـة فـى بدايـة توليـه لـوزارة الخارجيـة :

● رسالة من الملك "فهـد" حملها إليه السفير السعودى فى واشنطن الأمير "بنـدر ابن سلطان" مؤداها "إن عرفات وزمـلاءه على استعداد لاتخاذ الخطوات الضرورية لتنشيط مسيرة السـلام" . وكانت رسالة الملـك "فهـد" متصلة بالمبـادرة التى عرضهـا علـى مؤتمـر القمـة الخاص فى الرباط ، ووافق عليها المؤتمر بما فيها ذلـك النـص الـذى يقـول "بحـق جميـع الأطراف فى المنطقة فى العيش بسـلام" . وكان التفسير السـعودى لقبـول منظمـة التحريـر الفلسطينية ــ مع باقى أطراف القمة ــ بهذا النـص ، يعنـى استعداد المنظمـة للاعـتراف بالقرار رقـم ٢٤٢ وبدولـة إسرائيل .

---

(١٢) "الاضطراب والنصر" بقلم "جورج شولتز" ــ صفحة ٨٥ .

● وكانت الرسالة الثانية من وزير الخارجية المصرى السيد "كمال حسن علـى" الذى توجه إلى واشنطن لمقابلة "شولتز" ، ورجاه عدم الانشغال طويلا بلبنان فى أعقاب إخراج الفلسطينيين منه ، لأن وجود الفلسطينيين فى لبنان أو خروجهم منه مسألة فرعية مترتبة على قضية أصلية هى قضية فلسطين . وكان رأى "كمال حسن على" - بالإضافة إلى ذلك - أن توقف المسيرة السلمية العامة يمكن أن يؤدى إلى تأثيرات عكسية على الاتفاق بين مصر وإسرائيل ، خصوصا وأن قطاعات كبيرة من الرأى العام المصرى قد ترى بعد إتمام انسحاب إسرائيل من سيناء — أن قضية فلسطين ما زالت تجذبها إلى المشاركة فى الشعور العربى العام بشأن هذه القضية ، وإن الحل فى رأى مصر هو الاعتراف للفلسطينيين بحق تقرير المصير ، مما يربطهم بالعملية السلمية .

● وكانت الرسالة الثالثة من اللواء "زيد بن شاكر" وهو وقتها القائد العام للقوات الأردنية ، الذى التقى بوزير الخارجية "شولتز" فى واشنطن وأبلغه قلق الملك "حسين" من نوايا إسرائيل . وكان اللواء "زيد بن شاكر" يخشى من أن إسرائيل ما تزال تفكر فى "مشروع شارون" الذى يريد أن يحوّل الأردن إلى دولة فلسطينية . وكانت رغبة الملك "حسين" التى نقلها اللواء "زيد بن شاكر" هى أن يصدر تصريح أمريكى بضمان التراب الأردنى ووحدته واستقلاله .

ومن هذا كله وغيره بدأ وزير الخارجية الأمريكى الجديد يميل إلى أن الوقت مناسب للقيام بمبادرة واسعة لدفع المسيرة السلمية إلى الأمام . وفى سبيل ذلك شكل مجموعة عمل بجواره ضمت ثمانية من كبار مستشاريه يتقدمهم "روبرت ماكفارلين" مستشار "ريجان" للأمن القومى ، و"لارى إيجلبرجر" مساعد وزير الخارجية ، و"نيكولاس فاليوتس" وكيل الوزارة لشئون الشرق الأوسط (وقد أصبح فيما بعد سفيرا للولايات المتحدة فى القاهرة) — وتحدث "شولتز" بأفكاره إلى أفراد هذه المجموعة الخاصة قائلا لهم :[١٣] "لا بد أن نكون مستعدين للتحرك بسرعة إلى الموضوع الأصلى فى أزمة الشرق الأوسط وهو قضية فلسطين، وليس فى مقدورنا إضاعة الفرصة المتاحة الآن لإنهاء حروب المنطقة والسير على طريق السلام . ولو ركزنا جهودنا على أوضاع لبنان بعد خروج الفلسطينيين منه الآن فسوف نكون كمن وقع فى فخ . وفى رأيى أن الظروف تفرض علينا الآن أن نجعل عملنا وفق تصور واسع للأزمة الأصلية ."

ودارت مناقشات وتنوعت اجتهادات ، وكان أهم ما استخلصه "جورج شولتز" نفسه بعد كل ما سمعه من مستشاريه الأقربين نقطتين رئيسيتين :

---

(١٣) المرجع السابق — صفحة ٨٦ .

١ ـ إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتقدم بفكرة لا تقبلها إسرائيل مقدما .

٢ ـ إن إسرائيل لا تحب أن تفاجأ بخطوات أمريكية لم تخطر بها قبل القيام بأى تحرك فيها .

□

ولكى يستطلع "شولتز" احتمالات الفرصة المتاحة لتصوره الواسع فى تناول الأزمة ، قرر إرسال مساعده "فاليوتس" لاستطلاع رأى الملك "حسين" فى عمان . وذهب "فاليوتس" إلى لندن ، ومن هناك حملته الطائرة الخاصة للملك "حسين" إلى عمان ليسمع من الملك "حسين" إنه مستعد للبدء فورا تحت إشراف أمريكى فى مناقشة حل أردنى ــ إسرائيلى بطريقة سرية فى البداية بحيث يتوصل إلى شىء مناسب يستطيع أن يعرضه على الفلسطينيين بمقتضى مشاركة أردنية ـ فلسطينية يظنها ممكنة وقابلة للتحقيق إذا عرف "عرفات" أن الأمريكيين يؤيدون حلا على أساس الخيار الأردنى .

وطلب "شولتز" تقريرا من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عن مدى قوة "عرفات" بعد الخروج من بيروت ، واستعداده لنوع من التعاون مع الملك "حسين" لايجاد حل على أساس القرار ٢٤٢ . وكان تقرير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يقول لـ "شولتز" إن "عرفات" أفاق الآن من صدمة الخروج من بيروت ، وإن وجوده فى تونس حرره من الضغط السورى ، وإن هناك جناحا معتدلا يظهر ويؤكد نفوذه فى منظمة التحرير ، وإن مساعدة مصر فى هذا الشأن يمكن أن تقوى العناصر المعتدلة فى المنطقة ."

وكان ذلك مشجعا لـ "شولتز" ومطمئنا له إلى أن الموقف العربى يمكن التعامل معه وفق خطة أمريكية تعطى دفعة "للمسيرة السلمية" .

وفى نفس الوقت راح "شولتز" يستطلع الموقف الإسرائيلى بمثل ما استطلع الموقف العربى ــ لكن الموقف الإسرائيلى كان أكثر تعقيدا وصعوبة .

فى البداية توجه "لارى إيجلبرجر" مساعد وزير الخارجية الأمريكى إلى مقابلة "موشى أرينز" السفير الإسرائيلى فى واشنطن ، وطرح معه على حد وصفه "أفق" ما يفكر فيه وزير الخارجية الأمريكى . وكان رد "أرينز" أنه يرى ذلك استباقا للأمور لأن الترتيب المنطقى للمسائل هو أن يتم تثبيت الأوضاع فى لبنان بعد إخراج المنظمة منها . وأفاض "أرينز" فى شرح وجهة نظره فقال :

"إن لبنـان يجـب أن يشفـى مـن آثـار السـيطرة الفلسـطينية والنفـوذ السـورى فيـه بحيـث يعـود كما كـان بلـدا مواليا للغـرب ، خصوصـا وأن تحـرره مـن الفلسـطينيين يعطيـه يـدا طليقـة لتوقيع اتفـاق سـلام مـع إسـرائيل ، وإن ذلـك وحـده هـو السـبيل الصحيح لتنـاول أزمـة الشرق الأوسـط فـى حدودهـا الواسـعة . فـإذا انضمـت إلى مصـر فـى توقيـع اتفاقيـة سـلام مع إسرائيل ـ دولـة عربيـة ثانيـة ـ فـإن الأمـور تصبح مهيـأة أكـثر لسـلام عربـى ـ إسـرائيلى عـام ." وأضـاف "أريـنز" أن أى محاولـة أمريكيـة لتنـاول الأزمـة فـى أبعادهـا الواسعة سـوف تشبه مأساة طـائرة تتحطـم لحظـة إقلاعهـا . وكـانت لـدى "أريـنز" ملاحظـة نهائيـة قـال فيهـا "إن تنـاول موضـوع فلسـطين الآن سـوف يـؤدى بـالضرورة إلى عـودة منظمـة التحريـر إلى الصـورة . ونحـن وجهنـا إلى منظمـة التحريـر ضربـة قاضيـة فـى بـيروت وليـس مـن حقكـم أن تعيـدوا الحيـاة إليهـا الآن بطريـق التنفـس الصناعـى" .

لم يكن ذلك مشجعا ، خصوصا بعد تقريـر قدمـه "صمويـل لويـس" الـذى كـان سـفيرا للولايات المتحدة فى إسرائيل ، وكان قد عـاد إليها زائـرا وأتيحت له الفرصـة ليتحـدث مـع "بيجـن" ومع "شارون" . وكان مما نقلـه "لويـس" عن "شارون" رسالـة قال فيها وزير الدفـاع الإسرائيلى إنه "إذا قـام شولـتز بأى محاولة الآن لتحريك المسيرة السلميـة فإن إسرائيل سوف تـرد عليها بإعـلان ضـم الضفـة الغربيـة كلها إلى إسرائيل رسميـا" .

ويـروى "شولـتز" فى مذكراتـه : [١٤]

"جاءنى السفير الإسرائيلى "موشى أريـنز" برسالة حازمـة : "معاهـدة سـلام بين إسرائيل ولبنـان وإلا فسوف تضيـع الفرصـة إلى الأبـد" .

وهكذا تغـير جـدول الأولويات الأمريكى فى المنطقـة ، وبـدلا مـن العمـل وفـق التصـور الواسع الذى فكـر فيه "شولتز" لدفـع "المسـيرة السلميـة" وإعـادة الحيـاة إليهـا نشيطـة وفعالة ـ فرضـت إسرائيل موضوع لبنـان ، واشـتـد الإلحاح من أجـل عقـد معاهـدة صلـح بين إسرائيل ولبنـان تلحـق بالمعاهـدة المصريـة ـ الإسرائيلية . وكان عـزاء "شولـتز" لنفسـه أنه سوف يمشـى على المسارين فى نفس الوقـت :

- التوصـل إلى معاهـدة سـلام إسرائيلى ـ لبنانـى ..
- بـالتوازى مـع إجـراء اتصالات واسعـة مـع الملـك "حسـين" لتسويـة المشـكلة الفلسطينيـة على أساس الخيـار الأردنـى .

---

(١٤) المصدر السابق ـ صفحة ١٠١ .

وكانت إسرائيل مبالغة فى تفاؤلها بأن الوقت مناسب الآن وعلى الفور لعقد اتفاقية سلام بين لبنان وإسرائيل . وكان "جورج شولتز" مخطئا حين قرر أن يساير إسرائيل فى ذلك التفاؤل . والواقع أن كلا الطرفين وقع فى منزلق النظرة السياسية البراجماتية (الآنية والعملية) التى تجرد العمل السياسى من القاعدة التاريخية والثقافية التى توجه حركته . وكلا الطرفين ، الولايات المتحدة وإسرائيل ، ينساق كثيرا فى الإنكار التاريخى والثقافى لدى الآخرين :

- الولايات المتحدة يدفعها إلى ذلك الإنكار أن التاريخ لم يبدأ بالنسبة لها إلا قبل قرنين هما عمر التجربة الأمريكية .
- وإسرائيل مشكلة أكبر ، فهى تعرف ما كان قبل إنشاء الدولة فى فلسطين ، لكنها تريد إلغاءه إلغاء كاملا بحيث لا يصبح له أثر ، ويكون تعاملها فى الحاضر بما لا علاقة له بالماضى أو بالتاريخ .

كلاهما ينسى عند اللزوم أنه حتى فى أضعف الدول والمجتمعات فإن قمة الدولة أو المجتمع يمكن أن تضيع إرادتها ، لكن المقاومة — فى هذه الحالة — تنزل إلى قاع المجتمع وتكسبه قدرة وفاعلية لم يكن أحد يحسب حسابهما بالتفكير "البراجماتى" .

وكان هذا ما حدث تلك اللحظة فى لبنان :

- قمة الدولة اللبنانية التى وصل إليها السيد "أمين الجميل" — الأخ الأكبر لـ"بشير الجميل" - كانت تريد وتتوهم أنها قادرة على صلح مع إسرائيل .
- وقاع المجتمع اللبنانى لم يكن مهيأ لذلك ، بل على العكس كان مهيأ للمقاومة وقادرا عليها ، تساعده على ذلك عوامل داخلية وعوامل إقليمية .

كان "أمين الجميل" رجلا يختلف شكلا - على الأقل - عن شقيقه الرئيس المقتول "بشير الجميل" ، بل إن العلاقة بين الأخوين كانت بالكراهية أكثر مما كانت بالمحبة ، ولم يكن "أمين الجميل" يتورع عن وصف شقيقه الأصغر بأنه "مجنون سلطة ... ومجنون مال" .

وكان "أمين الجميل" قد حصل على موافقة عربية ، وإسرائيلية ، وأمريكية لكى يتولى السلطة بعد أخيه "مجاملة للموارنة وللكتائب ولبيت الجميل" ، وقد بدوا جميعا فى وضع يتطلب ترضية بعد كل وقائع الحرب الأهلية فى لبنان وبعد عملية نسف مقر الكتائب واغتيال الشيخ "بشير" .

وفوق ذلك فقد كان "أمين الجميل" يحيط نفسه - خصوصا فى الأيام الأولى - بطاقم كفاءات لبنانى تصور كثيرون من أفراده أنه يمكن "عمل شىء" .

وشجعت أطراف عربية بما فيها مصر ، بل إن مصر وصلت إلى حد أن أصبح شعارها فى وجه معارضة سورية تحاول منع لبنان من التوصل إلى صلح مع إسرائيل — هو التوجه إلى الرئيس "الأسد" كل يوم بشعار "ارفعوا أيديكم عن لبنان" .

وتجاوزت الأمور حد الشعارات حين بدأت مصر تنظم حلقات دراسية للمفاوضين اللبنانيين تنقل إليهم من خلالها تجربتها فى التفاوض مع إسرائيل ، وتزيدهم علما فيما توصلت إليه بتجربتها السابقة على الجميع فى التعامل مع المفاوض الإسرائيلى !

□

لكن المفاوض الإسرائيلى كان لا يزال يعتقد أن فى جيبه وعدا من الموارنة والكتائب وبيت "الجميل" بعقد صلح مع إسرائيل . وقد دفعت إسرائيل ما هو مطلوب منها فى مقابل هذا الوعد .

وقدمت إسرائيل مذكرة إلى لبنان على صورة مقررات اتخذها مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسة له بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٩٨٢ ، وطلبت إقرارها بغير لجاجة أو طول نقاش .

كانت المذكرة الإسرائيلية كما يلى :

" مقررات مجلس الوزراء الإسرائيلى
فى ١٩٨٢/١٠/١٠
حول شروط المفاوضات والانسحاب من لبنان

١ — إن إسرائيل تسعى لعقد معاهدة سلام مع لبنان .

٢ — إن حكومة إسرائيل تقترح البدء الفورى بمفاوضات من أجل انسحاب جميع القوات الغريبة من لبنان .

٣ — أول المغادرين هم الإرهابيون التابعون لمنظمة التحرير الفلسطينية المتبقون فى سهل البقاع وشمالى لبنان .

٤ — يغادر الجيش السورى وجيش الدفاع الإسرائيلى لبنان متزامنين .

٥ — يعاد جميع أسرى الحرب الإسرائيليين ، والجنود الذين فقدوا أثناء المعارك ورفات الجنود القتلى إلى جيش الدفاع الإسرائيلى قبل مغادرته لبنان .

٦ ـ توضع ترتيبات أمنية قبل الانسحاب وذلك للتأكد من أن لبنان لن يكون مرة أخرى قاعدة لأعمال عدوانية ضد إسرائيل .

بعض مبادئ الترتيبات الأمنية :

a ـ أ : منع كافة الأعمال العدوانية من الانطلاق من أراضى أى من الفريقين .

b ـ ب: منع تمركز أو دخول أى قوات غريبة داخل الأراضى اللبنانية (إلا فى حال موافقة الطرفين) .

c ـ ت: منع نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية والمجموعات الإرهابية الأخرى .

d ـ ث: منطقة أمنية تعزل المستوطنات الإسرائيلية عن مرمى المدفعية والصواريخ .

e ـ ج : لا توجد فى هذه المنطقة الأمنية أى مدفعية صواريخ "سام" أو صواريخ أرض ـ أرض . كما لا توجد تحصينات موجهة ضد إسرائيل .

f ـ ح : يكون الجيش اللبنانى ، محتويا القوات المحلية اللبنانية الجنوبية ، القوة المسلحة الوحيدة فى هذه المنطقة .

g ـ خ : توضع ترتيبات مراقبة وإنذار مبكر متفق عليها .

h ـ د : تؤلف لجنة مراقبة مشتركة لبنانية ـ إسرائيلية .

i ـ ذ : تستعمل الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية للتنقل الطبيعى للمدنيين بين البلدين .

j ـ ر : توضع ترتيبات للمفاوضة حول تفاصيل التطبيع بين إسرائيل ولبنان .

k ـ ز : يكون هناك تمثيل لكل من البلدين لدى الآخر .

l ـ س: توضع ترتيبات لمفاوضة معاهدة سلام بين لبنان وإسرائيل .

m ـ ش: خلال مفاوضات معاهدة السلام ، (...؟؟)

كيفية تنفيذ الترتيبات الأمنية :

a ـ أ : يبقى جيش الدفاع الإسرائيلى فى مواقعه الحالية لغاية مغادرة منظمة التحرير الفلسطينية للبنان ، ولغاية إعادة كافة أسرى الحرب الإسرائيليين والجنود المفقودين أثناء المعارك ورفات الجنود القتلى .

b ــ ب: ينسحب جيش الدفاع الإسرائيلى من خطوطه الحالية إلى الخط الذى يحدد المنطقة الأمنية بعد أن يخلى السوريون سلسلة جبل لبنان وتنتشر القوات المتعددة الجنسيات لمنع عودتهم إلى تلك المنطقة ومنع عودة منظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان . لهذا الغرض ، يجب أن تتخذ القوات المتعددة الجنسيات مواقع لها على مداخل كافة الطرق المؤدية .

c ــ ت : يبقى جيش الدفاع الإسرائيلى فى مواقعه على طول الخط المبين على خارطة لغاية التوقيع على اتفاقين :

١ ــ اتفاق ترتبه الولايات المتحدة الأمريكية لانسحاب جميع الجيوش الغريبة من لبنان .

٢ ــ اتفاق من خلال مفاوضات مباشرة لبنانية ــ إسرائيلية (مع إمكان اشتراك الولايات المتحدة) حول ترتيبات أمنية وتطبيعية.

d ــ ث: بعد التوقيع على الاتفاقين ، يباشر بالانسحابات الإسرائيلية والسورية . "

□

كان الضغط الإسرائيلى شديدا .

ولم يكن الدعم الأمريكى للبنان قائما ، ولا كانت الدروس المصرية قادرة .

وكانت الصورة العامة فى لبنان تتغير .

ذلك أن خروج الفلسطينيين من لبنان أعاد أهله طرفا فى مصائرهم .

لكن سوريا كانت قادرة على الضغط ومضطرة لممارسته أحيانا .

وكذلك كانت الموازين الاستراتيجية تتأرجح فى المنطقة بسبب التغييرات التى طرأت على مسار الحرب العراقية ــ الإيرانية .

وبدت القمة فى لبنان حائرة . وبدأ القاع فى لبنان يتحرك .

وكان القاع اللبنانى أصعب مما تصورته كل التقديرات "البراجماتية" ، وكان على وجه التأكيد أعقد من أن تقوده القمة اللبنانية مهما لقيت من دعم إسرائيلى أو أمريكى أو عربى !

وبذل وزير الخارجية الأمريكى "جورج شولتز" جهدا خارقا للعادة واستطاع بالفعل أن يقنع القمة اللبنانية بتوقيع ما سمى باتفاق ١٧ آيار ـ لكن هذا الاتفاق كان محكوما عليه بالفشل .

وكانت الأسباب عديدة :

١ ـ إن قوى القاع اللبنانى كانت كتلا إنسانية ضخمة لها جذورها التاريخية والثقافية فى تاريخ لبنان ، وكانت لها قياداتها التى تستطيع أن تثبت فى لحظة من اللحظات أنها فى معاقلها أكبر من قمة الدولة ذاتها وأقوى (الطائفة الدرزية مثلا وبزعامة رجل فى وزن "كمال جنبلاط" أو فى مقدرة ابنه "وليد جنبلاط") .

٢ ـ إن الحرب الأهلية انتهت وقد تغيرت موازين القوة على الأرض لصالح الشيعة الذين كانوا على الدوام عنصرا من عناصر التركيبة اللبنانية ، ولكنهم باتساع الحجم وباتساع الدور مع المقدرة على التضحية إلى درجة الاستشهاد ـ أكدوا أنهم ليسوا عنصرا فى التركيبة فقط ، وإنما هم ركن من أهم أركانها .

٣ ـ إن الطائفة المارونية ضعفت . فبحكم أنها كانت الطائفة الأغنى ماليا فى لبنان قبل الحرب الأهلية ، فإن ألمع العناصر بين الموارنة آثروا مبكرا أن يبتعدوا عن حريق حرب أهلية لا تصلح لها مستويات المعيشة والترف الفكرى التى تعودوا عليها . وهكذا فإن الصفوة المارونية ابتعدت ، فى حين ظهرت وبرزت عناصر جديدة مختلفة اكتسبت تجربتها فى الحياة تحت النار ووسط الأنقاض وفى خضم عمليات عسكرية ضد إسرائيل أو ضد غيرها .

وهكذا فإنه فى الوقت الذى اختلطت فيه عوامل التركيبة اللبنانية التقليدية كما عكست نفسها على القمة فى لبنان منذ الاستقلال وحتى الحرب الأهلية ـ فإن هناك متغيرات أخرى نفسية وسياسية راحت تساعد على انتقال موقع القرار من القمة إلى القاع اللبنانى :

● كانت هناك حقيقة أن جراح الحرب الأهلية فى لبنان ، وقد استمرت أكثر من سبع سنوات دامية ـ لا تزال تنزف بغزارة . وكان قلب بيروت ـ إلى جانب نزيف الدم ـ قد تحوّل إلى أنقاض يصعب معها الانتقال بسرعة إلى أجواء معاهدة سلام مع إسرائيل . بل إن مجرد طرح هذا الأمر كان قادرا على تجديد الحرب الأهلية أكثر من قدرته على توقيع معاهدة سلام .

● إن سوريا بنفوذها التاريخى والثقافى فى لبنان كانت تعارض فى توقيع اتفاقية سلام بينه وبين إسرائيل . ومع وجود قوات عسكرية سورية فى لبنان فإن أى حديث

عن صلح إسرائيلي ـ لبناني بعيد عن سوريا ـ كان محققا أن يكون نوعا من أوهام الخيال . ثم إن الذين راودتهم الظنون بأن سوريا يمكن أن تسكت تحت الضغط الأمريكي فاتهم أن اعتبار الأمن القومي السوري أقوى في التأثير على قرار دمشق من أي ضغط خارجي يمكن توجيهه إليها .

● إن قوة الثورة الإسلامية في إيران كانت بطبائع ارتباطات تاريخية وثقافية قديمة قد عكست نفسها على الواقع السياسي اللبناني ، وأحدثت تأثيرا فيه يتجاوز بكثير تأثير قرار رسمي تصدره قمة الدولة اللبنانية .

□

وتحت ضغط شديد من "شولتز" الذي قدم بنفسه إلى المنطقة وراح يقلد "هنري كيسنجر" في دبلوماسيته المكوكية ـ وقعت الحكومة اللبنانية ما سمي بـ "اتفاق ١٧ آيار" (مايو) ١٩٨٣ . لكن "شولتز" نفسه كان يدرك منذ البداية أن الاتفاق الذي دعا إليه وضغط من أجله ـ مغامرة غير مأمونة العواقب . وحاول أن يحشد كل أصدقاء الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة لتأييده . وبالذات فقد حاول حشد جهود مصر والسعودية متصورا أنه بهما معا يستطيع صد المعارضة الإسلامية ، خصوصا السنية ، وتثبيت المعارضة السورية .

وفي القاهرة مثلا فإن "شولتز" يروي في مذكراته [١٥] أنه جاء إلى مصر ليدفعها إلى تأييد عملية أكثر طاقة في المساعدة على تمرير مشروع معاهدة السلام الإسرائيلية ـ اللبنانية . لكنه وجد الرئيس "مبارك" "مهتما بتركيز جهوده أكثر على تنفيذ اتفاقية السلام المصري ـ الإسرائيلي" .

ووجد "شولتز" أيضا أن الرئيس "مبارك" لديه اقتناع بحدود ما تستطيع مصر أن تؤثر به في هذه الظروف سواء في لبنان أو في غيره من العالم العربي . ثم إنه وجده مليئا بالشك في السوفيت وأصدقائهم ، ولم يكن لديه أكثر من "أنه مستعد لبذل جهوده لتأييد أية مبادرات يقوم بها الرئيس ريجان" .

وكان واضحا للكل أن الدور الذي يمكن أن تقوم به مصر محدود سياسيا وإعلاميا لأنها ما زالت تحت المقاطعة التي وضعت حولها عربيا منذ توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل!

---

(١٥) المصدر السابق ـ صفحة ٢٠١ .

وفى السعودية - وطبقا لرواية "شولتز" - فإن الملك "فهد" كان شديد الود فى إبداء ترحيبه بوزير الخارجية الأمريكى . وقد استمع إليه بنوع من الحياد مبديا أنه على استعداد لتفهم مخاوف إسرائيل الأمنية على حدودها الشمالية ، ولكنه ليس مطمئنا لفكرة عقد معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان . وقال الملك "فهد" إن سوريا لها الحق أيضا فى مخاوفها الأمنية . وحاول "شولتز" أن يقنع الملك بأن سوريا لا يتعين عليها أن تقبل الاتفاق اللبنانى - الإسرائيلى ، وكل ما هو مطلوب منها أن تجلو عن لبنان لكى ترضى إسرائيل بدورها أن تجلو عنه طبقا لمشروع اتفاقية السلام . ومع أن الملك أظهر بعض الاهتمام بحجج "شولتز" فقد أحس وزير الخارجية الأمريكى بأن السعودية لا تستطيع مساعدته فى هدفه .

وبرغم أن "شولتز" كان يسير على الخط الذى اقترحته إسرائيل ويحاول أن يحقق لها معاهدة سلام إسرائيلى - لبنانى تسبق أى محاولة لدفع المسيرة السلمية فى المنطقة إلى أوسع وأبعد - فإن إسرائيل نفسها لم تكن راضية عن تصرفاته ، وكانت تراه غير قادر بما فيه الكفاية على تفهم مطالبها . ويروى "شولتز" [١٦] أن "بيجن" الذى كان يعيش أيامه الأخيرة كرئيس لوزراء إسرائيل دعاه إلى مقابلته صباح يوم ٢٨ أبريل أثناء زيارة عمل كان يتفاوض خلالها مع نظيره "إسحاق شامير" ليقول له وهما على انفراد : "إن العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية سيئة" . وراح "بيجن" يعد أسباب سوء العلاقات :

- الولايات المتحدة أخرت تسليم دفعة جديدة من طائرات "إف - ١٦" .

- والولايات المتحدة لا تقدم مساعدات كافية لتطوير المقاتلة الإسرائيلية "لافى" .

- ورئيس أركان حرب الجيش الأمريكى زار المنطقة أخيرا ولم يذهب إلى إسرائيل .

وهكذا .. وهكذا .. شكاوى من "بيجن" ضد تصرفات الولايات المتحدة وكلها تعكس عدم رضا رئيس وزراء إسرائيل عن السياسة الأمريكية .

وخرج "شولتز" من تجربته الفاشلة والمريرة فى الشرق الأوسط ليعود إلى فكرته الأصلية وهى أولوية معالجة القضية الفلسطينية باعتبارها أساس وأصل أزمة الشرق الأوسط ، ثم إن هذا العلاج يبدأ من عمان مع الملك "حسين" وعلى أساس الخيار الأردنى .

---

(١٦) المصدر السابق - صفحة ٢٠٤ .

الفصل الرابع

التفاوض بالهمس !

من أخطر مزالق
السياسة العربية الحديثة
أن كثيرا من القادة العرب
تولدت لديهم استهانة بجماهير أوطانهم ،
وقد اعتمدوا نوعا من الازدواجية خطرا ،
إذ أصبحوا يتصرفون
على النحو الذى تمليه عليهم الظروف أو الأقوياء ،
لكنهم أمام جماهيرهم يقولون لهذه الجماهير
ما يتصورون أنه موافق لهواها .
وذلك يصنع فجوة عميقة بين الفعل والقول ،
وبين المكتوم والمعلن ،
وفى هذه الفجوة العميقة
تسقط المصداقية
ويضيع الحد الأدنى
اللازم من الاحترام
لأى نظام !

١

ويليـــــام كـايســـــى

" ليسـت لدينـا تعهـــدات أمنيـــة تجـاه دول الخليـج الصغـيرة "

(مدير وكالة المخـابرات المركزيـة الأمريكيـة لمديـر المخابرات العراقيـة)

كانت الثمانينات هى حقبـة وكالة المخابرات المركزية فى منطقة الشرق الأوسط بكـل مـا يحمله هذا القـول من معـان وبكل ما يصـل إليه من أبعـاد . وكان العامل الحاسم فى اتســاع دور وكالة المخابرات المركزية فى المنطقة فى تلك الحقبـة يرجع فى البدايـة إلى سببـين :

١ ــ فشـل العمـل السياسى فى إنقــاذ نظـام الشـاه "محمد رضـا بهلـوى" فـى إيـران سنة ١٩٧٩ .

٢ ــ فشـــل العمـــل العسـكرى فـى إنقــاذ الرهـائن الأمريكيـين المحتجزيـن فـى السـفارة الأمريكية فى طهـران سنـة ١٩٨٠ .

وبهذا الفشـل المزدوج ــ سياسيـا وعسكريا ــ فإن العمـل السـرى فـرض نفسـه بحقـائق الأمور ، وكانت وكالـة المخابرات المركزية هى أداتـه التى لا بديـل لها فى تلك الظـروف .

والشاهـد أن وكالـة المخابـرات المركزيـــة الأمريكيـة كـانت باسـتمرار لاعبـا كبـيرا علـى مسـرح المنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد كانت هـى التـى تقدمـت فـى العصـر الملكـى فى مصـر قبل الثـورة لتمهيد الأرض لترتيبات دفاعية عن المنطقة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى فى الحرب الباردة التى تفتحت ميادينهـا فـور تصفيـــة ميـادين الحـرب السـاخنة التى سبقتهـا .

وفى الفترة التى تلـت الحـرب مباشرة اتسـع نشـاط وكالـة المخابرات المركزية الأمريكيــة فى مصــر . وخارج مصـر فإنها حققـت عـددا مـن الانتصـارات فـى مجـال تأمـين حصـول

الولايات المتحدة على أكبر قسط من مصادر البترول العربى وطرق نقله . ولعل أهم انتصارات الوكالة نجاحها فى أكثر من انقلاب عسكرى فى دمشق ، كانت الجائزة المطلوبة فيها هى امتيازات خطوط أنابيب "التابلاين" التى تنقل بترول السعودية إلى البحر الأبيض .

وبعد الثورة المصرية كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية صاحبة أدوار بارزة فى محاولات الولايات المتحدة لغواية الثورة المصرية قبل تأميم قناة السويس ، ثم لاحتوائها بعد التأميم وبعد الحرب ، ثم لتحجيمها بعد الوحدة مع سوريا بالمشاركة فى عملية انقلاب على الوحدة، ثم بالمساعدة على استنزافها فى حرب اليمن ، وأخيرا فى التخطيط والتحضير لضربها فى معركة يونيو ١٩٦٧ .

وفى مرحلة ما بعد "جمال عبد الناصر" ، وحين بدأ الرئيس "السادات" يبحث عن مخرج من أزمة الشرق الأوسط بالحل أو بالحرب ، فإن اتصالاته بالولايات المتحدة جرت فى جزء مؤثر منها عن طريق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . فقد أنشئت فى ذلك الوقت تلك القناة السرية للاتصالات بين الرئيس "السادات" وبين الدكتور "هنرى كيسنجر" بوصفه مستشارا للرئيس الأمريكى ومسئولا عن مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض . وكان الرئيس "السادات" على اعتقاد بأن هذه القناة تستطيع أن تنجح حيث فشلت القناة الدبلوماسية الطبيعية بينه وبين وزارة الخارجية الأمريكية ووزيرها "ويليام روجرز" .

وكان مسئول الوكالة المقيم فى مصر والذى قام بدور حلقة الاتصال بين الرئيس فى القاهرة وبين مستشار الرئيس للأمن القومى فى واشنطن — هو المستر "يوجين ترون" . وقد كلف الرئيس "السادات" عددا من كبار معاونيه لتولى هذه الاتصالات على الناحية المصرية . وقد تعاقب على هذه الاتصالات كل من الفريق "أحمد إسماعيل على" فى فترة رئاسته للمخابرات المصرية ، ثم السيد "حافظ إسماعيل" فى الفترة التى كان فيها مستشارا للرئيس "السادات" لشئون الأمن القومى .

وعندما أصبح "هنرى كيسنجر" وزيرا للخارجية إلى جانب قيامه بأعمال مستشار "نيكسون" للأمن القومى ، فإن القناة السرية والقناة الرسمية اتحدتا فى مجرى واحد لأن المسئول على الناحية الأمريكية من القناتين كان نفس الرجل .

وعندما وصل "جيمى كارتر" إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية واختار الأميرال "ستانس تيرنر" رئيسا لوكالة المخابرات المركزية ، فإن الوكالة كانت فى أسوأ أحوالها ، ولم تكن فى وضع يسمح لها بالمشاركة فى لعب دور مؤثر فى الشرق الأوسط لأن ظروف عملها وإمكانياتها تأثرت بسبب التحقيقات التى جرت داخلها لتقصى دورها فى فضيحة "ووترجيت" التى أطاحت بـ"نيكسون" ، وكذلك لتقصى دورها فى عمليات جرت داخل

الولايات المتحدة ضد معارضى حرب فيتنام ، وأخيرا لتقصى دورها فيما قيل عن مؤامرات لاغتيال عدد من رؤساء دول فى العالم الثالث .

فى تلك الفترة كانت وكالة المخابرات المركزية فى حالة دفاع عن نفسها . وكانت ملفاتها مفتوحة وأسرارها منشورة ، كما أن عددا من كبار "رجالها" تسللوا فى ظلام النسيان ، وأملهم أن ينساهم الآخرون وتنساهم الحوادث بما فيها لجان التحقيق فى الكونجرس وخارجه .

كانت الوكالة "نائمة" فى تلك الفترة ، حسب التعبير الذى يستعمل عادة فى وصف أدوات المخابرات غير القادرة لسبب أو لآخر على العمل ، أو تلك المدخرة لفرص لم تأت بعد .

وبفشل العمل السياسى الأمريكى فى إنقاذ الشاه فشلا ذريعا ، وبتحوّل العمل العسكرى لإنقاذ الرهائن الأمريكيين إلى فضيحة شنيعة ، فإن الإمكانيات النائمة للوكالة كان لا بد من إيقاظها واستعمالها لأن هناك مهام مستجدة فى منطقة حيوية للولايات المتحدة .

إن الحاجة إلى إيقاظ وتنشيط دور وكالة المخابرات المركزية أصبحت أشد إلحاحا بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران ، ومع اعتقاد بدأ يظهر وينتشر فى مراكز التفكير الأمريكى ومواقع صنع وصياغة القرار السياسى الأمريكى — مؤداه أن التهديد الذى تواجهه المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط هو التيار الإسلامى وعناصره المختلفة التى شجعها نجاح ثورة إسلامية فى طهران .

إن الشواهد كثيرة - وبعض الوثائق متاحة — على أن الوكالة لعبت عن طريق أطراف عربية دورا مؤثرا فى إشعال الحريق الذى وضع قوة قومية كبيرة هى العراق فى مواجهة مسلحة مع دولة إسلامية أقامتها ثورة شعبية إيرانية جارفة . ولقد كانت هناك بظروف التاريخ والثقافة ومواريثها السياسية المعاصرة أسباب للتناقض الحاد بين العراق وإيران ، لكن وصول هذا التناقض إلى درجة الحرب المسلحة كان فيه — بشبه يقين - عنصر إضافى تعمد إشعال الشرر والنار والحريق لضمان استمرارها ثمانى سنوات دامية ومحزنة .

كانت بعض أجهزة المخابرات العربية ضالعة فى عملية التحريض ، وجمع المعلومات ، وشراء السلاح ، والتأثير فى ميادين القتال — وكان جهدها بطبيعة الحال لصالح العراق. وفى نفس الوقت فقد كانت هناك دول من خارج المنطقة جاهزة لتزويد إيران بالكثير مما تحتاج إليه ، خصوصا فى مجال السلاح (وبينها الصين وكوريا الشمالية) . وتظهر وقائع "إيران - كونترا" أن الولايات المتحدة كانت ضالعة مع الطرفين . فأجهزة العمل السرى

الأمريكية تولت تقديم الأسلحة والمعلومات لكل من الطرفين المتحاربين ، وكان هدفها متوافقا مع التعبير الشهير الذى استعمله "كيسنجر" نفسه حين قال إنه "يتمنى أن تكون حرب الخليج سابقة جديدة من نوعها فى تاريخ الحروب ، ولا يخرج فيها طرف من الطرفين منهزما ، وإنما ينهزم الطرفان وتتواصل الحرب إلى الأبد إذا كان ذلك ممكنا" .

وبلغت قوة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ذروتها فى المنطقة مع رئاسة "رونالد ريجان" الذى اختار لها مديرا عاما هو "ويليام كايسى" الذى أصبح عضوا كاملا فى وزارة "ريجان"، إلى جانب كونه من أقرب أصدقائه الشخصيين ومستشاريه السياسيين ، وكان هو المسئول عن إدارة حملته الانتخابية .

إن "ويليام كايسى" بدأ عمله من قبل أن يتولى "رونالد ريجان" رئاسة الولايات المتحدة بالفعل . واتصل بأطراف كثيرة فى المنطقة أو حاول . وكان أول اتصاله بالإيرانيين يقنعهم بتأخير الإفراج عن الرهائن المحتجزين فى السفارة الأمريكية ، رغم موافقة الرئيس "كارتر" على شروط تم الاتفاق عليها لتسوية مشكلتهم . وكان هدف "كايسى" هو تلميع صورة "ريجان" بحيث يبدو أن الإفراج عن الرهائن حدث مع مطلع رئاسته . وتحقق ذلك بالفعل وأفرج عن الرهائن الأمريكيين رغم أن الصفقة الخاصة بالإفراج عنهم كانت جاهزة للتنفيذ ــ فى اللحظة التى كان فيها "كارتر" يخرج من البيت الأبيض و"ريجان" يخطو داخلا على عتبته .

إن "ويليام كايسى" ـ وعن رغبة فى استطلاع كل ألوان الطيف العربى ، مع رغبة عراقية فى استطلاع النوايا الأمريكية ــ عقد لقاء فى ضاحية "أرانخويز" بالقرب من مدريد مع المسئول عن المخابرات العراقية وقتها الدكتور "فاضل البراك" . وفى هذا الاجتماع تحدث الاثنان عن تسوية ما بعد الحرب العراقية ـ الإيرانية . وألمح الطرف العراقى إلى رغبته فى ضم مقاطعة "خوزستان" الإيرانية للعراق بعد الحرب باعتبار أصلها العربى . ولكن "كايسى" اعترض بحجة أن ذلك يخل بالتوازن الجغرافى ـ الاستراتيجى للمنطقة ، وتأثيره ـ إذا حدث ـ يمكن أن يتشابه مع فصل إقليم "كردستان" عن العراق . وفى هذه الجلسة أشار الدكتور "فاضل البراك" إلى مطالب العراق التاريخية فى الكويت ، وكان رد "كايسى" أن ذلك موضوع آخر ليس الآن مجاله ، ثم ألمح بسرعة إلى أن الولايات المتحدة ليست لديها التزامات أمنية حتى الآن تجاه مشيخات الخليج (وكانت لأقوال "كايسى" فى هذا الاجتماع عواقب وخيمة فى ظروف لاحقة لا تزال كامنة فى المستقبل ذلك الوقت) .

□

وفى معركة إخراج المقاومة الفلسطينية من بيروت ، وشد مجتمع القمة فى لبنان - سواء أيام "بشير الجميل" أو "أمين الجميل" - إلى توقيع معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان ، كانت الوكالة صاحبة دور واسع وفاعل ، وربما أن ذلك هو التفسير الصحيح لحرب ساخنة اشتعلت بين عناصر المقاومة الإسلامية فى بيروت وبين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طوال السنوات التالية لخروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت :

● فى أبريل ١٩٨٢ وكان نشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قد بلغ ذروته فى العاصمة اللبنانية - قامت المقاومة الإسلامية بتفجير مقر السفارة الأمريكية فى بيروت ، وحدث ذلك فى وقت كانت فيه الوكالة تعقد اجتماعا موسعا لممثليها فى المنطقة . وقتل فى هذا التفجير وتحت أنقاضه أكثر من ستة عشر مسئولا من رجال المخابرات المركزية فى المنطقة . وكانت هذه أقسى وأعنف ضربة توجه إلى الوكالة .

● وفى يناير ١٩٨٤ قتل الدكتور "مالكولم كير" مدير الجامعة الأمريكية فى بيروت، وكان السبب هو اتهامه بالعمل لحساب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . ومع أن كثيرين كانوا ولا يزالون على استعداد لاستبعاد هذه التهمة عن الدكتور "مالكولم كير" ، إلا أن حدة المواجهة بين العناصر الإسلامية وبين الوكالة كانت جارفة فى ذلك الوقت إلى درجة جعلت الشبهات كافية لإصدار حكم بالإعدام .

● وفى مارس ١٩٨٤ قامت المقاومة الإسلامية بعملية من أنجح عملياتها ضد وكالة المخابرات المركزية ، فقد تمكنت من خطف المستر "ويليام باكلى" ، وهو المسئول الأول وقتها عن نشاط وكالة المخابرات المركزية فى كل منطقة الشرق الأوسط . وجرى استجواب "باكلى" بطريقة مكثفة ، ولم يتحمل الرجل رغم تدريبه المحترف الكفء ظروف الاعتقال والاستجواب فأدلى باعترافات كاملة ، ثم جرى التخلص منه بعدها .(١)

● ويوم ٨ مارس ١٩٨٥ ردت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بعملية واسعة لنسف بيت الشيخ "حسين فضل الله" مرشد "حزب الله" ، وقد اعتبرته مسئولا عن كل نشاط التيار الإسلامى فى بيروت . وكانت عملية النسف بواسطة سيارة مفخخة وضعت أمام بيت الشيخ "حسين فضل الله" فى حى الضاحية ، وأدى انفجارها إلى قتل أكثر من ثمانين شخصا ، ولكن الشيخ "حسين فضل الله" نفسه نجا بمعجزة من المحاولة لأنه كان قد خرج من بيته لأمر عاجل طرأ فجأة . والمدهش أن تمويل العملية دفعته المخابرات السعودية !

---

(١) فى زيارة لبيروت فى شهر يناير ١٩٩٥ اطلع "محمد حسنين هيكل" على أجزاء من ملفات استجواب "باكلى" ، وكانت تحوى معلومات مذهلة . وقال المسئول الذى أراها لـ هيكل" وهو يقدم له الأوراق : "إنك سوف تقرأ هنا ما يشيب لهوله الولدان" !

(إن هذه الحرب بين الأجهزة والقوى العاملة تحت الأرض توافقت مع عملية كبرى قام بها فدائى إسلامى نسف فيها قيادة جنود البحرية الأمريكية فى بيروت ، وفيها قتل أكثر من ٢٥٠ جنديا أمريكيا ، واضطر "ريجان" بعدها إلى سحب كل القوات الأمريكية من لبنان) .

فى هذا كله وبعده فقد كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طرفا فى رسم وتنفيذ خطوط وخطط السياسة الأمريكية فى المنطقة .

□

وعندما غيّر "جورج شولتز" أولوياته بعد سقوط مشروع "اتفاقية ١٧ مايو" (معاهدة الصلح بين لبنان وإسرائيل) ـ فإن وزارة الخارجية الأمريكية لم تكن وحدها فى الساحة ، وإنما كانت وكالة المخابرات المركزية طرفا مشاركا فى الأولويات الأمريكية الجديدة . وحين حوّل "جورج شولتز" نشاطه من المحاولة الإسرائيلية ـ اللبنانية التى اضطر إليها تحت الضغط الإسرائيلى ، إلى محاولة الاقتراب من أساس الأزمة وهو المشكلة الفلسطينية ذاتها ، فقد كان للمحاولة الجديدة مسرحان :

- مسرح ظاهر يديره "ريتشارد مورفى" مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط .
- ومسرح آخر متصل بمجلس الأمن القومى وقد عهد بإدارته إلى مندوب عن مجلس الأمن القومى (بما فيه وكالة المخابرات المركزية) وهو المستر "وات كليفيريوس" .

وكان الأساس الذى بدأت عليه محاولة "شولتز" الجديدة يتمثل فى مرجعيتين :

١ - مرجعية المبادرة التى قدمها "شولتز" واشتهرت باسم "مبادرة ريجان"، والتى أعلنها الرئيس الأمريكى فى خطاب أذيع من المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض يوم أول سبتمبر ١٩٨٢ .

٢ - ومرجعية مؤتمر القمة العربى فى فاس والذى أقر مشروعا عربيا للتسوية اشتهر باسم "مشروع فهد" .

. . . .

. . . .

● كان مؤدى "مبادرة ريجان" وطبقا لنصوصها كما يلى :

- بدأ الرئيس الأمريكى خطابه ـ الذى احتوى المبادرة ـ بالإشارة إلى النصر الكبير الذى حققته السياسة الأمريكية بإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، مشيرا إلى أن ذلك يفتح الباب لتناول عام لأزمة الشرق الأوسط .

- واقترح "ريجان" اعتبار إطار "كامب دافيد" للحكم الذاتى إطارا مناسبا يمكن تعديله طبقا للظروف المتغيرة .

- وطرح الرئيس الأمريكى فكرة إدارة ذاتية للفلسطينيين ، وإقامة سلطة فلسطينية منتخبة تتولى ذلك بما لا يهدد أمن إسرائيل .

- واقترح "ريجان" وقفا مؤقتا للاستيطان فى الأراضى المحتلة يتوافق مع إجراءات ضرورية رآها لبناء الثقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين .

- واعترف "ريجان" بحق اليهود فى الحياة فى أى مكان مما أسماه يهودا والسامرة "التاريخيتين" .

- واقترح الرئيس الأمريكى أن يتقرر الوضع النهائى للأراضى المحتلة بعد فترة انتقالية مدتها خمس سنوات على ضوء قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ـ وأن يتوافق انسحاب إسرائيل من أية أراض تنسحب منها مع ضمانات الأمن والتطبيع الكافية مع كل جيرانها .

- ثم أعطى "ريجان" فى النهاية تعهدا أمريكيا بضمان أمن إسرائيل .

● وكان مؤدى مقررات القمة العربية فى "فاس" وقد أعلنت يوم ٦ سبتمبر ١٩٨٢ ـ وكانت فى واقع الأمر ردا على "مبادرة ريجان" أو تطويرا لها - هو :

- اعتراف جميع العرب بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨ "بعدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة فى مقابل السلام" .

- القبول بفترة انتقالية توضع خلالها خطوط التسوية .

- إقامة دولة فلسطينية فى الأراضى التى تجلو عنها إسرائيل ، وتكون القدس العربية عاصمتها .

وكانت القمة العربية فى "فاس" قد كلفت الملك "الحسن" ملك المغرب أن يحمل مقرراتها ـ "مشروع الملك فهد" الذى وافقت عليه ـ إلى واشنطن وأن يقدمه بنفسه إلى

الرئيس "ريجان" ، وأن يكون من ذلك أساس لبدء مفاوضات لتسوية القضية الفلسطينية ، وهى الأساس الذى عاد إليه الجميع الآن فى بحثهم عن مخرج لحل أزمة الشرق الأوسط .

□

وصل الملك "الحسن" إلى واشنطن يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٨٢ لكى يقدم للرئيس "ريجان" مشروع القمة العربية ويبحث فى إمكانية التوفيق بينه - مشروع "فهد" - وبين "مبادرة ريجان". وكان أول لقاء له فى واشنطن مع وزير الخارجية "جورج شولتز" .

وفى هذا الاجتماع الأول بين الملك "الحسن" بوصفه ممثلا لكل الملوك والرؤساء العرب، وبين وزير الخارجية الأمريكى ، بدأ "شولتز" فقال للملك : "إن العرب الآن لديهم فرصة كبيرة لحل أزمة الشرق الأوسط ، وبصرف النظر عن تعنت بيجن فإن العرب أمامهم مهمة أولى وهى أن يقدموا مفاوضا عربيا مقبولا يجلس أمام إسرائيل على مائدة المفاوضات" .

وكان رأى الملك أن المفاوض العربى الطبيعى هو الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . وتشابكت المناقشات لأن "شولتز" وخبراءه كان من رأيهم أن منظمة التحرير فى الظروف الراهنة ليست مفاوضا مقبولا لا من الإسرائيليين ولا من الولايات المتحدة ، وإن المخرج الوحيد الممكن هو أن تقوم المنظمة بإعطاء الملك "حسين" تفويضا بالجلوس مع الإسرائيليين بقصد الوصول إلى خطوط عامة للتسوية ، وبعدها - وحينما تتهيأ الظروف أو تتبدل - يمكن البحث فى الدور الذى يمكن أن تقوم به منظمة التحرير الفلسطينية . وعند هذه النقطة من المحادثات قال الملك "الحسن" لـ"جورج شولتز" : "لقد حان الوقت لكى تفتحوا ملف منظمة التحرير". ورد "شولتز" بسرعة - وفقا لمذكراته [٢] - قائلا : "المشكلة أننا إذا فتحنا ملف منظمة التحرير فلن نجد فيه سوى سجل ملىء بالإرهاب" . ويقول "شولتز" : "إن الملك تفهم ملاحظتى" . ويستطرد "شولتز" : "ولكن الملك الحسن أبدى ضيقا بالشروط التى وضعتها أمامه لإمكانية قبول الولايات المتحدة بالتعامل مع منظمة التحرير ، وهى أن حكومة الولايات المتحدة لن تقبل أن تتحدث مع منظمة التحرير إلا إذا قامت المنظمة مسبقا بإعلان صريح من جانبها تعترف فيه بحق إسرائيل فى الوجود، وكذلك بقبولها

---

(٢) "الاضطراب والنصر" - صفحة ٤٣٢ .

الصريح لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، وأن يجيء ذلك في نص منفصل لا يتوه وسط قرار فضفاض لقمة عربية . وأخيرا بأن تتعهد المنظمة بنبذ العنف والإرهاب ."

وكانت المعضلة المستعصية في ذلك كله تتمثل في سؤال محوري هو "هل تقبل منظمة التحرير الفلسطينية أن تعطي للملك حسين رخصة للتفاوض مع إسرائيل نيابة عن الفلسطينيين وباسمهم ؟"

ويقول "شولتز"(٣) إنه أحال هذا السؤال إلى المستر "بوب إيمز" المحلل المختص في وكالة المخابرات المركزية بمتابعة منظمة التحرير الفلسطينية . ويضيف "شولتز" إن "إيمز" قال في تقريره : "إن ياسر عرفات يستطيع أن يحصل من المجلس الوطني الفلسطيني على سلطة التعامل مع مسيرة السلام على أساس قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وإنه يستطيع أن يحصل كذلك على السلطة بتخويل الأردنيين حق التحدث مع الإسرائيليين نيابة عن منظمة التحرير . لكن عرفات يستطيع أن يفعل ذلك إذا توفرت لديه ثقة كافية بحسن نية الولايات المتحدة الأمريكية ."

واعتبر "شولتز" أن الأبواب مفتوحة إلى عمان ، وأن الملك "حسين" يستطيع أن يتحرك ، وفي مقدوره أن يصل مع الإسرائيليين إلى حل .

---

(٣) المصدر السابق ـ صفحة ٤٣٢ .

٢

مصــــــــــــــــــــــر

" أنا سائر فى محاولتى إلى النهاية "

(الملك "حسين" لوزير الخارجية الأمريكى "جورج شولتز")

وكان الملك "حسين" مستعدا للتحرك ، وقد بدأ حركته بخطاب أذاعه إلى الشعب عرض فيه "إنشاء اتحاد كونفيدرالى بين الأردن وبين كيان فلسطينى يمكن أن يقوم بعد مرحلة من المفاوضات تتضح فيها خطوط التسوية السلمية" . ودعا الملك "حسين" فى خطابه منظمة التحرير إلى التعاون معه ، وأضاف أنه "كملك للأردن يؤكد قبوله لقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨ وأنه بذلك ضمنا يعترف بإسرائيل" .

ويعلق "جورج شولتز" على خطاب الملك فى مذكراته فيقول[٤]:

"إن إعلان الملك كان جريئا وإن لم يكن على نفس مستوى شجاعة قرار الرئيس السادات بالذهاب إلى القدس سنة ١٩٧٧" .

وبعد بيانه للشعب توجه الملك "حسين" إلى واشنطن راغبا فى انتهاز الفرصة إلى مداها حتى يصل إلى حل . ويقول "شولتز" :

"إن الملك فى واشنطن كان فى عجلة من أمره إلى درجة جعلته يخالف البروتوكول ويسبق هو بالمجىء إلى مكتبى فى وزارة الخارجية بدل أن أذهب أنا لمقابلته فى فندق "الفصول الأربعة" الذى كان ينزل فيه أثناء زيارته لواشنطن ."

---

(٤) المصدر السابق — صفحة ٤٣٣ .

ويضيف "شولتز" أن السفير الأمريكي فى عمان "ريتشارد فيتس" حذره قبل المقابلة بأن الملك يريد تقدما سريعا ، لأنه بما أقدم عليه يتحمل مخاطرة شديدة قد تؤدى إلى ضياع مركزه ، وأن الولايات المتحدة مطالبة بأن تساعده إلى أبعد مدى ليتوصل إلى نتائج تمكنه من تثبيت مناورات عرفات وغيره من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية .

كان الملك فى حديثه مع وزير الخارجية الأمريكى حازما بطريقة لم يعهدها فيه "شولتز" من قبل . وقد بدأ حديثه بقوله إنه "ماض فى محاولته إلى النهاية ، وإذا قامت منظمة التحرير بعرقلة مسعاه لحل يشمل ضفتى الأردن فسوف يكون مستعدا حينئذ للمضى وحده بحل أردنى خالص" .

وفيما يتعلق بما يطلبه الملك من الولايات المتحدة لمساعدته في الوصول إلى حل للمشكلة برمتها — وليس بالنسبة للأردن فقط — فقد كان إلحاحه أن تقوم الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل لتحقيق مطلبين يراهما جوهريين :

١ ـ أن تعلن إسرائيل تجميدها لعمليات الاستيطان فى الضفة الغربية .

٢ ـ أن تضع الولايات المتحدة حدا أقصى للمدة التي يمكن أن تستغرقها المفاوضات مع إسرائيل فى سبيل الوصول إلى حل مؤقت أولا ، يضمن حكما ذاتيا لأهالى الضفة الغربية وقطاع غزة .

ثم عاد الملك فأصر على أنه إذا قبلت إسرائيل بما عرض ورفضته منظمة التحرير بذريعة أو بأخرى ، فإن الملك "سوف يمضى إلى آخر الطريق وحده وبحل أردنى" .

□

كانت الرواسب القديمة فى العلاقات بين الملك "حسين" ومنظمة التحرير عالقة فى الأجواء . فكل من الطرفين يشك فى الآخر من الأصل والأساس ، كما أن المعارك الدموية بين الفلسطينيين والأردنيين فى عمان (سنتى ١٩٧٠ و١٩٧١) تركت آثار جراحها على الطرفين . وفوق ذلك فقد كان الملك يشعر أن المنظمة تريد أن تنزع منه نصف مملكته على فرض أنه استطاع استخلاصها من إسرائيل . فى حين أن المنظمة وبنفس المقدار كانت تتصور أن الملك لا يريد فقط أن يستعيد ما أخذه جده (الملك "عبد الله") من أرض فلسطين ، وإنما يريد أكثر من ذلك إلغاء كل ما جرى ابتداء من قرار قمة القاهرة (١٩٦٤) بإنشاء كيان فلسطينى ، إلى قرار قمة الرباط (١٩٧٤) باعتبار منظمة التحرير ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطينى .

وهكذا بالتداعى نشأ موقف مستجد :

- من ناحية كانت منظمة التحرير تشعر أنها فى حاجة إلى سند عربى فى مواجهة الملك "حسين" المستعد للتفاوض مع إسرائيل بها أو بغيرها فى الشأن الفلسطينى .
- ومن ناحية أخرى فإن الملك "حسين" أيضا كان يحس أنه فى حاجة إلى طرف عربى مؤمن بالمسيرة السلمية ومستعد لدفع خطاها على طريق المفاوضات مع إسرائيل .

وكان كلا الطرفين فى هذه الحاجة إلى سند يدعم موقفه ولا يجد هذا السند فى دول الخليج - وفى مقدمتها السعودية - فهذه الدول ليست على استعداد لاتخاذ مواقف واضحة ومعلنة فى قضية التفاوض مع إسرائيل . ثم إن سوريا بضرورات مواقفها غير مستعدة أن تكون هذا السند. والعراق مشغول بحربه فى إيران . والمغرب العربى بكافة دوله بعيد أو هو غير قادر .

□

فى هذه اللحظة الحاسمة كانت مصر هى اختيار الطرفين . وبدأ الملك "حسين" و"ياسر عرفات" كل منهما من منظور مختلف يستدعى مصر إلى دور لمساندته تصور أنها تستطيع القيام به :

- من ناحية الملك كانت رؤيته أن مصر التى سبقت الجميع إلى "تسوية سلمية" مع إسرائيل لا تريد أن تبقى إلى الأبد فى العزلة التى فرضت عليها بعد توقيع معاهدة "كامب دافيد" .
- وبنفس هذا المنطق فإن مصر سوف تكون عنصرا مؤيدا لمسيرة السلام . وفى علاقاتها بالولايات المتحدة فإنها على وجه التأكيد سوف تؤيد مسارا للتفاوض ترعاه الولايات المتحدة .
- ويتصل بذلك أن مصر لها نفوذ وصلات مع منظمة التحرير ، غير أنها بدورها لديها تحفظات على قيادة المنظمة من تأثيرات فترة سبقت بين فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل وحتى توقيع معاهدة سلام مصرى - إسرائيلى فى إطار "كامب دافيد" .

وإذن ، ومن وجهة نظر الملك "حسين" ، فإن مصر هى السند الوحيد المطروح فى مواجهة منظمة التحرير ، وفى محاولته الجديدة للتفاوض مع إسرائيل .

ومن ناحية "ياسر عرفات" :

- فقد كانت المنظمة تشعر دائما بأهمية القضية الفلسطينية بالنسبة لمصر استراتيجيا، ففلسطين هى الطريق إلى الشام والى المشرق العربى عموما .
- ومن منظور "ياسر عرفات" فإن مصر لم تكن تريد أن تبقى فى عزلة ما بعد "كامب دافيد". وفى تشوقها لكسر الحصار فإن منظمة التحرير الفلسطينية بما تمثله أمام الجماهير العربية بالنسبة لقضية فلسطين قد تكون هى المطرقة التى تكسر بها مصر حصارها .
- ومن منظور "عرفات" فإن مصر كانت راغبة دائما فى حصر دور الهاشميين فى المشرق العربى . وبالتالى فإنها يمكن ــ إذا تبنت مواقف منظمة التحرير إزاء الملك "حسين" ــ أن تصنع ثقلا مواجها يحول دون انفراد الملك "حسين" بحل القضية الفلسطينية .

وهكذا ، وعلى غير اتفاق فى الأهداف ــ وربما مع تعارض فى الأهداف ــ أصبح مطلب السياسة الأردنية والسياسة الفلسطينية هو استعادة وجود مصر فى المعادلة السياسية العربية .

كان ذلك أيضا مطلب العراق فى ظروف حربه مع إيران ، وانشغال كل مصانع الذخيرة المصرية فى ذلك الوقت ببيع الذخائر والأسلحة للعراق سواء عن عداء لإيران أو عن رغبة فى الترويج لمنتجات مصرية .

إلى جانب ذلك فقد كانت هناك رغبة من جانب دول خليجية تتمنى عودة الوجود المصرى فى الجامعة العربية لتكون ثقلا مواجها للعراق إذا خرج منتصرا فى حربه مع إيران ، أو "لإيران" إذا خرجت منتصرة فى حربها مع العراق .

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد عودة مصر بأكثر من أى طرف آخر ، فذلك إذا حدث تأكيد جديد لضرورة التسوية السلمية فى الشرق الأوسط يعبر عنه قبول العرب مرة أخرى للدولة العربية الأولى التى عقدت صلحا مع إسرائيل . والى جانب ذلك ، فإن عودة مصر إلى الصف العربى بعلاقاتها التى توثقت مع الولايات المتحدة ــ تعطى إضافة مؤثرة لمجمل توجهات السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط .

وبالطبع فإن مصر بدورها كانت تتشوق إلى عودة عربية ، كما أن عددا من المسئولين المصريين كانوا يعتبرون هذه العودة ضرورة آن أوانها . وهكذا عادت مصر إلى الصف . وبدأ طريق العودة بمؤتمر القمة الإسلامى فى ٢٦ يناير ١٩٨٧ ، ثم كانت عودتها الثانية إلى الجامعة العربية عن طريق مؤتمر القمة العربى فى ٢١ مايو ١٩٨٩ . وفى الحالتين كان الطلب معززا من منظمة التحرير والأردن والعراق فى الصف الأول ، ثم تشجيع المغرب والسعودية وبقية دول الخليج من الصف الثانى .

وحاولت سوريا أن تعارض من ناحية مبدئية ، لكن الاعتبارات العملية أخذتها بدورها، وآثرت فى اللحظة الأخيرة أن تسبق إلى الترحيب بعودة مصر . وكان هناك الظن بأن الرئيسين "مبارك" و"الأسد" بينهما علاقة خاصة من تأثير زمالة الطيران القديمة قبل وبعد حرب أكتوبر .

وكان الطريق الذى انفتح أمام مصر هو نفسه الطريق الذى انفتح أمام "مسيرة السلام" فى محاولة جديدة أو متجددة .



شامـــــــــــير

" أنـت تريـد أن تحاصر شامـير ، ولكن حـاذر أن تجـد نفسـك مطوقـا من "جورباتشوف".

("مارجريت تاتشـر" لـ"جورج شولـتز")

طوال سنة ١٩٨٥ كان الملك "حسـين" يظـن أنه قادر على التفاوض باسم الأردن وباسـم الفلسطينيين . وفى نفس الوقت كانت المنظمة تتابع ما يقـوم به الملـك وتنتظر نتائجه دون أن تحسـب نفسها مقيـدة بتفويض أعطته لـه . وكانت مصـر المهتمة بمسيرة السـلام والمتلهفة على دفعهـا تحاول ما بين الفلسطينيـين والأردنيـين ، وكان هواهـا أكـثر إلى جـانب الملك "حسـين" فى المراحل الأولى، فقد كان الرئيس "مبارك" فى ذلك الوقـت مقتنعـا بأنـه لا حـل غير الخيار الأردنى . كما أن لقاءاته المتكررة مع الملك "حسـين" والتى توزعت مواعيدهـا بـين القاهـرة وعمان والإسكندريـة والعقبـة أدت إلى انطبـاع عـام بـأن صداقـة وثيقـة ربطـت بين الرجلـين .

وفى خلفية الصـورة كان موقـف إسرائيل غـير مفهـوم فـى ظاهـره ، فقد بـدا وكأنهـا تضـع العقبات فى طريق الخيار الأردنـى ، ومن ذلك مثلا أنه حين حاول الملك "حسـين" أن يرتب لنفسه بدعوة مجلس النـواب الأردنى القديم ـــ بمن فيهم ممثلو الضفـة الغربيـة التـى كانت جزءا من مملكته قبل ١٩٦٧ ـــ كانت الحكومة الإسرائيلية بواسطة سـلطات الاحتـلال فى الضفـة الغربية هى التى امتنعت عن إعطاء الإذن للنـواب الفلسطينيين فى مجلس النـواب الأردنى بعبور الجسـر إلى عمـان . ورغم تدخـل حكومـة الولايـات المتحـدة فـإن "إسحاق شامير" ـ الذى أصبح رئيسـا لوزراء إسرائيل بعد مـرض "مناحم بيجـن" واعتزالـه ـــ أصـر على الرفـض .

ثم راح اتجاه الرياح يتأرجح لأن مصـر التى عادت إلى العالم الإسلامى والى العالم العربـى كان عليها أن تستعيـد بعض مواقفها المبدئية لتضفى قدرا من المصداقية علـى سياسـاتها لـدى

الشارع السياسى العربى . وقد ظهر ارتباك الأجواء فى مناسبة أكسبته معنى خاصا ، لأن المناسبة كانت أثناء اجتماع فى البيت الأبيض حضره كل من الرئيس "مبارك" والملك "حسين" مع الرئيس "رونالد ريجان" ، وكان القصد المقصود من هذا الاجتماع تدعيم حركة الملك "حسين". وحين جاء دور الكلام على الرئيس "مبارك" فإذا به يقول أمام الكل إنه "ليست هناك دولة عربية تستطيع أن تفاوض على الأرض الفلسطينية دون مشاركة الفلسطينيين أو موافقتهم ، لأن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى ."

ويقول وزير الخارجية الأمريكى "جورج شولتز"[٥] إنه هو والرئيس "ريجان" تضايقا من هذا التصريح الذى فاجأهما به "مبارك" ، وإنه لم يتردد فى مصارحة الرئيس المصرى بضيقه قائلا له "إنه يعتبر تصريحه غير مناسب ، وإنه يعرقل طريق السلام بدلا من أن يساعده ، كما أنه يتصور أن دافعه إلى ذلك التصريح هو رغبته فى تحسين صورة مصر فى العالم العربى ، وإننا كنا من العوامل المساعدة على عودة مصر ، لكننا لا نعتقد أن "ركوبه حصان عرفات الآن هو الجزاء المناسب" ." وقال "شولتز" إنه كان عنيفا مع "مبارك" ـ وإن "مبارك بدوره غضب منه" . وافترق الاثنان فى حالة خصام .

وكان الملك "حسين" بدوره متضايقا . وقد قال للسفير الأمريكى فى عمان ، وكان يرافقه فى الزيارة ، إن "حوار الأردن مع منظمة التحرير لن ينجح فى ظل هذه الأجواء" .

□

وكان الموقف الداخلى فى إسرائيل يؤدى دوره فى تعقيد المسائل . فالانتخابات العامة فى إسرائيل فرضت نظاما غريبا فى تداول السلطة بين حزب العمل وحزب الليكود ، وجرى اتفاق بين الحزبين على أن يتناوب كل منهما رئاسة الوزارة لمدة سنتين ثم تنتقل رئاسة الوزارة إلى الحزب الآخر . وبمقتضى هذا الاتفاق الغريب أصبح "شيمون بيريز" رئيسا للوزراء عن حزب العمل ، كما أن "إسحاق شامير" عمل معه وزيرا للخارجية على قاعدة أن يحدث تبادل للمراكز بعد سنتين فيصبح "شامير" هو رئيس الوزارة ويتحول "بيريز" إلى وزير للخارجية .

---

(٥) "الاضطراب والنصر" ـ مذكرات "جورج شولتز" ـ صفحة ٤٣٨ .

وأثناء توليه رئاسة الوزارة كان "بيريز" يلعب لعبته التقليدية التى مارسها من قبل وكررها من بعد ، وهو بمقتضاها يخيف مفاوضيه العرب من تصلب منافسه "شامير" ، وبالتالى يحضهم على التفاهم معه قبل أن يجىء "شامير" إلى رئاسة الوزارة .

وبهذا المنطق تقدم "بيريز" إلى القاهرة ينقل عن طريقها رسائل إلى منظمة التحرير ، وبنفس هذا المنطق تقدم من الملك "حسين" يعرض عليه استعداده للوصول معه إلى اتفاق ــ سواء كان لديه تفويض منظمة التحرير أو لم يكن . والحقيقة أن التفويض الذى كان الملك "حسين" يظن أنه حصل عليه من "عرفات" كان بالفعل قد فقد مفعوله . واضطر الملك "حسين" فى خطاب طويل يوم ١٩ فبراير ١٩٨٦ أن يروى قصة خلافه مع "ياسر عرفات" بالتفصيل وفشل كل محاولاته للوصول معه إلى موقف موحد تجرى المفاوضات على أساسه، وكان الملك لا يزال مقيدا بوعده للأمريكيين بأنه قادر على الوصول إلى اتفاق مع إسرائيل سواء سارت معه المنظمة حتى آخر الطريق أو توقفت فى منتصفه . والآن كانت المنظمة قد توقفت قبل منتصف الطريق ، واعتبر الملك "حسين" أنه فى حل من التصرف بمفرده ، وراح يتحرك على هذا الأساس .

ويوم ١٠ أبريل ١٩٨٧ التقى الملك "حسين" فى لندن مع "شيمون بيريز" الذى أصبح وزيرا للخارجية تحت رئاسة "شامير" بمقتضى اتفاقية التناوب بين حزبى العمل والليكود ، وتكررت لقاءاتهما ، وكان وزير الخارجية الأمريكى يتابع ترتيبات اللقاءات ، وبادر بإرسال المستر "وات كليفيريوس" إلى لندن ليكون موجودا قرب الملك "حسين" و"شيمون بيريز" إذا طرأت حاجة إلى وجوده . ولم تكن هناك حاجة إلى وجود وسيط أمريكى .

كان "شولتز" فى ذلك الوقت مقيدا بموعد مع "إدوارد شيفرنادزه" وزير خارجية الاتحاد السوفيتى الجديد ، وكان مكان اجتماعهما المقرر هو "هلسنكى" عاصمة فنلندا . وفوجىء "شولتز" بمبعوث خاص يصله برسالة من "بيريز" فى لندن . وكان هذا المبعوث هو "يوسى بيلين" المساعد المقرب من "شيمون بيريز" . وكانت رسالة وزير الخارجية الإسرائيلى التى حملها "يوسى بيلين" إلى "شولتز" مبالغة فى تفاؤلها ، ومؤداها : "إن بيريز توصل مع الملك حسين إلى اتفاق يعتقد وزير الخارجية الإسرائيلى أنه أكبر اختراق حققته إسرائيل منذ مؤتمر بلتمور فى مايو سنة ١٩٤٢" (حينما تعهد يهود الولايات المتحدة بالوقوف كتلة صلبة وراء دولة إسرائيل عند قيامها) . وطبقا لما نقله "بيلين" إلى "شولتز" فإن "بيريز" والملك "حسين" اتفقا على ما يلى :

١ ــ اتفق الطرفان على عقد مؤتمر دولى لبحث أزمة الشرق الأوسط .

٢ ــ واتفق الملك و"بيريز" على معظم نقاط التسوية السلمية بينهما تقريبا .

٣ ــ إن "بيريز" والملك "حسين" لم يوقعا أوراقا تبادلاها بينهما ، ولكن كلا منهما كتب ورقة بما توصلا إليه ، وكانت الورقتان متماثلتين ، ثم تصافحا "تدشينا لهذه اللحظة التاريخية" على حد ما نقل "بيلين" .

٤ ــ إن وزير خارجية إسرائيل والملك الأردنى اتفقا على أن يبدأ المؤتمر الدولى بدعوة يوجهها السكرتير العام للأمم المتحدة إلى الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن ، ومعهم الأطراف المعنية بمشكلة الشرق الأوسط ، إلى الاجتماع والتفاوض للتوصل إلى تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط تستند إلى قرارى الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨ ، وبما يحقق السلام لكل دول المنطقة ويستجيب للمطالب المشروعة للشعب الفلسطينى .

٥ ــ إن المؤتمر سوف يطلب إلى المشاركين فيه أن يقوموا بتأليف لجان ثنائية تبحث القضايا المعلقة بين الأطراف ، مثل قضايا الاعتراف والحدود وإمكانيات التعاون فى المستقبل .

٦ ــ وطبقا لما رواه "بيلين" وكتبه "شولتز" فى مذكراته[٦] فإن المؤتمر الدولى سوف يكون مجرد واجهة عامة مهمتها أن تقول للأطراف go ahead [٧] ــ أى "تقدموا" .

٧ ــ وفى مشروع الاتفاق بين "بيريز" والملك "حسين" أن المؤتمر الدولى لا يستطيع أن يفرض حلولا من جانبه أو يعترض على حلول يتوصل إليها الأطراف المباشرون .

٨ ــ إن القضية الفلسطينية سوف يتم بحثها والتفاوض بشأنها بين وفد مشترك أردنى ـ فلسطينى (ولا يشترط أن يكون الوفد الفلسطينى من منظمة التحرير) وبين وفد إسرائيلى، مع التعهد بقبول قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ ، والنص على نبذ العنف والإرهاب .

٩ ــ إن الاتفاقيات التى يتوصل إليها الأردن وإسرائيل سوف تكون موضوع معاهدة يوقع عليها الأطراف وتصبح ملزمة .

وروى "يوسى بيلين" لوزير الخارجية الأمريكى أن الملك "حسين" قال لـ "شيمون بيريز" إن "المنظمة مشكلته ، و"هو" مستعد أن يتعامل معها ، ولا بد للمنظمة أن تسير فى العملية أو تجد نفسها مطرودة خارجها" .

ثم نقل "بيلين" إلى "شولتز" رغبة "بيريز" فى أن يعتبر هذه الرسالة "بمثابة طلب رسمى من ملك الأردن ورئيس وزراء إسرائيل لكى تأخذ الحكومة الأمريكية بزمام المبادرة

---

(٦) "الاضطراب والنصر" ــ مذكرات "جورج شولتز" ــ صفحة ٤٣٨ .

(٧) كانت تلك فى الواقع طبعة مبكرة من مؤتمر مدريد ، سابقة للحوادث بخمس سنوات .

وتوجه السكرتير العام للأمم المتحدة ليتحرك فى اتجاه عقد مؤتمر دولى" . وأضاف "بيلين" : "إن كلا من الملك حسين وبيريز يريد أن يخرج اتفاقهما إلى العلن باعتباره مبادرة أمريكية" . ثم توجه "يوسى بيلين" برجاء منه إلى وزير الخارجية الأمريكى قائلا فيه : "من فضلك ، خذ هذه المبادرة فى يدك ولا تتركها لكى تتبخر" . ثم تقدم "بيلين" بطلب بدا لوزير الخارجية الأمريكى غير مألوف ، فقد رجاه باسم وزير الخارجية الإسرائيلى أن يقنع رئيس الوزراء "شامير" بهذه المبادرة . وسجل "شولتز" فى مذكراته "استغرابه" من أن يعرف هو بالاتفاق قبل أن يعرف به رئيس الحكومة الإسرائيلية، والأكثر غرابة أن يطلب وزير الخارجية الإسرائيلى منه هو أن يتدخل لدى رئيس وزراء إسرائيل .

□

لكن "إسحاق شامير" كان له رأى مختلف . فعندما اتصل به "جورج شولتز" يعرض عليه أن يجىء بنفسه إلى الشرق الأوسط لإجراء بعض الاتصالات تمهيدا لإخراج الاتفاق الذى توصل إليه الملك "حسين" مع "شيمون بيريز" فى لندن – فوجئ وزير الخارجية الأمريكى بأن "شامير" ليس متحمسا ، وقال إنه سمع بما جرى فى لندن ولم يعلق أهمية كبيرة عليه ، لكنه الآن ووزير الخارجية الأمريكى يحدثه فى الموضوع "يطلب مهلة للتفكير فى الموضوع كله" . ثم بعث إليه رسالة يقول فيها إنه لم يشأ أن يصده على التليفون ، لكنه لا يعتقد أن اتفاق "بيريز" و"حسين" فكرة طيبة . فذلك الاتفاق فى رأيه يدخل الأمم المتحدة فيما لا شأن لها به ، ثم إن عقده يخلق ضغوطا شديدة على إسرائيل لأن أصواتا دولية سوف ترتفع مطالبة بوجود منظمة التحرير طرفا فى المؤتمر بشكل من الأشكال .

وحاول "شولتز" أن يهدئ مخاوف رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى درجة أنه طلب منه أن يسمع من الملك "حسين" بنفسه ما يطمئنه إلى أن المؤتمر الدولى المقترح سوف يكون مجرد واجهة ضرورية للتغطية السياسية لموقف العرب ، وإن العمل الحقيقى سيجرى مباشرة بين الأطراف المعنيين أنفسهم ، وإن منظمة التحرير لن تتواجد فيه بأى صورة من الصور .

ويروى "شولتز" فى مذكراته أنه طلب إلى سفيره فى الأردن أن يقترح على الملك اتصالا مع "شامير" نفسه لكى يطمئن رئيس الوزراء الإسرائيلى . وقام السفير الأمريكى فى

عمان بإبلاغ الملك باقتراح "شولتز" ، وقال الملك - طبقا لمذكرات "شولتز" - "إنه سوف يرى ما يمكن عمله" .

وتشير الدلائل إلى أن الملك "حسين" اجتمع فعلا مع "شامير" فى العقبة فى أبريل ١٩٨٧ . وفيما يظهر من سير الأمور فإن الملك فشل فى إقناع رئيس وزراء إسرائيل بجدوى الاتفاق الذى توصل إليه الملك مع وزير خارجية إسرائيل . ويسجل "جورج شولتز" فى مذكراته[٨] أن وزير الدفاع الإسرائيلى "موشى أرينز" (من حزب الليكود) جاءه رسولا من شامير وقابله يوم ٢٤ أبريل ١٩٨٧ يحمل كل التفصيلات عن الرأى الأخير لرئيس الوزراء فى مشروع اتفاق "بيريز - حسين" .

نقل وزير الدفاع الإسرائيلى إلى "شولتز" أن "شامير" غاضب من اتفاق يجرى وراء ظهره ويُبرَم تقريبا دون علمه ودون علم مجلس الوزراء الإسرائيلى . ثم كرر كل حجج "شامير" التى سمعها "شولتز" قبل ذلك ، وأضاف إليها حجة جديدة واحدة وهى أن "مؤتمرا دوليا لبحث أزمة الشرق الأوسط سوف يكون معناه عودة الاتحاد السوفيتى إلى المنطقة مرة أخرى ، وهو ما يرفضه شامير رفضا قاطعا" . وتساءل "شولتز" عما إذا كان عليه الآن أن يفهم أن رئيس الوزراء الإسرائيلى قد رفض المشروع برمته ؟ - ورد عليه "أرينز" : "إن فهمك صحيح" . ولم يكن أمام "شولتز" إلا أن يقول : "إننى لا أوافق على حجج شامير . ومع اعتقادى أن أمامنا فرصة يمكن العمل على إنجاحها ، فليس أمامى إلا أن أقبل رأى رئيس وزراء إسرائيل . وبالتالى فمن حقى الآن أن أملأ جدول مواعيدى هنا فى واشنطن ولا أحجز منه أياما أقضيها فى الشرق الأوسط ."

وأسر وزير الدفاع الإسرائيلى إلى صديقه وزير الخارجية الأمريكى بأن "شامير" يفكر فى محادثات مباشرة مع الملك "حسين" بدلا من كل هذا اللف والدوران حول فكرة مؤتمر دولى لحل أزمة الشرق الأوسط .

كانت فكرة المؤتمر الدولى التى حاول "شامير" خنقها فى المهد لا تزال تتنفس قرب نهاية العام . وفى الاستعداد لدورة الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٨٧ ، كانت وزارة الخارجية السوفيتية التى سمع وزيرها "إدوارد شيفرنادزه" بمشروع اتفاق "حسين - بيريز" من "شولتز" أثناء لقائهما السابق فى "هلسنكى" ، تفكر فى تنشيط المبادرة وإعادتها للحياة فى صورة جديدة . وفى لقاء بين "ميخائيل جورباتشوف" و"رونالد ريجان" يوم ١١ سبتمبر ١٩٨٧ فى واشنطن عرض "جورباتشوف" على الرئيس الأمريكى تصورا سوفيتيا مُعَدّلا .

---

(٨) "الاضطراب والنصر" - مذكرات "جورج شولتز" - صفحة ٩٤١ .

كان السوفيت على استعداد لتفهم مخاوف "شامير" من مؤتمر دولى موسع ، ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يرون أهمية الغطاء السياسى الذى يمكن أن تقدمه فكرة المؤتمر الدولى للأطراف العربية . وكان التصور الجديد الذى توصلوا إليه هو أن يقوم كل من رئيسى الولايات المتحدة "رونالد ريجان" ، والاتحاد السوفيتى "ميخائيل جورباتشوف" ، بتوجيه دعوة إلى رؤساء الدول المعنية بأزمة الشرق الأوسط لعقد اجتماع تحت رعايتهما وباشتراكهما . وبذلك فإن اللقاء يمكن تقديمه لـ "شامير" ولغيره باعتباره مؤتمر قمة وليس مؤتمرا دوليا . وحتى إذا دعى إليه السكرتير العام للأمم المتحدة فإن دعوته يمكن أن تتم بوصفه مراقبا وليس بوصفه منظما للمؤتمر وراعيا له ، وإنما يظل الأمر فى يد القوتين العظميين . وكانت الصورة العامة بعد هذه المقدمة لا تختلف كثيرا عما توصل إليه الملك "حسين" و"بيريز" ، فهو مؤتمر قمة واسع يكون مجرد مظلة لمحادثات ثنائية بين الأطراف تنتهى باتفاقيات يتوصلون إليها لتسوية كل القضايا المتشابكة بينهم .

وبدا الرئيس "ريجان" مقتنعا بالفكرة ، وعندما نقلها إلى وزير خارجيته "جورج شولتز" كان تحفظه الوحيد أنه يخشى أن "شامير" سوف يكرر رفضه ، وحجته الجاهزة دواما هى وجود الاتحاد السوفيتى فى تسوية أزمة الشرق الأوسط . ومع ذلك رأى "ريجان" أنه لا ضرر من المحاولة . وهكذا فإن "شولتز" جاء إلى المنطقة فى زيارة جديدة لها يحاول فيها تحريك الأمور على أساس الصورة السوفيتية الجديدة .

ويروى "شولتز" فى مذكراته[9] أنه عرض الفكرة على "مارجريت تاتشر" رئيسة وزراء بريطانيا وقتها ، وأعجبت "تاتشر" بالفكرة لكنها حذرت "شولتز" بلغة أقرب ما تكون إلى لغة "شامير" قائلة : "إنك تريد أن تحاصر شامير ، ولكن حاذر أن تجد نفسك مطوقا من "جورباتشوف". ومضى "شولتز" فى تجربة حظوظه فى الشرق الأوسط من جديد .

وفى إسرائيل كان "شامير" مزعجا فى تحفظاته وملحا فيما طلب من ضمانات ، لكنه فى النهاية وصل إلى أن يقول لـ "شولتز" : "إنك تعرف آمالنا وتعرف كوابيسنا ، ولك أن تتصرف ، وسوف نرى ما تسفر عنه الأمور" .

وسافر "شولتز" من القدس إلى لندن على موعد مع الملك "حسين" . ويقول "شولتز" فى مذكراته : "إن نذر التشاؤم وصلت إلى قبل أن ألتقى بالملك حسين ، فقد أبلغتنى زوجتى على التليفون من نيويورك بأن الأسواق العالمية انهارت ، وأن مؤشر داو جونز فى بورصة نيويورك هبط مرة واحدة بمعدل ٥٠٨ نقطة" . (كانت تلك كارثة الأسواق المالية الشهيرة فى أكتوبر ١٩٨٧) .

---

(٩) المصدر السابق ـ صفحة ٩٤٦ .

وحينما جاء موعد وزير الخارجية الأمريكى مع الملك فوجئ "شولتز" بأن الملك "حسين" عاوده "تردده المزمن" ، وقد أبدى لذلك سببين واضحين :

- الأول أنه يجد من الصعب عليه أن يتعامل مع "شامير" . ونقل "شولتز" عن الملك قوله له "إننى أخاف أن أتواجد فى غرفة واحدة مع هذا الرجل" . وكان اعتقاد الملك جازما بأن "شامير" لن يدع أية محادثات تتوصل إلى اتفاق يمكن أن يكون مقبولا من الفلسطينيين ، وإن موافقته التى أعطاها لوزير الخارجية الأمريكى على مضض جاءت لتجنب غضب الرئيس "ريجان" وليس عن رغبة فى اتفاق مع العرب .
- والسبب الثانى أنه لا يعتقد من معرفته بـ "شامير" أنه مستعد لقبول انسحاب إسرائيلى من شبر واحد من الضفة الغربية . وبالتالى فإنه حتى إذا تم اجتياز مرحلة إعلان المبادئ فإن الحديث عن التفاصيل ، وضمنها ضرورة انسحاب إسرائيل من بعض الأراضى - سوف يتعطل وفى الغالب لن يحدث .

وكان هناك سبب آخر لدى الملك لم يقله صراحة ، وهو شكه فى أن الاتحاد السوفيتى سوف يمشى فى الفكرة إلى النهاية ، ذلك لأن سوريا سوف تعارض أغلب الظن ، والاتحاد السوفيتى سوف يجد نفسه مضطرا إلى مسايرة سوريا ، ومن ثم يرتطم الموضوع كله بالصخور . وذلك سوف يؤثر عليه بأكثر مما يؤثر عليه الجمود الحالى فى حل الأزمة .

وأحس وزير الخارجية الأمريكى بحالة إحباط شديد . وروى لمستشاريه ما دار بينه وبين الملك ، ثم بلغ به الضيق إلى حد أن طلب منهم أن يمزقوا كل الأوراق والمذكرات التى جرى إعدادها لأن أزمة الشرق الأوسط ليست بعد جاهزة للحل .

□

وكان مسرح الشرق الأوسط مهيأ ومثقلا ، فقد دخلت حرب الخليج الأولى إلى قرب مراحلها النهائية ، واحتدمت حرب الصواريخ بين العراق وإيران ، كما جرى استعمال الغازات السامة فى المعارك دون حساب ، ثم إن الولايات المتحدة كانت متورطة إلى النهاية فى تزويد إيران بالأسلحة طبقا لما ظهر من تفاصيل فضيحة "إيران - كونترا" .

وكذلك كشفت وقائع هذه الفضيحة أن دولا عربية كثيرة كانت فعلا تلعب بالنار ، وانهمك بعضها فى عمليات اختلطت فيها أعمال الجاسوسية ، بعمليات بيع النفط ،

بتجارة السلاح ، بتهريب المخدرات ، بالوساطة فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى إلى درجة جعلت مواقع صنع القرار فى العالم العربى أشبه ما تكون بمستنقعات حل فيها العطن . وكانت الساحة على هذا النحو مجالا مفتوحا لجنون أى مغامر من وكالة المخابرات المركزية أو من مجلس الأمن القومى الأمريكى ـ وهذا بالفعل ما قام به الكولونيل "أوليفر نورث" (نائب رئيس مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض) .

ويروى "روبرت ماكفرلين" مستشار الرئيس "ريجان" للأمن القومى لسنوات متصلة من حقبة الثمانينات فى مذكراته :(١٠)

"جاءنى أوليفر نورث يقول إنه من الضرورى لنا أن نساعد جهود جماعات الكونترا المعادية لنظام الساندنستا فى نيكاراجوا ـ وكان فى حاجة إلى أموال لا يكون علينا أن نقدم عنها حسابا إلى الكونجرس . واقترح أن نحصل على هذه الأموال إما من إسرائيل أو من السعودية . واتصلنا بالإسرائيليين فعلا لكنهم رفضوا الطلب . وقمت بعد ذلك بالاتصال بالأمير بندر بن سلطان (سفير السعودية فى واشنطن) وقلت له : إن السعودية حليف قوى للولايات المتحدة وعدو لدود للماركسية ، وهى معنا فى صف واحد فى مقاومة "التغلغل الثورى" فى العالم كله وليس فى الشرق الأوسط فحسب . واقترحت عليه بداية أن نتعاون فى أفغانستان حيث يوجد ١٠٠ ألف جندى سوفيتى . وأبدى لى الأمير بندر أن السعودية مهتمة مثلنا "بدفع الماركسية إلى الوراء" . وهكذا استطعنا إنشاء صندوق مشترك يوضع فيه سنويا ٥٠٠ مليون دولار لمساعدة المجاهدين الأفغان على هزيمة الجيش السوفيتى . وفيما بعد ذهبت لزيارته فى بيته المطل على نهر البوتوماك فى فيرجينيا ، وتحدثت معه فى موضوع "التغلغل الثورى" فى أمريكا اللاتينية . وقلت له إن نجاحنا فى إسقاط حكومة الساندنستا فى نيكاراجوا يمكن أن يساعد على نجاح الرئيس رونالد ريجان فى انتخابات الرئاسة الثانية القادمة . وأبديت له أننا عاجزون عن توفير مبلغ مليون دولار شهريا يحتاجها المقاتلون ضد نظام الساندنستا، لأن الكونجرس سوف يرفض أى اعتمادات نطلبها ، ونأمل أن تساعدنا بلاده فيما نريد . وأبدى بندر استعداده لمخاطبة الملك فهد فى الأمر . وبعد أسبوع اتصل بى ليقول : "إن الملك فهد وافق ، وإنه فى زيارته المقبلة بعد أسابيع قليلة سوف يقدم المبلغ بنفسه" . وبالفعل ، فإنه فى اليوم المحدد للقاء بين رونالد ريجان وبين الملك فهد طلب الملك أن ينفرد وحده مع الرئيس ريجان . وحدث ذلك لمدة خمس دقائق . وفى اليوم التالى مرّ علىّ الأمير بندر ليبلغنى همسا

---

(١٠) "ثقة من نوع خاص" ـ مذكرات "روبرت ماكفرلين" الصادرة عن دار "كاديل ويفيز" سنة ١٩٩٤ ـ صفحة ٦٨ .

أن الملك قدم للرئيس ريجان ٢٥ مليون دولار مساعدة لجماعات الكونترا يوجهها الرئيس ريجان كيفما يشاء ." (دون حاجة إلى الكونجرس واعتماداته وحساباته) .

وبقدر ما كان ذلك غريبا فإنه لم يكن جديدا ، فاستعمال المال خارج الرقابة وفوق الحساب أسلوب أدخلته السياسة الأمريكية في المنطقة بطريقة شبه منظمة ، وذلك منذ منتصف السبعينات وحين بدأ الكونجرس يحجب موافقته على كثير من اعتمادات العمل السرى في الشرق الأوسط وأفريقيا وغيرهما . وكان أن لجأت الحكومة الأمريكية ، وبالتحديد مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض ، إلى دول صديقة غنية لتموّل لها عمليات سرية يجدها الرئيس ومستشاروه لازمة لأمن الولايات المتحدة .

وفي الثمانينات كان ما بدأ في السبعينات قد بلغ حدودا يصعب تصورها . وكانت الممارسات قابلة للعدوى في المنطقة . ولعل المنطقة لم تكن ساكتة في انتظار أن تصلها عدوى اللا رقابة واللا حساب .

لكن الإضافة التي جاءت بها الممارسات الأمريكية كانت لها قوة "ترسيخ" و"تأصيل" ــ فإذا كانت أكبر الديمقراطيات تدير سياساتها على هذا النحو ـ إذن فإن الممارسة ليست سليمة فقط ـ بل هي أسلوب العصر "في نظام عالمي جديد" !

وتحولت المهام السياسية إلى نوع من عمليات المقاولات ، وشارك كثيرون ، وبهتت الخطوط بين القانون والجريمة ، وتلاشت الفواصل بين وسائل العمل السياسي ووسائل عصابات المافيا .

وفجأة أثبت التاريخ قدرته على التنبيه والتحذير .

فجأة ، وفي أوائل شهر ديسمبر ١٩٨٧ ــ اندلعت نيران الانتفاضة في قطاع غزة ، ومنه انتشرت إلى بقية الأرض المحتلة .

٤

أطفـــال الحجـــارة

" لا أستطيع أن أقبل بأن يتحـول الجيـش الإسرائيلى إلى قوة بوليس تطـارد أطفـالا فـى إحدى مـدن العالـم الثالـث "

("إسحاق رابين" وزيـر الدفاع الإسرائيلى)

كانت الانتفاضة مشهـدا إنسانيا جليـلا ، وكان أعظـم ما فيه أنه جـاء طبيعيا والى درجة تكاد تكون تلقائيـة . وهذا هو الذى يحـدث عادة عندما تجـد الشعـوب نفسـها فـى مواجهـة مصائرها ، ويكون عليها فى لحظـة من اللحظات أن تقـف وتثبـت اسـتحقاقها للحيـاة ، أو تركـع وتتخلى عن الحياة ذاتها . لقد بـدأ المشـهد الجليـل للانتفاضة بطفـل صغـير عمـره تسع سنوات شاهد سيارة عسكرية إسـرائيلية تحاصـر شـارعا فـى غـزة ، وإذا هـو بطريقـة عفويـة يمـد يـده إلى الأرض يلتقط حجـرا ثم يقـذف به فى اتجاه السيارة الإسرائيلية . وتبعـه صبيـة مثلـه . وفى ظرف ساعات كان أطفال الحجارة قد دخلوا المعركة دون تدبير أو تخطيـط أو هـدف إلا المقاومة فى حـد ذاتها مستمدة من إرادة الحيـاة .

كـانت الانتفاضـة علـى هـذا الشـكل عمـلا عبقريـا استمـد كـل عنـاصر قوتـه مـن وضـع راهـن متدهـور ومهـترئ ، لكـن عبقريـة الفعـل كـانت بـالضبط هـى ظـروف حركته ووسـائل هـذه الحركـة :

● لقد توصل أطفـال الحجـارة إلى أسـلوب فـى الحـرب لا يحتـاج إلى إمـدادات أو تجـارة سـلاح ، ولا صفقـات ذخـيرة ، ولا خطـوط تموين ، ولا قواعـد خلفيـة ، ولا دعـم خـارجى ، ولا علاقـات دوليـة . فالأحجـار مـلء الطـرق والتـلال فـى غـزة ، والمقـاتلون بهـا من الأطفال ليس عليهـم إلا أن يمـدوا أيديهـم ليلتقطوهـا ويقذفـوا بهـا نحـو أعدائهـم .

● وهذا النوع من الحرب التلقائية لا يملك أحد سيطرة عليها بحيث يوقفها أو يتصاعد بدرجتها ، أو يستخدمها لأغراضه السياسية أو الحزبية . وبالتالى فإن تلقائيتها واستغناءها عن كل وسائل الحرب التقليدية أعطياها أجنحة حرة حلقت بها عاليا وبعيدا .

● وهذا النوع من حرب أطفال الحجارة أسلوب فى المقاومة تصعب مواجهته بالسلاح الفتاك لأعدائه ، فلا السلاح النووى الإسرائيلى ولا الطائرات ولا الصواريخ ولا المدفعية جاهزة للعمل ضد أطفال يلقون بالحجارة على القوافل الإسرائيلية وجنودها .

● وتلقائية الانتفاضة جعلتها حركة بلا قيادة يمكن الضغط عليها بملاحقتها أو بحصارها أو باعتقالها ، فإذا تحقق ذلك انطفأت النار وهدأت الأمور . وهكذا فإن الانتفاضة كانت كتلة هائلة بغير رأس وبغير مركز . وهذا أعطاها قدرة هائلة على التحرر من أى قيد .

● إن مشاهد حرب الحجارة تحولت بكل صورها الإنسانية إلى رسالة مؤثرة بالنسبة للعالم كله . فحين وجد الجيش الإسرائيلى أنه لا يملك وسيلة غير الرصاص يطلقها على أطفال الحجارة، فإن مشهد الأطفال والصبية والشباب المستعدين للموت عزلا إلا من الحجارة فى مواجهة المصفحات والمدافع الرشاشة الإسرائيلية أصبح رسالة مؤثرة واصلة إلى قلب العالم ومنه إلى عقله .

وفى خلال أسابيع قليلة نجحت الانتفاضة فى لفت الأنظار إلى القضية الفلسطينية بأكثر مما نجحت كل المنظمات والحركات والميليشيات وعمليات خطف الطائرات واحتجاز الرهائن ، وكذلك الخطب والبيانات والمؤتمرات الشعبية والرسمية .

فجأة استيقظ العالم وإذا الشعب الفلسطينى ثورة إنسانية تقاوم بالحجارة وتتلقى الرصاص .

وبالنسبة للعرب جميعا فإن الرمز المقدس كان حيا ومرئيا . فرجم الشيطان بالحجارة طقس متغلغل فى العقائد الدينية ، ونافذ منها إلى الوعى الثقافى والحضارى بمقاومة الشر ومحاربته بكل ما تصل إليه الأيدى .

وهكذا فإن تأثير الانتفاضة على العالم الخارجي وعلى العالم العربى تداخلت فيه مشاعر الوطنية والعقيدة ، والدين والتاريخ ، والإيمان والحرية .

وكان مشهد العملاق الإسرائيلى مثيرا للازدراء . ففى البداية حاول الإسرائيليون التقليل من أهمية الانتفاضة واعتبروها نوعا من العبث . وعندما أصبح إلقاء الحجارة حربا واسعة النطاق فإن الجيش الإسرائيلى راح يضع وسائله التكنولوجية المتقدمة فى مواجهة تكنولوجيا

بدائية لا تكلف أصحابهـــا شيئا إلا حـياتهم ، وكـانوا مسـتعدين أن يجـودوا بهـا طواعيـة وبـدون خـوف .

وحين أحس الجيش الإسرائيلى بأن المشهد الإنسانى للانتفاضـــة يجـد طريقـه بسـهولة ويسـر إلى قلـب العالم ويحمل معه مأساة الشعـب الفلسطينى ، فإنهم أرادوا قمعهـا بسرعـة . وانطلقت الرشاشات من فوق المصفحات تغطى ميادين وشـوارع بأكملهـا فـى غـــزة ، وسقــط قتلـى وجرحـى . لكن الهـدف الذى تحقـق بالرصاص كان يعطـى للانتفاضة ولا يأخـذ منها، فصـور الأطفال والصبيـة والشباب الأعـزل إلا من الحجارة ، والمضـرج بالـدم جرحـا أو قتـلا بالرصاص الإسرائيلى أعطت لرميـة الحجر قداسـة الشهـادة .

ولجأت إسرائيل إلى وسيلة أخـرى ، فقـد راحـت تلقـى القبـض علـى الأطفـال والصبيـة والشباب وتقوم بتكسير عظام سـواعدهم عقابـا لهـم علـى اسـتعمالها فـى قـذف الحجـارة ، وتطبيقا لمبدأ العين بالعين والسـن بالسـن والسـاعد بالسـاعد . وكـانت النتيجـة أيضـا لغـير صالح إسرائيل .

ثم لجـأت إسرائيل إلى أسلوب آخـر واعتبرت أنها توصلت إلى اختراع مثـير حين قـامت بتصنيع قذائف البلاستيك ، تصيـب دون أن تجرح وتقتـل دون أن تسيل دمـا . ومرة أخرى خسرت إسرائيل باختراعها وربـح أطفـال الحجـارة .

وكان المشهد الإنسانى للمقاومة قد استدعى إلى قطاع غـزة والى الضفـة الغربية عشرات من رجـال الإعـلام : تلفزيـون وإذاعـة وصحافـة . وإذا قصـة أطفـال الحجـارة مـلء الشاشـات والموجات والصفحات ، وإذا العالم كله يعطـى تعاطفه للانتفاضة ويسحب كثيرا مـن تسليمـه للدعاية الإسرائيلية التى ألحـت عليـه سنين بمقـولات الإرهـاب العربـى والقتلـة العـرب ومختطفى الطائرات والرهائـن .

لم يكن المشهد جليلا فقط ، وإنما كان أيضا جديدا فى كل شـىء . فقـد بـدت إسـرائيل لأول مرة فى تاريخها تواجـه شبـه عزلـة تباعد ما بينها وبين الرأى العام الغربى ذاته . فقـد ظهـر الجيش الإسرائيلى ـ الكـــفء دوامـا والمقتـدر ــ أداة للقتـل لا أكـثر ولا أقـل . وعـبر "إسحاق رابين" ـ وهو وقتها وزير الدفاع فى حكومة "شامـير" ـ عن مأزق الجيـش الإسـرائيلى فى عـبارتين شهـيرتين قـال أولاهما فى بداية الانتفاضة ، ونطـق بالثانية فـى حالـة يـأس من إخمادهـا .

فى المرة الأولى قـال "رابين" مهـددا أطفال الحجارة : "سوف نكسـر ونسحـق عظامكم" . وفى المرة الثانية كان قولـه : "إن الجيش الإسرائيلى لا يمكن تحويله إلى قـوة بوليـس تطـارد أطفالا فى شـوارع مدينـة فقـيرة من مـدن العـالـم الثالـث" .

ومع بدايات سنة ١٩٨٨ كانت مراكز البحث في الجيش الإسرائيلي تقول لوزير الدفاع "إسحاق رابين" ولرئيس الوزراء "إسحاق شامير" إن الانتفاضة تحتاج إلى حل سياسي وليس إلى حل عسكري . وكان "رابين" في أعماقه قد توصل إلى نفس الاقتناع .

□

في تونس فوجئت منظمة التحرير بقيام الانتفاضة ، وكانت هناك حيرة في تفسير أسباب قيامها ، وأي القوى تحركها ، وما هي تأثيراتها الممكنة والمحتملة على موازين القوى بين الفئات الفلسطينية المتعددة والمختلفة والمتصارعة أحيانا ؟

وفي البداية حاولت المنظمة أن توحي بأن الانتفاضة مشهد ثانوي من مشاهد العمل الفلسطيني . لكنه عندما تحولت الانتفاضة وملأت ساحة العمل الفلسطيني على الأرض المحتلة ذاتها ، فإن الخوف من الظهور بالعجز والخشية من أن تبدو منظمة التحرير في صورة من تجاوزته الحوادث وتخطاه الواقع - دفعت بقيادة منظمة التحرير إلى أسلوب آخر راحت بمقتضاه تتظاهر بأن الانتفاضة خطة مقررة وأنها تحركت وفقا لتوجيهات تقررت وصدرت ، وأوامر وصلت وأطيعت . ولم يكن ذلك صحيحا ، بل وكان يحمل قدرا كبيرا من التجني على قدرات الشعب الفلسطيني نفسه في لحظة نبيلة من تاريخه .

ووصل الأمر إلى درجة أن الرئيس "حسني مبارك" قال للسيد "ياسر عرفات" ذات يوم : "يا أبو عمار ، إني قرأت لك تصريحا تقول فيه إنك أعطيت الأمر بالانتفاضة ، وذلك ظلم للأولاد والشباب ـ لأن تصوير تضحياتهم وكأنها حدثت "بالأمر" ليس حقيقيا. وحتى إذا كان حقيقيا فمن مصلحتك ومصلحة الشعب الفلسطيني أن تظهر الانتفاضة أمام العالم كثورة شعب دفعه اليأس إلى قبول التضحية بأبنائه ."

وخفتت نغمة أن "الانتفاضة قامت بالأمر" ، وحل محلها نوع من القلق الخفي على مسار الحوادث نتيجة لها . فاستمرار الانتفاضة وعلو شأنها كان يمكن أن يفرزا في الداخل قيادة للانتفاضة تظهر لأداء دورها بحكم ضرورات الأشياء . وإذا ظهرت مثل هذه القيادة فإن التساؤل الكبير الذي سيطرح نفسه سوف يكون عن علاقة قيادة الداخل المسلحة بالحجارة مع قيادة الخارج التي كانت مأخوذة في ذلك الوقت بالصياغات والكلمات .

وإذا كانت الأمور في مجمل الصورة العامة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت سائرة في اتجاه حل يتم التفاوض عليه ، فمن الذي سيتفاوض وقتها ؟ قيادة الانتفاضة المحتملة

والموجودة حينئذ على الأرض ــ أم قيادة المنظمة المغتربة فى المنفى والبعيدة عن الأرض بآلاف الكيلومترات ؟

وتكفلت وقائع الحال بإعطاء المنظمة دورا فى دعم الانتفاضة ، ذلك أن قيام الجيش الإسرائيلى بحظر التجول فى المدن الفلسطينية التى شهدت مواقع معارك الحجارة وتكسير العظام ما لبثت أن وجدت نفسها تواجه مشكلة اقتصادية ضاغطة ــ فالتجارة معطلة ، والخدمات متوقفة ، ومؤسسات الإدارة المحلية ليس عندها ما تأخذه أو تعطيه .

كان المال موجودا بوفرة لدى المنظمة ، وكانت هى الجهة المسئولة أكثر من غيرها على توصيله داخل الأرض المحتلة بصرف النظر عن الصعوبات والمخاطر . ووجدت المنظمة بالفعل خطوط أنابيب للتوصيل وإن كانت تكاليفها عالية . فقد تكفل بعض المسافرين، حتى من الأجانب ، بأن يحملوا مبالغ نقدية بالعملات المحلية والأجنبية يسلمونها إلى أشخاص عينوا بالذات وبالاسم لتسلم ما يحمله هؤلاء المسافرون . بل إن المنظمة استطاعت تجنيد بعض الضباط الإسرائيليين أنفسهم لتوصيل مبالغ كبيرة من الخارج إلى الداخل ، لكن التكلفة كانت عالية لأن هؤلاء الضباط أخذوا لأنفسهم ضريبة جهدهم ، كما أن بعضهم "زاغ" بالكامل حاملا معه ما تعهد بتوصيله فى مقابل جزء منه .

وعلى سبيل المثال فإن أحد الضباط من القطاع الشمالى تسلم نصف مليون دولار ليسلمها إلى شخص فى الداخل لكنه لم يسلم إلا ١٥٠ ألف دولار واحتفظ لنفسه بالباقى . ثم إن أحد موظفى بلدية حيفا تسلم فى إحدى العواصم الأوروبية مبلغ ٤٠٠ ألف دولار ، واختفى بعدها ولم يعثر له على أثر .

وكانت النماذج متكررة . وفى الحساب الدقيق فإن ثلاثة أرباع المبالغ التى بعثت بها المنظمة من الخارج إلى الداخل فقدت فى الطريق ولم يصل غير الربع . لكن وصول أى قدر من الأموال أعطى لمنظمة التحرير بشكل أو آخر صلة ما بالانتفاضة ، وكانت تلك إضافة إلى أرصدتها السياسية فى وقت كانت فيه هذه الأرصدة تواجه مشكلة تناقص سريع .

□

وكان هناك سبب إضافى لقلق منظمة التحرير فى تونس مما يجرى داخل الأرض المحتلة ، لأن هذه الفترة ــ النصف الثانى من الثمانينات ــ كانت بالضبط هى الفترة التى ظهرت فيها حركة "حماس" ذات الاتجاه الإسلامى الواضح بزعامة مؤسسها الشيخ

"أحمد ياسين" ، والتى ترجع أصولها إلى تنظيمات حركة "الإخوان المسلمين" التى كان تمركزها الكثيف فى غزة راجعا إلى حقيقتين :

الأولى : إن قطاع غزة كان منذ حرب فلسطين ١٩٤٨ تحت الإدارة المصرية ، وذلك جعل من القطاع امتدادا بشكل ما للأجواء السائدة فى مصر . ولما كانت مصر هى المنشأ الأصلى لحركة الإخوان المسلمين فإن امتداد الحركة إلى قطاع غزة كان أمرا طبيعيا ومنطقيا .

والثانية : إن الكتلة السكانية الأساسية فى قطاع غزة كتلة مسلمة سنية . وبالتالى فإن هذا التجانس الدينى جعل من السهل على حركة إسلامية سنية أن تؤسس قواعدها دون عناء أو محاذير مما قد يسببه التباين الدينى بين السكان .

وبعد احتلال إسرائيل لقطاع غزة فإن نشاط الإخوان المسلمين فى القطاع هدأ لبعض الوقت . ثم بدأت الحياتان السياسية والاجتماعية تنشطان فى غزة عندما عادت روح المقاومة إلى الشعب الفلسطينى . وبرزت منظمة "فتح" تحاول تحريك الجماهير الفلسطينية . وكان الزعيم الفلسطينى "أبو جهاد" ، وهو بالمولد والنشأة من غزة ، على صلة بالتيار الإسلامى ، وقد أدرك أهمية تعبئة المشاعر الدينية لمواجهة الاحتلال . وفى هذه الأجواء بدأ الشيخ "أحمد ياسين" حركته ، وقصرها فى البداية على العامل التربوى الاجتماعى . ومن المفارقات أن السلطات الإسرائيلية ـ بمن فى ذلك وزارة الدفاع ووزيرها فى ذلك الوقت "إسحاق رابين" ـ لم تجد مانعا من التصريح لتنظيم إسلامى باسم "حماس" بالعمل فى قطاع غزة . وكان الظن أن توجهات الشيخ "أحمد ياسين" التربوية والاجتماعية سوف تصرف الحركة عن النشاط السياسى ، وإنها إذا اقتربت من السياسة فسوف تجد نفسها على أغلب الظن منافسة لحركة "فتح" وليست مكملة لها .

وفى أجواء الثمانينات تأثرت حركة "حماس" بالثورة الإسلامية فى إيران ، ثم وجدت نفسها تستجيب إلى الدعوة الرائجة فى ذلك الوقت لمساعدة مجاهدى أفغانستان . وكانت حركة الإخوان المسلمين بصفة عامة مهتمة "بالجهاد فى أفغانستان" . لكنه فى أجواء غزة واشتداد حدة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال ، مع زيادة القمع الإسرائيلى ـ فإن "حماس" وجدت نفسها فى مأزق يفرض عليها مراجعة نفسها والبحث عن روحها ، خصوصا وقد راح كثيرون يعايرونها بانشغالها بقتال الروس فى أفغانستان وامتناعها عن مقاومة الإسرائيليين داخل وطنها فلسطين .

ووجدت "حماس" روحها وكذلك وجدت طريقها ، وراحت تتحول يوما فيوما من العملين التربوى والاجتماعى إلى العملين السياسى والإعلامى . ثم لم تلبث قوة المشاعر والحوادث فى غزة أن جذبتها إلى مجال العمل العسكرى . وفى البداية لم تتنبه السلطات

الإسرائيلية إلى التحول الكبير الذى طرأ على حركة "حماس" فى النصف الثانى من الثمانينات ، فهى الآن تبنى لنفسها قاعدة عسكرية فى الأرض المحتلة ، وفى تلك الفترة حدثت احتكاكات بين أنصار "فتح" وأنصار "حماس" . ويصف تقرير سرى لمنظمة التحرير هذه الفترة وتناقضاتها الظاهرة والخفية فيقول :(١١)

"إن إسرائيل كانت لا ترغب فى التفاوض أو إجراء أى اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وكانت تسعى وتعمل جاهدة لكى تخلق كيانا بديلا عن منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها على أمل التفاهم معه مستغنية عن المنظمة . ولهذا كانت تغض النظر عن أى تحركات أو نشاطات لجماعة الإخوان المسلمين ، وهذا ما كان يحدث فعلا فى الاحتفالات الجماهيرية وخاصة فى قطاع غزة حيث سقط العديد من القتلى والجرحى فى تلك الصدامات . وكانت إسرائيل تقف موقف المتفرج ، بل كانت تساعد الإخوان المسلمين فى تسهيل حركتهم لوصول النجدة إليهم من المناطق المحتلة عند أى صدام ، والانسحاب من بعض مخافر الشرطة وترك السلاح فيها لتستولى عليه جماعة الإخوان المسلمين لاستعماله فى الصدامات (مع عناصر المنظمة) ، ثم تعود السلطات الإسرائيلية وتسترجعه بعد الانتهاء من الاشتباكات ."

ثم يمضى تقرير منظمة التحرير يصف أجواء مرحلة تالية فيقول :

"وجاءت انتفاضة شعبنا فى نهاية ١٩٨٧ لتفجر ثورة جماهيرية عارمة ضد الاحتلال . وكانت انطلاقة حركة حماس . وبدأ العدو الإسرائيلى يتغاضى عن نشاطها لدرجة أن الإعلام الإسرائيلى أخذ "يقوم بتلميع" الزعيم الروحى لحماس الشيخ أحمد ياسين عندما يشن هجماته على قيادة المنظمة وعلى شخص الرئيس عرفات بالذات ."

ثم يستطرد تقرير منظمة التحرير ، فيصف أجواء مرحلة ثالثة فى تطور حركة "حماس" فيقول :

" لكن الأمور لم تبق تحت السيطرة الإسرائيلية نتيجة ظهور تيار متشدد فى حماس ضد أى مساعدة تقدمها إسرائيل لهم مهما كانت هذه المساعدة . ولأن الشارع الفلسطينى يتهمهم بأنهم يعملون بإيعاز من السلطات الإسرائيلية ، فلا بد إذن من وقف هذه المهزلة والسعى الجاد لمقاومة الاحتلال مقاومة مسلحة . ومن هنا تمردت حماس وبدأت تعيد بنيانها بسرية مطلقة وبتشكيل المجموعات

---

(١١) تقرير سرى للتداول الداخلى فى منظمة التحرير عنوانه "حركة المقاومة الإسلامية ـ حماس" .

العسكرية المسلحة لشن عمليات جريئة ضد القوات الإسرائيلية . وهكذا أصبحت حماس تكسب الشارع الفلسطيني والشارعين العربي والإسلامي ، وبدأت شعبيتها تزداد يوما بعد يوم لدرجة أنها زاحمت منظمة التحرير في بعض الفترات ."

☐

نتيجة ذلك كله فإن منظمة التحرير في تونس وجدت نفسها بين شقي رحى : انتفاضة شعبية عفوية في غزة يقوم بها أطفال الحجارة ، ثم حركة إسلامية مسلحة تقاوم الاحتلال داخل الأرض المحتلة تقودها "حماس" . وكان داعي القلق أن تتمكن "حماس" من السيطرة على الانتفاضة ، ومن ثم تصبح هي القيادة الواقعية للشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة ، ومن خلال المقاومة المسلحة للاحتلال .

وربما أن عناصر في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كانت تكرر دون وعي ذلك الشعور الذي راود بعض القادة العرب خلال انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ - حين كان خوفهم من نصر يتحقق بقوة "الناس" من جماهيرهم وجيوشهم لا يقل عن خوفهم من هزيمة توجه إليهم من قوة إسرائيل وجيشها !

كانت المنظمة تشعر مرة أخرى بأن الوقت ليس في صالحها ، وبأن الحل الطويل الأمد للمشكلة الفلسطينية ، وكذلك الحل العاجل للمأزق في غزة — هو تسريع عملية التفاوض والوصول إلى حل بشكل من الأشكال .

٥

قنـــــــــــــوات

" لعلك راض الآن عن تقاطيع وجهك الجديدة"

("شيمون بيريز" فى التليفون لـ"بسام أبو شريف" مساعد "عرفات" بعد أن أجرى عملية تجميل لوجهه فى باريس)

فى الفترة ما بين سنة ١٩٨٦ وسنة ١٩٨٨ كانت منظمة التحرير نشيطة فى اتصالاتها على أكثر من خمس قنوات مباشرة مع عناصر من إسرائيل . وبعد فترة من السكون استمرت أكثر من سنتين فى أعقاب اغتيال الدكتور "عصام السرطاوى" فإن القنوات السرية عادت إلى نشاطها وتعددت مجاريها بحيث لا تصبح مظنة الاتصال بـ"إسرائيل" مقصورة على قناة واحدة ورجل واحد يمكن أن يطوله الرصاص المتربص أو الطائش .

وكانت هذه الاتصالات جميعا تجرى تحت غطاء قرار صدر من المجلس الوطنى الفلسطينى فى دورة سنة ١٩٨٦ مؤكدا لقرارات سابقة ورد فيها ذكر الاتصال ضمنيا وعاما ــ لكنه فى قرار سنة ١٩٨٦ كانت النصوص أكثر وضوحا ، فقد كان نص القرار الذى وافقت عليه كل فصائل منظمة التحرير الفلسطينية يقول بالحرف :

"يقرر المؤتمر دعوة اللجنة التنفيذية لوضع خطط بفتح خطوط اتصال فلسطينية مع الدوائر اليهودية أو الإسرائيلية المؤيدة لقضيتنا ولفكرة دولة فلسطينية مستقلة" .

وكانت المفارقة فى هذا القرار أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك إسرائيلى واحد يؤيد فكرة قيام دولة فلسطينية . لكن النص وضع بهذه الصيغة لتسهيل مروره من قبل كل الفصائل ، فإغراء الإشارة إلى دولة فلسطينية مستقلة كان مطلوبا منه أن يعطى غطاء يبدو مقبولا لفكرة الاتصال من أساسها :

١ ـ كانت هناك قناة الاتصال السرية التى يديرها "أبو مازن" ("محمود عباس") بنفسه، وكان اتصاله بالدرجة الأولى مع مجموعات اليسار الإسرائيلية وضمنها "راكاح" (القائمة الشيوعية الجديدة) . وكان الطرف الآخر على الناحية الإسرائيلية "شولاميت آلونى" بوصفها رئيسة لحزب "ميريتز" ، وهو من أهم أحزاب الحكومة الائتلافية برئاسة "إسحاق رابين" . وعلى هذه القناة كان يتحرك أيضا الصحفى الإسرائيلى "يورى أفنيرى" والكاتب الفلسطينى الذى يحمل الجنسية الإسرائيلية "إميل حبيبى" . وتبدد الكثير من جهد هذه القناة وقتها لأن حزب "الليكود" برئاسة "شامير" كان شبه مسيطر على صنع القرار السياسى الإسرائيلى بحقيقة أن "شامير" كان يتنقل ما بين رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية . ولما كان معظم المشاركين من الجانب الإسرائيلى فى هذه القناة هم من عناصر اليسار ، فإن تأثيرهم على القرار الإسرائيلى كان هامشيا أو محدودا .

٢ ـ وكانت هناك ـ ثانيا ـ قناة اتصال سرية رتبها وزير الخارجية الأمريكى "جورج شولتز"، وكان الطرف الفلسطينى فيها هو الدكتور "وليد خالدى" الأستاذ بجامعة "هارفارد" الأمريكية ، وكان الطرف الإسرائيلى هو "أبا إيبان" وزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق . وقد كتب الدكتور "خالدى" مذكرة عن أول اجتماع بينه وبين "أبا إيبان" بتاريخ ١٣ مايو ١٩٨٦. ولما كان كل من الشريكين فى هذا اللقاء من خلفية أكاديمية ، فإن اللقاء الأول غلب عليه طابع المناقشة العامة والفلسفية أحيانا .

وطبقا للمذكرة التى كتبها الدكتور "وليد خالدى" عن وقائع اللقاء[١٢] ، فإن الجزء الأول من الحديث انصب على نقد شارك فيه الاثنان للسياسة الأمريكية . وخلاله قال "أبا إيبان": "إن ضم الأراضى الفلسطينية المحتلة إلى إسرائيل أمر غير وارد ومرفوض من حزب العمل . وفى اقتراع أخير فى الكنيست فإن مشروع قرار بضم الأراضى لم يحصل إلا على سبعة أصوات" . ثم قال "أبا إيبان" إن "جزءا كبيرا من المعضلة يعود إلى فشل الولايات المتحدة فى دورها كوسيط" . وتوجه "وليد خالدى" بسؤال صريح لـ "أبا إيبان" عن سياسة حزب العمل ، وكان رد "إيبان" بأن "بيريز وصل إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه". ثم أبدى رأيه بأنه لا بد من عقد اجتماع رسمى "إسرائيلى ـ فلسطينى" ، وإن عقد مثل هذا الاجتماع لا يعطى اعتراف إسرائيل للفلسطينيين فقط ، ولكنه من ناحية أخرى يعطى اعترافا من الفلسطينيين بإسرائيل . ثم كان اقتراح "أبا إيبان" المحدد هو أولا تنقية الأجواء الدعائية بين الطرفين ، ثم أن يدرك الطرفان أن هناك كلاما كثيرا يقال على الناحيتين يقصد به الاستهلاك المحلى . ولكن "أبا إيبان" كان لا يزال يرى أن إمكانية

(١٢) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من الصفحة الأولى لهذه المذكرة ـ تحت رقم (٢) .

الحل مرهونة بالخيار الأردنى ، وإن النجاح فى تشكيل وفد أردنى ـ فلسطينى يرتهن بدوره باستعداد منظمة التحرير للاعتراف بقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ .

٣ ـ وكانت هناك ـ ثالثا ـ قناة اتصال نشيطة فى القاهرة . وكان المسئول الفلسطينى عنها هو السيد "سعيد كمال" مندوب المنظمة فى القاهرة ، وكانت القناة تعمل بتشجيع وتوجيه من الدكتور "مصطفى خليل" والمستشار "أسامة الباز" . وكانت الأطراف الإسرائيلية فى هذه القناة عديدة ، فقد كانت الفكرة العامة هى إتاحة الفرصة لـ "سعيد كمال" أن يلتقى بأكبر عدد ممكن من الزوار الإسرائيليين الرسميين وغير الرسميين إلى القاهرة . وكان كل المسئولين المصريين القريبين من هذه القناة أو العارفين بشأنها يلحون على المنظمة فى نقطتين أصبحتا بمثابة "لازمة" متكررة فى كل مناقشات تلك الفترة ، وهما : الاعتراف بقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، ونبذ الإرهاب . وطبقا لهذه النصيحة الملحة فإن السيد "ياسر عرفات" أعلن رسميا فى القاهرة وبعد اجتماع مع الرئيس "مبارك" أن "منظمة التحرير الفلسطينية قررت إيقاف جميع أعمال العنف ضد إسرائيل خارج الأرض المحتلة ، لكنها تحتفظ بالحق فى مقاومة الاحتلال فى الأرض المحتلة ذاتها" . كما أن "ياسر عرفات" فى هذا البيان طالب المجتمع الدولى فى المقابل بـ "إلزام إسرائيل بوقف جميع الأعمال الإرهابية فى الداخل والخارج" ، وعرف هذا البيان باسم "إعلان القاهرة" ، لكن إسرائيل لم تكن مقتنعة به وإن وصفته بأنه "خطوة محدودة على الطريق الصحيح" . وكان إصرارها على أن تعهد المنظمة بنبذ العنف يجب أن يكون صريحا ومحددا ـ بمعنى أن يكون نبذ العنف عاما خارج وداخل الأرض المحتلة ، ثم أن يتضمن البيان تسمية العنف باسمه الصحيح الذى يعرفه القانون الدولى وهو "الإرهاب" دون التخفى وراء تعبير "العنف" .

٤ ـ وكانت هناك قناة اتصال سرية رابعة تحمست لتشجيعها مجموعة رجال الأعمال الفلسطينيين الذين يعيشون فى عدد من عواصم أوروبا ـ وبالذات لندن وباريس . ولم تكن مجموعة رجال الأعمال الكبار على استعداد للتورط بأنفسهم فى القنوات السرية للاتصالات مع إسرائيل ، وذلك حرصا على مصالح واسعة لهم فى عدد من البلدان العربية ، وبالذات فى دول الخليج . وهكذا فإن ممثلين أو مساعدين لهم قاموا على أمر هذه القناة ، وتكررت اللقاءات مع مسئولين إسرائيليين كان من بينهم "أفرام سنيه" (وزير الصحة فى حكومة رابين) ، و"دافيد إليعازر" (وزير الإسكان) ، و"شولاميت ألونى" (نائبة رئيس الوزراء فى نفس الوزارة) التى كانت متشابكة بعلاقاتها مع أكثر من قناة سرية . ثم إن هذه القناة مدت "سلكا" خاصا فى أنابيبها على المستر "ريتشارد مورفى" مساعد وزير الخارجية الأمريكى .

٥ ـ وكانت هناك قناة اتصال سرية خامسة تحرك فيها بنشاط السيد "بسام أبو شريف"، وكانت أهميته فى ذلك الوقت أنه مستشار مقرب من السيد "ياسر عرفات". وضاعف من أهمية قناة "بسام أبو شريف" أنه فى ذلك الوقت ـ ١٩٨٧ ـ نشر مذكرة حظيت باهتمام واسع قدم فيها حلولا بدت جريئة بالنسبة لحل الصراع العربى ـ الإسرائيلى. فقد وردت فيها لأول مرة إشارة فلسطينية رسمية تقريبا إلى استعداد منظمة التحرير الفلسطينية للاعتراف بـ"حق إسرائيل فى الوجود داخل حدود آمنة ومعترف بها". وعندما أدلى "أبو شريف" بهذه التصريحات تصادف وجود "أبراهام تامير" ("ابراها" ـ كما يطلق عليه أصدقاؤه المصريون) فى زيارة للقاهرة، واتصل "تامير" بالدكتور "عصمت عبد المجيد" وزير الخارجية المصرى يطلب إليه ترتيب موعد بينه وبين "بسام أبو شريف". واعتذر "بسام أبو شريف" لأنه كان قد بعث بنسخة من مذكرته بخط يده إلى "شيمون بيريز" نفسه!

وكان "بسام أبو شريف" شخصية نشيطة. ومن المفارقات أنه بدأ نضاله الفلسطينى فى الصفوف المعادية لـ "ياسر عرفات" والمعروفة بتشددها. وفى خضم الصراعات الدامية بين الفصائل الفلسطينية المختلفة، فإن "بسام أبو شريف" تلقى ظرفا ملغوما تفجر فى وجهه عندما فتحه، وقطع بعض أصابعه، كما أصابه بجروح بالغة فى وجهه أثرت على تقاطيعه.

وبعد اتفاق "أوسلو" وجد "بسام أبو شريف" أن المناسبة تستحق الحفاوة، فدخل أحد مستشفيات التجميل فى باريس، وأجريت له عملية جراحية فى وجهه. وكانت أول باقة ورد تلقاها بعد نجاح العملية من "شيمون بيريز" وزير خارجية إسرائيل، كما أن "بيريز" اتصل به تليفونيا يطمئن إلى أنه راض الآن عن تقاطيع وجهه الجديدة!

وكانت هناك محاولات فردية لمد قنوات اتصال، وبدت تلك وسيلة داخل الصفوف الفلسطينية للوصول همسا إلى "أذن" القيادة بشىء يهمها.

وفى هذه الفترة فإن مندوب المنظمة فى جنيف "نبيل الرملاوى" طلب مقابلة "عزرا وايزمان" (رئيس دولة إسرائيل الآن)، وقابله فعلا فى جنيف وتحدث إليه ونقل عنه. بل إن مدير شركة "العال" (الطيران الإسرائيلى) فى القاهرة حاول ترتيب مقابلات بين شخصيات فلسطينية وبين "إلياهو بن إليسار" سفير إسرائيل فى القاهرة آنئذ!

ولعل المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل لم تكن تمانع فى إنشاء وتعدد واتساع قنوات الاتصال مع المنظمة طالما أنها جميعا لا تربط سياسة إسرائيل بشىء محدد، ثم إنها مواقع لرؤية مباشرة للتفكير الفلسطينى، كذلك فإنها مجالات لنصائح توجه إلى تنازلات فى المواقف قبل أن يبدأ الجد من الأمور.

وبالنسبة لمنظمة التحرير ، فقد كانت هناك لجنة فى تونس تتابع عمل هذه القنوات وتحلل نتائج الاتصالات الجارية فيها وتناقشها مع "ياسر عرفات" . وكانت تلك المسئولية واقعة على "محمود عباس" ("أبو مازن") ومعه السيد "هانى الحسن" .

ومن محصلة الاتصالات وتحليل المعلومات راحت قيادة المنظمة تقترب يوما بعد يوم من ضرورة "الاعتراف بإسرائيل" فى إطار قرار مجلس الأمن ٢٤٢ . ولم تكن تلك نتيجة المعلومات والتحليلات فقط ، لكن ذلك كان الطلب الصريح من القاهرة ومن واشنطن ـ كليهما معا .

ومع الضغوط المتباينة من تأثير الانتفاضة ، ومع الخشية من منافسة "حماس" فإن دخول منظمة التحرير إلى مسار "التسوية السلمية" أصبح خيارا بدا حتميا ، وكانت المنظمة على استعداد للسير فيه . وكانت المشكلة الباقية هى : كيف؟ ـ خصوصا وأن مسئولية التفاوض انتهت أخيرا إلى المنظمة وعلى أكتافها بعد أن أعلن الملك "حسين" فى يوليو ١٩٨٨ ـ غاضبا ومحتجا ـ أن الأردن أنهى روابطه الدستورية والإدارية مع الضفة الغربية .

وفى جانب منه فقد كان ذلك تأثير الانتفاضة التى خلقت وعيا فلسطينيا بالذات لا يملك أحد أن يتجاهله مهما كانت دعاويه التاريخية أو طموحاته السياسية .

□

فى هذه الأجواء والظروف أتيحت لـ "محمد حسنين هيكل" فرصة إطلالة من الداخل على أحوال المنظمة وتوجهاتها وأفكارها . فقد جاءه فى أواخر شهر سبتمبر ١٩٨٨ الأستاذ "أحمد بهاء الدين" يحمل إليه اقتراحا ودعوة من صديقه السيد "حسيب صباغ" للمشاركة فى التفكير مع منظمة التحرير ، لأن القضية الفلسطينية تمر بمنعطف حاسم وخطير . وكان اقتراح "حسيب صباغ" أن يبعث بطائرته الخاصة إلى القاهرة لتأخذ "هيكل" و"بهاء" إلى جنيف ، وهناك يجرى التداول مع بعض الفلسطينيين من المعنيين بمستقبل القضية ، ثم يستقل الجميع طائرة "صباغ" ويتوجهون إلى تونس لسلسلة من الاجتماعات مع السيد "ياسر عرفات" ومع كل قيادات منظمة التحرير بمن فيهم الدكتور "جورج حبش" والسيد "نايف حواتمة" .

وطوال يومين كاملين فى فندق "الريشموند" في جنيف التقى تسعة رجال مُهتمّين بالقضية الفلسطينية ومعنيين بمستقبلها[١٣] ، وراحوا يتناقشون فيما يمكن أن تكون نصيحتهم لـ"ياسر عرفات" وقيادة منظمة التحرير فى هذا المنعطف التاريخى والخطير بالنسبة للقضية الفلسطينية .

وفى بداية أول لقاء فى قاعة خاصة مغلقة فى فندق "الريشموند" أبدى "محمد حسنين هيكل" مجموعة ملاحظات ووجهات نظر تلخصت فيما يلى :

١ – إن هناك ضرورة لتوضيح الداعى إلى الاجتماع والمطلوب منه ، وبالتالى فالسؤال الذى يطرح نفسه هو :

(أ) الذين رتبوا لهذا الاجتماع – ماذا يدور فى ذهنهم ؟

(ب) والذين ينتظرون المشاركين فيه فى تونس – ماذا يتوقعون منهم ؟

٢ – وإذا كان مطلوبا من طرف أن يشير برأى على طرف آخر ، وبحيث يكون الكلام مجديا وليس مجرد "فض مجالس" فإن الطرف المطالب بإبداء رأيه لا بد أن يكون فى صورة كل ما هو جار بالتفصيل . "فإذا لم تكن تعرف كل الظروف التى تحيط بموقف ما ، فإن نصيحتك فى شأنه تصبح عبئا على من تلقاها وليست عونا له" .

٣ – إن صورة الموقف يجب أن تكون كاملة بما فيها الخيارات المتاحة والظروف المحيطة بها، والميزات التى ينتظر تحقيقها ، والعقبات التى تعترض الطريق ، ومواقف كل من يملك كلمة فى تشكيل القرار مباشرة أو بطريق غير مباشر . وبالتالى فلا بد أن تكون مواقف القوى الكبرى من منظور منظمة التحرير واضحة أمام المجتمعين ، وكذلك مواقف الدول العربية – بالإضافة إلى مواقف الأطراف المشاركة فى منظمة التحرير .

٤ – إن منظمة التحرير أمام لحظة صعبة . وجزء من صعوبة اللحظة مسئوليتها قبل أى طرف آخر . وإذا كان هناك أمل فى مستقبل فالمنظمة مطالبة الآن بأسلوب مختلف فى الفكر والحركة ، بما فى ذلك الأداء والتعبير ولفظ الخطاب . وإذا لم يكن ذلك ممكنا فإن أى محاولة الآن إضافة إلى الضياع ، بما فى ذلك ضياع وقت رجلين قبلا التطوع لواجب قومى ناداهما .

---

(١٣) كان المشاركون فيها هم السيد "حسيب صباغ"، والسيد "سعيد خورى"، والسيد "عبد المجيد شومان"، والسيد "عبد المحسن قطان"، والسيد "زين مياس"، والدكتور "إدوارد سعيد"، والأستاذ "أحمد بهاء الدين"، والسيد "باسل عقل"، و"محمد حسنين هيكل" .

واتصلت المناقشات واستغرقت أربع جلسات عمل طويلة ، وتبلورت بصورة مبدئية خطوط عريضة لتصورات يمكن أن تتماشى مع المرحلة وضروراتها :

- إذا كانت منظمة التحرير مطلوبا منها الآن — وهو صحيح — أن تتعامل مباشرة وعلانية مع إسرائيل على أساس الاعتراف بها ، فإن الأساس الذى يمكن اعتماده هو قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة تحت رقم ١٩١ والخاص بإقامة دولتين في فلسطين : دولة يهودية ودولة عربية . وهكذا فإن الاعتراف المطلوب من المنظمة بإسرائيل الآن يستحسن أن يجرى تحت مظلة قرار التقسيم قبل أى مبدأ دولى آخر .
- إن مطالبة منظمة التحرير بالاعتراف بالقرار ٢٤٢ تزيّد غير مطلوب . فهذا القرار لا يشير إلى قضية فلسطين أو حقوق الشعب الفلسطينى لأنه صدر أساسا بصدد حرب سنة ١٩٦٧ ولإزالة آثار العدوان على دول عربية بذاتها هى مصر وسوريا والأردن .
- وترتيبا على الاعتراف بقرار الجمعية العامة رقم ١٩١ لسنة ١٩٤٧ ، فإن منظمة التحرير يمكن لها إعلان دولة فلسطينية مستقلة تعترف بها الدول العربية كما تعترف بها بعض الدول الصديقة ، وتكون هذه الدولة هى التى تتولى بنفسها وبصفتها مسئولية التفاوض من أجل حل نهائى للقضية الفلسطينية .

وكانت هناك تفصيلات فرعية أخرى كثيرة تنبع من هذا الإطار العام وتتصل به — خصوصا فيما يتعلق بضرورة وأهمية التنسيق مع الأردن .

ثم جاء وقت السفر بالطائرة الخاصة إلى تونس ، ولاحظ "هيكل" أن بعض المشاركين فى الاجتماع ، وبينهم المفكر الفلسطينى الذائع الصيت الدكتور "إدوارد سعيد" ، اكتفوا بمناقشات جنيف واعتذروا بعدها عن عدم السفر إلى تونس . وعندما قام "هيكل" بسؤال الدكتور "إدوارد سعيد" : "لماذا لا تريد الذهاب إلى تونس ؟" كان رد "إدوارد سعيد" بقوله : "سوف تعرف السبب عندما تصل إلى تونس وتطل على المشهد كله من هناك" .

□

كان المشهد فى تونس داعيا للانزعاج . فقد توجه ركاب الطائرة الخاصة القادمة من جنيف من المطار مباشرة إلى بيت السيد "عبد الحكم بلعاوى" مندوب المنظمة فى تونس ، وكان هذا البيت قد تحوّل إلى مقر قيادة رسمى لمنظمة التحرير بحكم أن تونس مقر

المنظمة الرسمى فى ذلك الوقت . وكان بيت "عبد الحكم بلعاوى" قصرا واسعا تحيط به حديقة كبيرة ويطل على البحر، وكان طرازه المعمارى أندلسيا متأثرا داخله بخطوط فرنسية لأن البيت كان أصلا مقرا للمندوب السامى الفرنسى فى تونس فى العصر الاستعمارى . وكان معمار البيت وأساسه يحملان بقايا عراقة طغت عليها فوضى الحياة التى كان يعيشها "مناضلو" الثورة الفلسطينية . وكان المدخل من الحديقة إلى البيت يؤدى إلى مجموعة من القاعات الواسعة اصطفت المقاعد على جدرانها ، كما كان على طرفها الأيمن سلم يؤدى إلى دور تحت الأرضى فيه غرفة للاجتماعات السرية المطلوب تأمينها .

وتوجه القادمون من الطائرة إلى غرفة الاجتماعات مباشرة . وهناك كان "ياسر عرفات" على رأس المائدة ، وكل قادة "فتح" الكبار على جوانب المائدة من حوله . وبدا أن ضغوط الحوادث تفرض نفسها على الكل ، وإن الأحاديث سوف تبدأ بغير انتظار لمراسم الترحيب والضيافة .

وكان "عرفات" أول المتحدثين ، ولم يكن هناك شك لدى أحد ممن سمعوه أن الرجل يواجه مشكلة خيارات صعبة تفرض نفسها عليه ، وفيها ما يتعارض مع قناعاته . وكان الاتجاه ونقيضه يظهران فى كلماته ، كأن يقول مثلا إنه "لا يستطيع أن يعترف بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ وإلا فمعنى ذلك أنه يتنازل مقدما من وجهة نظر سياسية عن ثلثى فلسطين قبل أن يكون لديه ضمان من أى نوع" . فكل ما لديه هو "أن باب الاشتراك فى "المسيرة السلمية" مفتوح أمام المنظمة إذا هى قبلت القرار وبعده أعلنت نبذها للعنف والإرهاب" . وكانت الحماسة تأخذه فيكرر مقولة قديمة له بأنه "يقبل أن تقطع يده ولا يقبل أن يوقع على قرار ٢٤٢" . ثم يستطرد من ذلك إلى "أنه يعرف أن ذلك لن يؤدى إلى نتيجة لأن إسرائيل سوف تأخذ التنازل الفلسطينى وتحاول أن تبتز ما هو أكثر منه "وذلك أسلوبها الذى عرفناه" . ثم يعود "عرفات" ليبدى حيرته فيما هو مطلوب منه ويقول إنه "لا شىء يغريه بقبول قرار مجلس الأمن سوى مصر . فمصر تطلب ذلك ، وهو إذا قبل بالقرار فسيكون قبوله إرضاء لمصر ، وحتى تقتنع القيادة المصرية بأن موقفه ليس متعنتا ، بل إنه مستعد للتجاوب" .

ثم يمضى "عرفات" ليقول : "إن الإجراء الوحيد الذى يغطى قبول قرار مجلس الأمن ويوازنه هو إعلان قيام دولة فلسطينية خلال المؤتمر الوطنى القادم فى الجزائر (وموعده بعد أسابيع) .

ثم يعود "عرفات" فيقول "إن أطفال الحجارة كرمونى بثورتهم فى حين أساء إلى الملوك والرؤساء العرب فى قمة عمان (نوفمبر ١٩٨٧) ، وقد استجابوا لندائى فى حين أن الملوك والرؤساء العرب لم يكونوا مستعدين لسماعى" !

ثم يستطرد "عرفات" أنه "لا بد أن يقوم بتغطية سياسية للانتفاضة ، وهو لا يستطيع أن يترك أطفالها وشبابها وحدهم ، وهو يظن "أن ثورتهم هى آخر نفس باق عند الشعب الفلسطينى" .

وطالت المناقشات وتشعبت ، وحين طلب "ياسر عرفات" رأى "محمد حسنين هيكل" فقد عرض ملخصا لما جرى من حوارات فى جنيف ، ثم أضاف عدة نقاط رآها من وجهة نظره حيوية :

١ ـ إن قيام الانتفاضة واستمرارها لأكثر من عام حتى الآن ، والوهج الذى عكسته على القضية الفلسطينية ، يعطى للمفاوض الفلسطينى فرصة جديدة لم تكن متاحة له من قبل فى أى وقت من الأوقات . فهو لأول مرة واقف على أرض وطنه مسنود بمقاومة شعبه ، وهذا وضع جديد تماما .

٢ ـ إن القرار الإسرائيلى واقع لأول مرة تحت ضغط لم يتعرض لمثله من قبل . فهناك حالة ثورة مسلحة حتى وإن كان سلاحها الحجارة . وهناك انكشاف إسرائيلى عسكرى وسياسى وإعلامى . لأن الجيش الإسرائيلى ليس مهيأ لمواجهة ما جاءته به الانتفاضة ، ثم إن السياسة الإسرائيلية تخبطت كثيرا فى عملية المواجهة إلى درجة الأزمة ، ثم إن الشعب الفلسطينى أثبت أنه موجود ، وأكثر من ذلك حصل على اعتراف العالم ليس بوجوده فقط ولكن باستعداده للتضحية .

٣ ـ إن الصور التى رآها العالم من القمع الوحشى الإسرائيلى لأطفال الحجارة تعطى للمنظمة الفرصة والمشروعية لطلب حضور مراقبين دوليين إلى الأراضى المحتلة للعمل على متابعة ما يتعرض له السكان المدنيون من عدوان على حياتهم وجرياتهم وحركتهم اليومية . وهذا مطلب يمكن الإلحاح عليه بحيث يصبح المحور الأساسى لعمل المنظمة وعمل جامعة الدول العربية . وإذا تحقق أى قدر من النجاح فيه فهذا يعنى ـ فضلا عن توفير قدر من الأمان للسكان الفلسطينيين ـ أن الأمم المتحدة وضعت قدمها داخل القضية الفلسطينية . وإذا وقع ذلك فإنه يستدعى ـ ولو إلى الذاكرة السياسية للعالم ـ قرارات الأمم المتحدة كلها فيما يتعلق بقضية فلسطين وحقوق شعبها .

٤ ـ إن العبء الذى تتحمله إسرائيل فى غزة سواء بسبب الانتفاضة ـ وغزة هى بؤرتها ـ أو بسبب الكثافة السكانية المخيفة فى القطاع ، قد يجعل إسرائيل فى لحظة من اللحظات تقرر من جانب واحد سحب الجيش الإسرائيلى من غزة ، وبذلك فإنها تضع المنظمة أمام أمر واقع لا بد من الاستعداد له . ثم إن سحب الجيش الإسرائيلى من قطاع غزة مفاجأة ، وإذا لم تكن المنظمة مستعدة لهذا

الاحتمال ربما يؤدى وقوعه إلى مذبحة فلسطينية ــ فلسطينية تفرض على مصر أن تتدخل بقواتها لفرض نوع من الانضباط لوقف حمام دم محتمل فى غزة إذا اضطربت الأمور ووقع الاقتتال ، وهذا سوف يعقد كل الأمور .

٥ ــ إن منظمة التحرير تستطيع الآن أن تقدم إلى الأمم المتحدة والى الولايات المتحدة اعترافها بقرار ١٩١ للجمعية العامة للأمم المتحدة لسنة ١٩٤٧ ، وهو القرار الخاص بالتقسيم ، ثم إنها تستطيع إعلان قيام دولة فلسطينية مستقلة فى المنفى تطالب وتفاوض لتحقيق سيادة الشعب الفلسطينى فى وطنه .

وامتدت المناقشات إلى ما بعد منتصف الليل ، ثم جرى الاتفاق على اجتماع يعقد مرة أخرى فى اليوم التالى تحضره قيادات منظمة التحرير وليس قيادات "فتح" وحدها . ثم جرى توجيه رجاء إلى "بهاء" وإلى "هيكل" بألا يكشفا غدا فى الاجتماع العام أنهما شاركا فى اجتماع لقيادة "فتح" فى الليلة السابقة !

□

صباح اليوم التالى كانت الفرصة أوسع لاستكشاف الصورة العامة لدى قيادة المنظمة فى تونس . ولم تكن الصورة مريحة ، فقد ترددت أقوال بالتصريح والتلميح تشير إلى سوء العلاقات بين قيادات "فتح" . وكانت هناك اتهامات بالإيماء والإيحاء . وكان هناك شعور عام ظاهر بأن هناك مقادير غالبة فوق إرادة الكل ، وليس هناك مفر من الانصياع لها أو لبعضها على الأقل .

كان باديا لأى مراقب أن قيادة الثورة الفلسطينية مرهقة ، وأن ثقتها بهدفها متأثرة ، وأن العلاقات بين رفاق الكفاح تدنت إلى حالة من الشك تقارب العداء . ولعل ذلك كان تأثير الحصار على رجال أجهدتهم ظروف عصيبة مروا بها ، واعتبارات أمن شخصى أحس كل منهم أنه مهدد فيه ، وعمر ضاع معظمه أو يوشك أن يضيع بغير نتيجة تتساوى مع حجم القضية أو حجم التضحيات التى بذلت من أجلها . وفى بعض المكاتب والأروقة كانت هناك تحليلات بدت ساذجة من تأثير أن أصحابها اكتشفوا متأخرا حقائق كانت معروفة . ثم إن أحلام قيام دولة فلسطينية أشاعت فى الأجواء شعورا بأنه قد "آن للمقاتل أن يستريح" وأن يعيش ما تبقى من حياته .

وقبل الاجتماع العام طلب عدد من قادة "فتح" إلى "بهاء" و"هيكل" أن يساعدا بكل استطاعتهما على تليين موقف الدكتور "جورج حبش" . وكان ظن قادة "فتح" أنه إذا مشى "الحكيم" (وهو اللقب الذى كان ينادى به "جورج حبش") معهم على الخط الجديد، فإن أحدا لن يكون فى مقدوره أن يزايد عليهم لأن "الحكيم" معروف بصلابته ، وهو الوحيد خارج "فتح" الذى يملك نصيبا لا يستهان به من الشرعية والاحترام العام بين الفصائل ووسط الجماهير .

وفى لقاء مع الدكتور "جورج حبش" كان "الحكيم" مهموما بما يجرى فى الاتحاد السوفيتى والتغييرات المخيفة التى تحدث فيه تحت حكم "جورباتشوف" . وكان رأى "الحكيم" أن ضعف هيبة الاتحاد السوفيتى سوف يكشف كل الحركات الثورية فى العالم . وبالتالى فإن "الحكيم" بتحليلاته الخاصة كان على استعداد لأن يكون أكثر مرونة فى الحركة طالما أن "الثوابت الفلسطينية" - على حد تعبيره - قائمة .

كانت هناك مشكلة أخرى كامنة فى تونس ، فالعلاقات بين الحكومة التونسية ومنظمة التحرير عراها هى الأخرى ذلك التوتر الذى ينشأ دائما من وجود سلطتين مسلحتين فى بلد واحد .

وكانت لدى رئيس الوزراء التونسى شكاوى من تصرفات خاصة "بزيادة السلاح الفلسطينى فى تونس عن الحد الذى كان متفقا عليه" .

وكانت لديه شكوى أخرى من "ياسر عرفات" شخصيا لأنه لا يراعى البروتوكول اللازم مع الرئيس التونسى "زين العابدين بن على" . فقد طلب موعدا لمقابلته ، وتحدد له موعد فى اليوم التالى ، ولكن "عرفات كان مصرا على موعد فى نفس اليوم" . وفى اليوم التالى ، وكان الرئيس "زين العابدين بن على" فى مطار تونس يستقبل ضيفا أفريقيا ، فوجئ بطائرة تقلع من المطار فى وجوده ، وعرف أنها طائرة "ياسر عرفات" ذاهبة به إلى واحدة من رحلات سفره الدائم .

وتضايق الرئيس "زين العابدين بن على" ، فقد حجز لـ "عرفات" موعدا معه اليوم، ولكنه الآن يجده طائرا إلى خارج تونس دون إنذار أو اعتذار .

وفيما بعد ، وحينما فوتح "ياسر عرفات" فى الموضوع ، كان رده : "يا أخى متى يكون للفلسطينيين مطار يخصهم يقلعون منه دون إذن خروج ويعودون إليه دون تصريح دخول ؟"

□

إن وثائق وزارة الخارجية الأمريكية ، وكذلك مذكرات "جورج شولتز" ، توضح أن "ياسر عرفات" كان طوال شهر سبتمبر ١٩٨٨ على اتصال بالإدارة الأمريكية عن طريق "ويليام كوانت" الذى عمل مستشارا فى مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض على أيام رئاسة "جيمى كارتر"، ثم التحق بعد ذلك بمؤسسة "بروكنجز"، وأصبح أحد عمدها . وقد ذهب "كوانت" لمقابلة "ريتشارد مورفى" مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأوسط ليبلغه أنه تلقى رسالة من "عرفات" يركز فيها الزعيم الفلسطينى على سؤال واحد هو : "هل تقبل الولايات المتحدة محادثات رسمية معه إذا استجاب لشروطها ؟" وكان الرد الذى تلقاه "كوانت" من "مورفى" لينقله إلى "عرفات" أن "الأمر يتوقف على طريقة وصيغة الاستجابة للشروط الأمريكية الثلاثة" . وعاد "كوانت" بعد أيام بصيغة مقترحة من "ياسر عرفات" ، وعندما عُرضت على "شولتز" رفضها باعتبارها غير وافية بالغرض، ثم إنه ليس مستعدا لمناقشة حولها لأن أى مناقشة حول الصياغات والكلمات قد تأخذ صورة تفاوض واعتراف بمنظمة التحرير .[١٤]

ويوم ١٢ سبتمبر أعاد "ياسر عرفات" صياغة النص الذى حمله "كوانت" ، وطلب عرضه على "شولتز" الذى وجده ملبيا لكل الشروط الأمريكية . وسأله "ريتشارد مورفى" عن الخطوة التالية ، وكان رد "شولتز" أنه "عندما تعلن المنظمة رسميا ما قالته فى النص الجديد المقترح ، فليس هناك مفر من بدء حوار معها ، وهذا هو كل ما وعدنا به" . وكان "كوانت" يلح على "مورفى" أن يظهر وزير الخارجية الأمريكى بادرة طيبة لـ "ياسر عرفات" حتى يتشجع ويعلن موقفه ، ولكن "جورج شولتز" أصر على الرفض .

ويوم ٩ نوفمبر ، وبعد أن نجح "جورج بوش" فى انتخابات الرئاسة فى اليوم السابق (٨ نوفمبر) ، تقدم "زهدى الطرزى" المندوب المراقب لمنظمة التحرير لدى الأمم المتحدة بطلب إلى رئيس مجلس الأمن أن يدعو إلى دورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة ليكون اجتماعها مناسبة يلقى فيها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ببيان هام للمجتمع الدولى . ثم تقدمت المنظمة بطلب إلى السفارة الأمريكية فى تونس تطلب فيه تأشيرة دخول باسم السيد "ياسر عرفات" إلى الولايات المتحدة ليحضر اجتماع الجمعية العامة إذا تقرر عقده . ولم يكن "جورج شولتز" على استعداد لقبول ذلك ، وفى رأيه فإن "عرفات يجب أن يعلن موقفه أولا قبل أن تسمح له الولايات المتحدة بدخول أراضيها حتى ولو كان ذلك بقصد حضور اجتماع للجمعية العامة وإلقاء بيان أمامها" .

وكان هناك تعاطف دولى واسع مع طلب "ياسر عرفات" . لكن الإدارة الأمريكية فى فترة الانتقال من رئاسة "رونالد ريجان" إلى رئاسة "جورج بوش" لم تكن مستعدة لسماع أى

---

(١٤) "الاضطراب والنصر" ــ مذكرات "جورج شولتز" ــ صفحة ١٠٣٥ .

نداء ، وهكذا قررت الجمعية العامة أن تعقد اجتماعها الاستثنائى فى المقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف .

وكانت "المؤسسة" ـ على حد التعبير الشهير للرئيس "السادات" ـ على يقين بأن اللحظة حانت والفرصة نافذة مفتوحة !

□

وفى تلك الأثناء عقد المجلس الوطنى الفلسطينى دورته المنتظرة ، وهى الدورة التاسعة عشرة . وفى هذه الدورة جرى إعلان قيام دولة فلسطينية مستقلة . لكن الأهم من ذلك فى قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى كان البند "ثانيا" ـ فقد جاء فيه ما يلى :

"إن المجلس الوطنى الفلسطينى من موقع المسئولية تجاه شعبنا الفلسطينى يؤكد عزم منظمة التحرير الفلسطينية على الوصول إلى تسوية سياسية شاملة للصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وجوهره القضية الفلسطينية ، فى إطار ميثاق الأمم المتحدة ومبادئ وأحكام الشرعية الدولية ، وقواعد القانون الدولى ، وقرارات الأمم المتحدة ، وقرارات القمم العربية ، بما يضمن حق الشعب العربى الفلسطينى فى العودة وتقرير المصير وإقامة دولته الوطنية المستقلة على ترابه الوطنى .... آخذين بالاعتبار أن المؤتمر الدولى الفعال الخاص بقضية الشرق الأوسط تحت إشراف الأمم المتحدة وبمشاركة الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن الدولى ، وجميع أطراف الصراع فى المنطقة ـ آخذين بالاعتبار أن المؤتمر الدولى ينعقد على قاعدة قرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ ."

كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد صوتت يوم ٢ ديسمبر ١٩٨٨ على الانتقال إلى جنيف لسماع "عرفات" يتحدث من جديد عن قضية فلسطين أمام اجتماع خاص للجمعية العامة . وكان "عرفات" يريد أن يتأكد من أن قبوله للشروط الأمريكية لا بد أن تترتب عليه نتائج يحق له أن يتوقعها . وكانت "المؤسسة" جاهزة لنافذة الفرصة المفتوحة . وتحرك وزير خارجية السويد ـ بتوجيه من الدولية الاشتراكية والتجمعات اليهودية الصهيونية فى أوروبا وأمريكا ـ إلى ترتيب لقاء فى ستوكهولم يضمن إخراج القبول الفلسطينى والاستجابة له .

كانت "المؤسسة" قد أخذت زمام المبادرة ولم تنتظر .

وأعلـن فى ستوكهولـم عن وصول السيد "ياسر عرفات" إليها ، ثم أعلن عن لقــاء هنـاك بينه وبين وزير خارجية السويـد "ستـين آندرسون" ، أعقبه اجتماع بين رئيس منظمة التحرير ووفـد من المنظمات الصهيونيـة .

كان الوفـد ممثـلا فى الظاهر لما سمـى بـ "مركز السـلام الـدولى بالشرق الأوسـط"، وهـو مركز أنشأته "المؤسسة" كغطـاء لاتصالاتهـا ، وكـانت الشـخصية المؤثـرة فيـه هـى شـخصية "ستيفن كوهين" . وكـان وفـد "المؤسسـة" يضـم كـلا مـن : "ريتـا هـاوزر" ـ و"مناحـم روزنسافـت" ـ و"دورا كـاس" ـ و"ستانلى شيباون" ـ و"آب أوديفيتـش" . وكـان "إنجفـار كارلسون" رئيس وزراء السويـد فى زيـارة لباريـس ، وعندمـا أخطـر بـأن الاجتماعـات بـين الفلسطينيين ووفـد "المؤسسة" وصلـت إلى نتائج عمليـة ، قطـع رئيـس وزراء السويـد زيارتـه لباريس وعـاد إلى ستوكهولـم .

كـانت إسـرائيل تتـابع مـا يجـرى فـى سـتوكهولم ولا تتوقـع اتفاقـا بـين "المؤسســة" وبـين المنظمـة بهـذه السـرعة . وعندمـا أعلـن عـن توصـل الطرفين لاتفـاق ، أعلـن متحـدث إسـرائيلى رسمــى عـن مفاجـأة الحكومـة الإسرائيليـة بمـا حـدث ، واسـتعمل تعبــير أن الحكومـة الإسـرائيلية كـانت stunned (مذهولـة) . وكـانت مصـــر هــى الأخـــرى مندهشـة مـن سـرعة الاتفـاق فـى سـتوكهولم بـين "المؤسسـة" و"المنظمــة" . فقـد كـانت تعـرف بأمـر اللقـاء ، لكنهـا لـم تتصـور توصلـه إلى نتيجـة بهـذه السرعــة . وعندمـا أخطـر المستشـار "أسـامة البـاز" بأمـر التوصـل إلى اتفـاق ، احتـج لأن مصـــر لم تخطـر إلا بعـد التوقيـع .

وكان بعض أبـرز قيادات منظمة التحريـر فى نفس الموقـف ، ومنهـم "أبـو إيـاد" الـذى كـان سؤالـه الأول : "هـل كـانت السعوديـة تعـرف ؟" (وكـان داعـى سؤاله بـالطبع أن السعودية كانت أهـم ممـول لمنظمة التحريـر) .

ورأى "شولـتز" أن المنظمـة جـادة فى مسعاها على طريـق "التسـوية السلميـة" . ولكـى يعطى لنفسه أكبر درجات الاحتياط والأمـان ، فقـد طلـب مـن مكتبـه أن يعـد لـه نصـوص الصيغـة التى يتعين على "عرفـات" أن يعلـن بهـا قبولـه للشـروط الأمريكيـة . وقـام وزيـر خارجية السويـد بعـرض شروط "جـورج شـولتز" علـى "ياسـر عرفـات" أثنـاء وجـود الزعيـم الفلسطينى فى ستوكهولم ، وحصل منه على خطاب رسمـى بقبولهـا . وكان نـص الخطـاب كمـا يلـى :[١٥]

---

(١٥) فى ملحق صور الوثائق توجـد صورة من خطاب السيد "ياسـر عرفات" الذى يرفق به نـص بيان إعلان قبوله للشروط الأمريكيـة تحت رقم (٤) .

"منظمة التحرير الفلسطينية ـ ستوكهولم
إلى مستر ستين أندرسون وزير الشئون الخارجية ـ السويد

سـرى

عزيزى المستر ستين أندرسون ،

اتصالا بمحادثاتنا فى ستوكهولم يومى ٦ و ٧ ديسمبر ١٩٨٨ ، وبخصوص النص الذى قدمته لى من المستر "شولتز" وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، والمتصل ببدء الحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين الإدارة الأمريكية ـ فإنى أبعث إليك رفق هذا النص حاملا موافقتى وتوقيعى عليه . وسوف نعمل على إصدار هذا النص فى بيان رسمى فور إقراره من اللجنة التنفيذية .

مع رجائى أن تقبل تعبيرى عن احترامى العميق .

إمضاء

ياسر عرفات
رئيس اللجنة التنفيذية
لمنظمة التحرير الفلسطينية "

وكان النص المرفق بهذا الخطاب يقول بما يلى :[(١٦)]

"إن منظمة التحرير رغبة منها فى الإسهام فى البحث عن سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط ، وممثلة بلجنتها التنفيذية التى تحولت إلى حكومة مؤقتة لفلسطين ، تبدى رغبتها فى إصدار التصريح الرسمى التالى :

١ ـ إنها على استعداد للتفاوض مع إسرائيل فى إطار مؤتمر دولى لتسوية شاملة للصراع العربى ـ الإسرائيلى على أساس قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢ و ٣٣٨ .

٢ ـ إنها تتعهد أن تعيش فى سلام مع إسرائيل ومع كل جيرانها ، وأن تحترم حقهم فى العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها . وذلك سوف يكون سلوك الحكومة الديمقراطية الفلسطينية التى تنشد إقامتها فى الأراضى المحتلة منذ سنة ١٩٦٧ .

---

(١٦) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من نص البيان الذى أعلن فيه السيد "ياسر عرفات" قبوله للشروط الأمريكية ، وعليه توقيعه ـ تحت رقم (٥)

٣ ـ إنها تدين أعمال العنف الفردى والجماعى وإرهاب الدولة فى كل صورها، ولن تلجأ إلى شىء من ذلك .

إمضاء

ياسر عرفات "

وأمام اجتماع الجمعية العامة فى جنيف يوم ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ ألقى "ياسر عرفات" خطابا ضمنه الصيغة المطلوبة للشروط الأمريكية . ولكن "شولتز" اعتبر أن الصيغة طارت بعض حروفها، وقال للرئيس "ريجان" على التليفون "إن عرفات فى ندائه للولايات المتحدة لم يقل "أنكل" uncle كاملة وإنما قال الحروف الأولى منها ، وعليه أن يكمل بقية الحروف ويذكر النداء إلى "العم" الأمريكى كاملا" (توبة وتضرعا) .

وكان أن عقد "ياسر عرفات" مؤتمرا صحفيا فى اليوم التالى أكمل فيه ما اعتبره "جورج شولتز" ناقصا من كلمته فى الخطاب أمام الجمعية العامة .

واعتبر "جورج شولتز" أنه حصل على انتصار باهر ونقل فى مذكراته تعليقا لجريدة "نيويورك تايمز" قالت فيه "إن اللاءات الثلاثة الشهيرة فى مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ تحولت فى جنيف لتصبح "نعم" ـ ثلاث مرات أيضا ."

□

ومضت فترة وإذا "عرفات" يظهر فى باريس حيث استقبله الرئيس "ميتران" للمرة الثانية فى حياته ، وكان اللقاء الأول بين الرجلين فى مكتب "محمد حسنين هيكل" فى أواخر يناير ١٩٧٤ ، وكان "ميتران" وقتها رئيسا للحزب الاشتراكى وضيفا على "هيكل" فى مصر .

وكانت أرملة رئيس وزراء فرنسا السابق "بيير منديس فرانس" هى التى تولت ترتيب اجتماع "عرفات" الثانى مع "ميتران" . فأرملة "منديس فرانس" واسمها الأصلى "ليلى شيكوريل" (وهى من أسرة "شيكوريل" اليهودية المشهورة فى مصر) لا تزال مهتمة بقضايا "إسرائيل ـ فلسطين" من تأثير اهتمام زوجها بها .

كان "منديس فرانس" شخصية فرنسية لامعة فى الدولية الاشتراكية ـ وكان يهوديا وإن احتفظ دائما بمسافة واضحة بينه وبين الحركة الصهيونية . وقد شارك عدة مرات فى

مناقشة الصراع العربى ـ الإسرائيلى مع "كرايسكى" و"براندت" وغيرهما من زعماء الدولية الاشتراكية ، وكان يتمنى أن يقوم بدور فى تحقيق السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب ، ويريد أن يضم ذلك إلى سجله فى تحقيق تسوية لحرب فرنسا فى فيتنام . وبعد وفاته واصلت أرملته اهتمامها حتى جاءتها الفرصة لتتصل تليفونيا بـ "ميتران" وتقول له ـ طبقا لروايتها : "فرانسوا ... إن الوقت قد حان لتقابل عرفات وتعطيه جرعة تأييد معنوى بعد كل ما فعله فى الأيام الأخيرة" . وكان "ميتران" جاهزا .

وحدث بعد اللقاء مع "ميتران" أن كان "عرفات" على موعد مع وزير الخارجية الفرنسى "رولان دوما" . وأثناء اجتماع الاثنين فى الـ "كاى دورساى" انتحى "دوما" بـ "عرفات" جانبا وقال له ـ طبقا لرواية "دوما" :

"إننى أريد أن أتحدث اليك كصديق ...

إن رئيسنا ـ يقصد ميتران ـ قابلك اليوم رسميا فى قصر الإليزيه ، وهذا عمل شجاع . إنك لا تتصور كم أن هذه المقابلة سوف تكلف الرئيس ميتران سياسيا أمام الرأى العام الفرنسى الذى لم يتهيأ بعد لاستقبالك رسميا فى باريس وعلى مستوى رئيس الدولة ، وإذا سمحت لى فإننى أريد أن أقترح عليك أن تقدم له شيئا فى المقابل ...."

وكان "عرفات" يصغى باهتمام وهو فى غمرة سعادته باستقباله رسميا فى باريس ـ يريد بالفعل أن يعبر عن امتنانه لـ "ميتران" . واستطرد "دوما" يقول :

"إعط للرئيس شيئا يستطيع أن يبرزه فى وجه من سوف ينتقدونه لأنه قدم لك اعتراف فرنسا بدون مقابل .

إنك أعطيت كثيرا لشولتز ، ومن حق ميتران عليك أن تساعده ...."

ثم اقترح "دوما" أن يعلن "عرفات" تخليه عن مواد الميثاق الوطنى الفلسطينى التى تختص بإسرائيل (عدم الاعتراف بها وتدميرها ... الخ) .

ورد "عرفات" بأنه "مستعد لذلك والآن وللصحفيين الواقفين فى انتظاره أمام مكتب وزير الخارجية" . ثم سأل "عرفات" عن كلمة باللغة الفرنسية تؤدى المعنى الذى يريده وزير الخارجية الفرنسى .

واقترح عليه "دوما" أن يقول للصحفيين إنه يعتبر ميثاق منظمة التحرير caduc .

وهمس "عرفات" فى أذن "إبراهيم الصوص" مندوب المنظمة فى باريس ، وكان معه فى هذا الاجتماع ، عن معنى الكلمة باللغة العربية بالضبط . وكان كلاهما ـ ومعهما وزير

الخارجية الفرنسي ـ ينزلون سلم الـ "كاى دورساى" إلى ردهة الاستقبال الكبير في مدخلها. ورد "إبراهيم الصوص" همسا بأن الكلمة تعني "ملغى وليس له مفعول" .

وأمام الصحفيين استعمل "عرفات" الكلمة الفرنسية "caduc" ، وكررها مرتين بشأن الميثاق الوطني الفلسطيني .

وفي تلك الليلة أقامت أرملة "منديس فرانس" حفل عشاء في بيتها تكريما لـ "عرفات" ، وكان بين المدعوين كل أقطاب "المؤسسة" في أوروبا يتقدمهم البارون "روتشيلد"!

ومن باريس اتصل "عرفات" ب "هيكل" وكان وقتها في لندن وسأله "إذا كان يمكن ترتيب لقاء له مع "مرجريت تاتشر" رئيسة وزراء بريطانيا يعزز لقاءه مع "ميتران" ويعطيه دفعة دولية إضافية . لكن "مرجريت تاتشر" لم تكن مستعدة لسماع اسم "عرفات" فضلا عن مقابلته !

□

عاد السيد "ياسر عرفات" إلى تونس بعد هذه الأحداث الحافلة والمتوالية ، وانعقد اجتماع لبعض قادة منظمة التحرير لاستعراض ما جرى كله ومحاولة تقييم معانيه .

كان الاجتماع في بيت "أبو مازن" ، وشارك فيه كل من "أبو اللطف" و"محمود درويش" و"بسام أبو شريف" و"سعيد كمال" و"ياسر عبد ربه" و"أبو على مصطفى" . وبدأ "عرفات" يسأل رفاقه عن رأيهم فيما تحقق خلال الأيام العاصفة ما بين جنيف وستوكهولم؟ وكان أول المتحدثين هو "سعيد كمال" الذى أبدى رأيه قائلا : "الثمن غال يا "أبو عمار" ، ولم تأخذ شيئا إلا تعهد أمريكا بأن تستأنف حوارها معك ، وهذا يعيد الأمور إلى ما كانت عليه ، فقد كانوا يحاوروننا من قبل . والسؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا هو : ما هو مدى التزام إسرائيل بأى شيء نقوله لأمريكا أو تقوله لنا أمريكا ؟" وكان تعليق السيد "ياسر عرفات" هو قوله "صلِّ على النبى يا رجل ، هذه أمريكا" . وتدخل "أبو اللطف" في الحوار فقال : "المشكلة أن أمريكا فى الموضوع الفلسطينى صغيرة، ففى العالم كله تقوم إسرائيل بخدمة المصالح الأمريكية ، وأما فى العالم العربى فإن أمريكا هى التى تخدم مصالح إسرائيل ."

وجـاء الدور على "محمود درويــش" ــ وهـو شـاعر الثـورة الفلسـطينية الكبـير ــ وراح يتحدث من واقع خبرته بإسرائيل كرجـل عــاش تحـت حكمهـا سـنوات صبـاه وجـزءا مـن شبابه . وقال "محمود درويش" : "إنه يريد من "أبو عمـار" أن يعـرف ما هو مقبــل عليـه . فإسرائيل مستعدة للتعامل مع أى بلـد عربـى ، لكـن السـؤال هـل إسـرائيل قابلـة للتعـاون معنـا (المنظمة) والوصول إلى اتفـاق ؟ اعتقادى أن إسرائيل لن تقبـل باتفـاق معنـا إلا إذا كـان ذلك مؤديا فى النهاية إلى ابتلاعنا . وإذا كنا نريد أن نتعامل مع أمريكا فلا بد أن نفهـم أننـا نتحدث عن رهـان تاريخى بعيـد المـدى . وحلنا الوحيد الممكن ألا ننفـرد بشـىء ، وإذا أردنا أن نلعب على الكل فهذا لا ينفـع . وإذا أردنا أن نعمـل فى إطار الكل فهـذا ممكـن ."

وخطـر لأحد الحاضرين أن يسـأل "أبو عمار" عن مـن الـذى رتـب لهـذا الاجتمـاع فـى ستوكهولم ؟ وكان رد "عرفـات" أنه "بسام أبو شريـف" .

(ظهـر فيما بعـد أن جانبا من تحضيرات اللقـاء تمـت فى القاهـــرة ، وفـى بيـت تـاجر سـلاح عربـى معروف كان بيتـه فى ذلك الوقت ملتقـى لعناصر متعددة من نخبـة السلطة التى طفـت على السطـح فى العالم العربـى فى ذلك الوقت ، والتـى كـان تجـار السـلاح يلعبـون دورا رئيسيا فيها .)

ويبـدو أن مصـر كانت لديها معلومات تريد أن تبعـث بها لـ "ياسر عرفـات" تحذره من بعض ما كان يجـرى حوله . وكان "عرفـات" قـد سافـر مـن تونـس إلى بغـداد ، وهنـاك وصلته رسالة القاهـرة . وحين بـدأ الرسول الذى يحملهـا يتكلـم فـإن "ياسر عرفـات" بـدأ فجـأة يقـول كلاما لا علاقة له بالموضوع ، ويقوله بصوت عـال ، ثم يشـير إلى السقـف بما يعنى تخوفـه من وجـود أجهـزة تسجـل ما يقـال من كـلام . ثم قـال للرسـول : "قـم بنـا نتغـدى" . وصحبه بالفعل إلى حمـام السباحة الملحق ببيـت الضيافـة الـذى كـان يقـيم فيـه وأبلغــه رسـالـة القاهـرة ، وكانت طلبــا إليــه بضـرورة التفكير فـى الخطـوات القادمـة بعد ستوكهولـم .

الفصل الخامس

صيحة "الخطر الإسلامى"!

الدين هوية أولى يولد بها كل إنسان ،
وهى هوية بحتمية الأقدار قبل حرية الاختيار ،
وبالتالى فهى من الناحية الثقافية جلده العارى .
وإذا تعرض أى إنسان لأزمة
تمزقت معها هوياته المكتسبة الأخرى
مثل التربية والتعليم والثقافة وتجربة الحياة ـ
فإن الهوية التى تبقى له
هى هوية الطبيعة الأولى ـ
لحمه العارى . . .
الدين الذى ولد به !

١

رابــــــــــين

" قبل أن نتفـاوض علـى الحكـم الذاتـى لا بـد أن نتفاوض على كيفيـة مقاومـة التيـار الإسلامـى "

(الجنرال "أفرام سنيـه" وزير الصحـة فـى وزارة رابـين أثناء لقـاء سـرى فى باريس مع وفـد فلسطيـنى)

قدمت منظمة التحرير تنازلاتها إلى "جورج شولتز" وزير الخارجية الأمريكى وهـى تظـن أنها بذلـك تحولت من معسكـر المغضوب عليهم أمريكيـا إلى معسكـر المرضـى عنهـم . وكـان الاعتقاد أن الإدارة الأمريكية الجديدة التى أتـت بها انتخابات الرئاسـة فى نوفمبر ١٩٨٨ هى امتـداد عضـوى لإدارة "رونالد ريجـان" . ذلـك لأن الرئيـس الجديـد الـذى وصـل إلى البيـت الأبيـض هو "جورج بـوش" الذى كان نائبا لـ "ريجـان" ومطلعا علـى كـل سياسـاته ومسـاعدا نشـيطا فـى تنفيذهـا . وكـان "شولـتز" قـد قـال لكـل العـرب ، بمـن فيهـم الفلسـطينيون والمصريون ، "إنه ينسـق كل خطـوة يقـوم بها فى الشهور الأخيرة من رئاسـة "ريجـان" مـع نائب الرئيس "جورج بـوش" ."

وكان ذلك صحيحا ولكن فى وقتـه ، ذلك لأنه حتى مع استمرار السياسات فـإن تغـيير القيـادات واختـلاف الظروف يمكن لهما أن يدفـعا إلى عكـس ما كـانت تفترضـه الظنـون . وذلك ماحـدث فعـلا .

والحاصل أن تلك اللحظـة مـن نهايـة ١٩٨٨ وبدايـة ١٩٨٩ كـانت لحظـة فارقـة فـى السياسة العالمية كلها . ففى تلك الفترة كان الاتحاد السوفيتى يترنـح ، والكتلـة الشرقيـة على وشـك أن تنفـرط ، والولايات المتحدة تـرى رأى العين أن الحـرب الباردة قـد انتهـت لصالحها . وفيما يتعلق بالشرق الأوسـط فإن "جورج بـوش" فى المناخ الدولـى الجديد يريد أن يترك بصماته الخاصة على تلك الصفحـة من تاريخ المنطقة . وكـان "بـوش" يقـدر مبكـرا أن

أزمة الشرق الأوسط وإيجاد حل نهائى لها سوف يكونان من أهم القضايا التى تواجه رئاسته . وهكذا فإنه قرر تأليف لجنة خاصة برئاسة "لورانس إيجلبرجر" نائب وزير الخارجية و"دنيس روس" مدير التخطيط السياسى المكلف بالشرق الأوسط فى وزارة الخارجية - لكى تقوم بمهمة درس الخيارات المفتوحة أمام السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط .

وقبل انتخابات الرئاسة بأسابيع كانت هذه اللجنة قد قدمت إلى "جورج بوش" تقريرها تحت عنوان : "البناء من أجل السلام" building for peace . وكانت النقاط البارزة فى تقرير "البناء من أجل السلام" على النحو التالى :

١ - إن المصالح الحيوية للولايات المتحدة لم تعد تواجه خطرا حقيقيا فى منطقة الشرق الأوسط لأنه لم يعد هناك تحد سوفيتى يعطلها ، أو تمرد من جانب أى قوة محلية فى المنطقة يعوق خططها .

٢ - إنه والحال كذلك ، فإن الوقت قد حان لكى تعيد الولايات المتحدة صياغة وتأكيد مطالبها فى المنطقة بما فى ذلك إعادة رسم خريطتها إذا دعا الأمر .

٣ - ونظرا لأن المنطقة كلها فى حالة سيولة شديدة وخطرة انتقلت بها مواقع التأثير من سلطة الزعماء والحكومات والجيوش إلى زحام الطوائف والميليشيات والشوارع - فإن السياسة الأمريكية فى المنطقة لا بد لها أن تتحرك على مهل حتى لا تصطدم بألغام غير مرئية غاطسة تحت السطح فى مستنقعات الوحل والدم التى تغطى بقعا كثيرة من ساحة الشرق الأوسط .

وبالتالى فإن "جورج بوش" ، وعندما بدأت إدارته مباشرة مسئولياتها ، لم يكن فى عجلة من أمره .

□

فى نفس الوقت كانت إسرائيل تواجه ظرف تغيير دستورى وسياسى محتمل . فهناك انتخابات للكنيست ، وقد أسفرت هذه الانتخابات عن مأزق وزارى لأن مجموعة الليكود تساوت تقريبا فى عدد ما حصلت عليه من المقاعد مع مجموعة حزب العمل ، وأصبح ميزان الترجيح فى يد شظايا الأحزاب الدينية الصغيرة . وهذا خلق وضعا قلقا ومعرضا للمفاجآت . وكانت بعض الدول العربية ، وبينها مصر ، قد حاولت التدخل فى

الانتخابات الإسرائيلية لصالح حزب العمل ، فقامت بعض القوى العربية بإرسال تبرعات للحملة الانتخابية لحزب العمل عن طريق أطراف ثالثة معظمها من أحزاب الدولية الاشتراكية . وفيما يتعلق بمصر فإنها حاولت التدخل بمحاولة إقناع بعض الكتل من الناخبين الفلسطينيين ممن يحملون الجنسية الإسرائيلية بالتصويت لصالح حزب العمل . لكن كتلا انتخابية عربية كثيرة كانت ميالة إلى تأييد مرشحي الليكود لاعتبارات تتعلق بالخدمات المحلية وليس بالتوجهات السياسية . ورغم أن مبعوثا مصريا هو الدكتور "مصطفى خليل" جرب فى ذلك الوقت إقناع عدد من الزعماء المحليين العرب بتوحيد كتلة الأصوات العربية لكى يكون لها وزن سياسى لصالح حزب العمل الذى كانت السياسة المصرية على يقين بأنه أكثر اعتدالا من مجموعة الليكود ، فإن الدكتور "مصطفى خليل" وجد أن العنصر المحلى هو الأكثر تأثيرا فى ذلك الوقت على اتجاه أصوات الناخبين العرب .

وبالقواعد البيزنطية المعقدة التى تجرى بها حسابات المقاعد فى الكنيست ، فإن "إسحاق شامير" تمكن من تأليف وزارة إسرائيلية شارك فيها حزب العمل ، لكن "شامير" أعلن عدوله نهائيا عن فكرة تبادل رئاسة الوزارة بين الحزبين الكبيرين . فقد كان عدد الأصوات المؤيدة له فى الكنيست يفوق عدد الأصوات المؤيدة لحزب العمل (٤٠ ـ ٣٩) بثلاثة أصوات أعطتها له الأحزاب الدينية الصغيرة ـ وبينها حزب "شاس" ـ ومن ثم رجحت كفته .

وكان "شامير" يعرف أنه بعد كل التنازلات التى قدمتها منظمة التحرير للولايات المتحدة الأمريكية أثناء الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة فى جنيف ـ فإن منظمة التحرير الفلسطينية تملك أو تظن أنها تملك أسبابا للاعتقاد بأنها الآن مفاوض معترف به مع الولايات المتحدة وأيضا مع إسرائيل . وأراد "شامير" أن يستبق الحوادث فتقدم بمشروع للحكم الذاتى للفلسطينيين يقوم على أساس انتخابات محلية داخل الأرض المحتلة لمجلس تنفيذى يبحث المشاكل مع السلطات الإسرائيلية بقصد الوصول إلى تسوية مؤقتة حتى نهاية فترة انتقالية مدتها خمس سنوات يجىء بعدها دور الحل النهائى للمشكلة الفلسطينية .

وكان ذلك الحل ـ بكل ما بان من استقراء النيات والتصرفات ـ يستبعد منظمة التحرير. وكان "شامير" من الصلافة عندما سئل فى هذا الأمر بحيث أجاب : "أليس صحيحا أن عرفات يزعم فى كل ما يقول إن الفلسطينيين كلهم فى يهودا والسامرة مؤيدون لمنظمة التحرير ؟ .. إذا صح كلامه فإن أى مرشح فلسطينى ينجح لا بد أن يكون بالضرورة من منظمة التحرير ، وإذن فنحن لا نستبعد المنظمة وإنما نعطيها الساحة مفتوحة كما تريد" !

وبدا "شامير" واثقا من موقفه ، وساعده على هذه الثقة أن حزب العمل كان يشهد صراع حيتان على رئاسته بين "شيمون بيريز" و"إسحاق رابين" . وكانت كراهية الاثنين لبعضهما أسطورية فى السياسة الإسرائيلية . وفى هذا الظرف المزدحم بالمتغيرات كان على القمة فى إسرائيل ثلاثة رجال يتصارعون فيما بينهم : "شامير" و"بيريز" و"رابين" . وكانت خطة "شامير" أن يستميل "رابين" وأن يزيد الفرقة بينه وبين "شيمون بيريز" . وفى الواقع فإن الاقتتال الداخلى على المناصب الرسمية فى إسرائيل كان دمويا . وكان للدكتور "مصطفى خليل" - وهو مراقب مهتم بالساحة الإسرائيلية - رأى فى هذا الاقتتال مؤداه "أن المجتمع الإسرائيلى كله مجتمع مهاجرين جاءوا من كل بقاع الأرض ، وليس فيهم من يعرف غيره أو حتى يعرف نفسه ، وقيمة أى واحد منهم أمام الناس وأمام نفسه أن يكون فى منصب ، فالمنصب وحده هو الذى يعطيه القوة ويبقيه فى فكر وذاكرة الناس، وإذا أفلت ذلك منه ضاع كل شيء" .

وكان ذلك صحيحا بالتجربة ، فرغم كل الإهانات التى تعمد "شامير" أن يلحقها بـ "شيمون بيريز" ، فإن "بيريز" لم يخرج من الوزارة . ورغم كل الدسائس التى يعرف "رابين" أن "بيريز" يرتبها ضده ، فإنه لم يترك ذلك يؤثر على منصبه الوزارى . والحال هو نفس الحال بالنسبة لـ "رابين" ، وبالنسبة لرئيس الوزراء "إسحاق شامير" أيضا . والواقع أن ذلك خلق أوضاعا خطيرة فى بعض الأحيان . فالكبار متصادمون فى آرائهم وشخصياتهم لكن أحدا منهم ليس مستعدا للخروج وفتح الطريق بذلك أمام سياسة تتضح معالمها وخطوطها .

□

وفجأة فى نيويورك وفى تل أبيب بدأت صيحة الخطر الإسلامى ، وأنه التهديد المقبل فى المنطقة ، وإذا لم يجر تداركه بسرعة فأرجح الاحتمالات أن يكون الإسلام هو شكل المستقبل فى الشرق الأوسط .

كانت إيران قد خرجت من الحرب منهزمة أمام العراق الذى حقق تفوقا فى الشهور الأخيرة فى الحرب بفضل استعمال كثيف لسلاح الصواريخ ، الأمر الذى اضطر "آية الله الخمينى" إلى قبول وقف إطلاق النار قائلا "إنه كان يؤثر أن يتجرع كوبا من السم ولا ينطق بقبول وقف إطلاق النار" . وراجت مقولة بأن الثورة الإسلامية فى إيران سوف تعوض تراجعها العسكرى أمام العراق بانتشار سياسى إسلامى واسع يغطى وجه المنطقة.

وكان نشاط "حماس" فى قطاع غـزة ، وعمليات حـزب الله فى جنوب لبنـان ، إلى جـانب صحـوة التيار الدينى فى مصـر ـ تعطـى دلائـل يمكن بها تأييـد هذا الظـن .

وراحـت كل معاهد الدراسات السياسية والأبحاث الاستراتيجية فى تل أبيـب والقـدس وفى نيويـورك وواشنطن ترفـع عاليا إشارات التحذير من الخطـر الإسلامـى .

وجـرت محاولات لمواجهـة هـذه الصيحـة بخطـر التيـار الإسلامـى ، وبذلـت بعض الجهود ، ومنها أن السيد "حسيب صباغ" تـبرع بمبلـغ مليـون دولار لإنشـاء مركـز للحـوار الإسلامـى ـ المسيحـى تابع لجامعة "جورج تاون" . ثم رأس وفـدا إلى الفاتيكان لمقابلة البابـا ضـم بين أعضائه الدكتور "أودونوفان" رئيـس جامعـة "جـورج تـاون" ، وهدفهـم أن يشـرحوا للبابـا أن مقصدهم بالدرجة الأولى هو إقامـة جسـر بين المسيحية والإسـلام لمنـع سـوء التفاهـم بين الديانتين الكبيرتين . وكان البابـا حين لقـوه مرهقـا ، وقد استمـع إليهم شبـه شـارد، وراح يخبـط بكـف إحدى يديـه على ظهر اليـد الأخرى ويقـول : "نعـم ، نعـم .. المسلمون ... المسيحيون ... فلسطين ... القـدس ."

وفى اجتماعات فى القاهـرة كان "ستيف كوهين" ممثـل "المؤسسة" يتحـدث مع كل مـن يتصل بهـم من الفلسطينيين بما مؤداه أنهم فـى غفلـة عـن الحقيقـة ، فـالخطر علـى منظمـة التحرير لم يعـد الجيش الإسرائيلى ، وإنما الخطـر على شعبيـة المنظمة وعلى قيادتهـا وعلـى فاعليتها هو خطـر "حمـاس" .

وفى باريس وفى اجتماع عقـد فى فندق "نككـو" اليابـانى فـى العاصمـة الفرنسيـة بـين ممثلـين للمنظمة وبين الجنرال "أفراييم سنيـه" (وزير الصحة وقتها فـى إسـرائيل) ، انهمـك الجنرال "سنيـه" فى محاضرة عن الخطـر الإسلامـى القادم ، وقـال لمحاوريه الفلسـطينيين : "قبل أن نتفاوض على الحكـم الذاتى لا بد لنا أن نتفاوض على كيفية احتواء التيار الإسلامـى خصوصا ذلـك الـذى تمثلـه حمـاس" . وقـال لـه أحـد محاوريـه مـا مـؤداه أن "السـلطات الإسرائيلية هـى التى أعطـت لحمـاس رخصـة بالعمل" . ورد الجنرال "سنيـه" قائلا : "هـذا هو القانون الإسرائيلى .. طلبوا إذنـا بتأليف جماعة ولم نجـد مانعـا مـن القـانون ، وحصلـوا على الإذن" . ثم استطرد : "وإذا كان بينكم من يريـد أن يقول إننا أعطيناهم هذا الإذن لكـى يكونوا نقيضا وبديـلا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فإننى لـن أعـترض ، وإنمـا سـوف أسمـح لنفسى بتذكيركم أن ذلك جـرى فى وقـت كانت منظمة التحرير ملتزمة فيه بميثاقها الوطـنى بالقضـاء على إسرائيل" .

وحين حاول أحـد القـادة الفلسطينيين المشاركين فـى الاجتمـاع أن يستمـر فـى الجـدال حول هذه النقطـة ، رد الجـنرال "سنيــه" غاضبـا : "أ .. و .. ف .. أنـا أحدثكـم بمنتهـى

الصراحة عن خطر يهددنا كما يهددكم فى المستقبل ، وأنتم مصرون على العودة إلى الماضى ومحاكمة إجراءاته" .

□

كان "شيمون بيريز" أكثر قادة إسرائيل حماسة فى التحذير من " الخطر الإسلامى" الذى زعم أنه يراه أخطر من أى خطر آخر يتهدد إسرائيل . وربما أن "بيريز" كان أيضا يريد أن يأخذ "رابين" من أحضان "إسحاق شامير" . وهكذا فإنه بدأ يطلب ويلح على أصدقائه فى القاهرة بضرورة دعوة "رابين" لمقابلة الرئيس "مبارك" وغيره من أركان النظام فى مصر . ولبعض الوقت لم تكن هناك استجابة فى القاهرة لدعوة "رابين" إليها ، فقد كان هو وزير الدفاع الذى نذر على نفسه تكسير عظام الانتفاضة وهرس لحمها . ولم يكن ذلك شيئا يجعله ــ من زاوية العلاقات العامة ــ ضيفا ترضى القاهرة فى ذلك الوقت بتحمل مسئولية استضافته .

وتحركت "المؤسسة" ، وبعث "ستيف كوهين" برسالة إلى السيد "ياسر عرفات" يقول فيها إن "هناك تغييرات هامة تحدث لرابين وتطال أفكاره وسياساته ولا بد من استغلالها، وإن هذا هو رأى شيمون بيريز أيضا . وشيمون بيريز اقترح أكثر من مرة دعوة رابين لزيارة القاهرة ، ولكن القاهرة لم تعط اقتراحه ما يستحق من اهتمام ." ويستطرد "ستيف كوهين" فيقول فى رسالته : "إن رابين بدأ يشعر الآن بأهميتكم ، لكنكم لا تزالون من وجهة نظره الأعداء والغرباء ، لكنه إذا تحدث إلى مبارك فإن تردده قد لا يطول" . وعلى هذا الأساس فقد كان السيد "عرفات" نفسه هو الذى طلب من الرئيس "حسنى مبارك" أن يوجه دعوة إلى "رابين" . وكان أن قام الرئيس "مبارك"، وفى حضور السيد "ياسر عرفات"، برفع سماعة التليفون فى مكتبه طالبا توصيله بالسفير "محمد بسيونى" فى تل أبيب وإبلاغه توجيه دعوة رسمية باسم الرئيس "مبارك" إلى "إسحاق رابين" لزيارة القاهرة والاجتماع به .

وكان "رابين" ذلك اليوم فى زيارة للولايات المتحدة ، وكان موجودا فى مدينة "فيلادلفيا" . وطلب السيد "ياسر عرفات" إبلاغ "ستيف كوهين" بأن الدعوة أبلغت فعلا إلى "رابين" بزيارة القاهرة . وكان تعليق "ستيف كوهين" هو قوله "it will work" ، ومعناها أن الزيارة سوف تؤدى إلى نتيجة إيجابية .

كان "رابين" بالفعل فى مرحلة تفكير وتأمل . وفى لقاء له مع الدكتور "مصطفى خليل" قال "رابين" إنه بدأ يرى شيئا مختلفا فى الموضوع الفلسطينى من خلال تعامله مع

الانتفاضة ، وإنه توصل برؤيته إلى :

"١ ــ إننا كنا نتصور أن فى مقدورنا أن نعيش معا إسرائيليين وفلسطينيين داخل دولة واحدة . واكتشفنا من خلال الانتفاضة أن ذلك مستحيل .

٢ ــ وإذا كانت الحياة المشتركة مستحيلة بيننا وبينهم ، فإننى كجندى محترف أجد شجاعتهم مستوجبة للاحترام . وهذا يعطيهم الحق فى كيان منفصل .

٣ ــ لكن هذا الكيان لابد أن يكون على صلة ما مع الأردن لكى يكون هناك ضمان لتصرفاته مستقبلا ."

ثم يستطرد "رابين" فيقول : "إننى لا أرى أن ذلك الكيان المنفصل يمكن أن يقوم بالمنظمة ولا أن يأخذ شكل دولة" .

وفى شهر سبتمبر ١٩٨٩ كان "رابين" بالفعل فى القاهرة . وقد استمع إلى آراء كثيرة ، ثم قال كلاما كثيرا كان أهمه :

- إنه ("رابين") يدرك أن هناك تغييرات فى موقف المنظمة ، وهو لا يستبعد أى شىء، لكنه يعد بأن يعيد تقييم الأوضاع من جديد على ضوء ما سمع فى القاهرة .
- إنه ("رابين") لا يرى أن إعادة النظر فى شأن منظمة التحرير ممكنة فى ظل هذه الحكومة (حكومة الائتلاف برئاسة "شامير") . وعلى أى حال فإنه "عندما يحين الوقت المناسب فإن عرفات يستطيع أن يعين وفد اتصال فلسطينى مع إسرائيل من أبناء الضفة الغربية. وما دام هو يقول إن الشعب الفلسطينى هو كله منظمة التحرير، فإن أى شخص يختاره سوف يكون ممثلا له حتى لو اختار بسام الشكعة ."
- إنه ("رابين") لا يستطيع فى الظروف المرئية وحتى فى ظل حكومة أخرى ـ أن يتصور تعاملا مباشرا إسرائيليا مع منظمة التحرير .
- إنه ("رابين") يتمنى أن يجد حلا للقضية الفلسطينية . فهو على وشك أن يصل إلى سن السبعين ، ويتمنى أن يستطيع جيله الذى خاض الحرب لإقامة دولة إسرائيل أن ينهى حياته بتقديم السلام لها .

كان "رابين" فى القاهرة يتكلم بثقة وكأنه بالفعل رئيس الوزراء . ولعل مبعث ثقته كان إدراكه أنه هو وليس غيره ابن المؤسسة العسكرية فى إسرائيل ، وهى الضامنة دواما لأمن الدولة . وقد أعطى "رابين" الإحساس بأن الفارق بينه وبين "بيريز" رغم انتماء كل منهما إلى المؤسسة العسكرية ـ هو أن "بيريز" ابن للمؤسسة العسكرية بالمعنى الوظيفى ــ أى

ابن بالتبنى بحكم عمله الطويل فى وزارة الدفاع وإشرافه على برامج تسليح إسرائيل منذ اتفاقه مع فرنسا سنة ١٩٥٦ . وأما هو ("رابين") ، فهو الابن الشرعى للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية (وهى مؤسسة الحكم الحقيقية فى إسرائيل) .

□

كان الموقف العربى فى تلك المرحلة يواجه انهيارات بعضها خارج إرادته وبعضها من صنعه . والحاصل أن الموازين الدولية تغيرت بالنسبة للعرب وسقط السند الدولى الذى كانت منظمة التحرير وغيرها ما زالت تظن أنها قادرة على الاعتماد عليه . وكان سقوط حائط برلين يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ زلزالا لا مهرب من الإحساس به والخوف منه والتحسب لتوابعه ! فقد أصبح الاتحاد السوفيتى أطلال إمبراطورية آيلة للزوال . ولم يكن زوال الإمبراطورية السوفيتية هو الوجع فحسب ، وإنما زاد الوجع إيلاما بحقيقة أن الاتحاد السوفيتى ، الذى تساقط مثل بناء تهاوت قوائمه ، لم يكن فى مقدوره إلا أن يتحول إلى تابع للسياسة الأمريكية ولو لفترة من الزمن . وبتداعى التوابع بعد الزلزال فإن أبواب الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى فتحت على مصاريعها لإرضاء الكونجرس حتى يقبل الموافقة على معاملة الاتحاد السوفيتى بـ "قاعدة الدولة الأولى بالرعاية" . وبدأت قوافل الهجرة من الاتحاد السوفيتى - ومن أوروبا الشرقية عموما - تنزح إلى إسرائيل . وبدا أن الأزمة السكانية الناشئة من محدودية عدد اليهود فى إسرائيل - مع ضعف نسبة الإنجاب بينهم - قد وجدت حلا لم يخطر ببال العرب فى أكثر كوابيسهم إثارة للرعب. وفى ظرف سنة واحدة من فتح أبواب هجرة اليهود من أوروبا الشرقية إلى فلسطين تدفق على إسرائيل قرابة مائتى ألف مهاجر . وكان ذلك تغييرا كيفيا ونوعيا فى العنصر البشرى الإسرائيلى يستحق التقييم والمراجعة .

والشاهد أن هذه المتغيرات الدولية الكبرى وعواقبها أحدثت ما يشبه حالة اختلال فى التوازن فى الفكر العربى . وبدا الفكر العربى فى مختلف مواقعه مفاجأ بالمتغيرات الكبرى التى حدثت . وراح كثيرون يفلسفون ما يرون دون تنبه كاف لأصوله وجذوره . وساد تصور بأنه "عصر التسويات الكبرى" وأن العرب عليهم أن يسارعوا بملاحقة العصر واستباقه إذا استطاعوا . وكان مما ساعد على خلل التوازن أن الدور المصرى بخصائصه الفكرية والثقافية والسياسية والعلمية (بل والتعليمية أيضا) كان يعيش حالة تراجع . وكانت الحقبة السعودية فى ذروة دورها وتأثيرها ، لكن المشكلة الكبرى أن هذه الحقبة السعودية كانت

تعتمد على عنصر واحد من عناصر القوة ـ وهو المال السائل . ولم يكن ذلك كافيا لظهور قيادة جديدة فى العالم العربى فى إطار حقبة سعودية . ورغم أن هذه الحقبة حاولت بشدة ـ خصوصا فى مجالات الإعلامين المرئى والمكتوب ـ فإن جهدها لم يكن كافيا لإقناع أغلبية عربية بأن هناك قيادة جديدة ظهرت لتقود الأمة إلى عصر جديد ، بل إن دخول المال فى العمل العام كعنصر أساسى ووحيد أدى إلى فرقة ذات سمة طبقية قسمت العالم العربى إلى أغنياء وفقراء !

وبالطبع ، فإن هذه الأجواء كلها انعكست على المواقف والتوجهات الفلسطينية . ومع ذلك فقد راحت المنظمة تحاول من خلال الحوار الذى بدأته الولايات المتحدة معها بناء على الاتفاق مع "جورج شولتز" ، ولم يكن ذلك الحوار قادرا على الوصول إلى شىء . وطبقا لشهادة "أبو إياد"، وكان هو الطرف الرئيسى فيه مع "روبرت بللترو" السفير الأمريكى فى تونس ، فإن هذا الحوار ظل محصورا فى أسئلة يوجهها "بللترو" تباعا ويجيب عليها "أبو إياد" فى جلسة بعد جلسة تنعقد فى تونس . وعلى حد تعبير "أبو إياد" : "فقد كنا نواجه امتحانا كل أسبوعين أو ثلاثة ، توضع أمامنا أسئلة ونجيب عليها ، ثم لا نعرف نتيجة الامتحان وهل نجحنا فى الإجابة أو أننا رسبنا فى الامتحان".

□

ويوم ٣٠ مايو ١٩٩٠ قامت حركة "تحرير فلسطين" (وهى منظمة موالية للعراق) بعملية فدائية حاولت فيها أن تغير بقوارب سريعة على شواطىء تل أبيب . ولما كانت حركة "تحرير فلسطين" طرفا من أطراف المنظمة ، فإن "جيمس بيكر" وزير الخارجية الأمريكى أعلن "أن الحكومة الأمريكية مضطرة إلى تجميد الحوار مع منظمة التحرير لأن المنظمة عادت إلى العمليات الإرهابية بواسطة أحد أطرافها" . والحوار فى رأيه غير قابل للاستئناف إلا إذا قامت قيادة منظمة التحرير بمحاكمة الحركة المسئولة وطردها من عضوية المنظمة . وكان ذلك أكثر مما يتحمله وضع "ياسر عرفات" أو يقدر عليه .

وكان الشعور بالإحباط جارفا .

٢

جيمس بيكر

" هذه هي عبرة دروس تفاوضنا الطويل مع إسرائيل ، وسوف نقدمها لكم "

(مقدمة اجتماعات حضرها الوفد الفلسطيني المفاوض في مؤتمر مدريد مع مجموعة من الساسة والخبراء المصريين)

فى ظلال هذه الحالة من الإحباط العام التى جرفت الأمة العربية وقعت أزمة الخليج وقام العراق بغزو الكويت . وانساق العالم العربى إلى واحدة من أخطر أزماته وقد فقد السيطرة الكاملة عليها بعد ساعات قليلة من قيامها . بل وانتقلت هذه السيطرة إلى أيد أخرى لها أهدافها البعيدة المدى ولها دوافعها ولها خططها .

وفى هذه الأزمة فإن منظمة التحرير وجدت نفسها فى الجانب الذى كان محكوما عليه (بحقائق موازين القوة ــ بما فيها السلاح) أن يلقى الهزيمة . وعلى أى حال فسوف تظل مقدمات وملابسات ومسار الأحداث فى أزمة وحرب الخليج الثانية مثار جدل طويل ، خصوصا حين تتكشف الحقائق بأبعد من الشكل السطحى للمنحنى الذى أخذته تصرفات الأطراف طوال فترة الأزمة والحرب .

والمهم فى الشأن الفلسطينى أن السيد "ياسر عرفات" رأى الأزمة فرصة تصور أن الطرف الفلسطينى يستطيع أن يقوم بدور خلالها . لكن هذا الدور كان ميئوسا منه من البداية ، فمنظمة التحرير لا تملك الثقل الكافى ضمن موازين القوة بحيث تستطيع التأثير على حركتها . ثم إن مناخ الاستقطاب الحاد الذى غلب على الأزمة منذ أول لحظة وأراد أن يأخذ كل المنطقة بدعاوى المبادىء والعواطف ــ أرغم كثيرين على مواقف تبدو فى ظاهرها قابلة للالتباس . ومن أثر ذلك أن بدا "ياسر عرفات" وكأنه مؤيد للعراق فى غزوه للكويت . وربما أن كثيرين كانوا يريدون دفعه إلى هذا الموقف بأكثر مما يريد . وعلى أى

حـال فقد كانت هناك عوامـل موضوعيـة سـاعدت علـى وضـع "ياسر عرفـات" فـى موضـع يتخـوف منه ويعارضه آخرون من قـادة منـظمة التحريـر الكبـار وفـى مقـدمتهم "أبـو إيـاد" و"أبو مازن" وغيرهما .

وكانت أهـم هـذه العوامـل الموضوعيـة :

١ ــ إن "ياسر عرفـات" كان يعانى شعورا زائـدا بالإحبـاط . فكل التنازلات التى قدمها لمجرد أن تقبـل الولايات المتحدة بفتـح بـاب الحـوار معه ذهبـت سـدى وتبـددت أية آمـال علقـت عليها . وتأكـد ذلك بعد قـرار الولايـات المتحـدة بتجميـد الحـوار مع المنظمة فى أعقاب محاولة الغـارة التى قامـت بها "حركـة تحريـر فلسطـين" .

٢ ــ إن منافسة التيـار الإسلامـى فى الشارع الفلسطيـنى لـ "حركة التحريـر الفلسـطينية" كانت تسـاعد على أن يظهـر هذا الشـارع خارجـا عــن طـوع منظمـة التحريـر وعن توجيهها .

٣ ــ إن الدول النفطية العربيـة التى كان الظـن بأن تأثيرها على الولايات المتحدة نافـذ ، لم تفعل شيئا إزاء قرار الولايات المتحـدة بتجميد الحـوار مـع المنظمـة رغـم أن هـذه الدول وأصدقاءهـا كـانوا الأكـثر إلحاحـا علـى قيـادة المنظمـة لقبـول الشـروط الأمريكية للحـوار .

٤ ــ إن النظام فى العـراق فى رغبته لاجتـذاب أكبر قطاعات من الجماهير العربية تبنّـى القضية الفلسطينية بالكامل . وفى لحظة من اللحظات بـدا وكأن هذا النظـام يملـك ترسانة حربيـة هائلـة ــ خصوصا فى الصواريخ ــ قد لا تستطيع أن تهـزم إسـرائيل فى ميدان قتال ، وإنما تستطيع على الأقـل أن ترغمها على إجـراء حسـاب يحـد من الجموح . وكان ذلك مُهمّـا خصوصا بعد خروج مصـر من معادلة القـوة العربية ، وخروج الاتحاد السوفيتى من معادلة القـوة الدوليـة . وكان السـيد "ياسـر عرفـات" قد اندفع بعيـدا فى انحيازه للعـراق أثنـاء الحـرب ضـد إيـران ، وكـان ظنـه أن الجيش العراقى المنتصر بعد الحـرب مع إيـران سوف تكون لديه "ستّون فرقـة" ــ على حـد قوله ــ مهيأة للعمـل على الجبهـة الغربيـة .

٥ ــ إن الـرأى العـام الفلسطينى فى شعوره بالإحبـاط مـن ممارسـات جهـود "التسويـة السلميـة" أصبح مفتونـا بحديـث القـوة العراقيـة خصوصـا عندمـا تحـدث الرئيـس "صـدام حسين" صراحة عن الإمكانيات العراقية القادرة على إحـراق نصـف إسرائيل إذا هى استعملت سلاحا نوويا ضـد العـراق . وهكذا فإن مشاعر الشعـب الفلسـطينى سحبـت وراءها مواقف قيادتـه .

٦ ـ إن العراق فى هذه الفترة قدم للمنظمة كل الاعتمادات المالية التى كانت تطلبها والتى تعذر الحصول عليها من دول الخليج التى اعتبرت أن اتفاق "الصمود والتحدى" فى بغداد سنة ١٩٧٩ قد انتهى أجله ، وهو عشر سنوات سنة ١٩٨٩ ، وبالتالى فإن مدفوعات تلك الدول للمنظمة (وفقا لاتفاق بغداد) انتهى أوانها بعد أن تم الوفاء بها طوال مدة الالتزام بمقتضاها . وفى هذه الفترة ، وبينما "عرفات" يلح على دول الخليج لكى تواصل الدفع ، جاءت كلمة الرئيس "صدام حسين" المشهورة فى مؤتمر القمة العربى فى العاصمة العراقية صيف سنة ١٩٩٠ ، والتى قال فيها موجها كلامه لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية : "والله يا أبو عمار لن يتركك العراق تحمل الصينية وتدور بها طالبا الصدقة من هؤلاء الشيوخ" . وبالفعل فإن الحكومة العراقية قدمت للمنظمة فى النصف الأول من سنة ١٩٩٠ قرابة ٥٠ مليون دولار .

٧ ـ إن السيد "ياسر عرفات" كان لديه اعتقاد يصعب تبين أساسه بأن أزمة غزو الكويت سوف يتم حلها بوسيلة أخرى غير السلاح . وربما أنه كان على علم بطرف من الحديث الذى دار قرب مدريد سنة ١٩٨٢ بين "ويليام كايسى" مدير المخابرات المركزية الأمريكية والدكتور "فاضل البراك" رئيس المخابرات العراقية ، والذى أبدى فيه "كايسى" معارضة شديدة لسلخ مقاطعة "خوزستان" من إيران وضمها إلى العراق عندما يتحقق انتصاره بعد حرب الخليج . وفى نفس الوقت فإن "ويليام كايسى" لم يعترض بشدة حين أشار الدكتور "البراك" إلى مطالب العراق التاريخية فى الكويت مشيرا إلى أن هذا حديث مؤجل إلى ما بعد الحرب ، ومضيفا "أن الولايات المتحدة ليست مرتبطة باتفاقيات أمنية تجاه دول الخليج" . ولم يكن خافيا على السيد "ياسر عرفات" أن هذه الكلمات هى نفس الكلمات التى استعملتها السفيرة الأمريكية فى بغداد "إبريل جلاسبى" خلال حديثها مع الرئيس "صدام حسين" وهو يبحث معها ما وجده "استفزازات اقتصادية وأمنية تقوم بها حكومة الكويت ضد بلده" . ولعل السيد "ياسر عرفات" وهو يتذكر ذلك قدّر أن الحشود العسكرية الأمريكية عملية تخويف نفسى تمهد المسرح لتسوية سياسية يخرج بها العراق من الكويت محتفظا بجزيرتى "بوبيان" و"وربة" إلى جانب النصف الآخر من حقل بترول الرميلة .

وكان ذلك خطأ فى الحسابات ، ولعله خطأ فى المعلومات ، لأن قرار تصفية القوة العسكرية العراقية وتدميرها بالكامل حتى ولو أدى الأمر إلى تدمير العراق كان قرارا نهائيا اتخذه الرئيس الأمريكى "جورج بوش" يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ (أى يوم دخول القوات العراقية إلى الكويت) . ثم إن المسرح السياسى تم إعداده للمذبحة

يومى ٦ و ٧ أغسطس أثناء زيارة "ريتشارد تشينى" وزير الدفاع الأمريكى ، وبصحبته الجنرال "نورمان تشفارتزكوبف" للمنطقة فى هذين اليومين .

ودون الدخول فى تفاصيل سوف تتكشف أسرارها ودخائلها فى يوم من الأيام ، فإن العواصم العربية ـ وبدون استثناء ـ تورطت فى ألعاب أكبر من علمها ومن قوتها ، وتحولت إلى لعب فى صراع كبير ظنت فيه خطأ ووهما أنها ضمن اللاعبين . وكأن الظروف تصنع حقائقها ، وأولها أن إسرائيل أصبحت القوة النافذة فى المنطقة بغير منازع :

- فقسم من العرب أعطوها الذرائع دون أن يفهموا .
- وقسم آخر من العرب أعطوها الوسائل دون أن يدركوا .

وعندما انتهت معارك حرب الخليج الثانية ، كان العالم العربى كله فى قبضة مقادير مأساوية ، وكانت لدى إسرائيل كل الحظوظ السعيدة . والحاصل أن الحرب وضعت عددا كبيرا من الحكومات العربية فى وضع الحليف لإسرائيل ، وسقطت محاذير كثيرة لم يتنبه أحد إلى سقوطها ـ وكان بعضها بسيطا مرق بين زحام الحوادث دون أن يتوقف أحد ليسأل عن معناه ودلالته . ومن ذلك مثلا أن الإذاعات الخارجية الموجهة إلى العالم العربى باللغة العربية كانت فى السابق تحرص باستمرار على ألا تحمل موجاتها أصواتا إسرائيلية أو آراء مباشرة من إسرائيل . وفجأة ، ومع بداية الأزمة إذا هذه الإذاعات كلها تتجاوز المحظور ، وإذا الأسماء الإسرائيلية والأصوات الإسرائيلية والآراء الإسرائيلية تتدفق مع موجات الإذاعات وتردداتها .

لم يقف أحد ليسأل لأن الكل كان مأخوذا بمقولات "عصر التسويات الكبرى" وبـ"النظام العالمى الجديد" الذى جاء فى آخر الزمان ليملأ الأرض حقا وعدلا بعد أن ملأتها الصراعات القديمة جورا وظلما .

□

كانت منظمة التحرير فى أسوأ أحوالها بعد انتهاء الحرب . فموقف "ياسر عرفات" فى حرب الخليج وضع المنظمة فى صف المهزومين . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت المنظمة قبل الحرب بساعات قد فقدت عددا كبيرا من طلائع قياداتها بينهم "صلاح خلف" و"هايل عبد الحميد" ـ وكلاهما جرى اغتياله غدرا فى تونس برصاص فلسطينى تحيط بسيرته شكوك كثيرة هى بعض أزمة العمل الفلسطينى . وهكذا فإن المنظمة المهزومة فى

حرب الخليج ، والتى فقدت صفوة قياداتها فى تصفيات فلسطينية ـ فلسطينية كانت مستثناة من اللحظة الأولى من بركات "عصر التسويات الكبرى" ومن رحمة "النظام العالمى الجديد" .

توقفت معارك حرب الخليج الثانية يوم ٢٨ فبراير ١٩٩١ . وبعد أسبوع واحد ، وفى خطاب الاحتفال بالنصر أمام الكونجرس يوم ٦ مارس ١٩٩١ ، أعلن الرئيس الأمريكى "جورج بوش" أن الولايات المتحدة عازمة وبحزم على تسوية الصراع العربى ـ الإسرائيلى بحيث تستطيع شعوب الشرق الأوسط كلها أن تعيش فى "سلام وازدهار" . وأعلن "بوش" ضمن الخطاب أن وزير خارجيته "جيمس بيكر" سوف يتوجه إلى المنطقة لوضع خطوط التسوية وتهيئة الأجواء لمفاوضات تتوصل إلى معاهدات سلام نهائية بين العرب وإسرائيل .

وقام "جيمس بيكر" بثمانى زيارات متلاحقة لمنطقة الشرق الأوسط ليستكشف الإمكانيات ويلتقى بالقيادات ويرتب لإخراج المفاوضات المنتظرة .

ولم يكن التفكير الجديد بعيدا عن التفكير القديم :

١ ـ كان الإطار مؤتمرا دوليا يكون مجرد واجهة علنية عامة لمحادثات ثنائية منفصلة بين كل دولة عربية وبين إسرائيل .

٢ ـ وكانت رعاية المؤتمر للقوتين العظميين (كما اقترح "جورباتشوف" على "ريجان" قبل سنوات) . وبما أن الاتحاد السوفيتى كان وقتها يتفكك ، فإن الرعاية الحقيقية للمؤتمر الدولى اقتصرت فى حقيقة الأمر على الولايات المتحدة .

٣ ـ وكانت منظمة التحرير الفلسطينية مستبعدة من العملية بعقاب مغلظ مرتين : مرة لأنها ارتكبت ما دعا الولايات المتحدة إلى قطع الحوار معها ، ومرة ثانية أشد وأقسى بسبب انحيازها للعراق فى غزوه للكويت . وترتيبا على ذلك فإن الذى يتفاوض عن الفلسطينيين لا بد أن يكون من فلسطينيى الداخل وبلا علاقة بينه وبين منظمة التحرير .

ثم إن هذا الوفد الفلسطينى ينبغى أن يكون جزءا من الوفد الأردنى فى المؤتمر .

[وكان "ياسر عرفات" مستفزا من هذا العقاب المغلظ ، وكثيرا ما ردد لكل من قابلوه تلك الأيام قوله : "لماذا غفروا لحسين (يقصد الملك "حسين") ولم يغفروا لى ؟ .. إذا كان موقفى فى حرب الخليج خطيئة فقد كان هو فى نفس الموقف معنا لكنهم يدعونه إلى مدريد، وأما نحن فمطرودون من رحمة الله !"]

٤ ــ وتقرر أن تكون العاصمة الأسبانية مدريد هى المقر الرسمى لانعقاد المؤتمر العام الواجهة، ثم أن تجرى المفاوضات الثنائية بعد ذلك بين كل دولة عربية على حدة وإسرائيل فى مواقع أخرى بعيدة عن أضواء المؤتمر العام فى مدريد . وكان السبب الذى دعا إلى اختيارها مقرا للمؤتمر هو أن أسبانيا وقتها كانت تشهد احتفالات ضخمة بمناسبة مرور خمسة قرون على رحلة "كريستوفر كولومبوس"، ثم إن أسبانيا كانت موطن تجربة مشتركة بين المسلمين واليهود فى مواجهة محاكم التفتيش الأسبانية . وأخيرا فإن أسبانيا وملكها وحكومتها كانوا جميعا على علاقة طيبة بكل من العرب وإسرائيل .

□

كان أهم ما نجح فيه "جيمس بيكر" أثناء زياراته الثمانية للمنطقة أنه إلى جانب نجاحه فى وضع الإطار العام للمؤتمر ــ توصل إلى إقامة علاقة مع بعض الشخصيات من فلسطينيى الداخل ، وبينهم ثلاثة أصبحوا من أظهر النجوم فى العمل الفلسطينى ، وهم : الدكتور "حيدر عبد الشافى"، والدكتورة "حنان عشراوى"، والسيد "فيصل الحسينى" .

وبعد عناء طويل تم تشكيل وفد فلسطينى ملحق بالوفد الأردنى يضم شخصيات من الأرض المحتلة ، إلى جانب بعض الأكاديميين الفلسطينيين الذين يعيشون خارج الأرض المحتلة بما فى ذلك الولايات المتحدة . وكانت قيادة المنظمة فى تونس مستشاطة من الغضب لأن وفدا فلسطينيا لا تتواجد فيه بذاتها ونفسها فى مدريد يمكن ــ إذا توفرت له ظروف ملائمة ــ أن يصبح قيادة بديلة للعمل الفلسطينى . وفى واقع الأمر فإن ذلك كان شبه مستحيل ، فأى وفد فلسطينى مهما بلغ من لمعان نجومه سوف يظل معتمدا على القوة الفلسطينية الوحيدة المنظمة التى نشأت ومارست وأدارت القضية الفلسطينية لسنوات طويلة، وهى منظمة التحرير . ثم إن النجوم التى يجرى اكتشافها فى ظروف طارئة تكون فى العادة بلا قواعد كافية تضمن لها ثبات موقفها وقدرتها على الاستمرار فيه . وفوق ذلك فقد كانت هناك الاحتياجات المالية لهؤلاء النجوم وإلا أصبحوا مجرد ذيل للوفد الأردنى .

وهكذا فقد كان الوفد الفلسطينى فى مدريد ، رغم ضعف ارتباط أعضائه بمنظمة التحرير خصوصا من الناحية التنظيمية ، مضطرا بأحكام الواقع إلى الاعتماد على المنظمة :

- فهى التى تستطيع أن توفر له نوعا من الدعم السياسى بين الجماهير الفلسطينية فى الداخل وفى الخارج .

- وهى التى تستطيع عند التوصل لاتفاق تقبل به أن توفر الغطاء الضرورى لهذا الاتفاق أمام الشعب الفلسطينى .
- وهى التى تستطيع أن تفى بالمطالب المالية الضرورية للوفد حتى فيما يتعلق بشراء تذاكر الطائرات وفواتير الفنادق ، بل وحتى فى جعل المظهر العام للوفد مظهرا مشرفا أمام اهتمام عالمى متزايد .

ومع أن "ياسر عرفات" لم يكن سعيدا بالإصرار على أن يكون الوفد الفلسطينى المفاوض من خارج منظمة التحرير ، فإنه كان شديد الكرم من الناحية المالية مع أعضائه . وكان التقليد الذى اتبع فيما بعد هو أنه عندما يعبر أعضاء الوفد جسر "الملك حسين" فى طريقهم من الأرض المحتلة إلى الأردن ، ومنها بالطائرات إلى مدريد ـ أن يكون هناك مندوب من المنظمة يسلم للوفد ما يحتاجه من المال كوفد ، ويسلم لأعضائه واحدا واحدا كل ما هو ضرورى لنفقاته الشخصية أثناء أدائه لمهمته .

ومن هذه المداخل كلها فإن قيادة المنظمة فى تونس مع ضيقها بتشكيل الوفد من خارجها كانت تحس أنها تملك مَن أسباب السيطرة عليه ما يطمئن إلى قبوله وولائه لقيادتها .

□

وكانت مصر تريد أن تساعد قدر ما تستطيع . ومرة أخرى فقد رأت القاهرة أن خير ما تستطيع أن تساعد به الوفد الفلسطينى فى مدريد هو أن تعطيه خبرة التفاوض المصرى مع إسرائيل . (كانت تلك هى المرة الثانية التى تقوم فيها مصر بـ "تدريس" أساليب التفاوض مع الوفد الإسرائيلى ، وكانت المرة الأولى هى ما قامت به مع الوفد اللبنانى الذى كان يتهيأ لاتفاق ١٧ آيار (مايو) على أيام رئاسة "أمين الجميل") .

وتحول الدور الأعلى فى فندق "شيراتون الجزيرة" إلى شبه مدرسة تقوم بـ "تدريس" فن التفاوض مع إسرائيل للوفد الفلسطينى . وجلس الدكتور "حيدر عبد الشافى" والدكتورة "حنان عشراوى" والسيد "فيصل الحسينى" والدكتور "صائب عريقات" على مقاعد "الطلبة" ، وقام "الأساتذة" المصريون بدور "المدرسين" ، وكان بينهم الدكتور "مصطفى خليل" والمستشار "أسامة الباز" والسيد "عمرو موسى" والدكتور "نبيل العربى" . وحضر "أبو مازن" ، وهو الموجه الفلسطينى لعملية التفاوض ، معظم هذه "الدروس" .

وفى الحقيقة فإن بعض "الدروس" كانت مفيدة :

- اهتم "الأساتذة" المصريون بلفت نظر المفاوضين الفلسطينيين إلى مراعاة ثلاث حقائق متغيرة منذ آخر مرة جرى فيها تفاوض عربى ـ إسرائيلى وصل إلى نتائج (اتفاقية "كامب دافيد") وكانت هذه الحقائق الثلاثة المتغيرة التى يمكن أن تؤثر فى التفاوض هى :

١ ـ اختلاف نوعية العلاقة الأمريكية ـ الإسرائيلية عما كانت عليه وقت "كامب دافيد" . فهذه العلاقة اختلفت كثيرا بالاتفاق الاستراتيجى الذى عقده "آرييل شارون" مع وزير الخارجية الأمريكى "ألكسندر هيج" سنة ١٩٨٢ - وأصبحت العلاقة عضوية .

٢ ـ إن عدد المستوطنات الإسرائيلية على الأرض ، وكان عند توقيع اتفاقية "كامب دافيد" عشرين مستوطنة ، زاد الآن إلى أكثر من مائة مستوطنة . وقد اتسع نطاقها حول القدس ووصل إلى جوار رام الله ، وجعل المنطقة متسعة فى حدود ما عرف بوصف "القدس الكبرى" .

٣ ـ إن معادلة القوة العربية اختلفت اختلافا كاملا بعد حرب الخليج . فقد خرجت من المعادلة قوة عربية كبيرة جرى تدميرها بالكامل ، وهى قوة العراق . وأدى ذلك إلى تشرذم شديد فى الموقف العربى . لكنه فى مقابل ذلك فإن الانتفاضة واستمرارها يعطيان للجانب الفلسطينى تعويضا لا بأس به عن الحالة العربية .

- إن إدارة المفاوضات الفلسطينية مع إسرائيل سوف تختلف يقينا عن إدارتها مع مصر فى "كامب دافيد". فقد تفاوضت مصر وهى فى وضع الدولة العربية الأكبر — وأما الفلسطينيون فإنهم سوف يفاوضون من موقف ضعف خصوصا بعد موقف المنظمة فى حرب الخليج .

- إن المنظمة لا بد أن تلاحظ أنها فقدت حليفها الرئيسى الدولى ، وهو الاتحاد السوفيتى . وحتى إذا كان الاتحاد السوفيتى لم يغيّر كلامه عن القضية الفلسطينية ، فإن الفعل السوفيتى نفسه قاصر ، ويكاد يكون عاجزا عن التأثير.

- إن التفاوض بين الفلسطينيين وإسرائيل سوف يختلف عن التفاوض بين المصريين والإسرائيليين . ففى حالة مصر كانت إسرائيل تستهدف أمرين :

١ ـ إخراج مصر من معادلة القوة العربية .

٢ ـ ثم إن إسرائيل لم تكن لها مطالب تاريخية أو دينية فى مصر .

وهذان الاعتباران ليس لهما وجود فى التفاوض الإسرائيلى ــ الفلسطينى .

- لا بد من ملاحظة أن قضية العلاقة مع الأردن معقدة ، وسوف تجرى المحاولات لاستغلالها فى إضعاف الموقف الفلسطينى .
- وفى سيكولوجية التفاوض فلا بد من ملاحظة أن الطرف الإسرائيلى سوف يقاوم بشدة معاملة الوفد الفلسطينى كوفد تفاوضى حقيقى . وعلى الوفد الفلسطينى أن يتعامل مع هذه المشكلة بمرونة وسعة أفق .
- إن وفد التفاوض الفلسطينى لا بد أن يعرف أن كل شىء يقوله الإسرائيليون سوف يصل إلى علم جميع الأطراف (الأردنيون والسوريون ، فضلا عن الأمريكيين). وبالتالى فإن تصور إمكانية المناورة بين الوفود المختلفة منزلق خطير ولا ينبغى الاقتراب منه .
- لا بد أن يعرف الوفد الفلسطينى أن الأردن وعلى كل المستويات لديه قنوات مفتوحة مع إسرائيل .
- قد يكون مناسبا أن يعتمد الوفد الفلسطينى على إطار الحكم الذاتى الوارد ضمن اتفاقيات "كامب دافيد" ، وبدون حساسيات من بقايا الحملة العربية العامة على اتفاقيات "كامب دافيد" حين توقيعها .

ولعل أهم جزء فى "الدروس" المصرية لوفد التفاوض الفلسطينى هو السيناريو العملى لتسلسل سياق التفاوض الذى طرحه "الأساتذة" المصريون . وكان السيناريو يعتمد على أسلوب الأسئلة والأجوبة .

مثلا ــ فإن وثيقة "كامب دافيد" نصت على أن "سلطة الحكم الذاتى يتم تشكيلها عن طريق الانتخاب المباشر" ــ وهذه جملة مقتضبة جدا ، ولا بد من التساؤل بعدها "ثم ماذا؟" وهنا يمكن أن يطرح التسلسل التالى :

١ ــ كيف يمكن أن يتم الانتخاب فى ظل وجود حاكم عسكرى إسرائيلى ؟ مع العلم بأن الحاكم العسكرى له نظير آخر مدنى هو الجنرال "دانى روتشيلد" . وكانت إسرائيل وقت التفاوض على اتفاقية "كامب دافيد" ترفض أن تستعمل عبارة "إلغاء سلطة الحاكم العسكرى"، وتفضل كلمة "سحب" . وكان رأى مصر وقتها أن من يملك سلطة "السحب" يملك سلطة "الإعادة" . ولذلك فإن الوفد الفلسطينى يجب أن يصر على كلمة "الإلغاء" .

٢ ـ وإذا كانت الانتخابات سوف تتم فى ظل وجود حاكم عسكرى ، فما هى ضمانات حرية الانتخابات؟ وإذن فالمنطقى هنا أن يطالب الوفد الفلسطينى بإشراف دولى على الانتخابات. ولما كانت إسرائيل دائما ترفض إدخال الأمم المتحدة فى الموضوع ـ فإن الوفد الفلسطينى يستطيع أن يطلب هيئة إشراف على الانتخابات متعددة الجنسيات يمكن أن تدخل فيها مصر والأردن والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية .

٣ ـ وإذا تقرر أمر الانتخابات ، فهل سيدخل المرشحون إلى هذه الانتخابات ممثلين لأحزاب أو باعتبارهم أفرادا ؟ وإذا كانوا سيدخلون كأحزاب إذن فقد بدأنا نتكلم عن حق الفلسطينيين فى تكوين أحزاب سياسية . وأضاف "الأساتذة" المصريون فى هذه النقطة أن معلوماتهم ترجح أن الإسرائيليين لا يرفضون من ناحية المبدأ قيام أحزاب ، لكنهم يشترطون ألا تكون برامج هذه الأحزاب مستوحاة من الميثاق الوطنى الفلسطينى . ثم إن أى حزب يطلب التصريح له بالعمل مطالب بأن يقدم أولا اعترافه بإسرائيل .

٤ ـ وفى حالة قيام أحزاب ، فما هى الحريات التى سوف يسمح بها ؟ وكيف تتحرك هذه الأحزاب فى الدعوة لنفسها وبرامجها ، وكيف تنظم اتصالها بالناس ؟ وهذا سوف يقود إلى الحديث عن حرية التنظيم السياسى وحرية النشر .

٥ ـ وعند الاتفاق على إجراء انتخابات ، فكيف تجرى هذه الانتخابات ؟ وهل تكون بقاعدة القائمة أو بقاعدة الدوائر الانتخابية ؟ ـ وكانت نصيحة "الأساتذة" المصريين أن يتمسك الوفد الفلسطينى المفاوض قدر ما يستطيع بقاعدة الدوائر لأن ذلك يربط العملية الانتخابية بالجغرافيا ، لأن الدوائر الانتخابية سوف تكون مساحات مرسومة على خرائط ، بينما هدف الإسرائيليين كان ولا يزال فصل الأرض عن السكان . وقد توقع "الأساتذة" المصريون أن الطرف الإسرائيلى سوف يفضل قاعدة القائمة التى تتبعها إسرائيل ذاتها. لكن "الأساتذة" المصريين كان رأيهم أن يقوم الوفد الفلسطينى بـ "إفهام" الإسرائيليين أن الأوضاع الفلسطينية تختلف عن الوضع الإسرائيلى ، فالفلسطينيون لديهم عائلات وعصبيات محلية تشكل أطرا ثقافية معينة ، فى حين أن الحالة الإسرائيلية موجات من هجرة لاجئين لا تربطهم مثل هذه الأوضاع الموروثة فى بيئة محددة .

٦ ـ وعندما يصل التفاوض إلى هذه النقطة فإن الوفد الفلسطينى يجب أن يثير قضية الهيئة التى يجرى انتخابها . فإسرائيل تريد أن تكون الانتخابات لمجلس تنفيذى، والفلسطينيون يجب أن يتمسكوا بانتخابات سلطة تشريعية ينبثق منها

فـرع تنفيـذى . "وإذا قـال لكـم الإسرائيليون إن انتخـاب سـلطة تشـريعية معنـاه الاعتراف ببلـد ـ وهذا ما لا يقبلونه ـ فإنكم تستطيعون الـرد على ذلك بأن هنـاك أشياء معينـة لا بـد فيهـا مـن سلطـة تشريعيـة لإقـرار فـرض ضرائـب أو رسـوم أو خـلافـه" .

٧ ـ إنكم سوف تصلون من ذلك إلى مناقشـة مـن لـه حـق الاشـتراك فـى الانتخابـات ؟ ويمكن أن تطلبوا أن يشارك فيها كل مقيم فى الضفة الغربية ، كما يمكن أن تطرحـوا كنقطة مساومة أن يشـارك فـى الانتخابـات فلسـطينيو الشـتات ، وأن تطلبـوا حـق اشتراك المرأة فى الانتخابات كما هو جـار فى إسرائيل .

٨ ـ أهـم شـىء أن تسجلوا كل مـا تتوصلـون إليـه علـى ورق ، وأن يجـرى تبـادل هـذه الأوراق بينكم وبين الإسرائيليين حتى لا يحـدث أن يتراكـم سـوء فهـم .

□

وانعقـد مؤتمـر مدريـد . وصمـم "إسحاق شامير" على أن يرأس بنفسه وفـد إسـرائيل إلى مدريـد ، وأصـر علـى وضـع شـروط لا يقبـل فيها أنصـاف حلـول :

١ ـ إن أى عضـو فلسطينى يدخـل قاعة المؤتمر لا يمكـن أن يكـون مـن أعضـاء المجلـس الوطنى الفلسطينى . وعلى هذا الأساس فقد سمح للدكتور "حيدر عبـد الشـافى" بـأن يدخـل إلى القاعـة مسئولا عن الجـزء الفلسطينى من الوفـد المشـترك مـع الأردن ـ بينمـا جـرى رفـض دخـول كـل مـن الدكـتورة "حـنان عشراوى" والسـيد "فيصـل الحسينى" .

وربما أن ذلـك لم يكن ضـارا فى المحصلـة النهائيـة لأن "حنـان عشراوى" أصبحـت متحدثـة رسمية باسم الوفـد من خـارج القاعـة ، واسـتطاعت فـى هـذا الـدور الـذى خصص لهـا أن تقوم بشبـه معجـزة ، فقد أعطـت للقضيـة الفلسطينيـة وجهـا صبوحا ومشرقـا ، كما أنها أعطـت للتعبـير عنه كفـاءة وأناقـة فـى اللفـظ شحنتـه بقـوة إقنـاع لـم تتحقـق من قبل للخطـاب الفلسطيـنى .

٢ ـ وكان بين شـروط "شامير" أيضا أنه إذا جرى ذكـر لمنظمة التحريـر فـى أى خطـاب فلسطينى داخل قاعة المؤتمر فإنه سوف يعترض ، وليكـن مـا يكـون حتـى وإن أدى الأمـر إلى فشـل المؤتمـر .

٣ ــ وأضاف "شامير" إلى ذلك أنه إذا بدرت من جانب أحد من أعضاء الوفد الفلسطينى ــ ضمن الوفد الأردنى ــ إشارة توحى بانتمائه لمنظمة التحرير ، فإنه سوف يترك جلسة المؤتمر ويخرج . وكاد ذلك أن يحدث بالفعل حينما حاول الدكتور "صائب عريقات" عضو الوفد أن يضع على كتفه الكوفية المشهورة التى يضعها المقاتلون الفلسطينيون على رؤوسهم . وكتب "شامير" إلى وزير الخارجية الأمريكى "جيمس بيكر" ورقة أثناء انعقاد إحدى الجلسات يلفت نظره إلى ما قام به "صائب عريقات" ويطلب إزالة هذه المخالفة للشروط فورا .

وبرغم كل التعنت الإسرائيلى وشروط "شامير" وكآبته فى عرضها والإلحاح عليها ، فإن الدكتور "حيدر عبد الشافى" تصرف وتكلم على نحو أعطى للخطاب الفلسطينى قدرا كبيرا من احترام النفس واحترام الآخرين . وكان الرجل فى أدائه كله على مستوى القضية التى تكفل بتمثيلها . وربما أن الظهور المتميز لوفد مدريد زاد مخاوف مركز القيادة فى تونس من احتمال أن يتحول الوفد الفلسطينى هناك بقوة الصور والكلمات فيصبح بالفعل قيادة فلسطينية بديلة . وذلك أدى إلى حساسيات فى علاقة الوفد بالمنظمة ، ذلك أن الوفد فى مدريد كان يحاول أن يعطى جهده للقضية الأساسية وهى قضية الشعب الفلسطينى ، بصرف النظر عن ارتباط هذه القضية تحديدا بمنظمة التحرير . وفى نفس الوقت فإن منظمة التحرير كانت ترى أن دورها هو المدخل الوحيد إلى القضية . ونشأت مشاكل ، وثارت حساسيات وصلت إلى درجة أن رئيس منظمة التحرير طلب إلى أعضاء الوفد وسط الجلسات أن يجيئوا للقاء ليلة واحدة معه لإثبات أن المنظمة هى الموجه الفعلى للمفاوضات ، والقوة الحقيقية التى تمنح وفد مدريد رخصة العمل والتحدث باسم القضية الفلسطينية. وكان أن قامت طائرة مغربية خاصة جاءت بأعضاء الوفد ذات ليلة ثم عادت بهم قبل الصباح . وشاع النبأ دون تأكيد ، لكن المناورة أحدثت أثرها على الأقل بالشك الذى لا يسنده يقين !

وكان أهم نجاح حققه الدكتور "حيدر عبد الشافى" ، إلى جانب أدائه المتميز فى المؤتمر ، هو أنه مع قرب انتهاء مؤتمر مدريد تمكن من وضع خط فاصل جعل الوفد الأردنى ــ الفلسطينى المشترك وفدين مستقلين : وفد فلسطينى مستقل ، ووفد أردنى مستقل . ورغم أن الملك "حسين" حاول تطعيم الوفد الأردنى بعناصر فلسطينية ــ بينها الدكتور "وليد الخالدى" رغبة فى استبقاء الخيار الأردنى مطروحا ولو بالرمز ــ فإن تمايز الوفدين أصبح قرب نهاية المؤتمر حقيقة سياسية واقعة .

والواقع أن مؤتمر مدريد كان مشهدا تلفزيونيا ملونا قصد به فى الدرجة الأولى إعطاء الانطباع العام للأطراف وللعالم بأن العرب والإسرائيليين جلسوا جميعا معا فى قاعة

واحدة ، وانهمكوا فى صنع السلام فيما بينهم . وكان العنصر المهم فى الترتيب كله هو المفاوضات الثنائية التى يجب أن تجرى بعد المهرجان فى هدوء وصمت ، وفى مواقع أخرى بعيدة عن مدريد لكى تبحث صميم الموضوعات وجوهر الخلافات ، وتتوصل إلى نتائج .

وأكثر من ذلك ، فإن المفاوضات البعيدة انقسمت بدورها إلى قسمين : قسم يعنى بالقضايا السياسية لإطار الحل بين كل بلد مشترك فى المفاوضات وبين إسرائيل — وأطلق على هذا القسم وصف "المسارات السياسية" — وأما القسم الثانى وهو الأهم فقد اختير له ذلك الوصف الغامض والفضفاض ، وهو "المحادثات المتعددة الأطراف" ، وكانت تركز على قضايا التطبيع بين العرب وإسرائيل ، ويشارك فيها أطراف آخرون من الدول المهتمة بمشروعات التطبيع المشتركة فى المنطقة ، والجاهزة بالتمويل ، والمتحفزة للحصول على عقود التنفيذ .

وكان الوفد السورى يرى خطرا كبيرا من هذه الجداول المتشابكة والمتباعدة ، ويخشى مما يمكن أن يتراكم فيها من قوة اندفاع يصعب على أحد أن يسيطر عليها وأن يضمها فى النهاية فى مجرى واحد جامع تتحدد فيه أبعاد وضوابط التسوية . وكان أن اقترح الوفد السورى ربط التقدم فى "المحادثات المتعددة الأطراف" بمدى ما يمكن إحرازه من تقدم فى المسارات السياسية الثنائية بين العرب والإسرائيليين مباشرة ووجها لوجه .

وفى مقابل ذلك فإن الجانب الأمريكى أبدى تصميمه على أن راعيى المؤتمر — الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى — وقد حضرا المشهد الافتتاحى الأول للمفاوضات ، يتعين عليهما ترك المسارات السياسية بين العرب والإسرائيليين لقاء ثنائيا مباشرا لا تشاركان فيه وإنما تعهدان به للأطراف . وفى حين أن بعض الوفود العربية كانت تريد أن يقوم الراعى الأمريكى على الأقل بالمشاركة العملية فى عمل المسارات الثنائية ، فإن الجانب الأمريكى رفض ذلك بحزم وإصرار ، فهو لا يريد أن يقوم بدور الوسيط لأن المحادثات مباشرة بالضرورة ، وكل ما تستطيع الولايات المتحدة أن تفعله هو أن تتقدم — إذا استعصت الأمور — بالتدخل من بعيد لتلطيف الأجواء ، وهذا هو كل شىء .



حيــــدر عبـد الـشـافــــى

"إذا أراد الفلسطينيون حقوقا سياسيـة فليذهبـوا إلـــى الأردن "

("روبنشتين" رئيس الوفد الإسرائيلى فى محادثـات واشنطـن للوفـد الأردنى ـ الفلسطينى)

بعد محاولات مضنيـة للبحــث عـن مقـر لاجتماعـات مســارات التفـاوض العربـى ـ الإسرائيلى المباشر ، استقـر الـرأى على أن تكون واشنطــن هـى ذلـك المقــر ، بـل أكـثر مـن ذلك، أن يكون مبنى وزارة الخارجية الأمريكية هو المكان الـذى تعقـد فيـه جلسـات الوفــود العربيــة المختلفة مع الإسرائيليين . وكان ذلك مطمئنا لـ"شـامير" ، والغريــب أن ذلـك بــدا أيضا مطمئنا للحكومات العربيـة المعنية لأنها تصورته إيحاء معنويا ظاهــرا بالــتزام الولايـات المتحدة بـدور نشيـط وفعـال فى مجرى المفاوضـات .

وكان تشكيل الوفـد الإسرائيلى إلى محادثات واشنطـن ملفتا للنظـر ، فرئيس هـذا الوفــد هو "إلياكيم روبنشتـين" ، وكان لقبـه الرسمى فى قائمة الوفـد الإسرائيلى أنه السـكرتير العـام للحكومة الإسرائيلية . وكان تاريخه كلـه يضعـه فى صـف الصقور فى السياسة الإســرائيلية . فقد كان قريبا مــن "بيجــن" و"شـامير" معظـم حياتـه الوظيفيـة والسياسـية ، وكـان بـالتعليم والخبرة أستاذ علوم سياسية وقانون . وقبل المفاوضات مباشرة فـإن "شـامير" أخـذه معـه فـى مكتب رئيـس الوزراء . وكان العضو الثانى فى قائمـة الوفـد "إيتـان بـن تسور" وهـو نـائب السكرتير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية ، وكـانت صلاتــه بــ"المؤسسـة الصهيونيـة" فـى أمريكـا وثيقـة من أيـام خدمته كقنصـل عـام لإسرائيل فـى لـوس أنجيلـوس . وكـان العضــو الثالث هو "زالمان شوفال" السفير الإسرائيلى أيامهــا فــى واشـنطن ، وهـو الآخـر قريــب مـن "المؤسسة الصهيونية" فى أمريكا بحكم موقعـه فى واشنطـن . وكان العضو الرابع هو الجــنرال "دانى روتشيلد" الذى كان مديـرا لمكتب رئيس أركان حـرب الجيش الإسرائيلى ، ثـم أصبح

منسقا عاما للإدارة فى الأراضى المحتلة . أما بقية أعضاء الوفد كلهم وعددهم عشرة ، فقد كان تاريخهم مخفيا ومناصبهم شبه وهمية توحى بأنهم من المخابرات العسكرية الإسرائيلية أو من "الموساد" .

ولم تكن هناك حركة تذكر على المسار السورى ـ الإسرائيلى . فقد كانت حدة المواقف حاكمة على الجانبين من اللحظة الأولى . فالوفد السورى لم يكن مخولا بالحديث فى أية تفاصيل إلا بعد إقرار مبدأ الانسحاب من الجولان ـ بينما الوفد الإسرائيلى لا يمانع فى الانسحاب "فى" الجولان ، وما بين كلمتى "من" الجولان و"فى" الجولان تواصلت المناقشات عقيمة وفارغة . كذلك كان الوفد الإسرائيلى يريد أن يناقش ما هو متعلق بالترتيبات الأمنية والتطبيع قبل أن يقر بأى شىء يتعلق بالانسحاب "من" الجولان ، أو حتى "فى" الجولان . وبالتالى فإنه طوال فترة جولات الاجتماعات فى واشنطن ظل الوفدان يكرران مطالبهما الأساسية دون وسيلة للاقتراب من التفاصيل . وهكذا بدا المسار السورى معطلا من أول جلسة وحتى آخر جلسة فى مبنى وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنطن .

وكان المسار اللبنانى فى حالة انتظار للمسار السورى . وقد بدا بالفعل أن المسار اللبنانى ملحق تابع للمسار السورى . وكان ذلك إحساس كل الوفود الأخرى تقريبا . وكان الوفد الإسرائيلى يستغل هذه الحالة فى جلساته مع اللبنانيين وقد ركز على ثلاث حجج قالها وكررها باستمرار لهم :

١ ـ لا بد أن تتخلصوا من كل الأجانب (سوريون ـ إيرانيون ـ فلسطينيون) .

٢ ـ عندما تتخلصون من الأجانب فإنكم سوف تتخلصون منا فى نفس الوقت .

٣ ـ نحن لا نريد شيئا من لبنان ـ لا أرض ، ولا مياه ، وإنما مجرد اجراءات أمنية ضرورية لأمن إسرائيل .

□

وعلى المجال الأردنى فقد كانت الأمور جاهزة لأن تتحرك وتسير ، ذلك أنه عندما خرجت القضية الفلسطينية من اختصاص الوفد الأردنى ، وبعدما انقسم الوفد المشترك إلى وفدين مستقلين كان الباقى أمام الوفد الأردنى مسألة إجراءات وترتيبات لقضايا قابلة للتراضى بيسر ومرونة . وفى الواقع فإنه كان ممكنا الوصول إلى اتفاق أردنى ـ إسرائيلى فى

الجولة الأولى من المفاوضات. لكن الملك "حسين" ــ وفقا لما يقوله الدكتور "عبد السلام المجالى" رئيس وزراء الأردن ورئيس الوفد الأردنى فى مسار واشنطن ــ كان قد أعطى تعليمات إلى وفده مؤداها أنه "كلما توصلتم مع الإسرائيليين إلى شىء ضعوه على الرف حتى تتجمع المسائل كلها وتتضح فى المسارات الأخرى لأننا نريد أن نكون آخر من يوقع".

والذى حدث أنه فى أول اجتماع وقبل الدخول إلى القاعة اقترب "روبنشتين" من الدكتور "المجالى" رئيس الوزراء الأردنى ومد يده إليه بمظروف . وسأله الدكتور "المجالى" : "شو هيدا ؟" ورد "روبنشتين" : "مشروع معاهدة سلام" . وقال الدكتور "المجالى" مندهشا: "مشروع معاهدة سلام قبل أن نجلس للتفاوض؟" وتناول الدكتور "المجالى" المظروف حائرا ثم تقرر بعد اجتماع للوفد الأردنى بكامل أعضائه إعادة المظروف إلى الوفد الإسرائيلى "لأنه إذا كانت المعاهدة معدة من قبل المفاوضات فقد يكون إرسالها بالبريد أنسب" . وكان اقتراح الوفد الأردنى أن يكون التفاوض على أساس طرح تصور أردنى للسلام بواسطة الدكتور "المجالى" ، وفى مقابله طرح تصور إسرائيلى للسلام يقدمه "روبنشتين" وتتحدد فيه القضايا الخلافية ، وتدور حولها المفاوضات .[1]

وأمكن فى جلسة واحدة تقريبا التوصل إلى جدول أعمال :

- بالنسبة للحدود تم الاتفاق على الرجوع إلى خط ١٩٢٢ الذى رسمه "تشرشل" لحدود الأردن .
- بالنسبة لموضوع اللاجئين اتفق على أن تكون مرجعيته إلى القانون الدولى . وحين حاول الوفد الأردنى أن تكون هناك إشارة إلى قرارات الأمم المتحدة فى شأن اللاجئين ــ رفض الوفد الإسرائيلى ، وحجته أن قرارات الأمم المتحدة هى جزء من القانون الدولى .
- وفى موضوع المياه كان الوفد الأردنى يريد الاتفاق على حدود الأطراف لأن الإسرائيليين فى رأيه سرقوا ثلاثة أرباع حصة الأردن من نهرى الأردن واليرموك . ولكن الوفد الإسرائيلى أصر على أنه من الأفضل الاتفاق على مشروعات مستقبلية للمياه ، وبواسطتها يمكن التوصل إلى توزيع جديد للحصص لأن المياه القديمة كلها ــ مسروقة أو غير مسروقة ــ مستعملة بالفعل فى رى أراض زراعية .

---

(١) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من بعض مذكرات الوفد الإسرائيلى إلى الوفد الأردنى ــ الفلسطينى وهى بخط "روبنشتين" رئيس الوفد الإسرائيلى . وفى إحدى هذه الصور مذكرة كتبها "روبنشتين" خاصة بإجراءات التفاوض بين الوفد الإسرائيلى والوفد الأردنى ــ الفلسطينى المشترك ، ثم مذكرة أخرى خاصة بملاحظات من "روبنشتين" على مذكرات موجهة إلى الوفد الإسرائيلى ــ وهى تحت رقم (١١)

على المسار الفلسطينى كانت الصورة مختلفة ، وتعاقبت الأزمات وتواصلت . فقد رفض الوفد الإسرائيلى الاعتراف باستقلالية الوفد الفلسطينى . وقال "روبنشتين" إنه مكلف بالتفاوض مع وفد أردنى . وإذا كان ضمن هذا الوفد الأردنى أعضاء فلسطينيون فهذه قضية داخلية فى الوفد لا تعنيه فى شىء . ورفض الدكتور "حيدر عبد الشافى" أن يدخل قاعة الاجتماع ، وحينئذ حدث ما سمى فى ذلك الوقت بـ "مفاوضات الردهات" corridor negotiations . ففى ردهات وزارة الخارجية الأمريكية ، وحين كان الدكتور "حيدر عبد الشافى" يصر على اجتماعات إسرائيلية فلسطينية مستقلة ، تشابك الحوار بينه وبين "إلياكيم روبنشتين" . قال الدكتور "عبد الشافى" إن هناك حقا تاريخيا فلسطينيا ، وإذا "روبنشتين" يلتفت إليه ويقول له باللغة العربية وبلهجة فلسطينية : "إنت عن شو بتحكى ؟" ثم استطرد يقول إنه "لم يحدث فى التاريخ أن كانت هناك دولة اسمها فلسطين ، وإن ما كان اسمه فلسطين كان باستمرار أرضا محتلة دخلها وخرج منها وخربها غزاة مختلفون آخرهم الأردن . ومن تقول عنهم فلسطينيين هم فى الواقع مواطنون عندنا بقوا فى أرضنا من آثار احتلال أردنى . ونحن لا نعترف لهم بحق سياسى ، ومع ذلك نتحملهم عندنا بغير أنانية . وإذا أرادوا حقوقا سياسية فليذهبوا هناك إلى الأردن . ولعلمك فنحن نقبلهم عندنا لأننا نعرف أن الدول العربية كلها ليست على استعداد لإعطائهم ملجأ خارج يهودا والسامرة ."[٢]

كان رئيس الوفد الأردنى الدكتور "عبد السلام المجالى" يسمع كلام "روبنشتين" ، وقد تدخل فى الحديث قائلا "إنه يشعر فيه بتجبر وغطرسة شديدتين" . وإذا بـ "إلياكيم روبنشتين" يرد موجها كلامه لـ "المجالى" ويقول : "يا حضرة الرئيس إن مساعدك (يقصد "حيدر عبد الشافى") قال كلاما يصعب قبوله أو السكوت عليه" . ومضى "روبنشتين" فى كلامه وكانت إشارته للدكتور "حيدر عبد الشافى" طوال الوقت باعتباره مساعدا للدكتور "المجالى" . وهنا تدخلت وزارة الخارجية الأمريكية وأمكن الوصول إلى صيغة حل وسط يبقى بها الوفد الأردنى ـ الفلسطينى وفدا مشتركا ، وفى نفس الوقت يظهر هناك أمر واقع لوفد فلسطينى مستقل . كان ذلك الترتيب يقضى بأنه إذا اجتمعت الوفود لقضية أردنية يضم الوفد اثنين من الفلسطينيين بجانب عشرة من الأردنيين . وأما إذا كان الموضوع يتعلق بمسألة فلسطينية فإن الوفد يضم اثنين من الأردنيين بجانب عشرة من الفلسطينيين . وكانت الاجتماعات تعقد صباحا فى نفس القاعة لقضايا الأردن ومساء للقضايا الفلسطينية . وكانت جلسات الصباح دائما شبه اجتماعية بعد الجلسة الأولى ، وأما

(٢) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة للصفحة الأولى من مقترحات الوفد الإسرائيلى خاصة بنوع من تقسيم العمل الذى يراه الوفد الإسرائيلى بين الأردنيين والفلسطينيين فى الوفد المشترك ـ وهى بخط "روبنشتين" رئيس الوفد الإسرائيلى ـ تحت رقم (١٢) .

جلسات المساء فإن طريقها كان دائما مسدودا ، كما أن موضوعات البحث كانت محصورة ومحاصرة .

ووصلت الأحاديث فى الاجتماعات الصباحية بين الوفد الإسرائيلى والوفد الأردنى إلى قضايا تكاد تكون عبثية . فقد طلب الوفد الإسرائيلى مثلا عقد اتفاق لحل مشكلة الحمام الطائر فى منطقة العقبة . فالمنطقة ملأى بأسراب الحمام التى تلتقط قوتها من صوامع الغلال على الناحية الأردنية ، لكنها عندما تلبى نداء الطبيعة تحط على الناحية الإسرائيلية مما يؤدى إلى تلويث البيئة . وفى مرة ثانية نوقشت فى هذه الاجتماعات إمكانية تعاون مشترك لمقاومة توالد الناموس فى وادى الأردن .

وفى جلسات أخرى دارت أحاديث مرسلة حول قضايا أكثر جدية ، لكنها جميعا كانت قضايا مؤجلة . فقد طرح الوفد الإسرائيلى إمكانية إنشاء دوريات مشتركة لمراقبة الحدود كحل لمواجهة عمليات التسلل عبرها . وكان ذلك قفزا إلى التطبيع قبل الأوان . وفى مرة ثانية طرح الإسرائيليون تصورا لإنشاء قناة تربط البحر الأحمر بالبحر الميت ، وكان واضحا أن هذه هى المرحلة الأولى من مشروع كبير على مرحلتين : المرحلة الأولى منه ربط البحر الأحمر بالبحر الميت ، وهذه تقتضى اتفاقا مع الأردن . والمرحلة الثانية هى ربط البحر الميت بالبحر الأبيض ، وهذه لا تحتاج إلى تعاون مع أحد . والهدف من المشروع كله توصيل البحر الأبيض والبحر الأحمر بديلا لقناة السويس . وفهم الوفد الأردنى مقصد الإسرائيليين وتعلل بأن هذا المشروع "يحتاج إلى تنسيق مع الفلسطينيين" . وقال "روبنشتين": "أين هم الفلسطينيون ؟" ثم استطرد: "اتفقوا أنتم معنا الآن واتركوا لنا موضوع إقناع الفلسطينيين والاتفاق معهم فى الوقت المناسب" .

□

ومع الوفد الفلسطينى كان التوتر دائما شديدا . فالمشاكل معقدة والوفد نفسه منقسم على بعضه إلى درجة أن الدكتور "حيدر عبد الشافى" قال مرة أمام الوفد الأردنى ــ طبقا لروايته ــ "نحن وفد منقسم على نفسه ، وفى الحقيقة فنحن أربعة عشر وفدا فلسطينيا، وكل عضو فينا وفد مستقل ، وكل واحد يمثل نفسه وله اتصالاته ، وله ميادينه" .

ولعل أكثر ما ضايق الوفد الأردنى هو ما وجده من حساسيات بين أعضاء الوفد الفلسطينى مبعثها ــ كما قدروا ــ المنافسة الشديدة على الأضواء بين أعضائه ، فكلهم أصبحوا نجوما : "حنان عشراوى" نجمة كبيرة ، و"فيصل الحسينى" يحاول أن يلحق بها ،

و"صائب عريقات" يجرب حظه . وشيئا فشيئا بدأ يستقر فى يقين الوفد الأردنى أن محادثات واشنطن لن تسفر عن شىء له قيمة بسبب الفوضى السائدة فى الوفد الفلسطينى .

وربما كان فى هذا التقدير بعض التجنى لأن الوفد الفلسطينى كان فى حقيقة الأمر يواجه القضايا الأساسية فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى . وكانت أمام هذا الوفد سدود شبه مستحيلة تمثلها مسائل من حجم : قضية الاعتراف بوجود شعب فلسطينى له حق تقرير المصير ـ ومشاكل الهجرة والاستيطان ـ وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء، مسألة مصير القدس .

وكانت مأساة الوفود العربية فى محادثات واشنطن هى ضعفها الشديد أمام قوة الوفد الإسرائيلى . وكانت الأسباب متعددة ، أولها وأهمها هو توازن القوة بين العرب وإسرائيل بعيدا عن المفاوضات وعلى أرض الواقع ، فأية عملية للتفاوض بين طرفين تنعكس عليها تلقائيا وقبل أن يدور أى حوار حقائق موازين القوة بين الأطراف . إضافة إلى ذلك فقد كان الوفد الإسرائيلى يتمتع بعدة ميزات :

١ ـ إدارة مركزية واحدة للمسارات المختلفة للتفاوض .

٢ ـ تنسيق كامل مع الولايات المتحدة الأمريكية الراعية الوحيدة فى الواقع للعملية التفاوضية .

٣ ـ صلة وثيقة مع مصر التى كانت تحاول دفع مسيرة السلام باتصال مع الحكومات العربية المتصلة بالتفاوض .

٤ ـ نتيجة ذلك كله فقد كان الوفد الإسرائيلى يملك صورة كاملة لكل جوانب العملية التفاوضية .

٥ ـ إضافة إلى ذلك فقد كان الوفد الإسرائيلى على صلة أقرب بالأوضاع والمشاعر الحقيقية فى الأرض المحتلة التى هى سند الوفد الفلسطينى . فقد كان الوفد يتلقى يوميا تقارير من الجيش والمخابرات فى إسرائيل تعتمد على كل المعلومات المتاحة لهذه الأجهزة .

٦ ـ إن الوفود العربية فى بعض المراحل سادت بينها علاقات شك وريبة بسبب مناورات الإسرائيليين . فقد راحوا يشيعون مثلا أن هناك تقدما على بعض المسارات لأن المواقف أكثر مرونة وأشد عجلة للوصول إلى حل . وكان ذلك يفعل تأثيره فى الوفود العربية التى لم تكن تنسق مع بعضها ، بل وكان بينها من يتعمد الإخفاء بل وتضليل الوفود الأخرى لأسباب ضيقة وسطحية .

□

لم تكن بين الفلسطينيين والأردنيين فى معظم الأوقات رغبة فى التنسيق . وحاول الملك "حسين" فى اجتماع مع "ياسر عرفات" إنشاء ما أسماه الملك "غرفة عمليات مشتركة للمفاوضات" ـ وتحمس "ياسر عرفات" ، ثم لم يحدث شىء . وكان الملك "حسين" كثيرا ما يتحدث عن أزمة الثقة التى يعتبرها "مدمرة" لإمكانية النجاح فى التفاوض . ومن المفارقات أن الوفد الأردنى كتب للملك "حسين" يقول إنه "يلاحظ أن الفلسطينيين اندفعوا كثيرا فى الاعتماد على حسن نوايا الأمريكان ، وإذا تركناهم فلن يعودوا إلينا أبدا ، ونحن نحاول إيقافهم فى منتصف الطريق" . ولم يحتفظ "المجالى" بهذه الملاحظة سرا بينه وبين الملك ، وإنما وصل فى إحدى المرات إلى حد أن قال لأحد الفلسطينيين أثناء اجتماع معهم : "يا إخوان .. الإسرائيليون سوف يجرفونكم إلى آخر الطريق" .

ووجدت الوفود العربية فى واشنطن بعد ثلاث جولات من المفاوضات أنه من الضرورى التوصل إلى حد أدنى من التنسيق بين الوفود . وتقرر عقد اجتماعات أسبوعية على مستوى الوفود الأربعة (السورى والفلسطينى والأردنى واللبنانى) . وكان الاتفاق أن يكون الاجتماع على مستوى رؤساء الوفود ، وأن يشترك مع رئيس كل وفد اثنان أو ثلاثة من مساعديه . لكن اجتماعات التنسيق لم تؤد إلى نتيجة ، ولم يحدث فيها ما هو أكثر من تبادل أحاديث عامة عن أجواء المفاوضات ـــ بما فى ذلك الانحياز الأمريكى الكامل لإسرائيل .

وذكر الدكتور "موفق علاف" رئيس الوفد السورى مرة أن وزارة الخارجية الإسرائيلية هى التى توجه وزارة الخارجية الأمريكية وليس العكس ، وإن الآراء الإسرائيلية تجىء إلى الوفود العربية بلسان أمريكى فى كل مرة تتأزم فيها الأمور .

وروى رئيس الوفد الأردنى أن "روبنشتين" قال له بصراحة إنه "إذا كان العرب ينتظرون أن يقوم الطرف الأمريكى بالضغط على إسرائيل ، فهم واهمون" . ثم استكمل الدكتور "المجالى" كلامه قائلا إنه عندما شكا من الانحياز الأمريكى مرة ، رد عليه رئيس الوفد الإسرائيلى بقوله : "إذا كنتم كعرب تشعرون بالتحيز الأمريكى ، فلماذا تصرون على إجراء المباحثات فى واشنطن ؟ لماذا لا تطالبون بنقلها إلى المنطقة ذاتها أو بالقرب منها ؟ إن مجيئكم إلى واشنطن يكلفكم مالا كثيرا وغربة بعيدة عن عواصمكم . وإذا كنتم تتصورون أن بقاءكم فى حضن وزارة الخارجية الأمريكية يؤثر فى مواقف إسرائيل ، فهذا لن يحدث وأنتم فيه على خطأ لأن وجود المفاوضات فى مقر وزارة الخارجية الأمريكية يصنع غلالة وهْم يجدر بالعرب أن يتخلصوا منه ."

وكان الوفد الأردنى قد كتب للملك "حسين" بالفعل تقريرا عنوانه "إسرائيلية المشرفين الأمريكان على مسارات التفاوض" .

□

كانت الوفود العربية المتفاوضة فى واشنطن تشكو أيضا من أن السفارات العربية هناك لا تقدم لها أى عون أو تأييد . وحينما وصلت هذه الوفود إلى واشنطن لأول مرة لبدء التفاوض على المسارات المختلفة ، قام الأمير "بندر" السفير السعودى فى واشنطن بإرسال باقة ضخمة من الزهور لكل عضو من أعضاء الوفود ، ثم غاب وجوده بعد ذلك ولم يظهر له أثر ، بل إنه حينما حاول بعض أعضاء الوفود أن يتصلوا به ليشكروه على "زهوره" التى رحبت بهم لم يتمكن أى منهم من تحقيق اتصال مباشر به .

وكان واحد أو اثنان من السفراء العرب يتصلان بالوفود عن رغبة فى استطلاع الأخبار .

ولم تكن فى واشنطن أخبار ، وإنما كانت الأخبار بالفعل فى مكان آخر بعيد عن القارة الأمريكية ، فى شمال أوروبا ، وفى عاصمة النرويج "أوسلو" .

الفصل السادس

قناة أوسلو

المفاوضات بين طرف وطرف
ليست خطابة وليست براعة حوار
أو متانة حجج قانونية ،
وإنما هي موازين قوة ، ووقائع وحقائق على الأرض
تعكس آثارها على الموائد وتعبئ النصوص بما يملؤها .
وإذا تعارضت حقائق القوة والواقع
مع حقائق الجغرافيا والتاريخ ،
فإن التصحيح والتعديل واقعان لا محالة ،
ولكن الاعتماد عليهما
يصبح خارج نطاق العمل السياسي
مؤجلا إلى حقب أخرى
وربما أبعد !

١

بيريــــــــــز (٣)

" نجـوم ولكنهـم سحـب مـن الدخـان ! "

(إســحاق رابـــين عـــن وفـــد المفاوضـــات الفلسطيـنى فـى واشنطـن)

لـم تكن الحـوادث جامـــدة فـى الشـرق الأوسـط كمـا كـانت المفاوضـات جامـدة فـى عاصمـة الولايات المتحـدة . وعلى العكـس فإنها فى الشرق الأوسـط كانت فى حالـة سيولـة سريعـــة وخطــيرة ، وكـــان هنـــاك حـــدثان أثـرا بالتحـــديد فـى حركـة السيولة التـى اجتاحت المنطقة :

- من ناحية فإن الانقلاب الفاشل الذى جرى ضد "جورباتشوف" فـى أغسطس ١٩٩١ أدى إلى تفكـك الاتحاد السوفيتى رسميـا . وكانت لذلك انعكاسات على المنطقـة .
- ومن ناحية ثانية فإن الائتـلاف الوزارى المعقــد فـى إسـرائيل ، ومزاجيـة الأحـزاب الدينية الصغيرة فـى هـذا الائتـلاف أديـا إلى انفراطــه عندمـا قــرر حــزب "تهيـا" وحـزب "مولدت" أن يخرجا من حكومة "شامير" . وأدى ذلك بـ "شامير" إلى الدعوة لانتخابات مبكـرة تصور أن مواقفه المتشددة فــى عمليـة السـلام يمكـن أن تـؤدى إلى تفـوق حزبـه فيها بأغلبية مريحة .

وفى أجـواء المعركة الانتخابية ، وفى رغبـة حـزب العمـل أن يواجـه "شـامير" برجـل لا يقـل حرصا عنه فى دعاوى الأمـــن الإسـرائيلى ، فـإن "رابـين" اسـتطاع انـتزاع رئاسـة حـزب العمـل من منافسه "بيريـز" . وكانت الولايات المتحدة تؤيـد "رابـين" ، فواشنطن تثـق فيه أكثر من ثقتهـا فـى منافسـه ، كمـا أن "رابـين" معـروف لـدى عـدد كبـير مـن الساسـة الأمريكيـين عن قـرب حينما كان لسنوات طويلة سفيرا لإسرائيل فى الولايـات المتحـدة . وإلى جانب التأييد الأمريكى فإن الاتجاه العام فى حزب العمل كان مواتيا لـ"رابين" ، فهو قـادر

بالفكرة الشائعة عن حزب العمل أن يرفع شعار "السلام" - "أو الادعاء به" . ثم إنه وبصورته الشخصية كجنرال سابق فى الجيش الإسرائيلى ورئيس لأركان حربه وقت ١٩٦٧ - يستطيع أمام الجمهور الإسرائيلى أن يؤدى دور "الحارس" للأمن الإسرائيلى . وهكذا يستطيع الحزب أن يوفق بشخصية "رابين" بين الهاجسين المسيطرين على وساوس الشارع الإسرائيلى : السلام - والأمن (من المنظور الإسرائيلى) .

وكانت مصر تؤيد حزب العمل ، وكان هواها ما زال أقرب إلى "بيريز" منه إلى "رابين" . وقد حاولت مساعدة "بيريز" ، لكن "بيريز" خسر معركة رئاسة الحزب ، وقدّر أن اللياقة - أو ربما دواعى المرونة - تقتضيه أن ينقل تأييد مصر إلى "رابين" . وهكذا فإن "شيمون بيريز" رتب للدكتور "مصطفى خليل" موعدا للقاء طويل مع الرئيس الجديد لحزب العمل الجنرال "رابين" .

إن المساعدات العربية لحزب العمل لم تقتصر على المساعدات المادية وحدها ، ولا على محاولة تكتيل الأصوات العربية وراء هذا الحزب فقط - وإنما وصل الأمر إلى مساعدات سياسية ذات طابع غير مألوف . فإن حزب العمل طلب عن طريق مصر تعطيل أعمال الجولة السادسة من محادثات واشنطن بين الفلسطينيين والإسرائيليين بحيث لا يستطيع "شامير" أن يستغل أى تقدم فيها لصالحه فى المعركة الانتخابية . وتحقق ذلك بالفعل .

ومرة ثانية كان الأمريكيون والعرب يؤيدون حزب العمل ، كل لأسبابه . وفى حين أن الأمريكيين كانوا يعرفون بالضبط ماذا ينتظرون من "رابين"، فإن العرب كانوا يظنون أنهم يعرفون . وكان أن فاز حزب العمل فى الانتخابات ، وتقدم "رابين" بائتلاف جديد ضم مجموعة حزب "ميريتز" الذى تقوده السيد "شولاميت ألونى" ، وقد حصلت على اثنى عشر مقعدا من مقاعد الكنيست الجديدة .

وكانت أطراف الائتلاف الوزارى الجديد لا تمانع فى التفاوض مباشرة مع منظمة التحرير بدلا من تضييع الوقت مع الوفد الفلسطينى فى واشنطن ، وقد استنفدت المفاوضات معه تسع جولات بلا نتيجة . وفى الحقيقة فإن "إسحاق شامير" طوال قيادته للسياسة الإسرائيلية ، بما فى ذلك مرحلتا التفاوض فى مدريد وواشنطن ، لم يكن يريد أى اتفاق مع الفلسطينيين ، بل قال فيما بعد وفى تصريح علنى "إنه كان يريد للمفاوضات فى واشنطن أن تمتد عشر سنوات إذا اقتضى الأمر ، لأن ذلك يعطيه الفرصة لاستكمال سياسة الاستيطان الإسرائيلى فى الأرض المحتلة ، وبما لا يترك بعد ذلك أرضا فلسطينية يمكن التفاوض عليها" .

وكان الأمر مختلفا بعض الشىء بالنسبة للائتلاف الوزارى الجديد فى إسرائيل . فـ"شيمون بيريز" الذى تولى وزارة الخارجية مع "رابين" كانت له اتصالات عديدة سابقة مع

ممثلين رسميين أو غير رسميين لمنظمة التحرير . ولمح من زمن أن التعامل مع المنظمة يختصر الطريق ، وأن الظروف مهيأة الآن وأكثر من أى وقت مضى لهذه المحاولة .

وكانت "شولاميت ألونى" ونوابها من حزب "ميريتز" من هذا الرأى . وكانت للجميع ــ بمن فيهم "شولاميت ألونى" نفسها ــ لقاءات ومناقشات مع أعضاء فى منظمة التحرير .

□

لكن الموانع كانت لا تزال عند رئيس الوزراء "إسحاق رابين" . وبعد توليه لرئاسة الوزارة ــ فى ظروف ما بعد حرب الخليج وما بعد تفكك الاتحاد السوفيتى ــ كان "رابين" على استعداد لمراجعة أفكاره . إلى جانب إلحاح عليه من شخصيات أمريكية ومصرية تحاول إقناعه بأسباب كان بعضها يتسلل كالأشباح إلى فكره :

١ ــ إن إسرائيل فشلت فى خلق قيادات بديلة فى الأرض المحتلة .

٢ ــ إن "عرفات" نجح فى وضع الوفد الفلسطينى الذى برز من الداخل للتفاوض فى مدريد وفى واشنطن تحت جناحه . ومرجع ذلك إلى ضرورات التغطية السياسية المطلوبة لحماية هذا الوفد أو الاحتياجات المالية اللازمة لعمله . فضلا عن ذلك فإن هذا الوفد أثبت عجزه عن تجاوز الحدود التى وضعته داخلها قيادة المنظمة. وقد غرق فى القضايا المبدئية المعقدة ولم يكن فى سلطته أن يتفق عليها . ثم إن هذا الوفد أضاع جزءا كبيرا من أرصدته بين جماهير الأرض المحتلة التى أصابها الإحباط من قصور الإنجازات بعد آمال واسعة راودت الناس أثناء مؤتمر مدريد وبعده . وقد قال "رابين" بنفسه فى وصف هذه الحالة : "يبدو أن حيدر وحنان وفيصل مجرد سحب من الدخان ، وربما كانوا نجوما ، لكنها نجوم لا تستطيع أن تخرج من سماء منظمة التحرير" .

٣ ــ أضيف إلى ذلك من منظور "رابين" أن كل أجهزة المخابرات ومراكز الدراسات فى إسرائيل راحت تنادى فى ذلك الوقت بأن العالم العربى تكتسحه موجة إسلامية عارمة . وإن هذه الموجة الإسلامية تستغل كل التناقضات الكامنة فى الأوضاع العربية ، وفى مقدمتها القضية الفلسطينية ــ "وليست صدفة أن المقاومة الميدانية لإسرائيل تركزت فى حزب الله فى جنوب لبنان ، وفى "حماس" فى قطاع غزة ، ثم إن الجمهورية الإسلامية فى إيران أصبحت السند الأكبر للقضية الفلسطينية" .

٤ ــ وارتبط بذلك أن التيار الإسلامى فى مصـر أخذ يبرز ، وتكررت عمليـات العنـف التى قامت بها عنـاصر تنتسب إليـه فـى مصـر . ثـم إن هـذا التيـار الإسلامـى بفصائله المتعددة والمختلفة ، هو الـذى تصدر حملـة مقاومـة التطبيـع بـين مصـر وإسرائيل ــ "وهذا يهـدد اتفاقية السـلام مع مصر، وإذا كـان لا بـد مـن تثبيـت المعاهدة مع مصـر ، فإن الورقة الفلسطينية لا بد أن تنتزع من يـد التيار الإسـلامى فى الدولة العربيـة التى عقـدت أول معاهدة سـلام مع إسرائيل" .

وفى اجتماع فى القاهـرة حضره "إفراييم سنيـه" مـع بعـض المسئولين المصريـين ، وكان قد أصبح وزيرا فى حكومة "رابين" ، قال "سـنيه" : "إن الحركـة الإسـلامية سوف تتصاعد وسوف تـؤدى إلى تقويـة التيار الدينـى فـى إسـرائيل نفسـها . وأنـا رجـل علمانى ، وأستطيع أن أتصور أن المتشـددين الإسـلاميين والمتشـددين اليهـود سوف يلتقون معا وبغير تنسيق بينهم للعمـل على أرض إسرائيل أو أرض فلسطين. وهذه التيارات الإسـلامية المتشـددة واليهوديـة المتشـددة سـوف تـؤدى إلى كـوارث بالنسبة لحكومة إسرائيل ولمنظمة التحرير ." ثم كان "سنيـه" يضيـف إلى ذلـك : "إن الأمور سوف تتطـور بسرعة فى مصـر ، وسوف يعلـو نفـوذ التيـار الإسـلامى فيها ، وقد يؤدى ذلك إلى انهيار معاهدة السـلام مع إسرائيل ، ونصبح مرة أخـرى أمام خطر حـرب عامة عربيـة ــ إسرائيلية" .

وكان "رابين" يتابع باهتمام .

٥ ــ وكان رئيس الوزراء الإسرائيلى الجديد يستطيع أن "يستنتج من كل ما يراه أمامه أن منظمـة التحـرير أصبحـت جـاهزة نفسيا وعمليا لإعطـاء كـل شـىء فـى مقـابل الاعتراف بهـا".

٦ ــ وكان الظـن الذى جال فى فكـره أنـه لـو مـد إصبعـا واحـدا ــ وليـس يـدا كاملـة ـ إلى منظمـة التحريـر "لأخـذ الورقـة الفلسـطينية ليـس مـن التيـار الإسـلامى فقط ولكـن أيضـا مـن سوريـا ومـن الرئيـس حـافظ الأسـد" . وإذا تحقـق ذلـك، فـإن "حـافظ الأسـد لـن يتبقـى لـه إلا بضعـة كيلومـترات مـن الأرض علـى هضبـة الجـولان" .

٧ ــ إن "رابين" كان فى هذا الوقت يشعر أنه آخر سياسـى كبير بـاق من جيل الشـباب الذين أحاطـوا بالمؤسسين الأول للدولـة (وهو جيـل "بيريز" و"وايزمان" و"رابين") ـ وهو (أى "رابين") الآن أقواهـم جميعا بحكم رئاسـته لحـزب العمـل وللـوزارة . وهو لا يريد "أن يقضى ما تبقى له مـن عمـر فـى مقاومـة تظـاهرات الانتفاضـة أو مطاردة مقاتلى حماس ، وإنما يريد أن يختم دوره السياسى بعمـل كبير ."

وفى جلسة للمجموعة البرلمانية لحزب العمل قال "رابين" ما نصه : "علينا أن نتذكر باستمرار ما هو هدفنا ... لم يكن هدفنا أن نهزم مصر أو نحتل الجولان . كل هذه أشياء جاءت فى طريقنا أثناء سعينا لبناء الدولة ، ولكى تصبح إسرائيل سياسيا واقتصاديا جزءا من المنطقة والقوة القائدة فيها . وهذا تحقق لنا وأصبحت الأمور ناضجة من حولنا لتأكيده وترسيخه ."

وفى اجتماع تال لهيئة مكتبه كرئيس للوزراء قال "رابين" إنه إذا استطاع إنهاء "الموضوع الفلسطينى" فسوف يكون ذلك أعظم إنجاز فى تاريخ إسرائيل . ثم يضيف "رابين" : "إن حاييم وايزمان كان لديه حلم دولة إسرائيل ، ثم إن بن جوريون وقعت عليه مهمة تأسيس الدولة ، ومهمتى الآن أن أجعلها دولة مقبولة فى المنطقة سياسيا واقتصاديا . والحقائق الموضوعية فى هذه اللحظة كفيلة بأن تجعلها القوة المسيطرة فى المنطقة . وأظن أنه ليس صعبا لنا أن نسوى ما تبقى من القضية الفلسطينية . ونحن لا نستطيع أن نجعل مليونى عربى تحت الحكم الإسرائيلى (بعد حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧) يعيشون بيننا فى حالة مقاومة هادئة أو هائجة . ففى حالة الهدوء سوف تكون مقاومتهم عبئا على ضميرنا ، وفى حالة الهياج سوف يضطر جيش الدفاع الإسرائيلى أن يتحول ليصبح ميليشيا بوليس ."

وكذلك كان "رابين" – ربما بغير قصد – يقترب من إمكانية الاعتراف بمنظمة التحرير وقبول التعامل معها لأنه "إذا وضعت منظمة التحرير توقيعها على ورقة فسوف يكون من الصعب على أى طرف آخر فى العالم العربى أن يزايد عليها ، وذلك يمكن أن يكون اختراقا إسرائيليا بعيد المدى فى قلب العالم العربى ."

كان "رابين" يتأمل ويفكر ، وكان "بيريز" قد قرر أن يغامر ويجرب .

□

إن "شيمون بيريز" شخصية شديدة التعقيد ، ولعلها تصلح لأن تكون التعبير الأشد قربا من تصوير دولة إسرائيل ذاتها .

فـ "شيمون بيريز" من مواليد بولندا فى شرق أوروبا ، لكنه فى اللحظة الراهنة : الشرق أوسطى الأول – وهو أكثر المستشهدين بالتوراة لإثبات الحق المقدس للشعب اليهودى فى فلسطين . لكنه أول من يعترف بأنه "ملحد" ترك العقائد الدينية منذ زمان طويل للحاخامات وأشياعهم . وهو بانى الصناعة النووية فى إسرائيل ، لكنه مع ذلك ما زال قبليا

حتى العظام فى سياساته . والواقع أن علاقة الكراهية المتبادلة بينه وبين "رابين" لا يمكن تفسيرها إلا بمنطق العداء القبلى .

وكان "شيمون بيريز" طوال عمره رجلا يجتذب إليه شكوك الآخرين وريبتهم فيه : يسمعون ما يقول ولا يصدقونه ، ويرون تصرفاته ويتساءلون عما وراء ظاهرها ، ولم يعطه أحد فى أى وقت من الأوقات فرضية "حسن النية" . واعتبر كل ساسة إسرائيل وبغير استثناء أن افتراض حسن النية يصعب أن يرد بشأن "شيمون بيريز" .

وبعض ذلك يعود إلى ظروف "بيريز" ، وبعضها الآخر يعود إلى شخصيته .

إن ظروف "بيريز" ، خصوصا فى فترة إقامة الدولة ، جعلته قريبا من "بن جوريون" ، ولسنوات طويلة كان مديرا لمكتبه ، وهذا جعله فى وضع من يعرف الأسرار قبل نظرائه ، ومن ينقل المعلومات إلى رؤسائه ، وكان هذا يثير حفيظتهم . ثم إن تكليفه بالمهام السرية الخاصة التى يطلبها منه "بن جوريون" كان يعطيه وضعا ممتازا يتفوق به على الآخرين ، ثم أصبح لهذا الوضع شأن أخطر حينما قام "بن جوريون" بتكليف "بيريز" بأن يشرف سياسيا على مشروع إسرائيل النووى .

إن "بيريز" كان يشعر بحساسية الآخرين ، وبدوره . وبادعاء الحرص على الأسرار فإنه حرص على أن يخلق لنفسه مكانة عصية على غيره ، ولأن حرصه على ما هو فى إطار مسئوليته كان شديدا ، فقد تعلم أن يخفى تحركاته وأن يحيطها بغموض يفوق الحاجة الموضوعية للسرية والإنكار .

وعندما دخل "بيريز" إلى الحلبة السياسية كانت أدواره وتصرفاته وأقواله غير قابلة للتصديق على ظاهرها . وتشكل سلوكه يوما بعد يوم بما جعل دوائر واسعة من الساسة وكتلا واسعة من الرأى العام غير قادرة على أن توليه ثقتها ، وأن تبدأ علاقتها معه بالحذر منه مهما فعل أو قال .

وبدا صعود "بيريز" إلى رئاسة حزبه عندما صعد إليها ــ مناورة أقرب ما تكون إلى المؤامرة ، وكذلك كان الشأن فى رئاسة الوزارة . ثم استحكمت العقد بالخلاف بينه وبين "رابين" على رئاسة حزب العمل وعلى رئاسة الوزارة . كان "رابين" دائما الجندى المقاتل المصدق ، وأما "بيريز" فقد كان دائما المناور الملتوى والمشكوك فيه .

وحاول "بيريز" أن يرد على ذلك ، فاتخذ لنفسه سمة الرجل القادر على أن يسبق عصره وأن مشكلة الآخرين معه بمن فيهم "رابين" أنهم غير قادرين على تخيل ما يراه هو رأى العين ، وعلى استيعاب ما يتمثله قابلا للتحقيق إذا أعطوه الفرصة وتركوا له السلطة !

وفى أجواء الشهور الأخيرة من سنة ١٩٩٢ ، وفيما كان "رابين" لا يزال مترددا فى التعامل مع منظمة التحرير ، تحرك "بيريز" ومد خيوطه ثم خطوطه فى اتجاه المنظمة ، ومباشرة !

□

ولم يكن فى اختصاص "بيريز" أن يقوم بأى عمل على المسارات السياسية التى نشأت ونشطت بعد مدريد ، بما فيها المسار الفلسطينى ، فهذه المسارات السياسية كلها كانت واقعة تحت اختصاص رئيس الوزراء "إسحاق رابين" . وكان الاثنان ("رابين" و"بيريز") قد اتفقا بعد تأليف وزارة حزب العمل الجديدة أن يكون الموضوع السياسى بمساراته المختلفة ، فى واشنطن أو فى غيرها ، من اختصاص "رابين" ، وأن يكون الشق الثانى من نتائج مدريد ــ وهو المحادثات المتعددة الأطراف ــ من اختصاص وزير الخارجية "شيمون بيريز" . وكان ذلك مطلب "رابين" الذى أراد إبعاد "بيريز" عن العملية السياسية وظن أنه يستطيع تحجيمه بالموضوعات الشاملة والواسعة التى تتعرض لها المحادثات المتعددة الأطراف .

وعلى طريقته فإن "بيريز" حاول أن يفلسف هذا التقسيم للاختصاصات . وفى القاهرة مثلا قال "بيريز" فى أول زيارة له بعد أن أصبح وزيرا للخارجية فى وزارة "رابين" الجديدة : "إن تقسيم الاختصاصات بينه وبين رئيس الوزراء لا يعكس ضعفه كما يتصور البعض ، وإنما على العكس يظهر قوته . فرابين اختص بالمسائل السياسية ، وكلها قضايا تاريخ متعلقة بتصفية بقايا الماضى ، وأما هو وبإشرافه على المحادثات المتعددة الأطراف فإنه أخذ فى اختصاصه قضايا المستقبل وبناء شرق أوسط جديد".

وفى تلك الزيارة للقاهرة انتهز "بيريز" الفرصة وراح يعرض تصوراته أمام بعض من التقى بهم من الرسميين المصريين . وكان مجمل آراء "بيريز" كما عرضها فى القاهرة[1] ، محاولة واضحة للقفز فوق الحاضر والالتفاف حوله إلى شكل ومذاق المستقبل القادم فى المنطقة :

ــ كان "بيريز" يرى أن حجم الدولة أو تعداد سكانها لم يعد الآن ضروريا لتأكيد قوتها ، فالقوة فى العصر الحديث تعتمد على عنصرين : الاقتصاد والتكنولوجيا .

---

(١) النصوص الواردة فى هذه الفقرات استخلاص دقيق يكاد فى بعض المواضع أن يكون حرفيا لوقائع أكثر من اجتماع هام حضره "بيريز" فى القاهرة .

ـ وكان "بيريز" يرى للأمن العسكرى وجهين : وجه دفاعى ووجه هجومى ـ وكلاهما لم يعد يعتمد الآن على حجم الجيوش أو أسلحتها التقليدية . فالوجه الهجومى يعتمد الآن على أسلحة الدمار الشامل (الصواريخ والأسلحة النووية) ، وأما الوجه الدفاعى فهو التحقق من أن المجال المحيط بالدولة لا تتجمع فيه أو توجد أية أسلحة للدمار الشامل .

ـ ويلمح "بيريز" دون أن يقولها صراحة أن إسرائيل الآن فى أفضل وضع تحقق لها منذ قيام الدولة : فقدرتاها الاقتصادية والتكنولوجية عند أعلى مستوى إلى درجة أن الولايات المتحدة نفسها تلجأ إليها فى حل كثير من مشاكل الصناعات العسكرية . وكذلك لجأت إليها الصين فى حل مشكلة معقدة واجهتها فى إنتاج الصواريخ ، وهى تتعلق بالتوجيه .

ـ ويضيف "بيريز" أن إسرائيل فى هذه المجالات أصبحت قوية ، وفى واقع الأمر فإنها أصبحت قوية جدا . وفى مرة من المرات فى القاهرة مال برأسه مقتربا من أحد الجالسين إلى جواره وكرر هذا القول باللغة الإنجليزية قائلا : "We became very strong , as a matter of fact very, very strong" ـ وتساءل سامعه فيما بعد مع زميل له حضر نفس الاجتماع : "هل كان ما قاله بيريز تقرير حقيقة أم كان تحذيرا مبطنا ؟"

ـ قال "بيريز" أيضا إن "المجال المحيط بإسرائيل لم تعد فيه أسلحة دمار شامل . وهذا يطمئننا أكثر إلى مرحلة من التعاون غير المشروط من أجل المستقبل . وعلى أى حال ـ كذلك قال ـ فمصر ليست لديها مشكلة أمن بعد اتفاقية السلام مع إسرائيل ، وبالتالى "فإن حكمة قيادتها الساعية للسلام جنبتها مخاطر سباق السلاح فى هذه المجالات المعقدة". وكان الخطر فى المجال العربى من "محاولات العراق لامتلاك أسلحة الدمار الشامل ، وقد تمت تصفية هذا الخطر بفضل حماقة القيادة العراقية" ."

ـ ثم يضيف "بيريز" أنه "ما زالت هناك بؤرتان محتملتان للخطر وهما إيران وباكستان ـ وباكستان بعيدة ولديها من المشاكل مع الهند ما يكفيها . وأما إيران فهى المشكلة الحقيقية الآن . لكن إسرائيل متنبهة لها ، ويحسن بالآخرين أن يتنبهوا لأن إيران إذا حصلت على إمكانية نووية سوف تستعملها غطاء لجيوش الإرهاب تزحف بها إلى العالم العربى ."

(وفى اجتماع على أعلى مستوى فى القاهرة استمر ساعة ونصف الساعة ، انشغل "بيريز" لمدة خمسين دقيقة يتحدث عن "الخطر الإيرانى" ، وأما بقية القضايا الأخرى فانحشرت كلها فى أربعين دقيقة فقط !)

- وسئل "شيمون بيريز" فى القاهرة عن أسلحة إسرائيل النووية ، ولم يعط إجابة واضحة . لكنه قال أمام مستشارى الرئيس "مبارك" : "لقد قيل لنا إنه بين الأسباب التى دفعت الرئيس "السادات" للذهاب للقدس سنة ١٩٧٧ هو خوفه مما قيل إنه لدينا من أسلحة نووية . ونحن لا نعرف إذا كان ذلك عنصرا مؤثرا فى تفكيره أم لا . ولكننا نعرف أن أحسن ما فعله هو أنه جاء إلينا بعرضه العظيم للسلام . إن أصدقاءنا المغاربة قالوا لنا إنهم سمعوا منه أن الذى أتى به إلينا فى القدس هو قلقه من مفاعل ديمونه ، وقد ذكروا لنا أنه فى حديث معهم كرر الإشارة إلى ديمونه خمس أو ست مرات . وأحسوا من جانبهم أن ذلك كان عنصرا أساسيا فى تفكيره . لكننا على أى حال اعتقدنا وما زلنا نعتقد أن رؤاه vision للسلام كانت أكبر من شكوكه فى ديمونه ."

وراغ "شيمون بيريز" من إجابة مفهومة عن أسلحة إسرائيل النووية ، وراح يتحدث عن أن إسرائيل "لا تريد أن تعيش وسط بحر من الفقر يحيط بها . فليس يجدى أن نكون دولة غنية أو قوية إذا كان ما حولنا يغلى بالفقر والسخط ، فهذه مخاطر لا نستطيع مواجهتها لا بالرادع النووى ولا بغياب تهديد جدى . ولذلك ، فنحن نسعى إلى سلام حقيقى ."

ومضى "بيريز" فى القاهرة يعطى تصوره لمشروع السوق الشرق أوسطى الجديد الذى يحلم به ويسعى لإنشائه .

رغم كل ما قاله "بيريز" فى القاهرة - فإنه كان يعرف فى قرارة نفسه أن الموضوع السياسى ، خصوصا مع منظمة التحرير الفلسطينية ، لا يمكن تجنبه فى أى حديث عن الحاضر أو المستقبل . ولم يكن راضيا فى أعماقه عن ترك هذا الموضوع لاختصاص وإشراف رئيس الوزراء "إسحاق رابين" .

٢

أوسلـــــــــــو

" نريـد أن نسلـم لكـم أنـتم مفتـاح غـــزة "

(مفـاوض إسـرائيلى لمفـاوض فلسطيـنى فـى بدايـة اجتماعات أوسلــو)

ضمـن عشرات القنوات المفتوحة سـرا بين الفلسطينيين والإسرائيليين فـى عواصـم أوروبـا والشرق الأوسـط ، ظهرت فـى أواخـر سنــة ١٩٩١ وفـى القاهــرة بـالتحديد ، قنــاة اتصـال جديدة ــ وفى الغالب فإنها بـدأت بغير تخطيط أو قصـد .

كانت البداية ملحقة دبلوماسية شابـة بسفارة النرويج فى القاهــرة . وكـان اختصاصهـا الإشراف على توجيه مبلـغ ستـة ملايـين دولار مـن معونـة قدمتهـا حكومـة الـنرويج لدراسـة الأوضاع الاجتماعية فى قطاع غــزة بعد أن تفجرت فيها انتفاضة أطفال الحجارة ، وبعـد أن بـدا بالظنون أن الانتفاضة متأثــرة فـى تفكيرهـا وتوجيههـا بالتيـار الإسلامــى الـذى تنـادت الصيحات فى أوروبا بأنه الخطـر القادم على المنطقة وعلى العالـم . وعلى نحـو ما فإنه بـدا أمام كثيرين ، حتى داخل العالم العربـى نفسه ، أن الانتفاضة لا تثـير قلـق إسرائيل وحدهـا أو الغـرب وحـده ، وإنما تخيـف أيضا بعـض الـدول العربيـة التـى تخشــى مـن انتفاضـات محليـة داخل حدودها ذاتها .

كانت الملحقة النرويجية الشابة واسمها "مونـا جـول" قد التقت فى مجال عملها بباحث نرويجى جاء بدوره إلى القاهـرة قاصدا قطاع غــزة برعايـة هيئــة "الأونـروا"[٢] . وكـان مـن

(٢) "الأونـروا" هيئــة تابعـة للأمـم المتحـدة تتـولى إغاثـة وتشغيـل اللاجئـين الفلسـطينيين فـى الشـرق الأوسـط بمقتضـى قـرار مـن الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة سـنة ١٩٤٩ . وقـد ظلـت هـذه الهيئـة تواصـل عملهـا منـذ ذلـك الوقـت ودون أن يعترضهـا أحـد لا مـن سـلطات الإدارة المصريـة فـى القطـاع ، ولا مـن سـلطات الاحتـلال الإسـرائيلى بعـد سنــة ١٩٦٧

الطبيعى أن يلتقى هذا الباحث النرويجى واسمه "تيرجى لارسن" مع "مونا جول" ، فبحثه واقع فى اختصاصها ثم إنه مواطن نرويجى ذهب إلى سفارة نرويجية كان عليها أن تقدم له ماتستطيع من تسهيلات .

وفى القاهرة ، ومع لقاءات متكررة بين دبلوماسية نرويجية وباحث أكاديمى نرويجى نشأت قصة غرام ساعد عليها أن الرجل والمرأة فيها كان لهما اهتمام عملى مشترك بقطاع غزة وسكانه والأحداث الجارية فيه . ولكى يستكمل "لارسن" أبحاثه فإنه زار قطاع غزة أكثر من مرة برفقة "مونا جول" ، ثم اقتضته ضرورات البحث أن يذهب إلى إسرائيل ليستكمل بعض العناصر اللازمة لتقريره . ولشهور طويلة ظل "لارسن" ينتقل ما بين القاهرة وغزة وتل أبيب .

وفى مايو سنة ١٩٩٢ كان "لارسن" فى إسرائيل التى كانت تعيش أجواء المعركة الانتخابية للكنيست الجديد . والتقى "لارسن" أثناء زيارته بعدد من الشخصيات السياسية والأكاديمية بينهم رجل من المقربين من "شيمون بيريز" والذين سبق لهم الالتحاق بمكتبه ، وكان فى ذلك الوقت يشرف على مركز للأبحاث السياسية تابع لحزب العمل ، وهو الدكتور "يوسى بيلين" . وكان قصد "لارسن" - كما يمكن استنتاجه - مركزا على مناقشة السياسة التى سوف ينتهجها حزب العمل تجاه قطاع غزة والانتفاضة المتفجرة فيه - إذا ما فاز هذا الحزب فى انتخابات الكنيست وتمكن من تأليف الوزارة الجديدة .

وطبقا لرواية "لارسن" فقد كان اجتماع الاثنين ("لارسن" و"بيلين") على مائدة غداء فى مطعم "تندورى" فى شارع "ديزنجوف" فى قلب تل أبيب . وقد بدأ الحديث بينهما حول التطورات العالمية الصاخبة الجارية وقتها وأهمها سقوط حائط برلين ، ثم حرب الخليج وأعقابها . ثم انتقل اهتمام الاثنين طبيعيا إلى قطاع غزة وما يجرى فيه ، وإلى ما يمكن عمله بعد الانتخابات . وأثناء الحديث قال "بيلين" إن المركز الذى يعمل فيه على اتصال بمركز الدراسات العربية الذى يديره السيد "فيصل الحسينى" ، وإنه التقى بـ "فيصل الحسينى" عدة مرات فى إطار اهتماماتهما الأكاديمية المشتركة ، ولم يجد لدى "الحسينى" أية أفكار جديدة يمكن أن تؤدى إلى مخرج يعالج الأوضاع المتردية فى غزة بطريقة مأمونة سواء بالنسبة لمنظمة التحرير أو بالنسبة لإسرائيل . ثم قال إنه يتردد فى الإلحاح على تكرار لقاءاته مع "فيصل الحسينى" لأن "فيصل تحت متابعة إعلامية شديدة بعد مؤتمر مدريد ، ووسائل الإعلام كلها تراقب ما يجرى فى مكتبه فى بيت الشرق فى القدس ، وكثرة الاتصال به تضعه فى حرج ، كما أن ظهورنا أمام وسائل الإعلام يسبب مشكلة لى (يوسى بيلين نفسه)" .

وهنا ، وبطريقة عابرة ، تساءل "لارسن" قائلا : "ولماذا لا يكــون اجتماعكما فــى مكـان آخر بعيدا عن الأضـواء وعن وسائل الإعلام ... فى النرويج مثلا ؟"

ولم تترتب على هذا الحديث فى تـل أبيـب نتيجة ، وإن كانت علاقة "تيرجى لارسن" مع "مونا جول" قد وصلـت إلى نتيجة حاسمة إذ تـزوج الاثنان . وكـانت "مونـا جــول" قـد نقلت من سفارة النرويج فى القاهـرة إلى وزارة الخارجية النرويجية فى أوسلـو . وهكذا عــادت "مونا جـول" إلى وزارة الخارجية النرويجية لوظيفة عادية ، وألحقت بمكتب الوزيـر .

□

وفى ديسمبر ١٩٩٢ كانت الحوادث تواصل تدافعها فــى الشرق الأوســط . فقـد نجــح حزب العمل فى انتخابات الكنيسـت وتمكن "رابين" مــن تـأليف الـوزارة ، وأصبـح "شـيمون بيريز" وزيرا للخارجية معـــه . ثـم إن "يوســى بيلـين" أصبح وكيـلا لـوزارة الخارجيـة مـع "بيريز" . وبخلفيته السياسية والأكاديمية تحدد اختصـاص "يوسى بيلـين" كوكيـل لـوزارة الخارجية بشئون الشرق الأوسـط التى كان وزيـره "شـيمون بـيريز" يعتبرهـا شـاغله الأكــبر . ولم يكن "بيلين" بنفسه بعيدا عن هذا الشاغل ـــ فبسبب ظروفه السياسية والأكاديمية كان قد شارك فى اتصالات عديدة مع الفلسطينيين ، سواء فى الإطار الأكاديمى أو فى إطــار القنـوات المتعددة التى يشـرف عليها "أبو مـازن" .

ويوم ٣ ديسمبر ١٩٩٢ كان "يوسى بيلين" فى لنـدن يشارك فى اجتماع اقتصــادى ضمــن المحادثات المتعددة الأطراف . وكان "تيرجى لارسن" فى لنـدن فى ذلك الوقت يبحــث عـن تمويل يمكنه من مواصلـة بحثـه عن أوضاع قطاع غــزة . وتلاقى الاثنان مــع صديـق مشـترك لهما ـــ أكاديمى إسرائيلى آخـر ـــ هو "يائير هيرشفيلد" . وعـاد "بيلين" و"لارســن" إلى مـا كانا يتكلمان فيه فى تـل أبيـب قبل شهـور قليلـة حول قطاع غـــزة . واقترح "لارسن" علــى "بيلين" أن يلتقى بـ "فيصل الحسينى" وهو يعـرف أنه هو الآخر موجـود فــى لنــدن لحضـور اجتماع اللجنة الاقتصادية فى إطار المحادثات المتعددة الأطراف . وكان "فيصـل الحسيــنى" بالفعل فــى لنـــدن مـع "حنـان عشـراوى" ، فــى طريقهمـا إلى واشـنطن لجولـة أخـرى مـن المحادثات السياسية على المسار الفلسطينى فى وزارة الخارجية الأمريكيـة .

كان "فيصل الحسينى" و"حنان عشراوى" فى عجلـة مـن أمرهمـا ذاهبـين إلى واشـنطن . ومن ناحية أخرى فإن "يوسى بيلين" تردد فى الالتقاء بهما فى العاصمة البريطانية لأن منصبه الرسمى الآن يلفـت الأنظـار إليه والى تحــركاته ومقابــلاته ، والقانــون الإسـرائيلى الســارى

وقتها ومن أيام "شامير" يحظر على الإسرائيليين أى اتصال بممثلين رسميين لمنظمة التحرير . ولم يكن "بيلين" على استعداد لأن يجازف ويقابل "فيصل الحسينى" أو "حنان عشراوى" . ولكى لا تضيع الفرصة فإن "لارسن" اقترح على "يوسى بيلين" لقاء إسرائيليا مع ممثلين لمنظمة التحرير لا يثير فضول وسائل الإعلام ولا يجتذب أضواءها . وكان بين حججه فى إقناع "بيلين" أن محادثات واشنطن متعثرة ولا فائدة ترجى منها ، وإنه قد لا يكون هناك ضرر من استكشاف آراء ممثلين رسميين للمنظمة التى أصبح من الواضح أنها هى التى تملك القرار الفلسطينى .

ثم كان اقتراح "لارسن" العملى أن يوافق "بيلين" على تكليف "يائير هيرشفلد" بأن يقوم بدلا منه بالاتصال بفلسطينيين من منظمة التحرير قائلا إنه من ناحيته سوف يسأل الدكتورة "حنان عشراوى" عن شخص موثوق به فى الوفد الفلسطينى المشارك فى أعمال اللجنة الاقتصادية فى لندن ، ومن ثم تبدأ اتصالات هادئة يقترح هو أن تجرى فى النرويج بعيدا عن الأضواء ـ خصوصا وأن النرويج ـ بدور الحزب الحاكم فيها ـ كانت نشيطة فى البحث عن تسوية للمشكلة الفلسطينية فى إطار الدولية الاشتراكية .

وكانت الدكتورة "حنان عشراوى" وعلى التليفون وبسرعة هى التى اقترحت اسم السيد "أحمد قريع" (وكنيته "أبو علاء") ليجرى هذه الاتصالات مع "يائير هيرشفلد" .

وعاد "تيرجى لارسن" إلى أوسلو ، وبمساعدة زوجته "مونا" ، ليقنع "ثورفالد ستولتنبرج" وزير خارجية النرويج (و"مونا" تعمل فى سكرتاريته) بأن تستضيف بلاده لقاء سريا إسرائيليا ـ فلسطينيا يكون الإسرائيلى فيه هو "هيرشفلد" ، ويكون الفلسطينى فيه هو "أحمد قريع" ("أبو علاء") . ورحب وزير الخارجية ، وكان بين اعتباراته أن "السويد" فى مرحلة سابقة كانت هى التى تصدت لمثل هذه الاتصالات بين الفلسطينيين والإسرائيليين ـ كما حدث سنة ١٩٨٨ ـ بحكم أن الحزب الحاكم فيها كان اشتراكيا وعضوا فى الدولية الاشتراكية . لكن "السويد" تغيرت أوضاعها وسقط الحزب الاشتراكى فى الانتخابات الأخيرة ، وحل محله حزب محافظ بعيد عن اهتمامات الدولية الاشتراكية و"المؤسسة" (اليهودية الصهيونية) القريبة منها . وأما فى النرويج فقد كان الحكم ما زال اشتراكيا ـ عضوا فى الدولية الاشتراكية ، وصديقا لأصدقائها !

وهكذا جرى إنشاء قناة أوسلو .

□

لم تكن لـ "أبو عـلاء" سابق صلـة بالعمل السياسـى الفلسطينى أو سابق علاقـة بـالقنوات السريـة للاتصالات رغم أنه كان عضـوا فـى المجلس الوطـنى الفلسـطينى . فهـو بخلفيتـه العملية مـدرس رياضيات عمـل فى الكويـت ، وهناك التحق بـ "فتـح" ، ثـم أصبح مسـئولا عن مؤسسـة "صامـد" وهى الدائرة الموكلة بالشئون المالية فى منظمـة التحريـر الفلسـطينية . وبهذه الصفة فإنه كان مشاركا فى اجتماعات اللجنـة الاقتصاديـة ضمـن المحادثـات المتعـددة الأطـراف فى لنـدن .

والحاصل أن لقاءه مع "هيرشفلد" فى فندق "كافنديش" فى لنـدن بحضور "لارسـن" كـان أول اتصال بينه وبين الإسرائيليين . وقد حـرص فيه على أن يستمع أكثر مما يتكلـم . بـل إنه أكثر من ذلك حـرص على أن يحضـر السيد "عفيـف صافيـة" ممثـل منظمـة التحريـر فـى لنـدن أول اجتماع بينه وبين "هيرشفلد" و"لارسـن" . وكـان أهـم مـا قالـه "أبـو عــلاء" إنـه "سوف يعود إلى تونـس وسوف يتحدث فى الأمـر مع "أبو مـازن" باعتباره المسئول الأول عـن الاتصالات مع الإسرائيليين" .

وعـاد "أبـو عــلاء" إلى تونـس" والتقـى بـ "أبـو مـازن" وعـرض عليـه تفـاصيل مـا جـرى فـى لنـدن . وكـان "أبـو مـازن" يتسـاءل عـن قيمـة "هيرشفلـد" وجـدوى الاتصـال بـه . وكـان أن توجـه "لارسـن" بنفسـه إلى تونـس ليجيـب علـى السـؤال الخـاص بقيمـة "هيرشـفيلد" وجـدوى الاتصـال بـه . وكـانت ردود "لارسـن" علـى السـؤال المطـروح عليـه هـى أن "هيرشفلـد" هـو رجـل "يوسـى بيلـين"، و"يوسـى بيلـين" بدوره هـو رجـل "شـيمون بـيريز" . وبالتـالى فإنـه إذا فتحـت قنـاة اتصـال بـين "هيرشـفلد" و"أبـو عـلاء" فمعنـى ذلـك أنهـا بطريـق غـير مباشـر قنـاة بـين "أبـو مـازن" و"بيريـز" . وكان رأى "أبو مـازن" بعـد كـل مـا سمـع فـى تونـس مـن "لارسـن" :

١ ـ إنه يمكن فتـح هذه القنـاة فى النرويج لاستكشاف ما قد يكون لدى الإسرائيليين ، خصوصا وأن القنـاة يبـدو من ظاهرها أنها "واصلـة" .

٢ ـ إن عمـل القنـاة فى أوسلـو يمكن أن يكفـل لها قـدرا معقولا مـن السريـة لا تلفـت إليها نظـر وسائل الإعـلام العالمية .

٣ ـ إن اهتمام وزيـر خارجية النرويج بهذه القنـاة يعنى أن هناك حكومة أوروبية ترعـى بنفسها ضمانات سريتها وعملهـا . (وهذه الحكومـة اشـتراكية وعضـو فـى الدوليـة الاشتراكية ، على صداقـة بأصدقائها !)

٤ ـ طلـب "أبو مـازن" من "أبو عـلاء" أن يحتفـظ لنفسه بسـر هذه القنـاة ، وألا يبلـغ بها أحدا فى هذه المرحلـة ، بمن فى ذلك "ياسر عرفـات" .

وتفرغ "أبو مازن" بعد ذلك سبع ساعات لـ "أبو عـلاء" يعطيه خلفية عن اتصالات سابقة ، ومناقشات جرت فيها ، ثم أضاف ما اعتبره توجيها بأسلوب الاتصال والتفاوض مع الإسرائيليين .

□

وتلقت قناة أوسلو فى بداية عملها صدمة ، فإن وزير خارجية النرويج الذى كان يرعاها وهو "ثورفالد ستولتنبرج" ، ترك منصبه بعد أن وقع عليه الاختيار ليكون ممثلا للأمم المتحدة فى متابعة أزمة البوسنة والهرسك بعد استقالة "سايروس فانس" الذى كان يتولى هذا المنصب . لكن الحظ عاد مرة أخرى إلى قناة أوسلو لأن "يوهان جورجن هولست" نقل من منصبه كوزير للدفاع ليصبح وزيرا للخارجية . وبالمصادفات السعيدة فإن "هولست" وزير خارجية النرويج كان متزوجا من "ماريان هايبرج" وهى شقيقة لـ "مونا جول" ، وهكذا لم تصبح "مونا جول" مجرد سكرتيرة فى مكتب وزير الخارجية وإنما أيضا شقيقة لزوجته . ولم يكن صعبا إقناع "هولست" بأن يضع القناة السرية بين الفلسطينيين والإسرائيليين تحت رعايته بمثل ما كانت ـ وأكثر ـ تحت رعاية سلفه .

ولم تكن البدايات صعبة فى قناة أوسلو ، فقد وفرت لها وزارة الخارجية النرويجية كل ما يساعدها على النجاح ابتداء من السرية ، إلى توفير مكان مناسب للاجتماعات ، وهو بيت لأحد رجال الأعمال البارزين فى مدينة "ساريسبورج" استعارته وزارة الخارجية من صاحبه وزودته بكل تسهيلات العمل ووسائل الاتصال . وكان وجود ممثل لوزارة الخارجية فى مقر الاجتماعات عنصرا إضافيا فى تسهيل الأمور .

وأمكن التوصل فى أول جلسة إلى مجموعة خطوط عريضة يجرى العمل على أساسها :

- أولها : إن العودة إلى "عُقَد التاريخ" البعيد لن تكون مجدية ، وإنما هى تعطيل لاحتمال اتفاق تتوفر له فرص للنجاح عمليا !
- وثانيها : إن الأمر الواقع لا بد أن يكون نقطة البداية ، ويكون التحرك من خلاله .
- وثالثها : إنه لا بد من اختيار موقع محدد ومقبول من الطرفين بحيث يكون نقطة بداية لخلق حقائق جديدة يمكن الانطلاق منها والبناء على أساسها .

(ولم يتنبه الطرف الفلسطينى لسوء الحظ أن هذه المجموعة من الخطوط العريضة التى وافق عليها أخذت منه قضيته بالكامل !)

وكان طبيعيا أن يطرح "لارسن" موضوع غـزة ، وهو شاغله - وشاغل الإسرائيليين أيضا . وكان رد "أبو عـلاء" : "انسحبوا منهـا إذا كـانت صداعـا لكـم ، ولكنهـا تحتـاج إلى مشروع مارشـال" .

وأحـس "أبـو عـلاء" أن سامعـه تقبـل فكـرة "مشـروع مارشـال" (برنامـج ضخـم قدمتـه الولايات المتحدة الأمريكية لإعادة تعمير أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية) ، فاستطرد يقـول : "إن غـزة فى حاجة إلى توفير الاستقرار والأمـن والتنميـة فـى أسـرع وقـت" . ورد "هيرشفلـد" قائلا : "ولكن كيف سيكون المخـرج مـن غـزة ؟ ولمـن يتعـين علينـا أن نعطـى مفتاحها ؟" وقال "أبو عـلاء" : "إن ذلك أمـر يمكن الاتفـاق عليـه ، ويمكـن إعطـاء المفتـاح للأمـم المتحدة أو لجهـة دولية مـا" . وقـال "هيرشفلـد" : "إن مـا نتوقعـه هـو أن نعطـى المفتاح لكم أنـتم" .[٣]

وأحـس "أبو عـلاء" أن إسرائيل تعـرض غـزة فعـلا علـى المنظمـة . ورأى أن المسألة على هذا النحـو وبهذه السرعة تقتضى الرجوع إلى "أبو مـازن" . وبـدوره فـإن "أبـو مـازن" وجـد أنه أصبح لزاما إطلاع "ياسر عرفات" على الأمر . وكان رد الفعل الأول لـدى "عرفـات" هو التسـاؤل : "لمـاذا أبـو عـلاء هـو الـذى قـام بهـذا الاتصـال ؟ .. وهـل معـنى هـذا أن الإسرائيليين هـم الذين اختـاروه ؟ .. وإذا كـان ذلـك فمـا هـو السـبب ؟" ثـم اطمـأن "ياسـر عرفات" بعد أن قام "أبو مازن" بشـرح ملابسات الاتصال كما جـرت فى لنـدن قبل أسابيع .

□

ولم تكن غـزة بعيدة عن أفكـار "ياسر عرفات" فى تلك الفترة ، فما يحـدث فيهـا سواء بسبب الانتفاضة أو بسبب المنافسة مع "حمـاس" - كان ماثـلا فى خواطـره باستمرار .

وكانت موازين التأييد الشعبى تميـل ناحيـة "حمـاس" ، لأن "إسحاق رابـين" فـى ضيقه من الانتفاضة وفى ربطها بالتيار الإسلامى - أقبـل على ضربة عنـف . ففـى يـوم ١٧ ديسمبر ١٩٩٢ قامت القوات الإسرائيلية باعتقال وترحيل ٤١٥ من قادة الحركة الإسلامية فى قطاع غـزة ، وتـم إلقاؤهم جنوب لبنـان فى بـرارى "مـرج الزهـور"، ثم تركتهم هناك للشـتاء والجـوع والوحدة . وكان أن تحـول "مـرج الزهـور" فى نفس اللحظة إلى مقـر حقيقـى للثـورة

---

(٣) نشر السيد "محمود عباس" ("أبو مازن") ما يمكن اعتباره ملخصات وافية لمحادثات أوسلـو ، وذلك فى مذكراته التى صدرت تحت عنوان "طريـق أوسلـو" .

الفلسطينية ، إسلامى الطابع وإسلامى الراية ، وتحولت أنظار العالم العربى والإعلام الدولى مع الحوادث فإذا "مرج الزهور" هو رمز المقاومة ومعقل رجالها .

ومن ناحية أخرى فإن الوفد المفاوض فى واشنطن كان هاجسا يلح على "ياسر عرفات" ، فأعضاء هذا الوفد يتصرفون كنجوم ، وبعض أجهزة الإعلام فى الخارج تروج لهم وكأنهم قيادة بديلة لمنظمة التحرير . وطبقا لتعبير "عرفات" فإنه يبدو أن "راسهم تخنت" .

كان لدى "ياسر عرفات" اعتبار آخر ، فـ"جورج بوش" ووزير خارجيته "جيمس بيكر" ، وهما "صاحبا مدريد" وما تلاها ، هما اللذان كانا يعلقان الآمال على ثلاثى "حيدر عبد الشافى" و"فيصل الحسينى" و"حنان عشراوى" ، وليس من الضرورى أن تكون تلك هى سياسة "كلينتون" الذى نجح فى الانتخابات أمام "بوش" وتولى رئاسة الولايات المتحدة، وأتى معه بـ"وارين كريستوفر" وزيرا للخارجية . وصحيح أن كليهما ــ الرئيس الأمريكى الجديد ووزير خارجيته ــ طلب إلى "دنيس روس" منسق مسارات المفاوضات العربية ــ الإسرائيلية أن يظل فى مكانه وأن يواصل مهمته حتى بعد تغيير الإدارة ، إلا أن "عرفات" قدّر ــ وتقديره صحيح ــ أن الإدارة الجديدة قادرة على اتخاذ وسائل مختلفة .

وجاء السيد "ياسر عرفات" إلى زيارة للقاهرة وفى ذهنه موضوع "غزة" وقد أضاف إليها "أريحا" .

ولم يكن مشروع "غزة وأريحا" فكرة جديدة ، فقد سبق أن طرحها "سايروس فانس" على الرئيس "أنور السادات" سنة ١٩٧٧ ــ ونقلها الرئيس "السادات" إلى كل من "ياسر عرفات" و"أبو إياد" ــ وفى ذلك الوقت جرى رفضها من قبل منظمة التحرير . لكنه منذ صيف ١٩٧٧ وحتى يناير ١٩٩٣ كانت الأوضاع قد تغيرت بشدة ، ومعها أصبح ما كان مرفوضا بالأمس ــ مطلوبا اليوم وغدا إذا أمكن التوصل إليه .

□

(١)

إن المحضر الرسمى لاجتماع الرئيس "حسنى مبارك" مع رئيس منظمة التحرير بتاريخ ٧ يناير ١٩٩٣ لا يظهر فيه ما يشير إلى أن "عرفات" فتح مع الرئيس "مبارك" موضوع "غزة وأريحا" الذى توصل إلى أنه مخرجه الوحيد إزاء مجمل الظروف التى تواجهه . وإنما تظهر وقائع المحضر ابتداء من الصفحة الرابعة منه وحتى نهايته أن موضوع المبعدين من غزة إلى "مرج الزهور" كان هو الحديث المسيطر على الاجتماع .

وجرى الحوار طبقا للمحضر على النحو التالى :[٤]

"الرئيس مبارك : نناقش الآن موضوع القضية الفلسطينية . فهل هناك جديد ؟

الوزير عمرو (موسى) : لا يوجد جديد ، ولكن هناك بعض المقترحات الجديدة .
يريدون تجديد عملية السلام فى عهد كلينتون ، وهناك مقترحات أثناء اجتماع كلينتون ويلتسين ، وكل هذا التفاف حول موضوع المبعدين (الإسلاميين إلى مرج الزهور) وهذه مقترحات يلتسين . موضوع المبعدين لا بد أن تكون له خطة ، وأعتقد أن رابين لن يلغى قرار الإبعاد بسهولة فلا بد أن نفكر ...
١ ـ مثلا أن يتم زيادة عدد الذين يقال إنه تم إبعادهم خطأ ـ ٢ ـ إسراع المحكمة بإرجاع ٧٠ إلى ٨٠ شخصا ـ ٣ ـ العمل على اختصار فكرة الإبعاد من سنتين إلى شهور .

فى مقابل هذا نطلب : (١) مشاركة الفلسطينيين فى المفاوضات . (٢) السماح بدخول المعونات للمبعدين .

وبغير ذلك لن يتراجع رابين عن موقفه . وإذا تصاعد الصراع بين الليبراليين (فى الوزارة الإسرائيلية) ورابين تتعقد المشكلة لأن البديل (فى الائتلاف الحكومى) تسوميت (حزب يمينى يرأسه الجنرال رفائيل إيتان رئيس أركان الحرب السابق) .

الدكتور أسامة (الباز) : نحاول تحريك المبعدين نحو الشريط الحدودى بدلا من مكانهم الآن ... مثلا يوضعون فى مدرسة فى مرج العيون ويكونون تحت سيطرة إسرائيل ـ الإسرائيليون يريدون معرفة هل المنظمة ستتحالف مع حماس ؟

الرئيس أبو عمار : الإسرائيليون هم الذين خلقوهم وأوجدوهم .

اللواء عمر (سليمان ـ مدير المخابرات العامة) : رابين وضع مخططا للتخلص من حماس .

الرئيس أبو عمار : الانتفاضة حينما تفجرت لم تكن حماس موجودة . فهم الذين أوجدوها ، والخليجيون يدعمونها .

الدكتور أسامة : بدأ الجميع يصحون .

---

(٤) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة للصفحة الخامسة من المحضر الرسمى لاجتماع الرئيس "مبارك" مع السيد "ياسر عرفات" تحت رقم (١٣) .

الرئيس أبو عمار : المبعدون يمكن أن يضعوهم فى السجن لأننى أخشى ألا يخرج الوفد المفاوض (فى واشنطن ، وكان أعضاؤه وقتها فى زيارة للأرض المحتلة) من الداخل تخوفا من المتطرفين .

الرئيس مبارك : أنا أشاركك الرأى ، وأرسلت لرابين بهذا .

الرئيس أبو عمار : حاولوا اغتيال الأخ فيصل فى طولكرم . هذا ما أخشاه .

الرئيس مبارك : تجلسون مع وزير الخارجية مساء اليوم وترون ما يمكننا أن نقوم به فى هذا الشأن وبلورة موقف ــ ونراه . "

لكن السر الأهم فى لقاء "حسنى مبارك" مع "ياسر عرفات" وقع الهمس به قبل بدء الجلسة الرسمية .

وكان الذى حدث أن "ياسر عرفات" و"أبو مازن" وجدا من الضرورى بعد بدء عملية أوسلو أن تكون مصر على علم ، ذلك أن الإسرائيليين قد يقومون بتسريب الأمر إلى مصر سواء لاكتساب ثقتها أو للوقيعة بينها وبين الفلسطينيين . ثم إن معرفة مصر المبكرة حماية إضافية ضد أية حملات تقوم بها أطراف عربية مثل سوريا أو الأردن أو غيرهما ــ إذا تسرب شىء .

كان السيد "ياسر عرفات" قد طلب من سفيره فى القاهرة أن يرتب له نصف ساعة على انفراد بينه وبين الرئيس "مبارك" . وأحدث هذا الطلب حساسية لدى أعضاء فى الوفد المصرى ، فليس طبيعيا فى رأيهم أن يحاول رئيس منظمة التحرير أن يقول شيئا لرئيس الدولة المصرية ثم يعتبره سرا عليهم .

وبعد أن عرف الرئيس "مبارك" من "عرفات" فى خلوة رتبت على عجل بين الاثنين ، كان رأيه أن يتحدث الرئيس الفلسطينى فى الموضوع أمام وزير الخارجية "عمرو موسى" وأمام مستشاره "أسامة الباز" ، وكان هناك انقسام فى الآراء :

الرئيس ووزير الخارجية يشكان فى جدية الموضوع ..

ومستشار الرئيس من رأيه أن هناك احتمال فرصة .

٣

أبـــو عـــــــــــــلاء

" هـل يعـرف رئيـس الـوزراء رابـين بأمـر هذه الاتصـالات بيننـا فى أوسلـو "

(المفـاوض الفلسـطينى "أبـو عـلاء" للمفـاوض الإسرائيلى "هيرشفلـد")

فى اجتماع ثـان فى أوسلـو بـدا أن هناك تقدما يمكن إحرازه ، فقد اتفـق المفاوضون على ألا يكرروا الخطـأ الذى وقـع فيه الوفـد الفلسطينى فى واشنطن . ففى حسابهم أن هذا الوفـد أخطـأ بأن بـدأ فى مناقشة القضايا الرئيسية التـى تسـتحيل فيهـا الحلـول الوسـط بسـرعة ، مثل حـق تقرير المصير والمستوطنات ومستقبل القـدس ، وإنما اتجهوا فى محاولتهم الجديدة إلى منطق البـدء بنقطة عمليـة يمكن خلـق أمـر واقـع عليهـا . ومعنـى ذلـك أن موضـوع غـــزة كان مـدار كل المناقشات . ولم تكن فى موضوع غـزة مشكلـة ، فإسرائيل على اسـتعداد منـذ سنوات لـترك قطاع غـزة لمن يشـاء . بل إن "رابـين" فى اجتمـاع لـه مـع الرئيـس الفرنسـى "فرانسوا ميتران" قال "إن الكوابيس تطبـق عليه كل ليلـة بسبب غـــزة ، وإنـه يحلـم أثنـاء نومـه فى بعض المرات أن قطاع غـزة قد وقـع فى البحـر وغـرق بكـل مـا فيـه ومـن فيـه ـــ لكنه يستيقظ من حلمـه ليكتشف أن غـزة ومن فيها ما زالوا حيـث هـم ."

ولم تكن رغبـة إسرائيل فى الخـلاص من قطاع غـزة بأى ثمـن سـرا مكتومـا ، بـل إن أربعـة من أعضـاء مجلس الوزراء الإسرائيلى تقدموا يوم ١١ يناير ١٩٩٣ باقـتراح يقضـى بـأن تنسحب إسرائيل من قطاع غـزة من طرف واحـد وأن تتركه لمصيره . لكن "رابـين" اعـترض على الاقتراح وقتها مبديا ثلاثـة دفـوع :

الأول : إن ذلك سيبدو هزيمـة للجيـش الإسرائيلى وسوف يجـرى تصوير الانسحاب من غـزة من طـرف واحـد ، وكأن الجيش انسحـب تحت ضغـط أطفال الحجـارة .

الثانى: إن الانسحاب من غـزة الآن (فى مناخ إبعاد زعماء التيار الإسلامى إلى "مرج الزهور") سوف يترك "حماس" وحدها فى غـزة ويعطى للتيار الإسلامى الفرصة لإقامة سلطة إسلامية فيها .

الثالث: إنه حتى إذا لم يحدث ذلك فسوف تكون غـزة بعد انسحاب الجيش الإسرائيلى منها فى حالة فوضى دموية شديدة لا يكون لها حل إلا باضطرار مصر للتدخل عسكريا بحكم الجوار وبحكم مسئوليتها الإدارية السابقة عن قطاع غـزة . وهذا قد يحرج مصر وقد يضر معاهدة السلام معها ، وهى حتى الآن أهم اختراق إسرائيلى فى شأن السلام . وإذا امتنعت مصر عن التدخل لأسبابها الخاصة فإن الأمم المتحدة قد تجد نفسها ، تحت ضغوط دولية شديدة ، مضطرة إلى التواجد بشكل ما فى القطاع ، وهذا يعطى للأمم المتحدة موضع قدم فى القضية الفلسطينية ـــ وهذا ما لا تريده إسرائيل .

وأثناء الاجتماع الثانى فى أوسلو أشار "هيرشفلد" إلى أنه تحدث فى أمر اجتماعات أوسلو مع أحد المستشارين فى مكتب وزير الخارجية الأمريكى وهو "دان كيرتزر" . وكانت تلك إشارة إلى أن "الأمريكان على علم" . وتشعبت المناقشات إلى الطريقة التى يتم بها ترتيب الاتفاق على غزة وإمكانية ربطها بأريحا . وأبدى "هيرشفلد" أنه فى الوقت الذى يضمن فيه موضوع غزة فهو ليس واثقا من إمكانية قبول إضافة أريحا إليها . وطرح "أبو علاء" أن مسألة استعادة غزة لسلطة فلسطينية ليست مسألة هينة ، فغـزة تواجه مشاكل بغير حدود ـــ اقتصادية واجتماعية ، والمنظمة يمكن أن تقترب منها جديا إذا ضمنت قدرا كافيا من المساعدات المالية والاقتصادية تجعل من غـزة نموذجا يرتجى لفوائد السلام .

وجرت مناقشات ممتدة فى موضوع المساعدات . وكانت لدى النرويجيين خطط طموحة لاعتمادات مالية يقدمها العالم كله وفى مقدمته الولايات المتحدة ـــ بل وحتى إسرائيل ـــ لضمان إحداث تغيير كيفى فى غـزة يقنع الفلسطينيين والعرب بأن الصفقة عادلة .

وفى أثناء إحدى الجلسات فى هذه الدورة فى أوسلو تساءل "أبو علاء" عما إذا كان رئيس الوزراء "رابين" يعرف بموضوع أوسلو ؟ وكان الرد عليه أنه يستطيع أن يطمئن لأنه "فى النظام الإسرائيلى لا يستطيع أحد من المشاركين فى صنع القرار السياسى أن يحجب عنصرا من عناصره عن الرجل المسئول فى النهاية عن القرار ، وهو رئيس الوزراء ."

□

لكن "رابين" لم يكن حتى هذه اللحظة يعرف كافة التفاصيل . وأحس "شيمون بيريز" أن الوقت قد حان لوضع الأمر بأكمله أمام رئيس الوزراء . وطبقا لما رواه "بيريز" بعد ذلك فى اجتماع للجنة الأمن القومى فى الكنيست ، ذهب وزير الخارجية الإسرائيلى ليقول لرئيس الوزراء قرب نهاية شهر مارس١٩٩٣ : "لقد جئتك بمشتر لغزة" . ثم راح يعرض عليه التفاصيل . ولم يكن "رابين" متحمسا ، فقد كان رأيه فى منظمة التحرير ما زال سيئا ، ثم إنه لاحظ أن هناك "اتصالات كثيرة من هذا النوع يقال فيها كلام كثير ولا تنتهى المسائل إلى شىء محدد" . [وراح "بيريز" يحاول أن يشرح لرئيس الوزراء أن هذا المسار فى أوسلو تجربة من نوع مختلف ، فهم واثقون أن "عرفات" قريب بنفسه مما يجرى فى أوسلو ، ثم إن الظروف كلها من حوله تدفعه إلى أن يأخذ المحاولة بجدية .] ومضى "بيريز" يعدد الأسباب التى تجعل "عرفات" من منظوره (منظور "بيريز") يأخذ الأمر بجدية هذه المرة . وكانت حججه تلخيصا للواقع الفلسطينى وللواقع العربى ولخطورة التيار الإسلامى ولأهمية الخلاص من عبء غزة . وتساءل "رابين" أثناء المناقشة "عما إذا لم يكن من الأولى التركيز أكثر على المسار السورى ؟" وكان رأى "بيريز" أن أى اختراق على المسار الفلسطينى سوف يؤدى إلى ضغوط غير محتملة على الرئيس "حافظ الأسد" ، فأى نجاح يتحقق مع منظمة التحرير سوف يأخذ القضية الفلسطينية من يد "الأسد" دعائيا ومعنويا ، وبالتالى سياسيا وعمليا .

وربما أحس "بيريز" أن "رابين" فى حالة تفكير وتردد ، واعتبر أن ذلك يكفيه ليواصل ما بدأ على قناة أوسلو ، وسوف يقتنع "رابين" فى الوقت المناسب . ويظهر أن "بيريز" حاول أن يعطى للوفد الفلسطينى فى أوسلو إشارة واضحة إلى أن الحكومة الإسرائيلية بنفسها موجودة فى العملية ، خصوصا وأن "هيرشفلد" بدأ يظهر مخاوفه من أنه يجد نفسه حتى الآن وحيدا أمام الفلسطينيين ، وإذا تعرضت المحاولة لنكسة فسوف يتسرب أمرها ويواجه مأزقا أبسط ما فيه أن يجد نفسه موضع مساءلة قضائية بمقتضى القانون الذى يحرم على الإسرائيليين الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية .

وهكذا قرر "بيريز" أن يبعث بمساعده فى وزارة الخارجية "يورى سافير" إلى أوسلو . وفى جلسة كانت مقررة دخل "هيرشفلد" يقول لـ "أبو علاء" إن "لديه مفاجأة تسره ، فسوف ينضم إليهم الآن "مسئول كبير جدا" من وزارة الخارجية الإسرائيلية ."

إن "رابين" عرف بسفر "يورى سافير" إلى أوسلو ، ولم يبد من جانبه اعتراضا وإن كان قد سأل "بيريز" عن "ما إذا لم يكن من الأجدى أن يتم هذا الاتصال بالمنظمة عن طريق مصر؟" وكان رأى "بيريز" أن "مصر لديها من المشاكل ما يكفيها ، وإن المنظمة ـ فى الغالب ـ تريد أن تثبت أنها جاوزت سن الرضاعة ، وإنها تستطيع الوقوف على قدميها" .

□

ومع شهر أبريل ١٩٩٣ كان السيد "ياسر عرفات" يراوده أمل كبير فى قناة أوسلو ، لكنه كان يريد أن يلعب هذه الورقة بحذر . ولذلك فقد قرر أن يسمح بعودة الوفد الفلسطينى الرسمى إلى محادثات واشنطن ، وكان هذا الوفد قد انسحب من المحادثات هناك احتجاجا على عملية المبعدين إلى "مرج الزهور" . وقرر "ياسر عرفات" أن من الضرورى إطلاع الرئيس "مبارك" على تفصيلات التقدم الذى أحرز فى أوسلو . ومرة ثانية فإن محضر اجتماعه مع الرئيس "مبارك" يوم ٢١ أبريل ١٩٩٣ لا يشير بشيء واضح إلى قناة أوسلو . وقد بدأ الحوار واستمر طبقا لمحضر الجلسة على النحو التالى :[٥]

"الرئيس مبارك : لقد كان قراركم (عودة الوفد الرسمى الفلسطينى إلى محادثات واشنطن) حكيما ومطلوبا برغم المخاطرة فيه ، وأنا من ناحيتى سأحاول مع رابين لعمل أى شيء .

الدكتورأسامة : أرى قبل أن يذهبوا أن يأخذوا شيئا ، وأثناء الجولة أن يحصلوا على شيء ، وبعد الجولة لا بد من حصولهم على شيء .

الرئيس مبارك : رابين لا بد أن يعطى شيئا . وأنا سأرسل له رسالة خاصة مع الدكتور أسامة باكر . وكان لا بد أن تتخذوا هذا القرار الجريء رغم أنه خيار صعب . الرئيس كلينتون قال لى "لدى من المشاكل الكثير فى العالم فانتهزوا الفرصة" . وأنا قلت له إن لدى الفلسطينيين ظروفا صعبة ، وقرارهم بالمشاركة ليس سهلا . وبالمناسبة ، أنا سأحاول الذهاب للسعودية بعد أول مايو وسأتحدث معهم (فى موضوع المساعدات المالية لمنظمة التحرير) . وسأذهب فى زيارة للشيخ زايد . وأريد أن أعرف كم المبلغ الموجود عند العقيد القذافى .

الرئيس أبو عمار : عند العقيد القذافى ١٦٨ مليون دولار (متأخرات) . أما بالنسبة للإمارات فهناك صندوق الشيخ زايد للخير – به مليار دولار ، والشيخ زايد قال لسفيرنا إنه مستعد أن يعطى لفلسطين ١٠٠ مليون دولار . وأنا لى عند حكومة دبى ٤٩ مليون دولار .

الرئيس مبارك : يتابعها الوزير عمر سليمان (اللواء "عمر سليمان" مدير المخابرات العامة) .

الوزير عمرو : كريستوفر أصدر بيانا بكامل عناصره وفق ما هو مطلوب ، فهو ضد سياسة الإبعاد ومع حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم .

---

(٥) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة للصفحة الثانية من المحضر الرسمى لاجتماع الرئيس "مبارك مع السيد "ياسر عرفات" تحت رقم (١٤) .

الرئيس مبارك : سأرسل الوزير عمر سليمان إلى الإمارات . وبالمناسبة ، وزير العدل للإمارات سألتقى به بعد قليل ، وسأتحدث معه بهذا الشأن أيضا .

الدكتور أسامة : ما هى المبالغ التى لكم فى الإمارات ؟

الرئيس أبو عمار : لى ٦ مليون دولار فى الإمارات ، و٩ مليون دولار فى دبى .

. . . .

. . . .

وأنا أريد شيئا سريعا لقطاع غزة والقدس ، ولو ١٠ مليون دولار لغزة و١٠ مليون للقدس . ويمكن أن يحولوا مباشرة للمؤسسات ، ومستعدون إعطاءهم أرقام الحسابات . مطلوب ٣٠ مليون دولار بصفة عاجلة . ولى رجاء يا سيادة الرئيس ... إن الأمير سعود الفيصل قال للأخ فيصل (الحسينى) إنه سيدفع لنا من صندوق القدس من ١٠ إلى ٢٠ مليون . وحقيقة الأمر أنه يوجد فى صندوق القدس ٧ مليون دولار .

. . . .

. . . .

الرئيس مبارك : أنا سأقول للأخوة فى السعودية أريد أن تدفعوا ٣٠ مليونا بصفة عاجلة من أى بند .

الرئيس أبو عمار : بارك الله فيك .

الدكتور أسامة : لا ندخل فى تفاصيل .

الرئيس مبارك : نطلب مبلغ ٣٠ مليون دولار للضفة وغزة والقدس من السعودية وبعدها يمكننا أن نرى ما يمكننا أن نحصل عليه من الشيخ زايد .

الوزير عمرو : لا بد من التوصل إلى ورقة مع الإسرائيليين فى الجولة القادمة لأن هذا مهم للجانب الفلسطينى .

الرئيس مبارك : لا بد أن نساعد الفلسطينيين فى هذا (ثم موجها كلامه إلى الدكتور "أسامة الباز" ومستطردا) أسامة يمكنه أن يسافر الليلة إلى تل أبيب .

. . . .

. . . .

لا بد من التركيز على ورقة إعلان مبادىء . لا ترفضوا شيئا وإنما قدموا ورقة مضادة ."

وبعد انتهاء الجلسة اقترب السيد "ياسر عرفات" من الرئيس "مبارك" وتحدث إليه لبضع دقائق عن سير الأمور فى أوسلو ، ثم سلمه خريطة للخطوط التى يتصورها لمنطقتى غزة وأريحا .

□

كان الرئيس "مبارك" ما زال غير مقتنع ، وكان تقديره "أن قناة واشنطن حيث يوجد الأمريكان أهم من قناة أوسلو حيث لا يوجد غير النرويج" ، ومع ذلك كان الرأى "أن كل اتصال مفيد" !

وبرغم عدم اقتناعه بقناة أوسلو ورغبته فى التركيز على محادثات واشنطن ، فإن الرئيس "مبارك" أرسل المستشار "أسامة الباز" برسالة منه إلى "رابين" وهدفه أولا حث "رابين" على الإيعاز لوفده فى واشنطن بتسريع الأمور ، وثانيا جس النبض فيما إذا كان "رابين" يعرف عن قناة أوسلو ، أو إن هذه القناة واحدة من تجارب ومغامرات "شيمون بيريز" ؟

وعاد المستشار "أسامة الباز" من إسرائيل ، وجرى إخطار السيد "ياسر عرفات" بنتائج الزيارة ، وكانت على شكل تقرير مباشر أملاه المستشار "أسامة الباز" على السفير "سعيد كمال" فى القاهرة . وكان نص التقرير :[٦]

"رسالة من OB (يقصد الحرفين الأولين من اسم "أسامة الباز")

بعد عودته الجمعة ١٩٩٣/٤/٢٣

إنه YR (يقصد الحرفين الأولين من "يتسحاق رابين")

١ ـ كان توجه YR إيجابيا ومتجاوبا بوجه عام ، وهو يقدر الخطوة الفلسطينية (يقصد عودة الوفد الفلسطينى فى واشنطن إلى الاجتماعات بعد مقاطعة لها لعدة شهور بسبب قضية المبعدين إلى مرج الزهور) ويدرك أنها لم تكن خطوة سهلة .

---

(٦) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من الصفحتين الأولى والثالثة من تقرير الدكتور "أسامة الباز" للسيد "ياسر عرفات" والذى أملاه على السفير "سعيد كمال" ـ تحت رقم (١٥) .

٢ ــ يدرك YR كذلك المخاطر الأمنية التى يتعرض لها الوفد الفلسطينى ، وقد أعرب عن استعداد حكومته فى الإسهام فى تأمينهم بالأسلوب الذى لا يحرج هؤلاء الأعضاء أمام مواطنيهم ، ولا يجعلهم عرضة للاتهام بأنهم يعيشون تحت حراسة إسرائيلية . مستعد أن يوفر لهم كل شىء ظاهر أو غير ظاهر بما فى ذلك السلاح ."

. . . .

. . . .

وتلى ذلك بعض التفاصيل عن القضايا المطروحة للبحث .

وأما التقرير الثانى المتعلق باستطلاع مدى معرفة "رابين" بقناة أوسلو ، فقد كان على شكل مكالمة تليفونية من وزير الخارجية "عمرو موسى" للسفير الفلسطينى فى القاهرة الذى كتب إلى السيد "ياسر عرفات" :(٧)

"الأخ الرئيس القائد أبو عمار

حفظه الله

أود أن أعرض لكم عن جواب YR للسيد الرئيس بخصوص الخارطة (الخريطة التى سلمها "عرفات" للرئيس "مبارك" فى الاجتماع السابق ، والتى رسم عليها "عرفات" خطوط أريحا إلى جانب غزة) بما يلى :

"إن YR وافق على هذا الموضوع بحيث يتم بحثه داخل غرفة المفاوضات وعلى هامشها من خلال مجموعة يتم تعيينها من طرفنا ، وإنه لا بد من اختيار الوقت الملائم لبحثها من جانبهم" .

هذا الإبلاغ السابق من خلال مكالمة مع الوزير عمرو موسى معى منذ ساعة بالضبط . كما أبلغنى بخصوص مفاوضات المتعدد والمعنى بها الأخ أبو العلاء بالقول "إن YR مطلع عليها ، ولا بد أن نفكر فى طريقة الإخراج والوقت المناسب لذلك ، وإنه سعيد بمعرفة الرئيس بذلك" ."

□

---

(٧) صورة للتقرير الذى أملاه السيد "عمرو موسى" على السفير "سعيد كمال" تليفونيا ـ تحت رقم (١٦).

طوال شهر مايو ١٩٩٣ كان تركيز "ياسر عرفات" كثيفا على قناة أوسلو ، وكانت حواسه كلها تجعله حذرا ومتطيرا من مفاوضات واشنطن . وبالتوازى مع ذلك فإنه أعاد تنشيط قناة اتصال سابقة داخل إسرائيل يقوم عليها مستشاره الخاص فى شئون الأرض المحتلة الدكتور "أحمد الطيبى" ، وهو صديق مقرب من الزعيم الفلسطينى . وكان الهدف من تنشيط قناة الدكتور "أحمد الطيبى" أن يكون هناك تحسس لموقف "رابين" - هذا مع أنه من المشكوك فيه أن يكون الدكتور "أحمد الطيبى" قد عرف فى ذلك الوقت بموضوع قناة أوسلو بدقة . وكانت اتصالات الدكتور "الطيبى" بـ "رابين" عن طريق صديقه وزميله فى الوزارة "حاييم رامون" .

وعندما اطمأن "ياسر عرفات" إلى أن "رابين" "يعرف" - بدأ يطلب من وفد المفاوضات فى واشنطن أن يتخذ مواقف مبدئية متصلبة . وكان هدفه أن يسد الطريق على مفاوضات واشنطن لكى تظهر قناة أوسلو باعتبارها الخط الموصل الوحيد . ولاحظ وزير الخارجية الأمريكى "وارين كريستوفر" أن المواقف تتعثر فى المحادثات التى تجرى فى مبنى وزارته وفى الدور الذى يقع فيه مكتبه مباشرة . وهكذا فإن وزارة الخارجية يوم ٣٠ يونيو رأت أن تقدم ورقة أمريكية للتوفيق بين وجهات نظر الوفدين كما هى واضحة فى المذكرات التى تبادلها كل منهما .

وعندما أرسل وفد واشنطن هذه الورقة إلى تونس ، قرأها السيد "ياسر عرفات" بنفسه وراح بأقلام فوسفورية ملونة يمشى على فقراتها . واختار اللون الأحمر ليؤشر به فوق الفقرات المأخوذة من الأوراق الإسرائيلية ، واختار اللون الأصفر ليؤشر به فوق الفقرات المأخوذة من الأوراق الفلسطينية ، وخرج بنتيجة كتبها على الوثيقة الأمريكية جاء فيها:(٨)

٦٥٪ من الأوراق الإسرائيلية .

٧ ٪ من الأوراق الفلسطينية .

٢٨٪ من الأفكار الأمريكية .

وكان معنى ذلك أن الورقة الأمريكية غير مقبولة له ، وكان هذا ما تلقاه الوفد الفلسطينى فى واشنطن ، وأحس معه أنه مقيد ، فقد كان من رأى بعض أعضائه أن الورقة الأمريكية يمكن "التعاطى" معها ويمكن "الرد" عليها . ثم إن إقدام وزارة الخارجية الأمريكية على تقديم ورقة باسمها هو فى حد ذاته تطور مهم يعنى أن الولايات المتحدة - وتحت

---

(٨) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة للصفحة الأولى من الورقة الأمريكية وتأشيرة السيد "ياسر عرفات" بخط يده عليها - تحت رقم (١٧) .

الإدارة الجديدة ــ راغبة فى الوصول إلى حـل ، وهى فى سبيل ذلك "مستعدة لأن تخرج عن دور الراعى المراقب من بعيد ــ يكتفى بالتشجيع لكنه من جانبـه لا يشارك" .

كان "شيمون بيريز" هو المحرض الرئيسى ضـد مفاوضـات واشـنطن ، ذلـك أن "بـيريز" أصبح مقتنعا بضرورة التفاوض مع "عرفات" شخصيا والحصول على توقيعــه هـو وليس غـيره على أى اتفاق يمكن التوصل إليه . وطبقا لرواية السيد "ممـدوح نوفـل" [٩] ــ وهـو عضـو فـى المجلس المركزى لـ "فتح" منذ تأسيسه وأحد المتـابعين عـن قـرب لمسـار الاتصـالات ــ فـإن "بيريز" "نفـض يـده تماما من وفـد واشنطن خصوصا بعد لقاءين عقدهما مع فيصل الحسينى، ولم يتورع بيريـز عن تقديم النصائح للطرف الفلسطينى فى أوسلـو "بالإشـارة علـى عرفـات أن يركـز على قناة أوسلـو ولا يضيع وقتـه مـع فيصـل وحيـدر" . وإنـه "طلـب مـن كريسـتوفر إعطاء الفرصـة لقناة أوسلـو دون اعتبارها تجاوزا لدورهم أو التفافا عليهـــم" ... وجـاء الوفـد الإسرائيلى فى أوسلـو مـرة بنصيحة من بيريـز يطلب فيها إلى الفلسـطينيين "ألا ينسـاقوا وراء أية إغراءات سواء من الطرف الأمريكى أو من رابـين" ! "

وطبقا لنفس الرواية فإن "أبو عـلاء" عاد فى هذه الفترة من أوسلـو مقتنعا بضرورة إفشـال قناة واشنطن وإن "بيريـز" صادق فيما يقـول ، وإن إفشال قنـاة واشـنطن سيدفع "رابـين" إلى اعتماد قناة أوسلـو بصورة رسمية ونهائية بديـلا لقنـاة واشـنطن ، وإن "بـيريز" سـوف يضـع النتائج الأولية التى تـم التوصل إليها فى أوسلـو على طاولة "رابـين" .

وكانت قناة أوسلـو تتقدم فى الاتجاه الذى رسمته لنفسها ، وتوصلـت فعـلا فـى الجولـة الخامسة من مسارها ، والتى بدأت فـى ٨ مايـو ١٩٩٣ إلى مسـودة مشـروع بـإعلان "مبـادئ لتفاهم إسرائيلى ــ فلسطينى" . وألحقت بإعلان المبادئ ورقة عن "خطـط التنمية الممكنة فـى قطاع غــزة".

وفى هذه الجولة تحدث "يورى سافير" بالتفصيل عارضا مجموعـــة مـن النقــاط أوردهـا "أبو مازن" فى مذكراته [١٠] على النحو التالـى :

"ــ قيادتنا تتابع هذه القنـاة وحريصة على سريتها ، ولكنها ليست بديلا لواشنطن .

- لم نكــن نتصــور أن نبــدأ بهـذه السرعة مباحثات رسميـة مدعومـة مـن القيـادتين دون وسيـــط .
- أبدى سافير إعجابه بأسلوب قناة أوسلـو فــى اتباعهـا المنهـج الشـمولى مـع القضايـا وتجنب التركيز على القضايا الفنيـة (!)

---

(٩) مذكـرات السيد "ممدوح نوفـل" وقد صدرت فى كتاب بعنوان "طبخـة أوسلـو" .

(١٠) "طريـق أوسلـو" ــ مذكرات "أبو مـازن" ــ صفحة ٢٢٨ .

ـ أكد أن عامل الزمن هام على اعتبار أن التقدم البطىء يعنى التراجع إلى الخلف ، ولذلك لا بد من السرعة للوصول إلى سلام شامل مع الفلسطينيين .

ـ انتقد بعض الوسطاء الذين رغم إخلاص القلة منهم إلا أنهم يسعون وراء مصالحهم.

ـ أشار إلى أن الأمريكيين وبعض العرب حذروهم من المنظمة ونصحوهم بعدم التحاور معها لعدم مصداقيتها ولأنها تعطى الوعود وتتراجع عنها ."

وكانت النقطة الأخيرة التى أضافها "يورى سافير" هى قوله : "إن لدينا تساؤلا حول قدرة المنظمة على تطبيق الاتفاق ـ وبالذات رئيس الوزراء رابين الذى يقارن بين المنظمة وبين حافظ الأسد الذى إذا التزم بشىء تقيد به ونفذه" !

□

إن "شيمون بيريز" كان على وشك أن يطلب من "رابين" أن يحزم أمره وأن يقف بثقله وسلطة منصبه كرئيس للوزراء خلف قناة أوسلو . والمدهش أن "بيريز" كان يرى المسائل جاهزة فى أوسلو وقابلة للتوقيع خلال أيام . وقد خطر له أن تكون مراسم التوقيع يوم ١٥ مايو وهو ذكرى قيام إسرائيل ! ومن المفارقات أنه طلب مساعدة مصر فى إقناع "رابين" بأن يحزم أمره ويتعامل مع المنظمة مباشرة . وبالفعل ، فإن مبعوثين مصريين ، بينهم الدكتور "مصطفى خليل" والمستشار "أسامة الباز" ، توجهوا فى زيارات خاطفة إلى إسرائيل لإقناع "رابين" بأن التعامل مع المنظمة هو أقرب طريق للنجاح . فمن الواضح أن المنظمة هى وحدها الطرف الذى يملك شرعية توقيع اتفاق يقبله الفلسطينيون ويرضى عنه العرب ويفهمه العالم ، وإن "عرفات" أثبت أنه شريك فى مسيرة السلام يمكن الاعتماد عليه ، وهو يستطيع أن يفى بالتزامه he can deliver .

وكانت بعض الحجج التى قدمت لـ "رابين" للتغلب على تردده الذى قارب نهايته هى :

- إن السلام مع مصر لا بد من تدعيمه بطرف عربى آخر ينضم إلى المسيرة السلمية.
- إن الطرف الفلسطينى هو الطرف المهيأ لذلك ، والمنظمة بصفتها الشرعية مستعدة .

- إن انتظار سوريا والتعلق بأمل توقيع اتفاق معها بسرعة هو تمسك بأوهام ليست قابلة للتحقيق على الأقل "بالإيقاع" الذى يتصوره "رابين" .
- إن التوقيع مع المنظمة على اتفاق يخص الشأن الفلسطينى سوف يجعل سوريا بغير خيار إلا خيار الالتحاق بالمسيرة السلمية .

وما بين إلحاح "بيريز" والحجج المتواصلة من القاهرة ، اقترب "رابين" بنفسه من قناة أوسلو . ويسجل "أبو مازن" فى مذكراته[11] :

"فى الجولة السابعة دخلت قناة أوسلو فى مرحلة جديدة حيث انضم إلى المفاوضين (الإسرائيليين) شخص رابع هو يوئيل زينجر . وقد لاحظ وفدنا من حديثه وحديث زملائه أنه مندوب شخصى مكلف من رابين شخصيا ، وإنه جاء يحمل أسئلة معدة من قبله . إن مشاركة زينجر فى قناة أوسلو اعتبرها الوفد الإسرائيلى ــ كما لاحظنا نحن أيضا ــ مشاركة كاملة لمركز صنع القرار فى إسرائيل . وهذا يعنى أن رابين قرر أن يدخل بثقله فيها ليقومها ويقرر فى النهاية كيف يتصرف ."

وطبقا لرواية "أبو مازن" فإن "زينجر" بدأ حديثه بعدد من النقاط قال فيها :

- إن تقييم "رابين" للأوراق التى أعدت فى أوسلو جيد ، ولكنها مشوبة فى بعض أجزائها بعدم الوضوح .
- إن رئيس الوزراء يرى أن عدم التقدم فى محادثات واشنطن يشكل إحراجا لحكومته أمام الحزب والرأى العام .

وسأله "أبو علاء" عن محاولات قيل إنها تتم بطلب من "رابين" لفتح قنوات اتصال أخرى ، وكان رد "زينجر" : "إن هذا ليس صحيحا ، وإن كان بعض الناس بالفعل يحاولون فتح قنوات لحسابهم الشخصى لأنهم يبحثون لأنفسهم عن دور" .

(وكان المقصود بسؤال "أبو علاء" هو أن بعض الوزراء الإسرائيليين ، وبينهم "شولاميت آلونى" ، جاءوا إلى القاهرة أو ذهبوا إلى عواصم فى أوروبا وأعطوا الانطباع بأن "رابين" كلفهم بفتح قنوات اتصال تحت إشرافه المباشر) .

ثم فتح "زينجر" ملفا كبيرا أمامه وأخرج منه قائمة تحتوى على قرابة خمسين سؤالا يريد "رابين" أن يسمع إجابة عنها قبل أن يقول "لا" أو "ربما" إذا جرت بعض التعديلات ــ أو "نعم" إذا كانت الإجابات مرضية له .

---

(١١) المصدر السابق ــ صفحة ٢٢٩ .

□

بدخول "رابين" إلى قناة أوسلو بدأ يظهر أن هذه القناة مرشحة بالفعل للنجاح . وكانت حماسة "عرفات" ظاهرة وتعبيره عن هذه الحماسة ملحوظ بالنسبة للمحيطين به . ثم إن جدية قناة أوسلو فى تقدير "عرفات" دفعته إلى إرسال مفوض عنه يحظى بصلاحيات أوسع من صلاحيات "أبو مازن" . ووقع اختياره على "ياسر عبد ربه" . وعندما سافر "ياسر عبد ربه" إلى أوسلو عن طريق باريس وستوكهولم متعمدا إخفاء خط سيره ، فإن ذلك فى حد ذاته أصبح لافتا للأنظار ومثيرا لتساؤلات كثيرة فى الدائرة المحيطة لقيادة منظمة التحرير . وتصادف ذلك مع تلميحات نشرت فى بعض الصحف الإسرائيلية وقرأها مسئولون من منظمة التحرير فى تونس ، وكان بينهم "حكم بلعاوى" ممثل المنظمة فى تونس والمسئول أيضا عن الرصد (المخابرات) .

ويروى السيد "ممدوح نوفل"[(١٢)] (وهو مقرب وعليم بالتفاصيل) أن "حكم بلعاوى" ذهب إليه وسأله مباشرة : "هل تعرف أن ياسر عبد ربه فى أوسلو ؟ .. يبدو أن شيئا يجرى طبخه هناك" . ويقول "نوفل" :

> "أنكرت علمى بالموضوع ، إلا أن حكم قال إنه يشتم الرائحة منذ فترة ، ويبدو أن العصفور (يقصد "حسن عصفور" ، وكان مساعدا لـ أبو علاء" فى أوسلو) شريك فى الموضوع . وإذا صح الأمر فهذا غير معقول وغير مقبول لأن العصفور لا يعرف كلمتين من اللغة الإنجليزية ، وأنت تعرف أنه عضو فى اتحاد الطلاب ولا يصلح للمفاوضات السياسية الرسمية . وأبديت أننى لا أفهم ما يقوله ، ورد قائلا : "من الضرورى أن تدقق مع صاحبك (يقصد "ياسر عبد ربه") ، وقل له عندما يعود من حيث هو ألا يلعب من وراء ظهرك أو ظهرى" . ثم ختم حديثه معى بقوله : "على كل حال أنا لهم بالمرصاد ، وبسيطة ، إذا كان أبو مازن وياسر وأبو علاء يطبخون من خلف ظهرى فليس صعبا علىّ أن أفتح خطى الخاص مع الإسرائيليين ، وإذا كان كل واحد سيفتح خطا على حسابه فأنا أستطيع أن أفتح أوتوستراد" ."

وفى واقع الأمر فإن "حكم بلعاوى" لم يكن فى حاجة إلى فتح "أوتوستراد" مع الإسرائيليين ، فقد أعفته المخابرات الإسرائيلية من هذه المهمة وقامت هى بفتح "أوتوستراد" على بيته وعلى مكتبه . فقد ظهر أن مساعده الرئيسى وهو "عدنان ياسين" يعمل

(١٢) مذكرات السيد "ممدوح نوفل" بعنوان "طبخة أوسلو" .

لحساب "الموساد" منذ سنوات طويلــة ، وبتكليـف منهـا فإنـه قــام بوضـع أجهــزة تنصـت وتسجيل فى بيت "حكم بلعاوى" ، وكان التركيز عليه باعتبار أنه مسئول الرصـد الفلسـطينى وعنـده تتجمع كل الأخبار والمعلومات التى تتحصل عليها منظمة التحريــر بكافـة وسـائلها .
ومن المفارقات الملفتة للنظر أن "عدنان ياسين" هو ابن خالة "حمزة أبو زيـد" الذى قام باغتيال "أبو إيـاد" و"أبو الهـول" . ومن الغريب كذلك أن الذى كشـف سـر "عدنـان ياسين" لقيـادة المنظمة كان مسئول المخابرات الفرنسـية فـى تونــس . وكـانت المخـابرات الفرنسية غاضبـة بسبب اغتيال "عدنان بسيسـو" مسئول الرصد السابق فى المنظمة الذى تـم اغتياله فى باريس أثناء قيامه باتصال تنسيق وعمـل مع المخـابرات الفرنسـية . واعتـبرت المخـابرات الفرنسـية اغتيال "بسيسـو" وهو فى ضيافتها إهانـة لها ، ثم عرفت عـن طريـق التحقيقـات أن "عدنـان ياسين" هو الذى أرشـد المخابرات الإسرائيلية إلى مكان وموعـد وجود "بسيسـو" فى باريـس .

□

كان "عرفـات" ينتظر رد "رابين" النهائى ، وهـل يمنـح تأييده لقناة أوسلـو أو يحجبـه. وكان قلقـه شديدا مـن عنصـر الوقـت مـع بدايـة تسـرب أنبـاء عـن اتصـالات سريـة بـين الفلسطينيـين والإسرائيليين . وكانت خشيته أن تحـدث مفاجآت غـير متوقعـة تضـع أمامـه عقبات فى لحظة بـدا لـه الحـل فى متناول اليـد .

ومع بداية شهر أغسطس سنة ١٩٩٣ كان "رابين" على الخـط وجـاهزا للتقـدم ، وأوراق الاتفاق مكتوبة فى نصوص نهائية أخذت كثيرا من الجـدل ، لكن صياغتها تمت فــى خاتمـة المطاف ، فيما خـلا بعض النقـاط الفرعيـة فـى الترتيبـات الملحقـة بـإعلان مبـادئ الاتفـاق . وتوالت اللقاءات فى أوسلـو متسارعـة .

ويـوم ١٧ أغسطـس وصـل "شيمون بيريز" بنفسه إلى ستوكهولم والتقــى بوزيـر خارجيـة النرويج هناك ، وكان واثقا من قدرته على للمـة كل الأطراف فى نفس الليلـة . وفى السـاعة العاشرة من مساء نفس اليوم ــ ١٧ أغسطس ــ اتصل وزيـر خارجية النرويج من حيـث كـان فى ستوكهولم بالسيد "ياسر عرفات" وأبلغـه أن "شيمون بيريز" وزير خارجية إسرائيل جالس أمامه الآن ، وهو يرغـب فى تسوية بقيـة المشاكل المعلقة على التليفون هذه الليلـة ــ والآن. ولمدة سبـع ساعات على التليفون بين ستوكهولم وتونس كان "هولست" يتفاوض مع "عرفـات" بحضور "بيريز" وبالتشاور معه فى كل جملة وفى كل كلمـة . وكـان "عرفـات" علـى الناحيـة

الأخرى من الخط يتفاوض مع "هولست" وأمامه "أبو مازن" يتشاور معه بدوره فى كل جملة وكلمة .

وحين انتهت المكالمة التليفونية الطويلة التى استغرقت سبع ساعات بين ستوكهولم وتونس ، كان "شيمون بيريز" قد حقق مطلبه فى لملمة كل الأطراف المبعثرة ، وأصبحت هناك الآن مجموعة أوراق جاهزة للتوقيع تتضمن إعلان مبادئ وصيغة اعتراف فلسطينى بدولة إسرائيل فى مقابل اعتراف إسرائيلى بمنظمة التحرير .

كانت المشاكل الكبرى فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى معلقة . لكن الأوراق التى جرى إعدادها أعطت لكل طرف من الطرفين ما يستطيع الحصول عليه وبحجم ما لديه من قوة ومن وزن .

٤

ســـان فرانســكـــو

" أيــن كــانت وكالـــة المخـــابرات المركزيـــة الأمريكيـــة؟ "

(وزيـر الخارجية الأمريكــى بحــدة بعـد أن أبلغـه "بيريـز" بتوقيع اتفاق أوسلـو فعلا)

عندما انتهت محادثات السبع ساعات على التليفـون مسـاء ١٧ وفجـر ١٨ أغسطس ــ كان "شيمون بـيريز" يريد توقيـع الاتفـاق فـى نفـس اليـوم . ولـما كـان المفـاوض الفلسـطينى الرئيسى، وهو "أبو عـلاء"، موجودا وقتها فى تونـس يعـرض على القيادة الفلسطينية تفاصيل آخر اجتماع بينه وبين الوفـد الإسرائيلى ، والأوراق التـى أعـدت بعــده ــ فـإن "شـيمون بيريز" بصــوت "هولســت" ــ وزير خارجيـــة النرويج ـــ علـى التليفـون طلــب أن يتوجــه "أبـو عــلاء" الآن إلى أوسلـو لأنـه سـوف يتوجــه هـو الآخـر إليهـا مـن سـتوكهولم بصحبـة "هولست" ويقـوم بتوقيع الاتفـاق معـه .

وصـدر الأمـر إلى "أبو عـلاء" بأن يجـد وسيلـة يتوجـه بها إلى أوسلـو هذه اللحظة . ثـم تذكـر أحد الجالسين فى مكتب "أبو عمـار" أنه لم يكن بين المفاوضين الفلسطينيين فى أوسلـو أحـد يملك خلفية أو خـبرة قانونية ، ولذلك فقد يكون من المناسب ترتيب خبير قانونى يلحق بـ"أبو علاء" فى أوسلـو ويلقى نظرة سريعة على النصوص التـى سيجرى توقيعهـا فـى اليـوم التالى بين "بيريز" وبين "أبو عـلاء" . وطرحت أسمــاء خـبراء قـانونيين فلسطينيين ، ولكـن السيد "ياسر عرفات" اقـترح خبـيرا قانونيـا مصريـا اختـاره بالاسم لأنـه تعـرف إليـه مـن اتصالاته مع وزارة الخارجية المصريـة ولاحـظ كفاءتـه ، وهـو السـفير "طاهـر شـاش" . وبـدا مستغربا أن يقـوم خبـير مصـرى بمراجعـة اتفـاق فلسطيـنى ــ إسـرائيلى بينمـا يوجــد بـين الفلسطينيين من هـم على درجة عالية من الكفـاءة والخـبرة فـى مجـالات القـانون وصياغاتـه

وألفاظه . لكن "ياسر عرفات" أصر على رأيه ، ولعله كان فى فكره أن يكون من ذلك اشتراك لمصر فى عملية التوقيع وإدخالها بعد ذلك فى مسئوليته .

□

وفى الساعة الرابعة من فجر يوم ١٨ أغسطس دق التليفون فى بيت السيد "سعيد كمال" سفير فلسطين فى القاهرة ، واستيقظ من نومه ليسمع صوت "أبو مازن" من تونس يفاجئه بقوله "إن هناك اتفاقا جاهزا الآن ، وأبو عمار يريد خبيرا قانونيا مصريا لكى يراجعه ، وقد وقع اختياره على السفير طاهر شاش لأن أبو عمار يعرفه ، ثم إنه كان معارا للوفد الفلسطينى فى مدريد وشارك مع هذا الوفد لبعض الوقت فى محادثات واشنطن" . ثم أضاف "أبو مازن" أن "طاهر شاش كان أيضا من الدبلوماسيين المصريين الذين حضروا كامب دافيد ، وهو بذلك عليم بكيفية ترتيب النصوص" . وفى نهاية المكالمة طلب "أبو مازن" من "سعيد كمال" أن يطلب إلى السفير "طاهر شاش" أن يسافر هذا الصباح إلى أوسلو لأن الوقت ضيق . ورد عليه "سعيد كمال" قائلا له : "أنتم تتعاملون مع دولة اسمها مصر ، وطاهر شاش موظف فى الحكومة المصرية وهو لا يستطيع أن يذهب إلى أوسلو بهذه البساطة. وقد يرفض لأكثر من سبب ـــ السبب الأول أنه قد يجد فيما حدث فى أوسلو تجاوزا غير معقول لمفاوضات واشنطن التى كان هو قريبا منها ، والسبب الثانى أن طاهر شاش كسفير مصرى لن يقبل طلبا إلا إذا كانت عليه موافقة من عمرو موسى أو من أسامة الباز ." وكان آخر ما قاله "أبو مازن" لـ "سعيد كمال" : "تصرف" .

ووضع "سعيد كمال" سماعة التليفون بعد انتهاء حديثه مع "أبو مازن"، ثم أعاد رفعها ليطلب "طاهر شاش" فى بيته ، وأيقظه من النوم ليقول له إنه قادم إليه الآن ليشرح له مهمة يريد الرئيس "عرفات" منه أن يقوم بها . "وحتى أصل إليك فإنى أرجوك أن تعد حقيبة ملابسك للسفر" . واستغرب "طاهر شاش" هذا الطلب عند الفجر ، ولكنه صبر حتى يجيئه "سعيد كمال" .

وقبل أن يتوجه "سعيد كمال" من بيته إلى بيت "طاهر شاش" طلب من أحد مساعديه أن يذهب ليبحث عن تذكرة سفر على أى طائرة متوجهة إلى أوسلو . وظهر أن هناك بالفعل طائرة إلى أوسلو موعدها السابعة صباحا . وعندما وصل "سعيد كمال" إلى بيت "طاهر شاش" كان رد فعله كما توقع "سعيد كمال" فى حديثه على التليفون مع "أبو مازن" . استمع "طاهر شاش" إلى ما قاله له "سعيد كمال" عن أوسلو ، وكان تعليقه بالعامية

المصرية : "أمّال إحنا كنا قاعدين بـ"نسخَم" إيـه فـى واشنطـن ؟" ولم تكـن لـدى "سـعيد كمال" إجابة مقنعـة . ثم كان السؤال الثانى لـدى "طـاهر شـاش" هـو"إذا كـان عمـرو بـك يعـرف أو أسامـة بك" . وحاول "سعيد كمـال" إقناعه بأن "سفـره إلى أوسلـو لا يحتـاج إلى أمـر جديد ، فهو بالفعل معـار إلى منظمـة التحريـر ، كمـا أنـه مستشـار قـانونى للوفـد فـى واشنطن ، وإذن فمهمتـه الجديدة فى أوسلـو متسـقة مـع وضعـه الـذى صـدرت بـه أوامـر سابقة" . وكان رد "طاهر شـاش" تعبيرا تلقائيا دقيقا عن واقع الحـال ، فقـد قـال إن "هـذه مهمـة جديدة ومختلفة ، وخارجة عن مدريـد وعن واشنطـن" .

وفى الساعة السادسة صباحا ، ومن بيـت السفير "طاهر شـاش" جـرى الاتصـال بوزيـر الخارجية "عمرو موسى" ، ومن حسن الحـظ أنـه كـان مستيقظا لأنـه علـى سفـر يومهـا إلى موزمبيق . وقال له "سعيد كمال" إن "الأمـور تحركـت بسرعة فـى أوسلـو ، وإن بـيريز فـى طريقه من ستوكهولم إليها الآن ويريد أن يقوم بالتوقيع بنفسه على إعـلان المبـادئ الـذى تـم التوصل إليه ، كمـا أن وزيـر الخارجية النرويجى هولسـت سـوف يكـون موجـودا وشاهـدا على الاتفـاق" .

ولحـق السفير "طاهر شـاش" بطائرة الساعة السابعة صباحا ، وتوجـه إلى المطـار بسـرعة فى سيارة السفير "سعيد كمـال" . وبينما هما فى السيارة دق جـرس التليفون فيها والمتحـدث "أبو مـازن" من تونس يقـول للسفير "طاهر شـاش" إن "أبو عمـار يعلـق قبولـه للاتفـاق علـى موافقتك ، ويطلب منك فور وصولك إلى أوسلـو أن تقرأ النـص وتتصل بـه تليفونيـا فـى تونـس وتبلغه رأيك" .

كان "طاهر شـاش" شارد التفكير لبعض الطريق ، ثم التفت إلى "سعيد كمال" وقـال لـه : "إذا كان الورق كله جاهـزا للتوقيع بهذا الشكل ، إذن فالمسألة "سلـق بيـض"، وأنـا لا أريـد أن أشارك فى عملية مسلوقـة لأنها سوف تسجـل علـىّ ."

وفى أوسلو اطلع "طاهر شاش" على نصوص الأوراق المعـدة ، ولم يكن أمامه كثير يفعله . واتصل بـ"ياسر عرفات" بعد الظهر بالفعل فى تونس قائلا له : "باختصار ، فالمبدأ هو كامب دافيد . وعلى أى حـال ، فأنـا لا أظـن أن أمامـك شـيئا آخـر . وإذا أردت أن تسـير فـى الموضوع فعلى بركـة اللـه ."

□

وانتقـل مسرح الحوادث إلى أوسلـو . وكان من الضرورى عقـد جلسـة ختامية بعد وصول "أبو عـلاء" إلى العاصمة النرويجية ـــ مع الوفـد الإسرائيلى المفاوض ، وقبل أن يـتم التوقيـع

بالأحـرف الأولى على إعـلان المبادئ . وانعقدت الجلسة بالفعل بعد الظهـر ، وبدأهـا "يـورى سافير" قائـلا لـ "أبـو عـلاء"[١٣] إن "المحافظـة على السريـة ضروريـة جـدا فى هذه اللحظـة لأن الموضوع حساس ، ويمكن التغطية باستمرار بعـض الاتصـالات البعيـدة عـن أوسلـو حتـى تتحول الأنظار بعيدا عنا . ومثلا إرسلوا نبيـل شـعث إلى أى عاصمـة أوروبيـة ، ونحـن علـى استعداد لإرسال أشخاص لمقابلته لكى يكون من ذلك غطـاء لما نفعله الآن فى أوسلـو ." ورد "أبو عـلاء" قائلا إنه يعرف حساسية الموضوع ، ويشارك "سافير" فى أهمية السرية لأن هنـاك كثيرين يريدون أن يفسدوا العمليـة قبل إتمامهـا .

وتدخل "يوئيل زينجر" فى الحديث فسأل "أبو عـلاء" : "فهمت من كـلام سمعته نقـلا عنك من "سافير" و"هيرشفلد" قبل هذه الجلسـة بأنكم رفضـتم طلبـا لنـا بوقـف الانتفاضـة ، فهل هذا صحيح ؟" ورد "أبو عـلاء" قائلا : "إن الانتفاضة لا يمكن وقفها بقـرار ، وانظـروا إلى ما يجـرى فى مصـر ، فالدولة هناك وقعـت على اتفاق معكم ، ولكن هنـاك جماعـات مـا زالت تعمـل ضـد الاتفـاق . والمسألة ليست مسألة قـرار تصـدره منظمة التحرير ، وإنما لا بـد من التمهـيد لمثل هـذا القـرار ، والتمهـيد الصحيح هـو إزالـة الأسـباب التـى مـن أجلهـا اندلعـت الانتفاضة ."

وعـاد "زينجـر" يلـح سـائلا : "هـل هنـاك تـاريخ معـين يمكـن أن تتوقـف فيـه الانتفاضـة ؟" ورد "أبـو عـلاء" قـائلا : "عندمـا يجـرى تقـدم عملـى وحقيقـى فيمـا اتفقنا عليـه" . وعـاد "زينجـر" يصـر : "لمـاذا لا تصـدر تونـس بيانـا تدعـو فيـه لوقـف الانتفاضـة ؟" وقـال "أبـو عـلاء" : "هـذا غـير ممكـن" . وانتقلـت الكـرة إلى "يـورى سـافير" فقـال : "المشـكلة أنـه عندمـا تصبـح المنظمـة أمـام الـرأى العـام الإسـرائيلى هـى ممثلـة الشعـب الفلسـطينى التـى وقعنـا معهـا اتفاقـا مـن أجـل السـلام ، فإنهـا سـوف تصبح مسئولـة ونحـن أيضـا مسئولـون" .

وتدخل "زينجر" مواصلا ضغطـه قائـلا : "يمكن للمنظمة أن تطلـب مـن الشعـب أشـياء إيجابية فحواها وقـف الانتفاضة ، مثل التوجه إلى العمل بدلا من إلقـاء الحجـارة ، والتعـاون بدلا مـن العنـف . وإذا كنـا سنوقع اتفاقـا معكـم فـإنكم يمكـن أن تقولـوا للنـاس إن اسـتمرار الانتفاضة لا يتمشـى مع إعلان المبـادئ ."

□

---

(١٣) طبقا لملخص معتمد للجلسة نشره "أبو مـازن" فى كتابه "طريـق أوسلـو" ــ صفحة ٢٦٦ .

مساء اليوم التالى جرت مراسم التوقيع ، وكان هناك حديث حول الطريقة التى يبلغ بها الاتفاق إلى جميع الأطراف المهتمة ، وبالذات الولايات المتحدة ومصر ، ثم الطريقة التى يعلن بها هذا الاتفاق للعالم . وكان هناك تراض على حاجة الطرفين إلى فترة لتمهيد الأرض وتهيئة الرأى العام الإسرائيلى والرأى العام الفلسطينى على السواء لقبول اتفاق جرى التوصل إلى صيغته النهائية فى مكالمة تليفونية استمرت سبع ساعات ، وفى ظرف ٤٨ ساعة بعدها يحل دور التوقيع بالأحرف الأولى .

كان تقدير قيادة المنظمة فى تونس - وتلاقى ذلك مع تقدير "شيمون بيريز" وحكومة النرويج أيضا ، وهى الدولة المضيفة التى رعت المفاوضات وشهدت على التوقيع — أن عملية تمهيد الأرض وتهيئة الرأى العام تحتاج إلى فترة شهر . وفى هذه الفترة تتولى إسرائيل إخطار الولايات المتحدة بإتمام الاتفاق ، وتقوم منظمة التحرير بنفس الشىء بالنسبة لمصر — هذه هى الخطوة الأولى .

والخطوة الثانية أن تبدأ حكومة النرويج بإخطار الدول الأوروبية الكبرى مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا . وفى نفس الوقت تكون المنظمة قد قامت بإخطار بعض الدول العربية الرئيسية مثل السعودية والأردن وسوريا .

والخطوة الثالثة أن تبدأ عملية "تسريب" لأمر الاتفاق عن طريق وسائل الإعلام العالمية، وأن يكون الـ"تسريب" على درجات : إشارات إلى احتمال اتفاق — تلميحات إلى حدوث لقاءات — بعض التفاصيل مما تم الاتفاق عليه ، الخ ...

ثم تجىء الخطوة الرابعة بالإعلان ، يليها على الفور عرض النصوص على المجالس التشريعية أو السياسية ، مثل الكنيست فى حالة إسرائيل ، والمجلس الوطنى الفلسطينى فى حالة المنظمة .

ثم تجىء الخطوة الخامسة ، وبصددها فقد بدا الطرفان تحت تأثير تجربة "كامب دافيد" راغبين فى إخراج الاتفاق على شكل مسرحى بحيث يكون إعلان التوصل إليه نهائيا بواسطة "بيل كلينتون"، ويقال إنه حل أمريكى قدم للطرفين وقبلاه ، ثم يقوم البيت الأبيض بعد ذلك بالدعوة إلى احتفال عالمى كبير يتم فيه توقيع الاتفاق بحضور عدد من رؤساء الدول التى شاركت فى مدريد أو التى اهتمت بالتسوية السلمية ، وفى مقدمتها مصر .

وكان "بيريز" نفسه أكثر من شدد على ضرورة الاحتفاظ بالسر قائلا إن ذلك سوف يكون "امتحانا إنسانيا شاقا ، لكن النجاح فيه سوف يثبت أن الطرفين لديهما الإخلاص الكافى لضرورة الاتفاق والحرص المخلص على مسيرة السلام" .

وغادر "بيريز" أوسلو عائدا إلى إسرائيل قائلا إن لديه "غدا جلسة شاقة وعصيبة فى مجلس الوزراء" ، وهو يتوقع أن يرى مشاهد عصبية غاضبة ، وأن يسمع صرخات متشنجة "لأنكم لا تستطيعون تصور المخاطرة التى أقدمنا عليها بتوقيع اتفاق مع منظمة التحرير . فالشعب الإسرائيلى لن يكون قادرا بسهولة على ابتلاع هذا الحجر الثقيل !"

□

وصل "بيريز" إلى إسرائيل وحضر اجتماعا لمجلس الوزراء ، ولم يكن الاجتماع عاصفا كما حاول "بيريز" أن يوحى فى أوسلو ، لأن مجلس الوزراء كان مهيأ للاتفاق ، بل إن المعارضة ممثلة فى حزب "الليكود" لم تكن ضيقة الصدر به . وبعد جلسة مجلس الوزراء قال "بيريز" لـ"رابين" إنه يفضل إبلاغ الولايات المتحدة الأمريكية بنفسه لأن الحكومة الأمريكية رغم أنها كانت تعرف بوجود قناة أوسلو ظلت حتى آخر لحظة تفضل أن يكون الاتفاق عن طريق مفاوضات واشنطن . ثم إن السرعة التى جرت بها صياغة إعلان المبادئ فى صورته النهائية قد لا تكون واضحة أو مفهومة لدى الولايات المتحدة . ووافق "رابين" على سفر "بيريز" إلى واشنطن .

وقام "بيريز" على الفور باتصال مع السفارة الإسرائيلية فى واشنطن يطلب تحديد موعد له غدا مع وزير الخارجية الأمريكى "وارين كريستوفر" . واكتشف "بيريز" أن "وارين كريستوفر" خارج واشنطن يقضى إجازة قرب "سان فرانسيسكو ، واتصل به يقول له إنه "يأسف لأنه سوف يقطع عليه إجازته ، لكنه سوف يركب الطائرة الآن فى طريقه إليه لأن لديه شيئا هاما يريد أن يطلعه عليه" .(١٤)

وبعد ساعات كان "بيريز" وجها لوجه أمام "كريستوفر" الذى لقى وزير الخارجية الإسرائيلى وعلى ملامح وجهه علامة استفهام إضافية فوق علامة الاستفهام التى رسمتها الطبيعة أصلا عليها !

كان "كريستوفر" قد دعا عددا من مستشاريه ، وبينهم "دنيس روس" منسق المفاوضات العربية ـ الإسرائيلية ، ليكونوا معه أثناء اجتماعه مع "بيريز" . وجلس "كريستوفر" لقرابة ربع الساعة يستمع من "بيريز" ودهشته تتزايد مع كل تفصيل . وكان أول ما نطق به هو

---

(١٤) رواية "شيمون بيريز" نفسه لأحد أصدقائه من المسئولين العرب ، وقد امتنعت عن ذكر المصدر بالاسم تحديدا بناء على طلب منه .

سؤاله : "هـل تعنـى أنكـم بـالفعل وقعـتم اتفاقـا مـع منظمـة التحريـر ؟" ورد "بـيريز" بالإيجاب . وعاد "كريستوفر" يسأل وكأنه لا يصدق نفسه : "وقعـتم اتفاقا بالفعل ؟" وبـدا "بيريز" مستمتعا بذهول وزيـر خارجية الولايات المتحدة إزاء ما يسمـع منـه . ولكـى يصـل بالمشهد إلى ذروته فتح حقيبتـه وأخـرج منها المشروع الذى وقـع عليه ووقـع عليه "أبو عـلاء" ووقـع عليه وزيـر خارجية النرويـج كشاهد ، وناوله لـ "كريستوفر" . وكان "كريستوفر" يقـرأ النصـوص ويعيد قراءتها مرة أخرى وهو لا يكاد يصـدق . ثم كان تعليقه بمرارة شاعـت فـى الفاظه : "إن ذلك على أى حال حـدث سعيـد ، وهو يساوى من أجلـه أن يقطع إجازته" .

وبينما كان "كريستوفر" ما زال أسـير دهشتـه ، تدخـل "دنيـس روس" فـى الحـوار ، وقد بـدا غير سعيـد بمفاجأة إتمام الاتفاق وغير قادر على تقبلها ببساطة . وكـان شعوره فـى الغالب أن الجهد الذى قام به هو وطاقمـه فـى مدريـد وفـى واشـنطن جـرى تجـاوزه . وراح "دنيس روس" موجها حديثه إلى "بيريز" يقول إنه لا يعتقد أن هذا الاتفاق خطوة على الطريـق الصحيح ، وشرح أسبابه :

١ ـــ إن "بيريز" بهذا الاتفاق أعـاد الحياة إلى منظمة التحريـر . فقد كـانت هـذه المنظمـة بالفعل قد أدخلـت إلى قبرهـا .

٢ ـــ إن الجهـد الأمريكـى كـان يركـز علـى سوريـا لأنهـا أهـم طـرف بـاق فـى المعادلـة العربيـة بعـد مصـر . وهـذا الاتفـاق سـوف يعطـل دخـول سوريـا إلى "عمـق" عمليـة السـلام .

ورد "بيريـز" على النقطتـين قائـلا :

١ ـــ إنه رضى بتوقيع اتفاق مع المنظمة لأنه ظهـر لهـم أنهـا لا تـزال تمثـل أغلبيـة فـى الشعب الفلسطينى ، "وإن البديل الوحيد لها هو "حماس" ـــ و"حماس" لم تعـترف أبدا بإمكانية السلام معنا ."

٢ ـــ وفيما يتعلق بسوريا فإنه يختلف مع "دنيس روس" لأن هـذا الاتفـاق سـوف يـأخذ ورقة القضية الفلسطينية من يد حافظ الأسد ويتركه وحده وراء هضبة الجولان .

واحتدمـت المناقشـات بـين "شـيمون بـيريز" و"دنيـس روس"، ووجـد وزيـر خارجيـة إسـرائيل نفسه مضطرا أن يقـول لـ"روس" بغضـب : "إن إسـرائيل أدرى بمصالحهـا" . وهنـا أفـاق "واريـن كريسـتوفر" مـن دهشـته ، فـالتفت إلى أحـد مسـاعديه وسـأله بصـوت عـال سمعـه الجميـع قـائلا : "أريـد أن أعـرف أيـن كـانت وكالـة المخـابرات المركزيـة الأمريكيـة ؟" Where was the C.I.A.?

وانجـرف "شيمون بيريز" سواء بحماسته أو بطموحات خفيـة راودته فإذا هو يقترح علـى "كريستوفر" أن يخرجا الآن إلى الصحفيين ، وأن يعلنـا نبـأ توقيع اتفاق بين منظمـة التحريـر وبين إسرائيل .

وكان ذلـك كله علـى نقيـض بالتصادم مع كل الترتيبـات ــ الاحتفاظ بالسر ، والتـدرج فى الإعـلان عنه على مدى شهـر ، والاحتفال بإذاعته نهائيا فى حضـور "كلينتـون" وتحـت رعايته ، وغير ذلك مما اتفـق عليه فى أوسلـو ــ وكان "شيمون بيريز" أكـثر مـن ألـح علـى هـذه الإجـراءات والترتيبـات ودعـا الآخرين إلى الالتزام الصـارم بهـا .

□

وبينما كان العالم كله مأخوذا بمفاجأة الإعـلان من سان فرانسيسكو وفقا لما طلبه "بـيريز" ــ كان رئيس وزراء إسرائيل "إسحاق رابين" يغلى من الغيـظ . وأمام عـدد من أعضـاء مجلـس الوزراء أبـدى "رابين" رأيه صراحة فى "بيريز" ، ثم راح يعيـد التعبير عن غيظـه الشخصـى بمنطـق الحكمة السياسيـة . وكان بين ما قـالـه :(١٥)

- إن "بيريز" لم يتغير ، وهو غير قابل للتغيير ــ فهو انتهـازى طـوال حياتـه وسـوف يظـل كذلك حتى مماته . فقد تصرف على نحو مخالف لكل الترتيبات المتفق عليها لأنه يريد أن يعطى نفسه وحـده دور صانع السـلام . وكـل همـه أن يتـوج حياتـه بالحصول على جائزة "نوبل" للسلام . وبالتالى ، فهو فـى قضيـة مصيريـة وحيويـة بالنسبة لإسرائيل سمح لنفسه أن يتصرف بإملاء اعتبارات شخصية وأنانية .
- إن هناك تفاصيل كثيرة لم يبت فيها وهى متصلة بإعلان المبادىء . وكان لا بـد مـن اسـتكمال هـذه التفـاصيل قبـل "المسـرحية التـى ألفهـا وأخرجهـا بـيريز فـى سـان فرانسيسكو واستعـمل فيها "كريستوفر" المسـكين وأعـطاه دور "كومبارس" ــ محتفظا لنفسه بدور البطولة" .
- إن بعض القضايا المعلقـة تتصـل بـأمور عسـكرية تهـم القـوات المسـلحة . وهـذا هـو اختصاص "رابين" . و"بيريز" بهذا الإعـلان المفـاجىء يضـع "جيـش الدفـاع" أمـام مفاجأة أمر واقع لم يتهيأ له . وهذه مسـألة خطـيرة ثم هى ضارة بمعنويات "جيـش الدفاع" وصلته الضرورية بالقرار السياسى .

---

(١٥) روايـة "رابـين" لسياسـى أوروبـى كبـير .

● إن "بيريز" تصرف على هذا النحو وهو فى جزء من مشاعره لا يزال يمارس عداوته له ـــ (أى لـ"رابين") ـ وهو غير قادر على نسيان أن الحزب (يقصد حزب العمل) رفض "بيريز" زعيما له ، وإن الرأى العام رفض "بيريز" رئيسا للوزارة ، وكلاهما اختاره هو ("رابين") . و"بيريز" لم ينس ذلك وسوف يظل يثأر لنفسه ولو على حساب مصلحة "الدولة" وأمنها .

. . . .

. . . .

كان السيد "ياسر عرفات" مفاجأ بمسرحية "سان فرانسسكو" لأنها أضاعت فرصة إخراج اتفاق أوسلو ـ على صورة أنه حل أمريكى قدمه الرئيس "بيل كلينتون" للحكومة الإسرائيلية ولمنظمة التحرير ـ وأن الطرفين قبلاه كاتفاق دولى "على مستوى القمة فى العالم" !

٥

عرفات (٢)

" نشكركم على رسالتكم ... الجميع في الخارج "

(أول رد من السعودية بعد إبلاغ الملك "فهد" بالتوصل إلى اتفاق في أوسلو)

كان "ياسر عرفات" يدرك بعد توقيع اتفاق أوسلو ــ وإعلان "بيريز" له فيما بعد ــ أنه أمام تحد كبير ومختلف عن كل ما سبق أن عرفه في حياته السياسية . كان قبل أوسلو على الهجوم باستمرار ، صاحب قضية لها على كل العرب ــ بل وعلى العالم ــ حقوق، وهو مطالب بها مناضل من أجلها ، وكلمته حكم على استقامة بقية الأطراف . وفي وقت من الأوقات في أوائل السبعينات ارتفع في العالم العربي شعار مؤداه أن موقف أي نظام عربي من منظمة التحرير هو معيار ولائه وانتمائه للقومية العربية . لكن هذه المرحلة الآن مختلفة ، فهناك اتفاق مع العدو بصرف النظر عن أية تفاصيل . وتلك في حد ذاتها عقبة نفسية وسياسية عاتية . ثم إن شروط الاتفاق ليست مما يستطيع أحد أن يدافع عنه ، فاتفاق أوسلو لم يكن ممكنا التوصل إليه إلا بتأجيل كل القضايا الأساسية حتى مفاوضات المرحلة النهائية ــ بعد ثلاث سنوات على الأقل . والقضايا المعلقة ليست هينة ــ فهي القدس (التي أعلنتها إسرائيل عاصمة أبدية لها وغير قابلة للتقسيم) ــ وكذلك حق العودة (وإسرائيل ترفضه على أساس أن لديها قدرة استيعابية لا تستطيع تجاوزها) ــ والحدود (وهذه بدورها قضية لا تريد إسرائيل أن تقترب منها وإلا أعطت الإيحاء بأن هناك دولة فلسطينية بينها وبين الأردن ، وهو أمر يصعب عليها الاعتراف به ــ وهي في الواقع تريد هذه المنطقة مشاعا مفتوحا على جانبي النهر بينها وبين الأردن) ــ وأخيرا ، فقد تأجلت قضية الاستيطان (وقد أصبح عدد

المستوطنات التى أنشئت بعد "كامب دافيد" ١٤٠ مستوطنة ، فيها ما بين ١٢٠ إلى ١٣٠ ألف مستوطن . ولو أن إسرائيل قبلت وقف الاستيطان لكان ذلك معناه من وجهة نظرها أن مشروع "أرض إسرائيل" بدأ ينكمش بدل أن يتسع) .

وهو الآن على الدفاع ، بعدما كان على الهجوم . وأكثر من ذلك فهو يدافع عن تاريخه وعن نفسه ، وربما عن حياته .

فى نفس الوقت كان "ياسر عرفات" يعتقد أن لديه عوامل موضوعية دفعته إلى قبول ما جرى التوقيع عليه فى أوسلو ، وهو أول من يعرف أنه اتفاق سيىء لا يحقق الحد الأدنى مما كان يسميه "الثوابت الفلسطينية" ، ويستحيل وصفه بتعبير "سلام الشجعان" الذى أعلن عشرات المرات أنه مستعد لقبوله . ومن منظوره فإنه لم يكن لديه ما يستند إليه . وكان فى أحاديثه تلك الساعات يردد عن ظهر قلب مجموعة الحجج التى يراها ذرائع لقبول ما قبل .

- انهيار الاتحاد السوفيتى .
- دخول الدول العربية كلها فى إطار التسوية بعد أن بدأت مصر .
- رهانه على العراق انتهى إلى أنه أصبح منبوذا - بالذات فى الخليج .
- الولايات المتحدة انتصرت فى الحرب الباردة ، وبالتالى فقد أخذت على نفسها مسئولية "إعادة تنظيم الكون" .
- هو لا يستطيع أن يبقى خارج التنظيم الجديد للكون . وقد أوجعه ما رآه أمامه أيام مؤتمر مدريد ، فالجميع يريد اعتباره قطعة من الماضى وفى نفس الوقت فإن هناك قيادة فلسطينية تبدو مهيأة لأن تكون بديلا . وفى وقت مدريد فإن "عرفات" كان يكرر أمام زملائه فى القيادة الفلسطينية باستمرار : "لماذا أعاقب أنا وحدى؟ حسين (يقصد الملك "حسين") غفروا له مع أن موقفه.فى حرب الخليج كان مماثلا لموقفى" .
- الأوضاع فى الأرض المحتلة تسوء ، وقد وصلت الانتفاضة إلى حافة الفوضى وتبدت فيها ظواهر تصفيات فلسطينية - فلسطينية .
- إنه خائف من إعادة بعث فكرة المسار الأردنى .
- سوريا يمكن أن تسبقه . وإذا سبقته فإنها ستأخذ الورقة الفلسطينية لحسابها ، وإذا سبق هو فسوف تكون الورقة الفلسطينية فى جيبه - وهى فى رأيه أهم أوراق الصراع العربى - الإسرائيلى .

ـ وأخيرا ، وهذا سبب إنسانى ، فإن العرب كلهم يعاملونه بغلاظة أو بتعال ، إلى درجة أن السعودية ترفض أن تسمح لطائرته بعبور المجال الجوى . وإذا كان فى إمكانه أن يثبت للعرب أنه قادر على الوصول إلى الأمريكيين بدونهم ، وأكثر من ذلك فإنه سيعود إليهم من الباب الأمريكى ـ فهذه إذن ترضية ما بعدها ترضية للتشفى ، وهى نزعة إنسانية تغلب البشر فى كثير من الأحيان !

كان "ياسر عرفات" أيضا يعتقد أنه يستطيع أن ينفذ باتفاق أوسلو . فالعالم العربى مهلهل ومنقسم ، والناس فى الضفة الغربية وقطاع غزة مرهقون بعد سنوات ممتدة من المقاومة والانتفاضة ، وحملات قمع إسرائيلى فى الداخل عنيفة ، وعدم التكافؤ فى القوة بين الجانبين أعطى الناس إحساسا بالرغبة فى الخلاص . ثم إن قادة "حماس" معظمهم منفى فى "مرج الزهور" . وإذا صح ما قاله الإسرائيليون فى أوسلو ، فإن هؤلاء المنفيين "تعلموا الدرس جيدا فى العراء الذى كانوا فيه ، وإذا عادوا فسوف يتصرفون بعقل" .

ومن ناحية الرأى العام العربى فإن الجماهير العربية لا تزال تشعر بحالة من فقدان التوازن ابتداء من اتفاق فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل . ثم إن حرب الخليج أطاحت بما تبقى من هذا التوازن ، وبالتالى فإن الرأى العام العربى فى حالة ضياع ليس له أن يخشى منه . يتصل بذلك أن المراكز المؤثرة إعلاميا فى الرأى العام العربى هى الآن شبه معطلة ، فالإعلام المصرى مساير لتوجهات السياسة المصرية ، وهى بالتأكيد مؤيدة له ، والمركز الإعلامى فى بيروت لم يخرج بعد من أنقاض الحرب الأهلية ، والمركز الإعلامى المحدود الذى نشأ فى الكويت وظهر دوره فى السبعينات والثمانينات ضاق هامش الحرية الذى كان لديه بعد حرب الخليج ، ولم يتبق منه غير نقط مبعثرة لا تستطيع أن توجه رأيا عاما واسعا . وصحيح أن المال السعودى أنشأ مركزا إعلاميا كبيرا فى لندن ـ خصوصا فى مجال القنوات الفضائية ـ إلا أن هذا المركز يظل محكوما بطبائع الحكم السعودى التقليدية ، وهى طبائع حذرة مكتفية بما عندها ، وكل ما تريده أن يتركها الآخرون لحالها وينصرفوا لحالهم .

وقد تجلى عجز الإعلام العربى فى موقفه إزاء الانتفاضة . ففى الوقت الذى كانت الدنيا كلها فيه مبهورة بثورة أطفال الحجارة ، ووسائل الإعلام الدولية ـ صحافة وإذاعة وتلفزيون ـ تعطى للانتفاضة مكان الصدارة ، فإن الإعلام العربى كان فى الشهور الأولى من الانتفاضة يبدى حذرا تجاهها وكأن الأنظمة العربية تعتبر الانتفاضة مرضا يمكن أن ينتشر بالعدوى .

بقى أن الطريقة التى تناول بها الإعلام العربى تطورات الحوادث أثناء حرب الخليج وبعدها هيأت الرأى العام العربى ـ بتخطيط أو بغير تخطيط ـ لقبول فكرة السلام مع

إسرائيل . ففى خلال أزمة الخليج وجد بعض العَرب أنفسهم أصدقاء سياسيين لإسرائيل . وفى أثناء حرب الخليج كان بعض العرب حلفاء عسكريين لإسرائيل . وفى السياسة كما فى الحرب فإن وحدة الأهداف هى العلاقة التى يحسب حسابها ، وأما بقية العوامل فهى فروع لا يعتد بها . وقد شاهدَ الرأى العام العربى بعد حرب الخليج قاعات مدريد ووجدوا العرب والإسرائيليين حول نفس المائدة . ثم تابعوهم بعد مدريد وإذا كل وفد عربى داخل إلى قاعة بمفرده مع وفد إسرائيلى ، والأصوات والألوان والصور قادرة على خلق انطباعات تنحر يوما بعد يوم طبقات ما ترسب من اقتناعات .

□

كان هناك عنصر آخر فى المشاعر وإن لم يظهر فى الحسابات ، وذلك هو العنصر الإنسانى ، ذلك أن "ياسر عرفات" قضى ثلاثين سنة من عمره يحمل عبئا سياسيا مرهقا لأن قضية شعبه ثقيلة ومعقدة . وكانت سنوات عمله فى مراحل الثورة والقتال والمناورة تجربة لها ضرائبها الفادحة . ثم إن تعامل الثورات مع الأسرار والأسلحة يشيع فى دهاليز قيادتها أجواء من القلق والتوتر بحكم الطبيعة البشرية ، ثم إن طبائع البشر بعد ذلك لها تأثيرها ، فطول الصحبة فى سفر تستطيع إحداث مشاكل ، فكيف بالصحبة الطويلة فى ثورة لها أجواؤها ولها دوائرها ولها مركز تحكم تدور حوله ، وفى داخله عملية توليد طاقة بما يصاحب ذلك من سخونة وغليان وفوران !

وقد شهد "عرفات" دما كثيرا يسيل من حوله ، وعاش مصارع زملاء له من "أبو جهاد" إلى "أبو إياد" إلى "أبو الهول" إلى عشرات غيرهم . ثم إنه عاش فى قلب المناورات والمؤامرات ، ولعله كان طرفا أو شريكا فيها بحكم ضرورات الثورة أو اعتبارات الأمن .

من ناحية أخرى فقد أتيحت لـ "ياسر عرفات" فرصة أن يرى ثوارا مثله — عربا وغير عرب — ورآهم فى يوم من الأيام ينتصرون ، وتصبح لكل منهم دولة لها رئاسة ، ورئاسة لها مقر ، ومقر تحف به مراسم ، ومراسم تعطى تأثير الهيبة والجلال .

وقد انتظر دوره مثلهم لكن الموعد لا يجىء . وقد لحقه التعب بالعمر والعمل والأعصاب المشدودة طوال الوقت .

وكان "عرفات" يضيق كثيرا عندما تكون المراسم التى يستقبل بها فى مكان أقل مما توقع أو تمنى ، ولم يكن فى مقدوره غير أن يكتم .

وطوال الوقت فقد كانت تطارده مشكلة أمن . وقال أكثر من مرة إنه لا يستطيع أن ينام ويغمض عينيه إلا فى القاهرة ، ففيها وحدها يشعر بالطمأنينة وينام . وأما خارج القاهرة فهو ينام بعين واحدة ويبقى الثانية مفتوحة سهرانة هي وسلاحه وحرسه !

وفى السنوات الأخيرة لم يعد باقيا أمامه غير أن يتجول من مطار إلى مطار ، وينتظر إذنا بالإقلاع ثم ينتظر إذنا بالهبوط .

والسنون تمر والعمر ينقضي ، وهاجسه الكبير أن يحدث له ما حدث قبله لزعيم فلسطيني مشهود له ، وهو الحاج "أمين الحسيني" ، فقد استنفد عمر كفاحه دون أن يحقق أى شيء ، وهو لا يريد أن ينتهي مثل الحاج "أمين" .

وإذن فهو رجل من الناحيتين الشخصية والإنسانية يريد أن يشعر بالأمن ، وبطعم الحياة ، وبالاستقرار ، ثم بالنجاح فى تحقيق شيء .

وكانت كل الأشواق الإنسانية والأمنية والشخصية والعامة شديدة ، وكلها مما يمكن فهمه بل ويمكن التعاطف معه .

□

إن هذه العوامل والعناصر والاعتبارات كلها تداخلت مع بعضها ، وتوافقت مع لحظة غريبة فى التاريخ العالمى والإنسانى .

لحظة نهاية عصور ، ونهاية إمبراطوريات ، ومطلع مستقبلات ، وضياع أمام متغيرات لم يستطع أحد أن يصل فى توصيفها إلى قرار ، بل ولا حتى استطاع استيعاب حركتها وأحكامها ومقتضيات هذه الأحكام .

وكان العالم يفكر ويتأمل ويدرس ، ولكن العرب جميعا كانوا مصابين بحالة من الإحباط ، وحالة من الإعياء ، وحالة من الملل ــ على استعداد لأن تدير ظهرها وتدير بصرها ، وليحدث ما يحدث .

وكانت القمم العربية تريد تسوية بأى شكل :

- فيض أموال البترول أغرق الهم العام .
- وعقود السلاح أزاحت نظريات الأمن القومى .

— وانتشار السلاح مع فيض الثروة فتحا المجال لدور فى السلاح مستجد : إما عقود عليه تفيض ذهبا ، وإما قمع به فى الداخل ينزف دما .

□

لم يكن "عرفات" أيضا يعتقد أنه سيلقى مقاومة عنيدة من جانب زملائه فى القيادة الفلسطينية . فالمؤسسون الكبار معه فى "فتح" اختفى معظمهم — وبالقتل فى أغلب الأحيان . فقد اغتيل "أبو جهاد" و"أبو إياد" و"أبو الهول" ، ثم إن "خالد الحسن" مريض مشرف على الموت ، ولم يتبق من الجيل الأول غير "أبو اللطف" ("فاروق قدومى") . وقبل إعلان الاتفاق بعدة أيام قام "عرفات" بإطلاع "أبو اللطف" على الصيغة المقترحة لإعلان المبادئ ، وقد قدمها له على أنها "أفكار مطروحة علينا" — وطلب رأيه فيها . ولسبب ما فإن "أبو اللطف" لم يأخذ الأمر بجدية ، وقد نظر فى الورقة ومر بعينيه على نصوصها ، ثم قال لـ "عرفات" : "طالما فيها كلمة انسحاب فهى تستحق الاهتمام" -! ولم يعد بعد ذلك إلى شيء إلا عندما أعلن بعد ذلك نبأ توقيع الاتفاق .

ولم يكن فى هواجس "عرفات" أى شفقة على الوفد الفلسطينى فى واشنطن . بل على العكس ، فطالما وصف هو هذا الوفد بأنه يضم أطفالا صغارا يتظاهرون بأنهم زعماء كبار . وهو يظن أنهم أخذوا أنفسهم بجدية أكثر مما تسمح لهم به حقائق الأشياء . وسوف يسعده أن تجيء لحظة يبلغهم فيها باستغنائه عن خدماتهم ، وأن عليهم أن يذهبوا إلى من شجعوهم (الأمريكان أو غيرهم) لينفعوهم إذا استطاعوا . وكان هؤلاء الأعضاء من وفد واشنطن ، وفى مقدمتهم "حيدر عبد الشافى" و"فيصل الحسينى" و"حنان عشراوى" قد اختلفوا معه بشأن الورقة الأمريكية ، وقد غضبوا لأنه رفض الورقة الأمريكية وأعطى للأمريكيين ردا عليها عن طريق المصريين دون إخطار وفد واشنطن . وأحس "حيدر عبد الشافى" بالقلق على العملية التفاوضية كلها ، وقرر أن يعتزل بهدوء . وأما "فيصل الحسينى" و"حنان عشراوى" فقد قدما إليه فى الأيام الحرجة السابقة لتوقيع اتفاق أوسلو استقالتين مكتوبتين . وحين رفضهما أصرا عليها . وحين سحباها بعد ذلك ، فقد كان الدور عليه هو ليرفض . وكان رأيه أن "فيصل الحسينى" لعبة تتسلى بها الدبلوماسية الأمريكية لشق الداخل الفلسطينى عن الخارج الفلسطينى . وأما "حنان عشراوى" فقد رآها وقد تحولت فى رأيه إلى مدمنة ظهور لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن الميكروفونات والعدسات ، وعليها الآن أن تجرب الحياة بعد إغلاق الميكروفونات وإطفاء الأنوار .

□

تبقى مشكلة الدول العربية ، وأولها فى رأيه مصر والمغرب . ومصر راضية ، بل إنها سبقت منظمة التحرير إلى اتفاق مع إسرائيل . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت مصر معه خطوة بخطوة ، سواء فى الاتصالات مع الولايات المتحدة أو مع إسرائيل ومن مدريد إلى أوسلو . ثم إن ملك المغرب لم يعتبر نفسه قط عدوا لإسرائيل ، ولم يكن يكف دائما عن أن يقول لكل من يسمع إن تقدم منطقة الشرق الأوسط يقوم على ثلاث ركائز : العبقرية اليهودية ـ ثم فوائض الأموال الخليجية ـ ثم اليد العاملة من دول الكثافة السكانية وبالذات فى مصر والمغرب .

وأكثر من ذلك فقد كان "عرفات" يتوقع أن تساعده القاهرة والرباط لدى العواصم العربية التى يمكن أن تتخذ موقف الرفض . وطار إلى المغرب ، وعرف أن الملك "الحسن" يتفهم دواعيه وأسبابه إلى اتفاق مع إسرائيل ويؤيده . وسارع "عرفات" إلى القاهرة ، وفى الواقع فإن هدفه كان أن تتمكن القاهرة من فتح الطريق أمامه إلى الرياض وإلى دمشق .

كان موقف السعودية شديد الأهمية بالنسبة لـ "ياسر عرفات" . فهو يريد أن يعقد معها صلحه بعد قطيعة حرب الخليج ، ثم إن السعودية أكثر من يستطيع أن يساعد على عملية التنمية والإنعاش التى يتوقف عليها مصير الاتفاق ، وقبول جماهير الشعب الفلسطينى له بعد لحظة المفاجأة الأولى . وحتى من قبل أن يجىء "عرفات" إلى القاهرة فإن "أبو مازن" دعا السفير السعودى إلى لقائه فى تونس ، وطلب إليه أن يبعث برسالة شفرية إلى الملك "فهد" شخصيا مؤداها أنه "كانت هناك اتصالات فى أوسلو بيننا وبين الإسرائيليين ، وقد رجونا الأخوة المصريين مبكرا أن يحيطوا جلالتكم بها . ونحن الآن انتهينا من التفاوض تقريبا وتوصلنا إلى خطوط اتفاق نبعث به إلى جلالتكم طالبين مباركتكم." لكن الرد السعودى جاء مخيبا للآمال ، ذلك أنه بعد ثلاثة أيام من الصمت عاد سفير السعودية فى تونس إلى "أبو مازن" يسلمه برقية من جدة نصها :

"نشكركم على رسالتكم ـ الجميع فى الخارج ـ متمنين لكم التوفيق .

(إمضاء)

الخارجية "

لكن خيبة الأمل التى أحدثتها هذه البرقية لم يطل أمدها لأن واشنطن أحست بتحفظ الرياض إزاء الاتفاق ، ولم يكن رأيها أن ذلك هو الوقت المناسب لتصفية الحسابات الباقية بعد حرب الخليج . وفى ظرف أربع وعشرين ساعة بدا أن موقف الرياض يتغير، وكان السفير السعودى هو الذى طلب مقابلة "أبو مازن" هذه المرة ليبلغه رسالة مؤداها أن "خادم الحرمين يريد تفاصيل أكثر عن الاتفاق ويطلب إحاطته بأى تطورات منتظرة" . وأكثر من ذلك فإن الملك "فهد" فى ذلك الوقت قابل الرئيس الأمريكى السابق "جيمى كارتر" وكان عائدا من اليمن (بعد محاولة فاشلة قام بها هناك للتوفيق بين اليمن الشمالى واليمن الجنوبى) . وأثناء لقائه مع "جيمى كارتر" تحدث الملك "فهد" حديثا طويلا قال فيه إنه نصح المنظمة أن تتكلم وترتب فى كل شىء مع الرئيس "حسنى مبارك"، "ونحن سوف نساعد فى كل خطوة ، ولسوف نساعد ماليا أيضا ولكن بدون إعلان" . ثم قام الملك بتذكير "كارتر" أنه "هو صاحب المشروع الذى يحمل اسمه ("مشروع فهد" الذى وافقت عليه القمة العربية فى فاس) ، وهو يتضمن ما يعنى الاعتراف بإسرائيل" . ثم أضاف الملك قائلا لـ "كارتر" : "إننا تلقينا رسائل كثيرة من عرفات ولم نرد عليها ، ولكن هذا لا يعنى أننا ضده" .

كان الملك "فهد" قد أحس بصدمة حين أعلن الاتفاق : من ناحية فاجأته سرعة التطورات ولم يكن على استعداد لهذه السرعة ، ومن ناحية أخرى فقد كان يتمنى أن يكون له دور فى صنع سلام الشرق الأوسط . وهو على أى حال صاحب مشروع يحمل اسمه وهو "مشروع فهد" وقد أقرته الدول العربية فى اجتماع "فاس" وردت به على "مشروع ريجان" .

وفى اليوم التالى لإعلان أوسلو كان الملك فى مجلسه يبدى دهشته مما حدث فى أوسلو . وروى للجالسين معه أنه جاء إلى الفلسطينيين بما هو أفضل (عشرين مرة) مما قبلوه فى أوسلو ولكنهم أتعبوه . وفى مرة من المرات كان فى واشنطن ، وكان مدعوا للعشاء مع الرئيس الأمريكى وقتها "جيمى كارتر" ، وأخذه "كارتر" بمفرده إلى غرفة ابنته "إيمى" وقال له : "يا سمو الأمير (كان وقتها وليا للعهد) إذا قبل عرفات قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، وفعل ذلك علنا ، فسوف أستقبله فى واشنطن كرئيس دولة" . وواصل الملك روايته فقال إنه استدعى "أبو عمار" بعدها إلى الرياض وأبلغه بما حدث ، وعاد "أبو عمار" إلى بيروت وهو فى غاية السعادة . ولكن "عرفات" ما لبث حتى بعث له برسالة "يبدى فيها ثلاثة تحفظات" . واستطرد الملك "فهد" يقول فى مجلسه : "عرفت فيما بعد أن هذه التحفظات وراءها كمال جنبلاط ، فعرفات أفشى له كل شىء ، وكمال جنبلاط أفسد الموضوع . وكانت هذه فرصة تاريخية ضيعها أبو عمار على نفسه ."

كان الملك يواصل حديثه فى مجلسه فى اليوم التالى لإعلان أوسلو ، وروى أنه حاول مساعدة جهود السلام بكل طاقته إلى درجة أنه كان أول مسئول عربى اتصل بـ "السادات" بعد زيارته لإسرائيل "رغم أنه لم يستشرنا فى الزيارة ولم نعلم بها من قبل . وقلت له "يا سيادة الرئيس نحن لا نستطيع تخوينك كما فعل غيرنا ، فأنتم قاتلتم وأعطيتم الدم وتعرفون أكثر من غيركم أين المصلحة . لكننى كنت أتمنى عليك أن تضمن شيئا للفلسطينيين" ."

وقال أحد الأمراء الحاضرين فى الجلسة للملك إنه "ربما لم يكن أمام عرفات بديل آخر" . ورد الملك معترضا بأن "عرفات كان لديه بديل آخر ، وهو المشروع الذى قدمته . هذا المشروع كان يطالب بإقامة دولة فلسطينية مستقلة وإزالة المستوطنات ، وفترة انتقالية أقصاها سنة تحت إشراف دولى وضمانة القوى العظمى لتنفيذ هذا الاتفاق ، وكان فيه الاعتراف بإسرائيل" . واستطرد الملك مبديا ضيقه من الطريقة التى تعامل بها العرب مع "مشروع فهد" ، واستفاض فى الحديث . وروى الملك : "إننا حاولنا جس نبض السوريين للمشروع بطريقة هادئة ، وبعثت به مع خالد الحسن ، وعاد خالد الحسن يقول لى إنه عرض المشروع على عبد الحليم خدام ، وإذا خدام يرد عليه بغلظة قائلا : نحن قبلنا من آل سعود أن يعطونا مالا ، فهل يعنى هذا الآن أنهم يستطيعون أن يعطونا فكرا ؟" وأضاف الملك أنه "اتصل بالرئيس حافظ يبلغه عتابه على ملاحظة خدام" .

وروى الملك أن العرب لم يتعاملوا بجدية مع "مشروع فهد" . "عرضته لأول مرة عليهم قبل مشروع ريجان ورفضوه .. رفضوه وهم يعلمون أنه ليس لديهم أحسن منه . وبعد رفض المشروع جاءنى عرفات يشكو لى من أن باب مصر مغلق أمامه ، وباب سوريا المفتوح مظلم. وقلت له : "يا أبو عمار قل لى ماذا أفعل ؟" ولم يكن لديه غير الشكوى من السوريين ، وقال لى "بقينا من سنة ١٩٧٢ إلى سنة ١٩٨٢ عشر سنوات تحت السيطرة السورية" ." وأضاف الملك فى مجلسه أنه "غادر مؤتمر فاس الأول الذى رفض فيه العرب مشروعه وهو مصدوم . والملك خالد ــ رحمة الله عليه ــ رأى بنفسه أن يكون فى استقبالى فى المطار لكى يطيب خاطرى ."

أضاف الملك أنه "عرف من وزارة الخارجية فى جدة أن السفراء الأوروبيين كانوا يظنون أن أمريكا وراء توقيع أوسلو ، ولكن أدهشهم أن أمريكا فوجئت" . ثم قال الملك إن "أحد السفراء الأوروبيين فى جدة أبلغ الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية أن العرب اخترعوا شيئا جديدا فى الدبلوماسية : فهم يتفقون أولا وبعدها يتفاوضون . والواجب أن يكون العكس وأن تكون المفاوضات قبل إعلان الاتفاقات ."

□

وكان الرئيس "مبارك" على استعداد لأن يمارس دورا إيجابيا فـى فتـح أبـواب الريـاض أمام "ياسر عرفات" . كان "عرفات" يريد أن يتوجـه من القاهـرة إلى الرياض مباشـرة ، لكـن الرئيس "مبارك" نصحـه بالتروى . ورأى أن يكتـب رسالة إلى الملك يستشعر مـن خلالهـا رد فعلـه المحتمل لزيارة يقـوم بها "عرفـات" إليـه . ورد الملـك بأنـه لا يريـد الآن لقـاءات لأن إحساسه تجاه "عرفات" ما زال "متغيرا" ، وإذا كان لا بد لـ "عرفات" أن يذهـب للسـعودية فعليه أن يقـدم اعتذارا للملـك وللأسرة الحاكمة ، ليس بسبب موقفه فى حـرب الخليـج ـ فهذا الموقف يمكن اغتفاره والتسامح فيه ـ ولكن الاعتذار المطلوب كان بشأن تصريح سـابق (فى أعقاب حرب الخليج مباشرة) منسوب إلى "عرفات" قال فيه إنه يعـرف أن هناك طائرات إسرائيلية شاركت فى ضـرب العـراق من قواعـد تمركزت فيها فى السعـوديـة . وكـان الملـك يعتقد أن هـذا التصريح لم يكن فقط كذبـا ، ولكن "عرفـات" كان يعـرف أنـه كـاذب عندمـا قالـه أيـام حـرب الخليـج .

ولم يكن "عرفات" جاهزا فى هذه اللحظة لأن يعتـذر علنـا لأحد . وقد اقترح أن يذهـب للقاء الملـك ثم يعتذر له وهو يصافحه ، لكن الملك "فهـد" رد بأن قدمـىْ "عرفات" لا يمكن أن تلمـسا أرض المملكـة إلا إذا اعتـذر أولا . وحـاول الرئيـس "مبارك" أن يجـد حـلا وسطـا مؤداه أن ينزل "عرفات" بطائرته فى جـدة ، وفى المطار يدلـى بتصريح للصحفيين يمـدح فيـه الملك "فهـد" ويقول فيه "إن هناك دسائس حاولت الوقيعة بينه وبـين جلالـة الملـك ، ولكنـه يعرف أن حكمـة الملـك أكبر من كل الدسـائس ، ثـم يضيـف إلى ذلـك مـا يشـاء مـن مديـح يسترضى به مشاعر الملـك" .

ولم تكن صيغـة هذا الحـل الوسـط مقبولة . ويظهر أن الكـل آثـر أن يترك لواشـنطن مهمـة إقناع الرياض .

□

كان الرئيس "مبـارك" هو الذى حاول أيضا أن يفتـح طريق "عرفـات" إلى دمشـق . وقـد اتصـل فعلا بالرئيس "الأسـد" تليفونيا ، لكن الرئيس "الأسـد" كـان مصـرا علـى الرفـض . ووصـل الكلام بين الرئيسين إلى حـد أن الرئيس "مبـارك" قال للرئيس "الأسـد" إنه يطلب هذا اللقاء "من أجل خاطره هـو" . ووافق الرئيس "الأسـد" كارها ، وحـدد موعدا يوم ٦ أكتوبـر ، ثم عادت دمشـق بعد ذلك فأعلنت تأجيل الموعد .

كان الرئيس "الأسد" فى حالة ضيق شديد بالفعل عندما سمع بنبأ الاتفاق لأول مـرة . وقد استعمل ألفاظا بالغة القسوة فى وصف من وقعوا الاتفاق ومن شاركوا فيه ـ لم يستثن منهم أحدا . والحاصل أن هذا الاتفاق أربك الخطة الدفاعية التى كان الرئيس "الأسد" يتحصن بمواقعها منذ خروج مصر باتفاقية "كامب دافيد" . فقد كان مطمئنا إلى أن موقفه معزز فى ثلاثة مواقع خارج سوريا :

القضية الفلسطينية ـ الوجود السورى فى لبنان ـ العلاقة الخاصة مع إيران التى أصبحت لاعبا هاما مؤثرا فى أوضاع المنطقة .

وعلاوة على ذلك فإن الرئيس "الأسد" ، وإن كان بما لديه من معلومات قد عرف الكثير عن القنوات السرية المفتوحة بين المنظمة وإسرائيل ، إلا أنه ظل مقتنعا حتى آخر لحظة بأن "عرفات لا يستطيع أن يدفع الثمن اللازم لإقناع إسرائيل بأن تتعامل معه" .

وفجأة ، اكتشف الرئيس "الأسد" أن "عرفات" يستطيع .

وكانت الولايات المتحدة تتحسب لردة الفعل السورية . ورئى أن يقوم وزير الخارجية "وارين كريستوفر" بالاتصال تليفونيا بالرئيس "الأسد" ، ثم يقوم الرئيس "كلينتون" نفسه باتصال ثان . وكان هدف الاتصالات أن يتحفظ الرئيس "الأسد" فى ردة فعله . ومع "كريستوفر" ومع "كلينتون" كرر الرئيس "الأسد" وجهة نظره محتفظا لنفسه بحرية الحركة ، فقد قال للاثنين "إن سوريا سوف تنظر لاتفاق إعلان المبادئ الفلسطينى ـ الإسرائيلى نظرة موضوعية . إذا كان يضرنا فسوف نهاجمه ، وإذا كان ينفعنا فنحن نؤيده." ودعا الرئيس "الأسد" إلى اجتماع للقيادة السورية وكان الرأى أن الاتفاق ضار بمصالح سوريا ، وبالقضية القومية ـ وبدأ الهجوم .

وعادت الولايات المتحدة تحاول تهدئة الأمور . ولم ييأس الرئيس "مبارك" وإنما عاد إلى وساطته وظنه أن الواقعية سوف تفرض نفسها . وقبل الرئيس "الأسد" أخيرا أن يستقبل "عرفات" فى دمشق .

وحاول السيد "ياسر عرفات" أن يشرح للرئيس "الأسد" مجمل الظروف التى دفعته إلى اتفاق سيئ . ورد عليه الرئيس "الأسد" ردا متصلا لمدة ثلث ساعة ركز فيه على خمس نقاط :[١٦]

١ ـ "إنكم باتفاقكم مع إسرائيل فى أوسلو خنتم شمولية الحل العربى" .

٢ ـ "وعندما انفرد بكم الإسرائيليون أعطوكم أقل مما كان يمكن أن تأخذوه فى ظرف مختلف" .

---

(١٦) النصوص واردة فى المحضر السرى للجلسة بكلماتها تقريبا .

٣ ـ "إننى لم أدهش لما وصلتم له ، فهذه هى نتيجة البعد عن العمل العربى المشترك ورفض التنسيق وقصور الكفاءة مع نسيان عنصر الأهلية التى لم تكن تتوفر لكم إلا بتأييد عربى . وأنتم أبعدتم أنفسكم عن العرب ."

٤ ـ "وبرغم الثمن الفادح الذى دفعتموه فأنا أشك فى مصير الاتفاق" .

٥ ـ "وأنتم أثرتم غبارا كثيرا حول سوريا وادعيتم أنها توصلت لاتفاق منفرد دونكم، وأنتم تعرفون أن ذلك غير صحيح ، ولكنكم كنتم تريدون أن تغطوا "فعلتكم السوداء" فى أوسلو" .

□

لم يكن الملك "حسين" مفاجأ بقناة أوسلو ، فقد كان يعرف عنها من مصادره لكنه لم يعلق عليها أهمية كبيرة . وقبل إعلان الاتفاق كان رأى "أبو مازن" أن من الضرورى إبلاغ الملك "حتى وإن كنا نعرف أنه يعرف ، فالملك بسبب وضعى الأردن السياسى والجغرافى، وبحقيقة أن أغلبية مواطنى مملكته من الفلسطينيين ، كان وسوف يظل طرفا رئيسيا فى أى تسوية مقبلة" . وبالفعل فإن "أبو مازن" ذهب إلى عمان بنفسه وفى فكره أن يسلم للملك "حسين" نسخة من مسودة النقاط التى كان يجرى بحثها فى أوسلو ، وكان ذلك يوم ١٧ يوليو ١٩٩٣ . لكن "أبو مازن" عاد فراجع نفسه ، فقد خشى لو سلم بنفسه للملك ورقة مكتوبة ، أن يكون إبلاغ الملك قد أخذ صورة جدية ونهائية بينما الصيغ لا تزال حتى تلك اللحظة فى أوسلو تحت المناقشة . وكان الحل الذى ارتآه "أبو مازن" هو أن يسلم نسخة من مسودة النقاط المقترحة للاتفاق إلى الدكتور "أشرف الكردى" ، وهو طبيب أعصاب مشهور فى "مجمع الحسين الطبى" فى عمان ، وهو فى نفس الوقت صديق مقرب من الملك ـ وفى مناسبات كثيرة لعب دور قناة اتصال بين المنظمة وبين الملك.

كان الملك "حسين" مذهولا من نبأ إعلان اتفاق أوسلو[17] . فقد كان شبه واثق فيما بينه وبين نفسه أن هذه القناة لن تصل إلى شىء . وكان يعتقد أنه صاحب حق فى أن يؤخذ

---

(١٧) محاورات طويلة مع الملك على مائدة عشاء ضمت الملك والملكة "نور" وابنى الملك الأميرة "عائشة" والأمير "حمزة" من ناحية و"محمد حسنين هيكل" وقرينته من ناحية ثانية فى مطعم "سانتينى" فى حى "بلجرافيا" فى لندن ، ثم جلسة ممتدة لم يحضرها غير الملك و"محمد حسنين هيكل" فى فندق "كلاريدج" فى لندن .

رأيه قبل أن يوضع أى توقيع على ورق ! وطبقا لما يرويه الملك فهو أكبر من تحمل بأعباء الشعب الفلسطينى ، فقد قدمت لهم المملكة "كل شىء" ابتداء من فرص التعليم والعمل إلى جوازات السفر وحماية دولة يستندون إليها ، وهو تصرف معهم طوال الوقت كمواطنين وليس كلاجئين "كما فعل غيرنا" . وقد تحمل عبء القضية الفلسطينية وهو ثقيل بالنسبة لبلد فى حجم الأردن وموارده . لكنه لم يضق بالمسئولية ولم يشك لأحد . وحين أحس أن الشعب الفلسطينى يريد إبراز شخصيته الدولية ، فقد وافق فى الرباط على أن تكون منظمة التحرير هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . ومع أنه لم يكن مقتنعا بسلامة هذا القرار ، فإنه نزل فيه على الإجماع العربى والطلب الفلسطينى . وبعد قيام الانتفاضة وما أحس به من رغبة الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم بأنفسهم فإنه بنفسه كان المبادر إلى فك الروابط الدستورية والإدارية بين ضفتى الأردن لكى يعطى القيادة الفلسطينية الفرصة مفتوحة تتحرك كيف تشاء . وحين تعقدت الأمور بعد حرب الخليج وأصرت إسرائيل ووراءها الأمريكان على عدم حضور أو اشتراك منظمة التحرير فى مؤتمر مدريد ، فقد كان هو الذى أعطى مظلة أردنية يشترك الفلسطينيون تحتها فى المؤتمر. وحين أبدى الفلسطينيون رغبتهم فى إبراز وجودهم المستقل عن الوفد الأردنى ، فقد رحب بذلك . وأكثر فى هذا المجال ، فإنه هو الذى تولى إقناع الجميع (الولايات المتحدة وإسرائيل) بقبول فرز الوفد الفلسطينى عن الوفد الأردنى ، وفى مراحل لاحقة أقنعهم أيضا بقبول استقلالية الوفد الفلسطينى وبقبول تمثيله لمنظمة التحرير الفلسطينية .

كان الملك يقول وبحدة إنه "عرف أن اتفاق أوسلو وقع من الجانب الفلسطينى باعتباره جزءا من الوفد الأردنى المقبول رسميا فى مدريد والمعترف به على هذا النحو فى واشنطن .

وكان أبسط الأشياء أن "نُستشار" فيما فعلوه قبل أن يوقعوه فى أوسلو ." ويضيف الملك : "إذا ظنوا أنهم أحرار فى أن يوقعوا كما يشاءون دون استشارة أحد فهذا حقهم ، لكن ليس من حقهم أن يوقعوا باسمنا على ما قد لا نكون مستعدين للرضا به" .

ويمضى الملك فيقول إنه "رجا عرفات إلى درجة التوسل فى بعض المرات بأهمية التنسيق بين الأردن والمنظمة . وكان أبو عمار يعد ولا يفى ، وكان يخفى أكثر مما يظهر، وكنا نعرف الحقيقة . وكانت معرفتنا بالحقيقة تجرحنا لأننا بصرف النظر عن مشاعرنا كنا نعرف أنه إذا انفرد الإسرائيليون بالمنظمة فإن الثمن الذى سيدفعه الشعب الفلسطينى سوف يكون باهظا ."

كان الملك يحاول أن يستعيد توازنه بكل وسيلة بعد مفاجأة توقيع الاتفاق . وكان الضغط الأمريكى شديدا عليه لكى يتغلب على مشاعره ويعلن تأييده بعد أن صدرت عنه

تصريحات متسرعة أدلى بها فى لحظة انفعال . واتصل الملك تليفونيا بـ "ياسر عرفات" يطلب إليه ألا يصدق ما نسب إلى الملك عن "أنه معارض للاتفاق ويتخذ منه موقفا سلبيا" ، ثم قال له إنه "يؤيد الاتفاق". ورد عليه "ياسر عرفات" قائلا : "يا جلالة الملك ، تؤيدنى فى ماذا ؟ نحن طرف واحد ." ولم يتمالك الملك نفسه فقال على التليفون : "يا أخى ، وإذا كنا طرفا واحدا فقد كان مطلوبا على الأقل أن تخطرونا" .

وبحقائق الأمور فإن مشاعر الملك راحت تهدأ يوما بعد يوم . ثم تكررت ملاحظته بأن "الاتفاق سوف يلحق ضررا بليغا بمصالح الأردن ما لم نبادر بسرعة إلى العمل" . وهكذا كان الملك مستعدا بعد أيام لقبول وساطة "مبارك" واستقبال "عرفات" . وكان الملك طوال الاجتماع بينهما هادئا ومسيطرا على أعصابه كما هى عادته ، وعاتب برقة ، ثم انتهى الاجتماع والملك يعرف أنه فراق لفترة طويلة .

□

وكادت محاولات "ياسر عرفات" لتهيئة الأجواء العربية لقبول حل فلسطينى ـ إسرائيلى تؤدى إلى كارثة فى لحظة من لحظات فبراير ١٩٩٣ ، والتحضير لاحتمال اتفاق فى أوسلو يكاد يشارف نهايته . فقد خطر له أن قيامه بجهد لتحقيق مصالحة عربية عامة يمكن أن يؤدى إلى نتيجة . وكان مقتضى المصالحة أن يذهب إلى بغداد ، خصوصا وأن هناك "متعلقات" كثيرة لمنظمة التحرير فى العراق ، وقد حالت ظروف حرب الخليج وما تلاها دون تسوية هذه "المتعلقات" .

وتوجه "ياسر عرفات" إلى بغداد وفى ذهنه أن يطرح "خطوة كبيرة" يقوم بها العراق تطمئن السعودية ودول الخليج . ويظهر أن الرئيس "صدام حسين" أراد أن يثبت على السيد "ياسر عرفات" موقفه المؤيد للعراق فأقام له حفل استقبال ، وأثناء الحفل فوجئ "عرفات" بالرئيس "صدام" يمنحه وسام "أم المعارك" ويقلده له أثناء الحفل . ولم يكن فى مقدور "عرفات" أن يعتذر وإن أحس على الفور أن وسام "أم المعارك" سوف ينسف كل محاولاته للتقرب من دول الخليج ، ثم إنه فى نفس الوقت لم يكن يستطيع أن يتبرأ منه وقد أحاطت قلادة الوسام بعنقه . وعاد من بغداد إلى القاهرة شاعرا أنه وقع فى فخ . وقال له الرئيس "مبارك" إنه "سوف يرتب له سيناريو يخرجه من الورطة" . وكان أن أصدر الرئيس "مبارك" بيانا صحفيا قال فيه "إنه هو الذى طلب من عرفات أن يذهب إلى بغداد فى مهمة خاصة لجمع الصفوف" .

وبعد توقيع اتفاقية أوسلو لم يكن "عرفات" يظن أنه فى حاجة إلى العودة مرة أخرى إلى بغداد للحصول على مباركتها للاتفاق ، خصوصا وأن العراق لم يكن لديه ما يعطيه ، والمطلوب لإنجاح الاتفاق كبير لا تقدر عليه إلا دول الخليج لو استجابت ورضيت . فقد كان توفر المال هو الفيصل بين نجاح الاتفاق وبين فشله ، ذلك لأن الجماهير الفلسطينية إذا أحست بفوائد السلام وعوائده فقد يمكن إقناعها بأن تتغاضى عن سوء الاتفاق ونقائصه.

□

وكانت الولايات المتحدة تريد لفوائد السلام أن تذهب فى حقيقة الأمر إلى إسرائيل وليس إلى الفلسطينيين . وقام وزير التجارة الأمريكى "رونالد براون" بجولة واسعة فى الشرق الأوسط يطلب فيها من كل الحكومات العربية المبادرة فورا إلى رفع المقاطعة المفروضة منذ سنة ١٩٤٨ ضد إسرائيل ، وحجته أنها معادية لقاعدة حرية التجارة وضارة ومتناقضة مع كل المبادئ التى توجه السياسة الأمريكية ، ومنافية لفكرة التسوية السلمية ، ومؤذية للمصالح العربية ذاتها ، لأن توقيع إعلان أوسلو سوف يربط الأراضى الفلسطينية بالاقتصاد الإسرائيلى ، فإذا استمرت المقاطعة فإن الضرر لن يلحق فقط بإسرائيل ، وإنما سوف يمتد أثره أيضا إلى الفلسطينيين الذين يعيشون عليها .

وفى القاهرة ، ولتأكيد طلبه وتعزيزه ، قام وزير التجارة الأمريكى بتسليم مذكرة[(١٧)] وقع عليها سبعة وسبعون عضوا من أعضاء الكونجرس (أكثر من ثلاثة أرباعه) بإمضاءاتهم يطالبون فيها برفع المقاطعة الاقتصادية فورا عن إسرائيل .

---

(١٧) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من إحدى صفحات العريضة التى وقعها أكثر من ثلاثة أرباع أعضاء الكونجرس الأمريكى ــ تحت رقم (١٨) .

الفصل السابع

وهكذا صنعوا السلام

بعض الفصول
فى عملية صنع السلام
تشبه حكايات "كليلة ودمنة" ،
قراءتها مهمة
ولكنه من الخطأ القيام بذلك
من باب العلم بالتاريخ ،
وإنما تكون القراءة
من باب فهم الطبائع
واستيعاب الدروس
والاتعاظ بالعبر !

١

أوراق

" إننــا دخلنــا بهــذه الاتفاقيــة إلى زمــن بغير مــاض "

(الشاعر "محمود درويش" للسيد "ياسر عرفات" بعد أوسلو)

كانت فوائد السلام هى جسر العبور الكبير الذى تصور "عرفات" أن اتفاقية أوسلو يمكن أن تمشى عليه من ضفة الخطر إلى ضفة الأمان . فبعد أيام عاشها الكل تحت صدمة المفاجأة بدأ كثيرون يقرءون النصوص ، ثم تتكشف أمامهم الثغرات ساعة بعد ساعة ـ بل دقيقة بعد دقيقة .

كان لا بد من إقرار الاتفاق بواسطة أى مؤسسة شرعية فلسطينية لكى يكتسب أمام العالم ـ وأمام الإسرائيليين ـ مشروعية أنه اتفاق "فلسطينى" وليس اتفاقا مع "عرفات" وحده . وكان ـ والطبيعى أن يكون ـ "المجلس الوطنى الفلسطينى" هو الهيئة التى تعطى للاتفاق "فلسطينيته" .

ولما كانت النصوص غير قادرة على الإقناع ، فإن فوائد السلام بالنسبة للجماهير الفلسطينية كانت هى الوسيلة الوحيدة للعبور من الخطر إلى الأمان .

ومن المتناقضات أن التمهيد لفوائد السلام بدأ بإعلان إفلاس المنظمة . على غير توقع ، ورغم اعتقاد قيادات منظمة التحرير بأن المنظمة تملك ثروة كبيرة تمكنها من الصرف بمعدل ربع مليون دولار كل يوم ـ أى ما يقارب ثمانين مليون دولار فى السنة ـ فقد راعهم أن الأقاويل ترددت قبل أسابيع من الاتفاق بأن المنظمة مفلسة . ثم بدأ صرف المرتبات يتأخر إلى درجة أن بعض القيادات لم تكن قادرة على دفع إيجارات البيوت وحتى فواتير الكهرباء والتليفون . وبدا ذلك أمرا فى منتهى الغرابة .

كان "ياسر عرفات" قد أصر دائما على الاحتفاظ تحت إشرافه وسيطرته المباشرة بـ
عناصر رآها لازمة لتدعيم سلطة قراره ، وهـي : ١ ـ المال ٢ ـ السلاح ٣ ـ الإعـ
وتحقق له بالفعل ما أراد بعد صراعات داخلية عنيفة فاز فيها واحدا بعد الآخر وأصبح
منازع مالك مفاتيح المال ، وصاحب العسكر ، وموجه الإعلام الفلسطينى .

وتداول بعض قادة المنظمة فى موضوع الإفلاس الذى فوجئوا به . وعندما حاول بعـ
أن يناقش "عرفات" كان قوله إنهم تركوا له المسئولية وحده وأراحوا أنفسهم من الأعبـ
وعاشوا كما أرادوا . والآن يسألون عن الحساب ، وهم لا يعرفون كم تتكلف ضر
العمل سواء بالنسبة لقوات جيش التحرير الفلسطينى ، أو الخدمات الاجتما
للفلسطينيين ، أو رواتب ومعاشات أسر الشهداء . ثم إنهم أعفوا أنفسهم من النظر فى
تكلفت الانتفاضة ، وكم استنزفت من أموال المنظمة لإبقاء شعلتها حية لمدة خمس سنوا

وكان "ياسر عرفات" أمام عدد من زملائه فى القيادة يعزز ما يقول بأوامر صادرة
إلى بعض مديرى مكاتب المنظمة فى أوروبا وفى غيرها يطلب إليهم أن يبيعوا مقار المنـ
ومكاتبها مما هو مملوك لها فى الخارج ، "حتى نستطيع أن نسد العجز ونمر فى اللـ
العصيبة ويأتى الفرج" .

وقرر ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية ـ وهم "أبو مازن" و"ياسر عبد ربه" و"مـ
درويش" ـ فى لحظة يأس أن يقدموا استقالاتهم ، لكنهم رجعوا عنها حتى لا يحـ
انقسام يؤدى إلى ضياع كل شىء !

ودعا "ياسر عرفات" اللجنة المركزية إلى الاجتماع لبحث أمر الاتفاق . وكان بعـ
يتصورها فرصة للمواجهة ، كما أن بعضهم الآخر آثر أن يبتعد بنفسه عن مناورات أ
بأن التصفيات المحتملة فيها خطرة وعنيفة ، فسوف تختلط فيها المبادئ والواقعية مع ا
والحزازات القديمة ، ثم يحدث انفجار لا تحتمله ظروف اللحظة ويعكس نفسه على الـ
العام الفلسطينى .

وكان "ياسر عرفات" يشعر أن مركزه فى ذروة قوته . فعلى أثر توقيع الاتفاق
ظرف ساعات معدودات كان الإعلام الغربى قد أضاء كل أنواره ووجه كل عد
واستخدم كل فنونه ليحوّل صورة "عرفات" من تقاطيع "إرهابى" إلى ملامح "قديس سلا

كان بين أعضاء اللجنة المركزية الذين آثروا الابتعاد عن المشاركة فى أعمال الل
الشاعر الكبير "محمود درويش" ، وقد وجه إلى "أبو عمار" استقالته من حيث يقيم
العاصمة الفرنسية . ولم يشأ "عرفات" أن يعلن الاستقالة بسبب المكانة المتميزة لـ"محـ
درويش" ، واكتفى بالرد عليه برسالة قال له فيها : "إذا أردت أن تستقيل فقدم استـ

للمجلس الوطنى الذى انتخبك للجنة المركزية ، وإذا كنت تريد أن تشارك فى اجتماعنا الآن، فأهلا بك وسهلا" . وآثر "محمود درويش" أن يلزم الصمت ولا يتكلم حتى يتمكن فيما بعد من شرح موقفه .

وبادر الأستاذ "شفيق الحوت" ، وهو مفكر وكاتب فلسطينى مرموق ، فأعلن من مقر إقامته في بيروت أنه مستقيل لأن اتفاق أوسلو فى رأيه أطاح بكل الثوابت الفلسطينية .

وكان أعلى الأصوات فى المعارضة هو أشهر نجوم الكفاح الفلسطينى فى مجالات الفكر والثقافة ، وهو الدكتور "إدوارد سعيد"، ولم يكن على أى حال عضوا فى اللجنة المركزية ، لكنه أعفى نفسه من أى التزام تجاه منظمة التحرير . وفى تلك الساعات فإن صوته أصبح فى الواقع صوت التاريخ الفلسطينى ذاته ، كما أن ملامحه المعذبة بالألم استعادت ملامح "الناصرى" مع "صليب الشهادة" مرة أخرى !

والحاصل أنه فى تلك اللحظات العصيبة من تاريخ العمل الفلسطينى كانت النخبة المفكرة والمثقفة لهذا الشعب موزعة على عواصم الدنيا بين لندن وباريس وبيروت ونيويورك ، وكل منهم يحاول أن يتصل بالآخر ويستأنس برأيه ، والكل فى حالة ضياع . وكانت المأساة أن خيرة العقول والمواهب الفلسطينية بعيدة عن قرار من أهم القرارات فى التاريخ الفلسطينى .

وكان "محمود درويش" بنفاذ حس الشاعر ورهافته هو الذى عبر عن مخاوف النخبة بما كان يقول :

- كان رأيه أنه متأكد ـ وهو يعرف إسرائيل أكثر من غيره ـ أن إسرائيل لن تقدم شيئا له قيمة يوازى ما أخذته فى أوسلو ، أو حتى جزء منه .
- وكان رأيه أن الاتفاق يحدث اختراقا فكريا فى المقاومتين الفلسطينية والعربية تستحيل بعده العودة إلى حالة من التماسك لسنوات طويلة .
- وكان رأيه : "إننا دخلنا بهذه الاتفاقية إلى زمن بغير ماض ، وتنازلنا ضمن ما تنازلنا عنه عن كل التاريخ الفلسطينى ، وإن أبو عمار خلط بين توقيعه وتوقيع شعب فلسطين" .
- وكان رأيه : "إننا بهذه الاتفاقية استبدلنا الخيار الأردنى بالخيار الإسرائيلى ، وإن الفلسطينيين دخلوا فى حروب الآخرين مثل لبنان ، ودخلوا فى الحرب ضد الإمبريالية العالمية مثل نيكاراجوا التى أمدتها المنظمة بالسلاح ـ لكننا لم نستطع أن نخوض حربنا ."

وفى النهاية ، لم يكن "محمود درويش" يريد أن يجعل من موقفه مشكلة ، فاكتفى بأن يقول بلغة الفنان : "إننى شاعر غنّى لمرحلة الكفاح ولا أجد عندى شيئا أقوله بعدها ــ وأعتبر أن دورى توقف" .

□

وكان موضوع فوائد الاتفاق لا يزال فى رأى "ياسر عرفات" هو جسر العبور . فإذا أمكن للمجتمع الدولى أن يقدم للفلسطينيين من المساعدات والمعونات ما يسمح باستثمارات واسعة فى غزة وأريحا ، فإن ذلك فى رأيه يمكن أن يجتذب تأييد الشعب الفلسطينى حول اتفاق أوسلو ، ومن ثم يجعل هذا الاتفاق بداية أمل قابل للتحقيق .

وكان "ياسر عرفات" قد بعث إلى كل من يعنيهم الأمر من الأطراف الدولية والإقليمية، وحتى الفلسطينيين ، يقول بصراحة إنه لن يوقع على إعلان المبادئ بنفسه فى البيت الأبيض وبحضور "كلينتون" إلا إذا تأكد أن الأموال اللازمة للتنمية والاستثمار موجودة بالفعل تحت تصرفه لتحقيق فوائد السلام ، ولم يكن على استعداد للقبول بوعود . وفى ذلك الصدد توصل إلى تعبيرين عن موقفه تكرر ذكرهما فى مناسبات لاحقة :

التعبير الأول : إنه لا يريد أن يكون دوره مثل دور "ذكر النحل" يقوم بتلقيح الملكة ثم يموت .

والتعبير الثانى : إنه لا يريد أن يصبح "جورباتشوف فلسطين" ، يرضى بالوعود ويفرح بها ثم يجد نفسه فى النهاية وحيدا ليس فى يده إلا مجموعة وعود جوفاء غير قابلة للوفاء .

ومن المفارقات أن وزير خارجية إسرائيل "شيمون بيريز" تحول فى تلك اللحظة إلى مشرف على حملة تبرعات للفلسطينيين . وظهر فجأة فى بروكسل عاصمة السوق الأوروبية ، وكرر بعدها الظهور فى عواصم أوروبية أخرى ، يناشد الحكومات والرأى العام أن يتبرعوا لمساعدة الفلسطينيين الذين يستحقون المساعدة والعطف .

وكان "عرفات" فى نفس الوقت يركز على أثرياء الفلسطينيين . ويروى الأستاذ "ممدوح نوفل"[1] عضو اللجنة المركزية :

(١) مذكرات الأستاذ "ممدوح نوفل" بعنوان "طبخة أوسلو" .

"بنـاء علـى استدعاء عاجـل مـن أبـو عمـار وأبـو مـازن وصـل المليونـير الفلسطيـنى حسيـب الصبـاغ ومعـه باسل عقل إلى تونـس علـى مـتن طـائرة خاصـة . وتوجـها مباشرة إلى مكتب أبو مازن . وكان أبو عمار فى انتظارهم جميعا على الغداء فى بيتـه . وروى لحسيب الصباغ مسار مفاوضات أوسلو ونص الاتفاق الذى تم توقيعه فيها ، وقال له "هذا ما استطعت تحقيقه لشعبنا فى هذه المرحلة . أنا قمت بواجبى وجاء الآن دور "روتشيلد" فلسطين ليبنى الدولة . غزة وأريحا والاعـتراف بالمنظمـة يعنى دولة . نحن الآن أمام تحدى بناء الدولة . لا أدرى إذا كنا سننجح أم لا . بنـاء الدولة يحتاج إلى مال يا أبو سهيل (حسـيب الصبـاغ) ، ونحـن الآن مفلسـون تمامـا . بناء الاقتصاد يحتاج إلى مال . وتغيير حياة الناس يحتـاج إلى مـال . والأولويـة الآن لبناء وتجهيز الشرطة الفلسطينية وهذا يحتـاج إلى مـال يـا إخـوان ." وقـال الصبـاغ "سنبنى دولتنا يا أبو عمار وسوف نجعلها دولة نموذجية . وبإمكانى الآن أن أتعهد بجمع ١٠٠ مليون دولار لبناء الشرطة ، وسأعمل مع إخوانـى الآخريـن علـى دراسـة واجباتنا إزاء الاتفاق وتجاه بناء الدولـة ."

□

وكانت أكبر الآمال معلقة بالولايات المتحدة الأمريكية وبمدى الدعمين المـادى والسياسـى اللذين تسـتطيع واشـنطن أن تقدمهمـا فـى هـذه اللحظـة لاتفاقيـة أوسلـو . وبـالفعل ، فـإن الولايات المتحدة تبنت بالكـامل هـذا الاتفـاق ، بـل وأخـذته لحسـابها تماما واعتبرتـه ـ لأسباب انتخابية متعلقة بالرئيس "كلينتون" ـ "إنجـازا أمريكيـا" رغـم أن حكومـة النرويج كانت صاحـبة الـدور الرئيسى فى الوصول إليه . ولم تكن حكومة النرويج معارضـة فـى هـذا "الاختطاف" الأمريكى لطائرة أوسلـو ، لكنها كانت تريد أن تظهر باعتبارها صاحبة دور فـى الصورة . لكن مطالب الإدارة الأمريكية لم تكن مستعدة لأن تترك شيئا من المهرجان لأحـد إلا أن يكون دور المدعوين والمتفرجين .

وبـدأت واشنطـن تعلـن عن أرقـام للمساعدات والمعونات تثـير اللعـاب ، وكذلك تستعـد للاحتفال . وكـان "ياسر عرفات" الآن مطمئنا إلى أن الأموال فى طريقها إلى البنوك ، وإنه لـن يكون "ذكـر النحـل" الذى يلقح الملكـة مـرة واحـدة ويمـوت ، أو "جورباتشـوف فلسطـين" الذى يستيقظ من حلمـه ليجـد نفسـه صفـر اليديـن ـ وبالتـالى فـإن فوائـد السـلام الآن مضمونـة ومؤكـدة .

لكن الاتفاق كانت لـه توابـع لا بـد من إتمامها قبل يـوم المهرجان الكبـير .

١ ـ كانت إسرائيل لا تزال مصرة على بيان بوقف الانتفاضة يمكن البحث فى أسلوبه ولكن غايته ليست قابلة للبحث . وتم إعداد مشروع رسالة من "ياسر عرفات" موجهة إلى وزير خارجية النرويج جاء فيها بالنص :

"سعادة وزير خارجية النرويج

جوهان جورجن هولست

أؤكد لكم أن تصريحاتى العلنية ستتخذ المواقف التالية عند توقيع اتفاق المبادئ .

على ضوء العهد الجديد الذى ينبئ به توقيع إعلان المبادئ ، فإن منظمة التحرير الفلسطينية تشجع الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتدعوه إلى المشاركة فى التدابير التى تؤدى إلى التطبيع ورفض العنف والإرهاب والإسهام فى تحقيق السلام والاستقرار والمشاركة الإيجابية فى التعمير والتنمية الاقتصادية والتعاون .

المخلص

ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

١٩٩٣/٩/٩ "

٢ ـ وكان يجب أن تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بإسرائيل . وتم إعداد رسالة يوجهها "ياسر عرفات" بهذا الاعتراف إلى "إسحاق رابين" رئيس وزراء إسرائيل مباشرة . وكان نصها كما يلى :

"السيد رئيس الوزراء

إن توقيع إعلان المبادئ مؤشر على مرحلة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط .

ومن هذه القناعة فإننى أؤكد على الالتزامات التالية :

- تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بحق دولة إسرائيل فى أن توجد بسلام وأمان .

ـ تقبل منظمة التحرير الفلسطينية قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ .

ـ تلتزم منظمة التحرير الفلسطينية أن توقيع إعلان المبادئ يشكل حدثا تاريخيا كما يدشن حقبة جديدة من التعايش السلمى الخالى من العنف وجميع الأعمال الأخرى التى تهدد السلام والاستقرار .

وبناء عليه ، فإن المنظمة تنبذ اللجوء إلى الإرهاب وأعمال العنف الأخرى ، وسوف تتحمل مسئوليتها إزاء جميع عناصر وأفراد منظمة التحرير الفلسطينية من أجل ضمان امتثالهم ، ولمنع المخالفات والمخالفين للنظام .

وبالنظر إلى آفاق هذه المرحلة الجديدة وتوقيع إعلان المبادئ ، واستنادا إلى الموافقة الفلسطينية على قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، فإن المنظمة تؤكد أن تلك المواد الواردة فى الميثاق الوطنى الفلسطينى والتى ترفض حق إسرائيل فى أن توجد ، وكذلك بنود الميثاق التى لا تنسجم مع الالتزامات الواردة فى هذه الرسالة، تصبح الآن غير عاملة وليست سارية المفعول . وتبعا لذلك ، فإن منظمة التحرير الفلسطينية ستقوم بعرض الأمر على المجلس الوطنى الفلسطينى من أجل الحصول على الموافقة الرسمية على التغييرات الضرورية فى الميثاق الوطنى والمتصلة بذلك .

ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

١٩٩٣/٩/٩ "

٣ ـ وفى المقابل ، فقد كان مطلوبا أن تعترف إسرائيل بمنظمة التحرير . وجرى إعداد رسالة (متعالية النبرة ومتجبرة) موجهة من "إسحاق رابين" إلى "ياسر عرفات" . وكان نصها كما يلى :[٢]

"السيد ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

تجاوبا مع رسالتكم المؤرخة ١٩٩٣/٩/٩ أود أن أؤكد لكم بأنه على ضوء الالتزامات الواردة فى رسالتكم فإن حكومة إسرائيل قررت أن تعترف بمنظمة

---

(٢) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من رسالة "رابين" إلى "ياسر عرفات" ـ تحت رقم (١٩)

التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل للشعب الفلسطيني ، وأن تشرع في المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ضمن إطار عملية السلام في الشرق الأوسط .

إسحاق رابين

رئيس وزراء إسرائيل

١٩٩٣/٩/١٠ "

. . . .

. . . .

كان إعلان أوسلو زلزالا وكانت ملحقاته توابع زلزال . والشاهد أن الفارق بين ما أعطاه "عرفات" وأعطاه "رابين" كان فارقا يصل إلى حد المأساة :

١ ـ دعا "عرفات" في رسالته الأولى إلى وزير خارجية النرويج إلى : وقف الانتفاضة والتطبيع ، واعترف ضمنيا بأن المقاومة الفلسطينية نوع من العنف والإرهاب .

٢ ـ وفي رسالته إلى "رابين" اعترف بحق دولة إسرائيل دون تدقيق في حدودها التي يعترف بها ، وهل هي حدود ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ أو ١٩٧٣ . ثم إنه بهذا الاعتراف أقر ضمنا بكل ما اتخذته دولة إسرائيل من تدابير وإجراءات تنطبق على الأرض الفلسطينية أو على السكان الفلسطينيين .

٣ ـ تحمل على المنظمة أن تفرض على كل الفلسطينيين أن يمتثلوا لكافة ما ينص عليه أو يعنيه اتفاق أوسلو .

٤ ـ وفي المقابل فإن "رابين" لم يعط إلا اعترافا بمنظمة التحرير . وأكثر من ذلك ، فإنه لم يشر في خطابه إلى إعلان المبادئ (اتفاقية أوسلو) ، وإنما أشار إلى "الشروع في مفاوضات مع منظمة التحرير ضمن إطار عملية السلام في الشرق الأوسط" .

٥ ـ وكانت هناك معلقات كبرى لم يثرها أحد في أوسلو ولا بعدها أثناء كتابة الرسائل المتبادلة. بعض المعلقات كان كبيرا بدرجة لا تسمح بنسيانه ، ومنه مثلا أن أحدا لم يتوقف عند وصف أريحا ليحدد ما هو المقصود به تماما : هل هو مدينة أريحا ؟ ــ هل هو منطقة أريحا ؟ ــ أو هل هو قضاء أريحا ؟ ــ بينما الفارق في المساحات هائل : من ١٧ كيلومتر مربع إلى ٦٨ كيلومتر مربع إلى ١٧٠ كيلومتر مربع ؟!

ولم يكن هناك من يريد أن يزعج نفسه بالأسئلة ، وإنما كان الجميع مشغولين بالجواب وليس بالسؤال ، والجواب هو التوقيع ، والباب الأخير إليه هو الرسائل المتبادلة .

وكان ترتيب التوقيع على هذه الرسائل فى تونس وفى القدس هو آخر دور تركته واشنطن لوزير خارجية النرويج .. يؤديه ثم ينصرف .

ويوم ٩ سبتمبر ، وهو اليوم الذى أُرِّخت به معظم هذه الرسائل ، طار "هولست" وزير خارجية النرويج إلى تونس فحصل على توقيع "ياسر عرفات" على تعهداته ، كما طار من تونس إلى القدس ليحصل على توقيع "رابين" .

وانفتح الطريق إلى واشنطن .

٢

كلينتـــــــون (٢)

" هل سمعت ذلك يا سيدى الرئيس ؟ .. إنه يريد أن يتحدث معى كجندى إلى جندى ! "

("رابين" لـ"كلينتون" فى البيت الأبيض)

كان "ياسر عرفات" مصمما على أن يكون هو الذى يوقع الاتفاق بنفسه فى البيت الأبيض على نحو ما فعل الرئيس "السادات" مع "بيجن" . وظنه أن هذا يحقق له الاعتراف الكامل الدولى والأمريكى ، وهو الاعتراف الذى طالما حجب عنه . لكن "رابين" لم يكن مستعدا لتوقيع الاتفاق مع "عرفات" ، بل إنه حتى هذه اللحظة لم يفكر فى الذهاب إلى واشنطن بنفسه ، وإنما كان يؤثر أن يترك هذه المهمة لـ "شيمون بيريز" . وكانت وجهة نظر "رابين" أنه كرئيس لوزراء إسرائيل لا يستطيع أن يوقع إلا مع نظير له. وقد كان توقيع "بيجن" مع الرئيس "السادات" باعتباره رئيس الدولة فى مصر . وفى كل الأحوال ــ وطبقا لـ "رابين" ـ فإن "عرفات ليس السادات ، كما أن اتفاق أوسلو تصعب مقارنته بزيارة القدس وبكامب دافيد بعدها" .

ولم يكن "عرفات" قابلا لوجهة نظر "رابين" . وكان وزير الخارجية الأمريكى "وارين كريستوفر" أكثر تفهما ، واقترح حلا وسطا يتم بمقتضاه توقيع الاتفاق بين وزير خارجية إسرائيل "شيمون بيريز" وبين عضو القيادة الفلسطينية "أبو مازن" باعتباره الرجل الذى أشرف على توجيه قناة أوسلو ، وأدار مفاوضاتها حتى انتهت إلى اتفاق إعلان المبادئ . ثم يكون حضور كل من "ياسر عرفات" و"إسحاق رابين" حضورا رمزيا لإعطاء قوة دافعة للاتفاق ، وبرعاية الرئيس "بيل كلينتون" الذى كان فى أشد الحاجة إلى أن يظهر للشعب الأمريكى أنه أنجز شيئا بعد أن قضى فى المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض تسعة شهور مخيبة للآمال .

ولم يكن أمام "ياسر عرفات" غير أن يقبل هذا الحل الوسط . وكانت العلاقات بينه وبين "أبو مازن" قد بلغت ذروة توترها لعدة أسباب قديمة وجديدة . وكان أهم الأسباب الجديدة أنه فور توصل المتفاوضين فى أوسلو إلى اتفاق إعلان المبادئ ، وبعد الساعات السبع التى استغرقتها المكالمة التليفونية يوم ١٧ أغسطس بين تونس وأوسلو ـ استولى "ياسر عرفات" على "الغنيمة كلها" وراح يتصرف بمفرده ، أو هكذا كان شعور "أبو مازن" . ثم طرأت بعد ذلك مشكلة التوقيع ، وأحس "أبو مازن" أن "عرفات" الذى احتكر القرار ـ فى رأيه ـ يريد أيضا أن يحتكر الصورة .

ولم يكن "أبو مازن" وحده الغاضب فى مقر المنظمة فى تونس فى تلك الأيام الحرجة ، وإنما كان الغاضبون كثيرين خصوصا وأن نصوص الرسائل المتبادلة التى وقعها "عرفات" و"رابين" أحدثت هزات لاحقة لا تقل عن هزة التوقيع السابقة .

وزاد من تعقيد الأجواء فى تونس أن عواصم كثيرة فى العالم العربى راحت تهاجم اتفاق أوسلو الجاهز للتوقيع الآن فى واشنطن . وكانت المفاجأة أن القاهرة كانت بين المهاجمين ، ذلك لأن الرئيس "مبارك" لم يدع إلى حضور حفل التوقيع فى واشنطن رغم دوره الكبير فى دفع المفاوضات وفى التغطية السياسية لها ، ثم فى فتح أبواب عمّان ودمشق لاستقبال "ياسر عرفات". والحقيقة أن خبراء العلاقات العامة فى البيت الأبيض كانوا هم المسئولين عن إغفال دعوة الرئيس "مبارك" للاحتفال ، والسبب أن "بيل كلينتون" كان يريد أن يظهر على المنصة مع الطرفين وحده لكى يأخذ مكانته كصانع للسلام وحده، ووجود الرئيس "مبارك" قد يحدث حرجا لأن وجوده كان يعنى ظهوره على المنصة التى يجرى عليها توقيع الاتفاق . وهذا معناه أن جزءا من الفضل سوف ينسب إليه ، كما أن جزءا من الضوء قد يركز عليه . ولم يكن خبراء الإعلام فى البيت الأبيض يريدون تمويع الأدوار أو بعثرة الأضواء .

ومن أثر هذه الاعتبارات كلها ـ وغيرها ـ أن قيادة المنظمة فى تونس كانت فى حالة فوضى عارمة قبل السفر إلى واشنطن ، وزادت الفوضى عندما زاد عدد الراغبين فى حضور المهرجان ، رغم أن بعضهم كانت له تحفظاته على الاتفاق ولم يكن بعد قد اقتنع به .

□

وبعث الملك "الحسن" بطائرته الخاصة إلى تونس لتحمل "عرفات" ومرافقيه إلى واشنطن. وطوال الرحلة كان جو الطائرة مثقلا بتوترات مكتومة يحاول ركاب الطائرة كبتها

حتى لا يحدث انفجار تصعب السيطرة عليه وتدارك نتائجه ، خصوصا وأن الجميع بعد ساعات سوف يكونون وجها لوجه أمام وسائل الإعلام العالمى ، وبعدها داخل البيت الأبيض ومع "رابين" و"كلينتون" .

وجلس السيد "ياسر عرفات" طوال الرحلة وحده ، وأمسك بمصحف وراح لعدة ساعات يقرأ فيه متأثرا ومتهدجا . وحاول أن يغفو لبعض الوقت لكن النوم استعصى عليه .

وكان "أبو مازن" فى ناحية أخرى من الطائرة وقد فتح حقيبة أوراق وراح يقرأ ويكتب ويحاول أن يجعل ثقل الساعات وظلام الليل المحيط بالطائرة محتملين حتى تنتهى الرحلة .

وبالتأكيد فإن أفكار الجميع كانت تسبقهم إلى واشنطن مهما شغلوا أنفسهم فى الطائرة بمظاهر العبادة أو بالإعداد السياسى لما هو منتظر .

وكانت الصورة التى تنتظر المسافرين فى مطار واشنطن مزعجة وعصبية :

- كان الأعضاء الأصليون فى وفد واشنطن ، وبالذات "فيصل الحسينى" و"حنان عشراوى"، فى حالة غضب ، فقد فرض عليهم أن يحضروا الاحتفال رغم أن مشاعرهم الحقيقية كانت تدعوهم إلى الاعتذار عنه والنأى بأنفسهم عن أى شىء يجرى فيه .
- والأسوأ ، أن بعض الذين دعوا إلى الاحتفال من الفلسطينيين أرسلوا اعتذاراتهم عن عدم حضوره قبل أن يستأذنوا . والمشكلة أنه كان بينهم عدد من كبار الأثرياء الفلسطينيين الذين يعتمد عليهم "عرفات" . وكان هؤلاء الأثرياء قد غابوا لأن بينهم من فوجئ بالمعارضة العربية الواسعة للاتفاق . ولما كانت مصالح كثيرين من هؤلاء مرتبطة بالسعودية وغيرها من دول الخليج ، فإن هؤلاء الأثرياء فضلوا أن يختفوا من الصورة فى هذه الأجواء المضطربة .
- أضيف إلى ذلك أن طائرة الملك "الحسن" القادمة من تونس كانت مشحونة بأسباب التوتر . بل إن زحام المشاكل فى مشاعر وعقول القادمين من تونس كانت أكثر زحاما من عدد الحقائب التى تحملها الطائرة .

ثم تكشفت منذ اللحظات الأولى مشاكل عملية طرحتها مجموعة الإعداد لترتيبات واشنطن وبينها :

- هل سيذهب "ياسر عرفات" إلى الاحتفال بملابسه العسكرية ، ومن المفروض أن يكون الاحتفال مناسبة سلام ؟ وكان البروتوكول الأمريكى هو الذى أثار هذه

المشكلة . ولم يتصور "عرفات" نفسه واقفا على المنصة بالبيت الأبيض مرتديا ملابس مدنية ، وبدون الكوفية المشهورة على رأسه . وكان البروتوكول الأمريكى على استعداد - وإن على مضض - لتقبل "عرفات" فى زيه التقليدى العسكرى.

- لكن البروتوكول الأمريكى لم يكن مستعدا للمسدس . فلم يكن مسموحا لكائن من كان يدخل البيت الأبيض حاملا سلاحا . وكان بعض الفلسطينيين من الذين شاركوا فى إعداد الترتيبات قد حاولوا القفز فوق هذه المشكلة باقتراح قدموه لنظرائهم الأمريكيين وهو أن يقوم "عرفات" بتسليم مسدسه إلى الرئيس "كلينتون" نفسه إشارة على الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام . [ولعلهم فى ذلك كانوا متأثرين بما كان يفعله "عرفات" عندما يقابل الرئيس "جمال عبد الناصر" . فمنذ اللقاء الأول بين الاثنين سنة ١٩٦٧ ، كان "عرفات" ينزع مسدسه ويتركه على مائدة فى مدخل بيت "عبد الناصر" فى منشية البكرى ويقول إنه ليس من حق أى عربى أن يدخل إلى حضرة "جمال عبد الناصر" وهو يحمل سلاحا] - ولكن البروتوكول الأمريكى لم يكن مستعدا لسماع أى شىء عن الممارسات العربية .

- ثم قضى البروتوكول الأمريكى بأن هناك ترتيبا لإلقاء كلمات بعد التوقيع ، وأنه قد خصص لكل منهم مدة لا تزيد عن ثلاث دقائق يقول فيها ما يريد قوله ويبتعد عن الميكروفون . ومع أن الاتفاق على إلقاء كلمات كان قد أبلغ إلى تونس ، فإن زحام الحوادث وأجواء التوتر والفوضى أنست الجميع ضرورة إعداد كلمة "عرفات" مبكرا . وهكذا اكتشفت المجموعة الفلسطينية المكلفة بإعداد الترتيبات أنه ليس هناك نص جاهز للكلمة التى يفترض أن يلقيها "عرفات" مع كلمتى "كلينتون" و"رابين" .

- وكانت ترتيبات البروتوكول أيضا تقضى بأن "كلينتون" و"رابين" و"عرفات" سوف يتجمعون أولا فى قاعة استقبال مؤدية إلى حديقة البيت الأبيض حيث أقيمت منصة الاحتفال ورصت المقاعد للمدعوين إليه . وكان الهدف من هذا اللقاء أن "ينكسر الثلج" بين الأطراف . فـ"رابين" سوف يلقى "عرفات" لأول مرة ، وكذلك حال "كلينتون" و"كريستوفر" و"بيريز" . ونفس الشىء بالنسبة لـ"أبو مازن" . وربما تحسب الاثنان - وبالذات "عرفات" - للطريقة التى قد يتصرف بها "رابين" .

□

كانت الأولوية الملحة هى إعداد الكلمة التى يلقيها "عرفات" أثناء الاحتفال . وتوجه السيد "باسل عقل" (وهو سياسى ومفكر فلسطينى كفء ونشيط وصديق مقرب من "حسيب صباغ" ، إلى جانب علاقات وثيقة تربطه بكثيرين من الساسة الفلسطينيين والعرب فى المنطقة) ــ إلى الفندق الذى نزل فيه السيد "ياسر عرفات" وهدفه أن يطمئن على تجربة الخطاب الذى سيلقيه "عرفات" فى احتفال الغد (١٣ سبتمبر ١٩٩٣) وأنه لن يتسبب فى أية مشاكل .

ودون أن يدرى فإن "باسل عقل" كان فى طريقه إلى فخ . لقد راح يشرح لـ"ياسر عرفات" ما ظن ضروريا أن يحتويه خطابه فى الغد ، وقد راح يعرض تصوره للخطاب :

- "لا بد أن نتذكر أننا أمام جمهور معاد لنا بينما الطرف الإسرائيلى يسبح فى بحره" .
- "لقد اشتهر عنا "كثرة البكاء والندب على الحسن والحسين والشهداء والضحايا" ، وهذه المرة علينا أن نتكلم بلهجة مختلفة" .
- "يستحسن أن يكون كلامنا هذه المرة موجها للغرب ، وأن يكون بمثابة تقرير سياسة" .
- "من الأفضل أن نظهر غير مأخوذين بلحظة حماسة زائدة ، وإنما يبين من كلامنا أننا أمام خطوة أولى على طريق طويل" .
- "من الضرورى أن نركز على حاجتنا القوية إلى دعم اقتصادى من المجتمع الدولى ، ونبدى فى نفس الوقت أملنا فى مساعدات عربية" .
- "علينا أن نظهر استعدادنا لفتح صفحة جديدة فى العلاقات مع إسرائيل ، على شرط أن ندقق فى الألفاظ ، فلا نذكر مثلا كلمات مثل "التنسيق" أو "التعاون" ."

كان جناح "ياسر عرفات" مزدحما بعشرات من الداخلين أو الخارجين لأمر أو لآخر . وكان "عرفات" نفسه مشدودا إلى مسائل ألحت عليه فى تلك اللحظات وبدا نافد الصبر . ولما كان "باسل عقل" فى تقديره رجلا مقيما فى الغرب وعارفا بأساليب السياسة والتفكير فيه ، فقد طلب إليه أن يقوم بكتابة الخطاب ، وهو بذلك يزيح همًّا ثقيلا عن صدره . وأسقط فى يد "باسل عقل" ، وكان أقصى ما استطاع أن يطلبه أن يعطوه غرفة هادئة فى الفندق لا يقاطعه فيها أحد .

ولم تمض غير بضع دقائق حتى قوطع "باسل عقل" لأن حالة استنفار أعلنت فى جناح "أبو عمار" وفى كل الغرف التى كان يشغلها الوفد الفلسطينى . ذلك أن ملف الأوراق المعدة

للتوقيع أرسل إلى "عرفات" كما أرسل لكل رؤساء الوفود ، ولوحظ أن مقدمة النص ونهايته تحدثتا عن أن هذا الاتفاق جاء نتيجة للمفاوضات التى جرت مع الوفد الفلسطينى الملحق بالوفد الأردنى (طبقا لصيغة مدريد وصيغة واشنطن) . وغضب "ياسر عرفات" وثار ، وطلب من الجميع أن يتصلوا "بالأمريكان ، كريستوفر أو من هو أكبر منه ، لإخطارهم بأنه إذا لم يتعدل هذا النص ليظهر بوضوح أن هذا الاتفاق هو نتيجة لمفاوضات مع وفد فلسطينى يمثل منظمة التحرير ، وأن الاتفاق يعقد باسمها ، فإنه سوف يحزم حقائبه ويغادر واشنطن فورا مع بقية أعضاء الوفد الفلسطينى" .

[كان هذا تكرارا لموقف مشهور اتخذه الرئيس "السادات" فى "كامب دافيد" .]

ويبدو أن هذا النص لم يكن مطلبا إسرائيليا أو أمريكيا يراد التمسك به إلى آخر لحظة ، فرسائل الاعتراف المتبادل والصريح بين الطرفين كانت موجودة وموقعة من قبل هذا الإشكال، وفى الغالب أنه كان من نتيجة اختلاط أوراق قديمة بأوراق جديدة ، أو لعله كان مناورة عابرة فى اللحظة الأخيرة .

وانقضت ساعة من الوقت تقريبا والموقف معلق والتهديد بالانسحاب قائم . وكان نبأ هذا التهديد قد وصل مشوشا إلى الوفد الإسرائيلى عندما اتصل "دنيس روس" منسق المفاوضات ـ بعد مقابلة له مع الدكتورة "حنان عشراوى" واتصال تليفونى مع "فيصل الحسينى" ــ بـ "شيمون بيريز" يقول له إن هناك مشكلة فى الأوراق وإن هناك ملاحظات فلسطينية على عبارات التمهيد فى الاتفاق ، وإن "عرفات" يهدد بالانسحاب ــ وكان رد "بيريز" بأن مثل هذا التهديد لا يجدى ، ونحن لن نحزم حقائبنا لأننا لم نفتحها بعد .

وكان "رابين" بجوار "بيريز" عصبيا ، ولم يكن موضوع الاعتراض قد اتضح بتفاصيله بعد . وانفعل "رابين" وقال إنه على استعداد لأن يعلن فورا فشل الاتفاق ــ وانتهى الأمر ، وإنه إذا تغير شىء فى النص فإنه سوف يتصرف متحللا من أى ارتباطات قبلها طوال العمل على قناة أوسلو . وكان "بيريز" أذكى من رئيسه ، وكانت نصيحته هى الصبر "لأنه فى الغالب اعتراض شكلى لمجرد تسجيل المواقف ، وإن "عرفات لن يجازف بإفشال الاتفاق بعد أن قاده إلى واشنطن". وقال لـ"رابين" بلهجة خبيثة : "إن عرفات قضى طوال عمره السياسى يسعى ليدخل من أى باب إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولن يسمح لنفسه بتضييع هذه الفرصة وهو واقف أمام باب البيت الأبيض نفسه" .

وفى دقائق كانت تفصيلات المشكلة قد اتضحت ، ولم يكن هناك اعتراض من الجانب الإسرائيلى ــ فضلا عن الجانب الأمريكى ــ على تصحيح العبارة بحيث تشير إلى وفد فلسطينى يمثل منظمة التحرير وليس إلى وفد فلسطينى آخر .

□

كان الصخب الإعلامي شديدا في واشنطن يومها . وكان الفرح حقيقيا في أروقة "المؤسسة" (اليهودية الصهيونية في أمريكا) ، وكان فيها من اعتبر هذا اليوم يوما فاصلا ، لأن التوقيع على اتفاق إعلان المبادئ يعني قبل أي اعتبار آخر أن الشعب الفلسطيني قبل لأول مرة بدولة إسرائيل . وكانت الأهمية المعنوية لذلك لا تقدر ، فالغزو يستطيع أن يعطي للقوى فرصة يفرض فيها على الضعيف ما يشاء ، لكن الشرعية تظل مع الضعيف طالما ظل متمسكا بحقه حتى وإن كان الحق مسلوبا وإذا كانت السيادة منتهكة . لكنه حين يعترف الضحية ويضع توقيعه بالقبول ، فإن الأمر لا يصبح مسألة قوة ، وإنما يصبح مسألة اتفاق ـ وهذا يستكمل له القيمة المعنوية للشرعية ، وكان هذا بالضبط ما عبر عنه يومى ، وزير البيئة الإسرائيلي "يوسى ساريد" في مقال نشره في إسرائيل ونقله عنه عدد من صحف واشنطن . وقال "يوسى ساريد" في مقاله بالنص :

"إن إسرائيل اليوم خلقت من جديد ، فمنذ إنشائها لم تكن الدولة شرعية في المنطقة التي قامت فيها . وقد ظلت طوال الحقب الماضية قادرة على أن تغزو وتقمع وتنتصر ولكن بلا شرعية . واليوم ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ اكتسبت إسرائيل شرعية الاعتراف بها ."

كانت مواكب الوفود تتجه إلى شارع "بنسلفانيا" الذي يقع البيت الأبيض في نهايته. وكانت إجراءات الأمن شديدة ، فقد تجمعت في بعض الطرق الجانبية لشارع "بنسلفانيا" جماعات متفرقة من الشباب العربي تريد أن تتظاهر ضد الاتفاق ـ وحجزها البوليس . ومن المؤكد أنه حتى إذا سمح لها ، فإن أجواء الحماسة والاحتفال في شارع "بنسلفانيا" كانت كفيلة بأن تغطي على أية صيحات متفرقة .

ومرق موكب الوفد الإسرائيلي تتقدمه سيارة "رابين" بسرعة أولا . وبعد أربع دقائق كانت سيارات الوفد الفلسطيني تتقدمها سيارة "ياسر عرفات" على نفس الطريق .

وكان "كلينتون" ينتظر في الردهة الأمامية لمدخل البيت الأبيض . وقاد الرئيس الأمريكي بنفسه "رابين" إلى الغرفة المعدّة للانتظار قبل الظهور للاحتفال العلني أمام بقية الضيوف . وانتهز رئيس الوزراء الإسرائيلي الفرصة وقال للرئيس "كلينتون" إنه "يتمنى أن يكون مشهد الاحتفال الظاهر أمام الكاميرات وقورا ومتحفظا ، لأنه يخشى من التظاهرات المسرحية التي تقوم بها القيادات الفلسطينية أحيانا . وبالذات فهو لا يريد أي عناق أو قُبل أو حتى مصافحات hugging, kissing or handshakes .

وقال له "كلينتون" إنه "لا مفر من المصافحة بالأيدى ، فكيف يمكن أن نقول للناس إنكما صنعتما السلام معا لكنكما لا تستطيعان التصافح بالأيدى ؟" ورد "رابين" بأنه يتفهم ذلك ، ولكنه يرجو أن تجرى المصافحة داخل الصالون عندما يلتقى هو و"عرفات" لأول مرة لأنه يحاذر إزاء ردة الفعل فى إسرائيل .

وكانت سيارة "عرفات" على وشك أن تصل إلى مدخل البيت الأبيض ، وتوجه "كلينتون" لاستقباله . وعندما دخل "عرفات" كان هو المبادر بمد يده ، ووجه كلامه إلى "رابين" قائلا : "إننى أريد أن أقيم معك سلام الشجعان ، وأنت وأنا قادران على ذلك ، فنحن نستطيع أن نتحدث كجندى إلى جندى soldier to soldier" . ولم يبد على "رابين" أنه كان سعيدا بهذه العبارة ، فقد ظهر عليه الامتعاض كما يحدث له فى كثير من المرات ، ثم التفت إلى الرئيس "كلينتون" وقال له بصوت قصده أن يكون هامسا مع أن نبرته ارتفعت بقصد أو بغير قصد ، وسُمِعَ يقول لـ"كلينتون" : "هل سمعت هذا يا سيادة الرئيس ؟ .. جندى لجندى ." وراح يحرك رأسه متمايلا برقبته من ناحية إلى أخرى.

ولم يطل الحديث فى صالون الانتظار ، فقد كان المدعوون إلى الحفل انتظموا فى مقاعدهم ، كما أن المسئولين من كل الوفود اتخذوا أماكن الصدارة التى خصصت لهم فى مواجهة المنصة . ثم بدأ المشهد الذى كان إعداده المسرحى تكرارا لاحتفال "كامب دافيد" مع اختلاف الظروف . فمشهد "كامب دافيد" كان جديدا فى نوعه ، وكان أبطاله نجوما من الدرجة الأولى ، خصوصا "أنور السادات" و"مناحم بيجن" . وأما المشهد الثانى فقد كان معادا ، ولم تكن هناك جاذبية نجوم من الدرجة الأولى .(٣)

وكان المشهد الذى استوقف كل العدسات هو مشهد المصافحة الشهيرة حين مد "ياسر عرفات" يده ، وتردد "رابين" لومضة من الوقت لأنه ظن أن المصافحة تمت وانتهى أمرها عندما كان الاثنان مع الرئيس "كلينتون" فى صالون الانتظار . وشرح "ياسر عرفات" للرئيس "كلينتون" عندما عادا مرة أخرى بعد انتهاء المراسم أنه قصد أن تكون المصافحة علنية ، ثم ترجم للرئيس الأمريكى المثل المصرى الشائع الذى يقول : "يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة" .

---

(٣) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من اتفاق إعلان المبادئ الذى تم توقيعه فى واشنطن يوم ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ ـــ تحت رقم (٢٠) .



الجنرال شاهاك

" لم أكن أتصور أن أحوالهم قد وصلت إلى هذه الدرجة " .

("إسحاق رابين" بعد توقيع اتفاق أوسلو)

كانت المشاكل الكامنة والتى جرى كبتها وحبسها بكل وسيلة لكى يمر احتفال التوقيع بسلام ــ تتلوى وتتقلص داخل جدران الصمت والصبر التى انحشرت فيها . وفور انتهاء الاحتفال بدأت الشحنات الحبيسة تتسرب .

● لم ينتظر كثيرون من الفلسطينيين طويلا خصوصا من أعضاء وفد واشنطن وأصدقائهم ــ لكى يظهروا عدم رضاهم عن الخطاب الذى ألقاه "عرفات" ، فقد أحسوا أن الخطاب كان جافا وتقريريا إلى أبعد حد ،فى حين أن خطاب "رابين" كان على العكس من ذلك مؤثرا وحارا . وكان تعبير أحدهم "أن الضحية شرحت مأساتها بأسلوب الموظفين الحكوميين ، وأما الجلاد فقد تحدث عن نفسه بأسلوب الشهداء" . وقال آخر إن "هناك خطأ حدث ، فخطاب رابين كان فى الأصل مكتوبا لعرفات وخطاب عرفات كان لا بد أن يكون خطاب رابين" . ثم قال ثالث "إن رابين تحدث عن المآسى الإنسانية التى عاشها الشعب الإسرائيلى ، فى حين أن عرفات بدا وكأنه يعتذر نيابة عن الشعب الفلسطينى وعن نفسه " . وكانت الملاحظة التى رددها الجميع هى أن عرفات وقع كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية Chairman of the PLO وليس كرئيس لدولة فلسطين President of Palestine كما تم إعلانه فى تونس سنة ١٩٨٨ . وكان التعليق أنه بذلك تنازل عن الدولة الفلسطينية فى لحظة التوقيع . وفى الحقيقة فإن ذلك كان تعسفا يتجاوز حدود الممكن فى ذلك الوقت .

وكانت مثل هذه الدبابيس مألوفة فى العلاقات الفلسطينية ــ الفلسطينية ، لكنها فى أعقاب الاحتفال تحولت من دبابيس إلى سهام .

● وفى مساء يوم توقيع الاتفاق كـان "رابـين" يحضـر عشــاء أقامـه تكريمـا لـه مجلس الرؤساء اليهود الأمريكيين في واشنطن . ووقـف يتكلم ، وكان كلامه موجها إلى الـرأى العـام الإسرائيلى وإلى الجيـش الإسرائيلي بالتحديد . وركـز فى حديثه على عـدة نقـاط :

١ ـ إنـه ليـس هنـاك انسـحاب مــن أراض ، ولكــن هنــاك إعــادة توزيــع للقــوات redisposition .

٢ ـ إن إسرائيل سوف تظــل مسئولة عـن الأمــن فـى كـل المنـاطق . وخــص بـالذكر تحديدا كل المعابر والشواطئ والطرق الرئيسية . (وكـان معنـى ذلـك أن أى سـلطة ذاتية فلسطينية سوف تكون جيبـا محاصرا من الـبر والبحر لا تصــل إلى أحـد ولا يصـل إليها أحـد إلا بواسطة إذن إسرائيلى .)

٣ ـ وركز "رابين" بأكثر من اللازم على أن المفاوض الإسرائيلى حرص فـى الاتفـاق علـى توضيح أنه يتعامل مع نــاس people وليـس مـع أرض territory . (وكـانت تلك عودة مرة أخرى إلى نظرية فصـل السـكان عـن الأرض ، ممـا يـترتب عليـه أن تكون للسكان بعض الحقوق دون أن يكون على الأرض ظـل من السيـادة لهـم .)

٤ ـ بل إن "رابين" تجاوز فيما هو ليس من اختصاصه فتطرق فى حديثه إلى المســاعدات التى يمكن أن يقدمها المجتمع الدولـى إلى الفلســطينيين ، قـائلا إنهـا "لـن تدفــع مباشرة إلى منظمة التحرير وإلا فإنها سوف تصرفها كما صرفـت ما كــان لديهـا مـن أموال عربيـة" . وأخـذه الحمـاس فأشـار إلى نـوع المصروفات التى "تتـورط" فيهــا المنظمـة من وجهة نظره فقال : "إنهـم يصرفـون على تسعـين سفـارة" . ثـم علــق متسائلا : "سفارات ؟ لمـن ؟ وباسم مـن ؟"

وبدوره كان "عرفات" تحت ضغـوط أكثر من الضغــوط التـى استجاب لهـا "رابـين" فـى خطابه أمام عشاء الرؤساء اليهود . وقد أدلى بتصريحـات متفائلـة للإعلامـين العربـى والعـالمى حرص فيها على أن يقـول أكثر من مـرة إن "هذا الاتفاق هو بدايـة دولـة فلسـطينية مستقلــة وعاصمتها القـدس" .

وكانت شكاوى الطرفـين من التصريحات المتلاحقة تصب فى النهاية على مكتب "وارين كريستوفر" الذى استعاد كفاءته كمحـام فــى التوفيـق والتحكيـم ، واقـترح أن يقبــل الطرفـان بفترة سماح كل منهما للآخر بحيث يستطيع أن يعطـى جرعـة "للاستهلاك المحلـى" تسـاعد الـرأى العام لديه على قبـول الاتفاق .

□

وعندما عاد "عرفات" إلى تونس كان مقر المنظمة فى حالة فوران ، وكانت الروايات والحكايات والقصص تملأ المكاتب والبيوت وبعضها صحيح ومعظمها من صنع علاقات إنسانية حكمتها الضرورات لسنين طويلة . والآن وبعد أن زالت الضرورات ، بدأت مرحلة من الانفلات .

وأحس "أبو مازن" بالخطر وتوجه إلى المغرب وطلب إلى الملك "الحسن" أن يتدارك الأمور بنفوذه وخبرته ، وأن يستعمل مكانته فى واشنطن ، ومع اليهود ، لإنجاح الاتفاقية بحيث تعطى مردودا سريعا أمام الشعب الفلسطينى ، وإلا فإن الأمور قد تنفجر من الداخل . ثم عاد "أبو مازن" إلى بيته فى تونس ، وراح أصدقاؤه يشيعون أنه قرر الاعتزال لأنه غير راض عن إدارة الأمور من قبل الاتفاقية ، ويشعر أنها سوف تزداد سوءا بعدها . ولهذا فإنه يريد أن يختصر الطريق ويبتعد عن الساحة .

وحاولت الدوائر القريبة من "عرفات" ـ متطوعة أو مكلفة ـ أن تلفت الانتباه إلى مجال آخر ، وبدأ الكلام عن تشكيل وزارة فلسطينية . وبدأ تداول أسماء المرشحين بالفعل لمناصب الحكومة الفلسطينية الجديدة . وتردد اسم السيد "منيب المصرى" رئيسا للوزراء ، وتردد اسم "أبو الزعيم" ("عطا الله عطا الله") وزيرا للداخلية ، وتردد اسم "محمد زهدى النشاشيبى" وزيرا للمالية ، وتزايدت الشائعة بشأنه حينما بعث به "عرفات" ممثلا للمنظمة فى مؤتمر الدول المستعدة لتقديم مساعدات ، وهو المؤتمر الذى انعقد عقب الاتفاق مباشرة فى بروكسل عاصمة السوق الأوروبية .

وكان مجرد الحديث عن وزارات ووزراء نوعا من التزيد لا يبرره واقع الحال . ومع ذلك فقد أحدثت هذه الترشيحات وغيرها صخبا شديدا فى تونس . وضاعف من أثر الصخب أن السيد "فيصل الحسينى" قال للقريبين منه إنه ينوى أن يعتكف ولا يعمل . وانفعل "ياسر عرفات" فى إحدى المرات وقال بصوت عال "إننى رمز الشرعية ، وليذهب من يذهب ، فالشرعية باقية" .

ثم تعقدت الأمور أكثر لأن موقف السعودية بدا شديد التحفظ فى تقديم مساعدات . وقامت الصحافة الفلسطينية بشن حملات إعلامية على السعودية . وتضايق بعض الفلسطينيين الأقوياء والأثرياء وضمنهم "حسيب صباغ" الذى بعث لـ"عرفات" يقول له : "كيف تسمح بمهاجمة السعودية وأنت محاصر ماليا وكوادرك تكاد تموت من الجوع ؟" وأبدى "عرفات" تنصله من الحملة ، ووعد بالتدخل لإيقافها .

□

كان الهاجس الذى يلح على "عرفات" فى ذلك الوقت هو الخوف من أن يحدث اقتتال فلسطينى ــ فلسطينى ، وأن يتحول الخلاف بين منظمة التحرير وبين تنظيم "فتح" إلى مذبحة دموية . وقد بذل ــ للإنصاف ــ جهدا كبيرا فى تجنب هذا الاحتمال ، وقال أمام مستشاريه إنه من أنصار إعطاء كل الفصائل فرصة لاستيعاب الاتفاقية ــ لكنه اضطر مع هذا التسامح فى التصرفات أن يرفع نبرة حديثه عن إيجابيات الاتفاقية . ومضى ينسب إلى الاتفاقية أشياء لم يرد نص عليها فى البنود . وتزايد حديثه عن الدولة الفلسطينية المستقلة وعن عاصمتها فى القدس ، وعن عودة النازحين من حرب ١٩٦٧ . وأضاف إلى ذلك فى بعض المرات حديثا عن عودة اللاجئين من سنة ١٩٤٨ . كما اتسع الكلام عن تشكيل الوزارة واختيار الوزراء وتعيين السفراء ، بما فى ذلك أن "عرفات" عرض على "حنان عشراوى" أن تدخل فى "التشكيلة" وزيرة للإعلام ، وعندما اعتذرت عرض عليها سفارة واشنطن . وكانت "حنان عشراوى" تعرف بتجربتها من حقائق الواقع ما يعزز موقفها بالاعتذار ، فضلا عن أنها كانت تشعر بالكثير من المرارة بسبب الطريقة التى عومل بها وفد واشنطن ، وبسبب ما اعتبرته حملة لتشويه صورتها مقصودة وموجهة .

وأعلنت "حنان عشراوى" أنها سوف تعود إلى مدينتها "رام الله" ، وهى تفكر أن تنشئ هناك مركزا مستقلا "للديمقراطية وحقوق الإنسان" . وعاد "فيصل الحسينى" حائرا مترددا يقول فى أسى : "كنت أظن أن وفدنا فى مدريد وواشنطن هو الوجه الجديد للقضية الفلسطينية ، ولكنى اكتشفت أننا كنا مجرد قناع من البلاستيك وضعه الوجه القديم مضطرا لكى يتخفى وراءه لفترة من الزمن"! وكان الدكتور "حيدر عبد الشافى" قد عاد هو الآخر إلى غزة ، كما عاد آخرون من واشنطن ومن غيرها . وبدأت بعض التفاصيل مما يجرى خارج الأرض المحتلة يتسرب وينساب داخلها .

وبحركة الفعل ورد الفعل فإن ذلك أدى إلى زيادة نغمة التفاؤل والتجاوز فى تصريحات "عرفات" لأن تلك كانت وسيلته الوحيدة لمقاومة أجواء المرارة التى أعقبت صخب المهرجان وألوانه وأضواءه .

ولم يكن "رابين" قادرا على تحمل كل التصريحات المتفائلة الصادرة من تونس والتى تتجاوب أصداؤها فى وسائل الإعلام العربى وتصل إلى إسرائيل وتنشرها بعض صحف أحزاب المعارضة ، وبينها الليكود .

واعتبر "رابين" أن فترة السماح التى اقترحها "كريستوفر" لـ"الاستهلاك المحلى" قد انتهت ، وأن الكلام والتصرفات الآن يجب أن يكونا بحساب . ولم يكن "رابين" قادرا على فهم مأزق "عرفات" ومخاوفه من حدوث فتنة فلسطينية تؤدى إلى الاقتتال وتهدد بحرب أهلية .

ومع بداية شهر أكتوبر كان "رابين" يبعث برسائله إلى القاهرة يطلب إليها أن تحاول التدخل مع "عرفات" ليكون أكثر حرصا more restrained لأن كلامه عن الدولة الفلسطينية المستقلة ، وعن القدس ، وعن عودة النازحين واللاجئين ــ تجاوز كل الحدود ، وحزب الليكود يستغل أقواله ويهاجم الاتفاقية ، وهو يخشى أنه سوف يجد نفسه مضطرا إلى أن "يضع الإبرة فى البالون" فينفجر !

كذلك قال "رابين" أيضا فى رسائله إلى القاهرة إنه يلاحظ أن "عرفات" مأخوذ بالكامل فى عملية تجميل الاتفاقية ، وغارق فى السياسات الداخلية internal politics الخاصة بها دون أن يبدأ التفكير فى الخطوات العملية التى تترتب على التوقيع فى واشنطن ، وكما لو أن هذا التوقيع كان بداية ونهاية ، وإن الوقت قد حان لكى يجرى بحث حقيقى فيما يترتب على توقيع الاتفاقية من إجراءات وخطوات .

وفى أوائل شهر أكتوبر ١٩٩٣ بعث "إسحاق رابين" إلى الرئيس "مبارك" يرجوه أن يرتب اجتماعا بينه وبين "عرفات" ، وأن يكون الاجتماع فى القاهرة ليكون الرئيس "مبارك" شاهدا عليه . وفى اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى[٤] قال "رابين" إنه "كان يعرف طوال الوقت ، ومن التقارير التى تعرض عليه ، أن المنظمة كانت واجهة facade تختفى وراءها أسباب كثيرة للضعف وليس للقوة ، ولكنه لم يكن يتصور أن الأمور وصلت إلى هذه الدرجة . فهؤلاء الناس ــ طبقا لتعبيره ــ ليست لديهم خطط ولا أجهزة ولا أوراق قادرة على تدعيم الاتفاق والعمل على إنجاحه ." وكان تعليق "بيريز" فى جلسة مجلس الوزراء هو قوله : "إن ذلك قد لا يكون أمرا سيئا إلى هذه الدرجة . فعدم وجود أجهزة أو استعداد كاف لدى المنظمة يعطى الفرصة "لنا" لكى نضع جدول الأولويات والأعمال" . وكان تعليق "رابين" أثناء جلسة مجلس الوزراء قوله إنه "يريد أن يتأكد أن عرفات نفسه يعرف الحقائق لأنها ستكون كارثة إذا صدق هو ما يقوله فى دعايته . وإن بين أهدافه من طلب وساطة الرئيس مبارك لعقد لقاء بينه وبين عرفات أن يتأكد من أن الزعيم الفلسطينى ليست لديه أية أوهام عما تقول به الاتفاقية" .

---

(٤) طبقا لرواية وزير إسرائيلى زار القاهرة فى تلك الأيام وروى لأحد المسئولين المصريين طرفا من التفاصيل ــ وكان ذلك فى معرض رجائه إلى أصدقائه المصريين أن يضغطوا على "عرفات" لكى يتحرك بسرعة ويستغل توقيع الاتفاقية ويدعمها بإجراءات عملية وتنفيذية .

وتم الاجتماع فى القاهرة فعلا بين "عرفات" و"رابين" يوم ٦ أكتوبر ١٩٩٣ ، وباشتراك الرئيس "حسنى مبارك" . وكانت وزارة الخارجية المصرية تحاول أن تساعد . وقياسا على سابقة ما جرى بعد زيارة القدس ـ كان هناك اقتراح مصرى للأطراف بأن يشكلوا فيما بينهم لجنتين : إحداهما سياسية لعملية نقل بعض الاختصاصات المدنية من سلطة الاحتلال الإسرائيلى إلى الإدارة الفلسطينية ، والثانية للقضايا الأمنية . ومن هنا يبدأ الإعداد فى تفاصيل الترتيبات التى تكفل تنفيذ الاتفاق عمليا . وكان كل من "عرفات" و"رابين" حريصا على أن يكون اجتماع اللجنتين فى مصر ، فتكون القاهرة مقر اللجنة السياسية ، وتكون طابا مقر لجنة الشئون الأمنية .

وأضيفت إلى اللجنتين واحدة ثالثة للشئون الاقتصادية تقرر أن يكون مقرها فى باريس.

وبدا أن اتفاقية غزة ـ أريحا قادرة على الحياة !

□

وظهرت بعض الدلائل المشجعة . فقد حدث أن أحد صقور "فتح" قام بقتل مستوطن إسرائيلى فى قطاع غزة . وطلب "رابين" أن يقوم "عرفات" شخصيا بإدانة هذا العمل فى بيان يصدر باسمه . ولأول وهلة بدا ذلك محرجا . وكان رأى "رابين" أن صدور مثل هذا البيان بالإدانة ، وعن "عرفات" شخصيا ، سوف يكون معيارا لجدية التزامه بالسلام ولإثبات حسن النية . وبعد مشاورات اقتنع "عرفات" بأن ذلك قد يكون ضروريا ، لكنه ربط استجابته بشرط واحد وهو أنه إذا قام مستوطن إسرائيلى بقتل مواطن فلسطينى فإنه يكون على "رابين" أن يفعل نفس الشىء . وكان "عرفات" يتوقع أن يحدث عمل من هذا النوع . وجرى إبلاغ "رابين" بأن "عرفات" سوف يصدر بيان الإدانة المطلوب ، كما أخطر بالشرط المعلق به . ووافق "رابين" ، وكان تعليق "ياسر عرفات": "إن رابين رجل عسكرى ، وهو يفهمنى وأنا أفهمه وأثق أنه سيفى بتعهده" .

وصدر بيان الإدانة عن "عرفات" ، وعلق "رابين" عليه بأن "عرفات" أثبت بذلك أنه "سياسى شجاع" . وحدث المنتظر بعد أيام ، فقد قام مستوطن إسرائيلى بقتل مواطن فلسطينى ، وأصدر "رابين" من جانبه بيانا باستنكار الحادث . وعلق "عرفات" بدوره لمن حوله فى تونس قائلا : "قلت لكم إنه رجل عسكرى يحترم كلمته" .

لكن النيات الطيبة لم يقدّر لها أن تعيش طويلا . فقد بدأت المشاكل تظهر وبالذات فى أعمال اللجنة الأمنية فى طابا . وكانت المشكلة التى طغت على كل ما عداها فى ذلك

الوقت هى مشكلة المعابر ـ وهى مشكلة شديدة الحساسية : الفلسطينيون يريدون أن تكون لهم السلطة فيها، والإسرائيليون مصرون على العكس ، ولكل منهما وجهة نظر لا يستطيع التنازل عنها بسهولة :

- الطرف الفلسطينى يرى أنها حيوية بالنسبة له لأن نقاط العبور إلى منطقة الحكم الذاتى فى غزة وفى أريحا هى أول ما يواجه أى زائر أجنبى ، أو أى عائد فلسطينى. وبالتالى ، فإن مظاهر وجود فلسطينى واضح لا بد أن تكون أول ما يطالع النظر . وإذا كان الزائر أو العائد لغزة أو لأريحا سوف يرى أول ما يرى جنودا إسرائيليين وإجراءات أمن إسرائيلية وأعلاما إسرائيلية ، فسوف يترسخ شعوره بأنه لم يحدث جديد ، وإن الاحتلال ما زال قائما ، والكلام عن سلطة وطنية فلسطينية قابلة أن تتطور إلى دولة هو وهم أو سراب ، ولو بخداع البصر وبحسن نية .
- والطرف الإسرائيلى ورئيس وفده فى طابا هو الجنرال "أمنون شاهاك" (نائب رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى وقتها) يرى أن المعابر ليست مجرد مدخل إلى مناطق الحكم الذاتى ، وإنما هى منافذ إلى إسرائيل وراء هذه المناطق. وإذن ، فالمسألة تتعلق بأمن إسرائيل ، وإزاءه فإن أية مظاهر مطلوبة لتجميل الصورة من وجهة نظر السلطة الوطنية ليس لها مجال أو مكان .

وحين حاول المفاوض الفلسطينى فى طابا أن يشير إلى طرف من المناقشات التى جرت فى أوسلو ، قاطعه الجنرال "شاهاك" قائلا له بطريقة حاسمة : "إن هذا أمر يتعلق بأمن إسرائيل ، وجيش الدفاع الإسرائيلى هو الذى يتحمل هذه المسئولية ، وليس فى اختصاص غيره أن يتحدث عن الأمن نيابة عنه ، وإذا سمعتم كلاما مخالفا لذلك من أى شخص ، فعليكم أن تعرفوا على الفور أن هذا الشخص يتجاوز حدود اختصاصاته ."

وعندما وصلت التقارير الأولى عن هذه التعقيدات فى طابا ، كانت التحليلات التى سادت داخل القيادة الفلسطينية فى تونس قد توصلت إلى وضع نظرية كاملة حول ظروف صنع القرار الإسرائيلى . وكان مؤدى النظرية :

- إن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية هى صاحبة القول الفصل فى القرار الإسرائيلى .
- إن "رابين" هو رجل هذه المؤسسة رغم أنه خرج منها وعمل بالسياسة ووصل إلى رئاسة الوزراء .
- إن "رابين" لا يستطيع أن يقف أمام المؤسسة العسكرية ، بل إن المؤسسة العسكرية هى التى تستطيع أن تملى عليه .

● إن "رابـين" فيمـا يبـدو يواجـه الآن موقفـا مشـابها للموقـف الـذى واجهـه الجـنرال "ديجول" فى فرنسا بعد أن اتخذ قـراره بالاعـتراف باسـتقلال الجزائـر . فـى ذلـك الوقت تصدى له الجيش الفرنسى فى الجزائر ووصل إلى درجة الانقلاب عليه ليعرقل اسـتقلال الجزائـر ، بصـرف النظـر عمـا يريـد "ديجـول" أو لا يريـد . والجيـش الإسرائيلى الآن – على طريقة جيش الجنرال "شال" فى الجزائر – يريد أن يملـى على "رابين" سياسة تختلف عن مفهوم ونصوص اتفـاق أوسلـو .

والخلاصة التى جـرى التوصـل إليهـا علـى القمـة الفلسـطينية فـى تونـس هـى أنـه مـن الضرورى مساعدة "رابين" ليستطيع الوقوف فى وجه المؤسسة العسكرية الإسـرائيلية . وكـان السيد "ياسر عرفات" بين المقتنعين بهذه النظرية ، وقد راح يتحدث فى مجالسه عـن ضـرورة مساعدة "رابين" وإنقاذه من حصار الجنرالات .

٤

جـــاك نيريـــــا

" أصحــاب العيــون الزرقــاء لا يحبوننــا
لأننــا عــرب "

(الكولونيـل "جــاك نيريـا" مستشــار "رابــين"
العسكرى لسفير فلسطين فى القاهرة)

وظهرت الحاجة إلى قناة سرية أخرى من باطن قنوات سرية سابقة . لكن القناة الجديدة كان يجب أن تكون بين "رابين" و"عرفات" مباشرة .

كان "عرفات" مبكرا قد اعتمد الدكتور "أحمد الطيبى" مستشارا له فى شئون الأرض المحتلة . وكان الدكتور "الطيبى" شخصية واسعة الاتصالات ، وكان فى وقت من الأوقات صديقا للرئيس الإسرائيلى "عزرا وايزمان" بل وكان شريكا له فى وكالة لاستيراد الأدوات والمعدات الطبية حينما كان "وايزمان" بعيدا عن العمل السياسى فى فترة تحوله عن حزب العمل إلى حزب الليكود . وعندما عاد "وايزمان" إلى العمل السياسى ظهر الدكتور "الطيبى" معه مستشارا خاصا له فى شئون الفلسطينيين . وبهذه الصفة اتصل بمنظمة التحرير ثم أصبح مستشارا رسميا للسيد "ياسر عرفات" ، ومع الوقت أصبح شبه سفير مقيم يمثل رئيس منظمة التحرير وينقل الرسائل باسمه إلى ساسة إسرائيل ، وبينهم فى ذلك الوقت الوزير "حاييم رامون" وهو فى نفس الوقت موضع ثقة "رابين" ومن أكثر الوزراء تفهما لأفكار رئيسه وسياساته .

وبعث الدكتور "الطيبى" فى أوائل شهر نوفمبر رسالة إلى السيد "ياسر عرفات" يقول له فيها إن "رابين يريد أن يرسل إليه فى تونس مستشاره العسكرى الكولونيل "جاك نيريا" لأن رابين يريد خدمة خاصة من عرفات تتعلق بجثث ثلاثة جنود إسرائيليين قتلوا فى لبنان ولا يعرف أحد أين دفنوا ، وقد فشلت كل المحاولات التى بذلتها القوات الإسرائيلية فى جنوب لبنان ، وجيش لبنان الجنوبى المتعاون معها ، فى العثور عليها . وجثث الجنود

ـ كما لا بد يعرف الرئيس عرفات ــ مسألة مهمة فى إسرائيل ، كما أن الحرص عليها شديد بحكم تأثيرها على معنويات أفراد القوات الإسرائيلية ."

وعندما تلقى "ياسر عرفات" هذه الرسالة كان انطباعه السريع أنه لا يريد أن يدخل فى هذا الموضوع لأنه يعرف طرفا من عملية البحث عن هذه الجثث الثلاثة ، ويعرف أن الإسرائيليين وسّطوا الأمريكيين فى مرة من المرات مع الرئيس "الأسد" لكى يساعد فى العثور عليها .

وعاد الدكتور "الطيبى" ، الذى أحس بتردد "عرفات" وتأخره فى الرد ، يلح على رئيس منظمة التحرير ، وقد أضاف إلى رسالته الأولى ثلاث نصائح :

ــ "إن رابين يريد أن يفتح قناة مباشرة معك عن طريق مستشاره العسكرى ، فلا تغلقها بالتردد" .

ــ "إن رابين يستحق أن يشعر أنك تجامله شخصيا على الأقل بإبداء الاهتمام" .

ــ "إنه لا يعقل أن يكون هدف رابين من إرسال مستشاره العسكرى إليك هو مجرد طلب مساعدتك فى البحث عن ثلاث جثث . وأغلب الظن أنه يريد أن يفتح معك بعض الموضوعات المتعثرة فى الاجتماعات الرسمية للجان المشتركة فى طابا والقاهرة" .

وبعث "عرفات" بإشارة يقول فيها إنه ينتظر الكولونيل "جاك نيريا" فى تونس .

□

كان الكولونيل "جاك نيريا" شخصية ذات طابع خاص فى مكتب "رابين" . فهو مولود فى لبنان وعاش فيه إلى سن الثامنة عشرة من عمره ، وذهب إلى إسرائيل وأكمل تعليمه هناك ، والتحق بالجيش وترقى فى صفوفه . وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة ويعرف الكثير عن العمل العربى وعن القضية الفلسطينية . وساعده أكثر أنه قضى مدة خدمة لأكثر من سنتين فى جنوب لبنان ، وكان ضمن القوات الإسرائيلية التى دخلت بيروت سنة ١٩٨٢ . وفى منتصف الثمانينات عين ملحقا عسكريا لإسرائيل فى باريس . وعندما أصبح "رابين" وزيرا للدفاع فى حكومة "شامير" ، ثم عندما رأس الوزارة بعد ذلك ـ استدعى "جاك نيريا" ليكون مستشارا فى مكتبه العسكرى ، ومختصا بالشئون العربية فى هذا المكتب .

كان "جاك نيريا" قد لفت الأنظار مبكرا ، وكان "ستيف كوهين" (المؤسسة اليهودية الصهيونية فى الولايات المتحدة) أول من نبه منظمة التحرير إلى دوره المتنامى . فقد قال لمن كان على اتصال بهم من قيادات المنظمة إنه "يرجوهم أن يهتموا بضابط من أصول لبنانية ، فرنسى الثقافة ، اسمه جاك نيريا . فرابين معجب به ، وإذا جاء رابين كرئيس للوزراء فإن جاك نيريا سوف يكون فى مكتبه دون جدال ."

وظهر "جاك نيريا" على المسرح لأول مرة فى الساعات الأخيرة فى أوسلو كملحق للوفد الإسرائيلى . ثم ظهر بعد ذلك كعضو فى لجنة الارتباط الفلسطينية ـ الإسرائيلية مع "أبو مازن" . وكان الكولونيل "نيريا" يعتبر نفسه يهوديا شرقيا بحكم مولده فى لبنان ، لكنه أيضا كان غربيا بملامح وجهه وبلون بشرته الأبيض ، وبإقامته لفترة من الزمن فى باريس . لكنه كان دائما يتحدث مع الفلسطينيين كيهودى شرقى ، ويروى لهم أن والده من مالطا وأن والدته من أسرة يهودية من لبنان ، وأنه عاش فى بيروت حتى سنة ١٩٦٨ - وخرج وعمره ثمانى عشرة سنة . وبالتالى ، فقد كان يقدم نفسه على أنه يهودى عربى ، أو هكذا كان يقول دائما ويتصرف أحيانا . وروى أكثر من مرة لمعارفه الفلسطينيين أنه اقتنع بالسلام أيام الغزو الإسرائيلى فى لبنان فى لحظة شاهد فيها صبيا فلسطينيا فى التاسعة من عمره يمسك بمدفع "كلاشنيكوف" ويقف فى مواجهة دبابة إسرائيلية . ووصل فى بعض الأحيان إلى تصنيف نفسه مع اليهود الشرقيين إلى درجة أنه كان يتحدث عن اليهود الغربيين ـ "الإشكينازى" ـ ويصفهم بأنهم "أصحاب العيون الزرقاء" .

وتقدم "جاك نيريا" فى مكتب "رابين" حتى أصبح رؤساؤه فى مكتب رئيس الوزراء ، وبينهم "أبير شيفات" المدير الرئيسى لمكتب "رابين" ، يتضايقون من حظوته عند رئيسهم . بل إن "شيمون بيريز" أبدى فى مرة من المرات ضيقه من الكولونيل "جاك نيريا" ، لكن "نيريا" أخذ المسألة ببساطة وضحك قائلا ذات مرة لأحد أصدقائه الفلسطينيين : "إن أصحاب العيون الزرقاء لا يحبوننا لأننا عرب ، لكن ذلك لا يهمنى طالما أن الديك الكبير (يقصد "رابين") راض عنى" .

وكان "عرفات" يعرف ما فيه الكفاية عن "جاك نيريا" قبل أن يقابله .

□

وصل "جاك نيريا" إلى تونس ومعه مسئول آخر من مكتب "رابين" هو "إيلاد إيموس" . وبدأ الاثنان مقابلتهما مع رئيس منظمة التحرير بأن رئيس الوزراء "رابين" يطلب منه جميلا

شخصيا وهو أن يساعده فى العثور على ثلاث جثث مفقودة لجنود إسـرائيليين . ورد "ياسـر عرفات" بأنه يعـرف هذا الموضوع ، وأن الرئيس "حافظ الأسـد" توسط فى هذا الأمر بطلب من السفير "جرجيان" (السفير الأمريكى فى دمشق) . كما أن السفير الأمريكـى فـى صنعـاء رجـا الرئيس اليمنى "على عبد ا الله صالح" بشأن نفس القضية . ولكـن جهـود الرئيسـين السـورى واليمنى لم تصل إلى نتيجة لأن الجثث الثلاثة فيمـا يظهـر دفنـت فـى مكـان مـا فـى معسـكر "اليرموك" ، وكان الذى يعرف مكان دفنها من القيادات الفلسـطينية اثنـين : "أبـو جهـاد" و"أبو إيـاد" ـــ وكلاهما قتل . ووعـد "ياسـر عرفات" بأنه ، مع كل رغبتـه فـى الاسـتجابة لطلب "رابين" ، يخشى أن المشكلة "تائهة" ، لكنه على أى حال سوف يبـذل كـل جهـده مـرة أخـرى .

وانتقل "جاك نيريا" و"إيلاد إيموس" من موضوع الجثث إلى الموضوعات الحيـة السـاخنة فى المحادثات الفلسطينيـة ـــ الإسرائيلية فى طابـا والقاهـرة . وقـالا "إنهما يريدان أن يسمعا من رئيس منظمة التحرير مباشرة آراءه فى القضايا التى وقـع عليها الخلاف فى المحادثات ، وهى بالتحديد المعابر ـــ وأمن مستوطنات غـزة ـــ ومسـاحة أريحـا ـــ ومشكلة تأمـين الطـرق العرضية بين المستعمرات ."

والتقط "ياسر عرفات" قضية المعابر وبـدأ بها . وقال بتأثر : "هل يقصد رابين إهانتى؟" ثم اسـتطرد شـارحا وجهـة نظـره فـى أن ظهـور الإسـرائيليين عنـد المعـابر كفيـل بإعطـاء أى فلسطينى أو أى زائـر أجنبى الانطباع بأن اتفاق أوسلـو حبر على ورق ، وأن سلطة الاحتلال الإسرائيلى ما زالت حاكمة "من الباب إلى السطوح" .

وحـاول المبعوثـان الإسـرائيليان إقنـاع رئيـس منظمـة التحريـر بـأن أمـن جيـش الدفـاع الإسرائيلى ومسئولية هذا الجيش عن أمـن إسرائيل تحتمان تغيـير النظرة إلى مسـألة المعـابر . ورد "عرفات" بحدة واضحة : "إن كـل النـاس سـوف يقولـون إن مـا نفعلـه كلـه تمثيـل فـى تمثيل". وعاد الكولونيل "نيريا" ورفيقه "إيموس" إلى شرح أهمية المعـابر بالنسـبة إلى "جيـش الدفاع" ، وأن "رابين" يصعب عليه جدا أن يعطى تنازلا فى هـذه النقطـة . وقـال "عرفـات" إنه فهم نقلا عن "بيريز" أن موضـوع المعـابر قـابل للمناقشـة . وقاطعـه "نيريـا" قـائلا : "إن موضوع المعابر من اختصاص جيش الدفاع ، والوحيد الذى يقـرر فى شـأنه هـو رابـين وليـس بيريـز" . وتضايق رئيس منظمة التحرير ، وطبقا لرواية "جاك نيريـا" ـ كما تسربت فيما بعد ـــ فإن "عرفات" ضـرب بيده على المائدة وقال : " O.K. ـــ إذا كان رابين لا يسـتطيع أن يعطينى المعابر فليأخذ كل شىء ، بما فـى ذلـك غـزة وأريحـا" . وحـاول "نيريـا" تهدئـة خواطر "عرفات" الذى انتقل من التهديد إلى محاولة التأثير المعنوى . وتوالـت مشـاهد اللقـاء حتى نهايته ، ويبدو أن لحظات انفعال عنيف جـرت فيه واختلفت بشأنها الروايات .

□

عـاد الكولونيل "جاك نيريا" إلى إسرائيل ، وقـــدم تقريـرا إلى "رابـين" عـن مقابلتـه مـع "عرفات" . ويبدو أن "نيريا" وصـف حالـة "عرفـات" النفسـية أثنـاء بعـض مشـاهد اللقـاء بينهما في تونس بما يعني أن رئيس منظمة التحرير كان في حالـة نفسـية سيئـة ، وأنه فـي لحظة من اللحظات توجه إلى "نيريا" قائلا له : "أرجوكم أن تسـاعدوني ... لا بـد أن تفعلـوا شيئا ... إن الوقت يمر ونحن في مأزق" . وطبقا لـ"نيريا" فإن "عرفات" كان يتصبب عرقا . وبصرف النظر عن صدق التقارير أو مبالغتها فإن التقريـــر الـذى كتبـه "نيريـا" عـن لقائـه مـع "عرفات" ووصف فيه حالته النفسية تسرب إلى جريـدة "يديعـوت أهـارونوت" الإسـرائيلية ، ونقلته عنها بعض الصحف الأوروبية وبينها جريدة "الأوبزرفـر" البريطانيـة .

وحدثت مضاعفات في نفس الاتجاه وفي نفس الوقت . فإن الوزير الإسرائيلي "بنيـامين بن إليعازر" وزير الإسكان في حكومة "رابين" ذهـب إلى تونس وقابل "عرفات" ، وعـــاد هـو الآخر يقول إنه وجد رئيس منظمة التحريـر منفعـلا ، وإن "عرفـــات" أمسـك بكتفـه ــ طبقـا لروايته التي نشرت هي الأخرى فيما بعد في الصحف الإسرائيلية والأوروبية ، وبينها جريدة "الأوبزرفر" مرة أخرى ــ وقال له بنبرة متهدجة : "يجب أن تفعلـوا شيئا . لا بد أن تعطـوا بعض التنازلات لشعـبي . إننا مرتبطون معا بقدر مشترك ، وإذا لم تقـم الحكومة الإسـرائيلية بعمل شـيء ، فإن كل شـيء سوف ينهـار ."

وروى "بن إليعازر" أن "عرفات" كان يرتعش وهو يتكلـم ، وأن الدموع كانت في عينيـه.

وكان يمكن التغاضي عن هذه التسـريبات فـي الصحـف ، وإن كـان "جـاك نيريـا" قـد تضايق منها واعتبر أن تسريبها تدبـير متعمـد لإفشـال مهمته ، لأن التسريب كان معناه نسف إمكانية الثقـــة والتعـامل بينـه وبـين رئيـس منظمـة التحريـــر بعـد ذلـك . وكـانت مسـئولية التسريب في الغالب راجعة إلى مكتب "شيمون بيريز" الذى اتهـــم بأنـه أراد أن يفســد فتــح قناة اتصال مباشرة بين "رابين" و"عرفـات" ، وعن غير طريقـه .

ثم زاد الطـين بلـة حـين قـرأ "رابـين" تصريحـا لــ "عرفـات" بأنـه لم يعـد يسـتطيع الانتظار أكثر مما انتظـر لحـل المشاكل المعلقـة ، وإنه سوف يصارح الـرأى العام العـالمي بكـل شـيء حتى وإن أدى ذلك إلى اعتبـار اتفاق أوسلـو وكأنه لم يكـن .

تضايق "رابـين" من هـذا التصريـح ، لكـن رده عليـه كـان شديـد الفظاظـة وخاليـا مـن مقتضيات اللياقـة . وأدلـى بتصريح يـرد فيه علـى "عرفـات" قـال فيـه إنـه "معـنى بأمـن

إسرائيل وليس معنيا بطول فترة الانتظار التى يشكو منها رئيس منظمة التحرير ، وإنه يستطيع أن يتصبب عرقا كما يشاء" .

وعندما أضيف تصريح "رابين" الجديد عن "التصبب عرقا" إلى التسريبات السابقة فى الصحف الإسرائيلية والأوروبية ، أحس "عرفات" أنه لا بد أن يرد وبقسوة ، فقال فى تصريح جديد إنه "ثابت فى مكانه ومالك لأعصابه ولا يتصبب عرقا ، وإن رابين هو الذى يستطيع أن يتصبب عرقا إلى الأبد" . واشتعلت الفتنة بين رئيس منظمة التحرير وبين رئيس وزراء إسرائيل وأصبح الموقف بينهما لا يحتمل .

وكان "رابين" هو الذى عاد فاقترح على الرئيس "مبارك" أن يجمع الاثنين مرة أخرى "عنده" فى القاهرة لأن الأمور باتت تقتضى المصارحة الكاملة . وقام الرئيس "مبارك" بتوجيه دعوة إلى الاثنين للقاء فى القاهرة معه تحدد له يوم ١٢ ديسمبر ١٩٩٣ .

□

وقبل أن يجىء إلى القاهرة قام السيد "ياسر عرفات" باستدعاء كل من السفير الأمريكى والسفير الروسى لمقابلته فى مقر إقامته فى تونس ، وطلب إليهما أن تقوم واشنطن وموسكو بالضغط على "رابين" قبل أن يلتقيه فى القاهرة . ومن دواعى الاستغراب أن رد السفيرين كان متطابقا تقريبا وكأنهما على اتفاق سابق لأن كليهما عرض لنفس النقاط :

١ ــ إن الفلسطينيين والإسرائيليين توصلوا إلى اتفاق أوسلو وحدهم ، وعليهم أن يفسروا أى خلاف فى نصوصه بنفس الأسلوب (أى وحدهم أيضا) .

٢ ــ إن ظهور الخلافات بعد الاتفاق كان أمرا متوقعا ، وهو طبيعى بالنسبة لأى اتفاق بين طرفين . والحل الطبيعى أن يواصل الطرفان حوارهما حتى يسويا الخلافات بينهما ، وليس للآخرين أن يتدخلوا فى ذلك .

٣ ــ إنه إذا أريد تدخل الدولتين بوصفهما القديم كراعيتين للمفاوضات ، فلا بد من تذكر أن مفاوضات أوسلو جرت فى غيبة الاثنتين . وعلى أى حال فإن اهتمام الدولتين الكبيرتين بالسلام قائم ومستمر بصرف النظر عن التفاوض وأساليبه . ولكن هذا الاهتمام والتدخل المطلوبين لدوريهما فى تسهيل التفاوض ، مرهونان بشرط واحد ؛ هو أن يجىء الطلب من الطرفين المتفاوضين (أى من منظمة التحرير والحكومة الإسرائيلية) .

ووصـل "عرفـات" إلى القاهـرة وهو يقـدر أن العامل الوحيد الباقـى الذى يمكن أن يعتمـد عليه فى تليـين موقـف "رابـين" هو الـدور الذى يمكن أن تقـوم به مصـر .

وفى القاهـرة التقـى الرئيس "مبـارك" مع "رابـين" علـى انفـراد أولا لكـى يقنعـه بـأن إنجاح اتفاق أوسلـو يقتضـى أخـذا وعطـاء ، وإلا تعطلت الأمـور . وعندمـا جـاء "عرفـات" قام "مبارك" بنفس الشـىء فى اجتماع تمهيـدى ثنائى مع رئيس منظمة التحريـر .

وعندما جـاء موعـد الاجتماع المشترك بحضور الطرفين عـرض الرئيس "مبـارك" للمشاكل المعلقـة ولضـرورة الاتفـاق ، ولأهميـة إزالـة الحساسـيات التـى نشـأت بعـد التسـريبات والتصريحات التى عكرت علاقـات الاثنين ببعضهما . وخـتم كلامـه بقولـه إنـه "يقـترح أن يعقـد الرجـلان جلسـة ثنائيـة وحدهمـا لا يحضرهـا غيرهمـا حتـى يتصارحـا فـى الجـانب الشخصـى من الخـلاف ، وبعـد ذلك يمكـن عقـد جلسـة عامـة واسـعة يشـارك فيهـا الوفـد المصـرى" .

ولم يكن "رابـين" متحمسا لهذا الاجتماع الثنائى بينـه وبين "عرفـات" ، وقـال لأحـد مستشارى الرئيس "مبـارك" هامسا : "المشكلـة أن الرجـل يتصـرف كرئيـس دولـة" .

وفى النهاية ، وبعد ساعة ونصف الساعة ، دخـل "رابين" و"عرفات" إلى قاعـة أغلـق عليهمـا بابهـا . وهنـا تختلـف الروايـات بشـأن مـا حـدث ، فـ"رابين" لـه روايـة ، و"عرفات" لـه روايـة .

- كانت رواية "رابين" أن "عرفات" لم يكن لديه جديـد يقدمه لـه ، وكـل مـا سمعـه منه مرارا وتكرارا هو نداءات عن ضـرورة إنجاح اتفاق أوسلـو . ورد عليـه "رابـين" أكثر من مـرة قائلا لـه : "إننى لا أستطيع أن أسـاوم علـى أمـن إسـرائيل" . ولمـدة ساعة ونصف الساعة كانت المناقشة تدور وتعود إلى نفس النقطـة ، و"عرفات" مهموم بالإيحاء الذى يمكن أن تعطيه ترتيبات المعابر لأى داخـل أو خارج من مناطق الحكم الذاتـى ، و"رابين" يكـرر مرة بعد أخرى وبنفـس الصـوت الغليـظ : "إننـا لم نعـط السيطرة على حدودنا لأحـد" . ولخـص "رابـين" تجربـة هـذه السـاعة ونصـف الساعة مع "عرفـات" بقولـه : "إن الرجل حالـم" "the man is a dreamer" .
- وأما روايـة "عرفـات" ـ طبقا لملاحظـات الوفـد المرافق لـه ـ فقد لخصتهـا كلمـة واحدة وكتبها "عرفات" على ورقة صغيرة ناولها بسرعة لـ "ياسر عبد ربـه" ، وهـى كلمة "شعيرة". كانت الكلمة رسالة بالرمز اتفق عليها "ياسر عبد ربـه" مـع "ياسـر عرفات" ـ فكلمة "قمحة" كانت تعنـى أن الاجتمـاع كـان طيبا ، وكلمـة "شـعيرة" كانت تعنى أن الاجتماع لم يكن ناجحا .

وهكذا فإن رواية كل من "عرفات" و"رابين" تبين أن الاجتماع الثنائى بينهما كان صعبا، وفى كل الأحوال لم يكن ناجحا .

□

بعد انتهاء الاجتماع الثنائى كان الرئيس "مبارك" قد رتب لاجتماع عام للوفدين يجرى فيه تلخيص ما تم الاتفاق عليه . ولم ينتظر "رابين" وإنما بدأ بعد افتتاح الجلسة فقال موجها كلامه إلى "عرفات" : "بإذن الرئيس مبارك فإننى أرجو أن تتركنى أتحدث قبلك". وراح "رابين" يتحدث وهو طوال الوقت يركز نظره على السيد "ياسر عرفات" ، وقد قال : "إننى ـ أنت وأنا ـ جلسنا معا لساعة ونصف الساعة ، وهذا أطول مما قدرت . فقد تصورت أن بعض المشاكل بيننا يمكن إنهاؤها فى نصف ساعة ، ولكنى اكتشفت أن هناك قراءتين لاتفاق أوسلو : قراءة فلسطينية وقراءة إسرائيلية . ونحن أمام تفسيرات مختلفة لقضايا كنت أظنها واضحة فى الاتفاق ، وتمنيت لو أننى أجريت معك جلسة عمل قبل التوقيع فى أوسلو لأن هناك مسائل كان لا بد أن تكون واضحة أمامك ." وهز "رابين" رأسه والتفت ناحية الرئيس "مبارك" وقال : "هناك يا سيدى الرئيس موضوعات لا أستطيع أن أساوم فيها لأنها تتعلق بأمن إسرائيل" .

وتدخل السيد "ياسر عرفات" فى الحديث موجها كلامه لـ"رابين" وقائلا : "لا تنس يا سيادة رئيس الوزراء أنك أنت الذى تضع يدك على أرضى" . ولعدة ثوان كان "رابين" يهز رأسه ، ثم قال وهو ينظر إلى السيد "ياسر عرفات" : "لا داعى لمثل هذا الكلام .. نحن هنا طرفان متفاوضان ، وهذا كل شىء" . والتفت "رابين" إلى ناحية الرئيس "مبارك" وواصل كلامه قائلا : "إن فجوة الخلاف بيننا وبين الوفد الفلسطينى واسعة ، وأنا أعرف أن أصدقاءنا المصريين كانوا يتمنون أن نصل بسرعة إلى توقيع اتفاق تنفيذى لإعلان أوسلو ـ واليوم إذا أمكن . لكنى أرى الآن أن ذلك مستحيل . ولأنى أعرف أن الرئيس مبارك لا يريد صدمة للرأى العام العربى أو عندنا ، أو لدى الرأى العام العالمى ، فقد اتفقنا على أن نعطى أنفسنا مهلة عشرة أيام نعود بعدها إلى الاجتماع ، هنا إذا كان الرئيس مبارك مستعدا لتكرار دعوته ." واستطرد "رابين" : "إن اللجان المشتركة سوف تستمر فى عملها ، فليس من الضرورى تعطيلها حتى نعود مرة أخرى للاجتماع" .

وكان من المقرر أن ينعقد مؤتمر صحفى مشترك للثلاثة ، ولكن "رابين" استأذن الرئيس "مبارك" فى أن يكون لكل وفد الحق فى أن يتحدث إلى الإعلام منفردا .

وروى "شيمون بيريز" وزير الخارجية أنه شعر بالحرج فى جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلى التى انعقدت بعد عودة "رابين" إلى القدس . ففى بداية الجلسة وجه "رابين" كلامه إلى "بيريز" وسأله : "هل تأكدتم فى أوسلو أن الوفد الفلسطينى قرأ الأوراق المطروحة أمامه كلها وتفهم حقائق ما وضع توقيعه عليه ؟"

□

كان السيد "ياسر عرفات" يعتقد أن الكولونيل "نيريا" هو المسئول عن كل ما جرى . فتقريره "المغرض والمشوه" أحدث أضرارا كبيرة ، فهو أولا أعطى صورة غير مقبولة لحالته (حالة السيد "ياسر عرفات") النفسية . وهو ثانيا بهذه الصورة دفع "رابين" إلى الظن بأن موقف "عرفات" أضعف مما هو حقيقة . وثالثا ، إن تقريره أحدث إشكالا لا لزوم له فى وقت حرج بالنسبة لمسار المفاوضات .

وقرر "عرفات" أنه لا بد من معاقبة "جاك نيريا" . ووقع العقاب فعلا بعد أسابيع فى أوسلو أثناء اجتماع جرى ترتيبه بين "شيمون بيريز" و"ياسر عبد ربه" . ففى هذا الاجتماع بدأ "ياسر عبد ربه" ـ طبقا لتعليمات تلقاها من "ياسر عرفات" ـ يسأل "بيريز" قائلا : "إننا فى حيرة من أمرنا فى التفاوض معكم ، ولم نعد نعرف من هو المسئول ، فقد تعاملنا معك على أنك المسئول ، ولكن رابين قام بإبلاغنا أنه هو المسئول . وبصراحة فنحن نريدكم أن تحلوا هذا الإشكال فيما بينكم لأننا الآن فى مأزق لا نعرف فيه مع من نتعامل."

وبدا الضيق على وجه "بيريز" ، وسأل "ياسر عبد ربه" بنبرة يشيع فيها الغضب : "من الذى قال لكم هذا الكلام ؟" ورد "ياسر عبد ربه" قائلا : "إن الرئيس عرفات استلم رسالة من رابين تطلب منه عدم الاهتمام باللقاءات معك ، أو بالنتائج التى نتوصل إليها بالاتفاق نتيجة ذلك" . وضاقت عينا "بيريز" وسأل : "كيف وصلت هذه الرسالة ، ومن الذى أبلغها ؟" ورد "ياسر عبد ربه" بأنه الكولونيل "جاك نيريا" . وتمالك "بيريز" نفسه وقال إنه سوف يبحث الأمر مع "رابين" وسوف يتلقى الفلسطينيون ردا حول هذا السؤال .

ودفع "نيريا" الثمن ، فقد عاد "بيريز" إلى إسرائيل وواجه "رابين" فى مكتبه بأنه يسعى من وراء ظهره ويقلل قيمته أمام الفلسطينيين undermine me . وبدا أن "بيريز" على استعداد لتحويل هذا الموضوع إلى أزمة كبيرة فى إطار العداء المستحكم بينه وبين "رابين" . ولم ينتظر "رابين" أن تتفجر الأزمة ، وإنما دعا "جاك نيريا" إلى مكتبه

و"بيريز" لا يزال موجودا فيه ، وسأله مباشرة : "هل قلت لعرفات ألا يهتم بكلام بيريز؟" وأدرك "جاك نيريا" بسرعة خلفية الأزمة ، ورد قائلا : "هذا الكلام ليس دقيقا. لقد قلت للسيد ياسر عرفات عندما تلاقينا فى تونس إن الأمور العسكرية فى اختصاص رئيس الوزراء ، وإن الأمور السياسية فى اختصاص السيد شيمون بيريز باعتباره وزير الخارجية ." وعلى الفور قام "رابين" بإبلاغ "نيريا" أنه موقوف عن العمل فى مكتبه ومنقول منه إلى مكتب آخر حتى يجرى تحقيق معه يستوضح الوقائع ويصل فيها إلى نتيجة تقدم إليه . وألحق الكولونيل "جاك نيريا" فعلا بمكتب مساعد رئيس الأركان الجنرال "أمنون شاهاك" .

وكان السيد "ياسر عرفات" راضيا عن النتيجة ، وقال لمن حوله : "يتصورون أنهم يلعبون بى ؟ .. أنا ألعب بهم وبأجدادهم ."

٥

بـــاريــــــــــس

" سيــدات الأمــــن الإسرائيلــــى جميـــلا
وذلك يبعــد الشـبهـــة عنهـن "

(مستشار "رابين" للسفير الفلسطينى)

ومـرت عشـرة أيـام وأكـثر . وكان المفروض أن يلتقـى "رابين" و"عرفـات" مرة أخرى القاهـرة طبقا لما اتفقا عليه . ولكن ترتيب اجتماع ثـان بـدا متعثرا لأن "رابـين" كان يريـ تكون الأمور واضحة ومحددة قبل أن يلتقى الاثنان مرة أخرى . وكان الحل أن تتمكن الله المشتركة من إحـراز تقـــدم فى الموضوعات المعقـدة التى ما زال أمرها معلقـا بغـير تفاهـم.

واستقـر الـرأى على عقـد اجتماع سـرى فى باريـس بعيدا عـــن الأضـواء لإجـراء منا بالعمـق تجـرب فـك العقـد المستعصية . وكان رئيس الوفـــد الإسـرائيلى إلى اجتمـاع بار السرى الجنرال "أمنون شاهـاك" ، وكانت المفاجأة أن الكولونيل "جـاك نيريـا" حضـــر بوصفـه ملحقا بمكتبه ، وكان المستشار القانونى لمكتب رئيس الوزراء "يوئيل سنجـر" حـ عضـوا فى الوفـد . وكان رئيس الجانب الفلسطينى هو الدكتور "نبيل شعـث" ، وانضـم ليوم واحد كل من السيد "ياسر عبد ربـه" والسفير "سعيد كمـال" .

كان الاجتماع السـرى فى باريس من اقتراح السيد "ياسر عرفـات" ، وهدفـه اسـتـ الوصول إلى حـل للمشاكل المعلقة بين الطرفين حتى يمكن التوصـل إلى اتفاق تنفيذى وتفص وكامل لإعـلان المبادئ الذى أعلـن فى أوسلـو . وكان "عرفات" فى ذلك مدفوعا باعتبار

- خشيته من اشتـداد المعارضتين الفلسطينية والعربيـة لإعـلان أوسلـو . بل إنـه كان يخشـى من اشتـداد المعارضة الإسرائيلية التى وجـدت فى تعـثر الاتفـاق فر لمحاصرة حكومـة حـزب العمـل .

• قلقه من احتمال أن يفتر اهتمام الرأى العام العالمى بأمر السلام الإسرائيلى ــ الفلسطينى ومن ثم تتأثر المساعدات الاقتصادية وتتبخر الوعود المقطوعة بها .

كان قلق "ياسر عرفات" محسوسا فى أوساط القيادة فى تونس لدرجة أن "أبو مازن" سأل "عرفات" بصراحة : "هل تريد أن تخلع من هذا الاتفاق ؟" وكان رد "عرفات" هو "إن وقت الخلع قد فات" .

فى باريس يوم ٤ يناير ١٩٩٤ أعد الوفد الفلسطينى خطة عمل ، حاول أن يتفادى فيها كل أسباب التعطيل التى ظهرت فى طابا . حيث ضاعت أسابيع طويلة فى مناقشة نظرية الأمن والانسحاب ــ أيهما يحدث أولا ؟ .. الأمن أولا ثم الانسحاب ، أو الانسحاب أولا ثم يجيء الدور على الأمن ؟

فى باريس توصل الوفد الفلسطينى إلى أن المناقشات التى كانت فى طابا شردت عن الطريق . فالواضح أن الطرف الإسرائيلى "لديه عقدة أمن مستعصية" ! وبالتالى فإنه لا بأس من جعل الموضوعين يسيران جنبا إلى جنب بالتوازى وبعلاقة موصولة بينهما . كان لقاء باريس السرى فى فندق "الكريون" . ورأى "سعيد كمال" أن يلتقى مع "جاك نيريا" فى جلسة تمهيدية يستطلع فيها التصورات الإسرائيلية ، ومن ثم يرتب الوفد الفلسطينى نفسه على نقط الاقتراب عند بدء الاجتماع الموسع . وبالفعل توجها إلى الصالون التاريخى الصغير على يمين الداخل إلى فندق "الكريون" ، وهو ما زال على حاله بنقوشه وأثاثه كما كان فى عهد صاحب القصر الدوق "كريون" ــ لم يتغير فيه شيء . ولاحظ "سعيد كمال" أن بعض الموائد مزدحمة بسيدات جميلات تجمعن وقت تناول الشاى ، واقترح على "جاك نيريا" أن يذهبا إلى مكان آخر أقل ازدحاما ليتحدثا بعيدا عن الأنظار والأسماع . وقال له "جاك نيريا" : "لا تقلق ، كل هؤلاء السيدات الجميلات اللواتى تراهن حولك عناصر أمن إسرائيلى" . وفتح "سعيد كمال" فمه دهشة ، ورد الكولونيل "نيريا" على دهشته قائلا له : "كنت تتصور أن نساء من عناصر الأمن لا بد أن يكن قبيحات . الأمن الإسرائيلى لا يقع فى هذا الخطأ ، فلو كن قبيحات لأدرك كل الناس أنهن عناصر أمن ، لكنهن بهذا الجمال يبعدن شبهة الأمن عنهن" . كان "سعيد كمال" لا يزال مندهشا . وواصل "جاك نيريا" تعريفه أكثر بمنطق الأمن الإسرائيلى ، وقال له : "اسمع ، فرنسا لا تستطيع أن تحمينا ، ونحن لا نسلم أمن ممثلينا لأحد من غير الإسرائيليين . إن كل مفاوض إسرائيلى كلف دولة إسرائيل كثيرا حتى أصبح مستعدا لعمله . بعض رجالنا تكلفوا على الدولة تعليما وتدريبا وإعدادا ملايين الدولارات لكى يكونوا جاهزين لمسئوليتهم ، ولهذا لا نستطيع أن نفرط فيهم بسهولة ."

وتراضى الوفدان الفلسطينى والإسرائيلى فى بداية الاجتماع الموسع فى أحد صالونات الدور الثانى من فندق "الكريون" ـ على تقسيم المسائل الخلافية المطروحة عليهم :

- قسم يضم المسائل التى تم الاتفاق عليها .
- وقسم يضم المسائل التى يرفضها الإسرائيليون .
- وقسم ثالث يضم المسائل المفتوحة للمناقشة .

ورئى البدء بالمسائل المرفوضة من الإسرائيليين لمواجهة العقبات المستعصية وجها لوجه ، وكان عددها يقارب خمس عشرة مسألة ، وبينها " السيطرة على المعابر ـ الأعلام التى ترفع فوق المعابر ـ مساحة أريحا ـ الخ ...

وبدأ الدكتور "نبيل شعث" يعرض لهذه القضايا بمقدمة سياسية عامة ، وأفاض فى ذلك بأسلوب حماسى . وكان الجنرال "شاهاك" يستمع إليه ساكتا ، وحينما انتهى قال له "شاهاك" وهو يمثل بكفيه حركة التصفيق : "برافو ، إنك أعطيتنا درسا عظيما فى السياسة ، لكنى لست شيمون بيريز I am not Shimon Peres " . ورد عليه "نبيل شعث" قائلا له : "أنا سياسى وأنت عسكرى ولكنى أعرف أن العسكريين الإسرائيليين لديهم ثقافة سياسية جيدة" . ورد "شاهاك" بأن ما قاله الدكتور "شعث" مجاملة كريمة ، لكنه رجل عسكرى وقد جاء إلى هنا ليناقش قضايا أمنية .

وبُدئ بطرح موضوع رفع الأعلام على المعابر . وكان "ياسر عرفات" يحسب الحساب كله لمعبر أريحا ، فقد كان يهمه أن يكون علم فلسطين أول شىء يلمحه القادمون من الأردن إلى الضفة الغربية ، وكان يرى أهمية نفسية كبيرة لذلك . ودارت مناقشة طويلة تمسك فيها الوفد الإسرائيلى بأن رفع العلم الفلسطينى على المدخل من ناحية الأردن يجعله يبدو وكأنه علامة حدود ، وإذا كان كذلك فقضية الحدود كلها مؤجلة إلى المرحلة الثانية من المفاوضات بنص إعلان أوسلو . وتدخل "زينجر" فعرض أنه يستطيع تلخيص الخلاف بأن مبدأ رفع العلم الفلسطينى فى مكان ما من نقاط العبور مقبول ، ولكن المشكلة هى أين بالضبط يرفع العلم ؟ واقترح عدم التوقف طويلا أمام التفصيلات لأن القضايا الأخرى ما زالت تنتظر .

وكانت النقطة الخلافية الثانية التى طرحت للبحث هى إصرار منظمة التحرير على أن يكون هناك جواز سفر فلسطينى . وكان الإسرائيليون قد رفضوا هذا الاقتراح من قبل . والآن جرى عرض اقتراح حل وسط بالعودة إلى التقليد الذى كان متبعا فى فلسطين تحت الاحتلال البريطانى ، وهو أن يكتب على صدر الجواز عنوان "جواز سفر فلسطينى" وتحته "تحت الانتداب البريطانى" . والاقتراح الآن ، وبإجراء التماثل ، يسمح بأن يكتب

على غلاف الجواز الجديد المقترح نفس العبارة : "جواز سفر فلسطيني" ، وعلى أول ورقة بعد غلاف الجواز تكون هناك إشارة إلى إسرائيل بخط صغير . وتولى الجنرال "شاهاك" مناقشة الاقتراح ، وقال متسائلا : "لماذا تريدون جواز سفر ولا تكتفون بتذكرة سفر كما هو الاقتراح الإسرائيلي ؟ والسؤال المهم هنا هو هل أنتم تطلبون سهولة التنقل أو أنكم تبحثون عن جنسية ؟" ورد "نبيل شعث" بقوله "نبحث عن الاثنين" . وعلق الجنرال "شاهاك" : "نحن نوافق على أن تحملوا بطاقة هوية ممغنطة ، ولا بد أن تتذكروا أنكم إذا صنعتم لأنفسكم جواز سفر مستقلا فإن ذلك سوف يضايق الأردن التي أعطت لمئات الآلاف من الفلسطينيين جوازات سفر أردنية" . وتبين أن المسألة معقدة ، وأبدى الوفد الفلسطيني استعداده للاتصال بحكومة الأردن لكي توافق على إصدار جواز سفر فلسطيني ، ويكون سؤال حكومة الأردن عن طريق جامعة الدول العربية . ووجه "سعيد كمال" سؤالا مباشرا لـ"شاهاك" : "هل تقبل مبدأ إصدار جوازات سفر فلسطينية لو جاءك خطاب من الجامعة العربية بذلك ، والأردن ضمن أعضائها ؟" وكان الجنرال "شاهاك" يهز رأسه بما يعني عدم اقتناعه . وقال له "سعيد كمال" : "يا أخي ، اترك الاعتراض يجيء من الجانب العربي ولا تعترض أنت" . (وكان رأى "سعيد كمال" أن حكومة الأردن سوف تعترض على هذا الأمر ، لأن إصدار جواز سفر فلسطيني يخلق بلبلة شديدة للفلسطينيين في المملكة الأردنية . وحتى من وجهة النظر الفلسطينية فإن الأردن إذا وافق على هذا الاقتراح ، سوف يبدأ في اعتبار مئات الألوف من الفلسطينيين في الأردن أجانب لأنهم يحملون جوازات سفر غير أردنية .)

وكان رأى "شاهاك" بعد ذلك أن يكتفي الفلسطينيون بوثيقة سفر laissez passer ، مضيفا أن "إسرائيل تضمن اعترافا عالميا بوثيقة السفر الفلسطينية" . واستطرد بثقة : "وفي المستقبل فإننا نستطيع أن نرتب للفلسطينيين أن يدخلوا الولايات المتحدة بغير تأشيرة" . وسأله "سعيد كمال" : "هل الإسرائيليون الآن يدخلون أمريكا بغير تأشيرة ؟" ورد "شاهاك" بنفس الثقة : "لا ، ولكن ذلك متاح لنا لو أردنا" .

وكانت النقطة التالية تتعلق بمنطقة "المواصي" في غزة ، وهي أغنى منطقة زراعية في القطاع ومساحتها عشرون كيلومتر ، ثم إنها مطلة على البحر . وتم الاتفاق بشأنها دون عناء كبير ، فالمنطقة للفلسطينيين من ناحية الزراعة ، لكنها خاضعة لرقابة أمنية إسرائيلية مشتركة بسبب وقوعها على البحر .

وجاء الدور على مشكلة مساحة أريحا . وكانت إسرائيل قبل اجتماع باريس تحصرها في ٢٧ كيلومتر مربع . وقال "شاهاك" بسرعة إنهم يوافقون على زيادة المساحة إلى ٥٥ كيلومتر مربع ، لكنهم يفضلون أن يعلن ذلك على مستوى القمة الإسرائيلية ــ الفلسطينية عند توقيع الاتفاق .

□

كانت القاهرة وواشنطن تكثفان الضغط من أجل إنهاء المسائل المعلقة ، وإحراز تقدم يمكن معه إعداد اتفاق جاهز للتوقيع ، وإلا فإن السلام الإسرائيلى ـ الفلسطينى يظل مكشوفا ومعرضا لنكسة مفاجئة .

والتقى "شيمون بيريز" و"ياسر عرفات" لقاء مصادفات فى غرناطة فى أسبانيا ، لكن لقاء المصادفات كان اجتماعا لليونسكو ترددت فى قاعاته قصائد عن فوائد السلام بدأها "فردريك مايور" مدير اليونسكو . وكان اجتماع اليونسكو تحت عنوان "مستقبل السلام" ، لكن سكرتير عام المنظمة الدولية ترك تفاؤله يجرّه إلى بعيد ، فإذا هو فى اللحظة الأخيرة يغير عنوان المؤتمر إلى "السلام اليوم" . كان ذلك سبقا للحوادث ، فلم يتمكن رئيس منظمة التحرير أو وزير خارجية إسرائيل من تبادل حديث يؤدى إلى شيء له قيمة .

كانت النذر تشير إلى بوادر عواصف تتجمع :

- استطلاعات الرأى العام فى الأرض المحتلة تظهر انخفاض التأييد لاتفاق أوسلو من ٦٨٪ فى سبتمبر إلى ٤٤٪ فى ديسمبر .
- و"رابين" يكثر من تصريحاته ملقيا اللوم فى كل ما تواجهه المفاوضات من مصاعب على "ياسر عرفات" .
- وتوجه الرئيس "كلينتون" للقاء مع الرئيس "الأسد" فى جنيف ـ ولم ينجح اللقاء ، وصرح الرئيس "الأسد" قبل أن يغادر جنيف بأن "سوريا تريد سلاما حقيقيا يضمن أمن كل الأطراف ، وليس أمنها فقط" .
- وقام ١٣٠٠٠ من المستوطنين فى الجولان بتظاهرة ضخمة ضد لقاء "كلينتون" و"الأسد" .
- ووقعت بادرة شؤم إذ توفى "جوهان جورجن هولست" وزير الخارجية النرويجى الذى جرى الاتفاق فى أوسلو تحت رعايته .

ثم أعقب ذلك مؤتمر اقتصادى جرى الترتيب له فى مدينة "دافوس" السويسرية ، والدعوة موجهة فيه إلى عدد من الشخصيات السياسية والاقتصادية البارزة فى العالم . وطرحت فكرة بأن يعقد كل من "عرفات" و"بيريز" لقاء على هامش "دافوس" لأن كليهما مدعو إلى المؤتمر الاقتصادى فيها .

كانت القضايا الخلافية قد حصرت وتحددت ، وكان هناك ظن بأن ما هو باق منها يمكن حسمه فى لقاء "عرفات" و"بيريز" فى "دافوس" . وظل "عرفات" إلى آخر لحظة مترددا فى السفر ، وقال فى اجتماع للقيادة : "بصراحة أنا أريد أن أتعامل مع صاحب قرار، وصاحب القرار هو رابين بمسئوليته عن الجيش" . ونبهه أحد الجالسين معه من أعضاء القيادة الفلسطينية قائلا له : "يا أبو عمار ، لا داعى لأن نتدخل فى شئونهم وإلا فنحن سوف ندفع ثمن خلافهم" . ورد "عرفات" بأنه سوف يذهب إلى "دافوس" وإن كان ما زال يفضل أن يتعامل مع "رابين" كعسكرى لعسكرى "لأننا نفهم بعضنا" .

وفى "دافوس" فى أواخر يناير ١٩٩٤ التقى "عرفات" مع "بيريز" وهو يأمل أن يتوصل معه إلى تسوية بقية المسائل المعلقة ، ويصدر معه إعلانا مشتركا من "دافوس" بالتوصل إلى اتفاق يجرى توقيعه بعد ذلك فى القاهرة . وبذلك يصبح إعلان المبادئ فى أوسلو داخلا إلى مرحلة التنفيذ الرسمى والعملى على الأرض .

وفى لحظة متأخرة من ليلة ٣٠ يناير ١٩٩٤ أحس "عرفات" أنه و"بيريز" بقرب اتفاق ، وخرج "بيريز" من اجتماع معه ليتصل بـ"رابين" تليفونيا فى القدس ويأخذ موافقته النهائية على ما توصل إليه "عرفات" . ولاحظ "عرفات" أن الجنرال "أوزى ديان" ــ وكان ضمن الوفد المرافق لـ"بيريز" بوصفه رئيسا لهيئة العمليات فى الجيش الإسرائيلى ــ خرج بسرعة من القاعة ولحق بـ"بيريز" . وطال غياب الاثنين قرابة ساعة . وعاد "بيريز" وملامح وجهه تنبئ قبل كلامه بالتعبير عن خيبة الأمل . وكان الجنرال "أوزى ديان" عائدا إلى القاعة وراءه . وكانت رسالة "بيريز" الواضحة أن "رئيس الوزراء يرى أن بعض ما اتفقنا عليه يتحتم استطلاع رأى هيئة أركان الجيش فيه . وبيريز متأكد من أن هيئة الأركان لن تكون لديها ملاحظات جدية ــ لكن الإعلان عن اتفاق بيننا لن يكون الليلة ممكنا من دافوس ." والتفت "عرفات" إلى من حوله وقال بصوت حاول أن يجعله همسا : "الجيش خرب كل شىء .. قلت لكم إن الجيش هو كل شىء ."

□

كان العمل الفلسطينى فى أزمة معلقة .

وكان العمل العربى كله فى نفس الوضع .

ومع غياب أو شحوب دور المراكز المؤثرة عن طريق الفكر والاجتهاد ، أو عن طريق التجربة والممارسة ، بدا العالم العربى وكأنه أعضاء جسم ضاع منه تأثير وتوجيه المركز

العصبى فى الدماغ . ومع غياب التوجهات والقوى الرئيسية ، فإن التوجهات الثانوية طفت فوق سطح السياسة العربية ، وكان الخطر أن هذه التناقضات السياسية الثانوية دفعت إلى تصرفات كان بعضها دليلا على انفلات سياسى وإنسانى يضاعف من أسباب القلق .

وكانت بعض دول الخليج تبحث لنفسها عن طريق تصل منه إلى إسرائيل . وبدا أن الاتصال بالإسرائيليين والتعامل معهم هما شكل المستقبل القادم . وأعلن فى لندن عن اجتماع تم بين الشيخ "حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى" وزير خارجية قطر مع كل من "شيمون بيريز" وزير الخارجية الإسرائيلى و"موشى شاحال" وزير الطاقة الإسرائيلى . والهدف من اللقاء إقامة وتطبيع علاقات مع إسرائيل بدءا من عقد صفقة لإنشاء خط أنابيب بترول يصل من قطر إلى إسرائيل . وكان أوضح دليل على الضياع والتخبط فى العالم العربى أن الشيخ "محمد بن حمد آل ثانى" شقيق حاكم قطر بعث من الدوحة عاصمة قطر برقية إلى الرئيس "حافظ الأسد" فى دمشق قال له فيها :(٥)

"فخامة الأخ الرئيس حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية الشقيقة

حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد فجعت دولة قطر كما فجعت الأمة العربية جمعاء بما تناقلته وكالات الأنباء العالمية حول اجتماع الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى وزير خارجية دولة قطر مع وزيرى الخارجية والطاقة الإسرائيليين فى لندن .

. . . .

. . . .

إن سياسة دولة قطر التى اختطها حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير البلاد المفدى ... وأشرف على وضعها موضع التنفيذ سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى ولى عهده الأمين تتناقض تماما مع هذا الحدث المفجع ، لأنها كانت وما زالت تؤمن بعدم إقامة علاقات سياسية كانت أو اقتصادية مع إسرائيل دون عودة الحق العربى كاملا غير منقوص سواء أكان هذا الحق سوريا أو لبنانيا أو فلسطينيا أو أردنيا .

---

(٥) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة للبرقية التى بعث بها الشيخ "محمد بن حمد آل ثانى" شقيق حاكم قطر من الدوحة إلى الرئيس "حافظ الأسد" فى دمشق .تحت رقم (٢١) .

إن دولة قطر انطلاقا من إيمانها بالقومية العربية .. ترى أن وزير الخارجية لا يمثل إلا نفسه وأن تصرفاته محكومة بتهوره وسوء تصرفه ...

إن التاريخ كما تعلمون يا فخامة الرئيس هو سجل الشعوب ، ولن يرحم كل من فرط أو قصر فى حق أمتنا العربية المجيدة ، بل سيلقى به على هامشه ليكون عبرة لمن يعتبر . وصدق الله العظيم حين قال فى كتابه العزيز "وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" .

أخوكم

محمد بن حمد آل ثانى "

□

كان الشعور فى القاهرة بأن الاتفاق فى "دافوس" كان قريبا ، وأن استعادته بسرعة يمكن أن تؤدى فى مدة قصيرة إلى تسوية بقية المسائل المعلقة ، ومن ثم ينفتح الطريق لتوقيع اتفاق . وكانت واشنطن تريد دفع الأمور بكل وسيلة خصوصا وقد بدأت العمليات الإرهابية فى القاهرة نفسها . ويوم ٢ فبراير قام البوليس المصرى بقتل سبعة من "المشتبه بأنهم من عناصر التطرف الإسلامى" . ويوم ٤ فبراير أعلنت الجماعة الإسلامية أنها ستتخذ إجراءات انتقامية ضد الأجانب المقيمين فى مصر . وكانت تلك كلها نذرا جديدة أحست السياسة الأمريكية ، والسياسة الإسرائيلية أيضا معها ، أن الأمور لا بد أن تتحرك بأسرع ما يمكن لضبط الموقف فى المنطقة والسيطرة عليه ، ولا يتأتى ذلك إلا بخطوة واسعة على طريق السلام وعلى المسار الفلسطينى .

ولم يكن ناقصا فى الأوراق التى جرى التوصل إليها فى "دافوس" إلا تعديلات طفيفة متعلقة برأى الجيش الإسرائيلى .

□

وكانت القاهرة نشيطة على الخط ، واتصل وزير الخارجية "عمرو موسى" بسفارة منظمة التحرير يملى رسالة للسيد "ياسر عرفات" جرى تحويلها لرئيس منظمة التحرير

فورا ، وكان نصهـا كما يلـى :

"منظمـة التحريـر الفلسطينيـة

سفـارة فلسطـين   عاجل وفـورا للأهميـة

القاهـــرة

الأخ الرئيـس القائـد أبـو عمـــار

تحيـة وبعـد

تلقيـت مكالمـة تليفونيـة علـى الساعة السابعة والنصـف مساء اليـــوم الأحـد ١٩٩٤/٢/٦ من السيد الوزير عمـرو موسـى وأفـاد بما يلـى لإبلاغكـم :

١ ــ إنه أجرى مكالمة تليفونية مـع السـيد شـيمون بـيريز مـن إسـرائيل وأبلـغ الوزير بأنه سيحضر غدا مساء ولديه ما يقوله وذلك اتصـالا بالنقـاط المتفق عليهـــا مـــع الأخ أبـو عمـــار فـى دافـوس وكذلـك فـى بعـض النقـــاط المختلـف عليها .

٢ ــ إن شيمون بيريز لديـــه نيـــه للتوصل مـع الجانب الفلسطيـنى والرئيـس عرفـات لاتفاقـات وذلك بتفويض من إسحاق رابين رئيس الوزراء بالنسبة للموضوعات التى أثيرت فى دافـوس .

٣ ــ كما أن شيمون بيريز لديه تفويض بـالتوقيع بالأحـــرف الأولـــى علـى كـل نقطـة يتفـق عليها مع الجانب الفلسطينى . أما باقى النقاط سيوقع عليهـــا بالأحرف الأولى إذا وجدت قبولا من السيد الرئيس عرفـات ، وأفاد كذلـك بأنه سيحمل صيغـا محـددة على أساس مناقشـات دافـوس . أمـا بالنسبة للنقاط ذات الطابع الأمـنى فهناك مقترحات سيناقشها مع الرئيس عرفـات وتترك للبـت فيها للسيد رابـين إلا إذا حصـل توافـق حولهـا .

٤ ــ إن السيد بيريـز سيغادر القاهرة مسـاء الثلاثـاء نظـرا لارتباطـات مسبقـة لـه فى الخـارج .

انتهى النـص بعد مراجعته مع السيد الوزير عمـرو موسـى

(إمضـاء)

الأخ الرئيس القائد أبو عمار   حفظه الله

إن السيد وزير الخارجية عمرو موسى يرجو إبلاغنا بأسماء الوفد القادم مساء غد . أما بالنسبة لمجيئكم فإنه يؤكد حضوركم صباح الثلاثاء واللقاء مع السيد الرئيس فورا للأهمية . ودمتم .

أخوكم السفير

(إمضاء)

الفصل الثامن

الأحلام تنتحر أيضا !

حوادث الانتحار التاريخي كثيرة في هذا القرن ، وهي شائعة بين القوى الكبيرة والأفكار العظيمة . فالإمبراطورية في هذا القرن انتحرت بالحروب العالمية ، والاستعمار العالمي انتحر بتصديه لحركة الثورة الوطنية ، وحركة الثورة الوطنية انتحرت بإغفال بُعدها الديمقراطي ، والفردوس الشيوعي انتحر بتسلط بيروقراطية الدولة ، والرأسمالية انتحرت عندما أضاعت روحها وقلبها ، والقومية والوطنية انتحرتا عندما أسلمتا نفسيهما للتعصب . حتى الكلمة انتحرت عندما حاصرتها الصورة ، والصورة بدورها انتحرت عندما فقدت عذريتها ومصداقيتها .

إن قوة الحياة وكرامة القيم الرفيعة التي تعطيها معناها سوف تؤكدان نفسيهما ، لكن ذلك سوف يحدث عندما يخطو العالم فوق أكوام الجثث التي تعترض طريقه إلى أفق أوسع . ساعتها تنتهي عصور مواكب الجنازات وتبدأ مواكب الأفراح ، وتتلاشى أصداء المرارة وتعلو أغاني الفرحة .

١

المعابــــــــــر

" سيادة الرئيس ـ امسك رئيس منظمة التحرير . امنعه من الخروج . إنه يريد قتلى ."

("شيمون بيريز" للرئيس "حسنى مبارك" يوم توقيع اتفاق ٩ فبراير ١٩٩٤)

كان الجيش الإسرائيلى هو الذى يوجه المفاوضات مع الفلسطينيين فعلا . وفى يوم ٤ فبراير ١٩٩٤ كتب الدكتور "نبيل شعث" وهو كبير المفاوضين الفلسطينيين فى ذلك الوقت ـ تقريرا إلى السيد "ياسر عرفات" جاء فيه :

"صعّد الإسرائيليون مطالبهم فى الموضوع الأمنى فى ورقتهم الأخيرة التى حوت مطالبهم فى هذا الموضوع ـ وورقتهم الأخيرة عندكم :

١ ـ السقف الذى وضعوه لعدد شرطة وأمن غزة وأريحا هو ٦٠٠٠ من بينهم ٣٠٠٠ فقط من الخارج . ويريدون إعطاء رجال الأمن القادمين من الخارج إقامات مؤقتة فقط (مرهونة باستمرار عملهم فى الشرطة ، فإذا تركوا العمل سقطت إقاماتهم وإقامات عائلاتهم) . ويجب أن تعطى أسماء الأفراد لإسرائيل للموافقة عليها اسما اسما قبل ثلاثين يوما من دخولهم . ويجب أن يكونوا من حملة الجوازات الأردنية أو وثائق السفر المصرية فقط .

٢ ـ حدود التسليح ضيقة جدا : ٣٥ مدفعا رشاشا عيار ٣٠٠ فقط ـ ١٦ ناقلة جنود مدرعة فقط ـ طائرتا هليوكوبتر ـ ٤ طائرات خفيفة ـ ٥ زوارق مسلحة .

٣ ـ سكان القدس لا يسمح لهم بالاشتراك فى شرطة غزة وأريحا .

٤ ـ كل من شارك فى عمليات إرهابيـة لا يسمح لـه بالمشاركـة .

. . . .

. . . .

٦ ـ فى الجـو أيضا صعَبوا الأمـور ويريدون سيطرة كاملة عليه ، ولا يسمحون لنـا بتسجيل الطـائرات أو الطيـارين أو بـإدارة الـرادار . ولا يســمح لنــا بالطـيران إلا مـن غـــزة إلى أريحــا وبـالعكس ، ومـن غـــزة وأريحـــا إلى إسرائيل وبالعكس . وتراجعوا عن كل الرحـلات الأخـرى ."

ومن القـدس يـوم ٦ فبراير ١٩٩٤ كتـب الدكتور "أحمد الطيـبى" تقريـرا بخـط يــده إلى السيد "ياسر عرفات" عن اجتماع بينه وبين "شيمون بيريز" ـ جـاء فيه بالنـص :[(١)]

"القدس ١٩٩٤/٢/٦

سيادة الأخ الرئيـس أبـو عمـار حفظـه اللــه

الأخـوة أعضـاء اللجنـة التنفيذيـة

تحيـة وطنيـة طيبـة

تقريـر اجتمـاع مع شمعـون بـيرس (شيمون بيريز)

انتهى قبل قليل لقائـى بوزيـر الخارجية شمعون بـيرس . إليكم نـص مـا جــاء فى اللقـاء من أقـوال شمعون بـيرس :

ـ "لقد اتفقت مع السيد ياسر عرفات على أن نلتقـى ، وعليه أتوقع أن يـتم إنجاز هذا الاتفاق . من جهـتي أنا ملـتزم بعقـد اللقـاء ."

ـ "كل ما وعـدت به السيد عرفـات خلال لقـاء دافـوس سيـتم الالتزام بـه" .

ـ "موضـوع الشرطـة الفلسطينية علـى الجسـر ومسـاحة منطقـة أريحـا يــترك لإسحاق رابين" .

ـ "فى موضــوع المعــابر اتفقت مع السيد عرفـات على أربعة مبـادئ أنـا ملــتزم بهـــا ، وهى :

---

(١) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من تقرير الدكتور "أحمد الطيبى" بخط يده إلى السيد "ياسر عرفات" ـ تحت رقم (٢٢) .

١ ـ invisibility (أى الإخفاء ، والمقصود به هو ما طلبه السيد ياسر عرفات من ألا تكون الرقابة الإسرائيلية على المعابر كثيفة وظاهرة بحيث توحى للفلسطينيين أو للزوار بأن المسألة تمثيل فى تمثيل ـ على حد تعبيره .)

٢ ـ غرفة تحقيق منفردة لإسرائيل ، وغرفة تحقيق منفردة للفلسطينيين (والمقصود بها هو ما كان الوفد الإسرائيلى قد طرحه من ضرورة أن تكون غرفة التحقيق مع أى مشتبه فيه تحت مسئولية عسكريين إسرائيليين ، ويسمح بوجود مراقب فلسطينى من حقه المتابعة وليس من حقه التدخل . وكان الحل الوسط الذى أمكن التوصل إليه هو أن تكون هناك ضمن مبنى المعبر غرفة تحقيق فلسطينية تبدأ بسؤال المشتبه فيهم ، ثم ينتقل إلى غرفة تحقيق إسرائيلية تبت فى الأمر وتحسمه .)

٣ ـ لن يكون وجود فلسطينى فى الغرفة الإسرائيلية ، ولن يكون وجود إسرائيلى فى الغرفة الفلسطينية .

٤ ـ عند استدعاء أى فلسطينى للتحقيق ستبلغ الشرطة الفلسطينية مسبقا ، وإذا تم اعتقاله سوف تبلغ الشرطة الفلسطينية ثانية (أى فيما بعد) ، ويمكن آنذاك استدعاء محام بعد انتهاء التحقيق .

ـ "وحول سؤالى عن مبدأ الـ overall security (أى الأمن الشامل) الذى يطالب به الجانب الإسرائيلى على المعابر والطرقات العرضية ، امتنع السيد بيرس عن الإجابة" .

ـ "رئيس الحكومة رابين معنى بأن يوقع بالأحرف الأولى على اتفاقيته مع السيد عرفات حول الأمور التى يتم الاتفاق حولها" .

ـ "ما يتم الاتفاق حوله فهذا نهائى ، وما تبقى من أمور فنية نتفق حولها من ناحية المبدأ ويبحثها الطاقمان بالتفصيل" .

ـ "ستكون إدارة مدنية فلسطينية للمناطق الصفراء (يقصد المناطق الملونة بالأصفر، وهى منطقة المواصى الزراعية) فى قطاع غزة" .

ـ "لا أتوقع أن ننهى كل شىء فى القاهرة . بعض الأمور ستبقى لإسحاق رابين، ولكننا سنفعل كل ما فى وسعنا لإنجاز الكثير والتوقيع على ذلك ."

ـ "اقتراح لجنة الارتباط غير مجد لأنه سيعقد الأمور ويصعبها على السيد عرفات وعلىّ" .

ـ "السيد بيرس أفهمنى أنه لا يعتقد أنه سيحضر إذا لم يكن هناك اجتماع مع السيد عرفات" .

ـــ "يقترح أن يكون الاجتماع غدا ليلا" (أى أن أخطر المسائل معلقة ، ومع ذلك فالمطلوب هو اجتماع غدا ليلا للتوقيع !!)

ـــ "الوزير بيرس سيطير إلى جنيف يوم الأربعاء القادم" .

ـــ "كل ما تسمعونه عن خلافات بينى وبين إسحاق رابين ليس صحيحا . الكل بالتنسيق معه ونحن متفاهمون ."

وعليه أخى الرئيس أبو عمار فإن رأيى بعد اجتماع اليوم مع السيد بيرس واتصالاتى مع الوزير حاييم رامون ـ جماعة رابين ـ بأن عدم عقد الاجتماع سيكون أثره سلبيا أكثر من عقد اللقاء حتى وإن كنت مقتنعا بأنه لن يتم الاتفاق على كل شىء . انطباعى أنه سيكون تقدم معين فى القاهرة .

إبنكم

أحمد الطيبى "

□

كانت تلك كلها شواهد وأدلة توحى بأنه من الصعب أن يضع طرفان متفاوضان توقيعيهما على بنود ما زال كل ما فيها معلقا فى الهواء . ففجوة الخلافات واسعة والطرف الفلسطينى معنى بالشكل الظاهر للأمور visibility ، والطرف الإسرائيلى يضع شروطه حتى فى أصغر التفاصيل إلى درجة أن "الشين بيت" هيئة الأمن الداخلى فى إسرائيل اعترضت على أن يحمل جنود الشرطة الفلسطينيون أى أسلحة على الإطلاق ، وأن يكتفوا بحمل عصا ذات صاعق كهربائى .

وبرغم ذلك ففى يوم ٩ فبراير ١٩٩٤ كان "بيريز" و"عرفات" كلاهما فى القاهرة ، وكانت هناك أوراق وخرائط معدة للتوقيع . وقام الطرف الإسرائيلى بإعداد نصوص لما اتفق عليه استغرقت ثلاث صفحات ، وألحقت بالنصوص خريطتان : واحدة لقطاع غزة ، والأخرى لمنطقة أريحا . وكانت منطقة أريحا قد تقلصت بعد وعود سابقة ، وإذا هى ما زالت فى حدود تقل عن عشرين كيلومتر مربع .

كان "بيريز" ومعه الوفد الإسرائيلى فى فندق "ميريديان" فى الطريق إلى مطار القاهرة الدولى . وكان السيد "ياسر عرفات" يقيم فى قصر "الأندلس" وهو أحد بيوت الضيافة الرسمية ويقع فى مواجهة فندق "ميريديان" مباشرة . وكانت هناك حركة انتقالات عبر

الشارع ذاهبة وقادمة ما بين فندق "ميريديان" وقصر "الأندلس" . وكان الرئيس "مبارك" قد ترك للجانبين أن يعدا أوراقهما ، وعندما تكون الأمور جاهزة بينهما فإنه يكون على الجميع أن يتوجهوا إلى مقر رئاسة الجمهورية فى مصر الجديدة ، وهناك تجرى مراسم التوقيع بحضوره .

وكان التقدير الأولى أن يتم التوقيع وتظهر مراسم الاحتفال به على الهواء مع نشرة الساعة التاسعة ، وهى النشرة الإخبارية الرئيسية للتلفزيون المصرى . لكن الساعات كانت تمر وأحوال الوفود غارقة فى الفوضى ومرتبكة .

وفى الساعة السابعة كان الزحام شديدا فى الصالون الرئيسى بالدور الأول فى قصر "الأندلس" . وكان الوفد الإسرائيلى بمن فيه "شيمون بيريز" متداخلا مع أفراد الوفد الفلسطينى ومع عناصر الأمن ومع أعداد من الدبلوماسيين المصريين من مكتب وزير الخارجية كانوا هناك لتسهيل إعداد الوثائق وجمع الأوراق خصوصا ما كان منها ضروريا للملف الذى سيقدم للرئيس "مبارك" قبل أن يدخل إلى قاعة الاحتفال للتوقيع فى أى وقت تنتهى فيه المحادثات والمداولات ، بما فى ذلك لمسات اللحظة الأخيرة التى يتفق عليها الطرفان .

وفى ركن من صالون قصر "الأندلس" كان السيد "ياسر عرفات" واقفا وبجانبه الدكتور "نبيل شعث" الذى راح يقرأ عليه نصوص الأوراق التى جرى إعدادها . وكانت النصوص كثيرا ما تشير إلى الخريطة المرفقة . وفجأة سأل "ياسر عرفات" : "أين هى هذه الخريطة ؟" ورد عليه الدكتور "نبيل شعث" قائلا : "إننى أرسلتها إليكم فى تونس وعرضتها عليكم هذا الصباح" . وطلب السيد "ياسر عرفات" نسخة من الخريطة لكى يعيد التدقيق فيها قائلا لـ"نبيل شعث" : "يا عم ، الله يرضى عليك ، دول يزوروا على ربنا" . ووجد "نبيل شعث" نفسه فى مشكلة ، فالخريطة لم تكن معه وكان حله الوحيد أن يتوجه إلى حيث يقف الجنرال "أوزى ديان" (رئيس العمليات الإسرائيلى) ويطلب منه أن يعيره خريطته لخمس دقائق فقط . وعاد "نبيل شعث" بالخريطة يعرضها على السيد "ياسر عرفات" ، وكان سؤاله الأول عن المنطقة الملونة باللون الأصفر ، وقال "نبيل شعث" إن هذه هى منطقة "المواصى" . وأحس الجنرال "أوزى ديان" الذى كان يتابع المشهد من بعيد أن هناك إشكالا فلسطينيا حول الخريطة ، وتوجه إلى بعيد . وكان السيد "ياسر عرفات" يريد أن يستوثق من أن هذه هى نفس الخريطة التى أرسلت إليه فى تونس .

ووصل وزير الخارجية المصرى "عمرو موسى" إلى قصر "الأندلس" يستوضح الموقف ويساعد على تسهيل الأمور إذا كان هناك ما يدعو للقيام بدور ما . والذى حدث أن "عمرو موسى" كان يتحرك فى صالون قصر "الأندلس" ما بين الركن الذى جلس فيه "شيمون

بيريز" مع بعض مستشاريه وما بين الجانب الذى يقف فيه السيد "ياسر عرفات" محاطا بعدد من مساعديه .

وحتى هذه اللحظة المتأخرة كان هناك من أعضاء الوفد الفلسطينى من ينصحون السيد "ياسر عرفات" بألا يوقع بنفسه على هذه الأوراق وأن يترك ذلك لـ"أبو علاء" ، إلا إذا كان ذلك طلبا من الرئيس "حسنى مبارك" . لكن السيد "ياسر عرفات" كان يشير بتلميحات غامضة إلى أن الرئيس "مبارك" يريد منه أن يوقع بنفسه ، وحتى يكتسب الاتفاق قيمة أكبر .

وقرب الساعة التاسعة مساء دخل إلى الصالون السفير "يورى سافير" وهو مدير مكتب وزير الخارجية الإسرائيلى ، وتوجه إلى حيث كان يجلس "شيمون بيريز" وهمس بشىء فى أذنه . وقام "بيريز" من مكانه وتوجه إلى حيث كان يقف وزير الخارجية "عمرو موسى" مع السيد "ياسر عرفات" . وقال "بيريز" موجها كلامه لوزير الخارجية المصرى وللسيد "ياسر عرفات" معا : "اسمحوا لى ، سوف أذهب إلى الفندق لربع ساعة لاتصال ضرورى من رئيس الوزراء" . وتشاءم "ياسر عرفات" وقال لـ"عمرو موسى" : "هكذا والله عمل معى فى دافوس ، وجلسنا لبعد منتصف الليل ثم جاءنا يقول : متأسف لن يكون هناك توقيع الليلة." وقال له "عمرو موسى" : "اطمئن يا أبو عمار ، هذه المرة هناك توقيع" .

وفى غياب "شيمون بيريز" كان بعض أعضاء الوفد الفلسطينى ما زالوا على اقتناعهم بأن السيد "ياسر عرفات" لا ينبغى له أن يوقع بنفسه إلا إذا كان ذلك طلبا من الرئيس "مبارك" . وتوجه أحدهم لسؤال "عمرو موسى" ، وكان رد وزير الخارجية المصرى أن "الأمر مفوض لكم تماما ، والرئيس مبارك ليس له طلب خاص فى هذا الشأن" .

□

وطال غياب "شيمون بيريز" . كان قد استأذن فى ربع ساعة ، لكنه لم يعد إلا بعد قرابة ساعتين . وعندما دخل كانت آخر أخباره أن "رابين" موافق على كل ما توصلوا إليه فيما عدا نقطة واحدة يرى إبقاءها معلقة ، وهى مساحة أريحا . فقد كان "رابين" مصرا على أن تظل هى المساحة التى عرضتها إسرائيل فى أوسلو ، وفى مقابل ذلك ، ولكى لا يغلق باب الموضوع نهائيا، فإن رئيس الوزراء الإسرائيلى صرح لوزير خارجيته بأن يبعث بخطاب بتوقيعه إلى السيد "ياسر عرفات" يبلغه فيه أن رئيس وزراء إسرائيل ملتزم عند التوقيع النهائى على الاتفاق بأن يتناقش مع الرئيس الفلسطينى حول مساحة أريحا .

وكانت كلمة "يتناقش" موضع تساؤلات . واقترح البعض استبدال كلمة "يتناقش" بكلمة "يتفاوض" . وكان أحد أعضاء الوفد المصرى يحاول إقناع الوفد الفلسطينى بقبول الكلمة كما هى على أساس أنه "ربما أن رابين يريد أن يقنع حزب الليكود بالمسألة قبل أن يعطى فيها التزاما صريحا" . ووصلت الملاحظة المصرية إلى سمع "شيمون بيريز" ، وإذا هو يرد عليها قائلا : "يقنع حزب العمل أولا" .

وجاء الوقت للانتقال إلى مقر رئاسة الجمهورية لمراسم توقيع الاتفاق ، وجرى إخطار وكالات الأنباء العالمية بالمسارعة إلى نصب كاميراتها وميكروفوناتها بسرعة فى مقر رئاسة الجمهورية .

وكانت إحدى قاعات مقر الرئاسة ممتلئة على آخرها بالمصورين والصحفيين وأعضاء الوفود وبعض موظفى الرئاسة . وفى صدر القاعة وقف الرئيس الفلسطينى ووزير الخارجية الإسرائيلى ووزير الخارجية المصرى ومعهم كبار المساعدين ، ثم دخل الرئيس "حسنى مبارك" وبدأت مراسم التوقيع .

وعندما تبين للوفد الإسرائيلى أن السيد "ياسر عرفات" لن يكون هو الشخص الذى يوقع الاتفاق بناء على ضغط من بعض أعضاء الوفد الفلسطينى ، وإنه ترك هذه المهمة لـ: "أبو علاء" ــ فإنه اتخذ قرارا فى اللحظة الأخيرة بأن يتم التوقيع عن الجانب الإسرائيلى بواسطة "يورى سافير" ما دام "أبو علاء" هو الذى سيوقع عن الجانب الفلسطينى . ولا بأس بعد ذلك من أن يوقع "بيريز" و"عرفات" على الأوراق والخريطة باعتبارهما شاهدين .

وبدأ تمرير الأوراق والخريطة على المائدة لكى يوقعها الطرفان . وفجأة تلفت السيد "ياسر عرفات" حوله وسأل : "أين فيصل ؟" (يقصد "فيصل الحسينى") وكان السيد "فيصل الحسينى" فى مكان بعيد من القاعة ، ودعى إلى المنصة لكى تظهر صورته لحظة التوقيع . (ويعرف الكل فى الأرض المحتلة أن "فيصل الحسينى" ابن الشهيد "عبد القادر الحسينى" ، وعمه الحاج "أمين الحسينى" مفتى القدس الشهير ــ موجود ومشارك فى كل شىء .)

وحدث فى الدقائق التالية مشهد لم تكن له على وجه التأكيد سابقة فى تاريخ العلاقات الدبلوماسية .

جاء دور توقيع النصوص ، ووقع "سافير" ووقع "أبو علاء" . وعندما جاء الدور لتوقيع الخريطة فإن السيد "ياسر عرفات" همس فى أذن "أبو علاء" قائلا له : "تظاهر بالتوقيع ولا توقع" . ومن المؤكد أن السيد "ياسر عرفات" كان ما زال على شكوكه فى

الخريطة ، وقد تصرف "أبو علاء" بمقتضى ما صدر إليه من رئيس منظمة التحرير . ولم يلحظ أحد أن "أبو علاء" تظاهر بالتوقيع على الخريطة ، ولكن قلمه لم يلمس سطحها . وجاء الدور على "أبو عمار" كشاهد ووقع هو الآخر على الأوراق ، وتظاهر بالتوقيع على الخريطة . وتصافح الجميع وانتهت المراسم ، وراح السيد "ياسر عرفات" يهرول خارجا من القاعة .

وأمسك أحد موظفى الخارجية الإسرائيلية بالوثائق يدقق فى التوقيعات تمهيدا لوضعها فى الملفات ، وإذا هو يكتشف أن الخريطة لا تحمل أى توقيع فلسطينى على مساحة أريحا. وجرى الدبلوماسى الإسرائيلى بلهفة إلى وزير الخارجية "شيمون بيريز" ، ولفت نظره إلى ما اكتشفه . وصعق "شيمون بيريز" ، والتفت ليجد الرئيس "مبارك" يودع "عرفات" عند باب القاعة ، والرئيس الفلسطينى ينطلق إلى البهو خارجا من مبنى الرئاسة . وإذا "بيريز" يصيح بأعلى صوته : "سيادة الرئيس ، لا تدعه ينصرف "Mr. President, stop him ، وكررها مرة أخرى : "سيادة الرئيس لا تدع الرئيس عرفات يخرج" . وهرول "بيريز" بالخريطة إلى الرئيس "مبارك" الذى بدأ ينادى "عرفات" المهرول بأقصى سرعة قائلا له : "أبو عمار ، تعال شوف الراجل بيقول إيه" .

وعاد "عرفات" من منتصف البهو الخارجي لمقر الرئاسة . وكان الرئيس "مبارك" لا يخفى ضيقه ، وقال لـ"عرفات" : "إيه ياخويا ، إنت فاهم إن شيمون بيريز بياع بطاطا؟!" وكان وزير الخارجية الإسرائيلى هائجا ويقول لـ"عرفات" : "أنت تريدنى أن أقتل .. تريدهم أن يغتالونى" "You want me to be killed. You want me to be assassinated." . وقال "عرفات" موجها كلامه للرئيس "مبارك" معتذرا بأنه لا يذكر أنه رأى الخريطة من قبل . ورد عليه "عمرو موسى" الذى كان بجانب الرئيس "مبارك" قائلا له : "أبو عمار ، إن الخريطة عندكم ، ثم إن عندكم خطابا باسم رابين يتعهد فيه بمناقشة الموضوع معك" .

ولم يكن هناك مفر أمام "عرفات" إلا أن يوقع على الخريطة . والتفت "شيمون بيريز" إلى "أبو علاء" وقال له بحدة : "أبو علاء ، هذه أول مرة تخدعنى فيها" . ورد "أبو علاء" محرجا : "أنا لا أخدع أحدا" .

ومع أن القصة لم تنشر ، فإن أمرها شاع فى بعض دوائر السلطة العليا فى بعض العواصم العربية . وبعث الملك "فهد" برسالة إلى الرئيس "مبارك" يقول له : "إنك تحرج نفسك أكثر من اللزوم ، ويكفى أنك تستضيف الكل فى بلدك" .

وكان رد الفعل لدى الجماهير الفلسطينية خليطا من مشاعر متناقضة يسود فيها الشك والإحباط . وكتب السيد "سعيد كنعان" وهو من كبار الشخصيات الفلسطينية وصديق

مقرب يثق فيه السيد "ياسر عرفات" ـ تقريرا إليه من نابلس بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٩٤ ، بعد ثلاثة أيام من توقيع الاتفاق ، يقول فيه بالنص :[٢]

"أسرد لكم فيما يلى بعض الملاحظات السريعة حول الاتفاقية الأخيرة :

١ ـ الثقة بالأخ أبو عمار كان لها الأثر الكبير فى القبول الجماهيرى للاتفاقية وهضمها .

٢ ـ وبالرغم من ذلك كانت التحفظات واضحة ، ولم يكن هناك فرح عارم لها .

٣ ـ التصريحات التى سبقت الاتفاقية من قبل العديد من المسئولين كانت متشددة. وفوجئ الناس بأن هذا التشدد كان كلاما فى كلام .

٤ ـ نفس هذه التصريحات كانت تثير آمالا واسعة وتوقعات كبيرة ، ولذلك فإن الإحباط يتلو عادة أى تراجع عن هذه التوقعات مهما كان بسيطا . ويخشى الناس من مناورات إسرائيلية لعدم تنفيذ اتفاقية أوسلو .

٥ ـ لاحظ الناس وركزوا على قضية المعابر وأن الأمر النهائى بها لا زالت (ما زال) فى أيدى قوات الاحتلال ، وإن موقفنا لم يكن صلبا "كما وعدونا" .

٦ ـ يلاحظ عدم وجود شرطة فلسطينية خارج المباح عند الماء وعند الجسور نفسها. وكانت التوقعات أنه يجب وجود هذه الشرطة عند النهر بنفسه بحيث يراه الجانب الأردنى واضحا كمظهر سيادى وللكرامة .

٧ ـ يلاحظ غياب الإعلام الفلسطينى نحو الجماهير وبصورة مريعة ومقلقة بحيث ترك ذلك لإسرائيل وللمعارضة وللتفسيرات السلبية .

٨ ـ يجب إشعار الجماهير بضرورة الصبر وطول النفس بدلا من التصريحات المتفائلة أكثر من اللازم . إن المصارحة أسلم طريق لتحقيق أهدافنا .

٩ ـ لوحظ فرق بين النص الإنجليزى والعربى بخصوص الدوريات داخل أريحا مثلا ... وهذا يشكك الجماهير فى الاتفاقية نفسها .

١٠ ـ عموما هناك تفاؤل حذر عند الأغلبية ولكن ليس بصورة كافية . والخوف من تفشى ظاهرة فقدان الاهتمام العام واللا مبالاة موجود ويلاحظ بسهولة ."

---

(٢) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة من تقرير السيد "سعيد كنعان" إلى السيد "ياسر عرفات" ـ تحت رقم (٢٣) .

وكان "ياسر عرفات" بغريزته السياسية يحس بخيبة الأمل لدى الشعب الفلسطينى وحتى بدون الحاجة إلى تقارير تصله من داخل الأرض المحتلة . وأراد أن يغطى عليها بسرعة ، خصوصا وأن دمشق وعمان وغيرهما من عواصم العالم العربى راحت تصب حملة واسعة ضد الاتفاقية .

وكان "ياسر عرفات" يعتقد أن فى يده ورقة يمكن أن تغطى على هذا الفوران القلق فى الشارع الفلسطينى ، وهى ورقة الإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين . وهكذا عاد "نبيل شعث" إلى الاجتماع بـ"أمنون شاهاك" والتعليمات الصادرة إليه من قيادة المنظمة هى أن يحاول بأسرع ما يمكن تأمين الإفراج فورا عن أكبر عدد من المعتقلين الفلسطينيين فى السجون الإسرائيلية ، وعددهم فى ذلك الوقت أحد عشر ألفا .

وتم التوصل إلى ترتيب تقوم إسرائيل بمقتضاه بالإفراج عن دفعة أولى من ثلاثة آلاف معتقل ، وأن يتم ذلك يوم ١١ مارس (١٩٩٤) . كما أعلنت الحكومة الإسرائيلية — رغبة منها فى تسهيل مرور الاتفاقية ـ أن قواتها ستبدأ فى الخروج من غزة وأريحا فى شهر أبريل الذى يليه .

٢

الحـــــــــــــرم

" استيقظ الغــول ... استيقظ الغـول ! "

(السيد "ياسر عرفــات" عندما بلغتــه أخبــار قيام تظاهرات فى جامعة القاهـرة استفزتها مجــزرة الحـرم الإبراهيمـى)

ويـوم ٢٥ فبرايـر ١٩٩٤ ــ وقعـت الواقعة حين دخـل مستوطن إسرائيلى من "كريـات عربـا" على حافة مدينة الخليـل إلى صحـن الحـرم الإبراهيمـى وقـت صـلاة الفجـر ومئـات المصلين فيه ساجدون ، وراح يطلـق النـار عشوائيا دفعات متصلة كأنها صرخـات مجنـون . كانت تلك ليلة النصـف من شهـر رمضـان المعظـم . وفــى لحظـات سقــط ٤٢ مـن السـاجدين للصـلاة قتلـى ومن حولهـم سبعـون آخرون من الجرحـى .

كانت المذبحة رهيبة بكل المعايير . وزاد من بشاعتها أنها لم تكـن فـى سـاحة قتـال أو معركة أمـن ، وإنما داخل مسجـد هـو حـرم مـن أغلــى المقدسـات الإسلاميــة ، وفـى ليلـة النصف من شهر له عند المسلمين موضع خاص . ثم إن الفاعل مستوطن مـن الخليـل رغـم أن الاستيطان فى قلب الخليل كان قضيـة بالغـة الحساسية تعرفهـا السـلطات الإسـرائيلية التـى اضطرت إلى تحديـد عـدد المستوطنين الذين يسمح لهـم بالبقــاء داخـل المدينـة القديمـة التـى تحولت إلى قنبلـة قابلة للانفجار منذ أن دخل إليها الحاخام "موشــى ليفينجـر" عقـب سنـة ١٩٦٨ وطالب بها كلها كأرض يهودية لا بـد أن يخـــرج منهـا كـل العـــرب ــ وباعتبارهـا حسب اعتقاده واعتقاد أنصاره ، ومن بينهم الحاخــام "مائير كاهانـا" زعيـم ومؤسـس حركـة "كـاخ" ــ مدفنا مقدسا للآباء من أنبياء اليهود !

كان المستوطن الذى قام بهـذا العمـل "بـاروخ جولدشتــين" ضـابط احتيـاط فـى الجيـش الإسرائيلى ، ومن مواليد الولايات المتحدة الأمريكيــة وعمـره خمسـة وثلاثـون عامـا ، وبـدأ

اهتمامه بإسرائيل ضمن تنظيم "كاهانا" فى نيويورك ، وكان الآن يقيم فى "كريات عربا" مع ألفين من المستوطنين الذين قبعوا فى مستوطنتهم على حافة الخليل ، وقصارى أملهم أن ينقضّوا يوما على سكانها ، وألا يتركوا فى الخليل عربيا . وكان "جولدشتين" قد دخل إلى الحرم الإبراهيمى قبل تنفيذ جريمته حاملا مدفعه الرشاش ومتخطيا حواجز الحراسة الإسرائيلية ، ثم وقف فى حماية أحد أعمدة الحرم وفتح نيران مدفعه الرشاش بدون توقف ، ومضى يدور به فى كل اتجاه وكأنه يريد أن يحصد كل من تطوله دائرة النار من حوله .

□

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة ٢٥ فبراير (١٥ رمضان) كانت صور مذبحة الحرم تملأ شاشات التلفزيون وموجات الإذاعات . ولم تكن الصحف فى أوروبا أو فى العالم العربى قد لحقت فى طبعاتها الأولى بالنبأ ، لكن الصحف الأمريكية لحقت به ، وتكفلت محطات التلفزيون والإذاعات بأن تجعل العالم يعرف أن مذبحة بشعة وقعت فى حرم إسلامى مقدس .

وأُخطر "وارين كريستوفر" بعد وقوع الحادث بنصف ساعة ، وبدوره تولى إخطار الرئيس "كلينتون" ، وكلاهما وجد أن الجريمة يمكن أن تكون ضربة قاصمة لمسيرة السلام . وأجرى كل منهما اتصالات مع عدد من الزعماء العرب رغبة فى احتواء رد الفعل وبحيث يمكن حصر تأثير الجريمة على الجماهير العربية والإسلامية . لكن الجريمة كانت أكبر مما يمكن احتواؤه . وبما أن اليوم يوم جمعة ، فإن حشود المصلين للصلاة عند الظهر فى العالمين العربى والإسلامى كان يمكن أن تضيف إليها مضاعفات يصعب فيما بعد احتواؤها ، إلى جانب أن الشعور العام فى المنطقة كان مهيأ لردة فعل عنيفة بعد موجة الإحباط والتشاؤم فى أعقاب توقيع اتفاق القاهرة .

وعندما ظهرت التفاصيل الكاملة لما جرى فى الحرم الإبراهيمى فإن الملابسات كانت تؤكد وجود تصميم وقصد إجرامى لدى مرتكب الجريمة . فـ"جولدشتين" ـ وهو طبيب بالمهنة ـ ودع بعض أصدقائه قبل الفجر بنصف ساعة وراجع صلاحية سلاحه وملأه بالذخيرة ، ثم خرج ماشيا بخطوات ثابتة فى اتجاه الحرم . وحين سأله أحد الحراس عن اتجاهه ، أزاحه جانبا ومشى داخل المسجد بغير اكتراث ، ثم وقف فى الموقع الذى اختاره وفتح مدفعه وأطلق مائة وإحدى عشرة رصاصة . وكان شكل الحوادث وسياقها يوحيان بأن "جولدشتين" لم يقم بعمل انفعالى اندفع إليه بمفرده ، وإنما كان وراءه على أرجح الاحتمالات

شركاء قاموا بتغطية دخوله ، كما قاموا بحمايته عندما ترك حوالى سبعمائة مسلم صلاتهم ليتصدوا لعاصفة النار ويوقفوا مصدرها .

ووصلت الأنباء إلى تونس ، وعلى الفور كان هناك إدراك فورى بأن أزمة غير متوقعة نزلت كالصاعقة على موقف هو بظروفه معرض للاشتعال . وكان هناك شعور بالصدمة تجاه ما جرى وظروفه ، وكان التفسير الذى طرح نفسه على الفور هو ذات التفسير الذى ألح من قبل على السيد "ياسر عرفات" عن دور الجيش الإسرائيلى فى فرض سياسات معينة حتى على رئيس الوزراء . وترددت كثيرا فى مقر قيادة المنظمة ذلك الصباح الباكر نظرية المقارنة بين وضع "ديجول" مع جيش الجنرال "شال" ووضع "رابين" مع العناصر العسكرية المتشددة فى الجيش الإسرائيلى ، وهى السند القوى لعملية الاستيطان وحماية المستوطنين . ودق التليفون من واشنطن وكان المتحدث هو "وارين كريستوفر" وزير الخارجية الأمريكى يطلب أن يتحدث مع السيد "ياسر عرفات" .

أبدى "كريستوفر" لـ"عرفات" تأثره بالحادث واستنكار الولايات المتحدة له . ثم أخطره أن بيانا شديد اللهجة سوف يصدر الآن عن البيت الأبيض . ثم وصل إلى بيت القصيد ، وهو توجيه نداء باسم الرئيس "كلينتون" إلى رئيس منظمة التحرير يناشده ألا يترك هذا الحادث ــ رغم بشاعته ــ يؤثر على المفاوضات الضرورية اللازمة لاستكمال بحث القضايا الباقية المعلقة بعد اتفاق القاهرة . وأبدى السيد "ياسر عرفات" تلقائيا أنه سوف يكون من الصعب عليه جدا أن يجد شيئا يقوله للشعب الفلسطينى الذى ذهل من بشاعة الجريمة . وقال لـ"كريستوفر" على التليفون : "إن الأخبار جاءتنى الآن وقبل أن تكلمنى يا سعادة الوزير بأن مدن الضفة وغزة فى حالة غليان" . وكان رد "كريستوفر" موجها كلامه للسيد "ياسر عرفات" : "إنك يا سيدى قائد هذا الشعب ورمزه والعلم المرفوع فوق رأسه ، وهذه هى اللحظة التى تظهر فيها قيادتك الحكيمة دورها ، وإلا فمعنى ذلك أنك تترك للمتعصبين الإسرائيليين والمتعصبين العرب أيضا أن يحكموا المسيرة السلمية وأن يقرروا مصيرها" . ورد السيد "ياسر عرفات" بأنه هو الآخر "حريص على استقرار مسيرة السلام ، وهو يعتبر الحادث مؤامرة هدفها بالدرجة الأولى قتل السلام وإنه يتفهم نداء الرئيس "كلينتون" إليه ، وسيبذل قصارى جهده لكى لا يؤثر ما جرى على قضية السلام ومستقبله ، لكن الولايات المتحدة عليها دور كبير فى ردع قوى خطرة ليس على مسيرة السلام وحدها وإنما على إسرائيل كذلك" .

كانت هذه أول مرة يسمع فيها "عرفات" مثل هذه الأوصاف "السخية" فى وصفه على ألسنة الساسة الأمريكيين . وقد أعادها بعد ذلك عدة مرات على الجالسين حوله قائلا : "إنه قال لى "أنت قائد الشعب الفلسطينى ورمزه والعلم المرفوع فوق رأسه" ."

وتطـوع بعضهم برجـاء "عرفـات" ألا يأخـذ هـذا الكـلام جـدا ، فهو كـــلام "ملغـوم" و"مسمـوم" !

ولم تمض دقائق على مكالمة "كريستوفر" حتى كان "كلينتون" بنفسه على الخط ومكتب تليفون البيت الأبيض يقـول لمقـر المنظمـة فـى تونـس إن رئيـس الولايـات المتحـدة يريـد أن يتحدث مع رئيس منظمة التحرير .

وكان ما قاله "كلينتون" إعادة لما سبقه إليه "كريستوفر" بما فى ذلك قوله لـ"عرفـات" : "أنت القائد والرمز والعلم" . وكان رد "عرفات" أن "الموقـف فـى منتهـى الخطـورة والرئيـس كلينتون فى مقدوره أن يفعل الكثير ، ثم إنه (أى "عرفـات") سوف يحاول كل ما فى وسعـه مدركا من البداية أن الموقف فى المنطقة وصـل إلى نقطـة الانفجـار" .

وعاد "كلينتون" بعد قليل فاتصل بالسيد "ياسر عرفـات" يقـول لـه "إنـه مـن الضـرورى هزيمة مدبرى هـذه المأسـاة . وهزيمتهـم الحقيقيـة تحـدث إذا استؤنفت المفاوضـات" . وقـال الرئيس "كلينتون" إنه تشاور مع وزير خارجيته واتفـق رأيهما "على أنه يمكن نقل المفاوضـات من القاهـرة وطابـا وباريس إلى واشنطـن نفسها" .

ولم يكن "عرفـات" رافضـا بالكامل مع "كلينتون" ولا مع وزيـر خارجيته "كريستوفـر" !

كان مما ساعد "عرفات" على إبـداء هذا التجـاوب النسبى مـع نـداء الرئيـس الأمريكـى تعلقه حتى هذه اللحظة بنظريـة "ديجـول وجيـش الجزائـر" . وقـد مضـى يشـرح عنـاصر العملية كما تبدت لـه عن بُعـد : قتـل بهذه الطريقة ـ وفى رمضـان ـ وعند الفجـر ـ وأثناء الصـلاة ـ وفى الخليـل ـ بالـذات . وإذن فإنهـا عمليـة مرتبـة بدقـة مـن ناحيـة التوقيت والمكان والمناخ المحيط بالاثنين . لكن الذين تقاطروا فـور سماعهم بالنبأ مـن قيـادات المنظمة فـى تونـس إلى مقر قيادتها كانت لديهم رؤى أخرى . وكان رأى "أبو اللطـف" علـى سبيل المثال أن مدفـع "جولدشتـين" فتـح النـار على نعـش السلام ، "فالعملية كانت "ميتـة" من قبل ، وهذه الرصاصات أعادت إعـدام الميت" . ثم أعلن السيد "ياسر عرفـات" أن المنظمة تدعـو إلى اجتماع عاجل لمجلـس جامعـة الـدول العربيـة ، وكذلـك تدعـو إلى اجتمـاع عـاجل لمجلس الأمـن لبحـث المذبحـة .

وكان هناك فى قيادة المنظمة مـن وجـد أن واجـب المنظمـة فـى هـذه الظـروف ، وبرغـم صعوبة الموقف ، يفرض عليها أن تستوعب الأزمة وأن تغلب الحكمة ، وألا تسمح للصقور فى إسرائيل بتحقيـق هدفهـم ووقـف المسـيرة .

كانت وزارة الخارجية الأمريكية قد أعلنـت فـى واشنطن "أن الحـادث لـن يؤثـر علـى مسيرة السلام" ، بل إنه على العكس يظهـر أن "الحاجـة أشـد إلى اسـتمرار هـذه المسـيرة" ،

و"لكى يعرف الذين يعادونها أنـه ليس فـى مقدورهـم إيقافهـا" . ويظهـر أن منظمـة "فتـح" تجاوبت مع هذا الاتجاه وصدر بيان يقول "إن الجريمة الدموية لـن تـؤدى إلى وقـف مسيرة السـلام ، بل إنها على العكس من ذلك تظهـر الحاجـة الشديدة إلى استمرارها ونجاحهـا" .

وقبل الظهر كـان واضحـا ممـا يجـرى فـى مـدن الأرض المحتلة وفـى غـزة أن بيـان الخارجية الأمريكية كان استباقا للحوادث ، كما أن البيان الصادر عن "فتح" تجاوبا معه كان بعيدا كل البعد عن المشاعر الجارفة للشعـب الفلسطيـنى . فقـد خرجـت الجماهير فـى كـل مدن الضفة وغـزة إلى الشوارع والاستفزاز آخذ بكل مشاعرها . وعندما هـدأت الأوضـاع فـترة صلاة الجمعة عادت النار مـرة أخـرى إلى الاشـتعال ، واندفعـت التظـاهرات الغاضبـة ، وإذا الجيش الإسرائيلى يتصدى لها ، وإذا ١٨ شهيدا جديـدا يسـقطون بـين المتظـاهرين . وكـان الانفجار عارما لا يعـرف حـدا يقـف عنده إلى درجة أن بعض التظاهرات هتفـت ضـد "ياسـر عرفـات"، وبعضها أحرقت صورتـه . وكان أسـوأ مـا فـى الأمـر أن وجهـاء الخليـل بـدءوا يرددون نغمـة أن ما حـدث كان لا يمكن أن يحـدث لو أن الملك "حسـين" كـان هـو المسئول عن الضفـة . ثم راجـت إشاعة فى الشارع الفلسـطينى بـأن ملـك الأردن قـادم بنفسـه بعـد صـلاة الجمعـة إلى الخليـل لكى يقـف مع "شعبـه" فيها ويقـدم له العـزاء بنفسه !

وحـاول السـيد "فيصـل الحسـينى" أن يتوجـه بسـرعة مـن القـدس إلى الخليـل ، وإذا التظاهرات تتجـه إلى مدخل المدينة على طريق القـدس تهـدد بضربــه لـو جـاء . ولم يدخـل "فيصل الحسينى" إلى المدينة . وكان إمـام الحـرم الإبراهيمـى قد أم صـلاة الجمعة فى مسجـد آخـر وراح يستصرخ المؤمنين ليهبوا دفاعا عن مقدسات الإسـلام ، ثـم يقـول : "إن إخوانـنا يُذبحون هنا ، وقادتنا هناك غارقون فى النـوم أو منشغلون بالتفاوض مع إسرائيل" .

وصبـاح اليـوم التـالى كـانت جامعـة القاهـرة تبـدو وكأنهـا امتـداد لإحـدى المـدن الفلسطينيـة. فقد امتـلأ حرمها بجموع الشباب يطالبون بالرد على إسرائيل وعلـى انتهاكاتهـا لمسجـد إبراهيم الخليل . وتصدى لهم البوليس يمنعهم مـن الخـروج مـن الحـرم الجـامعى . وشهـد السفير الإسرائيلى فى القاهـرة "دافيـد سـلطان" أمـام الرئيـس "مبـارك" فيمـا بعـد أن البوليس المصـرى بـذل ما يعتبر فى رأيـه جهـدا خارقـا للعـادة فـى منـع التظـاهرات مـن أن تعـبر شارع الجامعة المـؤدى إلى كوبرى الجامعة ، والذى تقـوم إلى جانب مدخله الأيسـر تلـك العمارة التى تتخـذ السفارة الإسرائيلية من الدورين العلويين فيها مقرا لها . وقال إنـه "كـان فى الشرفة وراقـب محاولات البوليس لصد الطلبـة ، وفى لحظـة من اللحظات تصور أن مـد الشباب سوف يكتسح كل شـىء أمامه ، وراح يعـد نفسه لأسـوأ الاحتمـالات" .

□

كان هذا كله يصل إلى مقر قيادة المنظمة فى تونس ، وكان موقف السيد "ياسر عرفات" يتغير دقيقة بعد دقيقة . وعندما بلغته أنباء ما حدث فى جامعة القاهرة صاح فيمن حوله "الله أكبر ، استيقظ الغول" ـ وكان "الغول" فى رأيه هو جماهير الشعب المصرى ، وكان "عرفات" كثيرا ما يشير إلى النزعة الوطنية فى مصر باعتبارها "الغول" الذى يستطيع أن يقلب موازين القوة .

كان مجلس جامعة الدول العربية فى القاهرة قد دعى إلى اجتماع طارئ . وتداول سفراء سوريا وليبيا والجزائر والسودان فى مشروع قرار يقدمونه إلى مجلس الجامعة العربية يدين العملية السلمية بأسرها ويشجب إدارة منظمة التحرير لها . وكان على الحكومة المصرية أن تتخذ موقفا يعبر عنه وزير خارجيتها فى اجتماع مجلس الجامعة . وكانت هناك نقطة أولية لا بد من استيضاحها لأن "وارين كريستوفر" وزير الخارجية الأمريكى اتصل تليفونيا بوزير الخارجية المصرى وأبلغه أنه تحادث مع "ياسر عرفات" بنفسه واتفق الاثنان معا على أهمية احتواء ردود الفعل ، وحتى لا تؤثر على مسار عملية السلام . وكان "عمرو موسى" يريد أن يعرف بالضبط ما الذى دار فى الحديث بين "كريستوفر" وبين "عرفات" . وجرى اتصال مع تونس لسؤال رئيس منظمة التحرير عما إذا كان وافق على استمرار المحادثات كما نسب إليه وزير الخارجية الأمريكى ، وكان رد "عرفات" أنه "لم يوافق على استمرار المحادثات ، وأنه قال لوزير الخارجية الأمريكى ما مؤداه "نعم ، ولكن" ـ أى أننا نريد السلام ولكننا لسنا مستعدين لقبول ما جرى أو السكوت عليه ." ثم أضاف السيد "ياسر عرفات" أن "كريستوفر" سمع "نعم" ولكنه لم يسمع "ولكن" ـ أى أنه "أخذ من كلامه ما يناسب سياسته وترك الباقى ـ وهذا ليس صحيحا ، وأنا لى شروط قبل أن أقبل باستئناف المفاوضات ."

وتشكلت مجموعة عمل سريعة فى مكتب وزير الخارجية المصرى برئاسة المستشار "نبيل فهمى" مدير مكتب الوزير . وكانت توصيات المجموعة :

- إن بيانات بالإدانة سوف تصدر عن مجلس الجامعة العربية وعن مجلس الأمن . وهذه إجراءات تقليدية ومعروفة .

- إن الفلسطينيين فى هذا الوقت لا يحق لهم أن يكتفوا بأن تكون لديهم "شروط" ـ وإنما يتحتم عليهم أن تكون لديهم "مطالب" .

- إن أول طلبات الفلسطينيين يجب أن تكون : إدانة الجريمة عالميا ـ سياسيا وأخلاقيا وقانونيا ـ ثم المطالبة بتحقيق فى ظروف الجريمة يكشف مدى اشتراك عناصر أخرى غير "جولدشتين" ، ومن ذلك يمكن التطرق إلى مسألة الاستيطان سواء فيما يتعلق باستمرارها أو بالسلاح المكدس فى المستوطنات .

- إن منظمة التحرير يتعين عليها فى هذه اللحظات أن تتصرف بيقظة وأن تمارس "التقل" فيما يصدر عنها قولا وفعلا ، حتى تستطيع الاستفادة من كل الأوراق التى وضعتها مأساة الخليل فى يديها .
- وأخيرا فإن ضغط الرأى العام الدولى والعربى على المستوى الرسمى وعلى المستوى الشعبى يعطى للفلسطينيين الفرصة للحصول على تنازلات إسرائيلية يمكن أن تكون لها قيمة حقيقية فى حالة استئناف المفاوضات ـ وهذه هى المسألة التى يمكن التفكير فيها الآن .

وعندما عرض تقرير المجموعة على وزير الخارجية "عمرو موسى" كان رأيه أن أول ما يجب أن يطالب به الفلسطينيون فى الأرض المحتلة الآن هو "حماية دولية للسكان المدنيين تقدمها لهم الأمم المتحدة" .

وكانت المشاعر العربية والإسلامية تزداد حدة لحظة بعد أخرى ـ ولم يكن من شأن ذلك أن يلغى الحاجة إلى عملية إدارة سياسية .

وبعث السيد "عمرو موسى" إلى تونس رسالة رسم فيها خطوط ما توصلت إليه وزارة الخارجية المصرية بشأن الخطوات القادمة .

ثم وقعت حادثة تفجير فى كنيسة "سيدة النجاة" فى بيروت وقتل أربعة أشخاص. وكان واضحا بما لا يقبل الشك أن قنبلة الكنيسة جرت إما بترتيب من "الموساد" (المخابرات الإسرائيلية) وإما بإيحاء منها لامتصاص الغضب العربى وبحيث يظهر أن كل الأماكن المقدسة للعرب المسلمين والمسيحيين معرضة لمثل ما جرى فى الحرم الإبراهيمى . ولم تؤد تغطية الجريمة بجريمة أخرى إلى تشتيت المشاعر العربية ، بل أدت إلى العكس ، لأن القصد كان واضحا بأكثر مما يمكن أن تضلل عنه أية محاولة من هذا النوع .

□

وحاول وزير الخارجية الإسرائيلى "شيمون بيريز" أن يتصل بتونس وأن يتحدث بنفسه مرة أخرى إلى السيد "ياسر عرفات" ليبلغه بقرار صدر عن مجلس الوزراء الإسرائيلى باستنكار ما وقع ، وإبلاغه أيضا أن المجلس سوف يعلن بعد قليل تشكيل لجنة تحقيق خاصة تبحث ظروف الحادث والملابسات التى دخل فيها "جولدشتين" إلى الحرم الإبراهيمى ، وما إذا كان له شركاء أو إنه تصرف فى هذا الأمر بمفرده . ولكن

"ياسر عرفات" رفض تلقى مكالمة "شيمون بيريز" . وفى الأيام الثلاثة اللاحقة للحادث كرر "شيمون بيريز" محاولاته للاتصال بـ"عرفات" تسع مرات ، وكان الرد على سكرتاريته في كل مرة بأن رئيس المنظمة ليس موجودا فى مقرها ، وهو خارجها ويصعب الاتصال به.

واتصل كل من "شيمون بيريز" و"رابين" بعدد من الساسة المصريين ، وطلب كلاهما إقناع المنظمة بمواصلة العملية السلمية . وكان رد الرئيس "مبارك" على "رابين" فى إحدى هذه المرات : "إن المنظمة الآن فى وضع لا يسمح لها بالمضى فى المحادثات ، ويجب إعطاؤها بعض الوقت دون ضغط عليها" .

ولم يكن امتناع السيد "ياسر عرفات" عن تلقى مكالمات وزير الخارجية الإسرائيلى كافيا ، وإنما كان لا بد من تصور كامل لإدارة الأزمة المفاجئة . وبعث السيد "ياسر عرفات" برسالة يطلب فيها المجىء بنفسه إلى القاهرة . وتلقى "أبو عمار" من القاهرة رجاء بالانتظار حتى تتضح الظروف الإقليمية والدولية أكثر ، وبحيث يمكن رسم خطوط للتحرك السياسى أوضح .

وفى نفس الوقت تلقت القاهرة رسالة من إسرائيل بأن "شيمون بيريز" يريد أن يجىء إليها لبحث "الحوادث الأخيرة" . وكان الرد مرة أخرى برجاء الانتظار والاكتفاء بالتشاور، مع ملاحظة "أن القاهرة تنتظر أن تتلقى من الحكومة الإسرائيلية تصورا يمكن قبوله لمواجهة الأزمة وكل هذه العواقب الخطيرة المتداعية بعدها" .

وتلقت وزارة الخارجية المصرية برقية من سفارتها فى تل أبيب تقول إن هناك مبعوثا إسرائيليا خاصا يريد أن يجىء إلى القاهرة فى زيارة سرية يصحبه فيها السيد "جميل الطريفى" عمدة مدينة البيرة . وبعد محاولات للاستيضاح تبين أن المبعوث الإسرائيلى هو نفسه الكولونيل "جاك نيريا" (وكان التحقيق فى الشكوى التى أثارها "بيريز" ضده قد انتهى بثبوت أنه لم يتجاوز فيما قال ، ثم كان أن عاد "نيريا" إلى عمله فى مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلى) . وكان الرد أيضا بأفضلية الانتظار حتى تتضح أبعاد الأزمة وتداعياتها سواء فى الأرض المحتلة أو فى المجتمع الدولى .

□

وفى اليوم التالى كانت عجلة الحوادث تدور : نطاق الاضطرابات يتسع فى الأرض المحتلة ـــ ومجلس الأمن على وشك أن يجتمع ـــ ودول الاتحاد الأوروبى تطالب بإجراء

تحقيق تظهر به مسئولية الحادث بما يترتب على الحكومة الإسرائيلية أن تتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية الفلسطينيين — وسوريا والأردن تنسحبان من محادثات واشنطن — والرئيس "كلينتون" يتصل أكثر من مرة بالرئيس "حسنى مبارك" يطلب مساعدته فى احتواء الموقف . وتواصلت ردود الفعل محدثة آثارها فى المنطقة وفى العالم .

ويوم أول مارس كانت التعبئتان النفسية والسياسية فى ذروتهما . فالأراضى المحتلة فى حالة ثورة ، ومجلس الوزراء الإسرائيلي فى حالة انعقاد دائم ، وهو يشعر أن المذبحة قد وضعت إسرائيل بالفعل موضع الاتهام أمام المجتمعين الدولى والعربى حتى فى الدول التى سبقت إلى مسيرة السلام وأيدت استمرارها . ولفت الأنظار أن كل زعماء أحزاب المعارضة فى مصر التقوا على حفل إفطار يقيمه الإخوان المسلمون كل سنة — لكنه هذه السنة اكتسب طابعا خاصا بسبب مذبحة الخليل . وكان أن وقع رؤساء كل الأحزاب السياسية المصرية المعارضة بيانا طالبوا فيه بإعادة النظر فى معاهدة السلام مع إسرائيل ، بما فى ذلك وقف التطبيع والتأكيد على استمرار المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل .

وبدأ مجلس الأمن اجتماعه لبحث مذبحة الحرم الإبراهيمى ، وطلبت مصر إلى مجلس الأمن أن يصدر قرارا يحتوى على ثلاثة مبادئ وجدتها ضرورية لمواجهة الأزمة ، وهى : إنشاء لجنة تحقيق مستقلة تستقصى وقائع الحادث وملابساته وتبدى حكمها فى المسئولين عنه — صدور إعلان بأن استمرار عمليات الاستيطان غير شرعى — والإقرار بحق الفلسطينيين فى الدفاع عن أنفسهم وإعطائهم الوسائل اللازمة لذلك ، إلا إذا كان مجلس الأمن على استعداد لتوفير حماية دولية مسلحة تقوم على هذه المسئولية .

وكان المندوب الفلسطينى فى مجلس الأمن يضيف إلى ذلك مطلبا آخر هو ضرورة مصادرة أسلحة المستوطنين وتجريد المستوطنات من السلاح . وكانت الولايات المتحدة تبذل قصارى جهدها لتعطيل مجلس الأمن عن إصدار قرار لا يكتفى بمجرد الإدانة المعنوية ، وإنما يشير إلى إجراءات عملية على الأرض تسمح بمعاقبة المسئولين وتضمن عدم تكرار المأساة .

كانت الوساطة الدولية على أشدها لامتصاص حدة الأزمة وتخفيض درجة حرارتها ، واحتوائها بسرعة بما يسمح باستئناف المحادثات الإسرائيلية — الفلسطينية ، وبما يفتح الطريق أمام صدور قرار من مجلس الأمن يمكن أن تقبله ولا تعترض عليه السيدة "مادلين أولبرايت" المندوبة الدائمة للولايات المتحدة لدى مجلس الأمن :

● كانت أولى المحاولات وساطة قامت بها اليونان باعتبارها رئيسة للمجموعة الأوروبية فى ذلك الوقت . ووصل إلى القاهرة يوم ٣ مارس وزير الخارجية اليونانى "كارلوس بابليوس" يناقش مع المسئولين فيها سبل تطويق الأزمة بما يؤدى إلى استئناف مسيرة السلام . وكان وزير خارجية اليونان يحمل معه حلا أبلغ إليه دون شك بواسطة إسرائيل.

كانت إسرائيل تريد استعمال المجموعة الأوروبية ، وكان "شيمون بيريز" على ما يبدو هو الذى أوحى للمجموعة بإمكانية وجود دور لها فى أزمة الشرق الأوسط بعد أن كانت قد أوقفت كل جهودها تاركة العملية بأسرها للولايات المتحدة الأمريكية التى اعتبرتها اختصاصا تنفرد به وتحتكره .

وكان التصور الذى يحمل وزير خارجية اليونان فكرته العامة — وهى فكرة جنينية فى ذلك الوقت توصل لها وزير العدل الإسرائيلى "ليبائى" — تجس النبض فى اقتراح إسرائيلى بحل منظمة "كاخ" — وهى المسئولة عن تهييج المستوطنين بواسطة رجال من أمثال "جولدشتين" . لكن الغريب فيما كان يحمله وزير خارجية اليونان هو أن الحكومة الإسرائيلية كانت تطرح فكرة حل "كاخ" وبالتوازى معها ، وربما للتغطية عليها أو للاستفادة من الأزمة ، سحب الترخيص الذى يسمح لـ"حماس" بالوجود القانونى .

وكان السيد "ياسر عرفات" قد وصل إلى القاهرة والتقى مع وزير خارجية اليونان فى مطارها . ولم يكن رئيس منظمة التحرير متحمسا للاقتراح الأوروبى ، واعتبره نوعا من تمويع الحق والدوران حوله .

● وكانت المحاولة الثانية أوروبية أيضا ، وصاحبها هو الرئيس "فرانسوا ميتران" . كان تناول الأوروبيين لأزمة الشرق الأوسط قد أصبح ممارسة غريبة . فحين تكون هناك تنازلات مطلوبة من العرب فإن الدور الأوروبى يظهر وينشط . وأما إذا كانت التنازلات مطلوبة من إسرائيل فإن الدور الأوروبى يظل صامتا وساكنا — فإذا تحرك فحركته بالنصيحة إلى العرب أن يتجهوا إلى الولايات المتحدة لأنها هى التى تملك الوسائل للتأثير على القرار الإسرائيلى .

وبدأت المحاولة الفرنسية باتصال تليفونى من باريس أجراه المسيو "برونو دوليه" الذى كان مستشارا للشئون الأفريقية فى قصر الإليزيه ، وسبق له العمل فى عواصم أفريقية عديدة آخرها القاهرة التى خدم فيها وزيرا مفوضا لمدة سنتين . وكان اتصال "دوليه" بالسفير الفلسطينى فى القاهرة . وفى هذه المكالمة كان "دوليه" يقول للسفير "سعيد كمال" وباللغة العربية التى يتقنها : "إن الرئيس ميتران يريد أن يدعو كلا من ياسر عرفات وشيمون بيريز إلى تناول طعام الإفطار معه بعد يومين فى قصر الإليزيه ، والهدف من هذه الدعوة هو بحث إمكانية حل الأزمة والحلول المناسبة للخروج منها بشىء يرضى كل الأطراف ويسمح باستئناف مسيرة السلام".

ويمكن الاستنتاج بسهولة أن هذا الاقتراح مثل سابقه فى مهمة وزير خارجية اليونان فى القاهرة ، كان من وحى "شيمون بيريز" الذى برع فى سياسة إجهاض المواقف العربية ومنعها باستمرار من أن تتفاعل بقواها الذاتية لكى تتحول إلى كتلة ضغط إقليمى أو

دولـى يواجـه إسرائيل بما هى غير قابلة أو مستعدة لـه . وفى ظـن "بيريـز" ـــ وقد كـرر المحاولة عدة مرات ــ أن لقـاء إسرائيليا ــ فلسطينيا فى هذا التوقيت يمكن أن يصد أطرافـا كثيرين عن التدخـل فى الأزمـة ، ثم أن يعطـى الإيحاء بأن البخار المحبوس فيها قد جـرى تنفيسـه ، وأن الطرفين المباشرين الإسرائيلى والفلسطينى علـى اتصال ببعضهمـا ، ومـن ثـم فليس لآخرين أن يتدخلوا وإلا فهـم "ملكيـون أكثر من الملـك" .

ولم يكن فى مقدور السيد "ياسر عرفات" أن يرفـض طلبا للرئيس "ميتران" ، فهو يقدره. ثم إن فكـرة تدخل الرئيس الفرنسـى فـى الأزمـة واجتمـاع على مستوى القمـة فـى قصـر الإليزيه كانت تبـدو براقـة . ومع ذلك فإن السيد "ياسر عرفات" طلـب مهلـة للتفكـير .

● ولم يكن "رابـين" يريد أن يترك إدارة الاتصالات الدولية بشأن الأزمـة لوزير خارجيته "شيمون بيريز" . وعلى نحـو ما فإن "رابين" تصـرف وكأنه يحـس أن "بيريز" يريد استغـلال الأزمـة لحسابه ولإحراج "رابـين" وهو المسئول عن قضايا الأمـن . وفكر "رابين" فى الاتصـال تليفونيا بـ"ياسر عرفات" وهو فى تونـس قبل مجيئـه إلى القاهـرة ، لكنـه تـردد ، فلـم يكـن يريد لرئيس منظمة التحرير أن يكون فى وضـع يسمح له برفـض تلقـى مكالماته كما فعـل مـع "بيريـز" . وهكذا كتـب الدكتور "أحمد الطيـبى" إلى السـيد "ياسـر عرفـات" رسـالة عاجلـة يقول له فيها : "إن رئيس الحكومة الإسرائيلية يريد الاتصال بـه تليفونيا وتقديم اعتذاره عـن الحـادث ، وإخطاره بأنه ستكون هناك لجنـة خاصة للتحقيق . لكن رابـين يريـد أن يطمـئن أولا إلى أن فى استطاعته أن يتحـدث معـه (أى مع "عرفات") ."

وفى الوقت الذى وصلـت فيه هذه الرسالة إلى رئيـس منظمة التحريـر كـان قـد سـافر إلى القاهـرة وأصبح نشاطـه فيها موصـولا بموقـف القاهـرة .

كان خـلاف "رابين" مع "بـيريز" هـو اعتقـاد "رابـين" أن واشـنطن والقـاهرة أقـدر علـى المساعدة من اليـونان وفرنسـا ، وليـس العكـس كـما ظـن وزيـر خارجيتـه .

□

فى القاهـرة كان الاتجاه السائد هو أنه لا تدخـل وزيـر خارجيـة اليونـان يجــدى ، ولا محاولة الرئيس "ميتران" قادرة ، لأن حقائق الأمـور تضع الزمـام فـى يـد الولايـات المتحـدة قبل غيرها من القـوى الدولية . وإذا كان هناك مـن حـل وسـط يمكـن الوصـول إليـه ، فمـن الأولـى إعطـاء هذه الميزة للرئيس "كلينتون" الذى كان هو ووزير خارجيته علـى التليفـون مـع القاهـرة عـدة مرات كل يـوم .

وكان "رابين" على اتصال دائم بالرئيس "مبارك" تليفونيا . ويبدو أن القاهرة توصلت إلى أن الحكومة الإسرائيلية "لديها ما تقوله لمنظمة التحرير" . وربما أن الرئيس "مبارك" كان إلى جانب ذلك يشعر بأن تعبئة الرأى العام العربى والرأى العام المصرى قد بلغت مداها ، وآن الوقت للعمل الدبلوماسى كى يؤدى دوره . وهكذا وجه الرئيس "مبارك" دعوة على الإفطار (كان شهر رمضان ما زال متصلا) للسيد "ياسر عرفات" حضرها عدد من القادة الفلسطينيين والسياسيين المصريين . وعلى مائدة الإفطار كان الحديث عاما عما حدث فى الحرم الإبراهيمى ، وفى الأرض المحتلة ، وفى مجلس الجامعة العربية ، وفى مجلس الأمن .

وبعد انتهاء حفل الإفطار دعا الرئيس "مبارك" ضيفه إلى الطابق العلوى فى قصر الرئاسة فى مصر الجديدة ، وراح يتحدث عن الضرورات التى تفرض نفسها لحل الأزمة بدلا من تركها للتفاعلات غير المسئولة من وجهة نظره . كان "ياسر عرفات" ثائر الأعصاب، وقد أبدى أنه على استعداد أن يستقيل من موقعه ، ووصل إلى حد أن يقول إن لديه من الشجاعة أن يذهب إلى الدكتور "جورج حبش" ويقول له : "إننى أخطأت حين تصورت أن هناك حلا سلميا للأزمة ، وإنك كنت على حق حين تمسكت بأنه لا حل غير حمل السلاح" . ولم يكن الرئيس "مبارك" مقتنعا بهذا الكلام ، وكانت وجهة نظره أن الوقت مناسب لكى تحصل المنظمة على ترضية كافية للشعب الفلسطينى ، وربما على مكاسب أيضا . وكانت وجهة نظر الرئيس "مبارك" أنه لا فائدة من إحراج حزب العمل برئاسة "رابين" وإحداث أزمة وزارية فى إسرائيل تؤدى إلى انتخابات سوف يجىء فيها حزب الليكود برئاسة "ناتانياهو" . كذلك كانت وجهة نظر الرئيس "مبارك" أن حزب العمل يهتم بالرأى العام العالمى فى حين أن الليكود لا يأبه . ثم إن حزب العمل متأثر بالدولية الاشتراكية ومركزها أوروبا ، فى حين أن الليكود لا يهتم . ثم إن حزب العمل يقيم وزنا للرأى العام العربى وأما الليكود فهو "ليس حساسا لمثل هذه الاعتبارات" .

وترتيبا على هذا ، فقد كان من الضرورى إعطاء مخرج لـ"رابين" يثبت به حسن نواياه وقدرته على تقديم شىء للفلسطينيين يرضيهم فى شأن ما حدث ويطمئنهم إلى عدم تكراره .

وكان فى علم الرئيس "مبارك" أن "رابين" يريد أن يرسل مبعوثا له إلى القاهرة لا يلفت وصوله إليها أنظار الإعلام العالمى . ثم يكون هناك بحث هادئ فى الحلول قبل الإعلان عن أى شىء . ومثل هذا النهج ليس منه ضرر . وبينما الحديث متصل بين "مبارك" و"عرفات" أقبل أحد أفراد السكرتارية يقول للرئيس إن "رابين" على الخط تليفونيا من إسرائيل . ورد الرئيس بأنه سوف يتوجه لتلقى المكالمة من مكتبه وهو مجاور للقاعة التى كان يجلس فيها مع السيد "ياسر عرفات" . وكان "عرفات" قد عرف بشكل مرتب بأن "رابين"

سوف يتصل بالرئيس "مبارك" عقب الإفطار فى قصر الرئاسة بمصر الجديدة أثناء وجوده ("عرفات") هناك . وفى حين توجه الرئيس "مبارك" إلى مكتبه للحديث تليفونيا مع "رابين" كان السيد "ياسر عرفات" يجلس فى القاعة المجاورة وقد انضم إليه كل من وزير الخارجية "عمرو موسى" والمستشار "أسامة الباز" . ولم يطل انتظاره ، ذلك أنه بعد دقيقتين تقريبا جاء من يطلب السيد "ياسر عرفات" ، ثم جاء من يطلب وزير الخارجية "عمرو موسى" . وبقى الثلاثة فى غرفة مكتب الرئيس لمدة ربع ساعة ، وخلالها كان "عرفات" قد تحدث فعلا مع "رابين" .

□

كانت المعلومات من القدس بأن الصراع بين "رابين" و"بيريز" قد وجد فى مذبحة الحرم الإبراهيمى مناسبة أخرى للتعبير عن نفسه . فبعد أن عُرف نبأ نجاح "رابين" فى الاتصال مع رئيس منظمة التحرير كان "بيريز" يريد أن يستعيد الزمام فى يده ، بينما "رابين" مصر على الاحتفاظ به فى يده . وكان "بيريز" يريد أن يرسل للقاء "عرفات" مجموعة يرأسها "يورى سافير" ، لكن "رابين" يريد أن يبعث برئيس مكتبه العسكرى البريجادير "جيلدات آموس" ومعه الكولونيل "جاك نيريا" .

وصباح اليوم التالى كان "آموس" و"نيريا" هما اللذان وصلا إلى القاهرة . وفى الساعة العاشرة صباحا كان كلاهما ، وفى صحبتهما السفير الإسرائيلى فى القاهرة "دافيد سلطان"، يدخلون إلى قصر الأندلس للقاء رئيس منظمة التحرير .

وبدأ "جاك نيريا" نقل رسالة من "رابين" باعتبار أنه يعرف "عرفات" من قبل والتقى به عدة مرات . ومن ورقة فى يده راح الكولونيل "نيريا" يقرأ اعتذارا من "رابين"، وحاول أن يجعل لهجته تنقل شعورا بالأسى لما حدث فى الحرم الإبراهيمى . وكان بين ما قاله "جاك نيريا" إن "رئيس الوزراء حاول باستمرار أن يضع حدودا من حول عملية الاستيطان . وفرّق بين استيطان أمنى له ضرورات ، واستيطان سياسى سمح به حكم الليكود وهو ـــ أى "رابين" ـــ يحاول السيطرة عليه وحصره ." وهنا قاطعه السيد "ياسر عرفات" قائلا له : "اسمع يا جاك ، هناك فى الاستيطان السياسى نوعان : نوع يتبع الجيش ، ونوع آخر يتبع اتحادات المستوطنين . وهناك سياسيون يلعبون فى هذا الموضوع". ورد "جاك نيريا" بأنه مبعوث من رئيس الوزراء وهو المسئول عن الجيش والعمل السياسى معا فى إسرائيل ، وهو هنا يمثل رئيس الوزراء ومهمته تقتضيه إبلاغ رئيس منظمة

التحرير "بأسف الحكومة لما حدث وبقراراتها لعلاجه" . وواصل "جاك نيريا" كلامه فقال إن الحكومة قررت نزع سلاح حركة "كاخ" وحركة "كاهانا حى" (وهى حركة تأسست بعد اغتيال الحاخام "كاهانا" واختارت لنفسها اسم "كاهانا حى" بمعنى أن مؤسسها ما زال موجودا وأنها ستواصل العمل على أساس مبادئه وأساليبه) . ثم أضاف "نيريا" أن الحكومة قررت أيضا تشكيل لجنة تحقيق فى ظروف ما حدث فى الحرم الإبراهيمى وملابساته . وقاطعه السيد "ياسر عرفات" قائلا : "تحقيق على طريقة صبرا وشاتيلا" . ثم انفعل السيد "ياسر عرفات" وفاضت مشاعره ، وكان البريجادير "جيلدات آموس" ينظر إليه "بعيون تمساح" ــ على حد الوصف الذى استعمله أحد الحاضرين فى الاجتماع .

كان "آموس" ، وهو مهاجر من بولندا ، جالسا طوال الوقت يتابع وكأنه متفرج على المشهد وغير مشارك فيه ، فى حين كان السفير الإسرائيلى فى القاهرة "دافيد سلطان" ــ وهو من مواليد بورسعيد ــ مطرقا برأسه يتظاهر بالحزن والألم .

وتدخل البريجادير "جيلدات آموس" ليقول إن هناك نقطة يود الحديث فيها ، وهى تتعلق بالشرطة الفلسطينية العاملة تحت تصرف السلطة الوطنية فى غزة وأريحا . فأثناء مناقشة الاتفاق كانت المنظمة تطلب اثنى عشر ألف شرطى ، ولم يتأت فى المحادثات إلا موافقة إسرائيل على ستة آلاف فقط . والآن كان "جيلدات آموس" يقول إن مجلس الوزراء الإسرائيلى وافق على رفع العدد إلى تسعة آلاف . (وفيما بعد ارتفع العدد إلى اثنى عشر ألفا ثم إلى عشرين ألفا) .

وكان الكولونيل "جاك نيريا" ما زال يواصل كلامه قائلا إن رئيس الوزراء يريد إبلاغه أيضا بأن "الحكومة تفكر فى إجراءات أخرى سوف تبحثها فى اجتماعها القادم ، وسوف تعلن هذه الإجراءات فى ظرف أسبوع" . وقاطعه السيد "ياسر عرفات" مرة أخرى قائلا : "خلوها شهرين أو سنة" . وكان واضحا أن رئيس منظمة التحرير ما زال مستفزا إلى أقصى درجة . ومضى "جاك نيريا" يستكمل بقية الرسالة التى يحملها من "رابين" وآخر بند فيها هو تعهد من رئيس الوزراء الإسرائيلى بأنه ملتزم باتفاق غزة ــ أريحا وبالمواعيد المقررة لتنفيذه على الأرض . وتساءل "ياسر عرفات" : "وأين مجلس الأمن ؟"

كان السيد "ياسر عرفات" يصر على ضرورة صدور قرار عن مجلس الأمن . واتهم الإسرائيليين بأنهم ضغطوا على الأمريكيين لتعطيل صدور القرار .

كانت تلك هى النقطة الأولى فى رده على رسالة "رابين" وأضاف إليها مجموعة أخرى من المطالب . وكانت النقطة الثانية هى ضرورة توفير وجود دولى فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة . وكانت النقطة الثالثة الموافقة على مبدأ نزع سلاح المستوطنين ومنع خروجهم من المستوطنات حتى يتم ذلك . وكانت النقطة الرابعة تقديم موعد مناقشة مشكلة

الاستيطان دون انتظار للمرحلة الثانية المقررة طبقا لاتفاق أوسلو . وكانت النقطة الأخيرة هى ضرورة إخراج أربعين أسرة إسرائيلية تعيش داخل مدينة الخليل القديمة .

وانتهى اللقاء بوعد من "جيلدات آموس" و"جاك نيريا" بأنهما سوف يعرضان على رئيس الوزراء مطالب رئيس منظمة التحرير مع اعتقادهما بأن بعضها تصعب الاستجابة له ، لكن القرار بالطبع لرئيس الوزراء .

□

وعكست الخلافات الداخلية فى إسرائيل نفسها على ما يجرى فى القاهرة . فقد بدأت مواكب من الرسل السريين يصلون إلى القاهرة : وفد من "المؤسسة" (اليهودية والصهيونية فى الولايات المتحدة) يمثله "ستيف كوهين" الذى عاد إلى الصورة ينقل على التليفون رسائل من روما مؤداها أن "دانى أبراهام" و"هوارد سكوادرون" و"هنرى سيجلمان" من أقطاب "المؤسسة" يريدون أن يذهبوا إلى تونس لمقابلة "ياسر عرفات" وتصورهم أن يرتبوا زيارة يقوم بها "شيمون بيريز" لرئيس منظمة التحرير فى مقره فى تونس . وفى نفس الوقت وصل إلى القاهرة "يوسى جوينسيرا" وهو رجل أعمال إسرائيلى نشيط فى مجال المقاولات ، وأهم من ذلك فهو زوج ابنة "إسحاق رابين" .

كان هناك سباق بين الرجلين أيهما يتوصل قبل الآخر إلى تسوية الأزمة الناشئة عن مذبحة الخليل . ووصل الأمر فى أواخر شهر مارس إلى حد أن "ستيف كوهين" اتصل بتونس يقول إن هناك طائرة خاصة سوف تصل إلى تونس وعليها وفد على مستوى عال لمقابلة السيد "ياسر عرفات" فى مقره . ولم تكن هناك معلومات عن هوية ركاب هذه الطائرة . ثم تسربت أخبار بأن "شيمون بيريز" نفسه أحد ركابها مع مجموعة قليلة من مكتبه . وتبين أن الطائرة إسرائيلية . وكان "ياسر عرفات" يريد أن يواصل التعامل مع "رابين" لأنه "صاحب قرار" .

كان المقرر أن تقوم الطائرة الإسرائيلية من روما ، وكان على المنظمة ، طبقا لتصورات "ستيف كوهين" وغيره ممن فكروا فى الرحلة ، أن تتولى الحصول على إذن للطائرة بالنزول فى مطار تونس . ولم تكن قيادة المنظمة تريد هذه الطائرة أو "شيمون بيريز" الذى قيل إنه بين ركابها . وكان الاعتذار الجاهز هو أن مطار تونس لا يستقبل طائرات إسرائيلية . ويبدو بشكل ما أن الخبر تسرب فى إسرائيل فإذا الطائرة الإسرائيلية تستبدل بطائرة إيطالية ،

وإذا الوفد القادم عليها يمثل "رابين" وليس "بيريز" ، فقد رأسه الجنرال "أوزى ديان" ومعه الكولونيل "جاك نيريا" ، وانضم إليهما من وزارة الخارجية "يورى سافير" .

وكان رأى القاهرة لا يزال أن قيادة أى تحرك لحل الأزمة الآن لا بد أن يكون للولايات المتحدة . واتصل وزير الخارجية "عمرو موسى" بالسيد "ياسر عرفات" فى تونس ونصيحته هى مواصلة الخط مع الأمريكان ــ فذلك أفضل من كل المحاولات على الخطوط الأخرى . وكان رد السيد "ياسر عرفات" بأنه على استعداد إذا أخذت مصر زمام المبادرة ورتبت .

وأمكن ترتيب زيارة لـ"دنيس روس" المنسق العام للمفاوضات العربية ــ الإسرائيلية إلى تونس . وانضم إليه وزير خارجية روسيا "أندريه كوزيريف" . وكان السيد "ياسر عرفات" يريد أن تكون مصر ممثلة فى اجتماعه "مع الراعيين" الولايات المتحدة وروسيا لكى يعطيه حضورها دعما معنويا ودعما سياسيا .

وحاولت قيادة المنظمة أيضا أن ينضم المغرب إلى هذا الاجتماع . ولكن كلا من القاهرة والرباط كان رأيها فى النهاية أن يقتصر الاجتماع على السيد "ياسر عرفات" وممثلى الراعيين الدوليين . واتصل الرئيس "مبارك" بالسيد "ياسر عرفات" تليفونيا لمحادثة طويلة استغرقت ساعتين .

وأصبح الطريق مفتوحا أمام استئناف المفاوضات بين المنظمة وإسرائيل .

فى اللقاء مع "دنيس روس" أمكن التوصل إلى سيناريو لإخراج عملية استئناف المفاوضات . وكان السيناريو يتضمن الخطوات التالية :

١ ــ إنه مع صعوبة التقاء السيد "ياسر عرفات" بنفسه مع أى مسئول إسرائيلى الآن (بالذات "رابين") ــ فإن الحل العملى هو أن تقوم قيادة منظمة التحرير بتفويض السيد "فيصل الحسينى" لإجراء لقاء مع "شيمون بيريز" .

٢ ــ بعد لقاء "فيصل الحسينى" و"شيمون بيريز" يصدر قرار مجلس الأمن "وعلى أمل" ألا تستخدم الولايات المتحدة حق الفيتو .

٣ ــ بعد صدور قرار مجلس الأمن يعلن المندوب الفلسطينى لدى المجلس فى نيويورك "أن هذا القرار يمهد الطريق لاستئناف المحادثات بين منظمة التحرير وإسرائيل".

٤ ــ بعد ذلك يتوجه وفد إسرائيلى إلى تونس لمناقشة الطلبات الفلسطينية وأهمها وجود قوات دولية لحماية المواطنين الفلسطينيين .

وفى جلسة مجلس الأمـن بتاريخ ١٨ مـارس ١٩٩٤ ، أى بعـد قرابـة شـهر مـن وقـوع مذبحة الحـرم الإبراهيمى ، ناقش المجلس مشـروع القـرار رقـم ٩٠٤ ووافـق عليـه . ولكـن الولايات المتحدة تحفظت على الفقرة الثانية فى القـرار "لأنها وصفـت الأراضى المحتلة بأنها فلسطينية" ، وعلى الفقرة السادسة "لأنهـا اعتـبرت القـدس الشرقيـة جـزءا مـن الأراضـى المحتلـة" . وكان التفسير الذى أعطته المندوبة الأمريكية السفيرة "مادلين أولبرايت" لتحفظها بأن وصـف الأراضى المحتلة بأنها فلسطينية يسـتبق الحـوادث لأن حـدود إسـرائيل مسألـة معلقة إلى المرحلة الثانية ، ونفس الشـىء ينطبق على أى إشـارة إلى القـدس .

٣

صناعة النجوم !

" سوف نضطر إلى معاملة الأردن كدولة راعية للإرهاب "

(وزير خارجية أمريكا للملك الأردن على التليفون)

بدأ مسار المحادثات بين منظمة التحرير وإسرائيل يتحرك مرة أخرى بعد صدور قرار مجلس الأمن بوصول وفد إسرائيل إلى تونس . وكانت الشخصية الأولى فى الوفد الجنرال "أمنون شاهاك" نائب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى ، ومعه "يورى سافير" و"جاك نيريا" . وكان الهدف هو الإسراع بحصر كل المسائل الباقية والمعلقة لكى تعطى أولوية خاصة تركز عليها ، وحتى يمكن توقيع اتفاق تنفيذى لإعلان أوسلو بين رئيس منظمة التحرير ورئيس الوزراء الإسرائيلى . وفى الاجتماع الذى عقدته المجموعة الإسرائيلية فى تونس مع السيد "ياسر عرفات" أمكن حصر هذه المسائل الباقية فى ثلاث نقاط :

١ ـ تحديد منطقة أريحا .

٢ ـ ترتيبات الدخول من المعابر سواء من "رفح" مع مصر أو من جسر "اللنبى" مع الأردن .

٣ ـ أمن المستعمرات والطرق العرضية المؤدية إليها خصوصا فى منطقة غزة حيث يوجد تداخل شديد بدون مسافات فاصلة .

كانت تلك كلها مسائل عسكرية وهى من اختصاص "رابين" الذى تحدث فيها مع الجنرال "إيهود باراك" رئيس الأركان و"أوزى ديان" رئيس العمليات ، وقد توصلوا إلى حلول جاء "شاهاك" الآن ليعرضها فى تونس . وفى الواقع فإن المشكلة التى أخذت وقتا طويلا هى المعابر لأن الترتيبات بشأنها معقدة تختلط فيها اعتبارات الأمن الإسرائيلى باعتبارات الكرامة

الفلسطينية . وبالتالى ، كانت الحلول المقترحة ملتوية . ونموذج لهـا علـى سـبيل المثـال أن غرفة الدخول الفلسطينية هى أول ما يقابله الداخل ــ المعـبر ــ لكن هناك حائطا من المرايـا غير الظاهرة يجعل الضابط الإسرائيلى الجالس فى غرفة المراقبة التالية يرى الداخل من المعـبر فى نفس الوقت !

أما المشكلة الأولى (مساحة أريحا) فقد قال الجنرال "شاهاك" : "إنها لا تـزال مطروحـة للبحث فى إسرائيل ، وبالتالى فليس عنده شىء يخصهـا" .

وأما المشكلة الأخيرة (الطرق العرضية) فهى مسألة سهلة لأن تحديد هذه الطرق وحمايتها من مصلحة الطرفين ، وكلاهما لا يريد الآن أية اشتباكات بين الفلسطيـنى والإسرائيلى .

واتصلت المفاوضات فى القاهـرة حيث وافقت إسرائيل على وجود مراقبين للأمـم المتحـدة فى الخليل لمدة معينة ، وقدمت تعهدا بـأن القـوات الإسـرائيلية الموجـودة فـى غـــزة سـوف تنسحب فى الموعد المقرر فى اتفاق ٩ فبرايـر (بين "عرفات" و"بيريز") .

كانت مشكلة المعابر ومساحة أريحا لا تزالان تؤرقـان "ياسـر عرفـات" . وقـد ذهـب إلى المغرب يطلب تدخل الملك "الحسن" ، فهو فى أزمة الحرم الإبراهيمى سبب كثيرا من الحـرج لمصـر ، وهو يريد الآن من الملك "الحسن" أن يحمل بعض العـبء . وكانت نصيحـة الملـك هى ضرورة الاستمرار فى المفاوضات . وخلال الحديث قـال الملـك "الحسـن" لرئيـس منظمـة التحرير : "يا أبو عمار ، علينا أن نعترف أن هؤلاء الناس أقويـاء جـدا ، ولـك أن تتـأمل مـا فعلوه معك . إنهم استطاعوا فى أربـع وعشرين ساعة أن يغيروا صورتك من إرهـابى مطلـوب إلى صانع سـلام يدخل البيت الأبيـض ، ويتعشـى فى وزارة الخارجية ، ويتغدى فـى البنـك الدولى ، ويشرب الشـاى فى رقـم ١٠ داوننـج سـتريت" (مقـر رئيـس الـوزراء البريطـانى) . وروى الملـك إضافـة إلى ذلك أن العراقـيين طلـبوا منــه التوسـط لـدى الولايـات المتحـدة لرفـع الحصار . ورد عليه الأمريكيون بالشـروط التـى يطلبونهـا لرفـع الحصار عـن العـراق وكانت ثلاثـة :

١ ــ أن يتعهـد العراقيـون بعـدم اعـتراض مسـيرة السـلام لا مـع الفلسـطينيين ولا مــع الأردنيين ولا مع السوريين .

٢ ــ أن يبـدأ العـراق بإجراء اتصـال مع إسرائيل فى السـر أو فى العلـن ــ لا يهـم .

٣ ــ وأن تكون بغـداد جاهـزة بدورها للسـلام مع إسرائيل .

وكان تعليق الملـك أمام سامعيه : "لم يكن فى كل هذه الشروط شـرط أمريكــى واحـد ، وإنما كانت كلها كما ترون شروطا لإسرائيل" .

□

يـوم ١٣ أبريل قـام أحد الفدائيين الانتحاريين من منظمـة "حمـاس" بتفجـير أوتوبيـس إسرائيلى ، ووقـع عـدد من الجرحـى والقتلـى . وبعد خمسة أيـام أخـرى (يـوم ١٨ أبريـل) وقـع هجوم فدائـى آخر ضـد أوتوبيس إسرائيلى ثـان فى القـدس . وكـانت "حمـاس" تعلـن أنها سوف تنتقـم لضحايا مذبحة الخليـل فردا فردا ، وأن عـدد القتلـى الإسرائيليين لا بد أن يصـل لكى يتسـاوى مـع عـدد القتلـى فـى مجـزرة الحـرم الإبراهيمـى . وكـانت بيانـات "حماس" تحاول أن تشرح الفارق بين عمليات المقاومة الإسلاميـة وبين ما فعله "جولدشتـين". فمقاتلو "حمـاس" يذهبون إلى قلـب إسرائيل ويقومون بعملياتهم مضحين بأنفسهم عـارفين أنـه المـوت بغير نجـاة ، وأما ما فعلـه "جولدشتـين" وغيره من العسكريين فهو عمليات قتـل تـتم ضـد مدنيين عـزل يصلون فى مسجـد أو يتصادف مرورهـم على قارعة الطريـق .

على أن "رابين" لم يترك لهذه العمليات الفدائيـة أن تعطـل مسـيرة المحادثـات ، بـل على العكس دفعته إلى الإسراع أكثر ، فـإذا هـو يـأذن لوزيـر خارجيتـه "شـيمون بـيريز" بـأن يلتقـى مع "عرفات" فى بوخارست يوم ٢٢ أبريـل ، ثـم يظهـر بعـض التسـاهل فـى موضـوع المعابر ، لكنه يظـل على موقفه بالنسبة لمساحة منطقة أريحـا .

فى نفس الوقت فإن "رابين" وجـه إنـذارا إلى الملـك "حسـين" لأن المتحدثـين الرسميـين باسم "حمــاس" كـانوا يعلنـون مـن مكتـب لهـم فـى العاصمـة الأردنيـة عـن عمليـاتهم فـى إسرائيل، ويقومون بذلك من خلال مؤتمرات صحفية علنية ومفتوحـة .

واتصـل "وارين كريستوفر" وزير الخارجية الأمريكى بالملك "حسين" يقول له إن صــدور بيانات "حمـاس" عن عملياتها الإرهابية من عمـان يعـرض الأردن لأن يوضع اسمه فى قائمـة الدول التى تشجع الإرهاب ، مما يعرضه للمعاملة التى يلقاها ذلك النـوع من الـدول ، وهـى معاملة تفـرض أنواعا من العقوبات الاقتصادية والمقاطعة السياسيـة !

وفى يوم ٢٩ أبريل تـم فى باريـس توقيع اتفاق اقتصادى بين إسرائيل ومنظمة التحرير . وكان الملك "حسين" فى لنـدن يجرى اتصالات مـع الإسـرائيليين وبينهـم "شـيمون بـيريز" . واعتبر الملـك أن الاتفاق الاقتصادى بين المنظمة وإسرائيل يوجـه - على حـد تعبيره - ضربـة قاتلة إلى اقتصاد بـلاده . وإن "الدينار الأردنى سوف يهـوى إلى الحضيـض" . وقـرر الملـك "أن يخرج للعلن وأن يعلن أنه ذاهـب إلى الولايات المتحدة لإنهاء اتفاق سـلام مع إسرائيل لأن المسألة أصبحت بالنسبة له مسألة حيـاة أو مـوت" .

وكان الجنرال "دانى روتشيلد" مسئول الإدارة المدنية الإسرائيلية فى الأرض المحتلة يكتب إلى رئيس الوزراء طالبا سرعة توقيع الاتفاق بين رئيس وزراء إسرائيل ورئيس منظمة التحرير ، لأن التيارات الإسلامية تكسب أرضية جديدة كل يوم وهيبتها تزداد فى مدن الضفة ، وقد ارتفعت شعبيتها بسرعة طبقا لتقديرات لديه من ١٨٪ إلى ٣٩٪ منذ "حادثة الحرم الإبراهيمى . ولاحظ الجنرال فى حديث له مع كل من الدكتور "مصطفى خليل" والسفير المصرى فى إسرائيل "محمد بسيونى" أن "القيادات المحلية المنتمية إلى التنظيمات الإسلامية تكسب شعبية متزايدة لأنها تعرض نفسها على الناس بكفاءة أكثر وبنزاهة أكثر" !

□

كانت القاهرة هى المكان الذى فرض نفسه تلقائيا لتوقيع الاتفاق بين "عرفات" و"رابين" ، وذلك بطبيعة الدور الذى قامت به القاهرة فى دفع المحادثات بين الفلسطينيين والإسرائيليين . وكذلك فإن القاهرة كانت المكان الذى تم فيه توقيع اتفاقية إعلان المبادئ طبقا لبيان أوسلو . واختير يوم ٤ مايو ـ وهو عيد ميلاد الرئيس "مبارك" ـ ليكون يوما للتوقيع وحفاوة واحتفالا به . وتقرر أن تكون المناسبة على نطاق مشهود ، واختير لها قصر المؤتمرات فى مدينة نصر .

وكان هناك حرص شديد على أن تبدو مصر كلها ممثلة فى الاجتماع بما فى ذلك أن يدعى إليه كل الرسميين ، ابتداء من رئيس الوزراء وحتى المحافظين ، ورئيسى مجلسى الشعب والشورى ورؤساء اللجان فى المجلسين ، وعدد من قادة الأحزاب السياسية فى مصر ، إلى جانب الرؤساء الدينيين بمن فيهم شيخ الأزهر وبابا الأقباط ومفتى الديار المصرية . [وكان شيخ الأزهر فى رحلة علاج فى الخارج ، لكن البابا "شنودة" الثالث والدكتور "محمد سيد طنطاوى" حضرا الاحتفال] . ودعى إلى الحفل كذلك عدد من الفنانين والأدباء والكتاب لأن القصد كان إظهار أن مصر كلها تؤيد عملية السلام .

وحين بدا أن الدكتور "عصمت عبد المجيد" متردد فى الحضور لأنه يعتبر نفسه ممثلا لكل الدول العربية ، وهى فى معظمها بعيدة عن عملية السلام ـ اتصل به الرئيس "مبارك" فى الصباح الباكر وطلب إليه ضرورة حضوره . وخلال الحديث سأله "من هم هؤلاء الذين تريد أن تجاملهم بالاعتذار عن عدم حضور الاحتفال ؟ .. القذافى أو الأسد أو من ؟" ـ واستجاب الدكتور "عصمت عبد المجيد" ، وشارك أمين عام جامعة

الدول العربيـة فى الاحتفـال رغم أنـه حتى الصبـاح الباكـر من يـوم ٤ مايـو كـان من رأيـه الاعتـذار !

وبرغم كل الاستعدادات الكبيرة والمظاهر الاحتفالية ، فقد كان هنـاك فـى أجـواء قاعـة المؤتمرات شعـور بالقلـق . ولعل الذى أوحـى بذلك من اللحظة الأولـى هو شكل المسرح الـذى أعـد للتوقيع . فقد بـدا أقرب إلى مسارح العروض الفنية منه إلى مسرح لصنع التاريـخ . كان المسرح خاليا إلا من مكتـب واحـد فـى وسطـه وضـع وراءه كرسـى لكـل من يجـىء دوره للتوقيع على أوراق الاتفاق . وكانت خلفية المسـرح ستائر من حريـر ملـوّن تظهـر من خلالهـا مشاهد فرعونية بينها الأهـرامات وأبـو الهـول وعازفـة "هـارب" راكعـة على ركبتيهـا . وكان المفروض أن يدخـل رؤساء الوفود المشاركة فى التوقيع ("رابين" و"بيريز" ـ و"عرفـات" و"أبو مازن") ـ ومعهم الرئيس "حسنى مبارك" ووزير الخارجـية "عمـرو موسـى" ، وينضـم إليهم وزيـر خارجية الولايات المتحدة ("وارين كريستوفر") ووزير خارجية الاتحـاد الروسـى ("أندريه كوزيريف") ثم تبـدأ المراسم بتوقيع الأوراق والخرائط ، ويبـدأ رؤساء الوفـود فـى إلقـاء كلمات قصيرة بينما يظـل الآخرون وقوفا على المسرح . وفجأة ، وعلى خشبة المسرح ، وأمام قاعـة حاشدة بالضيوف وعدسات التلفزيون وميكروفونات الإذاعـة تنقـل الوقائع إلى كـل قارات الأرض ـ حدث شـىء غريب . فقـد ظهـرت علـى المسرح علامـات ارتبـاك لم تكـن واردة فى ظنون مخرجى الاحتفال ومديريه ، ولم تلبث هذه الحركـة أن تحولـت إلى نـوع من الارتباك والفوضـى داما أربعين دقيقـة قبل أن يتداركها أحـد ويتقـرر وقـف المراسم وخـروج النجـوم الكبار من فوق خشبة المسرح ريثما يعثرون على طريقة يواجهون بها ما فاجـأ الجميـع ولم يكن فى حسابهـم .

□

كانت الصحفية "كاريل ميرفى" مراسلة جريدة "الواشنطن بوست" بين شهود الاحتفـال، وكان لديها التنبه لكى تحس منذ اللحظة الأولى بأن شيئا ما خارج السيناريو قـد حـل علـى المسرح . وراحت بسرعة تكتب تفاصيل ما يجرى أمامها من تحركات ، وبذلك أصبح لديهـا سجـل كامل مكتـوب أرسلت بـه إلى "الواشـنطن بوسـت" فـور انتهـاء الاحتفـال . وكتبـت "كاريل ميرفى" بالنـص ما يلى :

"ظهرت أول إشارة إلى المتاعب حينما جلـس رئيس الـوزراء الإسـرائيلى رابـين إلى المائدة الكبيرة الموضوعة وسط المسرح ، وهى من الرخـام أحيطـت جوانبهـا بإطـار

من الذهب على شكل أوراق شجر . ونظر رابين إلى الأوراق الموضوعة أمامه ثم استدعى وزير خارجيته .

كان شيمون بيريز يقف فى الصف مع بقية الضيوف الكبار أمام قاعة مسرح امتلأت عن آخرها بالمدعوين . وتحرك شيمون بيريز إلى حيث يجلس رئيس الوزراء ومال عليه يستمع إليه باهتمام . ثم تحرك من جانبه إلى حيث يقف الرئيس مبارك وأسرّ فى أذنه بشىء .

وعاد بيريز إلى رابين ، ومن رابين عاد مرة أخرى إلى مبارك . وقام رابين بالتوقيع ثم مشى غاضبا من حيث كان يجلس ، ومر برئيس منظمة التحرير دون أن يلتفت إليه أو يمد يده لمصافحته .

وقصد رابين إلى حيث يقف مبارك ، وبدا أنه يحتج على شىء ، وراح يحرك يديه ورأسه بإشارات تعطى معنى الرفض .

وكان الحرج باديا على مبارك الذى كان يقف وبجانبه من الناحية الأخرى عرفات الذى كان قد سبق الجميع إلى التوقيع . ولكنه وقع الأوراق ولم يوقع على الخرائط الملحقة . وكان واقفا وقد عقد يديه وراء ظهره وكانت ساقاه تتحركان بعصبية ، وكان ملتزما صمتا لا يبدو أنه يريد أن يخرج عنه .

ومضت على هذه الحال أربعون دقيقة ــ حركة آتية ذاهبة ، وإشارات بالملامح والأيدى ، وهمس وملامح مقطبة ــ كل ذلك أمام جمهور من المتفرجين ملأ القاعة، وعشرات الملايين غيرهم يتابعون وقائع الاحتفال وهم لا يفهمون ما يجرى أمامهم ، وإن كانوا قد أدركوا جميعا أنهم أمام مشهد لم يسبق له مثيل فى تاريخ توقيع الاتفاقيات والمعاهدات .

كانت اللحظة عبثية ، وكان كل من كريستوفر وكوزيريف يأخذ سبيله إلى الميكروفون يتحدث ، وكلاهما يصف الاتفاق بأنه تاريخى وذو دلالات عميقة . لكن الواقع من حولهم كان يقول بشىء آخر .

ولم يكن هناك من الجالسين فى المسرح من يسمع كلمات الخطباء ، فقد كان ما يجرى على المسرح أشد إثارة من أى كلام يقال .

وخطا بيريز إلى ناحية عرفات يتحدث إليه . وابتعد بيريز واقترب مبارك . وابتعد مبارك وجاء كوزيريف . وابتعد كوزيريف وجاء عمرو موسى . وكلهم يحاول إقناع عرفات بشىء ما . ووصل بعضهم إلى حد استعمال أصابعه فى إشارات تحذير واضحة فى بعض لحظات الهمس . وبدت ملامح وجه كريستوفر متوترة ومشدودة بأكثر من العادة . وقد جرب حظه فى المشهد الغريب الذى يجرى أمام الجميع . وبدأ الجمع الواقف على المسرح يلتقى ويتفرق جماعات تأخذ شكلا

مختلفا كل ثانية . وفى لحظة من اللحظات كان الجميع يهمسون فى نفس الوقت لبعضهم . وابتعد رابين عن الجميع ووقف لبعض الوقت وحده . وكان واضحا أنه يمسك أعصابه بصعوبة وكأنه سائق قطار يشد فرملة قطاره بأقصى سرعة وعنف .

ونظر شيمون بيريز إلى ساعته وكانت أربعون دقيقة قد مضت على هذا المشهد الغريب . ويبدو أن مبارك تنبه إلى أن استمرار ما يجرى على المسرح أمام الحضور وأمام العالم لا يصح أن يستمر . ونادى رئيس البروتوكول المصرى يطلب إليه أن يدعو عرفات إلى المائدة ، وإذا عرفات يرفض ويقول بصوت مسموع "لا ، لا ، لا" ــ ثلاث مرات . وإذا بجمهور الحاضرين يصفق . وحدث ذلك بينما كان أبو مازن لا يزال يلقى كلمته ، مكبا برأسه على الأوراق التى يقرأ منها وكأنه يريد أن يختفى من وسط المشهد الذى يجرى وراءه .

وبدأت ملامح عرفات تتغير ، ونادى على نبيل شعث لكى يصعد إلى المسرح. وقفز شعث من سلم جانبى إلى وسط المسرح وراح يراجع بسرعة الدفاتر التى تحوى وثائق الاتفاق ومجموعة الخرائط الملحقة به . وسحب خريطة وذهب بها حيث يقف مبارك وعرفات . ودارت مناقشة جانبية استغرقت دقائق ، ثم صعد إلى المسرح دبلوماسي أمريكي مشى بسرعة إلى حيث كان يقف كريستوفر ، وهمس فى أذنه بأنه من المناسب إنهاء هذا المشهد الكئيب والخروج من فوق خشبة المسرح إلى الكواليس لتسوية الخلاف والعودة مرة أخرى .

وبدأ الكل يتحركون صوب كواليس المسرح مبتعدين عن خشبته الرئيسية ، وجمهور الحاضرين فى القاعة وجماهير المتفرجين خارجها غير قادرين على فهم أى شىء ."

....

....

☐

كانت المشكلة التى وقعت تكرارا علنيا لما حدث فى قصر رئاسة الجمهورية عند توقيع اتفاقية ٩ فبراير ، والسبب هو مساحة أريحا على الخريطة . ولم تكن المحادثات التى استمرت حتى الساعة الثالثة صباحا يوم ٤ مايو ــ قبل الاحتفال المسرحى ــ قد توصلت ــ أيضا ــ إلى تحديد مساحة أريحا . وكحل مؤقت فقد اعتمد نفس منطق

التخطى الذى اتبع فى المرة السابقة . واتفق على خطاب يوجهه "رابين" إلى "عرفات" يتعهد فيه ببحث هذا الموضوع معه فى فرصة قريبة . وكانت الاتصالات بشأن إعداد هذا الخطاب فى اللحظة الأخيرة قد امتدت حتى الفجر من صباح يوم الاحتفال المسرحى . وكانت كل الوفود متعبة ، وتعهد الوفد الإسرائيلى أن يقوم نيابة عن الجميع بإعداد ملفات التوقيع كاملة وحاوية لكل الأوراق .

وحين جاء دور السيد "ياسر عرفات" لكى يوقع أمام المدعوين إلى الاحتفال وعلى مشهد من العالم — فإنه لم يعثر على هذا الخطاب وفيه التعهد المتفق عليه بشأن التباحث على مساحة أريحا فى أقرب فرصة . ومن جانبه قرر ألا يوقع على الخرائط . وحين جاء دور "رابين" أن يوقع فإنه لاحظ أن "عرفات" وقع النصوص ، ولكن توقيعه غائب عن الخرائط . وبدأت المشكلة . واستمر مشهد سوء التفاهم أمام الناس وأمام العالم لأربعين دقيقة .

وتستكمل "كاريل ميرفى" روايتها التى نشرتها "الواشنطن بوست" قائلة :

"فى كواليس المسرح قال عرفات إنه لا يستطيع أن يوقع الخرائط دون أن يكون هناك خطاب رابين الذى يتعهد فيه ببحث المسألة الخاصة بمساحة أريحا . ولو أنه وقع على الخرائط دون وجود هذا الخطاب لكان الاتفاق كله غير ذى موضوع .

وأضاف عرفات — طبقا لما صرح به رابين لعدد من مراسلى الصحف العالمية الكبرى — إنه لم يكن لديه وقت لمراجعة الخرائط الست الملحقة بالاتفاقية . وظهر فيما بعد أن هذه الخرائط لم تدخل إلى الملفات إلا فى الساعة الثامنة والنصف مساء ، ولم يكن باقيا على مراسم التوقيع غير ساعتين ونصف الساعة . وروى رابين للصحفيين أنه قال لعرفات فى اللحظات التالية لخروجهما مع الجميع من فوق خشبة المسرح إنه إذا لم يضع توقيعه على الخرائط فلن يكون هناك اتفاق .[٣]

وتنبه أحد الدبلوماسيين الأمريكيين إلى أن هناك سوء تفاهم حدث فيما يبدو . فالخطاب موجود فى الملفات وقد وقعه رابين فى الصباح الباكر ، لكن الخطاب لم يكن كما ظهر ملصقا بالخرائط ، ولم يعثر عليه عرفات وهو جالس للتوقيع أمام جمهور المدعوين وعلى مشهد من العالم . وقد تذكر ما حدث من قبل عند توقيع اتفاق ٩ فبراير ، وهكذا قرر عدم التوقيع .

وبعد خمس دقائق عاد النجوم إلى خشبة المسرح . وجلس عرفات يوقع . ولوحظ أنه أخذ وقتا فى توقيع كل خريطة ، ثم ظهر بعد ذلك أنه كتب قبل التوقيع باسمه : "قيد البحث طبقا للخطاب المرفق" — ثم وقع بإمضائه ."

---

(٣) توجد صور للتوقيعات على هذا الاتفاق ، بما فى ذلك تحفظ السيد "ياسر عرفات" وتوقيعه ، فى ملحق صور الوثائق — تحت رقم (٢٤) .

ولم يكن "شيمون بيريز" سعيدا بالعبارة التى كتبها "ياسر عرفات" : "قيد البحث" قبل أن يضع توقيعه على الخرائط. وقد ذهب إلى الرئيس "مبارك" يقول له إنه لم يفهم معنى ما سجله "عرفات" بكتابته "قيد البحث" . ثم قال: "أى بحث ؟ لقد توصلنا لاتفاق ... أليس هذا هو الاتفاق ؟ ... هذا هو الاتفاق This is the agreement " .

وختمت "كاريل ميرفى" تقريرها قائلة :

"إن مسئولا أمريكيا كبيرا ("وارين كريستوفر" وزير الخارجية) علق للصحفيين بعد ذلك بأن ياسر عرفات لا يستطيع أن يترك موقفا دون أن يضيف إليه لمسة من الدراما . ثم استدرك "أو لعله أراد أن يجلس إلى مائدة التوقيع مرتين وأن يوقع على امتداد مشهدين" ."

وكان الرئيس "مبارك" بالغ الضيق من كل ما جرى ، فقد أحس أن الاحتفال الضخم قد انتهى إلى نتيجة عكسية . وبدلا من أن تبدو مسيرة السلام فيه متقدمة بنشاط إلى غاياتها ، فإنها بدت أمام العالم كله متعثرة تتزاحم الشكوك من حولها ومن حول مستقبلها.

وفى فورة الغضب قال الرئيس "مبارك" وهو يغادر مبنى قصر المؤتمرات إنه لن يحضر بعد ذلك أى مناسبة علنية بين الفلسطينيين والإسرائيليين .

□

وغادر "ياسر عرفات" القاهرة فى حالة نفسية سيئة ، وكان عليه أن يتوجه إلى جنوب أفريقيا ليحضر حفل تنصيب "نيلسون مانديلا" رئيسا لجمهورية جنوب أفريقيا . وفى يوم الجمعة ـ ١٠ مايو ـ أثناء احتفالات تنصيب "مانديلا" توجه "عرفات" مدعوا من رئيس الجمعيات الإسلامية فى جنوب أفريقيا فى المسجد الكبير فى جوهانسبرج . واحتفى به المصلون ، ووقف بعد الصلاة يتحدث إليهم ، وكان عليه أن يشرح لجموع المسلمين فى جنوب أفريقيا أمر الاتفاق بين منظمة التحرير وإسرائيل ، وأين فى هذا كله مستقبل القدس . واندفع "ياسر عرفات" تلقائيا إلى حديث حماسى عن القدس وأنها عاصمة دولة فلسطينية مستقلة برغم أنف الإسرائيليين وبرغم أية أوراق توقع معهم . وقبل أن يعود رئيس منظمة التحرير من جنوب أفريقيا ، وصل إلى القاهرة مدير المخابرات

الإسرائيلية حاملا معه تسجيلا بصوت السيد "ياسر عرفات" وفيه كل كلمة قالها فى المسجد الكبير فى جوهانسبرج . وكان هناك بجانب التسجيل احتجاج تريد إسرائيل إبلاغه إلى رئيس منظمة التحرير عن طريق القاهرة ، معتبرة أنه بما قاله يضر بالاتفاقية التى وقعت فيها والتى لم يكد الحبر يجف عن أوراقها .

وانتهز مدير المخابرات الإسرائيلية فرصة وجوده فى القاهرة وقام أيضا بتسليم نسخة من شريط آخر يحوى تسجيلا لحديث جرى بين الدكتور "عبد العزيز الرنتيسى" المتحدث الرسمى باسم المبعدين فى "مرج الزهور" وبين صديق له . وفى هذا التسجيل يسمع صوت الدكتور "الرنتيسى" وهو عضو بارز فى "حماس" يتحدث بالتأييد عن عمليات الإرهاب التى وقعت تلك الأيام فى مصر ، ويقول إنه عندما كان يدرس الطب فى القاهرة كان على صلة وثيقة بالجماعات الدينية ، وبينها مجموعة "صالح سرية" التى نفذت عملية الكلية الفنية العسكرية سنة ١٩٧٤ وأرادتها محاولة لقلب نظام الحكم فى مصر .

وهكذا كانت إسرائيل تقدم صورة ناطقة لسوء نيات السلطة الوطنية الفلسطينية تجاه السلام مع إسرائيل ، ولسوء نيات المعارضة الفلسطينية المتمثلة فى "حماس" تجاه النظام فى مصر ، كله فى نفس اللحظة !

٤

غـــــــــــــــزة

" عليه أن يسأل نفسه ولا يسألنا : لماذا لم يخرج أهل الضفة الغربية لاستقباله ؟ "

("رابين" في الرد على شكوى "عرفات" من أن السلطات الإسرائيلية منعت الناس من الذهاب لاستقباله فى أريحا)

وسط الضجة التى أثارتها إسرائيل حول حديث "ياسر عرفات" عن القدس فى المسجد الكبير فى جوهانسبرج ــ عاد رئيس منظمة التحرير إلى تونس فى هدوء مدركا أن من حوله حصارا لا يتركه يفلت منه لحظة . وراحت النصائح تتوالى عليه بأنه وقد فرغ من توقيع سلسلة متلاحقة من الاتفاقيات : من القاهرة إلى واشنطن ثم إلى القاهرة مرة أخرى، فإنه الآن ملتزم باتفاق تقع عليه مسئولية تنفيذه ، وهذه المسئولية لا تمارس من تونس ، وإنما تمارس من الأرض الفلسطينية التى أقيمت فيها الآن سلطة وطنية فلسطينية.

وكانت أسباب إسرائيل فى الإلحاح على "عرفات" للقيام بـ"مسئوليته" ظاهرة :

١ ــ تخرج بقواتها من منطقة غزة وتعفى نفسها من مسئولية الأمن والإدارة المدنية وما يلحق بذلك من أعباء متصلة بالتموين والصحة والمواصلات، الخ .. وكلها أعباء لم تردها ولم تعتبر فى أى وقت من الأوقات أنها مكلفة بها .

٢ ــ تحاول بصور جلاء قواتها عن غزة أن تمحو صورا سابقة لهذا الجيش بوصفه جيشا محتلا يواجه حركة مقاومة وطنية بشراسة وعنف على مرأى ومشهد من الرأى العام العالمى .

٣ ــ تؤكد وقوع التسوية وتعطى الإيحاء بمقدم السلام المقبول من الشعب الفلسطينى، وبالتالى تثبت شرعيتها بالقبول الطوعى المبنى على اتفاق رضى به الطرف الآخر الذى ظل عشرات السنين يرفض الاعتراف بها حتى أمام بطش السلاح.

٤ ــ وهى بذلك تعطى الإشارة إلى العالم لكى يرفع قضية فلسطين بأكملها من جدول المشاكل المعلقة فى انتظار اهتمامه وقراره . فهذه قضية تركز عليها الاهتمام وتوفر لها الحل ، وبالتالى فإزاحتها واجبة من سجلات المشاكل العالمية المستعصية بما فى ذلك سجلات الأمم المتحدة ــ وهى حافلة بكثير يخص فلسطين منذ إنشاء المنظمة الدولية .

٥ ــ إن ذهاب المنظمة إلى غزة يحصرها فى خاتمة المطاف وينفض عنها أحلامها المجنحة ويضعها وجها لوجه أمام المشاكل الحقيقية لحياة كل يوم ابتداء من أعمال البوليس إلى أعمال الكنس والرش .

٦ ــ تعميق التناقضات داخل قيادة المنظمة ــ ذلك أنه عندما يجىء وقت انتقال السلطة إلى غزة ، فمن المؤكد أنه من بين أعضاء القيادة عدد سوف يفضلون البقاء حيث هم لأنهم إما بسبب خلافات سابقة أو بسبب شكوك لاحقة يريدون بقاء أيديهم حرة (إذا كان ذلك ممكنا!) ، وهذا سوف يظهر قيادة المنظمة منقسمة على نفسها فى ذات الفرصة التى تصور للشعب الفلسطينى على أنها بداية العودة .

٧ ــ إن انتقال قيادة منظمة التحرير إلى غزة سوف يؤدى إلى احتكاكات بين الخارج الفلسطينى الذى عاش فى المنفى بكل أوضاعه وأساليبه ، وبين الداخل الفلسطينى الذى عاش فى ظروف قاسية من الضنك والغضب .

٨ ــ إن هناك فوق ذلك احتمال صدام فى غزة قد يؤدى إلى كشف القضية الفلسطينية ، وذلك حين يلتقى شيوخ المنظمة بأطفال الحجارة ، وحين يتقابل دعاة العمل القومى مع حملة اللواء الإسلامى . والظن الإسرائيلى كان ولا يزال أن هناك صداما محققا بين التيارين .

٩ ــ استهلاك طاقة قيادة منظمة التحرير فى المشاكل اليومية . وبذلك يمكن إلهاؤها عن أى مطالبة بتوسيع سلطاتها أو مد رقعة مسئوليتها إلى أبعد من غزة وأريحا ــ بسرعة لا تريدها إسرائيل .

١٠ ــ دخول القيادة الفلسطينية إلى غـزة سوف يجعل هذه القيـادة مسئولـة عن أمـن المستعمرات الإسرائيلية الموجودة فى قطاع غـزة .

□

ويومـا بعد يوم انضمت الولايات المتحدة إلى إسـرائيل فـى دعـوة "عرفـات" للذهـاب إلى غـزة . فهناك مكانه الطبيعى بعد كل ما تم التوصل إليه من اتفاقيات . وكان ظاهر الدعـوة هو الرحمـة وباطنهـا العـذاب ، والحجـة أن مكـان القيـادة وسـط شعبها طبقـا للدعـوات الأمريكية التى ترددت وعلت أصواتهـا فـى ذلـك الوقـت . ولعـل الأسـباب الحقيقيـة لـدى الولايات المتحدة لم تكن تختلف كثيرا عـن الأسـباب الإسـرائيلية . لكـن واشـنطن فـى ذلـك الوقت كانت تحسـن تغطيـة الحبـة المـرّة بكساء كثيف من السكـر الملون .

وفى كل الأحوال فإن دعـوة قيادة المنظمة إلى العودة إلى غـزة كانت منطقية ، ومـن هنـا فإن أطرافا عربيـة عديدة شاركت فيها . وظهـر فى تقرير حـدود مصرى بنـد يقول إنه فـى كل صباح يتجمع عند معبر رفح آلاف من الفلسطينيين تسرى بينهم شائعة بـأن "عرفـات" قادم اليوم إلى غـزة ، ويخرجون لانتظاره والترحيب بـه ، ويقضون طول اليوم تحـت شمـس حارقة . وعندما يحـل الظـلام يتفرقـون عـائدين إلى أعمـاق القطـاع شـاعرين بخيبـة الأمـل والـمـرارة . وكان الـرأى فى القاهـرة موزعـا بين اجتهاديـن :

- اجتهاد يـرى أن واجب السياسة المصريـة أن تنصـح "عرفـات" بالتوجـه دون انتظـار إلى غـزة لأن ذلك موقعـه وتلك مسئوليتـه .
- واجتهاد آخر يـرى أن تكون النصيحة المصريـة هى الانتظار ، لأن دخول القيـادة إلى غـزة قبل أن تظهـر النوايا الإسرائيلية بوضوح قد يجعـل من هذه القيادة الفلسـطينية رهينـة فى حـوزة إسرائيل وتحت سلطتها . بل إن أصحاب هذا الاجتهاد كـان فـى تقديرهم أن "عرفـات" يستطيع أن يعـين "رئيس وزراء للسلطـة" يكلفـه بالذهـاب إلى غـزة وبتحمل مسئوليات كل يـوم ، ويظـل هـو بعيـدا لمواصلـة العمـل السياسـى .

وكان أكثر من يؤيـد هذا الاجتهاد الذى يرجـح بقـاء "عرفـات" خارج غـزة فـى الوقـت الحالى يستشهد على صحـة رأيـه بالطريقة التى اتبعتهـا إسرائيل فى التعامل مع قـوة الشرطة الفلسطينية . وكانت هذه الطريقة بالفعل ملفتة للنظـر ، قاطعة فى دلالتها علـى أن إسـرائيل تريـد أن تلقـى بالمسـئولية علـى السـلطة الفلسـطينية دون أن تسمـح لهـا بـالأدوات اللازمـة

لنجاح مهمتها . وحتى إذا سمحت بالأدوات ، فقد كان ظاهرا فى تصرفاتها أنها تريد لهذه الأدوات أن تخرج عن نطاق مهمتها الوطنية بشكل أو بآخر .

□

لم يكن اتفاق القاهرة يعطى للأمن الفلسطينى أى اختصاص إزاء الإسرائيليين إذا ما تجاوزوا حدود القانون . وفى الجزء الخاص بموضوع التعامل مع الإسرائيليين فى اتفاقية القاهرة فإن خمسة بنود محددة قيدت سلطة الشرطة الفلسطينية فى قطاع غزة إذا ما تعلق الأمر بمستوطنين إسرائيليين . وقد وردت فى الصفحة الرابعة من الاتفاقية التى جرى النص فى مقدمتها على "أن استعمال القوة بواسطة البوليس الفلسطينى لا بد من تنسيقها عن طريق ضابط ارتباط مع قيادة الأركان فى الجيش الإسرائيلى" . ثم وردت البنود الخمسة بعد هذه المقدمة على النحو التالى :

(أ) "إن البوليس الفلسطينى لن يحجز أو يقبض على أى إسرائيلى تحت أية ظروف ."

(ب) "إن البوليس الفلسطينى ليس فى سلطته إيقاف أى مركبة تحمل علامات إسرائيلية . كما أن الركاب فى مثل هذه المركبة ليس مطلوبا منهم إبراز هويتهم الشخصية لأفراد البوليس الفلسطينى ."

(ج) "فيما يتعلق بالمشاة فإن البوليس الفلسطينى يمكن له أن يطلب إبراز بطاقات الهوية . وعندما يقوم أيهم بإبراز بطاقته الإسرائيلية فليس للبوليس الفلسطينى أن يتخذ أى إجراء معهم ."

(د) "وإذا حدث أن دورية فلسطينية ــ إسرائيلية مشتركة أوقفت (على الطرق العرضية) مركبة تحمل علامات إسرائيلية ، فإن الجنود الإسرائيليين فى هذه الدورية وحدهم هم الذين يحق لهم سؤال الإسرائيليين ."

(هـ) "إذا حدث وتورط إسرائيلى فى عمل إجرامى ، فعلى البوليس الفلسطينى أن يقوم على الفور بإخطار قوات الأمن الإسرائيلية ."

وإضافة إلى هذه البنود المتعسفة فإن إسرائيل فرضت على الطرف الفلسطينى أن يقدم قوائم كاملة بأسماء كل جنود الشرطة الفلسطينيين الداخلين إلى القطاع ، وذلك قبل دخولهم

بأسبوع . ويكون لإسرائيل أن تعترض على أى منهم بناء على معلومات ليس عليها أن تكشفها عندما تبدى الاعتراض على أحدهم أو على جماعة منهم ، وذلك حفاظا على مصادرها الأمنية .

وظهرت مشكلة فى نقل قوات الشرطة الفلسطينية إلى قطاع غـزة من مواقع كانت ترابط فيها هذه القوات فى اليمن . وبعد وساطة من خلال أصدقاء مشتركين يقيمون فى باريس ، بين قيادات المنظمة والأمير "سلطان" وزير الدفاع السعودى ، تعهد الأمير "سلطان" بتخصيص ثمانى طائرات لنقل القوات الفلسطينية الموجودة فى اليمن إلى مطار العريش تمهيدا لدخولهم إلى قطاع غـزة بعد صدور الموافقة الإسرائيلية . وحدث أن طائرة سعودية محملة بـ ١٠٢ جندى فلسطينى وصلت بالفعل إلى العريش ، وإذا بمندوب الاتصال الإسرائيلى ينظر فى القائمة ويقارنها بما عنده ، ثم يبدى اعتراضه لأن هذه الدفعة كلها لم يصل بها إخطار سابق . وحاول السيد "ياسر عرفات" أن يتصل بالقاهرة لتتصل بتل أبيب للحصول على إذن بدخول هذه القوة إلا إذا كان هناك فرد أو أفراد من بينها يقع عليهم الاعتراض طبقا للقواعد . وأصر ضابط الاتصال الإسرائيلى على أنه إذا كان الأمر أمر قواعد فإن القاعدة الأساسية المتفق عليها هى تقديم القوائم قبل أسبوع من وصول أى قوات . ورفضت القاهرة أن تتدخل ، وكان أن قامت الطائرة السعودية القادمة بجنودها من اليمن بإعادتهم نفس الليلة إلى اليمن دون توقف لأن السلطات السعودية لم تكن تريدهم على أراضيها ولا حتى للنوم ليلة .

وفى نفس الوقت فإن إسرائيل لم تسمح بدخول عناصر شرطة فلسطينية إلى مدينة أريحا إلا بعد أن تقدم السلطة الوطنية قائمة بأسماء المسئولين الفلسطينيين الذين سوف يعهد إليهم بالاختصاصات المختلفة فى مسئولية السلطة (أى ما اصطلح مجازا على تسميته بـ"الوزراء الفلسطينيين") . وكان المفروض أن يكون عددهم أربعة وعشرين ، وحتى ذلك الوقت المتأخر فقد كان من الصعوبة بمكان اختيار أربعة وعشرين "وزيرا فلسطينيا" . وقبلت إسرائيل حلا وسطا حين تقدم الدكتور "نبيل شعث" كبير المفاوضين الفلسطينيين بأسماء ثمانية عشر "وزيرا" قائلا إن هناك صعوبات فى اختيار الباقين ، وإن أسماءهم سوف تصل فى أقرب فرصة إلى السلطات الإسرائيلية .

وكانت تلك كلها وغيرها شواهد غير مشجعة على انتقال قيادة المنظمة من تونس إلى غـزة .

□

ومضت أسابيع بعد يوم ٤ مايو ــ توقيع الاتفاق فى القاهرة بين "عرفات" و"رابين" ــ وقيادة المنظمة تفكر وتعيد التفكير وتقلب الأمور على وجوهها المختلفة بين خيار الدخول بسرعة إلى غزة ، أو البقاء لفترة من الوقت خارجها .

وفى الأيام الأولى من يوليو ١٩٩٤ كان اتجاه "عرفات" يميل لصالح الدخول إلى غزة ، بينما كان هناك عدد آخر من قادة المنظمة قد أعلنوا عزمهم نهائيا على البقاء بعيدا فى تونس .

كان "أبو مازن" من ذلك الرأى . وقد أبدى عزمه على اعتزال العمل السياسى قائلا إنه أدى واجبه ، وهو على استعداد للتسليم بأن دوره انتهى . وكان خلافه مع "عرفات" قد وصل إلى الذروة .

وكان "فاروق قدومى" ("أبو اللطف") متمسكا بالبقاء فى تونس وحجته أنه كوزير لخارجية المنظمة لا يستطيع أن يمارس اتصالاته الدولية تحت سلطة الاحتلال أو بإذنها . فهو يسافر كثيرا للخارج ، وهو يستقبل فى مقره وفودا من كل أنحاء العالم ، وليس معقولا ــ هكذا كانت وجهة نظره ــ أن يحصل على إذن بالخروج كلما أراد ، أو على إذن لزواره بالدخول كلما قصدوا مقابلته .

وكانت "حنان عشراوى" ، وهى لم تُقم قط فى تونس وإنما ظلت فى الأرض المحتلة ، قد اعتذرت بدورها عن عدم الذهاب إلى غزة بعد أن عرض عليها رئيس السلطة الوطنية عدة "حقائب وزارية" ، بينها التعليم ثم الإعلام ــ واستقر خيارها النهائى على أن تعود إلى موطنها فى "رام الله" وأن تنشئ هناك منظمة مستقلة للديمقراطية وحقوق الإنسان .

وهكذا كان موقف آخرين . لكن السيد "ياسر عرفات" نفسه لم يكن فى وسعه لا أن يعتزل أو يبتعد أو يتخلف ، وإنما كان قدره أن يذهب إلى قطاع غزة . ولعل أجواء تونس فى ذلك الوقت كانت بين الأسباب التى حرضته على ترك المقر الذى عاشت فيه وعملت فيه المنظمة اثنى عشر عاما متواصلة .

كانت تونس على وجه الظن ، ومن منظوره فى تلك الأيام ، بقعة موحشة مثقلة بذكريات مريرة :

- فى تونس وبرغم حفاوة الشعب التونسى بالمنظمة كان إحساسه طوال الوقت أن المنظمة استؤصلت من بيروت وطوح بها بعيدا عن قلب العالم العربى .
- وهناك بدا مرئيا بكل وضوح مدى الأثر النفسى الذى تركته سنوات بيروت على مقاتلى المنظمة . وإذا كان صحيحا أن هؤلاء المقاتلين استطاعوا لعدة سنوات أن يحكموا واحدة من أجمل عواصم العالم العربى ، فإن هذه الجميلة بدورها

استطاعت أن تحكم هؤلاء المقاتلين بألوان من تـرف الحياة ومباهجها أخـذت من كثيرين بينهم روح القتـال .

- وهناك في تونس كان الشعور بالانكشاف الأمـنى واردا طوال الوقـت ، ذلك أن إسرائيل كانت تملك فرصا مفتوحة للعمل ضد المنظمة . وليس أدل على ذلك من الطريقة التى اغتيل بها "أبو جهاد" واغتيل بها "أبو إياد" و"أبو الهول" . يضاف إلى ذلك ما حدث من نفاذ إسرائيلى إلى مكتب ومقر إقامة "حكم بلعاوى" مسئول المنظمة فى تونس ، وكان من نتيجته أن المخابرات الإسرائيلية أصبحت متابعة "وعلى الهواء مباشرة" لكل ما يحدث داخل منظمة التحرير ولكل ما يصل إليها من معلومات وأخبار وتقديرات .

- وهناك في تونس تبخرت آمال بدت براقة فـى يـوم من الأيام . ففيها سنة ١٩٨٨ كان القرار الفلسطينى بإعلان دولة فلسطينية مستقلة . ووافق المؤتمر الوطنى الفلسطينى فى الجزائر فى نفس السنة على هذا القرار ، واختار "ياسر عرفات" رئيسا لدولة فلسطين . ولم تبق الدولة ولا رئاسة الدولة زمنا طويلا .

- وإلى تونس جاءت الدكتورة "حنان عشراوى" مرة من واشنطن تقول لـ"ياسر عرفات" إن "جيمس بيكر" وزير الخارجية الأمريكى يتعهد لـ"عرفات" بالجدول الزمنى التالى :

  - فى شهر مايو ١٩٩٢ سوف يقوم فى الضفة وغزة حكم ذاتى فلسطينى .
  - وفى شهر نوفمبر ١٩٩٣ سوف يقوم فى الضفة وغزة كيان أكبر من حكم ذاتى وأقل من دولة .
  - وفى وقت ما من سنة ١٩٩٤ سوف يكون الطريق مفتوحا أمام دولة فلسطينية . ثم لم يتحقق شىء من ذلك ، وتبخر الأمل ، ولم يتبق غير إعلان أوسلو .

- وارتبطت تلك السنوات فى فكر "ياسر عرفات" بالسفر الدائم على طائرة تقوم من مطار لتحط فى مطار — لكنها لا تستقر أبدا . وفى إحدى المرات كادت هذه الطائرة أن تودى بحياته وتصبح قبرا له عندما ضلت طريقها وسط عاصفة رملية فى جنوب ليبيا فى شهر أبريل ١٩٩٢ .

- وبعد سلسلة الاتفاقيات التى وقعت بين المنظمة وبين إسرائيل من أوسلو إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى واشنطن وبالعكس — فإن المناخ العام فى المنظمة أصبح يسوده شعور بالانتماء إلى ماض ذهب ولم تبق منه غير أطلال .

وهكذا بدا الرحيل من تونس ، برغم كل المصاعب المنتظرة فى غزة ، رحيلا من منفى بعيد عن الوطن إلى منفى آخر لكنه داخل الوطن ذاته .

وبرغم كل الضجة الإعلامية والمظاهر الاحتفالية التى رافقت انتقال "عرفات" من تونس إلى غزة عن طريق القاهرة ، فإن مراسم الوداع طغت عليها مسحة من الحزن والشجن :

- أقام الرئيس التونسى "زين العابدين بن على" حفل وداع رسميا كبيرا للمنظمة بمناسبة انتقالها ، ولكن الإحساس الغالب حتى على لحظات الاحتفال كان هو الإحساس بالراحة لخلاص تونس من عبء إقامة منظمة التحرير فيها اثنتى عشرة سنة .

- وفى القاهرة كان "ياسر عرفات" ضيف شرف على الرئيس "مبارك" فى "الساعات الأخيرة من المنفى" . وقام الرئيس "مبارك" بمرافقة رئيس السلطة الفلسطينية إلى العريش فى الطائرة الرئاسية المصرية . ومن هناك قام رئيس الوزراء المصرى بمرافقة "عرفات" إلى مدخل رفح . وبدا وكأن مصر من خلال الكرم فى المراسم الاحتفالية تريد أن تبرئ ذمتها وتترك المسئولية لأصحابها ، وتريد أيضا أن تعلن ذلك على الملأ .

لكن كل المراسم الاحتفالية لم تكن قادرة على إخفاء ما كان يجرى بعيدا عن الأضواء . فالسلطات الإسرائيلية أصرت على فحص أوراق المرافقين لرئيس السلطة العائد إلى وطنه ، وعلى تفتيش حقائبهم وتفتيش بعضهم ذاتيا . ولولا تدخل مباشر بين الرئيس "مبارك" ورئيس الوزراء الإسرائيلى "رابين" لكان التفتيش قد امتد إلى موكب رئيس منظمة التحرير نفسه .

وتبين أن السلطات الإسرائيلية ختمت على تذاكر المرافقين الفلسطينيين لرئيس السلطة بـ"تصريح زيارة" يمتد مفعوله إلى ثلاثة شهور ، ثم يكون الطلب بتجديده لمدد أخرى محددة .

لكن استقبال الجماهير الفلسطينية فى غزة لـ "عرفات" كان كبيرا . ولعله ضمد جراحا غائرة أصابت كبرياء العائدين إلى غزة وفرحتهم بالعودة . ومع ذلك فقد اختلفت الصورة بعد يومين فى أريحا . فقد وصل رئيس السلطة الفلسطينية إلى هذه المدينة التى تعتبر بوابة للضفة الغربية من الأردن ، وإذا الجماهير الخارجة لاستقبال العائدين ضئيلة مقارنة بجموع غزة الحاشدة .

وشكا بعض المحيطين بالسيد "ياسر عرفات" من أن السلطات الإسرائيلية حجزت الراغبين فى استقباله عن الذهاب إلى أريحا . ونفى "رابين" بحدة هذه التهمة ، وقال

فى الرد عليها : "إذا كان عرفات يستغرب عدم خروج أهل الضفة الغربية لاستقباله فى أريحا فليس له أن يلوم إسرائيل ، وإنما الأولى له أن يسأل شعبه لماذا لم يخرج لاستقباله" . وبدأت أصابع الاتهام الفلسطينية تتجه إلى الأردن مشيرة إلى أن حكومة عمان استعملت نفوذها لدى وجهاء الضفة الغربية ، ونجحت فى تحجيم حماسة الناس لاستقبال قيادتهم الفلسطينية العائدة ، والسبب أن حكومة عمان ما زالت تحلم بالخيار الأردنى .

وبعد رحلة طويلة فى المنافى البعيدة والقريبة لم يبق أمام القيادة العائدة إلى غزة غير خيار واحد وهو أن تثبت نفسها فى غزة ، وإلا تحول عنوان "إعلان أوسلو" من أن يكون "غزة وأريحا أولا" لكى يصبح "غزة أولا وأخيرا" .

٥

الإفــــــــــلاس !

" أنــت تعــرف أن الجماعــة لديهــم جهـــاز أمــن قــوى "

(الرئيس "مبــارك" للسيد "ياســر عرفــات" فــى مناسبــة خـطــف ضابـــط إسرائيلـــى وادعـــاء الإسرائيليين بأنه محتجـز فى غــزة)

فى قطـاع غــزة كان على السلطـة الفلسطينية أن تواجــه مشــاكل بغـير حــدود . وكـان عليها أن تقـوم بذلك وإسرائيل وراء ظهرها لا تتركهـا لحظــة تتنفـس فـى راحــة وهــدوء ، وتمســك بمقاليد ما يواجهها من أمـور وتتصرف فيها بإرادة تملــك ولـو قــدرا مـن الحريــة . وفى الواقع فإن الخلـل فى موازين القـوة والقـدرة بين حكومة إسرائيل وبين السلطــة الوطنيـة فى غــزة كان فادحـا :

- السلطة الوطنية تواجه مسئوليتها وليس لها سند دولى أو إقليمى أو حتــى محلـى لأن الرأى العام الفلسطينى بـدا فى مواجهة ما يجـرى موزعا ومشتتا ومحبطا .
- وأما الحكومة الإسرائيلية فقد كان وراءها الثقل الكامل للولايات المتحدة الأمريكية فى ظرف كانت فيه الولايات المتحدة تكاد تكون منفردة بشئون العالم . وحتى من قبـل هذا الظرف ، فقد كان الاعتماد الإسـرائيلى علـى الولايـات المتحـدة بغـير حـدود إلى درجة أن أصبح شائعا فى إسرائيل الاستشهاد بما سمى "قـانون أفــرييل" ــ وكـان "قانون أفرييل" هذا يشـير إلى قصـة شهيرة قديمة حدث فيهـا أن سياسـيا إسـرائيليا هو "ألون بينكاس" التقى بزميل له هو "إيهود أفرييل" فى المطار ، و"أفرييل" وقتهـا مدير مكتب رئيس الوزراء "دافيد بن جوريون" . وقام "بينكاس" بسـؤال "أفرييـل" : "إلى أين أنت ذاهب ؟" ورد "أفرييل" : "إلى أمريكا" .ورد عليه "بينكاس" : "كيـف

تسافر إلى أمريكا الآن والبلد مملوء بالمشاكل وكلها تصب فى مكتب رئيس الوزراء ؟" ورد "أفرييل" بقوله ـ وأصبح قوله قانونا اشتهر باسمه : "لأنه ليست هناك مشكلة فى إسرائيل لا يوجد حل لها فى واشنطن" !

□

وبرغم كل المشاكل فإن السيد "ياسر عرفات" رفع فى الأيام الأولى من وصوله لغزة شعارا جذابا بأنها "سنغافورة وليست الصومال" ـ يقصد أن يقول إن غزة يمكن أن تتحقق فيها معجزة اقتصادية شبيهة بالمعجزة التى وقعت فى سنغافورة ، كما أنها فى استطاعتها أن تتجنب مصيرا فوضويا داميا كذلك الذى وقع فى الصومال .

وبصرف النظر عن أوجه المقارنة الموضوعية بين ما كان ممكنا فى سنغافورة وما هو ممكن فى غزة ، فإن الاختبار الحقيقى كان مرهونا بتوفر الموارد الكافية لتنمية غزة اقتصاديا ، ومن ثم تغيير أوضاعها اجتماعيا ، ثم تحويلها إلى نموذج لبقية الأرض الفلسطينية التى تمتد إليها سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى .

كان السيد "ياسر عرفات" يدرك أن توفر الاعتمادات اللازمة للتنمية هو طريقه الوحيد لإنجاح ما وضع إمضاءه عليه من اتفاقيات . ومن هنا كان حرصه على أن تكون لديه الكفاية من المال قبل أن يرضى باتفاق . وكان من هنا أيضا قوله الشهير بأنه لا يريد أن يكون "جورباتشوف فلسطين" ـ يتحمل المسئولية ثم يتخلى عنه هؤلاء الذين شجعوه على تحملها .

ومنذ كان فى تونس ، ومع احتمال الوصول إلى اتفاق فى أوسلو ، فإن "ياسر عرفات" كلف اقتصاديا فلسطينيا بارزا وهو الدكتور "يوسف صايغ" بأن يعد له تقريرا عن التنمية فى "الأرض المحررة" . وكان تقرير الدكتور "يوسف صايغ" يرى أن هذه العملية سوف تحتاج إلى ١١ بليون دولار على ثلاث سنوات لكى يمكن إنجاح السلطة الوطنية فى مهام المرحلة المقبلة . وكان التقدير أن يكون مبلغ ١ر٢ بليون دولار منها جاهزا للشهور الستة الأولى بعد سريان اتفاقية غزة ـ أريحا .

ولم يكن لدى منظمة التحرير من مواردها ما يكفى للوفاء بهذا المبلغ أو بجزء منه . وحتى إذا أخذت تقديرات المعارضين للسيد "ياسر عرفات" فإن السلطة الوطنية لم تكن بالقطع قادرة على مواجهة مسئولياتها الجديدة منفردة .

كان السيد "ياسر عرفات" يعلن على الملأ أن المنظمة مفلسة . وقد دفع بهذه الحجة في وجه كل الذين عارضوه فى اتفاقية أوسلو . وكان هناك من شككوا فى مسألة إفلاس المنظمة ، لكنه حتى هؤلاء لم يكن فى وسعهم الزعم بأن السلطة لديها ما يكفيها فى الظروف الطارئة . وطبقا للسيد "هانى الحسن" ، وهو أحد معارضى السيد "ياسر عرفات" ، فإن آخر تقدير اطلعت عليه لجنة الشئون المالية فى المنظمة فى اجتماعها فى شهر أبريل ١٩٩١ كان يقول إن منظمة التحرير لديها ٦٨٠ مليون دولار ، وإن تنظيم "فتح" لديه ١١٨ مليون دولار . ومع الأخذ فى الحساب أن أموالا كثيرة صرفت على الفترة من أبريل ١٩٩١ إلى يوليو ١٩٩٤ ، فإن أرصدة كل من المنظمة و"فتح" تضاءلت فى ذلك الوقت بما اضطرت إلى صرفه فى هذه السنوات التى شحت فيها مواردها وزادت مطالبها . وكان معروفا على نطاق واسع أن قيادة المنظمة تحتفظ باحتياطي يتراوح ما بين ١٢٠ إلى ١٥٠ مليون دولار لمواجهة الأعباء المترتبة عليها فور دخولها الأرض المحتلة ، حتى تشعر جماهير غزة بشىء من الانفراج عقب دخول المنظمة مباشرة ، بما فى ذلك أن تتوفر فى الأسواق وبطريقة ملحوظة كميات وفيرة من السلع الغذائية . وإلى جانب ذلك كانت هناك ضرورات الصرف على احتفالات الدخول بحيث تظهر الأفراح مضيئة ودافئة !

□

كان المجتمع الدولى فى غمرة حماسته لفتح الطريق أمام اتفاق أوسلو قد وعد مؤكدا بالمبلغ المطلوب للأشهر الستة الأولى ، وهو مبلغ ١ر٢ بليون دولار . وكانت الولايات المتحدة ومجموعة دول السوق الأوروبية واليابان فى مقدمة الضامنين للسداد . بل إن إسرائيل دخلت أيضا فى جمع التبرعات للمبالغ اللازمة لإنجاح مهمة السلطة الوطنية فى غزة . وبدت الصورة مشجعة ، لكنه عندما جاء وقت التنفيذ لم يكن الوفاء على مستوى الوعد . فخلال هذه الشهور الستة الحاسمة لم يكن قد توفر لدى السلطة الوطنية أكثر من ربع ما وعدت به . ولم يكن هذا كل شىء :

- على غير انتظار وبدون اتفاق تقرر أن تكون المؤسسات المالية الدولية ، وضمنها البنك الدولى ، هى المشرفة على توجيه أموال المساعدات . ولهذه المؤسسات الدولية اشتراطاتها ، ولها قواعدها وحساباتها فى التعامل ، ثم إن لديها أجهزتها المكتبية الغارقة فى الأوراق حتى أذنيها . وهكذا بدأت الأعمال المنتظرة تتأخر عن مواقيتها المتوقعة .

- ثم راحت الأمور تدخل فى حلقة مفرغة . السلطة الوطنية تشكو من تأخر الاعتمادات ، والمؤسسات المالية الدولية تشكو من سوء الإدارة فى منطقة السلطة ، والسلطة بدورها تقول إن سوء الإدارة راجع فى كثير منه إلى عدم توفر الاعتمادات . وأصبحت الحالة تكرارا للغز المشهور عن "أيهما أسبق .. البيضة أم الدجاجة ؟"

- ووصل الأمر إلى حد أن المساعدات العربية نفسها كانت توجه عن طريق المؤسسات المالية الدولية . وعندما أحس الملك "فهد" بشكوى السلطة الوطنية فى غزة من أن الأموال العربية ذاتها لا تصل إليها ، سبق هو إلى القول ـــ وهو موجه للسيد "ياسر عرفات" عندما زار جدة ـــ "يا أخ أبو عمار ، سوف يقولون لك إن الأمريكان هم الذين ضغطوا علينا لكى تكون مساعدات المملكة لكم من خلال المؤسسات الدولية . وأريدك أن تعرف أن هذا ليس صحيحا ، بل إننا نحن الذين طلبنا أن تكون المساعدات كلها مركزية ومن مصدر واحد بحيث تكون العملية شاملة وموحدة ."

- وبلغ التعنت ـــ وربما الصلف ـ بأحد المسئولين فى السوق الأوروبية يوما إلى أن يقول لمفاوض فلسطينى كبير : "إننا لسنا مستعدين لأن نعطى للسلطة مالا فى جيبها ، وأما إذا كانت السلطة تريد مصروف جيب فهذا طلب يمكن تدبيره" . كان القول بالنص :

"we are not going to put money in anybody's pocket, but if somebody wants some pocket money we can arrange it."

- ثم راحت الدعاوى تركز على سوء الإدارة الفلسطينية وعلى تخبطها وتشير فى ذلك إلى وقائع محددة وضمنها أن عقدا لشراء شبكة تليفونية بعشرات ملايين الدولارات أعطى فى نفس الوقت لشركتين : إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية . واستغل هذا الخطأ على نطاق واسع فى تبرير صرامة القيود المالية الموضوعة على تصرفات السلطة .

- وأخيرا راح " شيمون بيريز" ـــ الذى أخذ لنفسه فى لحظة من اللحظات دور جامع التبرعات للفلسطينيين ـــ يعلن أن الأموال القادمة للسلطة لا بد أن تصرف على مشروعات مشتركة تخص منطقة غزة كما تخص المناطق المتصلة بها مما لا يزال تحت الاحتلال الإسرائيلى .

وكانت الملاحظة الملفتة أن معظم المساعدات التى وصلت فعلا إلى السلطة كانت كلها تقريبا مساعدات للشرطة الفلسطينية ، على شكل عربات وأسلحة وذخائر وقنابل غاز مسيلة للدموع .

كان ذلك هو الحال فى المساعدات البريطانية ، والفرنسية ، وحتى اليابانية .

□

ولكى تكون الصورة العامة دقيقة ومنصفة فإنه لا بد من الاعتراف بأن منظمة التحرير انتقلت إلى تونس "لمهمة إنشاء الدولة" وهى مثقلة بكل المواريث والثقافة السياسية التى حصلتها من تجاربها السابقة ، ولم تكن هذه المواريث أو تلك الثقافة مستعدة للاعتراف بأن كل شىء تغير وما كان صالحا فى الماضى لم يعد صالحا فى الحاضر أو المستقبل سواء فى ممارسة العلاقات مع العالم أو مع الإقليم ، أو بين شركاء المسئولية أو مع الجماهير ووسط الناس .

ولقد بان طرف من ظلال هذه المشكلة فى اليوم الذى سئل فيه السيد "ياسر عرفات" عما إذا كانت السلطة الوطنية قادرة على إدارة غزة ؟ وكان رده "أنه كان يدير لبنان فى يوم من الأيام ، ولبنان أكبر من غزة بالقطع" .

وإذا جاز إلقاء اللوم على المؤسسات الدولية وتلكئها فى تقديم المساعدات ، فإن الذى حدث مع القادرين من الفلسطينيين يستحق إعادة نظر . فقد حدث أن مجموعة من هؤلاء القادرين من الفلسطينيين ـــ وبعضهم لعب أدوارا كبيرة فى التمهيد للاتفاق ـــ تقدمت برغبتها فى المشاركة فى تنمية مشروع الكيان الفلسطينى والاستثمار فى مستقبله ، ثم وقع الخلاف لأن هؤلاء القادرين من الفلسطينيين شاءوا أن يشرفوا بأنفسهم أو ينشئوا هيئة تنوب عنهم فى توجيه استثمارات بلغت الدفعة الأولى منها خمسين مليون دولار .

واعتبرت السلطة أن مطلب هؤلاء الفلسطينيين القادرين ـــ الأغنياء ـــ نوع من الوصاية عليها ، بينما الطبيعى أن يقدم هؤلاء القادرون لهذه السلطة ما هم على استعداد له ، ثم يتركوا لها التصرف على مسئوليتها . ولم يكن ذلك ما يريده هؤلاء القادرون وبسابق تجارب بينهم والثورة التى أصبحت سلطة ، عندما كانت قيادتها فى عمان يوما ، وفى بيروت يوما ، وفى تونس فى يوم ثالث .

كانت هناك خلافات قديمة بين القادرين من أغنياء الفلسطينيين وبين الثورة ، وانتقلت الخلافات إلى مرحلة السلطة .

وفى بيروت مثلا كان القادرون من الفلسطينيين يصرخون من الطريقة التى اعتقدوا بها أن أموال المنظمة تصرف فى غير الوجوه الحقيقية التى تستفيد بها قضية الشعب

الفلسطينى من المصروف . ومن ذلك مثلا أنهم قدروا أن منظمة التحرير صرفت فى بيروت بعد الخروج منها قرابة مائتى مليون دولار ، وكان رأيهم أن ذلك تضييع للموارد وللجهد وللطاقات السياسية وهى فى كل الأحوال لا لزوم لها .

والآن وقد تحولت الثورة إلى سلطة فإن العقلية والممارسة ظلتا كما هما ــ وهكذا يتجدد الخلاف .

وفى موقف من المواقف وعلى التليفون فى عمان قال السيد "ياسر عرفات" للمليونير الفلسطينى "حسيب صباغ" : "يا أبو سهيل ... إن روتشيلد فلسطين لم يؤد دوره فى بناء الدولة حتى الآن" . ورد "حسيب صباغ" منفعلا : "يا أبو عمار ... لأن بن جوريون فلسطين لم يؤد دوره فى إقامة الدولة حتى الآن" !

كانت القيود المالية على المنظمة من بعيد ومن قريب أيضا .

□

ولحقت القيود السياسية والدبلوماسية بالقيود المالية والاقتصادية . والمثل البارز لذلك هو ما حدث للسيدة "بيناظير بوتو" رئيسة وزراء باكستان .

إن رئيسة وزراء باكستان رغبت فى أن تعطى دفعة تأييد معنوى للسلطة الوطنية الفلسطينية ، بل لعل قصدها كان أن تعطى دفعة لعملية السلام . واتصلت السيدة "بيناظير بوتو" بالسيد "ياسر عرفات" الذى رحب بالزيارة . ثم كان أن جاء أحد سفراء وزارة الخارجية الباكستانية إلى القاهرة لترتيب التفاصيل لأن رئيسة وزراء باكستان سوف تدخل إلى قطاع غزة من معبر رفح على الحدود المصرية . وتوجه السفير الباكستانى القادم من إسلام أباد مع السفير الباكستانى فى القاهرة إلى قطاع غزة ومعهما تصريح من السلطات المصرية المختصة وتصريح من السلطة الوطنية . وعند المعبر فوجئ الاثنان بالضابط الإسرائيلى المسئول يمنعهما من الدخول بحجة أنهما لم يحصلا على تصريح إسرائيلى . وهما يحملان جوازى سفر دبلوماسيين ، وفى مهمة سياسية تتصل بالسيادة على الأرض . وكان الموقف بالغ السوء . وأسوأ منه أن رئيس وزراء إسرائيل "إسحاق رابين" أدلى بتصريح علنى قال فيه : "إن السيدة من باكستان كان عليها أن تفهم الأصول قبل أن تتصرف منفردة على هذا النحو . وكان عليها أن تدرك أنها تقوم بزيارة رسمية تقتضيها الحصول على إذن من حكومة إسرائيل وعلى تأشيرة سفر فوق جوازها تسمح لها بالدخول إلى غزة ."

لم يكن موقف السلطات الإسرائيلية متعنتا فقط وإنما كان موقف رئيس الوزراء الإسرائيلى متجاوزا حدود اللياقة والأدب حيال رئيسة حكومة دولة كبيرة أرادت بحسن نية أن تعبر عن دعمها وتأييدها لاتفاقيات "السلام" بين الفلسطينيين والإسرائيليين .

وتكررت الصورة بشكل أو آخر مع زوار كثيرين للأرض المحتلة ، حينما أراد بعض زوار القدس الكبار من الأجانب أن يقوموا بزيارة بيت الشرق فى القدس ، وهو الذى اشتهر بكونه بيت الفلسطينيين فى المدينة المقدسة . ومنع رؤساء وزارات ووزراء خارجية لدول كبرى من الذهاب إلى بيت الشرق . وعندما سمح لبعضهم بالذهاب فقد كان شرط السماح لهم هو أن تكون زيارتهم لشرب فنجان قهوة لا يستغرق أكثر من دقائق ، وبدون أى أحاديث فى السياسة والشئون الجارية لا مع السيد "فيصل الحسينى" ــ وهو المسئول عن بيت الشرق ــ ولا مع غيره من الفلسطينيين .

وهدد "أولميرت" عمدة القدس (وهو من أعضاء حزب الليكود) بأنه سيضطر إلى القبض على رئيس الوزراء البريطانى "جون ماجور" إذا هو ذهب إلى بيت الشرق . وكان المحزن أن جريدة "التيمس" ذات التاريخ الإمبراطورى العريق كتبت افتتاحية لها تحت عنوان "ماذا لو اعتقل رئيس وزراء بريطانيا فى القدس ؟" ولم تكن "التيمس" تحتج على حماقة عمدة القدس ، وإنما كانت تلوم رئيس الوزراء "لأنه كان فى نيته زيارة بيت الشرق دون أن يأخذ فى اعتباره حساسية السلطات الإسرائيلية ، وهو بهذه النية قام بتعريض هيبة بريطانيا للإهانة ! ! "

وتكررت الصورة بشكل فظ مع الشاعر الفلسطينى الكبير "محمود درويش" . كان "محمود درويش قد استقال عقب إعلان اتفاق أوسلو ، ولم تكن استقالته رفضا لفكرة السلام ولا لمبدأ الاتفاق ، وإنما كان اعتراضه على الأسلوب والتنفيذ والنتائج .

وكان "ياسر عرفات" يرغب دائما فى استمالة "محمود درويش" ، وهو شاعر الثورة الفلسطينية وصوتها الأدبى والثقافى ، وكان أن دعاه "ياسر عرفات" إلى زيارة غزة ليرى "قطعة من الوطن المحرر على الطبيعة" . وقرر "محمود درويش" أن يلبى الدعوة . وعلى غير انتظار لمعت بروق الغضب ، فإذا رئيس وزراء إسرائيل "إسحاق رابين" يعترض على زيارة "محمود درويش" لغزة بحجة أنه من معارضى اتفاقية السلام بشهادة دواوينه الشعرية !

وكان "محمود درويش" قد وصل إلى القاهرة ليتوجه منها إلى غزة ، وأبلغ فيها باعتراض "رابين" .

□

وكانت المشاكل الأمنية حاضرة طوال الوقت . ولم تكن قاصرة على اعتداءات يقوم بها المستوطنون الإسرائيليون فى المستعمرات الإسرائيلية المحشورة على حواف قطاع غزة والمستولية على أخصب أراضيه ، ولا كانت قاصرة على الاعتداءات التى تقوم بها الدوريات الإسرائيلية على أى مواطن فلسطيني يشاء له الحظ العاثر أن يكون على مسار واحدة منها أثناء مروره بأحد الطرق العرضية بين المستعمرات ـ وإنما اتسعت دائرة المشاكل باعتبار السلطة الفلسطينية مسئولة عن الأمن حتى داخل إسرائيل نفسها ، وكأن المطلوب منها أن تتحمل فجوات التقصير فى النظام الأمنى الإسرائيلى . وربما كان المثال البارز لهذه الحالة هو قصة العريف "ناهشون فاكسمان" .

كان هذا العريف فى يوم إجازة وقد خرج على طريق القدس ـ بيت لحم فى معقل السيطرة الإسرائيلية . وأثناء سيره مرت سيارة استوقفها لتقوم بتوصيله . ومن سوء حظه أن ركاب السيارة كانوا من كتائب "عز الدين القسام" وهو التنظيم الفدائى لحركة "حماس" . وكان أن اختطف "فاكسمان" بطريقة سهلة خلت تماما من أى عنف ، واحتجزه خاطفوه وطالبوا بالإفراج عن الشيخ "أحمد ياسين" فى مقابل الإفراج عن "فاكسمان" .

ووزع الخاطفون شريط فيديو يظهر فيه "فاكسمان" مع خاطفيه وهو يناشد السلطات الإسرائيلية أن تفرج عن الشيخ "أحمد ياسين" "إنقاذا لحياة أحد جنود جيش الدفاع" . وكان الشيخ "أحمد ياسين" وهو إمام مسجد مقعد بالشلل ـ هو الأب الروحى لحركة "حماس" ـ وقد مضت عليه فى السجن أكثر من ست سنوات ، وحالته الصحية سيئة من مرض السكر وغيره من الأمراض بجانب الشلل . وكان "رابين" و"بيريز" كلاهما قد وعدا مرارا بالإفراج عنه كبادرة حسن نية وكمجاملة تقوى مركز "عرفات" إزاء حركة "حماس" . لكن الوعد جرى إخلافه وبقصد مكشوف وهو تعميق الفجوة بين "حماس" والسلطة الوطنية لعل وعسى يصل الأمر بينهما يوما إلى اشتباك مسلح . واعتبرت الحكومة الإسرائيلية أن اختطاف "فاكسمان" عملية إرهابية ، وأسوأ من ذلك فإن "رابين" أعلن أن لديه من المعلومات ما يؤكد له أن عملية اختطاف "فاكسمان" جرى التخطيط لها والإعداد لتنفيذها فى قطاع غزة ، كما أن المختطفين بعد أن قاموا بعمليتهم حملوه رهينة إلى مخبأ فى القطاع . وتأزمت الأمور لأن الحكومة الإسرائيلية وجهت إنذارا إلى السلطة الفلسطينية بضرورة العثور على "فاكسمان" حيا والإفراج عنه وإلا فإنها ستتخذ ما تراه مناسبا من الإجراءات . ووقف "شيمون بيريز" أمام مؤتمر صحفى يقول "إن الذى جرى اختطافه رهينة ليس جنديا فى جيش الدفاع ، وإنما المختطف الحقيقى هو اتفاقية السلام مع منظمة التحرير من أولها إلى آخرها" .

وكان التهديد سافرا . وحاولت مصر أن تتدخل . وقال "إسحاق رابين" للرئيس "مبارك" على التليفون إن "السلطة لا تستطيع أن تفلت من مسئوليتها . وإذا كان

الاختطاف قد حدث بعيدا عنها فإن المختطفين ورهينتهم هم الآن فى أرض السلطة ."
وأضاف "رابين" أن "تقارير الموساد (المخابرات) والشين بيت (المباحث العامة الإسرائيلية) التى اطلع عليها تؤكد بما لا يقبل الشك لديه أن المختطفين ورهينتهم فى مخبأ ما فى غزة" .

واتصل الرئيس "مبارك" بالسيد "ياسر عرفات" ورأيه هو أن تبذل السلطة الوطنية قصارى جهدها فى العثور على الخاطفين والجندى المخطوف . وأبدى "ياسر عرفات" أن جهاز الأمن الفلسطينى التابع للسلطة قلب قطاع غزة رأسا على عقب فى عملية بحث لم تسفر عن نتيجة . والنتيجة التى توصل إليها الجميع هى أن العملية تمت خارج القطاع، وكذلك فإن المخطوف والمختطفين كليهما خارج القطاع . وعقب الرئيس "مبارك" بقوله إن "رابين" يبدو واثقا من معلوماته ، "وأنت تعرف أن الجماعة لديهم جهاز أمن قوى سواء فى الموساد أو فى الشين بيت ولا داعى لأن نعطيهم فرصة ينتظرونها لإفساد العملية كلها".

ومضت عدة أيام مشحونة بالقلق قامت السلطة الوطنية فيها باعتقال أكثر من ثلاثمائة من سكان قطاع غزة وتفتيش بيوتهم . ولم يكن هناك أثر لا لـ"فاكسمان" ولا للمجموعة التى اختطفته . ثم تسربت معلومات من داخل قطاع غزة وصلت إلى السلطات الإسرائيلية بأن "فاكسمان" ومختطفيه موجودون فى بيت فى قرية "بير نيبالا" المتاخمة للقدس .

وأصدر "رابين" أمرا إلى القوات الخاصة بأن تعمل على إنقاذه وأن تقتل مختطفيه . ونفذت العملية على عجل ، وكانت النتيجة أن الجميع قتلوا .. الخاطفون والرهينة . وتبين أن الموساد والشين بيت ليستا بهذه الكفاءة . وأصبحت الصورة العامة مؤذية بالنسبة لكل الأطراف .

وكان السيد "ياسر عرفات" فى سورة من الغضب العارم ، وراح يكرر أن "إسرائيل تعامله مثلما تعامل لحود (قائد القوات اللبنانية فى الشريط الحدودى الذى تحتفظ به إسرائيل عازلا أمنيا فى جنوب لبنان) ، وراح يكرر أكثر من مرة أنه "ليس لحودا فلسطينيا ، وغزة ليست شريطا أمنيا لحماية إسرائيل" .

□

وكانت لحادثة "بير نيبالا" فائدة جانبية ، فقد أوضحت للطرفين الفلسطينيين الرئيسيين : السلطة الوطنية ومنظمة "حماس" ــ أن إسرائيل تريد أن تدفعهما دفعا إلى اقتتال يصل إلى نوع من الحرب الأهلية بين الفلسطينيين .

وكان أن حاول الطرفان أن يضعا قواعد للتعامل بينهما تجنب الشعب الفلسطينى خطر انقسام مسلح يحقق لإسرائيل واحدا من أهم أهدافها ، ويظهر الفلسطينيين أمام العالم فى وضع غير القادرين على الاحتفاظ بوحدتهم فى وجه احتلال لوطنهم مباشر بالقوة العسكرية ، أو غير مباشر بالضغوط الاقتصادية والعزل السياسى والدبلوماسى ، والتعسف بدعاوى أمن إسرائيل .

٦

الــــدار البيضــــاء

" إن مصر قادت الشرق الأوسط ٤٠ سنة وهذه هى النتيجة ، وإذا تركتم إسرائيل تقود ولو عشر سنوات فسوف ترون " !

("شيمون بيريز" لبعض رجال الأعمال فى أحد اللقاءات الجانبية فى مؤتمر الدار البيضاء)

فى ربيع سنة ١٩٩٤ كانت التصورات الإسرائيلية لمستقبل السلام فى المنطقة ظاهرة ومكشوفة :

ـ مصر عقدت سلامها مع إسرائيل مبكرا ، فلم تعد هناك إمكانية حرب فى المنطقة . وهذا السلام مع مصر حقق أهدافه الأخرى ـ إلى جانب الحيلولة دون قيام الحرب . وأهدافه الأخرى هى كسر تأثير "المقدسات : المحرمات" فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، ثم تأكيد عزل مصر فى أفريقيا وإبعادها عن آسيا، وهذه غايات تحققت أو هى بسبيل التحقيق .

ـ والفلسطينيون وقعوا ، وهم على وشك أن يوقعوا اتفاقيات مع إسرائيل تعطى الإيحاء بأن القضية المركزية التى دار من حولها الصراع العربى ـ الإسرائيلى قد جرى حلها أو هى بسبيل الحل ، ومن ثم فإن الحرب لم تعد غير ممكنة فقط، ولكن الهدف الذى كانت الحروب تدور تحت أعلامه لم يعد قائما هو الآخر .

ولم يعد مهمّا أن تكون القضية الفلسطينية قد وجدت حلا أو لم تجد ـ فالأهم من ذلك أن كل العالم وبعض العرب رأوا اتفاقيات سلام تُعقد ، وحكومة فى المنفى تعود ، وقوات إسرائيلية تخرج ، وليس هناك من يملك الوقت أو الأعصاب للتدقيق والتقصى .

- وعندما وقع الملك "حسين" اتفاقية سلام بين الأردن وبين إسرائيل يوم ١٧ أكتوبر ١٩٩٤ في شرفة الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض ، فإن الحواجز - حقيقية كانت أو متوهمة - تهاوت على امتداد المسافة بين البحر الأبيض وإلى الخليج .
ولم يكن في مشهد التوقيع نفسه ما يثير . فالإثارة في أى حدث متعلقة بمفاجأة يقتحم بها مسارح الحوادث ، أو بجدة فيه تستلفت الأنظار . وفي حالة التوقيع الإسرائيلي - الأردني فإن المفاجأة لم تكن مطروحة ، ثم إن الجدة لم يكن لها مجال لأن المشهد ذاته تكرر أكثر من مرة من قبل في نفس المكان وبنفس الأسلوب وبنفس الخطى .
ثم إن أجواء العلاقات بين الوفدين الأردني والإسرائيلي عكست ألفة غير عادية دعت الرئيس "كلينتون" إلى أن يسأل الملك "حسين" و"رابين" صراحة أن يقولا له متى تلاقيا لأول مرة ؟
وكان الملك "حسين" أسبق في الرد فقال للرئيس "كلينتون" : "منذ عشرين سنة يا سيدى الرئيس" .
وصححه "رابين" قائلا : "واحد وعشرين سنة يا صاحب الجلالة" .

- وبصرف النظر عما يمكن أن تفعله سوريا ، وهل تدخل في مسيرة السلام أو تتأخر ، وهل توقع أو تمتنع - فإن المشكلة أصبحت محصورة على جبهة واحدة يمكن عزلها أو تطويقها بالضغوط النفسية والدعائية والعسكرية إذا دعت الظروف ، وهى في الغالب لن تصل لأنه من الصعب على سوريا أن تقبل استفزازا يؤدى إلى معركة في ظروف تعطى التفوق الكامل في السلاح لإسرائيل .

وبسقوط الحواجز على طريق الشرق كان اتجاه الاستراتيجية الإسرائيلية يواجه أفقا مفتوحا . فهى إسرائيل ، ثم الضفة الغربية منطقة مفتوحة ومشاع بينها وبين الأردن ، وربما مع دور يتقرر حجمه فيما بعد للسلطة الوطنية - ومن ثم ينطلق السهم الإستراتيجى إلى الخليج وهو القوس الواسع بعرض السماء للمستقبل الإسرائيلي .

وفي التصور الإستراتيجي الإسرائيلي فهو نوع من "البينولوكس" - الاتحاد الاقتصادى الذى يجمع بلجيكا وهولندا ولوكسمبرج - وهو بداية محددة حتى يتضح اللا محدود في خطط سوق شرق أوسطية تكون إسرائيل ركيزة ترتيباتها في مجالات الإنتاج والتبادل التجارى والسياحة والخدمات من المواصلات والاتصالات إلى الكهرباء والماء . وبحيث تكون هى الواسطة وهى القاعدة والعقدة ، وذلك هو شكل المستقبل المطلوب وبه يتحقق السلام المرتجى !

□

وكان هناك خطان يظهران على الرمال ــ على حد التعبير الذى استعمله "بوش" أثناء حرب الخليج ــ ولم تكن الخطوط عميقة غائرة ، وإنما كانت حتى هذه اللحظة خفيفة وسطحية :

- خط إسرائيلى يرى أن إسرائيل أعطت كل ما تريد أن تعطيه ، وكله فى الواقع على الجبهة المصرية وباتفاقية "كامب دافيد" . ثم إن التحركات التى كان فى وسعها أن تعطيها فى مقابل اتفاقيات سلام مع الفلسطينيين ومع الأردن قد تمت، وهى الآن تدخل مرحلة الحصول على فوائد السلام . وكانت تخشى أن يتوقف العرب لتقييم أوضاعهم بعد عملية السلام ، ثم يكتشفوا ولو بمتابعة ما يجرى على أرض فلسطين ، وما يحيط بها فى المنطقة ، إن الأمور تستوجب التوقف مع النفس وامتحان النتائج وقياس المسافات ، ومن ثم يكتشفون ما لا ضرورة لاكتشافه .

- وعلى خط آخر مواز فى العالم العربى فقد كان بعض ما تتخوف منه إسرائيل يحدث بالفعل . لأن صيحات عالية مثل صيحة "النظام العالمى الجديد" و"القواعد المستجدة فى التعامل بين الدول فى عصر القرية العالمية" ــ تباعدت أصداؤها ، ومن ثم برزت على الأرض العربية تساؤلات تطلب أجوبة ، وظواهر تبحث عن تفسيرات ، وحوار بالشك يستفيق من أثر صدمات مدوية .

وكان مستقبل المنطقة يتأرجح بين هذين الخطين على الرمال : أيهما يسبق الآخر فى تحديد اتجاهه ومسيرته وهدفه ، ويؤكد نفسه بحيث لا يستطيع الغد أن يطمس أثره برمال الحوادث والتطورات .

وكان أكبر حرص إسرائيل ألا يتنبه العالم العربى وتستيقظ شعوبه وتتنبه لما يجرى لها ومن حولها .

كانت إسرائيل تتبع سياسة ذكية فى استغلال الحوادث والتطورات ، وتحاول قدر ما تستطيع أن تزيح الرمال بحيث تغطى على الخط العربى فوق الرمال :

- إن العالم العربى دخل ابتداء من حرب الخليج الأولى وحتى نهاية حرب الخليج الثانية ــ إلى رحلة فى التيه كان عند نهايتها فى حالة إعياء وصل إلى درجة الإغماء !

- وحين فتح العالم العربى عينيه بعد انتهاء حرب الخليج الثانية ، فقد وجد نفسه ــ وربما على غير قصد من البعض ــ رفيق سياحة مع إسرائيل إلى عاصمة أسبانيا ــ مدريد .

- وفى مدريد ظهرت صيغة جديدة لحل ما بقى من الصراع العربى ـ الإسرائيلى وكانت الصيغة جديدة وغريبة لأنها تكسر كتلة الموضوع ووحدته ، وتحوّل عناصر إلى شظايا متباعدة لا يربط بينها جامع .

تنفلق أسباب الحرب عن ضرورات السلام .

وتتباعد المسافة بين دواعى العداء بما فيها المقاطعة ـ وبين منشأ النزاع .

وتنفصل المصالح عن مقتضيات الخلافات التى عطلت تواصلها .

ويمشى الناس على حقول ألغام دون أن تكون لهذه الألغام خرائط ترسم مناف للسلامة والأمان .

باختصار :

تنكسر محاولة البحث عن حل إلى نصفين لا علاقة لأحدهما بالآخر ولا صلة

نصف البحث فى المشاكل السياسية ، وهو يجرى بين كل طرف عربى وبـ إسرائيل مباشرة ، ودون أى وسيط ، بل ودون أى مرجعية أو قاعدة .

ونصف آخر من البحث فى الاقتصاد والمال والتكامل والتطبيع .

وفى هذا النصف من البحث يجتمع الكل دون تمييز وبغير فرز . ويجرى تقسـ الغنائم والصراع ما زال دائرا، ونيرانه قابلة للاشتعال فى أى وقت بأسلوب أو بآخر

وتنبه البعض إلى هذه المحظورات ، ووضعوا شرطا هو أن يرتهن التقدم فى تقسـ الغنائم (من خلال المباحثات المتعددة الأطراف) بالتقدم فى المسارات السياسيـ المختلفة ، لأن هناك رابطة سبب ونتيجة بين الشظايا التى انكسرت تعسفا فى وحدة المشكلة وكتلتها .

وحاول البعض أن يتحفظ على هذه القسمة التعسفية لأن التقدم فى نصف الدائرة الاقتصادى لا بد أن يرتبط بحل يتسق مع الحاصل فى النصف الآخر السياسى . وبالفعل تمسك البعض بأن المحادثات المتعددة الأطراف ـ وهدفها الاقتصاد ـ لا بد أن تنتظر الحسم على المسارات السياسية ـ نصف الدائرة الآخر .

- وتعثرت المسارات السياسية ، وكان يجب أن تتعثر ، لأن إسرائيل لم تكن تنوى أن تعطى غير ما أعطته . وفى نفس الوقت فإن المحادثات الاقتصادية ، وتحت ضغط القوى الكبيرة المشاركة فيها ، راحت تتقدم بغير عوائق .

- وبدا أن القرار السياسى فى العالم العربى لا يستطيع أن يلحق بما هو مطلوب منه لأن الرأى العام العربى ـ أو ما بقى منه ـ يمارس ضغطا على أصحاب القرار منتظرا منهم على الأقل تفسيرا لكيف يمكن أن يحدث التقدم على نصف المشكلة

فى الدائرة الاقتصادية ، ثم يتجمد تماما نصفها الآخر السياسى ؟ وهكذا فقد كان لا بد من حل مبتكر وخلاق :

- يسمح للمحادثات الاقتصادية أن تنجح .
- ويترك المحادثات السياسية إلى النوم أو النسيان .
- ويعفى الحكومات من ضغط الشعوب التى ما زالت تربط بين نصفى الدائرة ـــ فلا ترى السياسة بعيدة عن الاقتصاد ، وإنما ترى بحسها ما يراه الناس منذ بدء التاريخ وفى كل أرجاء الزمن الحاضر ، وهو أن حل الصراعات لا بد أن يبدأ من حلول سياسية ومنها يمشى إلى التعاون الاقتصادى . والعكس غير صحيح ، وهو معاد لمنطق الأشياء .

وكان لا بد من تجاوز المنطق .

وظهرت حكاية لقاء الدار البيضاء لتحل المشكلة : مؤتمر اقتصادى تظن الحكومات أنه لى مستوى القمة وهو وهم ـــ وتظنه ميدانا لها ، وهو وهم ثان . ثم تكتشف أن ؤتمر فى حقيقة أمره التفاف ليس من حول الواقع فحسب ، وإنما أيضا من حول حكومات ، فهو دعوة إلى رجال الأعمال على الناحيتين أن يأخذوا الأمور فى أيديهم بعيدا عن الحكومات الواقعة تحت تأثير الرأى العام فى بلادها ، ثم يصنعوا سلامهم الذى ستطيع أن يفرض تأثيره دون أن يخضع لتأثير أحد .

وبدأت عملية بيع الوهم من نقطة تثير الشكوك تمثلت فى بطاقة دعوة نصها كما يلى:[٤]

"الشرق الأوسط / شمال أفريقيا ـــ القمة الاقتصادية
الدار البيضاء ـــ ٣٠ أكتوبر ـــ ١ نوفمبر ١٩٩٤

تحت رئاسة صاحب الجلالة
الملك الحسن الثانى ملك المغرب
وبتأييد وموافقة من

بيل كلينتون	بوريس يلتسين
رئيس الولايات المتحدة الأمريكية	رئيس الاتحاد الروسى

دعى إلى الاجتماع بواسطة

المنتدى الاقتصادى العالمى	مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى "

---

(٤) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة لبطاقة الدعوة لمؤتمر الدار البيضاء ـــ تحت رقم (٢٥) .

وأرفق بهذه البطاقة صورة خطاب على أوراق البيت الأبيض بتاريخ ١ يوليو ١٩٩٤ من الرئيس "كلينتون" إلى الملك "الحسن" الثانى ملك المغرب ، كان نصه كما يلى :(٥)

"صاحب الجلالة ،

إننى أريد أن أعبر لكم عن شكرى العميق وتقديرى المخلص لاستعدادكم لاستضافة مؤتمر عن التنمية الاقتصادية فى الشرق الأوسط فى نهاية هذه السنة . إن هذا المؤتمر سوف يكون منبرا مهمّا لبحث الاحتمالات الاقتصادية للمنطقة وتنشيط فرص الاستثمار فيها . وهو بهذا يقدم إضافة لها قيمة إلى مسيرة السلام . إن الرئيس يلتسين وأنا قد طلب منا مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى لكى نقوم بدور رئاسة الشرف لهذا المؤتمر . وأنا سعيد بأن أقبل هذا الدور آملا أن ذلك سوف يؤدى إلى المساعدة على إنجاح الاجتماع .

جلالة الملك ، إننى منذ زمن طويل أقدر نصيحتكم العاقلة وقيادتكم الشجاعة من أجل سلام الشرق الأوسط . وكلانا يشترك فى التزام بسلام شامل ودائم يمكن شعوب المنطقة من دخول مستقبل من التعاون والازدهار . وأملى أن يستطيع المؤتمر المقترح أن يحقق اشتراك كل المنطقة فيه . وبهذه الطريقة فإن المؤتمر يمكن أن يعطى رؤية لما يمكن للسلام أن يحققه .

المخلص

بيل كلينتون "

ثم كان المرفق الثانى مع الدعوة خطابا من رئيس "المنتدى الاقتصادى العالمى" بتأكيد الدعوة .

وكان المرفق الثالث بطاقات للراغبين فى حضور المؤتمر والاشتراك فى أعماله تطلب منهم أن يملئوها بأسمائهم وتوقيعاتهم ، وأن ترفق بشيك بمبلغ ١٨٠٠ دولار لكل مشترك ، مع التنبيه بأنه فى حالة إلغاء الحجز قبل أول أكتوبر فإن المشترك الذى دفع ١٨٠٠ دولار لكى يحضر ، يستطيع أن يسترد نصفها إذا اعتذر عن عدم الحضور قبل ١٥ أكتوبر .

---

(٥) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة لخطاب الرئيس "كلينتون" إلى الملك "الحسن" ــ تحت رقم (٢٦) .

وكان المرفق الرابع استمارات[٦] للبيانات المطلوبة من الراغبين فى الحضـور تطلب منهـم أسماءهم وأسماء زوجاتهم إذا كـن سيحضرن معهـم ، وأسماء الشـركات التـى يعملـون فيهـا ، ونوع النشاط الاقتصادى الذى يهمهـم المشاركة فى مناقشتـه .

ولم تكن تلك قمـة ، ولا كانت مؤتمرا اقتصاديا ، ولكن مجرد اجتماع لأوسـع مجموعـة من أصحاب المصالح يلتقون فى الدار البيضاء فى غطـاء سحابة من الوهـم تصـور لهـم الموضـوع كله على غير حقيقته ، وخارج حدوده وعلـى غـير مقصـده . وفـى هـذا يستغل اسـم الملـك "الحسن" اعتمادا على فكـرة جاهر بها الملك سنوات طويلة ، وكذلك يستغـل اسـم الرئيـس "كلينتون" ، ويستغـل أيضا اسم الرئيس "يلتسـين" .

كان الملك "الحسـن" دائم التكرار لنظريـة اعتنقهـا وبشـر بهـا ، وهـى أن نمـو المنطقـة يعتمـد علـى مـا يسميـه رأس الـمـال البـترولى ، وقـوتى العمـل المصريـة والمغربيـة ، والعبقرية اليهودية .

وكان الرئيس "كلينتـون" ـ ومن منظور أمريكى ، ومصلحة انتخابية ـ يهمـه اتصال وتعاون رجـال الأعمـال ، وخاصة إذا كان الأمـر متعلقـا بإسرائيل .

وأما الرئيس "يلتسـين" فلم يكن مبعـث اهتمامـه جليـا إلا أن تكـون سياسـته المسـايرة ، التى اتبعتها روسيـا منذ انفراط عقـد الاتحاد السوفيـتى .

ومـن الغريـب أن بعـض رؤسـاء الـدول العربيـة فكـروا فـى السفـر إلى الـدار البيضـاء تحـت وهـم أنـه مؤتمـر قمـة عالمـى . كذلـك سـافر فعـلا أمـين عـام جامعـة الـدول العربيـة ، ثـم إن بعـض الرسميـين شـدوا الرحـال قبـل أن يلفـت نظرهـم أحـد طـائرين إلى الـدار البيضـاء . وهنـاك كـانت الحقيقـة أمـامهم ماثلـة فـى أنـه اجتمـاع لرجـال الأعمـال مـن فـوق رأس الحكومـات ومـن خلـف ظهـر الشعـوب . وكـان ذلـك هـو الابتكـار الجديـد الخـلاق الـذى يسمح بتجـاوز المـآزق السياسـية وطرقهـا المسـدودة ، والاسـتدارة إلى المغـانم الاقتصاديـة دون انتظـار لحـل المشـاكل السياسيـة .

وحرصت إسرائيل علـى أن تؤكـد منطـق هـذا المؤتمـر وهدفـه . وحـين حـاول بعـض الحاضرين من الرسميين أن يتطرقوا إلى المسائل السياسية بادئين من مستقبل القـدس ، كـان "رابين" على استعداد لأن يلفـت نظرهـم أولا إلى أن اجتماعهم ليـس هـو المجـال المناسـب أو المطروح للحديث عن القـدس . ثم رأى أن يضيـف تحذيرا إلى الجميع بـأن مستقبل القـدس حسم أمـره وانقضـى ، فالقـدس هى العاصمة الموحدة والأبديـة لإسرائيل ، وليـس فـى ذلـك نقاش لا فى الدار البيضاء ولا فى أى مكان آخـر . وكـان التحذيـر قاطعـا فـى حضـرة الملـك

(٦) فى ملحق صور الوثائق توجد صورة لصفحة من بطاقات الاشتراك فى المؤتمر ـ تحت رقم (٢٧) .

"الحسن" وهو رئيس اللجنة الدائمة للقدس التى تفرعت من مؤتمر رؤساء الدول العربية والإسلامية سنة ١٩٦٩ .

وانتهت المناقشات فى أروقة المؤتمر وقاعاته من أول ساعة . وتحول الاهتمام كله إلى بحث الأسواق ، وإقامة المشروعات المشتركة ، وترتيبات التمويل والتوكيلات ، إلى آخره .. وبشكل ما فإن كثيرا من النوايا السياسية تبدت من خلال مناقشة المسائل الاقتصادية والمالية . وكان ذلك ملفتا للأنظار وداعيا للاهتمام خصوصا فى القاهرة . ففى أحد اللقاءات الجانبية وقف "شيمون بيريز" يقنع بعض رجال الأعمال بأن هناك رياحا جديدة تهب على الشرق الأوسط ، وعليهم أن يلائموا أشرعتهم مع هذه الرياح الجديدة . وكان بين ما قاله : "إن مصر كانت تقود الشرق الأوسط فى الأربعين سنة الماضية ، وأنتم ترون الآن ما انتهت إليه الأحوال فى هذه المنطقة . وإذا أخذت إسرائيل الفرصة ــ ولو لعشر سنوات فقط ــ فسوف تلمسون بأنفسكم وفى حياتكم مدى الفارق بين الإدارة المصرية والإدارة الإسرائيلية للمنطقة ."

وعاد بعض المشاركين من الدار البيضاء وبعضهم يحمل معه أسبابا للحيرة تستوجب التأمل والتفكير .

٧

ألبوم الصور !

" الرئيس عرفات لا يريد إسقاط حكومة رابين "

(مدير مكتب "ياسر عرفات" لعضو الكنيست "عبد الوهاب الدراوشة")

وفى أجواء الحيرة والقلق والريبة التى سادت بعد الدار البيضاء ، بدا فى ظن بعض القيادات القومية فى المنطقة أن الوقت قد حان لمؤتمر قمة حقيقى يتدارس ما يجرى فيها ويتأمله . وأصبح واضحا أن الدور قادم على سوريا .

وكان الرئيس "الأسد" يشعر بالضغوط تدفعه من كل جانب للاشتراك فى "مهرجان التسوية". وربما أن "ألبوم السلام" كان ما زال يحتفظ بصفحات خالية تبحث عن صور أهمها صورة الرئيس "الأسد" على شرفة حديقة البيت الأبيض أمام نفس المائدة وعلى نفس المقعد وفى نفس الصحبة يقوم بتوقيع معاهدة طال انتظارها بين سوريا وإسرائيل .

لكن الرئيس "الأسد" لم يظهر لهفة على تقديم الصورة الناقصة فى "ألبوم السلام" .

والغريب أن الذين راحوا يضغطون عليه لحضور مشهد التوقيع لم يقدموا له إلا ذريعة حاجتهم إلى نجاح فى دمشق يضيف فرصة لتحقيق انتصارات انتخابية لـ "كلينتون" و"رابين" .

والرئيس "الأسد" معنى بما يستطيع أن يقدمه للشعب السورى ، وليس معنيا بما يستطيع "كلينتون" أو "رابين" أن يقدماه للشعب الأمريكى أو الشعب الإسرائيلى .

يضاف إلى ذلك أن الصور السابقة فى "ألبوم السلام" ليس فيها ما يغرى "حافظ الأسد" بأن ينضم إلى المجموعة ويمشى فى الخطى التى سبقه إليها غيره :

لقاءات سرية .

ثم إعلان مبادئ .

ثم تبدأ المحنة الحقيقية بعد أن تكون التعبئة السياسية قد انفضت ، ويكون التسليم — في إعلان المبادئ — قد وقع .

وحين يجيء وقت التفاوض على التفاصيل يختفي موكب "ملائكة السلام" ويجيء بدلا منه موكب "أبالسة الجحيم" .

ولم يكن في ذلك كله ما يغري الرئيس "الأسد" ، وفي وقت من الأوقات كان حسابه أن يكسب وقتا ، وفي هذا الوقت فإنه يعطي للأمريكيين ولا يعطي للإسرائيليين .

لكن ساحة المناورة كانت محدودة والاستمرار فيها يحتاج إلى مساحة أرحب . وكان أن طرح الرئيس "حافظ الأسد" فكرة عقد مؤتمر قمة ثلاثي في مصر تشارك فيه مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا — وبظن أن هذه الدول الثلاثة هي التي استطاعت بالتعاون بينها في بداية الخمسينات أن تتصدى لمخططات حلف بغداد . وتحمس الرئيس "مبارك" للفكرة ، كما أن الملك "فهد" لم يجد بأسا من اللقاء ، فمسار الحوادث في المنطقة بالفعل يستدعي وقفة ، والتشاور مع الإخوة "مطلوب في كل الأحوال" .

وهكذا انعقد مؤتمر قمة ثلاثي في الإسكندرية في أواخر شهر ديسمبر ١٩٩٤ . لكن مشكلة المؤتمر أن هدفه لم يكن محددا ، ولعله كان من الصعب في تلك الظروف تحديد هدف بالذات يلتقي عليه رؤساء الدول الثلاثة . بل إن الاجتماع الأول بين الثلاثة في الإسكندرية كان صعبا تحديد موعده ، ولم يلتئم هذا الاجتماع إلا قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة ، وبعد أن جلس الرئيسان "مبارك" و"الأسد" أكثر من ثلاث ساعات في انتظار مجيء الملك "فهد" ، ثم قررا الذهاب إليه في جناحه اختصارا للإجراءات وللسهر!

والغريب أن قطاعات واسعة من الجماهير العربية تلقفت قمة الإسكندرية ، وأضفت عليها من أحلامها وأمانيها ما يتجاوز فكرة انعقادها وجدول أعمالها . وبدأت نغمة تسري في العالم العربي بأن قمة الإسكندرية هي بداية يقظة عربية جديدة تتنبه للجاري والمتدافع من شئون الشرق الأوسط .

□

ولم تتأخر إسرائيل في إبداء انزعاجها من مجرد انعقاد مؤتمر الإسكندرية . وكان أكثر انزعاجها من الأحلام والتوقعات التي تواكبت مع المؤتمر وبقيت في الأجواء بعده .

وهكذا اقترح "رابين" و"بيريز" عقد مؤتمر قمة فى القاهرة ، رباعى هذه المرة ، يضم مصر وإسرائيل والأردن والسلطة الوطنية الفلسطينية . وانعقد المؤتمر فعلا فى القاهرة فى أوائل شهر فبراير ١٩٩٥ . وكان "رابين" صريحا إلى حد التجاوز حينما أعلن فور انتهاء جلسات اجتماعات القاهرة أن مؤتمر القمة الرباعى فيها كان هو الرد على مؤتمر القمة السابق عليه فى الإسكندرية . بل ومضى "شيمون بيريز" إلى أبعد ، فصور مؤتمر القاهرة على أنه بداية تنظيم إقليمى جديد يحل محل الجامعة العربية ، وقال "إن هذا التنظيم الإقليمى الجديد سوف تكون له أمانة دائمة تتابع تنفيذ مقرراته" .

والواقع أنه لم يكن فى جدول أعمال مؤتمر القاهرة ـ كما فى مؤتمر الإسكندرية قبله ـ موضوع محدد يدور عليه البحث وتنطلق منه القرارات ، إذا كانت هناك قرارات .

والغريب أن محضر إحدى جلسات مؤتمر القاهرة تسرب إلى الصحافة الإسرائيلية ونشرته "الجيروزاليم بوست" بالفعل فى عددها بتاريخ ٥ فبراير ١٩٩٥ . وفى هذا المحضر ورد الحوار التالى :

"رئيس الوزراء رابين (ملتفتا إلى الملك حسين) : هل يعقل أن يقوم كيان مستقل ولا يكون للسلطة فيه احتكار السلاح كما هو حادث بالنسبة للسلطة الفلسطينية فى غزة ؟

عرفات (موجها حديثه للرئيس مبارك) : سيادة الرئيس ، ماذا نفعل والإسرائيليون يبيعون السلاح لحماس . إننى أستطيع أن أقدم أسماء وعناوين هؤلاء الذين يبيعون السلاح لحماس .

رابين (ملتفتا إلى الرئيس مبارك) : إننى أطلب من الرئيس الفلسطينى أن يفعل ذلك .

عرفات : إن الرافضين الإسلاميين يملكون من الأسلحة أكثر مما أملك .

رابين : إذن فأنت لا تستطيع أن تسيطر عليهم .

(تبادل لحديث باللغة العربية بين الملك حسين والرئيس مبارك) .

الرئيس مبارك : نحن ضد الإرهاب .

رابين : بعد حادث بيت لود فأنت (مشيرا إلى عرفات) قبضت على سبعة أفراد من الجهاد الإسلامى ، ونحن قبضنا على مائتين .. بعد حادث تفجير الأوتوبيس فى شارع ديزنجوف ، نحن قبضنا على ألف وثلاثمائة وخمسين فردا .

عرفات : نحن قبضنا على كثيرين فى الماضى ، ولكنهم بُرِّئوا .

رابين : لأن المحاكم تخاف من الإرهابيين .

مبارك (موجها كلامه لعرفات) : نحن ضبطنا بعض الناس يحاولون تهريب متفجرات من نفق حفروه تحت خط الحدود المصرية . "

ولم تكن تلك أحاديث قمة تبحث عن المستقبل ، وإنما هى أحاديث مرسلة بين جماعة من الأصدقاء والمعارف راح كل منهم يشكو إلى الآخرين همومه وهواجسه !

□

كان "ياسر عرفات" يستشعر مع كل يوم قيود فخ غزة الذى دخل إليه على موسيقى "نشيد" عسكرى حماسى ، وراح يحاول بكل الوسائل أن يلملم أطراف موقفه لعله يحتوى بعض مخاطره :

● حاول أن يصل إلى صيغة تفاهم مع "حماس" تحول دون انفجار حرب أهلية فى قطاع غزة يؤدى الاقتتال الفلسطينى ـ الفلسطينى فيها إلى بحور من الدماء يغرق فيها ما تبقى من أمل للشعب الفلسطينى . وكانت "حماس" على استعداد للتجاوب ، وإنما داخل حدود تتوقف أمامها وتراعيها السلطة الفلسطينية .

● وحاول إصلاح خطوطه مع مجموعة الرأسماليين الفلسطينيين الكبار عن اعتقاد بأن هؤلاء لهم مصلحة فى مساعدته أكثر من الهيئات الدولية التى تريد أن تفرض عليه وصاية قميص من حديد . وأقلقه أن البنك الدولى رصد ثلاثين مليون دولار لـ"تأهيل اللاجئين" . ولم يكن أحد فى حاجة إلى ذكاء كبير ليدرك أن كلمة "التأهيل" فى برنامج البنك الدولى تعنى "التوطين" بمعنى توطين اللاجئين حيث هم فى البلدان التى لجئوا إليها، سواء فى لبنان أو سوريا أو غيرهما .

وفى محاولته لإصلاح الخطوط مع الرأسماليين الفلسطينيين الكبار فقد استجاب له السيد "حسيب صباغ" ، شرط أن يقدم له الترضية الكافية عن إهانة وجهها إليه عن طريق ابنته حين لاحظ غيابه عن حفل توقيع إعلان المبادئ فى البيت الأبيض فى واشنطن . وكان "عرفات" قد سأل ابنة "حسيب صباغ" : "لماذا لم يجئ أبو سهيل ("حسيب صباغ") إلى الاحتفال ؟" ـ ولم يكتف "عرفات" بمجرد السؤال ، وإنما أضاف

إليه تساؤلا ألحقه به قال فيه : "ربما أن "الموساد" (المخابرات الإسرائيلية) هى التى نصحته بألا يجىء" . واعتبرها "صباغ" إهانة تستوجب القطيعة ، وكان أن جرى ترتيب زيارة لـ"عرفات" إلى اليونان حيث مقر شركات "حسيب صباغ" لكى يسترضيه رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية شخصيا .

ولم يكن حظ "عرفات" بمثل هذا اليسر مع السيد "عبد المجيد شومان" (رئيس البنك العربى) الذى لم يوجه إليه "عرفات" أية إهانة مقصودة أو غير مقصودة ـــ ومع ذلك فإن "عبد المجيد شومان" آثر أن يحتفظ لنفسه بمسافة تبعده عن كل ما جرى ويجرى تحت مظلة أو مظنة السلام .

● وحاول "عرفات" مع النظام فى الأردن ، فقد أحس أن الإسرائيليين يلعبون على الحبال بينه وبين الملك "حسين" ، وقد بلغته شكوى رددها الأمير "الحسن" ولى عهد الأردن قال فيها : "إن شيمون بيريز هو الذى يترجم لنا الآن آراء عرفات ويشرح أمامنا سياساته ، وهذا أمر يثير الذهول" .

● وحاول "عرفات" أن يستعيد التعاون المفقود بينه وبين القادة القدامى من منظمة التحرير الفلسطينية ، وفى مقدمتهم "أبو مازن" ("محمود عباس") و"أبو اللطف" ("فاروق قدومى") . واقتنع "أبو مازن" ـ وهو مهندس اتفاقية أوسلو ـ بعد إلحاح من الملك "الحسن" والرئيس "مبارك" بأن يعود شرط أن يختص بمفاوضات المرحلة النهائية لأنه "لا يريد أن يكون له دخل فى كل ما جرى بعد اتفاقية إعلان المبادئ فى أوسلو ، ولا يريد أن يتعامل مع نتائجه" .

● ثم إن "عرفات" الذى أصبح يرى رأى العين مشكلة التفاوض فى المرحلة النهائية على مستقبل القدس ، راح يقول "إن القدس ليست مسئوليته وحده ، وإنما يجب أن يتحملها معه عدد من الملوك والرؤساء العرب : على الأقل الملك الحسن والرئيس مبارك والملك حسين والرئيس الأسد والملك فهد ."

وعليه الآن إقناعهم ، وليس أمامهم جميعا غير أن يقتنعوا .

وفيما يتعلق بـ"فاروق قدومى" الذى رفض أن يذهب إلى غزة لأنه لا يستطيع ممارسة مهمة "وزير خارجية" السلطة الوطنية فى ظل "مدافع الاحتلال الإسرائيلى" ـ فإن "عرفات" لم يكف عن القول بأن "وزير الخارجية ليس أفضل من "رئيس الدولة" ـ وإذا كان هو يمارس فى ظل الظروف الراهنة من غزة بما فيها وجود الاحتلال على مرمى البصر ـ فإن "وزير الخارجية" عليه أن يجد لنفسه مجالا فى نفس الظروف ."

كان "فاروق قدومى" يـرى أن أى كلام عن سياســة خارجيـة للسـلطة الوطنيـة ــ أو عـن وزارة خارجية أو وزيـر خارجية ــ كلها دروب من خـداع النفس . وكان قد وضـع خطوطـا بقلمـه تحت نصـوص فى الاتفاقيـة جـاء فيها ما يلـى بالحـرف الواحـد :

"(أ) طبقا لإعلان المبادئ فإن السلطة الفلسطينية ليس لها أن تمـارس أى اختصـاص أو مسئولية فى مجال العلاقات الخارجية . وهـذه المجـالات ــ الخارجـة عـن الاختصـاص ــ تشمل إنشاء سفارات فـى الخـارج ، أو قنصليـات ، أو أى نـوع مـن البعثـات الخارجيـة أو المراكز ، أو السماح بإنشاء شـىء من هذا القبيل فى منطقة غـزة وأريحـا . كما أنـه لا يقبـل تعيـين أو اعتماد ممثلين دبلوماسيين أو قنصليـين لأى ممارسات دبلوماسية أو قنصليـة ."

وكان "عرفات" مـا زال يتحـدث عـن "إمكانيـة قيـام دولـة فلسطينيـة فـى يـوم مـن الأيـام"، ولو بفعل العامل السكانى الـذى يتحـرك لصالـح الفلسطينيـين وضـد الإسـرائيليين (فمتوسط إنجاب المرأة الإسرائيلية ٢ر١ طفل فى حـين أن نسبـة إنجـاب المـرأة الفلسطينيـة تتجاوز خمسـة أطفال !)

بل إن "عرفات" كان مستعـدا أن يحلـم بدولـة فلسطينيـة "مـن نـوع مـا" فـى موعـد أقـرب من تأثير العامل السكانى ، "إذا يئسـت إسـرائيل تمامـا مـن الخيـار الأردنـى ، وإذا مضت حتى النهايـة فـى سياســة الفصـل المـادى والسياسـى والنفسـى بـين الإسـرائيليين والعـرب فى فلسطـين !"

□

وكان هناك إشكـال قادم يفـرض نفسه على الأحـداث بمثل ما يقـوم شريط سكــة حديـد بتحديـد مسـار القطـار الذى يتحـرك عليـه . وكـان هـذا الإشـكال هـو الموعـد الـذى يقتـرب لتجديد المعاهدة الدولية لحظـر الانتشار النـووى . وكـانت مصـــر تريـد أن تنتهـز الفرصـة وتثـير قضيـة خـلـل التوازن فى القـوة الناشـئ عن احتكار إسرائيل للأسلحة النوويـة ، ومـا ثبـت من أن إسرائيل تملـك مخزونا يزيـد عن مائتـى رأس نوويــة .

كانت الـدول غـير المنحازة ــ وضمنها مصـر ــ قد أدرجـت هذا الموضوع على جــدول أعمال مؤتمرها الذى دعـى إليه فى "باندونج" بمناسبة الاحتفال بمـرور أربعين سنـة على ذلك المؤتمر الشهـير الذى تأسسـت فيه حركـة التضامن الآسيـوى ــ الأفريقـى التـى أخـذت علـى عاتقها تحريـر ما بقـى تحت نـير الاستعمار من شعـوب القارتـين الكبيرتين . وكان الموضوع يهم مصـر لأكثـر من سبـب :

- أولها : إن مصـر كانت إحدى الدول الثماني عشرة التي تولت سـنة ١٩٦٨ صياغـة مشروع معاهـدة عدم الانتشار النـووى وتقديمه إلى الأمـم المتحـدة .

- إن مصــر سنــة ١٩٧٠ رفضت التصديق على المعاهدة لأن إسرائيل رفضت توقيعها.

- إن المشروع النــووى المصـرى جـرى وقفــه بعـد ذلـــك ، بينمــا استمــر المشــروع النـووى الإسرائيلـــى .

- إن مصـر وجـدت نفسها مطالبة بالتصديق على المعاهدة فى فبرايـر سنـة ١٩٨١ بعـد أن عرضـت على مجلس الشعـب . وكان أن وقعها الرئيس "أنور السادات" فى نفس يـوم تصديق مجلس الشعـب عليها .

- إن مصــر ـــ وبعـد أن تـــم إبـرام كـل مــا أبـــرم مـــن معــاهدات ســلام مــع إسـرائيل، وبواقـع أنـه ليسـت هنـاك إمكانيـة نوويــة عربيــة يحســب حســابها فـى الوقـت الراهـن ـ عــادت تثـير موضـوع خلـل تـوازن القـوة الناشـــئ عـن الاحتكـار الإسـرائيلى للســلاح النـــووى .

كانت معاهدة منـع الانتشار النووى تنص على أن تجديدهــا لمـدد محـددة أو إلى الأبـد ممكن ما لم تعترض على ذلك أغلبية الموقعين عليها . وراحت مجموعــة مـن الـدول المشـاركة فى مؤتمر "باندونج" ١٩٩٥ تدعـو غيرهــا إلى الاعـتراض علـى التجديـد الأبـدى لأنـه يقسـم العالـم إلى طبقتين : طبقـة تملـك التكنولوجيا والسـلاح النـووى ، وطبقـة أخرى محرومة من الاثنـين . وبما أن مصـر كانت تشعـر بأن السـلام الحقيقـى فى ظـل الاحتكار النـووى أمـــر شبـه مستحيل ، فإنها بدأت تثـير الموضوع على نطاق واسـع . وأثـيرت المشكلة فى القاهـــرة مـرة مع "شيمون بيريز" ، وكان رده : "إن مشكلة مصـر فى ذلك الأمـر ليست مـع إسـرائيل ولكنها مع الولايات المتحدة الأمريكية" . وأثناء زيارة أخـيرة قـام بهـا الرئيـس "مبــارك" إلى واشنطن قيـل للوفـد المصرى صراحة "إن مصـر من حقها أن تبـدى ما تشـاء من آراء ، لكنـه ليس من حقها أن تدعـو الآخرين إلى مسايرة آرائها ومواقفها . وتجديد المعاهدة على أى حـال لا يحتاج إلى توقيعات جديدة ، فـإذا لم تعـترض الأغلبيـة أو وافقــت الأغلبيـة فـإن المعـاهدة سارية على كل هؤلاء الذين صدقوا عليها . وفى يـد من يريد منهم الاعتراض ،حـل واحـد ، وهو أن يعلـن انسحابه من المعاهـدة ، وعليه أن يتحمل النتائـج ."

وكانت نماذج النتائج مرئيـة فى الأفـق . فالمشروع النـووى العراقـى "أوزيـراك" ضربتــه إسرائيل سنـة ١٩٨١ وفى وضـح النهـار وأمام الدنيا بأسرها . والحملــة علـى إيــران تـتزايد شدتها كل يـوم لمجرد أن إيـران أعادت إحيـاء مشروع نـووى كان شـاه إيـران قد اشترى لـه ثـلاثة مفاعلات ليس فى طاقتهــا أن تصنــع أسلحــة نوويــة . وكـان هــدف إيــران الـذى

ألحت عليه فى مواجهة هجمات إعلامية وسياسية مصحوبة بمقاطعة اقتصادية ، هو أن ما تريده هو تكنولوجيا الطاقة النووية اللازمة لعصر جديد ، وليس الأسلحة النووية التى تعلم كما يعلم غيرها أن استعمالها نوع من شبه المستحيلات فى أى صراع !

ومن المفارقات أن إسرائيل فى هذه الفترة لم يعد لها همّ إلا التنبيه إلى خطرين :

- التيار الإسلامى بصفة عامة .
- وإيران التى تحاول امتلاك قنبلة نووية (إسلامية هى الأخرى) بصفة خاصة !

وفى إحدى زيارات "شيمون بيريز" إلى القاهرة لم يكن له من حديث إلا التنبيه إلى خطر إيران . وقد ذهب مرة إلى أحد الاجتماعات يحمل ملفات ووثائق وأوراقا كانت تقدم الدليل فى رأيه على أن شكل الخطر القادم على المنطقة : إيرانى !

□

ثم استيقظت المنطقة ذات يوم من شهر مارس ١٩٩٥ فإذا إسرائيل تحكم الخناق على القدس وتقفل أى طريق عربى إليها بالكامل . وكانت تلك لحظة يقظة مؤلمة ، ذلك أنه برغم كل اتفاقيات السلام الموقعة مع الفلسطينيين والتى تؤجل البحث فى مستقبل القدس إلى مرحلة تالية من المفاوضات ، فإن إسرائيل كانت تتصرف دواما من جانب واحد دون اهتمام أو انتظار لأحد ، وراحت تحسم مصير القدس على الأرض وبطريقة يصعب الرجوع فيها .

وثار العالم العربى والعالم الإسلامى . وجرى التنادى إلى مؤتمر قمة حقيقى يبحث مستقبل المدينة المقدسة ، وهى أولى القبلتين وثالث الحرمين بالنسبة لمليار من المسلمين ، ثم إنها مهد كل القداسات لمليار آخر من المسيحيين .

وكانت مصر تواجه موقفا حرجا :

— موضوع القدس حساس بالنسبة لها ، كما هو حساس بالنسبة لكل العرب والمسلمين .

— ومصر خارجة على التو من معركة مع إسرائيل بسبب معاهدة حظر الانتشار النووى .

- وهذه المعركة أثرت على العلاقات المصرية ـ الأمريكية .

- ثم إن إسرائيل لديها ظنون بأن مصر لا تفعل ما فيه الكفاية لإقناع الرئيس "الأسد" بالانضمام إلى مسيرة السلام .

- وبشكل ما فقد بدا من أقوال وتصرفات ظهرت في إسرائيل أن هناك في إسرائيل من ظنوا ، بل اعتقدوا أن بعض المواقف المصرية الأخيرة مرجعها إلى أن مصر تخشى على دورها في المنطقة من إسرائيل ، خصوصا بعد الكلام الذى قاله "شيمون بيريز" في ركن قصى من قاعة مؤتمر الدار البيضاء ، وراحت الصحف الإسرائيلية تلميحا وتصريحا تشير إلى مسئولين مصريين بالتحديد تتهمهم بالتشدد والتعصب ، ثم تصل إلى استنتاج أن كل ما تريده مصر هو "الاعتراف بزعامتها" ـ كأن القضايا كلها مراسم وأسبقيات وشكليات وصور .

ومضى "رابين" و"بيريز" كلاهما ـ بتأثير هذا الظن ـ يدليان بتصريحات لا معنى لها عن "الاعتراف بدور مصر" و"الاعتراف بزعامة مبارك" . ثم وصلت الأمور إلى حد الدس في واشنطن والهمس في البيت الأبيض وفي وزارة الخارجية بأن مصر "غاضبة" لأن معاهدة السلام مع الأردن وقعت دون أن يكون لمصر دور فيها ، وإن ضيق الرئيس "مبارك" بعدم دعوته إلى حفل التوقيع بين الفلسطينيين والإسرائيليين في واشنطن ما زال مستمرا ، وقد تعزز بأنه لم يدع أيضا إلى حفل التوقيع بين إسرائيل والأردن .

ولم تكن تلك هي المشكلة ، خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بمستقبل القدس .

وتوجه الدكتور "عصمت عبد المجيد" أمين عام الجامعة العربية إلى لقاء مع الرئيس "حسنى مبارك" يقترح عليه الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربى ـ إسلامى . وكان من رأى الرئيس "مبارك" أن يتوجه الأمين العام للجامعة العربية ليعرض اقتراحه على الملك "الحسن" باعتباره رئيس اللجنة الخاصة للقدس والتى شكلها مؤتمر قمة عربى ـ إسلامى سابق سنة ١٩٦٩ .

وعندما سمع الملك "الحسن" بالفكرة من أمين عام جامعة الدول العربية كان تقديره أن الدعوة إلى مؤتمر قمة عربى ـ إسلامى سوف تكون حدثا كبيرا في ظروف دقيقة وحساسة، وقد لا تتحمل هذه الظروف ثقل مثل هذا المؤتمر . وكان اقتراح الملك البديل هو عقد اجتماع قمة تحضره الدول الأعضاء في لجنة القدس ، ويشارك فيه بالتالى عدد محدد من الملوك والرؤساء العرب .

وحدد الملك شرطين لا بد من التزامهما لكى يقبل من جانبه أن يدعو لهذا المؤتمر في الرباط :

أولـهمـا : أن تحضـر كل الدول الأعضـاء فى لجنـة القـدس .

وثانيهمـا : أن تكونْ مشاركة هذه الدول على مسـتوى القمـة ـــ أى بملوكهـا ورؤسـائها ودون أن يتخلف واحـد منهم أوْ ينيـب عنه رئيس وزرائه أو وزير خارجيته .

وعـاد أمـين عام الجامعة العربيـة بـرأى الملـك إلى القاهـرة . وكان الملك "الحسـن" يريد التأكيد على تصميمه ، فبعـث برئيس وزرائه السيد "عبد اللطيف الفيلالى" فـى إثـر الأمـين العـام للجامعـة العربيـــة ليطـوف بعواصـم الـدول المعنيـة ، ويعيــد التنبيـــه إلى رأى الملـــك وشروطـه حتى يدعـو لهذا المؤتمـر .

ولم يكن واضحا ما الذى يستطيعه مثل هذا المؤتمـر فى هذه الظروف ، وما هــى وسـائله للضغـط على إسرائيل غير إصـدار بيـان إنشائـى يناشد الضمير العالمى ، وهى مناشدة سـلبية لأن القـرار مرهون باعتبارات دوليـة أقـوى وأكـبر .

وكان القرار الأمريكى هو أهـم هذه الاعتبارات . فالرئيس الأمريكى "بيـل كلينتون" وهـو مقبل على معركة انتخابات لـمدة رئاسة ثانية ، مضـى فى استرضاء "المؤسسـة" (الصهيونيـة اليهودية فى أمريكا) إلى حـد أنه أعلـن موافقة البيـت الأبيـض على نقـل السـفارة الأمريكيـة فى إسرائيل من تـل أبيب إلى القـدس ـــ معترفا بالمدينة المقدسـة عاصمـة لإسـرائيل . ثـم إن الكونجـرس والأغلبيـة الجمهوريـة فيـه ، وبـين أعضائهـا اثنـان مـن المرشـحين للرئاسـة فــى الانتخابات القادمة وهما السناتور "جينجريتش" والسناتور "دول" يسابقان الرئيس "كلينتـون" فى الدعوة إلى انتقال السفارة الأمريكية إلى القـدس فـورا والآن ، ودون انتظار لأحد أو لشـىء.

وكان السيد "عبد اللطيف الفيلالـى" رئيس وزراء المغـرب قد أحـس فـى عواصـم المشـرق بأن شروط الملك "الحسـن" حتى يدعو لمؤتمر قمـة من أجل القــدس قـد لا تكـون مسـتجابة . فالرئيس "الأسـد" يرى أنه إذا كان هناك مؤتمـر على مستوى القمـة فلا بـد أن يكـون شامـــلا لكل الدول العربية لأن قضايا النضال العربى أوسع من القدس ، مـع التسـليم بالمكانـة الغاليـة للمدينة المقدسة . فالقدس جـزء من قضيـة كبيرة وليست قضيـة منعزلـة بذاتهـا ، "وإذا كنـــا سنجتمع ، وهناك ضرورات تدعـو إلى اجتماعنا ، فلا بد أن نبحـث فى كل أحوالنا والى أيـن آلـت وما هو شـكل المستقبل ؟"

وفى السعودية كان الملك "فهــد" على غير استعداد للحضور بنفسه لأن أطبـاءه نصحـــوه بجراحة فى الولايات المتحدة فى ركبتيه ، وهى جراحة ضروريـة أجّلها الملـك طويــلا بسـبب مشاغله المتصلة ، وهو الآن لا يستطيع الانتظار عليها لأن آلام ركبتيه لم تعـد تُحتمـل .

وفى عواصـم أخرى فى العــالم العربـــى تبــدت للسيد "الفيلالـــى" حالـة القنـوط التـى تحيـط بأجـواء القمـم العربيـة .

كان مأزق السياسة العربية معلنا ومؤلما . مشهرا وحزينا . ومن سوء الحظ — أو لحسن الحظ — فإن الملوك والرؤساء العرب جرى إنقاذهم من هذا المأزق فى اللحظة الأخيرة عندما قامت حفنة من النواب العرب فى الكنيسست الإسرائيلى بتهديد "إسحاق رابين" بأنهم سيطرحون الثقة بالحكومة . ثم عرف "رابين" أن نواب الليكود سوف يصوتون فى صالح سحب الثقة فى حكومته ، ومن ثم تسقط وزارته وموعد الانتخابات الجديدة مرئى من الآن فى أكتوبر ١٩٩٦ . واضطر "رابين" إلى أن يعلن — وبسبب أزمة دستورية تهدد بقاء وزارته وليس بسبب ضغط من الملوك والرؤساء العرب — عن تجميد قراره بالاستيلاء على مساحة خمسين فدانا (وهى دفعة أولى من ٤٥٠ فدانا) من أرض القدس يحكم بها الحصار تماما حول المدينة المقدسة .

كان الأعضاء العرب فى الكنيسست الإسرائيلى قد قاموا بإنجاز له قيمة حتى وإن كانت مؤقتة . وفى حديث لأحدهم ، وهو السيد "عبد الوهاب الدراوشة" ، قال ذلك العضو العربى فى الكنيست :(٧) "إن ضغوط العالم العربى وهمية ، وحسب معرفتى فلم يكن هناك أى تأثير عربى على القرار الإسرائيلى ، وكل ما حصل هو أن رابين خشى أن تسقط حكومته ، ولأسباب برلمانية داخلية تراجع تكتيكيا ، ذلك أنه بدون الصوت العربى لا تستطيع حكومة رابين أن تستمر يوما واحدا فى السلطة . ولقد اتصل بى مدير مكتب الرئيس عرفات (الدكتور رمزى خورى) وأبلغنى أن الرئيس عرفات لا يرغب بإسقاط حكومة رابين . لكن قرارنا هو قرار مستقل ، مع احترامنا وتقديرنا للرئيس عرفات ."

وبإعلان "رابين" أنه جمد مصادرة تلك المساحة من أراضى القدس ، تنفس الملوك والرؤساء العرب الصعداء ، وتسابقوا إلى إبلاغ بعضهم بأنه لم تعد هناك الآن ضرورة لمؤتمر قمة . ولم يقل أحد إنه لم يكن هناك نفع من الأصل فى مؤتمر قمة ينعقد فى هذه الأحوال العربية .

ولم تكن معركة القدس قد انتهت بقرار التجميد ، ولا هى قابلة لأن تنتهى بعده . فمعركة القدس أصبحت رمزا لـ"محرمات : مقدسات" كثيرة ، وقد ارتفعت فوق مستوى الناس والعصر وأصبحت حربا مقدسة يخوضها الرسل وتخوضها الكتب المقدسة : موسى والتوراة — عيسى والإنجيل — محمد والقرآن .

وتلك حرب من نوع آخر تتخطى قوة تفجيرها وطاقة نيرانها قوة وطاقة أى سلاح نووى !

---

(٧) مجلة "الوسط" التى تصدر فى لندن — العدد الصادر بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٩٥ .

كانت "المقدسات : المحرمات" قد انتقلت من مجالات الرؤى التاريخية والإستراتيجية ، وقضايا الصراع على اختلاف وسائله ، والسياسات وأساليب ممارستها والحقوق فى الأرض والحرية ، ومطالب الاستقلال وتقرير المصير .

كانت هذه "المقدسات : المحرمات" قد لجأت إلى المكامن الأخيرة فى مقاومة الأمم والشعوب ، ولجأت إلى القلوب والضمائر ، وإلى العقائد الراسخة بيقين فى أعماق أعماق البشر !

[انتهى النص الأصلى للكتاب]

زيـــــــادة

مشهـــد الســاعات الأخـــيرة
بعـــد نـــزول الســـتار

"إن العالَم مسرح يا جراتشيانو
ولكل امرئ دور على خشبتـه
ولكن دورى يا جراتشيانو ... دور حزين"

"ويليام شيكسبير"
مسرحية "تاجر البندقية"
الفصل الأول

لم أكن أريد أن أقترب من أصل هذا الكتاب بتغيير ، وإنما كان ميلى إلى تركه يقدم نفسه للمهتمين بأمره على صورته عندما فرغت منه وراجعت مخطوطته النهائية قبل سنة تقريبا . وقد ظل رأيى أن النهاية الطبيعية للقصة التى يتعرض لها (وهى المفاوضات السرية ـــ غزة أريحا ـــ سراب السلام) ـــ بلغت ذروتها الدرامية بدخول منظمة التحرير الفلسطينية إلى مناطق الحكم الذاتى . وأما ما تلا ذلك فتداعيات لا ضرورة لملاحقتها وإلا وقع الخلط بين الكتاب والجريدة ، وبما يستعيد المثل الشائع عن محاولة الماشى تقليد الطائر فإذا حركته حجل ، لا هى خطى تدب ولا هى أجنحة تحلق!

وساعد على تقوية ظنى أن النص الإنجليزى للكتاب صَدَر ، ونُشِرَت عنه ترجمات إلى لغات عديدة فى مطالع هذا العام ، وكان دخول منظمة التحرير الفلسطينية إلى مناطق الحكم الذاتى هو النقطة التى توقفت عندها فى ذلك النص الإنجليزى وما نُشِر عنه فى لغات أخرى . وخطر لى أننى حتى إذا حاولت ـــ وقد حاولت فعلا ـــ فى الطبعة العربية أن أتوسع فى النص وأن أزيد فى التفاصيل ، وأن أعزز ما أقول بالوثائق ـــ فإنى لا أملك مواءمة الاتجاه أو مجاوزة المدى ، بمعنى أن الاتجاه الذى اتخذته والنقطة التى توقفت عندها فى الطبعات الأجنبية التزام يستحق الاحترام فى الطبعة العربية أيضا .

ثم اقتنعت بهذا المنطق عندما خطر لى أن أى تغيير أو تعديل فى المخطوطة الأصلية كما كتبتها وراجعتها فى حينه قد يحمل شبهة ادعاء الحكمة بأثر رجعى ، واستغلال فرصة تأخير ظهور الطبعة العربية والتصرف فيها بحُرية حتى وإن تكن نسبية . وأحسست أن ذلك تجاوز مع القارئ العربى من حيث إنه يبدو محاولة متأخرة لتلوين النص الأصلى بمستجدات الظروف .

ثم كان أن تدافعت طوارئ ـــ أو طوارق ـــ أحداث كبرى قد يكون من اللازم ـــ وربما المفيد ـــ أن يقع التعرض لها ، وتلك هى طوارئ ـــ أو طوارق ـــ الفترة ما بين اغتيال "إسحاق رابين" يوم ٤ نوفمبر ١٩٩٥ ، ونجاح "بنيامين نتانياهو" فى الانتخابات يوم ٢٩ مايو ١٩٩٦ ، وتلك فترة حافلة وهائلة ، وليس من المقبول أن يصدر كتاب (عن المفاوضات السرية ـــ غزة ـــ أريحا ـــ سراب السلام) ويكون تاريخ صدوره بعد هذه الطوارئ ـــ الطوارق ـــ ثم يتجاهلها أو لا يتعرض لها مهما كانت الذرائع .

وظننت أننى وقعت على حل موفق وسعيد حين توصلت إلى إمكانية أن يظل نص الكتاب كما كان فى مخطوطته الأصلية دون تغيير — وفى نفس الوقت أفضلية أن أزيد على هذا النص الأصلى ملحقا مستقلا يستطرد بعد النص ولا يقاطعه !

وذلك ما فعلته . بقى نص الكتاب كما هو ، وزدت بعده هذه الصفحات فى محاولة لتركيز بؤر مكثفة من الضوء على بعض المواقع والمواضع فيما جرى بين الفراغ من مخطوطة الكتاب ومراجعتها — وبين وصول هذه المخطوطة مطبوعة أمام المهتمين بها تعرض نفسها عليهم .

وأظن أن بين ما حفزنى إلى محاولة تغطية هذه الفجوة بين الكتابة والنشر ما شعرت به — وشعر غيرى — من أن السياسة العربية فوجئت بنجاح "بنيامين نتانياهو" فى الوصول إلى رئاسة الوزارة فى إسرائيل ، وكان توقعها أن "شيمون بيريز" هو الواصل يقينا باستقراء الظواهر ، ثم إن وصوله من وجهة نظرها هو الكفيل بتحقيق مطالبها بناء على التجارب — ! — وبذلك يكون وصول "نتانياهو" صدمة مزدوجة — متناقضة مع التوقعات ومتعارضة مع الأمانى !

وبدا لى أن تلك قضية تستحق المراجعة ، خصوصا وأن فيما جرى خلال هذه الفترة ما يصح أن نسميه — وبحق — وقائع كاشفة .

— ١ —

وإذا حاولنا أن نراجع سريعا فقد يكون علينا أن نرجع قليلا إلى الوراء لأن ما يلقى بظله الآن على الشرق الأوسط ليس عفريتا أفلت فجأة من قمقمه — وإنما هو ظاهرة طبيعية على أرضٍ وتضاريسٍ مهيأة وجاهزة ، وفى جوٍ ومناخٍ يسمح ويفتح .

وحسب ما أظن ، فإن البداية كانت إعلان أوسلو سنة ١٩٩٣ ، ثم ما زاد عليه من اتفاقات تلته فى القاهرة وفى واشنطن ، وكلها اتفاقات أقبلت عليها الأطراف المشاركة فى صنعها ولكل منها أسبابه وأسلوبه .

وكان "بيريز" هو الذى لمح الفرصة المكنة فى "أوسلو" ، واستطاع بوسائل متعددة أن يُقْنِعَ أو يَجُرّ وراءه "رابين" الذى اقترب مترددا من الفرصة ، يرفضها فكرا وشعورا لكنه يعلل نفسه بأنها قد تفى بحاجته إلى بعثرة انتفاضة الحجارة بعد أن استحال كسر عظامها، وقد تحتوى خطر التيارات الإسلامية بعد أن بدأ نموها المتزايد يقلقه ، وتكرار عملياتها الفدائية يؤرقه ، خصوصا وأنها تواجه الجيش الإسرائيلى بنوع من المقاومة

لا يعرفه ، وأكثر من ذلك لا يفهمه ، إلى جانب أن تكاليفه المعنوية والمادية عالية ، والوقاية منه بالغة الصعوبة ، كما حكى "رابين" مرة فى آخر زيارة له للقاهرة ، مضيفا : "كيف يستطيع جيش الدفاع أن يخطط علميا ضد أناس يتسابقون بجنون إلى الموت ؟"!

وفى أبسط الفروض فقد كان "رابين" يأمل فى حالة توقيع اتفاق مع منظمة التحرير ـ أن السلطة الوطنية سوف تحمل عنه مطالب حياة السكان الفلسطينيين حيث مراكز تجمعهم الكثيفة فى غزة والضفة . وبالتوازى مع ذلك فقد كان يتطلع إلى أن هذه السلطة الوطنية سوف تحمل عنه مهمة القضاء على "المقاومة الإسلامية" !

والحقيقة أن المقاومة لم تكن قاصرة على فصائل التيار الإسلامى ، وإنما كانت أوسع ، فهى وطنية وقومية ودينية وإنسانية ، ولهذا لقيت تجاوبا من قطاعات فى الرأى العام العالمى تتفهم دواعيها وإن تحفظت على عنف تعبيراتها "الإسلامية" مرات.

وعلى نحو ما ، فقد كان "رابين" على استعداد ـ بإلحاح من "بيريز" ـ أن يراهن على أنه لو قبلت منظمة التحرير الفلسطينية "أى اتفاق" ووقعت عليه ـ فإن ذلك سوف يخلق لأول مرة "شرعية فلسطينية" لها على الجميع قول نافذ وسلطان .

وبدا فى وقت من الأوقات أن أصعب ما يواجه "رابين" ليس مقاومة الفلسطينيين لـ : "أى اتفاق" ، وإنما مقاومة الإسرائيليين ، سواء منهم المؤمنون بالدعاوى التوراتية ، أو المتعصبون بالعقيدة الصهيونية ، أو أصحاب الرؤى والمصالح فى إسرائيل ابتداء من المستوطنين إلى العسكريين ـ لـ : "أى اتفاق" !

ومع ذلك فقد ظن "رابين"، وهو يعرف أكثر من غيره محدودية اتفاق "أوسلو"، أنه قادر على إقناع المقاومة الداخلية فى إسرائيل بأن تصغى إليه باعتباره الأب المقبول من كل الأطراف من حَمَلة العقائد إلى حَمَلة الكتب إلى حَمَلة السلاح من المدافع الآلية وحتى الرؤوس النووية !

ـ ٢ ـ

وعلى الناحية الفلسطينية كان "ياسر عرفات" يُقدِّر أنه باتفاق أوسلو (وأخواتها) يعطى شعبه ونفسه موطئ قدم داخل الوطن يوفر فرصة عيش أقل معاناة وأكثر أمنا. ومع إدراكه فى أعماقه أن ما قَبِل به أدنى بكثير من الحد المقبول فلسطينيا وعربيا ، فقد ظن أن العصر والمتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية لا تعطيه بديلا ، وذلك أصعب أنواع الحصار الفكرى والنفسى .

وكانت الولايات المتحدة تدفع ، ومصر تشجع ، ومعظم النظم التقليدية في العالم العربي تجاري ، بل تسبق . وأوروبا واليابان تبديان استعدادها للمساهمة والتبرع حتى تستطيع السلطة الفلسطينية أن تقوم وتنجح ، وكانت مطالب النجاح ومعاييره مستحدثة وقد أدت إلى ظاهرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، فبدلا من سلطة يصرف عليها شعبها تَجيء سلطة تتولى هي الصرف على شعبها ، فالمعروف والمألوف أنه في أي بلد يخرج منه الأجنبي وتحل محله سلطة وطنية ، فإن الشعب ـ عن طريق الضرائب ـ يصرف على إدارته . لكن الأمر جاء معكوسا في الحالة الفلسطينية ، فقد كان على السلطة أن تصرف هي على الشعب ، وأن تعود إليه من المنفى حاملة خزائنها !

وكان ذلك يعطي لـ "عرفات" صورة الأب ـ أب آخر من نوع مختلف عن أبوة "رابين" ـ فهو أب يملك ويحكم ، ويمنح ويمنع ، ويكافئ ويعاقب ، وكان المطلوب أن يساعده ذلك على تمرير الاتفاق وتحجيم معارضيه حتى وإن رفعوا المصاحف على السيوف !

ـ ٣ ـ

ومع تقدم الأيام من خريف ١٩٩٥ بدا أن الاتفاق الذى جرى توقيعه ـ أوسلو وأخواتها ـ لا يمشي على الأرض وإنما يتدحرج فوقها !

● فهناك تيار عريض من الرأى العام العربي يرى أن الاتفاق ـ وقد بان من تفاصيله ما بان ـ هو في أحسن الأحوال قفزة في الظلام دفع إليها اليأس أكثر مما دفع الأمل .

● وهناك تيار عريض من الرأى العام الإسرائيلي يرى أن الاتفاق ـ رغم حدوده المحصورة ـ قد يبين فيه مع الأيام ثقب إبرة يفوت منه شيء يؤثر على تمدد حركة الاستيطان في الضفة الغربية والجولان ، وذلك شيء يمس الفكرة الصهيونية ، وهي شأن كل الدعاوى الأسطورية صخر لا تتغير كتلته إلا بالكسر !

● والدول المشجعة على انتهاز الفرصة من داخل الإقليم لا تملك ضمانا يكافئ الالتزام به ، كما أن القوى البعيدة عن الإقليم غلبها التردد حين تحوّل الالتزام بالتبرع ـ من ألفاظ إلى أرقام ، وبالتالى فإن الأوضاع السياسية والاقتصادية في مناطق الحكم الذاتي ساءت بدل أن تتحسن ، وتردت بدل أن تتماسك .

● وفى نفس الوقت تزايدت حركات الاحتجاج من جانب اليمين الإسرائيلى وأظهرها بين المستوطنين والجيش ، وفى مقابلها تزايدت تعبيرات الرفض وأظهرها من التيار الإسلامى بفصائله المتعددة . وفى هذا المناخ وقعت أربع عمليات فدائية كبرى هزت إسرائيل :

- انفجار سيارة ملغومة قرب مقر القيادة العسكرية بالضفة الغربية جرح فيه ٢٩ شخصا (٤ أكتوبر ١٩٩٣) .
- ثم انفجار أوتوبيس فى منطقة العفولة قتل فيه ٨ وجرح ٤٤ (٦ أبريل ١٩٩٤) .
- ثم انفجار أوتوبيس وسط تل أبيب قتل فيه ٣٣ شخصا وجرح ٤٧ (١٩ أكتوبر ١٩٩٤) .
- ولم يلبث أن لحقه انفجار رابع فى تل أبيب أدى إلى مقتل ٧ أشخاص وإصابة ٣٠ (٢٤ يوليو ١٩٩٥) .

وبدا أن أمن إسرائيل - وهو داعى "رابين" إلى مسايرة "بيريز" فى انتهاز الفرصة - مهدد بعد اتفاق أوسلو (وأخواتها) بأكثر مما كان قبلها .

- ٤ -

وعاد "رابين" إلى تردده وهو هذه المرة فى منتصف الطريق لا هو قادر على أن يستدير ويترك الاتفاق وراء ظهره ، ولا هو قادر على التمسك به والسير معه إلى أمام !

وكان أكثر ما يُشَوِّش فكره وحركته أن الولايات المتحدة ترجوه أن يستمر ، وأن يواصل التجربة مع سوريا بظن أن التوصل إلى إعلان مبادئ مع سوريا يجعل قطار السلام ينطلق إلى حيث يراد له ، وهو فى انطلاقه قادر على أن يدوس ويهرس كل المتلكئين على مساره !

لكن المأزق أن سوريا بدت مصممة على استعادة كل الجولان تطبيقا لمبدأ "الأرض مقابل السلام" كما اتفق عليه قبل مؤتمر مدريد فى خريف سنة ١٩٩١ .

ولم يكن فى مقدور "رابين" أن يعرض على سوريا صفقة متوازنة ، فكل ما لديه مجرد ترتيبات يترك فيها جزءا من الجولان فى مقابل شروط يصعب على أى حكومة شرعية فى دمشق أن تقبل بها أو تدافع عنها ، لأن مجمل هذه الشروط يفرض :

- تسليم سوريا ـ ليس فقط بحق إسرائيل فى الجزء الأكبر من الجولان ـ ولكن أيضا بحق إسرائيل فى كل مياه الهضبة ، وهى تتراوح ما بين ٨٠٠ إلى ١٢٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا .
- إعادة هيكلة الجيش السورى (أى تخفيض قوته بما فى ذلك تحديد أعداد الصواريخ ومداها ، وحجم القوات المدرعة والمدفعية والطيران) .
- إعادة تمركز الجيش السورى (أى سحب الجزء الأكبر منه إلى الحدود مع العراق ومع تركيا بما يكاد يصل إلى إخلاء دمشق وما حولها من أية قوات عسكرية) .
- تعهد سورى قاطع بالتخلى عن القضية الفلسطينية تماما ، وهو أمر بالغ الصعوبة بالنسبة إلى سوريا أكثر مما هو بالنسبة لغيرها لأن فلسطين ـ فى الشعور وفى الوعى ـ هى جنوب الشام التاريخية .
- تعاون سوريا فى نظام جديد للمنطقة يبدأ بالتطبيع مع إسرائيل ولا ينتهى به !

وتعثر الاتفاق مع سوريا بينما "رابين" أكثر ترددا : فليس لديه بديل عنف مُبرَّر، وليس لديه عرض سلام مقبول ـ رغم مساعدة أطراف عديدين له فى محاولة إقناع دمشق بالمرونة والواقعية .

ومع ذلك فإن سوريا فى ذلك الوقت ساعدت على اتفاق ضمنى بين إسرائيل و"حزب الله" يحد من استعمال قذائف "الكاتيوشا" ضد مستوطنات الجليل فى شمال إسرائيل ، طالما امتنعت إسرائيل عن ضرب المدنيين وراء "الحزام الأمنى" فى جنوب لبنان ! وأما هو ـ "رابين" ـ فقد استدعاه ماضيه القديم كمقاتل فى "الهاجاناه" فإذا هو يصدر الأمر باغتيال "فتحى الشقاقى" زعيم "الجهاد الإسلامى" الذى اعتبره مسئولا عن أكثر الهجمات الفدائية جرأة وأكثرها ضراوة ، وحدث ذلك فعلا يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٩٥ والخريف يواصل تقدمه .

ـ ٥ ـ

وفى هذه الأجواء اقترب شاب إسرائيلى اسمه "ييجال عامير" من "رابين" بعد اجتماع غنّى فيه "رابين" بلسانه ـ وإن لم يكن بقلبه ـ نشيدا من أجل السلام ، وعاجله بثلاث طلقات قاتلة !

وبصرف النظر عن النار والدم فإن المشهد كان ـ على نحو ما ـ مأساة إغريقية .

فالقتيل "إسحاق رابين" هو الأب الباقي والمُعْتَرَف به للعقيدة الصهيونية ، وللتعصب التوراتي ، ولحركة الاستيطان ، وللجيش الإسرائيلي المسئول النهائي عن أمن إسرائيل .

والقاتل "ييجال عامير" هو الابن الشرعي والمثالي للتجربة الصهيونية . فهو مهاجر من أسرة مهاجرين ، متحمس إلى درجة التعصب ، مجند سابق في الجيش الإسرائيلي ، خريج جامعة "بار إيلان" التي درس فيها الحقوق والقانون !

أي أن الابن قتل الأب (ابن المؤسسة الإسرائيلية قتل أباها) ، وهذه هي ذروة المأساة تنتهك كل "المحرمات" وتدوس على كل "المقدسات" . وربما أن ذلك أكثر ما يفسر المشاعر الإسرائيلية التي يختلط فيها الغضب والحزن والندم بعد وقوع الاغتيال ، وقد أدت تلك المشاعر بإسرائيل إلى نوبة من الاكتئاب يصعب معها قياس العبرة النهائية للمأساة ، وهل تكون هذه العبرة .. لحظة تَمُرّ ، أو درسا يُستوعَب .

(وكان في مقدور أي دارس لطبائع إسرائيل أن يتنبأ بأن اللحظة سوف تمر إلى النسيان ، فذلك النوع من المجتمعات الذي يقوم على العنف ـ لا يملك ترف الحكمة ، ولو أنه ملكها لأضاع سند وجوده . والشاهد أنه ليس هناك مجتمع من هذا النوع يقدر على أن يطيل النظر في المرآة ، بل إن مقتضيات السلامة النفسية والعملية تفرض عليه الابتعاد بسرعة عن المرايا وما تعكسه من صور الذات .)

ـ ٦ ـ

وكان رئيس الولايات المتحدة الحالي "بيل كلينتون" قد أخذ على مسئوليته ـ بأكثر من أي رئيس أمريكي سابق ـ أن يقوم بدور منقذ إسرائيل حتى من نفسها . وقد مارس "كلينتون" هذا الدور باقتدار يوم جنازة "رابين" واستطاع تحويل المأتم إلى مظاهرة عالمية تُقَوي إسرائيل على هواجسها الذاتية بعد تلك المأساة التي أقدم فيها الابن على قتل أبيه .

ووصل رئيس الولايات المتحدة إلى حد أن تولى بنفسه مسئولية ترتيب وإخراج الجنازة ، وظل شخصيا على التليفون يلاحق زعماء العالم ، وبينهم حكام عرب ، كي يهرعوا إلى السير وراء نعش "رابين" وإلا كان عليهم بعد ذلك أن "يمشوا وراء نعش السلام ، وربما نعوش أخرى غيره" !

وحين بدأ الموكب الجنائزى فى القدس فإن مشاهده كانت تلفزيونيا على أرقى مستوى ، فهناك كل شىء مطلوب للتأثير :

الصُّوَر ، والنجوم ، والدموع ، والزهور .

والأعلام ، والصلوات ، واللحن الجنائزى .

والخلفية وراء المشهد بحركته وأصواته وألوانه هى القدس عندما يحل عليها فصل الخريف .

وفى كل الأحوال فإنه فى أجواء المأساة أصبح "شيمون بيريز" خليفة بالشرعية لـ"رابين"، كما أن "ليا" زوجة "رابين" تَحَوَّلَت بسرعةِ طلقات الرصاص إلى ملكة مُتَوَّجة بالأحزان على إسرائيل .

— ٧ —

إن "شيمون بيريز"، ذلك الرجل الخاسر فى كل انتخابات دخلها (٤ مرات) ، وجد نفسه منتصرا فى السباق المرير بينه وبين "رابين" ، ولكنه المنتصر — بعد ربع قرن من المرارة — بموت الآخر وليس بهزيمته . وقادته مشاعره إلى معضلة :

— من ناحية كان هناك إغراء أن يدعو إلى انتخابات سريعة يستغل فيها الجَيَشان العاطفى الذى أعقب "قتل الأب" ، وتكون النتيجة فى رأى الخبراء وبشهادة استطلاعات الرأى مضمونة .

— ومن ناحية أخرى — وتلك طبائع البشر — فإن "بيريز" أحس أن نجاحه المؤكد فى الانتخابات فى تلك الظروف سوف يكون بتزكية من منافسه اللدود "رابين" أكثر مما هو بقبول اختيارى من الناخبين الإسرائيليين . وربما تذَكّر "بيريز" أنه لم يشغل مقعد رئيس الوزراء فى أى مرة من قبل (٣ مرات) إلا فى ظروف استثنائية أو بحلول وسط جرى ترتيبها لتجاوز عُقَد مستعصية . وهو لا يريد لهذه المهانة أن تلاحقه إلى الأبد . وبما أن الأبواب مفتوحة له الآن فلعله أقدر على الانتظار حتى يحقق إنجازا يُظْهره أمام الرأى العام الإسرائيلى رئيسا مقبولا بذاته وصفاته . وفى أحد لقاءاته فى تلك الأيام المبكرة بعد خلافته لـ"رابين" سئل "بيريز" : "لماذا لا يعجل بالاحتكام إلى الناخبين ؟" وكان رده بادعاء التعفف والنبل "إنه لا يريد أن يخطو إلى رئاسة الوزارة فى بركة من دماء سلفه" !

وكانت قيادات حزب العمل قلقة من رغبة "بيريز" فى الانتظار مهما تكن ظنونه . ولعل هذه القيادات كانت تخشى من المفاجآت ، ولم يكن غاب عن فكرها بعد أنه قبل الاغتيال وفى مجال قياس الرأى العام فإن زعيم "الليكود" كان متقدما على "رابين" بنسبة ٥٪ طبقا لاستفتاء نُشِرَت نتائجه قبل المأساة الإغريقية بأسبوع واحد .

وظل "بيريز" ميالا إلى الانتظار .

ـ ٨ ـ

وأراد "بيريز" أن يثبت أنه قادر على التشدد ـ وهو فى كل الأحوال طبيعته بالفعل خلافا للصورة التى باعها للمفاوضين العرب باعتباره رجل المرونة والاعتدال ـ وكان أن خلع قفاز الحرير الذى يغطى به قبضة الحديد ، وأطل على الناس بقسماته ونبراته مستغنيا عن أقنعة لم يعد لها لزوم .

ولم تكن ابتسامة "بيريز" فى وجه مفاوضيه العرب مستريحة فى أى وقت على شفتيه ، وكان النظر إليها مرة واحدة بتأن كفيلا بإظهار أنها مستعارة وليست حقيقية ، ومقصودة بالتَكَلُّف أكثر منها عفوية ـ لكنه بعد نزع الأقنعة فإن الابتسامة لم تعد تستعير أو تتكلف ، بل تركت الأنياب تظهر ، ومعها أصوات غاضبة أبعد ما تكون عن الهمسات الرقيقة فى أيام سابقة !

ومع أن متطرفا إسرائيليا هو الذى اغتال "رابين" فإن أول قرار لـ"بيريز" بعد رئاسته للوزارة كان أمره باغتيال "يحيى عياش" أحد قادة "حماس" الذى اتهم بأنه مهندس القنابل البشرية ، وبالفعل جرى اغتيال "يحيى عياش" فى غزة يوم ٥ يناير ١٩٩٦ ، وكان اغتياله بخطة تكنولوجية دقيقة نفذتها المخابرات الإسرائيلية (الـ"موساد") ورئيسها فى ذلك الوقت "شبتاى شافيست" ، ولعله أراد بنجاح الخطة أن يثأر لفشله فى حماية "رابين" .

ثم راح "بيريز" يزايد ليس فقط على سلفه ـ ولكن أيضا على غلاة المتشددين الإسرائيليين يسابقهم كل صباح ومساء إلى التأكيد على أن "القدس سوف تظل موحدة وعاصمة أبدية لإسرائيل"، وأن "المستوطنات والتوسع فيها مستمران" (وذلك كان واقعا ، فقد زاد عدد سكان المستوطنات فى الضفة الغربية بنسبة ٥٠٪ فى عهدى "رابين" و"بيريز" ، وبينما كان بند المستوطنات مطروحا فى جدول أعمال التفاوض ! !) ـ ثم إن حلم "الدولة

الفلسطينية خرافة غير قابلة للتحقيق" . وبرغم ذلك فإن المفاوضين العرب - بدون استثناء تقريبا - أرهقوا أنفسهم فى التماس الأعذار لـ"بيريز" وصنعوا من أمانيهم مبررات له ، وتطوعوا بنسبة ما يقوله إلى ضرورات انتخابية لها أحكامها وهى التى نقلته على عكس طبيعته من مروج الغزلان إلى مكامن الذئاب !

وربما دار بخلدهم أنهم لو صدقوا ما يسمعونه منه الآن لكان عليهم أن يعاودوا التفكير قبل فوات الأوان ، وذلك احتمال ليس بينهم من استعد له أو فكر فيما بعده . فكلهم سارع إلى القفز فى حمّام السباحة قبل أن يتأكد أنه ملىء ، وأن عمق الماء فيه قادر على امتصاص مسافة الارتفاع الذى قفز منه !

- ٩ -

وفى هذه الأجواء التى وصل فيها "بيريز" بتظاهرته المشهودة للقوة إلى ذروتها - كان شعوره بالثقة يزداد ، ثم كان ظنه أن الناخب الإسرائيلى يستطيع الآن أن يعطيه صوته لذاته وصِفاتِه دون أن يخوض إلى رئاسة الوزارة فى بِرْكَةٍ من دم "رابين" - على حد تعبيره . وهكذا تشجع ، وشجعه "كلينتون" حين ذهب لزيارته فى واشنطن . واقتنع "بيريز" وهو لا يزال فى واشنطن - فى مطلع فبراير ١٩٩٦ - بأن الوقت حان والقرار واجب ، وعاد إلى إسرائيل ليعلن رسميا دعوة الناخبين إلى الاقتراع يوم ٢٩ مايو ١٩٩٦ .

وبعد تحديد يوم الانتخابات فإن "بيريز" لم يعد معروضا على الناخب الإسرائيلى سواء كان من مشايعى الاتفاق أو مخالفيه ، وإنما أصبح "بيريز" مُعَرَّضا أيضا أمام العرب من مناهضى الاتفاق ورافضيه وأبرزهم التيار الإسلامى بواقع الحال .

وتعددت المحاولات للتصويب عليه :

- يوم ٢٥ فبراير - بعد أسبوعين تقريبا من إعلان "بيريز" عن تحديد موعد الانتخابات - وقع هجوم فدائى على محطة أوتوبيس فى القدس .
- وفى نفس اليوم وقع هجوم مماثل فى عسقلان . ومحصلة الاثنين ٢٦ قتيلا .
- يوم ٣ مارس وقع هجوم فدائى ثالث فى محطة أوتوبيس بالقدس أدى إلى مقتل ١٨ شخصا بمن فيهم الفدائى الذى حوّل نفسه إلى قنبلة بشرية .

ـ يوم ٤ مارس جاء الهجوم الفدائى الرابع فى بحر أسبوع واحد تقريبا وكان فى قلب تل أبيب ، وكان عدد القتلى ١٠ ، بالإضافة إلى جرحى ما بين ٤٠ إلى ٥٠.

وانقلب الوضع فى إسرائيل رأسا على عقب نتيجة هذه الحوادث .

كانت كل أجهزة خدمة القرار الإسرائيلى ـ بما فيها المخابرات ـ قد توصلت من قبل ذلك بكثير إلى نتيجة مفادها أن مصدر الخطر المسلح الوحيد الباقى فى العالم العربى هو إمكانيات المقاومة الإسلامية ، والمخاطر المحققة لهذه الإمكانيات فى حرمان إسرائيل من أعز مطالبها من غيره ، وهو : مطلب الأمن .

وكان ذلك بالفعل ما وقع نسفه فى شوارع القدس وتل أبيب وعسقلان !

ـ ١٠ ـ

وبادر الرئيس "بيل كلينتون" منقذ إسرائيل من نفسها ، ومن أعدائها ، إلى الحركة . فالشعب الإسرائيلى بعد العمليات الفدائية المتوالية وجد نفسه فى كابوس مرعب ، لأن الأعصاب فالتة والثقة مزعزعة ، وكل شىء محتمل إلى درجة أن "بيريز" فى لحظة من اللحظات فكر أن يعرض على الجنرال "شارون" أن يشارك فى وزارته ـ وزيرا للأمن الداخلى ـ لأن "الرعب الإسلامى" ـ كما راح يصفه ويسميه ـ يحتاج إلى "رعب إسرائيلى" سبق للعرب أن عرفوا شكله وجَرَّبوا فعله . وبدت مثل هذه الاحتمالات فى واشنطن كأنها نذر بأن الحكومة الإسرائيلية أيضا على وشك أن تفقد أعصابها بمقدار ما إن سكان إسرائيل فقدوا بالفعل أعصابهم .

وكانت مبادرة الرئيس "كلينتون" نوعا من الاستعادة لجنازة "رابين" وبنفس الوجوه العربية والدولية تقريبا :

- فى القدس فى أكتوبر كانت المحاولة لطمأنة إسرائيل ضد "الوحش الصهيونى" الكامن فى قلبها .
- وهذه المرة ـ الثانية ـ كانت المحاولة لطمأنة إسرائيل ضد "الوحش الإسلامى" الذى هجم ينهش لحمها . وكان المسرح الجديد هو شرم الشيخ . وفى الواقع فإن ذلك كان عبئا معنويا وسياسيا لا لزوم له على أصدقاء واشنطن من العرب ، وتبدى جموح الرئيس الأمريكى فى إلحاحه على تسمية اجتماع شرم الشيخ بـ "مؤتمر مقاومة الإرهاب" (الإسلامى) ، فى حين آثر مضيفوه أن يطلقوا على الاجتماع وصف "قمة صُنَّاع السلام" .

وبصرف النظر عن اختلاف التسميات فقد كان الهدف هو طمأنة شعب إسرائيل ، وتهدئة روع رئيس وزرائها ، وتقوية فرصته في كسب معركة الانتخابات لذاته وصفاته وليس فقط باعتباره وريثا لـ "إسحاق رابين" !

بمثل ما كانت الجنازة تماما !

— ١١ —

وفى ذلك كله لم يتوقف أحد بالقدر الكافى ليرصد متغيرات الريح فى أجواء إسرائيل المتقلبة !

قبل اغتيال "رابين" كانت استفتاءات الرأى العام ترجح تقدم "نتانياهو" عليه بنسبة ٥٪ من الأصوات — (كان ذلك اختيارا حرا) .

وفى أعقاب اغتيال "رابين" تغيّرت النسبة — بالرصاص — لصالح "بيريز" بفارق وصل في أحد الاستفتاءات إلى ٢٤٪ — (كان ذلك اندفاعا عاطفيا) .

وفى أعقاب حوادث التفجيرات (أواخر فبراير — أوائل مارس ١٩٩٦) كان الاندفاع النفسي في صالح "نتانياهو" (أى أن حركة البندول مَشَت فى اتجاه معاكس يعود بها سيرتها الأولى) .

وكانت الولايات المتحدة تؤيد "شيمون بيريز" وأهم أسبابها أن أسلوبه في الحصول على غنيمته أرق من "نتانياهو" . الأول يحاول بخِفة اليد وذلاقة اللسان ، والثانى يحاول بالإكراه وبحَدّ السكين !

ووصل تأييد الولايات المتحدة لـ"بيريز" إلى حدود غير مسبوقة فى التعامل بين دول مستقلة مهما بلغت درجة الصداقة بينها !

وفى نفس الوقت فإن تحريض الولايات المتحدة على "نتانياهو" وصل إلى حد التخويف به كما حدث فى دمشق حين قال "وارين كريستوفر" وزير الخارجية الأمريكى صراحة لمحدثيه ذات يوم : "إنكم بالتعنت مع بيريز ورفض ما يقترحه عليكم سوف تفتحون الطريق لنتانياهو ليصبح رئيسا لوزراء إسرائيل ، وسوف يكون أول ما يقوله لكم إنه لن يعيد إليكم شبرا من الجولان" . وكانت نصيحته بعد ذلك أن يقبلوا أى شىء مع "بيريز" لأنه أفضل من لا شىء مع "نتانياهو" .

ومن الغريب أن تلك كانت تعبيرات نصائح أخوية عربية قُدِّمَتْ لدمشق ، ونسي كثيرون أن القبول بواقعية "أي شيء" يتساوى في النهاية مع القبول باستكانة "لا شيء" !

- ١٢ -

ولم يكن "شيمون بيريز" على استعداد للاعتماد على تأييد الرئيس "كلينتون" ووسائله النافذة ، ولا على أصدقائه العرب ونواياهم الطيبة ، حتى لو اقتنعت دمشق بأن "ناره" أرحم من "جَنّة" نتانياهو . وهكذا فإنه بدأ مع جنرالاته في التخطيط لعملية "عناقيد الغضب" وهدفها الرئيسي تدمير البنية الأساسية لـ"حزب الله" في جنوب لبنان لكي يستأصل من الجذور تهديد صواريخ الكاتيوشا لمنطقة شمال الجليل ، والهدف الفرعي بعد الهدف الرئيسي - وهو لا يقل أهمية - استفزاز سوريا عساها تتورط ومن ثم تعَرِّض نفسها لخسائر قد لا تكون "فادحة" وإنما يكفى أن تكون "فاضحة" يظهر بها العجز ومن ثم تضيع الهيبة .

ومع بداية شهر إبريل سنة ١٩٩٦ بدأت عملية "عناقيد الغضب" وراح السلاح الإسرائيلي يَصُب ناره ودماره على جنوب لبنان يبغي القضاء على أي وجود لـ"حزب الله" ، وكان الظن أن الهدف الرئيسي للعملية قابل للتحقيق . وفي نفس الوقت سقطت نيران جانبية على موقع سوري واستشهد بعض جنوده ، وبدا أن الهدف الفرعي قد يصبح هو الآخر واردا .

وتوجه "شيمون بيريز" إلى مسرح العمليات يتابع على الأرض تنفيذها ، لكنه تَعَرَّض أثناء وجوده هناك إلى مواقف حرجة مع جنرالات الجيش وبينهم الجنرال "جيورا إنبار" قائد العمليات في الحزام الأمني .

كان الجنرالات يشعرون بنوع من التوتر نشأ من إحساسهم بأن توقيت بدء العملية كان سياسيا (أو بتعبير أصرح "انتخابيا") ، وكان تحسبهم أنه والأمر كذلك فإن أي تغيير في المصالح السياسية (أو الانتخابية) قد يمد تأثيره إلى العملية ، وذلك يؤثر على معنويات القوات ، وأيضا على قيمة التخطيط العسكري وكرامته . ورفض "بيريز" هذه الدعاوى ، وكان قوله في النهاية "إن أحدا لن يعترض العملية العسكرية ولن يعرقل أهدافها" ، ولهذا فإن رجاءه من الجنرالات أن يُكَثِّفوا عملياتهم بكل الوسائل لكي يحققوا الأهداف المطلوبة بسرعة تعطيه إطارا زمنيا Time frame معقولا يوفر له حرية المناورة على الساحتين الإقليمية والدولية .

وكانت الحقيقة التى اكتشفها "بيريز" وجنرالاته أن وجود "حزب الله" فى جنوب لبنان ليس وجودا طارئا يقاس على مثال وجود منظمة التحرير الفلسطينية ذات يوم فى بيروت ، والسبب أن "حزب الله" وجود وطنى لبنانى وليس وجودا لاجئا ــ مهما بلغت قوته ــ فى وطن آخر ، ومعنى ذلك أنه إذا أريد تدمير البنية الأساسية لـ"حزب الله" فى لبنان فالحل الوحيد تدمير لبنان كله .

وعلى هامش ذلك فإن سوريا لم تستجب لدواعى الاستفزاز حين جرى اختبار قوة أعصابها .

ــ ١٣ ــ

وفى أجواء التصعيد الشديد لتحقيق أهداف "عناقيد الغضب" بسرعة ، وقعت حادثة "قانا" حين صَبَّت المدافع الإسرائيلية قنابلها "عمدا" على مركز للقوات الدولية لجأ إليه بعض السكان اللبنانيين والفلسطينيين الذين لم ينزحوا . وكان القصد الذى يمكن تصوره لمذبحة من هذا النوع إعطاء إشارة إلى كل سكان الجنوب اللبنانى بأنه ليست هناك بقعة آمنة فى المنطقة حتى ولو رفرف عليها علم الأمم المتحدة ، وبالتالى فإن الهجرة إلى الشمال نحو بيروت هى طريق النجاة الوحيد . وبذلك يتحقق تفريغ الجنوب اللبنانى من أهله . يجف بحر الناس ويختنق سمك "حزب الله" !

وكانت "قانا" مذبحة مدنيين دموية ومتوحشة ، وكان مستحيلا ألا تحدث أثرها الإنسانى حين فرضت الصور نفسها على الإعلام الدولى رغم محاولات كثيرة لاحتواء الأثر بالتغطية والتعتيم . ولم تتأخر ردود الفعل الدولية كثيرا ، بل بدأت بأوروبا الغربية (فرنسا أسبق الجميع لأسبابها اللبنانية) ، ثم الولايات المتحدة (لأسبابها الأوسع فى منطقة آل إليها احتكار أمورها ومصائرها) .

ولم تكن نتائج العمليات على الأرض تعطى لإسرائيل فرصة إملاء شروطها لوقف إطلاق النار ، وقصارى ما توصل إليه "وارين كريستوفر" وزير الخارجية الأمريكى ، بتعاون اضطر إليه مع "هرفيه دو شاريت" وزير الخارجية الفرنسى ، هو إحياء اتفاق سنة ١٩٩٣، على أن يكون مكتوبا على الورق هذه المرة وليس مفهوما بالسكوت علامة على الرضا !

وحين بدا أن إطار الزمن يحاصر "بيريز"، ظهر خلاف الجنرالات معه إلى العلن وعقد الجنرال "جيورا إنبار" مؤتمرا صحفيا قال فيه دون أن يغمغم أو يتلعثم فى ألفاظه وكلماته : "إن رئيس الوزراء لا ينبغى له أن يقبل بحل سياسى إلى حين تحقق عملية "عناقيد الغضب" أهدافها كاملة" .

واعتبر "بيريز" أن ذلك تدخل من العسكريين فى السياسة ، وشكا إلى الجنرال "أمنون شاهاك" رئيس الأركان ، ونصحه "شاهاك" بتجنب فتح الباب لأزمة بينه وبين العسكريين تؤثر على معنويات الشعب الإسرائيلى فى ظروف ملتبسة (وكانت الإشارة واضحة إلى المعركة الانتخابية) .

وتجرأ الجنرال "إنبار" أكثر فإذا به فى اليوم التالى يحول تصريحاته الصحفية إلى رسالة مفتوحة موجهة إلى رئيس الوزراء . وطلب "بيريز" إلى الجنرال "شاهاك" تحويل الجنرال "إنبار" إلى مجلس تأديب عسكرى . ورد "شاهاك" بأنه يسلم بأن تصرف الجنرال "إنبار" سخيف وغير ضرورى silly and unnecessary ـ لكنه ما زال ينصح بعدم إعطاء تصريحاته أكثر من حجمها وعدم تحويلها إلى مواجهة بين رئيس الوزراء وقواد الجبهة .

وبرغم كل محاولات التكتم على الأزمة ، فإن جريدة "التيمس" البريطانية (عدد ١٨ أبريل ١٩٩٦) نشرت معظم الوقائع فى رسالة لمندوبها فى القدس "كريستوفر ووكر" .

وكانت هذه الأزمة هى السبب الرئيسى الذى جعل "بيريز" يظهر فى حالة هياج شبه مجنون فى مؤتمره الصحفى الذى حاول فيه تبرير حادثة "قانا" ، والذى بدأه بالإشارة إلى مؤتمر شرم الشيخ موحيا بأن عملية "عناقيد الغضب" جرت فى إطار مرجعية "مؤتمر مقاومة الإرهاب" أو "قمة صُنّاع السلام" !

ـ ١٤ ـ

وكانت كل هذه التطورات تعكس نفسها على المعركة الانتخابية . ورغم أن استفتاءات الرأى العام المنشورة فى الصحف كانت لا تزال تعطى أغلبية لـ"بيريز" تتأرجح حول ٢ إلى ٣ فى المائة ـ فإن رئيس الوزراء الإسرائيلى كانت لديه معلومات أكثر دقة تثير هواجسه.

ويوم ٢٤ مايو بالتحديد (أى قبل خمسة أيام من موعد الانتخابات) أجرى "شيمون بيريز" اتصالا تليفونيا مع القاهرة (ولا داعى هنا لتحديد مع من كانت المكالمة !) وكان "بيريز" ينقل رسالة لمن يعنيهم أمره ويهمهم نجاحه فى الانتخابات ، ومؤدى الرسالة : "أرجو ألا تطمئنوا إلى ما تقرءونه عن استفتاءات الرأى العام فى إسرائيل ، فأمامى تقارير من وزارة الأمن الداخلى ترجح فوز نتانياهو ، وإذا كان لا يهمكم نجاح الليكود فلا بد أن تبذلوا جهدا مع العرب كى يصوتوا لى . هناك ٢٠٠ ألف صوت عربى واتجاه أصواتهم يمكن أن يؤثر فى النتيجة ، ولا بد أن تتدخلوا معهم لضمان أصواتهم لصالحى ."

وبدا "بيريز" عصبيا ودرجة انفعاله زائدة ، والشاهد أنه لم يكتف بهذه المكالمة مع القاهرة وقد كان يمكن كتمان سرها ، ولكنه ذهب بعد ذلك أبعد ومما يصعب كتمان سره .

قبل الانتخابات بساعات اتصل رئيس وزراء إسرائيل باثنين على الأقل من الشخصيات الفلسطينية البارزة التى رشحت نفسها لانتخابات الكنيست على "القائمة العربية الموحدة" وعلى قائمة "مجموعة حداش". وبدا كلامه مع من اتصل بهما مستغربا، فقد قال لأحدهما مثلا : "هناك دعوة فى الوسط العربى تطلب إلى الناخبين العرب وضع أوراق بيضاء فى صناديق الانتخاب ، وذلك سوف يكون لصالح نتانياهو . وإذا كنتم تريدون أن يصبح نتانياهو رئيسا للوزارة فلكم ما تريدون ، وأما إذا لم يكن ذلك ما تريدونه فعليكم أن تتحركوا بسرعة لتوجيه الصوت العربى إلى حيث تقتضى مصلحتكم ! "

وقبل الانتخابات بيوم واحد ، وأثناء اليوم الذى جرت فيه ، اتصل "بيريز" أو بعض مستشاريه بعدد من زعماء ومسئولى السلطة الوطنية يلفتون نظرهم إلى "أن الصوت العربى ما زال ضائعا مع أن هذه فرصته فى التأثير" .

وأثمرت هذه الاتصالات جهودا فلسطينية مستميتة تحاول تحسين فرص "بيريز" .

ـ ١٥ ـ

ولم تكن هذه الانتخابات للكنيست الرابع عشر منذ إنشاء دولة إسرائيل هى الأعنف فقط ، ولكنها كانت الأهم أيضا ، ذلك أن الحكومة المنبثقة عن المجلس النيابى الجديد سوف يكون عليها أن تتخذ قرارات مهمة . فهذه هى المرة الأولى التى يجرى فيها الاستفتاء على ما سوف تعطيه إسرائيل من ثمن يشترى ويضمن لها السلام الذى طالما تحدثت عنه وغنّت من أجله .

فى كل انتخابات قبل ذلك كان احتمال الحرب هو التحدى المطروح وليس احتمال السلام ، وأما هذه المرة فإن ما سُمّى بالسلام ـ ! ـ قطع شوطا طويلا قارب نهايته إذا رضيت إسرائيل بدفع ثمن بسيط وبالتقسيط !

قبل هذه اللحظة لم تقدم إسرائيل مقابلا ، وإنما حصلت على كل شىء بوضع اليد .

ومن الخطأ تصور أن إسرائيل قدمت سيناء لمصر دون مقابل إلا معاهدة سلام . ولعله من المهم أن يتذكر الجميع أن إسرائيل لم تكن لها دعاوى دينية أو أسطورية فى سيناء ،

ومن الناحية الاستراتيجية فقد كان مطلب إسرائيل من مصر واحدا لم يتغير ، وهو أن تبتعد مصر عن شيءون المشرق ، وبالتحديد منطقة الهلال الخصيب والشام فى قلبها . وكانت إسرائيل تدرك أن مصر هى البلد الوحيد الذى يمكن أن ترتكز عليه عوامل القوة العربية فى الحرب وفى السلم على السواء ، وبالتالى فإن خروجها من معادلة القوة العربية مكسب لا يعادله مكسب . وكانت الصفقة المعروضة على مصر من سنوات طويلة أن توافق إسرائيل على إطلاق يد مصر فى أفريقيا العربية ، مقابل أن توافق مصر على إطلاق يد إسرائيل فى آسيا العربية حيث مطامع إسرائيل .

وكانت معاهدة "كامب دافيد" قد أعطت ذلك لإسرائيل — إلى حد ما على الأقل .

وبالتالى فإن إسرائيل أعطت بشروط أرضا لا تتمسك بها (سيناء) فى مقابل حرية التصرف بغير شروط على أرض تتمسك بها أو تريد أن تمسك بها (وراء سيناء فى الشام) .

وفى أرض الشام التاريخية كانت القضايا الكبرى والحساسة كلها معلقة ، وكانت إسرائيل قد اختارت أسلوب تأجيل البت وتعليق القرار إلى اللحظة الأخيرة ، لكن هذه اللحظة الأخيرة سوف يحل استحقاقها بعد انتخابات الكنيست الرابع عشر إذا كان على السلام أن يستكمل "مسيرته" !

هناك فى هذه المنطقة كانت المؤجلات المعلقات على النحو التالى :

— بالنسبة للأردن لم تكن هناك مؤجلات معلقات إلا الاستمرار فى فتح وتوسيع بوابات التطبيع ، وتلك عملية تواجه مقاومة شعبية بحكم أن أغلبية المملكة من الفلسطينيين يؤثر عليهم فى شرق الأردن ما يحدث غرب النهر .

— بالنسبة للقضية الفلسطينية كانت كل القضايا الحيوية مؤجلة معلقة تنتظر المرحلة الثانية من المفاوضات الإسرائيلية العربية .

فى المرحلة الأولى — من هذه المفاوضات — كانت إسرائيل قد خلّصت نفسها من أعباء الإعاشة والخدمات فى مناطق الكثافة السكانية : غزة ومعظم مدن الضفة .

وفى نفس الوقت أزاحت عن كاهلها مسئولية الأمن البوليسى ، كما نقلت إلى السلطة الوطنية مسئولية التصفية العسكرية للمقاومة الفلسطينية حتى وإن أدى ذلك إلى حرب أهلية فلسطينية !

وأما فى مفاوضات المرحلة الثانية فقد كانت المؤجلات المعلقات هى كل القضية الفلسطينية فى الواقع : المستوطنات — اللاجئون — الأرض — القدس .

— بالنسبة لسوريا كان الضباب يغطي مرتفعات الجولان ، وكان هناك تضارب في كل المواقف . سوريا تُصِرّ على الانسحاب الإسرائيلى من كل الجولان — و"بيريز" يتحدث عن إمكانية انسحاب "فى" الجولان وليس "من" الجولان ، وهنالك فارق . و"نتانياهو" يرفض مبدأ الانسحاب رفضا قاطعا .

وكان البت فى هذه المؤجلات المعلقات مسئولية الكنيست الرابع عشر والحكومة التى تنبثق منه .

إذا أعطوا شيئا فى المؤجلات المعلقات ، مشى قطار السلام !

وإذا لم يعطوا ، توقف القطار وربما انخلعت القضبان .

— ١٦ —

وواقع الأمر أن الحديث عن "السلام" فى الظروف القائمة وفى ظل الموازين الراهنة كان تجاوزا فى حق المعنى الذى تدل عليه الكلمة !

ذلك أن السلام لم يكن القضية المطروحة لا من جانب "بيريز" ولا من جانب "نتانياهو" .

إن السلام — لكى لا يَنْسى أحد — يقيمه توازن فى القوى تشعر معه كل الأطراف أن لها مصلحة فيه تعطى من أجلها بمقدار ما تأخذ .

وإذن فإن السلام قسمة متكافئة ، خصوصا حين تلتحق به أوصافه الطبيعية كـ"العادل" و"الشامل" .

وأما حين تميل الموازين وترجح تماما لصالح طرف واحد ، فإن هذا الطرف لا يكون مسعاه من أجل السلام ، وإنما يكون مسعاه من أجل تثبيت وترسيخ انتصاره .. أى أن هدفه يصبح النصر وليس السلام .

والحاصل أن هذه النقطة هى مكمن الاتفاق ومكمن الخلاف فى نفس اللحظة بين "بيريز" و"نتانياهو" . كلاهما يشعر أن إسرائيل فى وضع يسمح لها بتجاوز حدود السلام إلى حدود النصر .

— لكن "بيريز" له رؤية فى تثبيت وترسيخ النصر تعتمد على حلم شرق أوسطى مركزه إسرائيل .

— وأما "نتانياهو" فله رؤية فى تثبيت وترسيخ النصر تعتمد على أولوية أن تكون "كامل أرض إسرائيل" هى القاعدة التى يتحلق حولها الشرق الأوسط بحقائق القوة ، وهذا هو إطار الحلم الشرق أوسطى !

أى أن كلا من الرجلين لا يتحدث عن السلام بالمعنى الذى يتصوره العرب، وإنما يتحدث عن نصر جاء وقته وتسمح الموازين الآن بتثبيته وترسيخه . وفى هذه النقطة وليس فى غيرها ينحصر الخلاف بين الرجلين : ليس عن السلام وإنما عن النصر !

أولهما بحلم "الشرق أوسطية" يفتح الأفق الأوسع .

والثانى بحلم كامل "أرض إسرائيل" يصنع المركز القاعدة !

— ١٧ —

وصَوَّت الناخبون فى إسرائيل ، وظهرت نتائج أصواتهم ، وكان انحيازهم واضحا لـ"نتانياهو" .

● وكانت ردة الفعل الأولى لدى العرب : أنهم فوجئوا .

والحقيقة أن أى متابعة جادة للحركة السياسية فى إسرائيل كانت كفيلة برد المفاجأة عن الذين صُدِموا بها .

— منذ البداية ، وحتى فى حياة "رابين"، كانت الإشارات لصالح "نتانياهو" .

— ثم طرأت اندفاعة عاطفية لصالح "بيريز" بعد قيام الابن بقتل الأب .

— ثم بَطُل مفعول هذه الاندفاعة العاطفية باندفاعة أخرى معاكسة بعد العمليات الفدائية فى القدس وتل أبيب وعسقلان .

— ثم استقرت الحركة لحظة الانتخابات ، ووقع استقرارها متوافقا مع المواقف الأصلية للناخبين الإسرائيليين .

● وكانت ردة الفعل الثانية لدى العرب : أن "نتانياهو" لم يحصل على تفويض من الناخبين يسمح له بالتصرف كما يريد . فكل ما حصل عليه لا يزيد إلا على أقل من واحد فى المائة مما حصل عليه "بيريز" (أى معسكر السلام فى رأيهم) .

وكان ذلك خطأ فى الحساب وفى التقدير .

بالنسبة للحساب فإن الأصوات التى يعتد بها فى السياسة الإسرائيلية هى أصوات اليهود وحدهم وليس غيرهم . وعلى هذا الأساس فإنه إذا حُذِفَت أصوات العرب (ولهم ٢٠٠ ألف صوت ، أو ١٠٪ من مجموع أصوات الناخبين) و٩٠٪ منهم أعطوا أصواتهم لـ"بيريز" ـ إذن فإن نتيجة انتخاب رئيس الوزراء جاءت : ٥٥٪ لـ"نتانياهو" و ٤٥٪ لـ"بيريز".

وهذا خطأ الحساب .

وأما خطأ التقدير فهو تصنيف "بيريز" على أنه قائد "معسكر السلام" دون تدقيق فى هوية الرجل وتاريخه وسياسته ، ودون فرز لنوعية واتجاهات هؤلاء الذين أعطوه أصواتهم .

ولقد كان "مأساويا" ـ أيضا ـ ذلك الشعور الذى عَبَّر عنه بعض العرب بالخسارة تجاه سقوط "بيريز" ، وقد بلغ ذروته داخل جدران مكتب أنشأته السلطة الوطنية فى غزة لمتابعة الانتخابات ، وظل القائمون بأمره يتابعون معركة الانتخابات وحسابات الأصوات صندوقا بعد صندوق وهم فى كل مرة يهتفون لصناديق ترجح فوز "بيريز" . ثم توالت الصناديق وتأكد أن الفائز هو "نتانياهو". وفى غمرة الإحساس بالصدمة نسى أحدهم نفسه ونسى كل شىء ، فإذا هو يقول أمام الصحفيين الذين كانوا يتابعون سير النتائج من مكتبه وقد رفع يديه يأسا وأسى : "لقد خسرنا المعركة" !

وسكت ، لم يحدد من الذى خسر؟ وأى معركة خسرها؟ وما هو موضع الخسارة وحجمها؟

ـ ١٨ ـ

وكان التحليل التفصيلى لمعنى الأرقام التى حملت "نتانياهو" إلى رئاسة الوزارة فى إسرائيل كافيا لإظهار عدة حقائق :

● إن إسرائيل تعرف نفسها كمجتمع حرب ولكنها لا تعرف نفسها كمجتمع سلام.

● إن هذا المجتمع لا يريد أن يدفع مقابلا للسلام ، وإنما يريد ـ كما يقال ـ أن يعطى "السلام فى مقابل السلام" . وهذا معناه بالضبط تثبيت وترسيخ النصر دون حاجة إلى تكافؤ فى المبادئ أو فى المصالح ، بعد أن بطل التكافؤ فى موازين القوى .

● إن هذا المجتمع ليس جاهزا لكى يبت فى المؤجلات المعلقات وهى كثيرة : المستوطنات ـ اللاجئون ـ الحدود النهائية .

ثم إنه ليس مستعدا على الإطلاق لإعطاء شبر من الأرض فى القدس مع العلم أن أقصى ما كان يفكر فيه "بيريز" هو رفع علم عربى ـ أى علم عربى أو إسلامى ! ـ على المسجد الأقصى ، ورفع علم الفاتيكان على كنيسة القيامة . وحينما جرى الإلحاح عليه فى أن الرأى العام العربى يريد القدس الشرقية ، كان اقتراحه ـ جادا ـ إنشاء مدينة جديدة بين رام الله والقدس يطلق عليها اسم "القدس العربية" ، وذلك يحل المعضلة !!

● إن هذا المجتمع يريد إسرائيل دولة يهودية ، ولعل متابعة عدد الأصوات طوال نهار الانتخابات ودراسة حركة الإقبال مع ساعات هذا النهار توضحان :

(أ) إن هذا المجتمع يرفض أن ينجح رئيس وزرائه بأصوات عربية .

(ب) إن هذا المجتمع يرفض ـ مع ملاحظته لاتجاه الأصوات العربية ووزنها ـ أن يقبل تحويل إسرائيل إلى دولة متعددة القوميات .

● إن هذا المجتمع فى إسرائيل لا يستطيع أن يعيش إلا بالأسطورة التوراتية رغم كل مظاهر التقدم فى حياته ، والدليل أنه فى هذه الانتخابات الحاسمة كان المستفيد الأساسى بمعايير القوة هو الأحزاب الدينية . فكل الأحزاب التى تقول بالعصر ـ مهما كانت درجة استيعابها للعصر ـ فَقَدَت من مقاعدها ، سواء فى ذلك "الليكود" أو "العمل". وأما الأحزاب التى ربحت ، فهى أحزاب "شاس" (١٠ مقاعد) ، والحزب "الدينى الوطنى" (٩ مقاعد) ، و"إسرائيل بعاليا" (٧ مقاعد) ، وحزب "المفدال" (وإليه ينتمى قاتل رابين) (٤ مقاعد) ، وحزب "موليديت" (مقعدين) . وهذه هى الأحزاب الدينية المرجحة لأى ائتلاف حكومى فى إسرائيل ، لأن المجتمع فيها لا يأتمن حزبا واحدا بأغلبية كاملة ، أو حزبين مع احتمال ائتلاف صريح بينهما .

● إن هذا المجتمع ـ برغم ذلك ـ يريد وجوها جديدة . وبموت "موشى ديان"، وباغتيال "إسحاق رابين"، وبسقوط "شيمون بيريز" ، فإن الجيل الأول بعد جيل المؤسسين ("وايزمان" ـ "بن جوريون" ـ "بيجن") قد اختفى من الساحة ، بينما يتقدم جيل جديد فى الخمسين من عمره أو أقل . فتلك هى القاعدة التى تؤمن بها المجتمعات التى تعرف قيمة تعاقب الأجيال ، حتى إن كانت من نوع هذا المجتمع الغريب الأقرب ما يكون بكتلته وأفراده ، وتصرفات الكل وسلوكهم ، إلى المجتمعات القبلية رغم التكنولوجيا العالية.

ومن اللافت للنظر أن كل الذين بقوا من الجيل القديم (الجيل الثانى بعد المؤسسين) كانوا وبغير استثناء من معسكر الحرب وليسوا من معسكر السلام . وتكفى فى ذلك الإشارة إلى الجنرالات "شارون"، و"موردخاى"، و"إيتان" ـ وهم جميعا رجال مارسوا القتل بأيديهم

وخارج ميادين القتال فى أكثر الأحوال ، وكلهم اقتحموا طريقهم إلى أهم المواقع فى الوزارة الجديدة عنوة فى معظم الأحيان ، وابتزازا فى أحيان أخرى !

● إن المفارقة الكبرى التى تلفت النظر على ساحة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فى هذه الظروف هى :

إن العرب راجعوا أنفسهم ـ بحق أو بغير حق ـ فى خطاب الحرب ، وقبلوا خطاب السلام .

وإن الإسرائيليين لم يراجعوا أنفسهم ـ عملا وفعلا ـ فى خطاب السلام ، بل إنهم فى لحظة الحقيقة أعرضوا عنه وأثبتوا أنه ليس اختيارهم الطوعى أو الطبيعى !

ـ ١٩ ـ

ومن المدهش ـ خلال هذه الفترة العاصفة ـ أن الإسرائيليين أعادوا كتابة التاريخ مرتين فى ظرف شهور قليلة :

● فـ"الأب" رابين لم يَعُد "البطل" الذى أحسوا بالحزن والعار والقلق والضياع لقتله ، ولكنه كان السياسى المتردد الذى لم يحزم أمره على شىء فى المواقف الكبرى . بل لقد كان بين الإسرائيليين من تَذَكَّروا فجأة أن "رابين" فى حرب ١٩٦٧ ـ لم يكن شجاعا بل فَقَدَ أعصابه واعترته الحُمّى وأصابه القىء ، واضطر بقية القادة ـ وأولهم "عيزرا وايزمان" ـ رئيس الدولة الحالى وقائد الطيران السابق ـ إلى تنحيته عمليا وإدارة المعركة فى غيابه ـ وإن باسمه !

● و"ليا رابين" زوجته التى تُوِّجَت ملكة بالأحزان يوم جنازته ـ لا تستحق عطف أحد لأنها مُهَرِّبَة نقد احتفظت بحساب سرى فى واشنطن ، وكان عليها أن تُعْلِنَه لكنها أخْفَت .

ثم إنها تجاوزت حدودها عندما انفجرت غاضبة لحظة إعلان فوز "نتانياهو" وقالت إنه "لم يعد أمامها إلا أن تحزم حقائبها وترحل عن إسرائيل" .

وتعرَّضت الأرملة لحملة قاسية ، وتطوَّع كثيرون بتحقيق رغبتها فإذا هى تتلقى تذاكر سفر كثيرة ، هدايا مجانية لها ، وكلها ذهاب بلا عودة !

● و"شيمون بيريز" آن له أن يختفى عن الأنظار ، وعلى حزب العمل أن يبحث عن خَلَفٍ لهذا الـ"منحوس" الخاسر باستمرار فى كل انتخابات خاضها . وأمام الحزب أن يختار "حاييم رامون" نائبه أو "إيهود باراك" وزير خارجيته .

ولم يكن هناك ما يغفر لـ"بيريز": لا قربه من "بن جوريون" منشىء الدولة ، ولا إشرافه على المشروع النووى الإسرائيلى حاميها النهائى ، ولا حصوله على اتفاق أوسلو وأبسط ما فيه تحقيق الشرعية القانونية النهائية لقيام الدولة اليهودية ، وهى اعتراف صاحب الحق الفلسطينى بالرضا والقبول والتوقيع بأن ملكيته انتقلت إلى مالك آخر : إسرائيل !

ـ ٢٠ ـ

إن العرب فوجئوا تماما بما كان عليهم أن يقرءوه فى الساحة الإسرائيلية والتحركات البعيدة المدى التى جرت عليها ، مع أن عملية الانتخابات فى إسرائيل كانت لحظة كاشفة بالنسبة لها ولهم .

وقد توزعت ردود فعل العرب بعدها :

● توجهوا إلى واشنطن وهى المهندس المخترع والمحتكر لما يسمّى بـ : مسيرة السلام ـ لكن "كلينتون" كان مهموما بمشاكله ، فهو نفسه فى معمعة معركة انتخابية تشتعل نيرانها ، وقد نجح الحزب الجمهورى فى الاحتفاظ بأقوى قذائفه حتى اللحظة الأخيرة بحيث لا تفقد تأثيرها قبل اللحظة الحاسمة : فهناك فضائح "وايت ووتر" المالية ، وهى تمس "هيلارى كلينتون" زوجة الرئيس ، وهى تعالجها بجلسات الاتصال بالأرواح من داخل البيت الأبيض ـ وهناك فضائح "بيل كلينتون" نفسه ، وهى جنسية فى معظمها ، وهو يعالجها بدواء من نوع الداء فيندفع إلى مغامرات جديدة فى وقت تتكشف فيه علنا مغامرات قديمة .

● وعندما وصلت مخاوف العرب إلى الإدارة الغارقة فى مشاكلها، كان الرد عليها من الرئيس الأمريكى ومن وزير خارجيته هو النصيحة بعدم التسرع فى حكم على "نتانياهو" وأن يعطوا الرجل فرصة (وتناست الإدارة الأمريكية أنها هى التى كانت تحذر العرب من أسوأ الاحتمالات إذا نجح "نتانياهو") . والمدهش أن بعض العرب رددوا نفس الكلام فيما بعد .

● التنادى إلى تحركات سريعة بدا معها العالم العربى وكأنه يرقص لأول مرة فى تاريخه على إيقاعات إسرائيلية .

● ولم يكن ذلك مزعجا فحسب وإنما كان محزنا أيضا .

● إن السياسة المصرية حاولت عن طريق الدعوة إلى مؤتمر قمة أن تنظم رد الفعل العربى وأن تفتح أمامه مداخل أو مخارج معقولة ـ أو تبدو كذلك .

وكان الواقع العربى محكوما بالماضى أكثر من المستقبل ، وكان متأثرا بالنزعات الضيقة للأنظمة أكثر من تأثره برؤى أكثر اتساعا وعمقا لنظام عربى له مقوماته حتى وإن لم يكتمل بناؤه .

واستعاضت السياسة المصرية بالفن ، واستخدمت مذهب "خداع النظر" "Trompe l'oeil" فى الرسم ، وبأساليبه فإن الفنان الذى يريد التحرر من حصار غرفة مغلقة يرسم على الجدران مناظر تعطيه بالخطوط المجسمة والأشكال المحاكية ما يهيئ للعين انطباع الخروج من الحصار، ولعل الفنان يستعين إلى جانب ذلك بكساء الجدران بألواح من المرايا تضاعف الإحساس بالمساحة وتعطى الانطباع بالاتساع ، وهذه المحاولة بالفن قد تكون طيبة ما لم يحاول اختبار حقيقتها أحد ، فالأبواب المرسومة على الجدران ليست مخارج للحركة ، والنوافذ المرسومة ليست مطلات على الطبيعة يجىء منها النور أو النسيم، والمقاعد المرسومة تبدو كالمقاعد لكن محاولة الجلوس عليها مؤدية للسقوط على الأرض . كما أن المرايا سوف تنكسر وتجرح إذا نسى أحد نفسه ومشى إليها يظنها امتدادا رحبا واتصالا بغير عوائق !

— ٢١ —

ومن المزعج أن بعض العرب المشاركين فى مؤتمر القمة أشار من طرف خفى إلى أن سوريا أضاعت فرصة سانحة عندما لم تتوصل إلى اتفاق مع "بيريز" .

وروى أحد الوزراء العرب أن وزيرا إسرائيليا هو "يوسى ساريد" قال له بالنص :

— "نحن الإسرائيليون أناس طيبو القلب نعطى كل شىء ولا نطلب شيئا .

زارنا السادات فى القدس وأعطيناه سيناء هدية .

وحيّانا الملك حسين فحققنا له قبولا دوليا غفر له موقفه فى حرب الخليج، وخرج بفوائد لم يكن ينتظرها .

والتقى بنا عرفات فى أوسلو فأعطيناه غزة وسبع مدن فى الضفة .

ونحن لا نعرف لماذا يتردد الرئيس الأسد .

لماذا لا يجىء إلينا فى القدس ويستفيد من طيبة قلبنا وهى تصل أحيانا إلى حد السذاجة ؟ دعوه يجىء وسوف يرى ما سوف نعطيه له !"

[هكذا بالحرف تقريبا]

إن الأخطار المترتبة على إعراض إسرائيل عن خيار السلام (حتى بالمعايير المطروحة)، ورفضها لتقديم المقابل الضرورى لإعطائه فرصة ، اقترنت لسوء الحظ بتعبيرات أخرى تومئ إلى أن خطاب الحرب ما زال يطرح نفسه على إسرائيل ، وتلك طبيعة الأمور ما دام الإعراض عن خطاب السلام هو الخيار والقرار :

● هناك حصار بالخطر يحيط بسوريا ودليله ذلك التحالف العسكرى بين إسرائيل وتركيا ـ والولايات المتحدة ـ وأطراف إقليمية أخرى . ونلاحظ أن ذلك التحالف مع تركيا مطلب إسرائيلى قديم ، وقد تجددت الدعوة إليه بمبادرة من الجيش التركى وهو أقوى من أى حكومة فى أنقرة حتى وإن رأسها "نجم الدين أربكان" . فالجيش التركى له مهام يحددها الدستور الذى وضعه "أتاتورك" ، وبمقتضاه فإن الجيش هو حامى الدولة التركية والرقيب على ممارساتها فى الداخل وفى الخارج . والجيش التركى يجرى حسابه على أساس موازين القوة فى المنطقة ، واختياره الإسرائيلى فى هذه اللحظة له معانٍ .

● فى نفس الوقت ظهرت حملة ابتزاز ضد مصر تروّج الآن لحكايات بعضها له أساس وبعضها بغير أساس : مقولات تدّعى بأن كل ما يهم مصر هو الخشية على زعامة تظنها حقا لها فى العالم العربى . وتُهَم تَدَّعى أن مصر ما زالت تعمل فى برنامج للصواريخ تشترى له معدات من كوريا بالمخالفة للقانون الأمريكى ، مما يُعَرِّضُها لقَطْع المساعدات الأمريكية عنها .

هناك أيضا مأزق السلطة الفلسطينية التى أعطت ما لديها وانتظرت "بيريز" إلى "حين ميسرة" يعطيها مقابله بعد الانتخابات . ولم يكن فى وسعه أن يعطيها شيئا لو نجح ، بل إنه كان يعد نفسه ليطلب منها ترتيب علاقتها مع الأردن قبل أن يبحث ما يستطيع أن يعطيه لها أو للأردن .

وفى كل الأحوال فقد سقط ، ونجح بدلا منه رجل قال من البداية "إن لديه ما يأخذه وليس لديه ما يعطيه" .

ومن المزعج أن إشارة العطف الوحيدة التى ظهرت من "نتانياهو" إزاء السلطة الفلسطينية صدرت عنه عقب لقائه مع "بيريز" وعندما تسلم منه أسرار الدولة .

وكان ما قاله "نتانياهو" بالحرف :

ـ "لم يكن هناك كثير لا أعرفه . شىء واحد كان بمثابة مفاجأة لم أتوقعها ، وهو حجم التعاون بين الأمن الفلسطينى والأمن الإسرائيلى ، وهذه نقطة تحْسَب لهم!"

— ٢٣ —

لعلى لا أتجاوز إذا قلت بعد هذا كله إننى لست آسفا أن نتائج الانتخابات الإسرائيلية جاءت كما جاءت ، ولا أن "بنيامين نتانياهو" أصبح رئيسا لوزراء إسرائيل مُمَثِّلا لجيل جديد من القيادات مع بقايا من جيل سابق يمثله الجنرالات الثلاثة : "شارون" و"موردخاى" و"إيتان" ، ولا أن دراسة معنى نتائج الانتخابات موحية بهذا الذى تنبئ به كل الشواهد والدلائل .

سببى فى ذلك أن العُرى كَشْف عورة بالنسبة للبشر — لكنه بالنسبة للحقائق غاية العفة ومنتهى الشرف .

ربما أن الحقائق العارية تدفع بعض الدول العربية إلى المراجعة ، أو تدفع الأمة كلها إلى إعادة الفحص والدرس .

أقول ذلك وأستذكر معه حوارا مع الزعيم الفرنسى الأشهر "شارل ديجول" . فذات يوم وكنت جالسا أمامه فى قصر "الإليزيه" فى باريس أسأله عن سياسات أوروبا وسياسات فرنسا ، وكان بين ما قاله بالحرف (وأنقل عن مذكرة كتبتها بوقائع اللقاء):

— "..... إننى لا أرسم سياسة فرنسا على أساس ما يقوله الأطراف ، ولا على أساس ما أظنه من نواياهم ، ولا على أساس ما أعلم أنهم يرتبون من خطط ، وإنما على أساس القدرات الحقيقية لهؤلاء الأطراف .

ليس مُهمّا ما يقوله أحد ، وليس مُهمّا ما يضمره فى سره من نوايا ، ولا ما يضع على الورق من خطط . المهم فى نهاية المطاف شىء واحد . ما هى قدراته ؟ ماذا يستطيع أن يفعل بها ؟ — غير ذلك فى اعتقادى كلام ... مجرد كلام آخذ به علما ولكن لا أرسم على أساسه سياسة ."

هكذا تكلم "ديجول"!

— ٢٤ —

ولقد ذهب "بنيامين نتانياهو" إلى واشنطن ، واستقبله الرئيس "كلينتون" فى البيت الأبيض يوم ٩ يوليو ١٩٩٦ .

وخلافا لما توقعه بعض العرب فإن رئيس وزراء إسرائيل الجديد ذهب إلى المكتب البيضاوى ومعه "قدرة" إسرائيل — يستغنى بها عن كل ما يمكن أن يقول به العرب عن

المبادئ والحقوق والقوانين و"الشرعية الدولية" . كانت حجته الرئيسية حتى وإن لم يذكرها صراحة هى "قدرة" مجتمع استطاع بحضور الإرادة أن يحوِّل فكرة أسطورية إلى وطن قوى ، فى حين أن العرب رغم المبادئ والحقوق والقوانين و"الشرعية الدولية" لم يستطيعوا بغياب الإرادة إلا أن يحوِّلوا وطنا حقيقيا إلى فكرة مشردة !

وبالطبع فإنه لم يكن مستعدا لأية تنازلات ، بل كانت لديه قائمة طلبات ، ولم تكن هذه المرة مالية ، ذلك أن سياسات فتح العالم العربى أعطت إسرائيل ما تريده وربما زيادة . وكانت أهم طلبات إسرائيل ــ بناء على تقرير كتبه الجنرال "دانى ياتوم" رئيس الموساد الجديد ــ هى ضرورة تنسيق خطة لإحكام الحصار حول سوريا وضرب إيران ، لأن هذين البلدين هما عنصر المضايقة الباقى الذى يعكر مزاج إسرائيل !

ويبدو أن بعض العرب تصوروا أن الخطاب الانتخابى لـ"نتانياهو" سوف يتنازل عن غلوائه بعد أن وصل إلى الحكم ، وينزل إلى "المستوى العملى والواقعى" كما يفهمونه . وليس مؤكدا أن هؤلاء العرب استوعبوا عبارة قالها الرئيس الأمريكى "كلينتون" فى المؤتمر الصحفى المشترك بينه وبين رئيس وزراء إسرائيل الجديد ، وجاء فيها : "إننى أتفهم أنك مُقَيَّد بالبرنامج الذى تقدمت على أساسه للناخب الإسرائيلى ، وأعرف أن الأمور تحتاج من الأطراف أن تتأقلم الآن على أوضاع جديدة فى دفع مسيرة السلام" .

ومن سوء الحظ أن السياسة العربية الحديثة ــ فى أواخر القرن العشرين ومطالع القرن الواحد والعشرين ــ تعرف كيف "تتأقلم" لكنها لا تعرف كيف "تتعلم" !

الوثائق

ملحق

وثيقة رقم (١) :

صورة من البرقية التى بعث بها القائم بأعمال السفارة المصرية فى عمان إلى وزارة الخارجية عقب اغتيال رئيس وزراء الأردن "وصفى التل" فى القاهرة، والتوتر الذى نشأ بين البلدين.

سرى جداً

رئاسة الجمهورية العربية المتحدة

برقية رمزية

من	عمـــان	رقم البرقية ٨٦٤٧ (غ)	مجموعة الوقت والتاريخ ٢/ ١٢
الى	للتنفيذ		
	للعـلم		

استدعاني اليوم ٢/ ١٢ صلاح أبو زيد مستشار الملك حسين وسلمني رسالة من الملك حسين الى السيد انور السادات (مرسلة ببرقيتنا التالية) وتحدث بصددها كالآتي :

١ ــ انقذ الموقف برقية السيد الرئيس السادات الى الملك اثر اغتيال التــــل وتجاوب مع سيادته الملك حسين برده عليها والذى ساعد على تهدئـــــة الغليان فى النفوس .

٢ ــ انه يعلم ان القانون المصرى لا يسمح بالنشر الصحفى لدقائق وتفاصيل الجرائم بهذه الصورة التى تؤثر بلا شك على عدالة محاكمة مغتالى وصفى التـــــــل واعطائها انطباعا معينا لدى الرأى العام المصرى والعربى ومن ثم تشكـــل تأثيرا على القضاء .

٣ ــ تساءل عما اذا كان ذلك هو جزاءهم على ما بذلوه من جهود وضغوط وتعليمات مشددة للحيلولة دون انفجار الموقف بين الاردنيين والفلسطينيين .

٤ ــ انهم يعلمون ان هناك عناصر كلما ــ تحركت بوادر التقارب بين القاهرة وعمـــان عملت على هدمه ــ واغتيال التل فى هذا الوقت بالذات واحدة من محـــاولات الهدم هذه .

٥ ــ ابدى صلاح ابو زيد شديد استيائه من الاسلوب الذى تهاجم به اذاعة (العاصفة) من القاهرة الملك حسين وقال اذا صدر ذلك من اذاعة بغداد لتحملناه ولكنــــه يؤلمنا ان يصدر من اذاعة الشقيقة مصـــر .

القائم بالأعمـــال

التاريخ ٣/ ١٢/ ٧١

٠٤٠٠

سرى جداً

وثيقة رقم (٢) :

صورة للصفحة الأولى من نص الرسالة التى بعث بها الملك "حسين" إلى الرئيس "السادات" عن الموقف بين مصر والأردن بعد اغتيال "وصفى التل" رئيس وزراء الأردن فى القاهرة .

سري جدا

رئاسة الجمهورية العربية المتحدة

برقية رمزية

من	عمان	رقم البرقية	٨٩٦٢	مجموعة الوقت والتاريخ	٧١/١٢/٣
الى	التنفيذ				
	للعلم				

سيادة الاخ الرئيس محمد انور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية ..

نبعث لسيادتكم بمحبتنا وتقديرنا وبعد ..

عندما وقعت الفاجعة واغتيل فى حماكم بأرض الكنانة رئيس وزراء المملكة الاردنية الهاشمية طغى احساسنا ببشاعة الجريمة ونذالتها على مشاعر الاسى فى نفوسنا والحزن فى قلوبنا . ولكن كنا لم نفجع لموت شهيدنا ولفقيدنا الكبير - فلاننا نؤمن بأن الموت حق - وقمة الامانى عند كل رجل حق يعيش وهو يكافح فى سبيل مبدئه الثابت ويقضى وهو يكافح من اجل عقيدته الراسخة . واكثر من ذلك اننا غبطناه رحمه الله لانه رحمه الله فاز علينا فى السباق وذهب لملاقاة ربه رجلا كبيرا وشهيدا عزيزا .

وعندما وردتنى برقيتكم الاخوية قدرتها التقدير كله - ورأيتها تعكس امامى بصدق الحكم الشخصى والم شعب مصر العظيم - لحدوث الجريمة النكراء ووقوعها فى ارض مصر - التى ذهب وصفى اليها آمنا مطمئنا - وفى مقر الجامعة العربية التى قصدها رئيسا لوزراء الاردن ووزيرا لدفاعه ليسهم فى التخطيط والحشد والتنظيم لطاقات الجميع فى معركة مصيرهم المشترك . ولقد ملك على ذلك التقدير نفسى بالرغم من كل خلاف نشأ من خطأ مؤسف فاجع فى الفهم مع الشهيد او معنا جميعا فى اردن العرب الذى عرفتموه دائما فى مصر معكم والى جانبكم مثلما هو مع كل العرب طليعة نضال وقدوة وتضحية وعطاء .

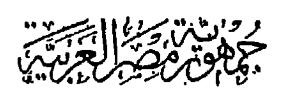
لقد قدرت انك تألم بالذات - كما الم بالذات - وان الشعب العربى فى مصر بمجموعه يأسف ويأسى اسف الشعب العربى فى الاردن وأساه . وليس يهم ماتشعر به من أن وصفى قد ظلم مثلما ظلم الاردن بمجموعه وليس يهم مانعرفه كلنا فى الاردن من ان وصفى عاش طيلة حياته مناضلا شريفا يعز نظيره فى الشرفاء المناضلين لكن الذى اخذ يثير الاسى ويعمق الجراح هو

(يتبع)

سري جدا

وثيقة رقم (٣) :

صورة للصفحة الأولى من البرقية رقم ١٨٣٥ ـ خ التى بعث بها القائم بأعمال السفارة المصرية فى عمان بالنيابة حول "مشروع المملكة العربية المتحدة" للملك "حسين" ـ بتاريخ ١٣ مارس ١٩٧٢ .



سري جدا

برقية رمزية

من عمان	رقم البرقية ١٨٢٥ (غ)	مجموعة الوقت والتاريخ ٢/١٣
إلى — للتنفيذ		
إلى — للعلم		

برقيتنا ١٨٢٣ اليوم ٢/١٣ ..

استقبلني الملك حسين في الثالثة بعد الظهر اليوم وكان قد اتم قبلهـــه اجتماعات له مع سفراء الدول الأربع الكبرى وعديد من كبار الشخصيات الفلسطينيـــة والاردنية . وفيما يلي ما دار في المقابلة :

أولا طلب الملك من صلاح أبو زيد قراءة نص رسالته الموجهة الى الملوك والرؤســاء العرب . كما سلمني الملك بالاضافة الى رسالته الى السيد الرئيس أنـــور السادات رسالة الى السيد معمر القذافي باعتبارنا ممثلين لمصالح ليبيـــا في الاردن (نص الرسالة ارسلت ببرقيتنا رقم ١٨٢١ بتاريخ اليوم) .

ثانيا بعد ذلك تحدث الملك سارداً الآتي :

١ — ان وعد بلفور كان يشمل في مضمونه الضفة الشرقية للاردن ورغم ضآلة امكانياتنا العسكرية في حرب ٤٨ الا أننا تمكنا من الابقاء على الضفة الشرقية والضفـــة الغربية في أيد عربية .

٢ — كما أننا لم نتوان رغم الاختلافات التي كانت قائمة بيننا وبين اشقائنا قبـــــل ٦٧ من أن نبادر بالمشاركة في معركة ١١٦٧ بصرف النظر عن مدى الاستعداد المسبق لها وعن نتائجها المحتملة وتركنا الأمر للقيادة المشتركة .

٣ — ولقد ساندنا في انشاء منظمة التحرير الفلسطينية عن رضاء وان كنا أخطأنـــا في ترك الحبل لبعض العناصر التي أخذت تروج لعقائد دخيلة وكادت وحدتنا الوطنية أن تتصدع لولا أن بادرت بتصحيح الأوضاع .

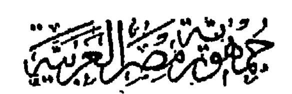
(يتبع)

سري جدا

وثيقة رقم (٤) :

صورة للصفحة الأولى من البرقية رقم ١٨٣١ ــ خ بتاريخ ١٣ مارس ١٩٧٢ ، إلى وزارة الخارجية المصرية من عمان تتضمن رسالة من الملك "حسين" إلى الرئيس "السادات" يشرح فيها "مشروع المملكة العربية المتحدة" .

سري جدا



برقية رمزية

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٢٤٦-١٩٧١-٠٠٠٠٠٤

من عمان	رقم البرقية ١٨٣١ (غ)	مجموعة الوقت والتاريخ ٣/١٣
الى	للتنفيذ	
	للعلم	

بسم الله الرحمن

سيادة الأخ الرئيس محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية ـ حفظه الله ـ القاهرة

نبعث لسيادتكم بتحيتنا وعميق تقديرنا واحترامنا وبعد ،

فلقد كنا كتبنا لسيادتكم فيما مضى مقترحين لقاء الاخوة القادة العرب في اجتماع يكرس للبحث في قضيتنا المشتركة وتدارس المراحل المختلفة الاخيرة التي مرت بها وما اكتنف تلك المراحل من تطورات وخطوات تترك اثارها وانعكاساتها على القضية ذاتها .

ولقد كان من شأن الأوضاع السائدة في المجموعة العربية ان لا تساعد على تحقيق ذلك الاقتراح لغايات القدرة بعيدة من الوصول بها الى ما يتيحه بها اجتماع الرأي وتوحيد الكلمة وتنسيق الجهد وهو ما ندعو الله القدير ان يجعلنا مجتمعين على تحقيقه والوصول اليه .

لقد كان الاحتلال الاسرائيلي في المنطقة العربية عام ١٩٦٧ ضربة حاسمة بقضيتنا المقدسة وهزيمة الوجدان العربي بأسره من الاعماق .

وعلى بشاعة ما خلفه ويخلفه الاحتلال من الاثار في كل شبر من الاراضي المحتلة الغالية فان حقيقة تلك الاثار تتجسد أكثر ما تتجسد في الضفة الغربية من الاردن حيث يعيش أكثر من مليون انسان مرارة الاحتلال والآمه ويواجهون أساليبه المختلفة في البطش والضغط والاغراء .

(يتبع)

سري جدا

وثيقة رقم (٥) :

صورة من البرقية رقم ١٦٨١ التى أرسلها القائم بأعمال السفارة الأمريكية فى مسقط إلى وزارته حول طلب منظمة التحرير وضع قوات لها فى جزيرتى "طنب" و "أبو موسى" .

001940

EXDIS

CHARGE'

CHRN

VV E [illegible]
PP RU[illegible]
DE RU[illegible] [illegible]
ZNY SSSSS ZZH
P [illegible]
FM AMEMBASSY [illegible]
TO RUEHC/SECSTATE [illegible]
INFO RU[illegible]
RUEHAD/USINT [illegible]
RU[illegible]/AMEMBASSY [illegible]
RUQMHA/AMEMBASSY [illegible]
RUQMKW/AMEMBASSY KUWAIT [illegible]
RUQMAM/AMEMBASSY [illegible]
RUQMHR/AMEMBASSY TEHRAN [illegible]
BT
S E C R E T MUSCAT 1681

EXDIS

E.O. 12065: RDS-[illegible] (WILEY, MARSHALL W.) OR-M
TAGS: PINS, PLOS, MU, [illegible]
SUBJECT: ALLEGED PLO REQUEST FOR USE OF T[illegible] AND ABU MUSA

1. (S-ENTIRE TEXT)

2. IN COURSE OF DISCUSSION OF OMAN STRAIT OF HORMUZ STUDY SEPT. 18 ([illegible]), [illegible] FOREIGN MINISTRY UNDER SECRETARY YUSUF AL-ALAVI TOLD AMBASSADOR THAT OMAN HAD RECENT REPORT FROM [illegible] PALESTINIAN SOURCE "HIGH IN PLO" (PLEASE PROTECT FULLY) THAT [illegible] REP. IN TEHRAN, HANI HASSAN, HAS ASKED IRANIAN AUTHORITIES FOR PERMISSION TO STATION PLO UNITS ON TUNBS AND ABU MUSA ISLANDS. ALAVI DOES NOT KNOW WHAT REPLY, IF ANY, IRANIANS HAVE GIVEN TO PLO REQUEST, BUT [illegible] REQUEST ITSELF, IF TRUE, IS CAUSE FOR CONCERN. AMBASSADOR AGREED AND PROMISED TO PROVIDE ANY READ-OUT WE MAY HAVE ON SUBJECT.
3. ACTION REQUESTED: WE WOULD APPRECIATE ANY INFORMATION DEPARTMENT OR EMBASSY TEHRAN CAN PROVIDE ON REPORTED PLO REQUEST.
WILEY
BT
#1681

وثيقة رقم (٦) :

صورة للصفحة الخامسة من التقرير الـذى وجـد فـى السفارة الأمريكية فى طهـران والـذى سـلمه منـدوب عن الطلبة الإيرانيــين للإمـام "الخمينـى" ،ويحـوى اتهامات لمسئولين فى منظمة التحرير .

M/1 is another spy code named " M.G.Martyr/1 " whose connection with B/1 will be explained in other sections.

2. The documents do not state when he was hired by the C.I.A, but reports indicate that he must have been a long time hireling. It should also be noted that the substantial part of these documents deal with Barge's activities in Iran,therefore his reports in other fields are not available at the Tehran intelligence collecting station.

3. How " Barge " came to Iran: following the victory of the Islamic Revolution,Islamic Republic's support for the Palestinian Revolution paved the way for a serious co-operation between the Islamic Revolution and the Palestinian Liberation Organization. Thus a PLO delegation arrived in Iran to provide the Islamic Revolu_ tion Guards corps with the essential military training. Barge was a high ranking member and probably the head of the delegation.

4. According to another document Barge is seriously anti-communist, but no clue is given as to the reason for his opposition or attitude. This, however, has been an effective factor in his collaboration with C.I.A.

5. Barge's salary prior to May 22 , 19[illegible] was about 2000 lebanese Lira, but the Centeral Intelligence Agency considered his financial problems and increased his salary to 4000 leba_ nese Lira which is equal to Rials 100,000.

وثيقة رقم (٧) :

صورة للصفحة الأولى من برقية وزارة الخارجية الأمريكية رقم ١٢٠٦٥ بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩٧٩ ، وهى عبارة عن توجيهات صادرة من مكتب وزير الخارجية بخصوص نشاط منظمة التحرير الفلسطينية ، والتشديد على حظر الإتصال معها .

001454

POL

CHRG
CHRH

```
NNNNV   ESB021 PFANED
PP RUQMFR
DE RUEHC #2785/01 2481717
ZNY SSSSS ZZH
P 051640Z SEP 79
FM SECSTATE WASHDC
TO INTSUM COLLECTIVE PRIORITY
INFO RUEATRS/ TREASURY DEPARTMENT WASHDC PRIORITY 2751
RUEKJCS/DOD/ISA WASHDC PRIORITY
BT
S E C R E T SECTION 01 OF 04 STATE 232785/01
```

E.O. 12065: GDS 9/4/85 (MONTVILLE, JOSEPH V.)

TAGS: PEPR, IS, PLO

SUBJECT: INTSUM [illegible] - SEPTEMBER 4, 1979

LONDON FOR GLASPIE
PARIS FOR NICHOLAS MURRAY
DOD/ISA FOR PANTON
OTHER ADDRESSEE FOR CHIEFS OF MISSION

WARNING NOTICE - SENSITIVE SOURCES AND METHODS INVOLVED NOT RELEASABLE TO FOREIGN NATIONALS

1. ENTIRE TEXT: SECRET.

2. AMBASSADOR YOUNG'S MEETING WITH TERZI, FOLLOWING ARAFAT'S MEETING WITH KREISKY AND BRANDT HAS GIVEN THE PLO A SHOT IN THE ARM. THE WAY IN WHICH A NUMBER OF COUNTRIES PERCEIVE THESE DEVELOPMENTS MAY HAVE ACCELERATED THEIR MOVEMENT TO UPGRADE THEIR RELATIONS WITH THE PLO OR TO INTENSIFY THEIR CONTACTS WITH ITS REPRESENTATIVES. ARAFAT, IN TURN, BELIEVES HE HAS GAINED INCREASED RESPECTABILITY. MOREOVER, HE APPEARS TO BE REASSESSING THE ROLE OF VIOLENCE IN ACHIEVING PLO/FATAH POLITICAL GOALS.

3. RECENTLY, THE PLO HAS SEEN ITS DIPLOMATIC CAMPAIGN GAIN MOMENTUM.

--FRENCH FOREIGN MINISTER FRANCOIS-PONCET HAD A WELL-PUBLICIZED MEETING WITH PLO POLITICAL DEPARTMENT CHIEF FARUQ QADDUMI. (ARAFAT HOPES TO VISIT FRANCE SOON. [illegible] BUT FRANCE INDICATES THIS WILL NOT BE LIKELY).

--[illegible] OF THE

3

وثيقة رقم (٨) :

صورة للصفحة الأولى من التقرير الذى كتبه الدكتور "وليد خالدى" عن أول اجتماع بينه وبين "أبا إيبان" بتاريخ ١٣ مايو ١٩٨٦ .

NOTES ON MEETING OF MAY 13, 1986

The substantive part of the discussion started with agreement by A and W in their critical view of current US policy. A pointed out that annexation of the territories is impossible; it is rejected by Labor; in the recent Knesset vote, only 7 MK's voted for it. He went on to criticize the refusal of the US to meet with the Jordanian-Palestinian delegation; the US has failed in its role as friendly mediator because it does not deviate from the Israeli position. Israel made a mistake in not permitting the delegation from the territories to go to meet with Hussein and Arafat in Amman. W agreed with the assessment of the US role and saw no prospect for movement by Washington. The US political elite, he said, sees no reason to challenge the Israel lobby; the State Department is paralyzed by the same considerations. The initiative, he said, will have to come from the parties themselves - why wait for the third party?

In response, A brought up the political constraints in Israel. Peres has gone as far as he can go. He continued: We need to have an encounter - we have never reached the table. An encounter is a sign of legitimacy for Israel - it can lead to a melting away of all inhibitions, as happened in the Egyptian-Israeli treaty. Arabs pay too much attention to our semantic obduracies - these are for domestic consumption, not for negotiation. There is too much use of words (presumably on both sides) - all of which is done for the sake of images, to prove that the other is culpable. There is too much effort to resolve in advance of negotiation issues that can only be resolved in negotiations. - In this connection, he minimized the importance of getting the Palestinians to accept Resolution 242, describing it as a pre-Palestinian document. He expressed disappointment with Hussein's speech - a moving description of his predicament, but basically querulous and not constructive. I believe he said that, prior to that point, the parties were very near (to agreement?).

W remarked that Hussein's version of what happened is not congruent with the Palestinian version. (W was in Jordan at the time.) The Americans did not promise to support this or that in return for PLO acceptance of 242 - they wanted 242 without trimmings - which would then allow for Palestinian participation in an international conference. But that was actually the sticking point. Arafat said that was impossible - he wanted some mention of self-determination (in a Jordanian context) in return. This was turned down by Hussein and the US.

A wanted to know if he was right in assuming that the specific words were decisive - i.e., self-determination rather than legitimate rights. W replied "self-determination with a gloss." Hussein, he said, wants to

وثيقة رقم (٩) :

صورة من الخطاب الرسمى الذى بعث به السيد "ياسر عرفات" إلى وزير خارجية السويد يبلغه فيه قبوله للشروط الأمريكية لبدء الحوار مع المنظمة ، والتى عرضت عليه من وزير الخارجية الأمريكى عن طريق السويد - بتاريخ ٧ ديسمبر ١٩٨٨ .

PALESTINE LIBERATION ORGANIZATION
STOCKHOLM



منظمة التحرير الفلسطينية
ستوكهولم

Mr. Sten Andersson
Minister for Foreign Affairs
SWEDEN

S E C R E T

REf.

STOCKHOLM December 7, 1988

Dear Mr Sten Andersson,

In continuation to our discussions that took place in Stockholm on the 6th and 7th of December 1988 about the text presented by Mr. Shultz, the Secretary of State for Foreign Affairs of the United States of America concerning the beginning of dialogue between the PLO and the American Administration I hereby enclose the text that we present and that has my approval and which I have signed. We will work to have it issued officially after being presented to the Executive Committee later on.

Please accept the expression of my highest consideration,

Yasser Arafat
Chairman of the Executive Committee
of the Palestine Liberation Organization

Postadress
Tulegatan 49
S 113 53 Stockholm
Sweden

Telefon
08/34 41 14 FAX
08/14 01 60 Off

Postgirokonto
410 01 46 0

Telex
13848 QODSONA S

وثيقة رقم (١٠) :

صورة للنص المرفق بخطاب السيد "ياسر عرفات" إلى وزير خارجية السويد تعلن فيه المنظمة إعترافها بقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وتعهدها بالعيش مع إسرائيل فى سلام ، ونبذ الإرهاب ، وهو مذيل بإمضاء السيد "ياسر عرفات" .

SECRET

As its contribution to the search for a just and lasting peace in the Middle East, the Executive Committee of the Palestine Liberation Organization, assuming the role of the Provisional Government of the State of Palestine wishes to issue the following official statement:

1. That it is prepared to negotiate with Israel within the framework of the International Conference a comprehensive peace settlement of the Arab-Israeli conflict on the basis of U.N. resolutions 242 and 338.

2. That it undertakes to live in peace with Israel and other neighbours and to respect their right to exist in peace within secure and internationally recognized borders, as will the democratic Palestinian State which it seeks to establish in the Palestinian occupied territories since 1967.

3. That it condemns individual, group and State terrorism in all its forms, and will not resort to it.

Y. Arafat
7/12/88

وثيقة رقم (١١) :

صورة من مذكرة بخط رئيس الوفد الإسرائيلى "روبنشتين" خاصة بإجراءات التفاوض بين الوفد الإسرائيلى والوفد الأردنى ـ الفلسطينى المشترك .

11.12.91

Joint Jordanian-Palestinian delegation dealing with common issues*; [illegible] Israel 14, Jor-Pal 14

Two tracks: team for Israeli-Jordanian matters headed by a Jordanian, includes Palestinians.*

team of for Interim Self-Government Arrangements headed by a Palestinian, includes Jordanians.**

; teams to be rather small 7-7

meetings of: Joint Jor-Pal. del.

Team

Team

on a continued basis

* common issues - e.g. - procedural issues of common interest, coordination, reporting; joint may have a steering group or working groups on joint matters as necessary.

** teams may appoint subcommittees as necessary.

وثيقة رقم (١٢) :

صورة من مقترحات الوفد الإسرائيلى خاصة بنوع من تقسيم العمل الذى يراه الوفد الإسرائيلى بين الأردنيين والفلسطينيين فى الوفد المشترك ، وهى بخط "روبنشتين" رئيس الوفد الإسرائيلى .

General Comments

1. It is our wish to reach without delay the beginning of talks leading to substance.

2. We recognize the two tracks, per the invitation to the process.

3. At the same time, it is essential to abide by the invitation also concerning the Joint Jordanian-Palestinian Delegation. There is no way to abolish its existence. The agreed rules of the process cannot be changed.

4. Our ideas have been, this time too, drafted as to take into consideration in a fair way not only our own concerns but the concerns of our counterparts as well.

5. We would like to urge you to make progress in an honorable way, based on mutual respect and understanding, and to start the negotiations on substantial matters. There is a lot of work to be done.

6. We suggest to begin today with a joint meeting, then consequent meetings of the two tracks (order at your choice), then a joint meeting to discuss procedural aspects before adjourning for the week end.

وثيقة رقم (١٣) :

صورة للصفحة الخامسة من محضر اجتماع الرئيس "حسنى مبارك" مع السيد "ياسر عرفات" بتاريخ ٧ يناير ١٩٩٣ .

ان نفكر ... مثلا ان يتم زيادة عدد الذين يقال
انه تم ابعادهم خطأ .
٢) اسراع المحكمة بارجاع ٧٠ ــ ٨٠ شخصا .
٣) العمل على اختصار فكرة الابعاد من سنتين
الى شهور .
فى مقابل هذا سيطلب :
١) مشاركة الفلسطينيين فى المفاوضات .
٢) السماح بدخول المعونات للمبعدين .
و بغير ذلك لن يتراجع رابين عن موقفه .
اذا تصاعد الصراع بين الليبراليين و رابين
تتعقد المشكلة لان البديل تسوميت .

د. اسامه : نحاول تحريك المبعدين نحو الشريط الحدودى
بدلا من مكانهم الان ... مثلا يوضعوا فى
مدرسة فى مرجعيون ، و يكونوا تحت سيطرة
اسرائيل ..
الاسرائيليون يريدون معرفة هل المنظمة
ستتحالف مع حماس ؟؟ .

الرئيس ابو عمار : الاسرائيليون هم الذين خلقوهم و اوجدوهم .

اللواء عمر : رابين وضع مخطط للتخلص من حماس .

الرئيس ابو عمار : الانتفاضة حينما تفجرت لم تكن حماس موجودة فهم
الذين اوجدوها ، و الخليجيين يدعمونها .

د. اسامه : بدأ الجميع يصحون ..

وثيقة رقم (١٤) :

صـورة للصفحـة الثانيـة مـن محضـر اجتمـاع الرئيـس "حسنى مبارك" مع الســـيد "ياسر عرفات" بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٩٣ .

الرئيس مبارك : رابين لابد ان يعطى شيئا و انا سأرسل له رسالة خاصة مع الدكتور اسامه باكر ، و لقد كان لابد ان تتخذوا هذا القرار الجرئ رغم انه خيار صعب ، الرئيس كلينتون قال لى لدى من المشاكل الكثير فى العالم فانتهزوا الفرصة ..
و انا قلت له ان لدى الفلسطينيين ظروف صعبة و قرارهم بالمشاركة ليس سهلا ..
و بالمناسبة انا سأحاول الذهاب للسعودية بعد اول مايو ، و سأتحدث معهم ، و سأذهب فى زيارة للشيخ زايد ، و اريد ان اعرف كم المبلغ الموجود عند العقيد القذافى .

الرئيس ابو عمار : عند العقيد القذافى ١٦٨ مليون دولار ، اما بالنسبة للامارات فهناك صندوق الشيخ زايد للخير به مليار دولار ، و الشيخ زايد قال لسفيرنا انه مستعد ان يعطى لفلسطين ١٠٠ مليون دولار ، و انا لى عند حكومة دبى ٤٩ مليون دولار .

الرئيس مبارك : يتابعها الوزير عمر سليمان .

الوزير عمرو : كريستوفر اصدر بيانا بكامل عناصره وفق ما هو مطلوب ، فهو ضد سياسة الابعاد و مع حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم .

الرئيس مبارك : سأرسل الوزير عمر سليمان الى الامارات و بالمناسبة وزير العدل للامارات سألتقى به بعد قليل

بعد عودته من الوطن المحتل ١٩٤٨
الجمعة ١٩٩٢/٤/٢٢

رسالة من OB

أنه "YR"

١- كان توجه YR ايجابياً ومتجاوباً بوجه عام، وهو يقدر الخطوة الفلسطينية ويدرك انها لم تكن خطوة سهلة.

٢- يدرك YR كذلك المخاطر الأمنية التي يتعرض لها الوفد الفلسطيني وقد أعرب عن استعداد حكومته لمساعدتهم في تأمينهم بالأسلوب الذي لا يحرج حضرات الأعضاء أمام مواطنيهم ولا يجعلهم عرضة للادعاء بأنهم يعيشون تحت حراسة اسرائيلية (مستعدة لتوفير كل حماية ظاهرة أو غير ظاهرة حسبما ترى ذلك مناسباً)

٣- سعيد YR بمرونة قيادتنا العاقلة بإبعاد الـ...

لا يصح ان تثار بصدده نقطتان :-

الأولى: المصير النهائى للأرض المحتلة

(نشأة الدولة) ~~[illegible]~~

وانسحابهم

الثانى: ~~[illegible]~~ وضع القدس

(المطلوب الآن السكوت) الشرقية

ملاحظة: بالنسبة للانتخابات فإن إسرائيل

فى التعجيل بإجرائها وسلم بأن سكان

القدس الشرقية سوف يشتركون

فى الانتخابات وما يتفق عليه

هو التفاهم حول الصيغة التى يرضى

بها الطرفان

فيما يتعلق بالإبعاد "وحدد 1/2" بالتعهد

حدثت خروقات عدة للسيد [illegible]

وثيقة رقم (١٥) :

صورة للصفحتين الأولى والثالثة من التقرير الذى أملاه المستشار " أسامة الباز" على السفير الفلسطينى "سعيد كمال" حول محادثاته فى إسرائيل ، وهو بخط السفير "سعيد كمال" ـ بتاريخ ٢٣ أبريل ١٩٩٣.

Palestine Liberation Organization
Embassy of Palestine
Cairo



منظمة التحرير الفلسطينية
سفارة فلسطين
القاهرة

Ref. : ....
Date : ٩٢/٤/١٥ الخميس

الرقم : ....
التاريخ : ....

خاص وضروري

الأخ الرئيس القائد أبو عمار

المحترم

أود إبلاغكم عن جواب YR للسيد الرئيس بخصوص الخارجية بما يلي:

"أنه YR وافق على هذا الموضوع

بحيث يتم كتبه داخل غرفة المفاوضات

وعلى هامش من خلال مجموعة يتم تعيينها

من الطرفين ولديهم اختيار الوقت الملائم

للعمل من جانبهم"

نرجو الإبلاغ للسابق من خلالكم

33 EL-Nahdha st . -Dokki Tel: 3602997/8 Fax.: 3602996 ٣٣ شارع النهضة - الدقي ت: ٣٦٠٢٩٩٧/٨ فاكس: ٣٦٠٢٩٩٦

وثيقة رقم (١٦) :

صورة للرسالة التى كتبها السفير الفلسطينى فى القاهرة "سعيد كمال" إلى السيد"ياسر عرفات" عن مكالمة تليفونية مع الوزير"عمرو موسى" يبلغه فيها بمعرفة "رابين" بقناة أوسلو.

Palestine Liberation Organization
Embassy of Palestine
Cairo



منظمة التحرير الفلسطينية
سفارة فلسطين
القاهرة

Ref. : ....

Date : ....

الرقم : ....

التاريخ : ....

مكالمة من الوزير عمرو موسى معي منذ

ساعة بالضبط

كما أبلغني بخصوص مفاوضات المستشار

والمصري بالشيخ ابو العلا بالقول

"أنه YR مطلع عليها ولا مانع، نفكر في طريقة

الافراج والوقت المناسب لذلك

وانه سيعلم حضرة الرئيس بذلك"

اخي

اخوكم :

33 EL-Nahdha st. . Dokki Tel: 3602997/8 Fax.: 3602996

٣٣ شارع النهضة ـ الدقي ت: ٣٦٠٢٩٩٧/٨ فاكس: ٣٦٠٢٩٩٦

وثيقة رقم (١٧) :

صور للصفحة الأولى من الورقة الأمريكية التـى تقـدم بها وزير الخارجية الأمريكى للتوفيق بـين وجهـات النظر فـى محادثـات واشـنطن ــ بتـاريخ ٣٠ يونيـو ١٩٩٣ ، وعليها تأشيرة بخط السيد "ياسر عرفات".

June 30, 1993

DRAFT

The Palestinian and Israeli sides reaffirm their commitment to the peace process launched at Madrid. They seek to negotiate their differences and create a peaceful and just future in which Israel and Palestinians will live side by side, in peace, for generations to come. Toward this end, the two sides will negotiate a Declaration of Principles to guide the negotiations on interim self government arrangements. The following principles and/or areas of emerging agreement could be included in the completed Declaration of Principles, subject to agreement on the full Declaration.

THE GOAL OF THE NEGOTIATIONS

The two sides agree that the objective of the peace process is to reach a just, lasting and comprehensive peace settlement achieved through direct negotiations based on United Nations Security Council Resolutions 242 and 338. The negotiations between the Israeli and Palestinian sides will be conducted, per the Madrid letter of invitation, in two phases: the first phase of the negotiations is directed toward reaching agreement on Palestinian interim self-government arrangements for a period of five years; and the second phase of the negotiations, beginning the third year of the period of interim self government arrangements, will be directed toward reaching agreement on permanent status. The two sides concur that the agreement reached between them on permanent status will constitute the implementation of Resolutions 242 and 338 in all their aspects.

The two sides agree that the negotiating process is one and that its two phases are interlocked. They further agree that neither the negotiations nor the agreements reached for the interim period nor anything done in the interim period will be deemed to preempt or prejudge the outcome of permanent status negotiations. Furthermore, both sides will make their best efforts to avoid actions during the interim period that undermine the environment for the negotiations. The two sides agree that all options for permanent status within the framework of the agreed basis of the negotiations -- United Nations Security Council Resolutions 242 and 338 -- will remain open. Once negotiations on permanent status begin, each side can raise whatever issue it wants, (including the question of Jerusalem)*

The AGENDA For permanent status negotiations should include the question of Jerusalem

وثيقة رقم (١٨) :

صورة للمذكرة التى قدمها وزير التجارة الأمريكى "رونالد براون" بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٩٣ إلى أمين عام جامعة الدول العربية ، وعليها توقيعات ٧٧ من أعضاء الكونجرس يطالبون فيها برفع المقاطعة الإقتصادية العربية عن إسرائيل .

United States Senate

COMMITTEE ON THE JUDICIARY
WASHINGTON, DC 20510-6275

November 4, 1993

Esmat Abdel Meguid
Secretary General
Arab League
1100 17th Street, N.W.
Washington, D.C. 20036

Dear Secretary General Abdel Meguid

We write to inform you of our profound disappointment in the Arab League's decision to continue the Arab boycott of Israel. We had expected that, as a complement to the momentous breakthrough in Israeli-Palestinian reconciliation, the Arab nations would support the peace process with an appropriate confidence building measure and put an end to the economic boycott.

The failure to end the boycott could frustrate and impede the implementation of the Israel-P.L.O. agreement, signed in Washington on September 13, 1993. That agreement placed significant emphasis on economic development in the West Bank and Gaza -- development which will be linked to Israel's economy. The Arab states' unwillingness to do business with Israel and companies that do business with Israel will make it that much harder to create a viable and stable economy in the West Bank and Gaza.

In addition, the secondary and tertiary boycott -- the refusal to do business with companies doing business in and with Israel -- imposes burdens on the U.S. economy. Thus, the continuation of the boycott is clearly not helpful to U.S. support for the peace process. The American people may question why the United States takes both a political and economic leadership role in the effort to achieve peace at the same time the Arab states penalize American companies doing business in and with Israel.

It is unshakable American policy to seek an end to the Arab boycott. In the recently enacted 1994 foreign aid appropriations act, Congress called for the Arab League to immediately and publicly renounce the primary, secondary and tertiary boycott of American firms that have commercial ties to Israel. Congress also called upon the President to aggressively seek an end to the

boycott and report to Congress on actions taken toward that goal. We will continue to urge our allies to press for an end to the boycott, and our Secretary of State is committed to raising this issue in all bilateral discussions with members of the Arab League.

We urge you to reconsider your decision and to stand behind the peace process and the Israel-P.L.O. agreement by ending the Arab boycott of Israel.

Sincerely,

Frank R. Lautenberg	Charles E. Grassley
Edward M. Kennedy	J. Bennett Johnston
Harris Wofford	Bill Bradley
Jeff Bingaman	Larry Pressler
Paul S. Sarbanes	John D. Rockefeller IV
Max Baucus	Paul Simon
Daniel K. Inouye	Richard G. Lugar
Conrad Burns	Connie Mack

Russell D. Feingold

John F. Kerry

Barbara Boxer

Christopher J. Dodd

David L. Boren

Joseph I. Lieberman

Tom Harkin

Charles S. Robb

Thomas A. Daschle

Patty Murray

Howard M. Metzenbaum

Bob Packwood

Phil Gramm

Dave Durenberger

Larry E. Craig

Alfonse M. D'Amato

Dirk Kempthorne

Dennis DeConcini

Malcolm Wallop

Thad Cochran

Arlen Specter

Orrin G. Hatch

James M. Jeffords

Carl Levin

Donald W. Riegle, Jr.

Kent Conrad

Barbara A. Mikulski

Trent Lott

John McCain

Jesse Helms

Slade Gorton

Paul Wellstone

Bob Graham

Daniel Patrick Moynihan

Nancy Landon Kassebaum

Christopher S. Bond

Hank Brown

William S. Cohen

Frank H. Murkowski

Paul Coverdell

John W. Warner

Patrick J. Leahy

Ben Nighthorse Campbell

Ernest F. Hollings

John Glenn

Daniel K. Akaka

John B. Breaux

Jim Sasser

Claiborne Pell

Alan K. Simpson

Byron L. Dorgan

Joseph R. Biden, Jr.

Carol Moseley-Braun

Herb Kohl

Howell Heflin

Dale Bumpers

Mitch McConnell

Robert Dole

Dianne Feinstein

George J. Mitchell

Wendell H. Ford

وثيقة رقم (١٩) :

صورة لرسـالة مـن رئيـس وزراء إسـرائيل " إسـحاق رابين" إلى السيد "ياسر عرفات" يعلن فيها اعتـراف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشـعب الفلسطيني - بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٩٣ ، وموقعة مـن "رابين" بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٩٣ .

September 9, 1993

Mr. Chairman,

In response to your letter of September 9, 1993, I wish to confirm to you that, in light of the PLO commitments included in your letter, the Government of Israel has decided to recognize the PLO as the representative of the Palestinian people and commence negotiations with the PLO within the Middle East peace process.

Sincerely,

Y. Rabin
Yitzhak Rabin
Prime Minister of Israel

10.9.93

Yasser Arafat
Chairman
The Palestinian Liberation Organization

DECLARATION OF PRINCIPLES ON
INTERIM SELF-GOVERNMENT ARRANGEMENTS

The Government of the State of Israel and the ~~Palestinian~~ P.L.O. team (in the Jordanian-Palestinian delegation to the Middle East Peace Conference) (the "Palestinian Delegation"), representing the Palestinian people, agree that it is time to put an end to decades of confrontation and conflict, recognize their mutual legitimate and political rights, and strive to live in peaceful coexistence and mutual dignity and security and achieve a just, lasting and comprehensive peace settlement and historic reconciliation through the agreed political process.

Accordingly, the two sides agree to the following principles:

وثيقة رقم (٢٠) :

صورة الصفحتين الأولى والأخيرة من إتفاق إعلان المبادئ فى واشنطن ، وتلاحظ التصحيحات التى تمت عليه فى آخر لحظة ــ بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ .

2. All protocols annexed to this Declaration of Principles and Agreed Minutes pertaining thereto shall be regarded as an integral part hereof.

DONE at Washington, D.C., this thirteenth day of September, 1993.

For the Government of Israel:

For the P.L.O.:

Witnessed By:

The United States of America

The Russian Federation

محمد بن حمد آل ثاني

Mohamad Bin Hamad Al-Thani

الدوحة في ١٩٩٤/١/٢٦

الفخامة الأخ الرئيس/حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية الشقيقة حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

لقد فوجئت دولة قطر كما فوجئت الأمة العربية جمعاء بما تناقلته وكالات الأنباء العالمية حول اجتماع الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني وزير خارجية دولة قطر مع وزيري الخارجية والطاقة الإسرائيليين في لندن ،

لقد عقدت الدهشة ألسنتنا وخيّم علينا جميعاً الحزن والأسى تماماً كما فوجئتم فخامتكم والشعب السوري الشقيق والأمة العربية كلها بنبأ وفاة نجلكم باسل رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

إن سياسة دولة قطر التي اختطها حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى حفظه الله ورعاه وباركها وأشرف على وضعها موضع التنفيذ سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ولي عهده الأمين تتناقض تماماً مع هذا الحدث المفجع لأنها كانت ولا زالت تؤمن بعدم إقامة علاقات سياسية كانت أو اقتصادية دون عودة الحق العربي كاملاً غير منقوص سواء أكان هذا الحق سورياً أو لبنانياً أو فلسطينياً أو أردنياً ، فالقضية واحدة والآمال واحدة والآلام واحدة ،

إن دولة قطر انطلاقاً من إيمانها بالقومية العربية وعودة الحق المغتصب لأهله وعدم حصول إسرائيل على أية مكتسبات قبل تنفيذ كل قرارات الشرعية الدولية بما فيها قرارات مجلس الجامعة العربية التي قضت بعدم النظر في تطبيع العلاقات معها قبل انسحابها الكامل من كافة الأراضي العربية المحتلة ، ترى بأن وزير خارجيتها لا يمثل إلا نفسه ، وأن تصرفاته محكومة بتهوره وبدوره تصرفه وحبه للمادة وخدمة مصالحه الشخصية ولا نستغرب أن نسمع قيامه بزيارة لإسرائيل في أية لحظة من اللحظات للحصول على مزيد من المكاسب المادية لمصلحته الخاصة ليشبع نهمه وجشعه ،

ت : ٨٢٤٩٧٧ – ٨٧٥٨١٢ – فاكس : ٨٧٥٢٢٧ – ص. ب : ٧٦١٤ – الدوحة – قطر
Tel. : 824977 - 875812 — Fax : 875227 — P. O. Box : 7614 — DOHA - QATAR

وثيقة رقم (٢١) :

صورة من خطاب بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٩٤ بعث به الشيخ " محمد بن حمد آل ثـاني " شـقيق حـاكم دولة قطر إلى الرئيس "حافظ الأسد" يعرب فيه عن استنكاره لاجتماع وزير خارجية قطر مع مسئولين إسرائيليين في لندن .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد بن حمد آل ثاني

Mohamad Bin Hamad Al-Thani

« إن دولة قطر يا فخامة الرئيس ستبقى على الدوام كعهدكم بها أمينة على عروبتها وتوحيدها ملتزمة بالموقف العربي الموحّد تجاه اسرائيل حريصة على حقوق الشعب العربي في تراب وطنه مؤمنة بحق الشعوب بالحرية والاستقلال أينما كانت .

وإننا نعاهد فخامتكم بأن يبقى موقفنا هذا ثابتاً ملتزماً صارماً في تنفيذه حتى يجئ الحق ويزهق الباطل .

إن التاريخ كما تعلمون يا فخامة الرئيس هو سجل الشعوب ولن يرحم كل من فرّط أو قصّر في حق أمتنا العربية المجيدة بل سيلقى به على هامشه ليكون عبرة لمن يعتبر .

وصدق الله العظيم حين قال في كتابه العزيز « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (صدق الله العظيم) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أخوكم

محمد بن حمد آل ثاني

نسخة/لمعالي السيد/عبدالحليم خدام

نائب رئيس الجمهورية العربية السورية

ت : ٨٢٤٩٧٧ – ٨٧٠٨١٢ – فاكس : ٨٧٥٢٢٧ – ص.ب : ٧٦٤٤ – الدوحة – قطر

Tel : [illegible]

القدس ٦/٢/٩٤

سيادة الأخ الرئيس أبو عمار المحترم
القائد العام رئيس اللجنة التنفيذية
تحية عربية طيبة،

تقرير اجتماع مع شمعون بيريز

انتهى قبل قليل لقائي مع وزير الخارجية شمعون بيريز. الكلام لنفس ما يلي في الشقة، برفقة مساعد شمعون بيريز:

- "لقد اتفقت مع السيد عرفات في القاهرة على اللقاء وعليه أتوقع أن يتم إنجاز هذا الاتفاق. من جهتي أنا ملتزم بعقد اللقاء."

"كل ما وعدت به السيد عرفات حول لقاء واشنطن سيتم الالتزام به"

- موضوع الشرطي الفلسطيني على الجسر ومساحة منطقة أريحا تركت للسيد رابين.

- في موضوع المعابر اتفقت مع السيد عرفات على أرضية مبادئ أنا ملتزم بها وهي:

1) Invisibility
2) غرفة تفتيش منفردة للإسرائيليين وغرفة تفتيش منفردة للفلسطينيين
3) لن يكون وجود فلسطيني في "الغرفة الإسرائيلية" ولن يكون وجود إسرائيلي في "الغرفة الفلسطينية"
4) عند استدعاء أي فلسطيني للتحقيق ستتبلغ الشرطة الفلسطينية مسبقاً. وإذا تم اعتقاله سوف تبلغ الشرطة الفلسطينية ثانية ويمكن انزال الاستدعاء بعد التحري والتحقيق.

- وحول سؤال لي عن معنى الـ Overall Security الذي يطالب به الجانب الإسرائيلي على المعابر والقوات الوطنية استنكر السيد بيريز هذه المطالب.

وثيقة رقم (٢٢) :

صورة للتقرير الذى بعث به الدكتور "أحمد الطيبى" بخطه من القدس إلى السيد "ياســر عرفـــات" عن اجتماعه مع "شيمون بيريز" بتاريخ ٦ فبراير ١٩٩٤.

- "رئيس الحكومة رابين معني بأن يلتقي بالأخ الأول في القاهرة مع السيد عرفات حول الأمور التي يتم الاتفاق حولها"

- "ما يتم الاتفاق حوله فهذا نهائي وما تبقى من أمور فنية سنتفق حولها من ناحية المبدأ ونترك الطواقم بالتفصيل"

- ستكون إدارة مدنية فلسطينية "للمناطق المحتلة" في قطاع غزة.

- من المتوقع أن نتوصل لكل شيء في القاهرة، بعض الأمور ستبقى للبحث مستقبلاً ولكننا سنتفق على ما هو وصولنا للوضع النهائي ومستوفين في ذلك.

- موضوع الكبرى "منطقة الارتباط" غير محلول لأنه سيعقد الأمور ويصعب على السيد عرفات وعلينا.

- السيد بيريس أضاف أنه "لا يعتقد أنه سيحصل اتفاق إذا لم يكن هناك اجتماع مع السيد عرفات".

- يقترح أن يكون الاجتماع غداً ليلاً (؟)، الوزير بيريس سيطير إلى جنيف يوم الأربعاء القادم.

- "كل ما تسمعونه عن خلافات بيني وبين السيد رابين ليس صحيحاً، الكل يتشاورون معه ونحن متفاهمون".

وعلمت أن الرئيس [illegible] بعد اجتماعي اليوم مع السيد بيريس والمكالمة مع الوزير (حكومة رابين) تقدر بأنه عدم عقد الاجتماع سيكون أثره سلبياً أكثر من عقده واللقاء حتى وإن كنت مقتنعاً بأنه لن يتم الاتفاق على كل شيء. انطباعي أنه سيكون تقدم معقول في القاهرة.

أخوكم
أحمد الطيبي

وثيقة رقم (٢٣) :

صورة للتقرير الذى كتبه السيد"سعيد كنعان" بخطه من نابلس بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٩٤ عن رد فعل الجماهير الفلسطينية لتوقيع الاتفاق التنفيذى لإعلان أوسلو فى القاهرة .

الاثنين ١٣/٦/٩٤
من: سعيد كنعان

اسرد لكم فيما يلي بعض الملاحظات السريعة حول الاتفاقية الاخيرة:

١ - اللقاء بالاخ ابو عمار كان لها الاثر الكبير في القبول الجماهيري للاتفاقية وخاصة.

٢ - وبالرغم من ذلك كانت التخوفات واضحة ولكن هناك فرح عارم لها.

٣ - التصريحات التي سبقت الاتفاقية من قبل العديد من مسئولينا كانت مشوشة ودفعت الناس بأن هذا التشويش كان كلاما في كلام.

٤ - نفس هذه التصريحات كانت تشير الى آمال واسعة وتوقعات كبيرة ولذلك فان الاحباط سيكون عادة اي تراجع عن هذه التوقعات ربما كان سببا. ويخشى الناس من مناورات اسرائيلية لعدم تنفيذ اتفاقها [illegible].

٥ - لاحظ الناس وركزوا على ترتيب المعابر وان الامور الشكلية [illegible] الاسرائيليين [illegible] لم يكن مطلبا كما وعدونا.

٦ - يلاحظ عدم وجود شرطة فلسطينية خارج المعابر عند المغادرة وعند الجسور نفسها. وكانت التوقعات ان يسمح بوجود هذه الشرطة عند الجسر نفسه حيث يراه الجانب الاردني واعتبارها كمظهر سيادي وللكرامة.

٧ - يلاحظ غياب الاعلام الفلسطينية على الجانبين بصورة [illegible] وملفتة حيث ترك ذلك للاسرائيليين [illegible] وللتفسيرات السلبية.

٨ - يجب اشعار الجماهير بضرورة الصبر وطول النفس بدلا من التصريحات المتفائلة اكثر من اللازم. ان المعارضة [illegible] لم يحقق اهدافنا.

٩ - لوحظ فرق بين النص الانجليزي والذي يحتوي على الدوريات داخل اريحا مشتركة. بينما الترجمة [illegible] في النص العربي تقول "يجوز تسيير دوريات مشتركة".
وهذا يشكك الجماهير بالاتفاقية وتفسيرها [illegible] ضرورة [illegible] الوثيقة [illegible]

١٠ - عموما حالات تفاؤل [illegible] عند [illegible] والاتفاقية [illegible] بسهولة. [illegible]
ظاهرة [illegible] الاعلام العام [illegible]

AGREEMENT ON THE GAZA STRIP AND THE JERICHO AREA



MAP NO. 3 **SAFE PASSAGE ROUTES BETWEEN THE GAZA STRIP AND THE JERICHO AREA.** SCALE 1:250,000

Tel Aviv-Yafo

Jerusalem

VERED YERICHO CROSSING POINT

EREZ CROSSING POINT

Gaza

DEAD SEA

JORDAN

AMMAN

MAP NO. 3

DONE AT Cairo THIS 4th Day OF May 1994

FOR THE PLO

FOR THE GOVERNMENT OF THE STATE OF ISRAEL

WITNESSED BY:

THE UNITED STATES OF AMERICA

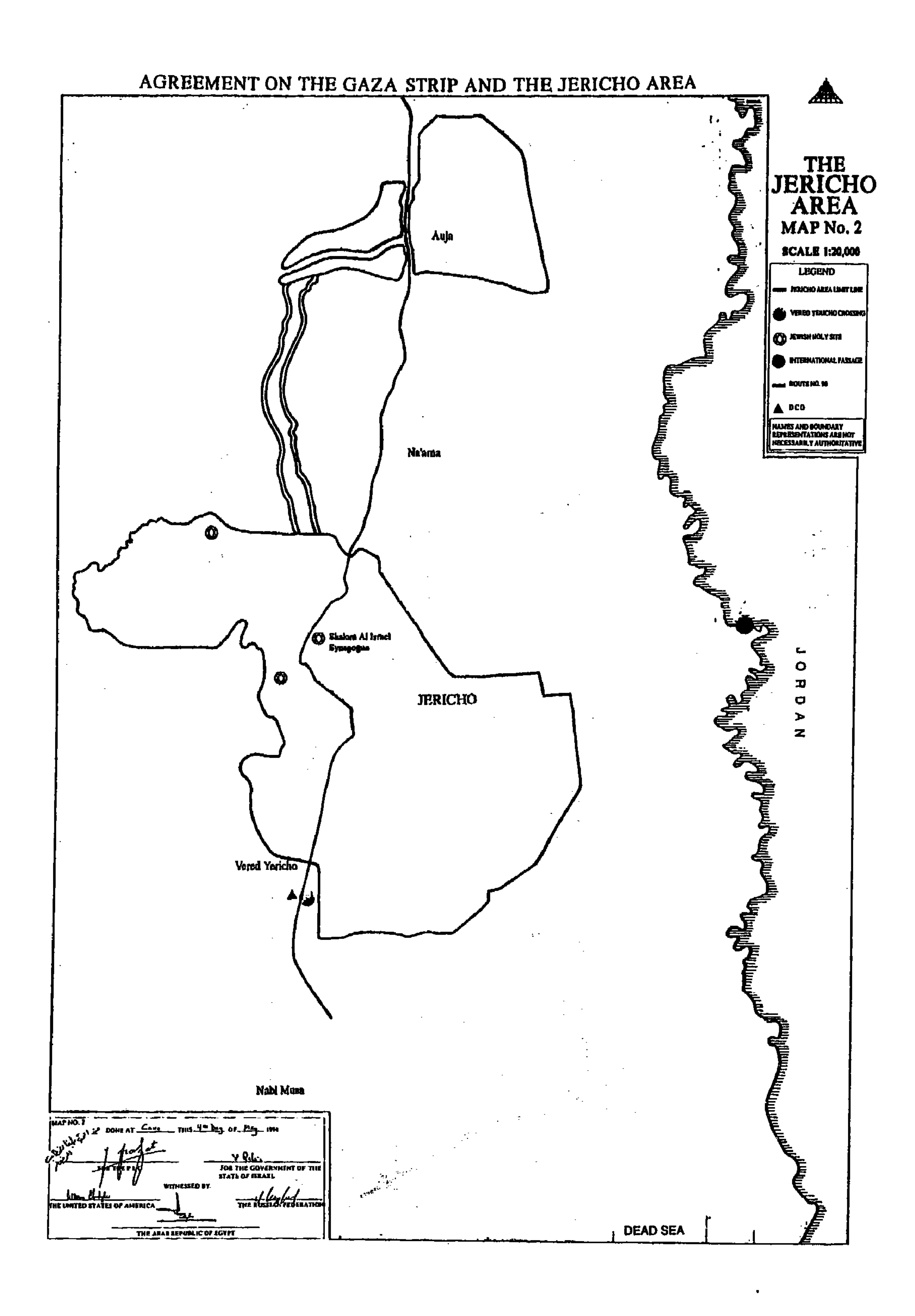
THE RUSSIAN FEDERATION

THE ARAB REPUBLIC OF EGYPT

NAMES AND BOUNDARY REPRESENTATIONS ARE NOT NECESSARILY AUTHORITATIVE

وثيقة رقم (٢٤) :

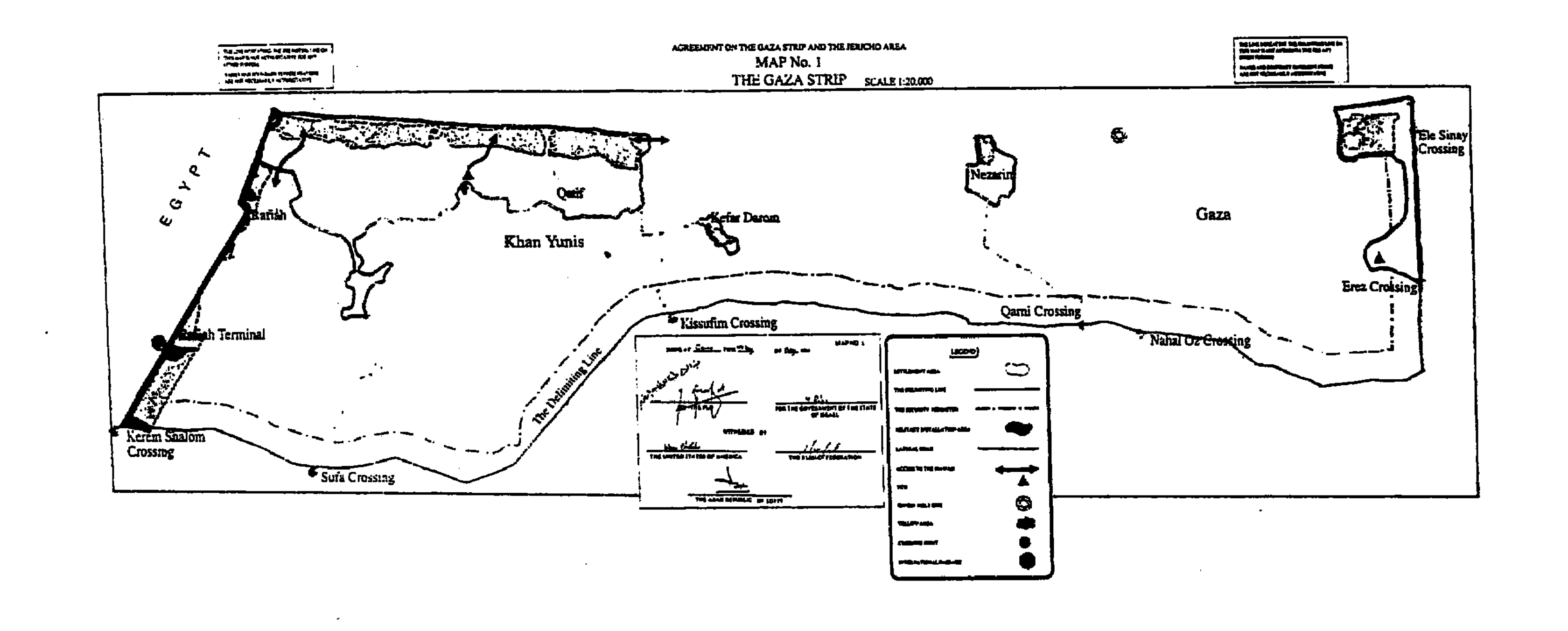
صورة التوقيعات على اتفاق ٩ فبراير والخرائط الملحقة به ، بما فى ذلك تحفظ السيد "ياسر عرفات" وتوقيعه .


AGREEMENT ON THE GAZA STRIP AND THE JERICHO AREA
THE JERICHO AREA
MAP No. 2
SCALE 1:20,000
LEGEND
JERICHO AREA LIMIT LINE
JEWISH HOLY SITE
INTERNATIONAL PASSAGE
DCO
NAMES AND BOUNDARY REPRESENTATIONS ARE NOT NECESSARILY AUTHORITATIVE
Auja
Na'ama
Shalom Al Israel Synagogue
JERICHO
Vered Yericho
Nabi Musa
JORDAN
DEAD SEA
DONE AT
THIS
OF
WITNESSED BY
FOR THE GOVERNMENT OF THE STATE OF ISRAEL
THE UNITED STATES OF AMERICA
THE ARAB REPUBLIC OF EGYPT

AGREEMENT ON THE GAZA STRIP AND THE JERICHO AREA

MAP No. 1

THE GAZA STRIP SCALE 1:20,000



MAP NO.

DONE AT Cairo THIS 4th Day OF May 1994

FOR THE PLO

FOR THE GOVERNMENT OF THE STATE OF ISRAEL

WITNESSED BY,

THE UNITED STATES OF AMERICA

THE RUSSIAN FEDERATION

THE ARAB REPUBLIC OF EGYPT

وثيقة رقم (٢٥) :

صورة لبطاقة الدعوة لمؤتمر الدار البيضاء المنعقـد مـن ٣٠ أكتوبر حتى أول نوفمبر ١٩٩٤ .

The Middle East / North Africa Economic Summit

Casablanca 30 October–1 November 1994

under the presidency of

His Majesty King Hassan II of Morocco

with the support and endorsement of

Bill Clinton
President of the
United States of America

Boris Yeltsin
President of the
Russian Federation

convened by the

COUNCIL ON FOREIGN RELATIONS

WORLD ECONOMIC FORUM

وثيقة رقم (٢٦) :

صورة للخطاب الذى بعث به الرئيس الأمريكى إلى ملك المغرب بتاريخ أول يوليو ١٩٩٤ يشكره فيه على استضافة المغرب لمؤتمر عن "التنمية الإقتصادية فى الشرق الأوسط" .

THE WHITE HOUSE

WASHINGTON

July 1, 1994

Your Majesty:

I want to express my deepest thanks and sincere appreciation for your willingness to host a conference on Middle East economic development in Marrakech later this year.

This conference will be an important forum for discussing the region's economic prospects and promoting business and investment opportunities. It will also make a significant contribution to advancing the peace process. President Yeltsin and I have been asked by the Council on Foreign Relations to be Honorary Co-Chairmen of the conference. I am pleased to accept this position and hope that this will assist in the success of the meeting.

Your Majesty, I have long valued your wise counsel and courageous leadership in the cause of Middle East peace. We both share a commitment to a lasting and comprehensive peace which will enable all the peoples of the region to enter a new future of cooperation and prosperity. It is my hope that the planned conference will have the widest possible regional participation. In this way, it will be possible for the conference to explore in detail how our common vision of peace can be realized.

Sincerely,

Bill Clinton

His Majesty Hassan II
King of Morocco
Rabat

وثيقة رقم (٢٧) :

صورة من أحد مرفقات بطاقة الدعوة لحضـور مؤتمـر الدار البيضـاء تطلب بيانات مفصلة عن الراغبين فـي حضوره .

INFORMATION
FOR PARTICIPANTS BOOKLET
Please type your texts in English
and fill in only the space provided.

The Middle East /
North Africa
Economic Summit

1. Title (Mr Ms Dr etc)

2. FAMILY NAME
In capital letters
(underline letter by which name should be alphabetized)

3. First name
and middle initial if used

4. Position title

5. Company or organization name

6. Full address
(street, city, postal code, country)

7. Telecommunications: Area code
Central telephone
Direct telephone
Central telefax
Direct telefax
Telex

8. Company or organization description
products, services, turnover (sales)

9. Projects
If you are looking for or offering business projects and proposals, please describe briefly here

10. Parent (if relevant)
or main shareholder
Parent's country

11. Your personal nationality

12. Is your company:

	yes	no
a member of the World Economic Forum	☐	☐
a member of the Council on Foreign Relations	☐	☐
Are you a special guest of one of our sponsors?	☐	☐

If so, which one? ______

Name of accompanying spouse as it should appear on the badge:

IMPORTANT
Please attach two photographs of yourself and two of your spouse (if accompanying you) printing your name clearly on the back

2 for your badge

2 for your spouse's badge

رقم الإيداع : ٩٦/١٠١٢٩
I.S.B.N. : 977 - 09 - 0360 - 4

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل

سلام الأوهام

أوسلو ـ ما قبلها وما بعدها

... وكان "بيريز" هو الذى لمح الفرصة الممكنة فى "أوسلو" ، واستطاع بوسائل متعددة أن يُقنِعَ أو يَجُرَّ وراءه "رابين" الذى اقترب مترددا من الفرصة ، يرفضها فكرا وشعورا لكنه يعلل نفسه بأنها قد تفى بحاجته إلى بعثرة انتفاضة الحجارة بعد أن استحال كسر عظامها ، وقد تحتوى خطر التيارات الإسلامية بعد أن بدأ نموها المتزايد يقلقه ، وتكرار عملياتها الفدائية يؤرقه ، خصوصا وأنها تواجه الجيش الإسرائيلى بنوع من المقاومة لا يعرفه ، وأكثر من ذلك لا يفهمه ، إلى جانب أن تكاليفه المعنوية والمادية عالية ، والوقاية منه بالغة الصعوبة ، كما حكى "رابين" مرة فى آخر زيارة له للقاهرة ، مضيفا : "كيف يستطيع جيش الدفاع أن يخطط علميا ضد أناس يتسابقون بجنون إلى الموت ؟" !

وفى أبسط الفروض فقد كان "رابين" يأمل فى حالة توقيع اتفاق مع منظمة التحرير ـ أن السلطة الوطنية سوف تحمل عنه مطالب حياة السكان الفلسطينيين حيث مراكز تجمعهم الكثيفة فى غزة والضفة . وبالتوازى مع ذلك فقد كان يتطلع إلى أن هذه السلطة الوطنية سوف تحمل عنه مهمة القضاء على "المقاومة " !

محمد حسنين هيكل



الغلاف للفنان حلمي التوني

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

سعر النسخة ثلاثون جنيها